التفسير الموضوعي

لسور القرآن العظيم

تأليف

عبد الحميد محمود طهماز

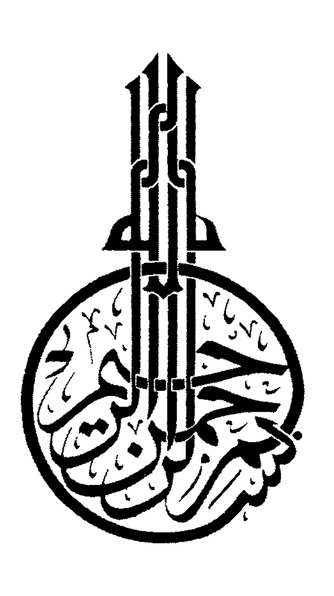
المجلد الرابع:

ويحتوي على تفسير هذه السور

هود - يوسف - الرعد - إبراهيم - الحجر - النحل - الإسراء



دمشق



التفسير الموضوعي

لسور القرآن العظيم

٤

دار القلم
دمشق

أسَّسَها:
محمّد علي دَوْلة
سنة ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م

الطبْعَة الثانية
١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤م

تُطلب جميع كتبنا من:

دار القلم - دمشق
هاتف: ٢٢٢٩١٧٧ فاكس: ٢٢٥٥٧٣٨ ص.ب: ٤٥٢٣
www.alkalam-sy.com

الدار الشامية - بيروت
هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١)
ص.ب: ١١٣/٦٥٠١

توزّع جميع كتبنا في السعودية عن طريق:

دار البشير - جدّة
٢١٤٦١ ص.ب: ٢٨٩٥ هاتف: ٦٦٥٧٦٢١ فاكس: ٦٦٠٨٩٠٤


ISBN 978-9933-29-024-5



تفسير سورة هود

المَسْؤُوليَّةُ والجَزَاءُ في سُورَةِ هُود

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم، على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فإنَّ سلوكَ الإنسان في حياته ينبع من نظرته إلى الحياة، ومدى إدراكه لحكمة خلقه وجوهر وجوده فيها.

ولابدَّ للمؤمن بالله تعالى أن يرى الحياةَ دارَ اختبار وتكليف، وأنه مسؤولٌ عنها أمام الله تعالى، لأنَّه سبحانه عليم حكيمٌ، يتنزَّه عن العبث واللعب، فما خلق الخلق وجعله على هذا النظام المحكم البديع للعبث واللعب، ما خلقهم سبحانه إلا بالحق، ليؤدوا رسالةً كلَّفهم بها، ويَعْمُروا الأرض بطاعته وعبادته.

وإنَّ انصرافَ أكثر الناس عن هذه العقيدة، وتجاهلَهم لهذه الحقيقة، هو السببُ الرئيس لكلِّ شقاء وفساد وبَغْي في الأرض، فالحياة من دون تكليف ومسؤولية حياةٌ تافهةٌ فارغةٌ لا تُطاق، تورث الإنسان الشعور بالإحباط والسآمة والملل، وقد تدفعه إما إلى اليأس والحَيرة، أو إلى الإجرام والظلم والبغي والعدوان، وهو واقعُ أكثر الناس في ظل الحضارة المادية المعاصرة، التي أقيمت على عدم الشعور بالمسؤولية أمام الخالق العظيم، وعدم الالتزام بأحكام دينه وشريعته.

إنَّ تعريفَ الناس بمسؤوليتهم أمام خالقهم من أعظم القضايا التي اهتم بها القرآن الكريم، بعد قضية توحيد الحق سبحانه، وقلَّ أن تمرَّ بنا سورة من سور القرآن الكريم، إلا ونرى فيها تقريراً لهذه المسؤولية، أو دعوة للتصديق بها، أو ردّاً على الجاحدين لها.

وقد برز هذا الموضوعُ في سورة هود، كموضوع أساس لها، دارت معظمُ آياتِها في فلَكه، فجاءت بحق **سورة المسؤولية والجزاء**.

ولا عجبَ أن ترى النبيَّ ﷺ، وهو أعظمُ الناس معرفة بالله تعالى وخشية له، أكثر الناس تقديراً لهذه المسؤولية، حتى روي عنه من طرق متعددة: أنَّه لما رؤي الشيب في رأسه الشريف ﷺ وقال له أبو بكر الصديق رضي الله عنه: عَجِلَ إليك الشيبُ يا رسولَ اللهِ! قال: «**شيَّبتني هودٌ، والواقعة، والمرسلات، وعمَّ يتساءلون، وإذا الشمس كورت**» [رواه الترمذي (٣٢٩٣)].

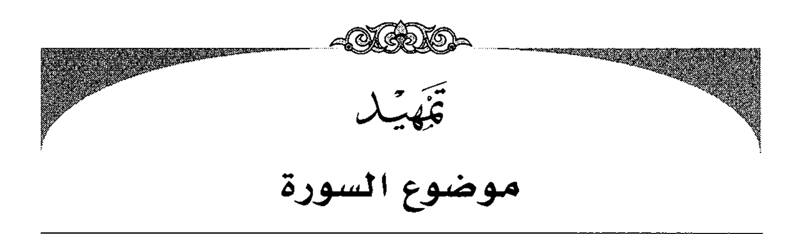
إنَّ الناسَ في هذا العصر في أمسِّ الحاجة إلى التصديق والإقرار بالمسؤولية والجزاء، فهي السبيل الوحيد لصقل نفوسهم، وتقويم سلوكهم، وتعريفهم بقيمة حياتهم، وجوهر وجودهم، وإبعاد الحيرة والقلق والاضطراب عن نفوسهم وقلوبهم الحائرة القلقة المضطربة، إنَّها بَرُّ الأمانِ، وسُلّم النجاة، لأولئك الحائرين الشاردين التائهين، الذين أفرزتهم الحضارة المادية المعاصرة، وضيَّعتهم الفلسفاتُ الوجودية الفارغة، فما أحوجهم إلى مثل هذا التوجيه.

وقد جاء هذا التفسير ـ بحمد الله ـ في ثلاثة فصول، منسجمة تماماً مع سياق الآيات في السورة:

- **الفصل الأول: التكليف والمسؤولية.**
- **الفصل الثاني: قصص من التاريخ.**
- **الفصل الثالث: الاستقامة على التكليف والتحذير من الظلم.**

أسأل الله تعالى أن يثبّتنا على الحق، وينوِّر قلوبنا بأنوار التنزيل الحكيم، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

۞ ۞ ۞



تمهيد

موضوع السورة

الناسُ في سورة هود فريقان:

أولهما: الفريق المؤمن بالله تعالى، الذي يرى أنَّ حياتَه في الدنيا للابتلاء والتكليف، وأنَّه مسؤول عنها أمام الله تعالى يوم القيامة، فمثابٌ أو معاقبٌ.

والفريق الثاني: كافِرٌ بالله تعالى، جاحدٌ لفضله وإحسانه، سلخ نفسه عن الشعور بأي تكليف ومسؤولية، والحياة في نظره لا قيمةَ لها ولا معنًى، سوى أنها فرصةٌ يُحقِّقُ فيها أهواءه ونزواته، ثم تنتهي كما انتهت حياة مَنْ سبقه.

ولا شكَّ أن بين الفريقين تبايناً كبيراً في الاعتقاد والأخلاق والسلوك والمعاملات، ومنشأ هذا التباين: الاختلافُ الكبيرُ بينهما في النظر إلى الحياة.

فالمؤمن: ملتزِمٌ بدين الله وشرعه، متَّبعٌ لرسالة أنبيائه، إن أصابته ضرَّاءُ صبر، ولجأ إلى الله تعالى، وإن أصابته سرَّاءُ شكر، وظلَّ ملتزماً بمنهج الاستقامة.

أما **الكافر**: فهمُّه قاصرٌ على الدنيا وما فيها من زينةٍ وبهارجَ وزخارفَ، يَؤُوْسٌ في الضرَّاء، وبَطِرٌ فخورٌ في السراء: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود].

فشتان ما بين الحياتين، حياة أساسها التكليف والمسؤولية، وحياة لا أساس لها ولا هدف، فمثل ما بين الفريقين من تباين كما بين البصير والأعمى: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٢٤].

ثم أوردت السورة بعض قصص الأنبياء مع أممهم، إظهاراً للتباين بين

الفريقين بشواهد من واقع الحياة البشرية على الأرض، وأظهرت من خلال عرضها لهذه القصص طبيعة هذه المسؤولية وأبعادها، ومدى تأثيرها على استمرار الحياة البشرية وبقاء العمران.

ثم أبرزت فيما عقَّبت به على قصص الأنبياء مع أممهم، حجمَ وعُمْقَ الجزاء المترتب على هذه المسؤولية، وأنه سيكون وافياً، وأنه يبدأ من الدنيا، ويمتدُّ إلى الآخرة، وأنه لا يستفيدُ من هذه القصص، ولا يعتبِرُ بها إلا الذين يؤمنون بمسؤوليتهم عن الحياة الدنيا أمام الله يوم القيامة.

كما أن الانسلاخَ عن هذه المسؤولية يؤدي إلى نشر الفساد والترف والظلم في المجتمعات البشرية، ثم يؤدي بها إلى السقوط والهلاك.

والناس كما كانوا في الدنيا فريقين، سيكونون يوم المسؤولية والجزاء فريقين أيضاً: الأشقياء والسعداء، وسيكون مصيرهما متبايناً تبايناً جذريّاً.

فموضوع المسؤولية والجزاء يظلِّلُ آيات السورة من أولها، عندما أبرزت جانبَ الإنذار في رسالات الأنبياء، إلى آخرها عندما تحدثت عن مصير السعداء والأشقياء يوم القيامة.



الفَصْلُ الأَوَّلُ

التَّكْلِيفُ والمَسْؤُولِيَّةُ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ

إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

- **إحْكامٌ وَتَفْصِيْلٌ:**

بدأ ﷻ سورةَ هودٍ كما بدأ من قبلها سورةَ يونس، ومن بعدِها سورةَ يوسف، بالحروف المقطَّعة، بقوله الكريم:

﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾﴾.

﴿الٓر﴾ وهي من الحروف النورانية المقطعة، التي سبق الكلام عليها في أوّل سور: البقرة وآل عمران والأعراف.

﴿كِتَٰبٌ﴾ أي: هذا كتابٌ، أو هو كتابٌ عظيمُ الشأن، جليلُ القدرِ.

﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ أي: نُظِّمت نَظْماً متقناً متناسقاً محكماً جميلاً، كالبناء المحكم، الذي لا خلل فيه ولا نقص، فلا اختلافَ بينها ولا تعارُضَ ولا تنافُرَ، فكلُّ كلمةٍ فيها في موضعها المناسب لها، والمنسجمة تماماً مع ما قبلها

وما بعدها، وكلُّ حرفٍ له دلالته ووقعه وجَرْسه، بلا زيادة فيها ولا نقص، وكل آية في موضعها المناسب لها في السورة، مما يجعلها تنسجم تماماً مع سياقها وسباقها ومعناها.

وهي محكمةٌ أيضاً في معانيها البليغة، وحججها القاطعة، الدالة على أنها كلام الله تعالى، فإحكامها في نظمها ومعانيها.

والإحكامُ في القرآن الكريم كامل في حروفه وكلماته وآياته وسوره، وهو إحكامٌ معجز، يدلُّ على أنه كلام الحكيم العليم جلَّ وعلا، كما قال تعالى في أول **سورة يونس**: ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾.

وكقوله ﷻ أيضاً: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

وقال ﷻ أيضاً: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فُصّلت].

وجاءت آياتُ القرآن الكريم محكمةً، مع أنها نزلت منجَّمةً على مدى ثلاث وعشرين سنة، نزلت أحياناً الآية أو بعضها، أو الآيات من السورة، أو السورة كاملة، على حسب الوقائع والمناسبات، فما أعظم إحكامه، فهو محكمٌ في الأرض بعد التنزيل، كما أنه محكمٌ في السماء.

وفي القرآن الكريم إحكام باهر معجز أيضاً، مع أنَّ فيه تأصيلاً وتفصيلاً، فتأصيل القواعد والمبادئ، وتفصيل الأحكام وتفريعها، لم يؤثر في الكتاب الكريم على إتقانه وإحكامه وانسجامه، ولهذا قال تعالى:

﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ أي: جُعِلَتْ مفصَّلةً، مشتملةً على كل ما يحتاج إليه الإنسان في دينه، ففيه بيان العقيدة الصحيحة مع أدلَّتها العقلية والنقلية، وبيان العبادات والأحكام وسائر التكليفات، فضلاً عما فيه من أخبار الأمم السابقة، والأمثال والحكم والمواعظ، وما سيكون في الحشر والمعاد... إلخ، كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

وقد يكون المراد من التفصيل نزولَ القرآن منجَّماً، فـ ﴿ثُمَّ﴾ على هذا المعنى تفيدُ الترتيب الزماني، وقدَّمنا أن نزوله منجَّماً لم يؤثر على إحكامه وإتقانه، لأنه:

﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ أي: أحكم آياته حكيمٌ وفصَّلها خبيرٌ، عالم بحقائق الأمور جلَّ وعلا.

- **نذارة وبشارة:**

وفي هذا الإحكام والتفصيل دعوة إلى عبادة الله الواحد الأحد، والانقياد لدينه سبحانه وشرعه، واتباع رسله:

﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝٢﴾.

﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ﴾ أي: لئلا تعبدوا إلّا الله، فتُقبِلوا على عبادته وحده، وتُعْرِضوا عن عبادة غيره.

﴿إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ أي: إنني لكم من جهته تعالى **نذير**، أنذركم عذابه إن لم تتركوا ما أنتم عليه من كفر وشرك وعبادة غيره سبحانه.

وبشير أبشركم برحمته وثوابه إن آمنتم به وحده، وتمسَّكتم بدينه وشرعه.

فأنتم مسؤولون أمامه جلّ وعلا، ومحاسَبون عن أعمالكم في حياتكم، والله سبحانه لم يخلقكم عبثاً، ولن يترككم سدًى، ولهذا أرسلني إليكم نذيراً وبشيراً، وهو القائل: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝١١٥ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون].

والقائل أيضاً: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝٣٦ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ۝٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٣٨ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣٩ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة].

- **استغفار وتوبة:**

فاقبلوا دعوة الله تعالى وأسلموا له، وادخلوا في دينه، واسألوه أن يغفر لكم ما سلف منكم من آثام وخطايا، مع التوبة عنها بتركها والندم على فعلها:



﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (٣)﴾.

﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ أي: اسألوه مغفرة ما مضى من ذنوبكم.

﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ أي: ثم توبوا إلى الله في المستقبل، بالندم على ما فات، والإقلاع في الحال، والعزم على عدم العود في المستقبل، فلا يقال: إنَّ الاستغفار هو التوبة، بل بينهما تغاير(١).

وأصل معنى **الاستغفار**: طلب الغفر، أي: الستر، ومعنى **التوبة**: الرجوع، ويطلق **الأول** على طلب ستر الذنب من الله تعالى والعفو عنه، **والثاني** على الندم عليه مع العزم على عدم العودة إليه، والقلب يميل فيه إلى حمل الأمر الثاني على الإخلاص في التوبة والاستمرار عليها(٢).

﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا﴾ أي: يمتعكم في الدنيا بحياة طيبة حسنة، فمن عَبَدَ الله وحده وتاب من ذنوبه، عاش في أمن وراحة ورضا نفس، كما قال تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح].

وسيأتي معنا قول هود لقومه: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢].

وإن ضيقت عليه الدنيا أحياناً، فهو ابتلاء من الله تعالى لتكفير سيئاته ورفع درجاته، وتبقى حياته مع ذلك طيِّبة، لأنه يرجو الله تعالى ويتقرَّب إليه ويرضى بما قدَّره له.

﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهو الموتُ.

---

(١) الصاوي على الجلالين: ٢/ ١٩٣.

(٢) روح المعاني: ١١/ ٢٠٧.

فألطافه سبحانه تحفُّ بكم، وعنايته تحوطكم طول حياتكم، حتى تنتهي بالموت آجالكم، إن أخلصتم في عبادته تعالى وطاعته والتوبة إليه.

ودلّتِ الآيةُ على أن منافع الدنيا صغيرة خسيسة منقضية، ولهذا سمَّاها بالمتاع.

• **تقرير المسؤولية:**

﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ﴾ أي: في الطاعة والعمل الصالح.

﴿فَضْلَهُۥ﴾ أي: جزاء فضله، إمَّا في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما معاً، فلا يضيع عنده تعالى شيء أبداً، قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣].

فاستكثروا من الأعمال الصالحة، وتنافسوا في تحصيلها، فإنَّ التنافسَ في الطاعات عمل مبرور مشكور، حثَّنا عليه سبحانه فقال: ﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

وقد جاء في الحديث الصحيح: أن النبي ﷺ قال **لسعد بن أبي وقاص** رضي الله عنه: «**ومهما أنفقتَ فهو لكَ صدقةٌ، حتَّى اللقمةَ ترفعُها في في (فم) امرأتِكَ**» [رواه البخاري (٥٣٥٤)].

وعن **ابن مسعود** رضي الله عنه في قوله: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ قال: مَنْ عَمِلَ سيئةً كُتِبَتْ عليه سيئةٌ، ومن عمل حسنةً كُتِبَتْ له عشرُ حسناتٍ، فإنْ عُوْقِبَ بالسيئةِ التي كانَ عَمِلَها في الدنيا بقيتْ له عَشْرُ حسناتٍ، وإنْ لَمْ يعاقَبْ بها في الدُّنيا أخذَ مِنَ الحسنات العشرِ واحدةً، وبقيتْ له تِسْعُ حسناتٍ، ثم يقولُ: هلكَ مَنْ غلبَ آحادُه أعشارَه[1]. أي: هلك من كانت سيئاته أكثر من حسناته بعشرة أضعاف.

﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ أي: تُعْرِضوا عن الإيمان، وتصرُّوا على الكفر. وأصلها: تتولوا.

---

(١) تفسير الطبري: ١١/ ١٨٢.

﴿فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ﴾ هو يوم القيامة، يوم الحساب والجزاء.

وقد وصفه تعالى في موضع آخر بالعظيم، فقال: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ۝٤ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝٥ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين].

فيومُ المسؤوليةِ والجزاءِ يومٌ كبير وعظيم، أكَّده تعالى أيضاً بقوله:

﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝٤﴾.

﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ﴾ أي: إلى حكمه وأمره مرجعكم يوم القيامة، فلا مفرَّ لكم منه، ولا رجوع لكم إلى غيره تعالى.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ فلا يستعصي على قدرته شيءٌ من الممكنات، فهو تعالى قادر على موتكم وإحيائكم وبعثكم من قبوركم، وحشركم وحسابكم وجزائكم.

• كمال علمه تعالى:

هكذا أوصلت الآياتُ إليهم دعوة الله تعالى، على لسان النبيِّ ﷺ، وقرَّرت مسؤوليتهم عن أعمالهم، وأظهرت شفقته عليه الصلاة والسلام عليهم من هذه المسؤولية، وما يترتب عليها يوم القيامة من حساب وجزاء، ومع هذه الدعوة المشوبة بالشفقة عليهم، أعرضوا عنها وأصرُّوا على كفرهم وفجورهم:

﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٥﴾.

﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ﴾ أي: يعطفون صدورهم على ما فيها من الكفر، مستمرِّين على ما كانوا عليه من التولِّي والإعراض، فإنَّ من أعرض عن شيءٍ ثنى عنه صدره.

﴿لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ﴾ أي: ليبقى ما في صدورهم مخفياً عن الله تعالى.

ولعلَّ نص الآية إنما يصوِّر حالة واقعة كانت تصدر عن المشركين، ورسول الله ﷺ يُسْمِعُهم كلام الله تعالى، فيثنون صدورهم، ويطأطئون رؤوسَهم

استخفاء من الله، الذي كانوا يحسُّون في أعماقهم أنه هو قائلُ هذا الكلام، وذلك كان يظهر منهم في بعض الأحيان(١).

لكنه سبحانه يعلم السرَّ وأخفى، فلا يخفون عليه ﷻ في جميع أحوالهم:

﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ أي: حين يغطون أنفسهم بثيابهم للنوم، وكثيراً ما يحدِّث الإنسان نفسه في هذا الوقت، وتمرُّ به الخواطر والهواجس.

﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي: يستوي بالنسبة إلى علمه تعالى سرَّهم وعلانيتهم.

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ وهو تعليل لما سبق وتقرير له، فهو سبحانه يعلم ما في صدورهم وقلوبهم من الخواطر والهواجس، لا يخفى عليه شيء منها، فكيف يخفى عنه ما يسرُّون وما يعلنون.

وقد وسِعَ علمُه تعالى كلَّ شيء من مخلوقاته، فهو ليس قاصراً عليهم، ولهذا قال تعالى يبين كمال علمه ورحمته وإحسانه على خلقه:

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَاۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦﴾.

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ والدابة كلُّ ما يدبُّ على الأرض، أي يمشي عليها ويسير، فشملت جميعَ الدواب عاقلةً وغيرَ عاقلةٍ، فما مِنْ مخلوقٍ يدبُّ على الأرض إلا على الله تعالى غذاؤه ومعاشه.

وتستعمل كلمة ﴿عَلَى﴾ للوجوب، فهو كالواجب عليه تعالى بحسب الوعد والفضل والإحسان، والمراد أنه تعالى التزم به، وتكفل به التزاماً لا يتخلَّف، ففي الحقيقة ﴿عَلَى﴾ بمعنى: من، وجاء التعبير بـ ﴿عَلَى﴾ ليزداد العبد ثقة بربه وتوكلاً عليه، وإن أخذ بالأسباب فلا يعتَمِدُ عليها، بل يثق بالله تعالى ويعتمد

---

(١) في ظلال القرآن: ١٢/ ٥١٤.

عليه، وليكن أخذه بالأسباب امتثالاً لأمره تعالى[١]، قال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

وقال أيضاً: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠].

﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا﴾ أي: موضع قرارها في الأصلاب.

﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ أي: موضعها في الأرحام.

قال العلَّامة الآلوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالنطفةُ بالنسبةِ إلى الأصلاب في حيزها الطبيعي ومنشئها الخلقي، وأما بالنسبة إلى الأرحام فهي مودعةٌ فيها إلى وقت معين»[٢].

وفي هذا إشارةٌ إلى حقيقة علمية في علوم تكوين الجنين، ترى أن الخلايا الجنسية الابتدائية تشتق من جدار الحويصل المُحِّي، ثم تهاجر وتنتقل إلى الغُدد الجنسية الآخذة بالتكوُّن في ظهر المخلوق الجديد، ثم تتكاثر فيها، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٩٨][٣].

فَعِلْمُه تعالى محيطٌ بأحوال مخلوقاته كلِّها، من بداية خلقها، وفي أثناء تقلباتها وأطوارها، ويوصل إليها الرزق على حسب الأحوال والأطوار التي تكون فيها.

﴿كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ أي: كل ما ذُكر في كتاب مبين، هو اللوح المحفوظ، ففيه جميع أرزاق الدواب وأمكنتها وأزمنتها وأحوالها، وهذا من

---

(١) الصاوي على الجلالين: ٢/ ١٩٤.

(٢) روح المعاني: ٣/ ١٢.

(٣) انظر: تفسير سورة الأنعام، الوارد في هذا التفسير الموضوعي الكبير تحت عنوان: (بصائر الحق في سورة الأنعام).

باهر قدرته تعالى، لزيادة طمأنينة العبد بربه، ومراجعة الملائكة الموكَّلين بالأرزاق، لا خوفاً من نسيانه، إذ هو مستحيل عليه[١].

فهو كقوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨].

وقال سبحانه: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

- **الخلق والابتلاء بالتكليف:**

وبعد أن بيَّنت الآيات كمال علمه تعالى، بيَّنت كمال قدرته:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي: خلق سبحانه السموات والأرض وما فيهن في ستة أوقات، ولم يخلقهن دفعة واحدة في وقت واحد، مع قدرته التامة على ذلك. والمراد باليوم الوقت مطلقاً، لا اليوم المتعارف. ودلَّ الخلق المتدرِّج على أنه تعالى خلق الخلق بمحض إرادته ومشيئته وبقدرته.

وقد فصَّل تعالى مراحل الخلق في **سورة فصِّلت** فقال: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ۝١٠ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ۝١١ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝١٢﴾.

---

(١) الصاوي على الجلالين: ٢/ ١٩٤.

﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ أي: كان عرشه قبل خلقهما على الماء.

وهو دليلٌ على أنَّ خلق العرش والماء قبل خلق السموات والأرض.

وفي الحديث الشريف: عن **عبد الله بن عمرو بن العاص** رضي الله عنهما قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**كتبَ اللهُ مقاديرَ الخلائقِ قبلَ أن يخلقَ السمواتِ والأرضَ بخمسينَ ألفَ سنةٍ. قال: وعرشُه على الماءِ**» [رواه مسلم (٢٦٥٣)].

وعن عمران بن حصين رضي الله عنهما قال: إنِّي عندَ النبيِّ ﷺ، إذ جاءَه قومٌ مِنْ بني تَمِيْم، فقال: «**اقبلوا البُشرى يا بني تميم**» قالوا: بشرتنا فأعطنا، فدخل ناسٌ من أهل اليمن، فقال: «**اقبلوا البُشرى يا أهلَ اليمنِ إذ لم يقبلها بنو تميم**» قالوا: قَبِلْنا، جئناك لنتفقَّه في الدين، ولنسألك عن أول هذا الأمر ما كان؟ قال: «**كان اللهُ ولم يكنْ شيءٌ قبلَه، وكان عرشُهُ على الماءِ، ثم خلقَ السمواتِ والأرضَ، وكتبَ في الذكرِ كلَّ شيءٍ**» [رواه البخاري (٧٤١٨)].

﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي: خلق الله السموات والأرض وما فيهما، ورتَّب فيهما كل ما تحتاجون إليه من أسباب معاشكم، وسخَّرها لكم، ليختبرَكم بالتكليفِ، ويظهرَ المحسن منكم والمسيء، ويميِّزَ بين المطيع والعاصي.

ولم يقل: أكثر عملاً، بل قال: ﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، ولا يكونُ العملُ حسناً حتى يكونَ خالصاً لله ﷻ، على شريعة رسول الله ﷺ، فمتى فقدَ العملُ واحداً من هذين الشرطين حبط وبطل[1].

فما خلق الله الخلق عبثاً ولا لعباً، يتنزّه تعالى عن ذلك، وقد نفاه تعالى في عدد من الآيات، كقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [صٓ].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان].

---

(١) تفسير ابن كثير: ٢/٣٤٨.

وبيَّن تعالى في آيات كثيرة أنَّ الابتلاء بالتكليف هو حكمة الخلق؛ منها قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

فالتكليفُ والمسؤوليةُ عنه والجزاء أساس وجود الإنسان وخلقه، وهو أيضاً أساس خلق المكونات كلِّها، وإنكار الإنسان لهذه الحقيقة، ومحاولته الانسلاخ عن الشعور بالمسؤولية، إنكار لجوهر وجوده وحكمة خلقه، وانتكاس عن مرتبة التكليف والتشريف التي ميَّزه الله بها عن الحيوان.

- **إنكار واستهزاء:**

ولهذا أوردت الآيات بعد ذلك أقوال المنكرين للبعث والحساب والجزاء، بأسلوب التعجيب:

﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ﴾ أي: إن واجهتَهم بالحقيقة الكبرى التي هي سرُّ وجودهم وحكمة خلقهم، وأنهم مبعوثون بعد الموت للمسؤولية والجزاء.

﴿لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: لكان منهم انصراف عن مواجهة الحقيقة وتغافل عنها، إلى تكذيب الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، ووصف القرآن الكريم بأنه سحر مبين.

فقد أَلِفَ القومُ الحياةَ التافهة الفارغة، الخالية عن الشعور بالمسؤولية، ولا يريدون أن يسمعوا مَنْ يذكِّرهم بقيمةِ حياتهم وجوهرِ وجودهم، ويرفعهم عن المستوى الهابط الذي انتكسوا إليه وأدمنوا عليه.

وزاد في غرورهم وغفلتهم إمهالُهم وتأخير العذاب عنهم، مع أنَّ إمهالهم من رحمته تعالى بهم، لعلَّهم ينتبهون من غفلتهم ويصحون من سكرتهم.

﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾﴾.

﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ أي: إلى أمد محدود وأجل مسمى.

فكلمة «**الأمة**» تستعمل في القرآن والسُّنَّة في معان متعددة، فيراد بها **الأمد**، كقوله تعالى في هذه الآية: ﴿إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعۡدُودَةٍ﴾، وقوله أيضاً: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥].

وتستعمل في **الإمام المقتدى به**، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠].

وتستعمل في **الجماعة** كقوله سبحانه: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ﴾ [القصص: ٢٣].

وتستعمل أيضاً في **الملة والدين**، كقوله تعالى إخباراً عن المشركين: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الزُّخرُف: ٢٢][(١)].

﴿لَّيَقُولُنَّ مَا يَحۡبِسُهُۥٓ﴾ أي: ما يؤخر هذا العذاب عنَّا؟! وأيُّ شيءٍ يمنعه عنَّا؟! يقولون ذلك استعجالاً للعذاب على وجه الاستهزاء والتكذيب.

﴿أَلَا يَوۡمَ يَأۡتِيهِمۡ لَيۡسَ مَصۡرُوفًا عَنۡهُمۡ﴾ أي: عندما يأتيهم في الأجل المحدد له، لا يرفعه عنهم رافع، ولا يدفعه دافع، فلا مناص لهم منه، كما قال تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ﴾ [المعارج].

﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ أي: نزل وأحاط بهم العذاب الذي كانوا يستعجلون به استهزاء وتكذيباً، وعبَّر عن وقوعه بالماضي لتأكيد وقوعه وتحقُّقه.

• **يأس وكفران:**

ثم بيَّنت الآيات كيف يكون حالهم عند نزول العذاب بهم، وذلك بشرح أحوال الإنسان النفسية عندما تنزل به غِيَرُ الزمان، ويواجه صروفه وتقلُّباته، وما دامت حياة الإنسان حياة ابتلاء واختبار، فهي لا تسير على وتيرة واحدة:

﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةً ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ ۝٩﴾.

﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةً﴾ أي: نعمة، كصحَّة وسعة وأمن ورخاء.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير: ٢/٤٣٨.

﴿ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْـهُ﴾ أي: ثم سلبناها منه، وحرمناه منها، بعد أن كان متعلِّقاً بها حريصاً عليها، فكلمة ﴿نَزَعْنَـٰهَا﴾ تُشْعِرُ بشدَّة تعلُّقه بها وحرصه عليها[1].

﴿إِنَّـهُۥ لَيَـُٔوسٌ﴾ أي: شديدُ القنوطِ من رحمته تعالى، فلا يرجو أن يعيدها إليه أبداً.

﴿كَفُورٌ﴾ أي: عظيم الكفرانِ لما سلف من فضله تعالى وإحسانه عليه.

هذا شأن أكثر الناس عندما تتغيَّرُ أحوالهم، وتنزل بهم صروف الدهر وغِيَرُهُ، يحزنون على ما فاتهم حتى يغلب عليهم اليأس والقنوط من رحمته تعالى، وينسون أنهم كانوا يتمتعون بنعمه، ويتقلَّبون في فواضل إحسانه، من غير سابقة استحقاق.

وعندما تتغير أحوالُهم من الضيق إلى السعة، ومن الضراء إلى السراء، فإنَّهم يتكبرون ويتجبرون ويغترون بما في أيديهم، ظانِّين أنَّ حالهم هذه ستدومُ لهم، ينشغلون بالنعمة عن المنعم، فلا يشكرونه، بل يكفرونه، ويعرضون عن طاعته، ويستعملون نعمته في معصيته، وينسون أن الحياة دار ابتلاء واختبار، وأنه تعالى يبتليهم بالخير تارةً وبالشرِّ أخرى.

﴿وَلَـئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْـدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾﴾.

﴿وَلَـئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْـدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾ أي: أنعمنا عليه بالسعة والرخاء، بعدَ أنْ أصابه الفقر والقلة، أو بالصحة بعد المرض، أو بالفرج بعد الضيق والشدة.

﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓ﴾ أي: زالت المصائب والنكبات التي أضرَّت بي وساءتني. هكذا يقتصر بنظره على الأسباب، ويغفل عن مسبب الأسباب الذي قدَّر كل شيء.

﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ أي: إنَّ الإنسان في تلك الحالة بطر متكبر، يفخر على الناس بما أعطاه الله تعالى، ويشغله الفرح والفخر عن شكر خالقه وطاعته،

---

(١) تفسير أبي السعود: ٥/ ٦٢.



ففرحه بالنعمة قوي شديد، يصل به إلى حدِّ البطر والكِبْرِ، وسبب شدة فرحه أنَّ منتهى أمل الكافر محصور بالدنيا فقط، فإذا وجد الدنيا فكأنه قد فاز بغاية السعادات[1].

ويلاحظ أنّه تعالى أسند إيصال الخير إلى ذاته جلَّ وعلا، فقال: ﴿أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ﴾ ولم يسند إلى ذاته إيصال الشر فقال: ﴿بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾ مع أنَّ كل شيء بعلمه وتقديره ومشيئته، فدلَّ بذلك على أن مراده تعالى رحمة عباده والإحسان إليهم، وأن ما ينالهم من شرٍّ وضرٍّ بسبب سوء كسبهم واختيارهم، كما قال في **سورة الشورى**: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾.

وقال في **سورة النساء**: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾.

- **صبر وشكر:**

ثم استثنت الآياتُ من هذه الأحوال، المؤمنين بالله تعالى، الذين يرون الحياة على حقيقتها، ويكشف لهم إيمانهم بالله عن جوهرها، فهم يرونها حياةَ ابتلاء واختبار، فيها تكليفٌ، ويترتب عليه مسؤولية وجزاء، فلم يُخْلقوا عبثاً لمجرد الأكل والشرب واللذة والمتاع، ولابدَّ أن تختلف أحوالهم عن أحوال غيرهم عندما يواجهون تقلُّبات الحياة، إنهم يصبرون عند الشدة والضراء، ويشكرونه تعالى عند السعة والرخاء:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ أي: على ما أصابهم، إيماناً بالله واستسلاماً لقضائه.

﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: فلا تشغلهم النعمة عن طاعته تعالى وعبادته وشكره.

وفي الحديث الشريف: عن **صهيب** رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**عجباً**

---

(١) تفسير الفخر الرازي: ٥/ ٦٠.

لأمرِ المؤمنِ، إنَّ أمرَه كلَّه خيرٌ، وليسَ ذلك لأحدٍ إلَّا للمؤمن، إنْ أصابتْهُ سرَّاءُ شكرَ فكانَ خيراً له، وإنْ أصابتْهُ ضرَّاءُ صبرَ فكانَ خيراً له» [رواه مسلم (٢٩٩٩)].

فالإيمان بالله تعالى هو النور الكاشف، ينيرُ للإنسان طريقَ حياته، ويحدد له المواقف والمنعطفات، ويعينه على تجاوز العقبات، وتحمُّل المشقات، وهو الذي يعصم النفس البشرية من اليأس الكافر في الشدة، كما يعصمها من البطر الفاجر في الرخاء، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾.

وقوله ﷻ أيضاً: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝٢٢﴾ [المعارج].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ أي: لهم ستر لذنوبهم ومعاصيهم وتجاوز عنها.

فالمؤمن غير معصوم من الذنوب، فقد يدركه ضعفُ الإنسان فيخطئ ويزلُّ، ولكنَّه لا يصرُّ على المعصية ولا يتمسك بها.

﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ أي: لهم أجر كبير على طاعتهم لله تعالى وانقيادهم لدينه وشرعه.

هكذا جمعت لهم الآية بهذه البشارة بين مطلبين كبيرين، هما: الخلاص من العذاب، والفوز بالثواب.

- **تثبيت وتحريض:**

والتفتتِ الآياتُ إلى النبيِّ ﷺ، تثبته في مواجهة عناد المشركين وجحودهم، وتحثُّه على متابعة تبليغهم وإقامة حجة الله تعالى عليهم:

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ۝١٢﴾.

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ أي: فلعلك لشدة ما تراه من كفرهم وعنادهم تترك تبليغ بعض ما يوحى إليك.

ولعلّ: للترجي، وهو يقتضي التوقُّعَ، ولا يلزم من توقع الشيء وقوعه، ولا ترجح وقوعه، لجواز أن يوجد ما يمنع منه، والمانع منه عصمته ﷺ عن كتم الوحي المأمور بتبليغه.

والمقصود من ذلك تحريضه عليه الصلاة والسلام، وتهييج داعيته لأداء الرسالة[1]؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧].

وقد يكون المقصود الاستفهام الإنكاري، الذي يفيد نفي واستبعاد ترك تبليغهم، وحضّه على التبليغ مع عدم المبالاة بتكذيبهم وعنادهم[2].

﴿وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ﴾ أي: عارضٌ لك ضيقُ صدرٍ عند تلاوته عليهم، بسبب مسارعتهم إلى ردِّه وتكذيبه.

وقال تعالى: ﴿وَضَآئِقٌۢ﴾ ولم يقل: ضيِّق؛ ليدل على أنه ضِيقٌ عارض غير ثابت؛ لأنه عليه الصلاة والسلام كان أفسح الناس صدراً[3].

وما كان ضيقُ صدره من تلاوة القرآن الكريم، بل كان من عنادهم وجحودهم ومسارعتهم إلى تكذيبه، ولهذا قال تعالى بعد ذلك:

﴿أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ﴾ أي: مخافة أن يقول المشركون: هلَّا أنزل عليه مال كثير، أو جاء معه ملك يصدِّقه!.

﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ﴾ أي: ليس عليك إلا إنذارهم بما أوحاه الله إليك، فلا تبالِ بعنادهم وتكذيبهم، والاقتصار على صفة النذير لمناسبة المقام، فالمقام مقام ترهيب ووعيد.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ أي: حافظ يحفظ كل ما يقولون، فتوكل عليه

---

(١) روح المعاني: ١٢/ ١٨.
(٢) تفسير القرطبي: ٩/ ١٢.
(٣) تفسير النسفي: ٢/ ١٨٢.

وفوِّض أمرك إليه، واستمر في تبليغهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٨].

- **التحدي بالقرآن الكريم:**

ولا شك أنَّ معجزةَ القرآن الكريم كافيةٌ لبيان صدق رسالته عليه الصلاة والسلام، وصحَّةِ نبوته، فالإعراضُ عنها، وعدمُ الاعتداد بها، أشدُّ قبحاً وشناعة من مواقف العناد والجحود، ومن سؤالهم ما سألوا من المعجزات، ولهذا قال تعالى:

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ أي: بل يقولون افتراه وأنَّه ليس من عند الله. وهو إضراب بـ ﴿أَمْ﴾ المنقطعة عن ذكر مواقفهم السابقة إلى ما هو أقبح منها.

﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ أي: قل لهم: إن كان الأمرُ كما تقولون، فأتوا بعشر سور مثل القرآن الكريم، في البلاغة والنظم والمعنى.

﴿مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ أي: مختلقات من عند أنفسكم، إن صحَّ أني اختلقته من عندي.

﴿وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

والجدير بالذكر أنَّ هذا التحدي بعشر سور حدث أولاً قبل الهجرة؛ لأنَّ سورة هود من السور المكية، ثم تحدَّاهم بسورة واحدة، فأنزل في **سورة البقرة** المدنية قوله الكريم: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

ومعجزةُ القرآن الكريم خالدةٌ باقيةٌ، والتحدي به لا يزال قائماً، والقرآنُ الكريم لا يزالُ في الساحة نقيّاً غضّاً طريّاً، يتحدَّى المعارضين لدعوته والمنكرين لصحَّته.

ولهذا كان الشاعر المسلم المشهور محمد إقبال يقول لولده: يا بُني اقرأ القرآن كأنه أنزل عليك الساعة.

﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَاعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ﴾ أي: ظهرَ عجزُهم عن الاستجابة للتحدي، والخطابُ لعامة المسلمين، وجاء عامّاً بعد أن كان خاصّاً بالنبيِّ ﷺ، فدلَّ على بقاءِ المعجزة القرآنية وخلودها، واستمرارِ التحدي بها في كل زمان ومكان.

﴿فَاعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ أي: اعلموا علماً يقينيّاً لا شائبة فيه بوجه من الوجوه، أنما أنزل القرآن الكريم، ملتبساً بما لا يعلمه إلا الله من وجوه إعجازه، في بيانه ونظمه ومعانيه، فلا يحيط بها غيره تعالى.

﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: واعلموا أيضاً أن لا إلـه إلا هو وحده المستحق للعبادة، فتمسّكوا بعبادته وطاعته، وازدادوا يقيناً بأن القرآن منزَّل من عنده تعالى.

﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي: فهل أنتم مخلصون ومستسلمون لله تعالى ولشرعه.

ويمكن أن يكون الخطاب للمشركين في قوله: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ﴾ أي: من دعوتموهم للمعاونة ﴿فَاعْلَمُوٓاْ﴾ أيها المشركون المعاندون ﴿أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ أي: بإذنه وأمره، ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي: متَّبعون للإسلام بعد هذه الحجة القاطعة[1].

- **عمل الدنيا وعمل الآخرة:**

وقسَّمت الآياتُ الناس إلى فريقين: فريق يحصر همَّه ونشاطه بالدنيا وبهارجها وزينتها، وفريق آخر ينظر إلى الآخرة ويهتم بها، ويجعل حياته الدنيا ونشاطه فيها قنطرة إلى الآخرة:

---

(١) انظر: تفسير النسفي: ٢/ ١٨٨.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ أي: من كان يريد بعمل الخير والبر الحياة الدنيا وما يحسنها ويزينها، كمن يبني المشافي للفقراء، ويساعد الضعفاء والمحتاجين، للسمعة والشهرة، أو لكسب أصواتهم في الانتخابات، والوصول إلى المناصب العالية الدنيوية.

وإدخال كلمة ﴿كَانَ﴾ على إرادتهم الدنيا للدلالة على استمرارها منهم، بحيث لا يكادون يريدون الآخرة أصلاً[1].

﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا﴾ أي: نوصل إليهم أجور تلك الأعمال في الدنيا كاملة، فإذا خرجوا من الدنيا لم يبق معهم من أجور تلك الأعمال شيء.

﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ أي: وهم في الدنيا لا ينقصون شيئاً، ويوفون أجورهم بحسب ما يشاء الله تعالى، لا بحسب ما يشاؤون، فما كل ما يتمناه المرء يدركه، قال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٨].

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾ أي: أولئك المريدون للدنيا وزينتها، الذين ليس لهم يوم القيامة إلا النار؛ لأنهم لم يعملوا للآخرة، وسلخوا أنفسهم عن الشعور بالمسؤولية فيها، فلا جرمَ ليس لهم في الآخرة إلا النار.

﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا﴾ أي: وظهر في الآخرة حبوط صنعهم الذي صنعوه في الدنيا، والذي كان يمكن أن يؤدي إلى الثواب في الآخرة لو صنعوه لها.

﴿وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾؛ لأن عمل الدنيا باطل فاسد، بينما عمل الآخرة

(١) تفسير أبي السعود: ٥/ ٦٧.

مقبول مبرور، كما قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].

• **البَيِّنة والشاهد:**

ثم عقدت الآياتُ مقارنةً بين الفريقين، وشرعت تتحدَّثُ أولاً عن الفريق المؤمن:

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي: كان على نور واضح ودليل ظاهر من ربه، وهو القرآن الكريم، دلَّ على ذلك قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ [البينة].

وقوله سبحانه أيضاً: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢].

فالقرآن الكريم هو البيِّنة، الذي يبيِّن الحقَّ ويوضِّحه، وهو النور الهادي إلى سواء السبيل. واسم الموصول ﴿أَفَمَن﴾ مبتدأ خبره محذوف، تقديره: كمن ليس كذلك، وحذف الخبر لدلالة سياق الآية عليه.

﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ أي: يتبعه شاهدٌ يشهد بأنه من عند الله تعالى، وهذا الشاهد من القرآن الكريم نفسه، غير خارج عنه، وهو إعجازه الباهر، كما مرَّ في آية التحدي بالقرآن عند قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ [هود: ١٣].

وفسَّر بعضهم البيِّنة بالفطرة التي فطر سبحانه الناس عليها، وهي كلمة

التوحيد، التي قال تعالى فيها: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

وقال فيها النبيُّ ﷺ: «**ما مِنْ مولودٍ إلا يُوْلَدُ على الفطرةِ، فأبواه يهوِّدانِهِ وينصِّرانِهِ ويمجِّسانِهِ كما تنتِجُ البهيمةُ بهيمةً جمعاء** ـ أي: لا نقصَ فيها ـ **هل تحسُّونَ فيها من جَدْعاء؟**» ثم يقول أبو هريرة راوي الحديث: واقرؤوا إن شئتم: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الروم: ٣٠]. [رواه مسلم (٢٦٥٨)].

وقال عليه الصلاة والسلام أيضاً في خطبةٍ له: «**ألا إنَّ ربي أمرني أن أعلِّمَكم ما جهلتُم... وإنِّي خلقتُ عبادي حنفاءَ كلَّهم، وإنَّهم أتتْهُم الشياطينُ فاجتالتهم عن دينهم، وحرَّمَتْ عليهم ما أحللتُ لهم**» [رواه مسلم (٢٨٦٥)].

ومعنى قوله: «**اجتالتهم**»: حوَّلتهم وصرفتهم.

وأما الشاهِدُ فهو ما أوحاه الله إلى الأنبياء، من الشرائع المطهرة المكمَّلة المعظمة، المختتمة بشريعة محمد صلوات الله عليه وعليهم أجمعين(١).

﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَـٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ أي: ومن قبل القرآنِ كتابُ موسى، وهو التوراة.

وتخصيصُ كتاب موسى عليه السلام بالذكر؛ لأنَّ جميع أهل الكتاب مجمعون على أنه من عند الله تعالى، بخلاف الإنجيل، فإنَّ اليهود مخالفون فيه، فكانَ الاستشهادُ بما تقومُ به الحجة على الفريقين أولى(٢).

﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ﴾ أي: أنزل الله تعالى القرآن الكريم إلى الأمة المسلمة، إماماً لهم، وقدوة يقتدون به في دينهم، ورحمة منه تعالى بهم، فهو نعمة عظيمة تفضَّل بها سبحانه عليهم.

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ﴾ أي: أولئك المتَّصفون بتلك الصفة الحميدة، وهي أنهم على بيِّنةٍ من الله تعالى في جميع شؤون حياتهم، يصدِّقون بالقرآن الكريم، ويتمسَّكون بأحكامه، ويجعلونها نبراس حياتهم.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير: ٢/ ٤٤٠.

(٢) روح المعاني: ١٢/ ٢٨.

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ أي: من يكفر بالقرآن الكريم من جميع أهل الملل والنحل الأخرى، إذ هو رسالة الله تعالى إلى الناس كافة حتى قيام الساعة.

﴿فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ أي: فهو معذَّبٌ فيها لا محالة، كما مرَّ عند قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾ [هود: ١٦].

وقال عليه الصلاة والسلام: «**والذي نفسُ محمَّدٍ بيده، لا يسمعُ بي أحدٌ من هذه الأمةِ يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ، ثم يموتُ ولم يؤمنْ بالذي أُرْسِلْتُ بهِ، إلا كان مِنْ أصحابِ النارِ**» [رواه مسلم (١٥٣)].

﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ أي: لا تكن أيها الإنسان في شك من أمر القرآن الكريم، وأنه من عند الله تعالى.

﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: إنَّه الحق الثابت من ربك الذي يربِّيك في دينك ودنياك.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: ومع ظهور البيِّنة وقوة الشاهد، وظهور أدلته وحججه، فإن كثيراً من الناس لا يصدقون به.

أو: يعرضون عنه عناداً واستكباراً، أو انهماكاً بالدنيا وانشغالاً بشهواتها عن الآخرة، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

- **مقارنة وتمثيل وتقرير:**

ثم انتقلتِ الآياتُ للحديث عن الفريق الثاني، الفريق الكافر الفاجر؛ لتتم المقارنة بينهما:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾﴾.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: لا أحدَ أظلمُ ممن يكذب على الله تعالى، وينسب إليه ما لا يليق بجلاله وكماله وحكمته، كمن ينسب إليه سبحانه الولد والشريك، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً، أو يجحد حكمته تعالى في خلقه، فينكر يوم القيامة وما فيه من مسؤولية وجزاء.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي: أولئك الموصوفون بأقبح الظلم وأشدِّه، يعرضون يوم القيامة على ربهم للحساب والجزاء، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٠].

﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ أي: الذين يشهدون عليهم يوم القيامة كالنبيين.

أو: جوارحهم التي يُنْطِقُها الله لتشهد عليهم.

﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ﴾ أي: بالافتراء عليه تعالى، ووصفه بما لا يليق بكماله وجلاله وغناه.

ويجوز أن يكون المراد بالأشهاد الحضَّار، وهم جميع أهل الموقف، على ما قاله قتادة ومقاتل من علماء التفسير، ويكون قولهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ﴾ ذمّاً لهم بذلك، لا شهادة عليهم(١).

ويؤيده الحديثُ الشريفُ: عن **ابن عمر** ﷺ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**يُدْنَى المؤمنُ مِنْ ربِّه حتى يضعَ عليه كَنَفَهُ، فيقرره بذنوبه: تعرفُ ذنبَ كذا؛ يقول: أعرفُ ربِّ، يقول: أعرفُ مرتين، فيقول: سترتُها في الدنيا وأغفِرُها لكَ اليومَ. ثم تُطوى صحيفةُ حسناتِهِ، وأمّا الآخرونَ ـ أو الكفَّارُ ـ فينادَى على رؤوسِ الأشهادِ: هؤلاء الذين كَذَبُوْا على ربِّهِم**» [رواه البخاري (٤٦٨٥)].

﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: يقول الله تعالى ذلك، مما يدلُّ على شدة وقبح عاقبة ظلمهم وافترائهم عليه تعالى.

أو: يقول ذلك جميع أهل الموقف. نسأله تعالى أن يعيذَنا من الخزي على رؤوس الأشهاد، وأن يغفرَ ذنوبنا ويسترَ عيوبنا.

ثم ذكرت الآياتُ بعضَ قبائحهم وجرائمهم؛ لتبيِّنَ استحقاقهم لهذا المصير الأليم:

---

(١) تفسير أبي السعود: ٥/ ٧٢.

﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ١٩﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: يمنعون الناس عن الدخول في دين الله تعالى، ويفتنونهم عن دينه بوسائلهم الشيطانية الكثيرة، كتهديدهم بالسجن والتعذيب والقتل، والتضييقِ عليهم في أرزاقهم، وتهجيرهم من أوطانهم، أو بتزيين الباطلِ لهم، وإغرائهم بشتَّى أنواع المغريات.

﴿وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: ويطلبون لها اعوجاجاً، فيصفون دين الله تعالى وشريعته بالاعوجاج، وأنها في نظرهم غيرُ صالحةٍ لعصرهم وزمانهم، وهي في الحقيقة مستقيمة قوية، تلبي حاجات الناس التشريعية في كل عصر ومصر.

وقد يكون المعنى: ويبغون من أهلها أن ينحرفوا عنها بتركها والإعراض عن أحكامها.

﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ أي: وفوق كل ذلك هم كافرون بالآخرة وما فيها من مسؤولية وجزاء.

وأفاد تكرار الضمير (هم) تأكيد كفرهم بالآخرة، واختصاصهم به، كأنَّ كفر غيرهم لا يعد شيئاً بالنسبة إلى كفرهم وإنكارهم لمسؤوليتهم أمام الله تعالى.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ ٢٠﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: أولئك المتصفون بهذه الجرائم، لا يستطيعون أن يفلتوا من عقابه تعالى لو نزل بهم، فهم دائماً تحت قهره وفي قبضة قدرته وسلطانه.

﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ أي: وما كان لهم أنصار يمنعونهم من عذاب الله تعالى ويدفعونه عنهم إذا نزل بهم.

﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ لأنهم كانوا يضلُّون الناس عن دين الله تعالى، قال

سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨].

﴿مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ﴾ أي: غلبت عليهم شهواتهم، واستبدَّ بهم غرورهم وتكبرهم، فحُجبوا عن رؤية الحق وسماع أدلته، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

ونتيجة ذلك الخسارة الكبرى والعظمى، التي لا تلافي لها:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: خسروا سعادة أنفسهم وراحتها؛ لأنهم سلخوها عن الشعور بمسؤوليتها أمام خالقها وبارئها.

﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ أي: وغاب عنهم ما كانوا يفترون من الآلهة المزعومة وشفاعتها.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

أي: حقّاً أنهم يوم القيامة هم الأخسرون، فهم أخسرُ من كلِّ خاسرٍ؛ لأنهم كانوا أظلم من كل ظالم.

وحتى تكتملَ المقارنةُ بينَ الفريقين، ويظهرَ التباينُ بين المصيرين، بيَّنت الآيات مصيرَ الفريق الأول، الذي كان على بيِّنة من ربه، بقوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي: اطمأنوا إليه، وخضعوا

له، ووثقوا بفضله ورحمته، وصدَّقوا بوعده ووعيده، وأنهم مسؤولون يوم القيامة أمامه. وأصلُ **الإخباتِ في** اللغة: نزولُ الخبت، وهو المنخفض من الأرض.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي: ماكثون فيها أبداً.

ثم ضربت الآيات للفريقين مثلاً محسوساً، يظهر شدة ما بينهما من تباين واختلاف، فمن أساليب القرآن الكريم الرفيعة في التربية والتهذيب وتقريب المعاني: ضرب الأمثال:

﴿مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ﴾ شبَّهت الآية فريق الكافرين بالأعمى الذي لا يبصر، والأصم الذي لا يسمع، وشبهت فريقَ المؤمنين بالبصير قوي الإبصار، وبالسميع شديد السمع.

وهذا المَثَلُ يلائِمُ الأحوال والأوصاف التي سبق ذكرها في الآيات، فالكافرون يتعامون ويتغافلون عن مشاهدة آيات الله تعالى المبثوثة في المكونات، ويعرضون عن سماع آيات القرآن الكريم والانتفاع بها، بينما المؤمنون يستعملون أبصارهم في رؤية دلائل الحق التي تدلهم على ربهم، ويسمعون آياته المحكمة، فينفعهم الله تعالى بها، فيعرفون حكمة خلقهم وجوهر وجودهم، وأنَّهم مكلفون مسؤولون أمام خالقهم جلَّ وعلا.

﴿هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ﴾ أي: لا يستويان في المثل والحال والصفة، وهو استفهام إنكاري يذكِّرنا بالاستفهام الإنكاري الأول في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ . . .﴾ [هود: ١٧].

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: أفلا تتذكرون أن الفريقين لا يستويان، لا في الحال ولا في المآل، فكما أنهما لا يستويان في الدنيا عقيدة وسلوكاً وخلقاً، كذلك لا يستويان في الآخرة مصيراً وجزاء.

وكأنَّ الآيةَ تقرِّرُ ضرورة المسؤولية والجزاء، للتمييز بين الفريقين، ولهذا

قال تعالى في معرض الردِّ على المنكرين للمسؤولية والجزاء يوم القيامة: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم].

وقال ﷻ أيضاً: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [فاطر].



الفَصْلُ الثَّانِي

قِصَصٌ مِنَ التَّارِيخ

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾

وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَـٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَـٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَـٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَـٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَـٰصَـٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَـٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ

ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي
وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ
نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ
﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا
جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ
ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ
يَغْنَوْاْ فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ
بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ
إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ
قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ
وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ
عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي
قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ
وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ
هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ قَالَ يَٰقَوْمِ
هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِيٓ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾
قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ
رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا
يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ
بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ
مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا
قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ إِنِّيٓ
أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ

وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ ۖ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ۖ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾.

- **تمهيد:**

ذكرت الآيات في هذا الفصل قصصَ بعض الأنبياء مع أممهم، ومع أنَّ هذه القصص سبق ذكرُها في **سورة الأعراف**، وذُكر بعضها في **سورة يونس**، إلا أنَّها اشتملت هنا على زيادات، وأبرزتْ أفكاراً ومعانيَ جديدة، تنسجم مع موضوع السورة، ومع الأفكار التي مرَّت معنا في صدرها.

ففي هذه القصص شواهد واقعية لصفات الفريقين اللذين مثلت لهما الآيات

في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٢٤].

فقد أظهرتِ التباينَ الواضحَ بينهما في السلوك والمصير، كما دلَّت على أنَّ مسؤولية الإنسان عن عمله تمتد من الدنيا إلى الآخرة، وأن ما يترتَّبُ عليها من جزاء قد يكون في الدنيا قبل الآخرة، فضلاً عما فيها من تثبيتٍ للنبيِّ ﷺ والمؤمنين، ومواساة لهم وهم يواجهون عناد المشركين وجحودهم، كما أنَّ فيها تأكيداً لصدق رسالته عليه الصلاة والسلام وصحة نبوته، فقد أبرزت وجهاً من وجوه إعجاز القرآن الكريم، في إخباره عن المغيَّبات الماضية من وقائع الأمم وأحداث التاريخ، وأنه حقّاً كلام الله تعالى، أنزله بعلمه الذي وسع كلَّ شيء.

كما أظهر سبحانه أيضاً في هذه القصص الإحكام والتفصيل في آيات السورة؛ تقريراً لما جاء في أول آياتها: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

فقد فصَّل الله في هذه القصص أخباراً مؤكِّدة لمعاني ما سبق من الآيات، سيأتي إن شاء الله بيانها في موضعها، وبذلك أظهر سبحانه مدى الإحكام والتفصيل والانسجام والاتساق بين آيات السورة الكريمة، إنه كلام العزيز الحكيم.

- **قصة نوح وقومه:**

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ﴾ أي: فقال لهم:

﴿إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ اقتصر عليه السلام في أول كلامه على الإنذار، لأنَّه أحسَّ منهم الإعراضَ، وتوقَّعَ الجحود والفساد.

والإنذار: إعلام بالمحذور، لا لمجرَّد التخويف والوعيد، بل وللحذر منه.

﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي: بأن لا تعبدوا ولا تطيعوا إلا الله تعالى وحده، فهو الذي يستحق العبادة والطاعة.

﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ أي: إني أخاف عليكم أن يصيبكم عذاب يوم أليم.

وقد جاء كلامه عليه السلام تعليلاً للنهي عن عبادة غير الله تعالى، وتحقيقاً للإنذار، وأظهر عليه السلام مع الإنذار شفقته عليهم، فهم قومه الذين يخاف عليهم عذاب يوم أليم، وهو يوم الطوفان أو يوم القيامة.

﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ﴾ أي: أصحاب الغنى والوجاهة، الذين يملؤون العين بزينتهم وشارتهم.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ وهو ذم لهم على كفرهم، فلا يُعَدُّ مدحاً لهم أنَّهم من أصحاب الغنى والوجاهة؛ لأنهم كفروا بالله تعالى، وأعرضوا عن دعوة رسوله عليه السلام.

﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ أي: فكيف تمتازُ علينا وتكونُ نبيّاً؟! كأنهم أرادوا أن يكون ملَكاً.

ونستشفُّ من قولهم: ﴿مَا نَرَىٰكَ﴾ كبرهم وغرورهم وترفُّعهم على غيرهم.

﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ أي: أخسَّاؤنا وأدانينا والضعفاء فينا، جمع أرذل.

﴿بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ أي: ظاهر الرأي أو أول الرأي.



والمعنى: أنَّ اتباعهم لك شيء عنَّ لهم بديهة من غير روية ونظر، ولو أنهم تفكروا، وتريثوا ما اتبعوك.

وإنَّما استرذلوا المؤمنينَ لفقرهم وتأخُّرهم في الأمور المادية الدنيوية، فمقياسُ الفضل عندهم هو الغنى وكثرة المال، وعليه يبنون إكرام الناس وإهانتهم.

﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ أي: وما نرى لك ولأتباعك فضيلة علينا بعد أن اتبعوك، فهم لا يزالون أراذل فقراء.

﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ أي: وعبَّروا عن تكذيبهم لنوح ﵇ والمؤمنين بالظن، تظاهراً بالتأنِّي وعدم المسارعة إلى الجزم والقطع، واحترازاً عن الوقوع فيما اتهموا به المؤمنين، وهو المسارعة إلى تصديق دعوة نوح ﵇، من غير تفكيرٍ ونظرٍ.

واستمع ﵇ إلى جميع أقوالهم، وتركهم يُدْلُون بكلِّ ما لديهم، مما يدلُّ على ثقته ﵇ بنفسه، وعلمه بقوة حججه، ولما انتهى القومُ من كلامهم، بادرَ ﵇ إلى ردِّها وبيان ضعفها وتناقضها:

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ أي: أخْبِروني إن كنتُ على برهانٍ واضحٍ يشهد بصدق دعوتي.

﴿وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾ أي: نعمة عظيمة من عنده، وهي النبوَّة.

﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ أي: خفيت البيِّنة عليكم فلم تهدكم.

والبيِّنة كما تكون بصيرة ومبصرة، تكون في حال خفائها وعدم فهمها عمياء، كالأعمى لا يهدي ولا يهتدي، وبيِّنةُ نوح ﵇ ظاهرةٌ واضحةٌ، ومع ذلك فقد خفيت عليهم، فهو تعريضٌ بضعف مداركهم، وقلَّة فهمهم.

﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ أي: أنكرهكم عليها.

﴿وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ أي: وأنتم معرضون عنها، لا تتدبَّرون فيها، ولا تحاولون فهمها.

ولا يخفى ما في كلامه ﷺ من ردٍّ على انتقادهم للمؤمنين، بأنهم بادروا إلى تصديق نوح دون نظر وتفكير، فدعوته ﷺ تقوم على التفكر والنظر والدليل والبرهان، ولا تقوم على التقليد الأعمى، ولا على الإجبار والإكراه.

﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا﴾ أي: لا أطلب منكم مالاً تؤدُّونه إليَّ في مقابل إيمانكم واتباعكم، فدعوتي منزهةٌ عن المطالب الدنيوية والمنافع المادية.

﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: ما أجري إلَّا من عند الله تعالى؛ لأنها دعوة خالصة له ﷻ.

والجدير بالذكر أنَّ جميع الأنبياء ﷺ أعلنوا مثل ذلك، فبرَّؤوا دعوتهم عن أي كسب ونفع دنيوي، حتى نبينا محمد عليه الصلاة والسلام أمرَه ربُّه أن يعلن ذلك لقومه: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣].

وهذا ما يجب على الدعاة أن يلتزموا به، فينزِّهوا دعوتهم عن كل غرض دنيوي، ويجعلوها نقية خالصة لله تعالى.

﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ وهو جواب عمَّا أشاروا إليه بقولهم: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ [هود: ٢٧].

فكأنهم قالوا له: إنَّ اتباع الضعفاء والفقراء لك مانع لنا عن اتباعك.

ولمَّا طلب كبار مشركي قريش من النبيِّ ﷺ أن يطرد ضعفاء المؤمنين والفقراء، ويبعدهم عن مجلسه حتى يأتوا إليه ويستمعوا منه، أنزل سبحانه ردّاً على طلبهم قوله الكريم: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا

عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢].

وقوله أيضاً: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

فمواقف العناد والجحود عند الأمم الكافرة متشابهة، ولو اختلفت الأزمنةُ والأمكنةُ، كما أنَّ مواقف الأنبياء ﷺ وثباتهم على مبادئهم متشابهة أيضاً؛ لأن دعوتهم واحدة.

﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ أي: إنهم مسؤولون عن أعمالهم أمام الله تعالى، فهو الذي يحاسبهم، وهو عليم بصدق إيمانهم، وصلاح أعمالهم، فكيف أطردهم؟! وهو كقوله أيضاً: ﴿قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الشعراء].

﴿وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ أي: تجهلون أن الإنسان مسؤول عن أعماله يوم القيامة، وقد يكون المراد من وصفهم بالجهل وصفهم بالسفه والطيش والحماقة، والمعنى على ذلك: ولكنكم قوم تتسافهون على المؤمنين بنسبتهم إلى الخساسة، وجعل فقرهم وضعفهم رذالة.

﴿وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ﴾ أي: لا أحد يمنعني ويحميني من عذاب الله تعالى إن خالفتُ أمره، وطردتُ المؤمنين، وهذا إقرارٌ ضمني بالمسؤولية أمام الله تعالى.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: أفلا تتَّعظون.

﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣١﴾.

﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ﴾ أي: حين أدعي النبوة.

﴿عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ أي: رزقه وأمواله، حتى تستدلُّوا بعدمها على كذبي، وهو ردٌّ على قولهم: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧] فالنبوَّةُ لا تُنال بكثرة المال، وهي أعزُّ من الدنيا بما فيها.

وقد يكونُ مراده ﷺ: ليسَ عندي خزائنُ الله فأعطيكم منها إن آمنتم، فالإيمانُ يجبُ أن يكونَ خالصاً لله تعالى، منزَّهاً عن أي نفع دنيوي.

﴿وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾ أي: ولا أدعي علم الغيب، حتى أعلم ما في نفوس أتباعي، وما تخفيه ضمائرهم.

﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ﴾ وهو ردٌّ على قولهم: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا﴾ [هود: ٢٧].

وهو ما أمر الله النبي ﷺ أن يقول لقومه: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠].

﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ﴾ أي: لا أقول لفقراء المؤمنين الذين تحتقرهم أعينكم لن يؤتيهم الله في الدنيا والآخرة خيراً، حتى لا يكونوا أفضلَ منكم، فالله سبحانه سيؤتيهم خيراً عظيماً في الدارين.

﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ﴾ أي: من صدق الاعتقاد أو عدمه.

﴿إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: إن قلتُ شيئاً من ذلك.

فللنبي حدوده المرسومة بواسطة الوحي المنزل عليه، لا يستطيع تجاوزها، وإلا عرَّض نفسه للمسؤولية والجزاء.

هكذا نقض ﷺ بقوة بيانه وعلوِّ برهانه أقوال الملأ من قومه، وبيَّن سقوطها وتهافتها، مما جعلهم ينصرفون عن مجادلته، ويُقْبِلون على معاندته وتهديده:

﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

وظهر بقولهم هذا جهلُهم أيضاً؛ لأنَّ العذاب بيد الله تعالى، لا بيد نوح عليه السلام. ولهذا ردَّ عليهم:

﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ﴾ فالعذاب منوط بمشيئة الله تعالى وحده.

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: وما أنتم بقادرين على الفرار منه إن أتاكم.

ثم أضاف عليه السلام، يبيِّن تمام مشيئته تعالى ونفاذها في جميع المكونات:

﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ أي: إن كان اللهُ يريدُ أن يضلَّكم فلا ينفعكم نُصحي إن أردتُ أن أنصحَ لكم؛ لأن إرادته تعالى فوق إرادتي.

﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ أي: هو خالِقُكم ومالكُ أمرِكم، ومشيئته نافذة فيكم.

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ليحاسبكم ويجازيكم على أعمالكم.

وبعد أن نقلت الآياتُ هذه المحاورةَ، التي حدثت قبل آلاف السنين بين نوح والملأ من قومه، توقفت قليلاً عن متابعة عرض أحداث القصة، لتؤكد صدق القرآن الكريم، وأنَّه كلام الله تعالى، أنزله على رسوله ﷺ، ولتردَّ على اتهام المشركين له عليه الصلاة والسلام بافترائه، وتقرِّر مسؤوليته إن افتراه، فهي نقاط هامة بارزة في هذه المحاورة:

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ أي: أبعدَ هذه الأخبار المغيَّبة التي لا يعلمها أحد إلا الله تعالى، يدَّعي المشركون أنَّ محمداً افترى القرآن الكريم؟!.

﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى﴾ أي: إن صحَّ أني افتريته فعليَّ عقوبة إجرامي.

﴿وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ أي: وأنا بريء من إجرامكم في اتهامي بالافتراء، وغير مسؤول عن ذنوبكم وآثامكم، فكلُّ إنسانٍ مسؤول مسؤوليةً شخصيةً عن أعماله أمام ربه ﷻ.

• **سفينة نوح:**

واستأنفتِ الآياتُ بعد هذه الوقفة القصيرة، عرض قصَّة نوح عليه السلام مع قومه:

﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ وهذا إقناط له عليه السلام من إيمانهم، وإعلام له بأنَّه لم يبقَ فيهم من يتوقع إيمانه، وجاء هذا الوحي بعد أن لبث فيهم مدةً طويلةً وهو يدعوهم، ويتحمَّل أذاهم، ويصبرُ على غِلْظتهم وجفوتهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤].

وبعد أن أقنطه تعالى من إيمانهم، دعا نوحٌ عليهم، وهي الدعوة التي حكاها عنه تعالى في قوله: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح].

﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ أي: لا تحزن بما كانوا يواجهونك به من العناد والأذى والتكذيب، في هذه المدة الطويلة، فقد اقترب وقت الانتقام منهم.

ثم أمره تعالى أن يهيِّئَ أسباب النجاةِ من الغرق، ويصنع السفينة، وهذا يدلُّ على مشروعية الأخذ بالأسباب، وأنَّ الأسباب والمسببات منه جلَّ وعلا:

﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾ أي: اصنع السفينة محفوظاً برعايتنا وحمايتنا.

والفُلْكُ: اسم يدل على المفرد والجمع.

﴿وَوَحۡيِنَا﴾ أي: واصنعها على حسب ما نوحي إليك ونعلِّمك، فقد كان ﷺ يجهلُ كيفية صنعها، فأوحى سبحانه إليه ذلك.

﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ أي: لا تراجعني فيهم، ولا تسألني رفع العذاب عنهم.

﴿إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾ أي: محكوم عليهم بالإغراق.

وهكذا قضى الحق سبحانه قضاءه المبرم، فلا رادَّ له.

﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ﴾ أي: وشرع ﷺ يصنع الفلك بحسب توجيهات الوحي.

ودلَّ التعبير بالمضارع على ملازمته على صنعها واستمراره عليه بدأب وجدٍّ.

﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ﴾ أي: استهزؤوا به، إما لكونهم ما كانوا يعرفونها ولا كيفية استعمالها والهدف منها، أو لأنه كان يصنعها فوق أرضٍ يابسةٍ بعيدةٍ عن الماء، وقد يكونُ استهزاؤهم استبعاداً لوقوع العذاب الذي توعَّدهم به.

ولم يتأثر ﷺ باستهزائهم، ولم يشغله عن متابعة عمله، وكان يجيبهم جواب الواثق من ربه جلَّ وعلا:

﴿قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا﴾ أي: إن تسخروا منَّا ونحن نعمل في صنع السفينة، ونسعى في تحصيل أسباب النجاة من الغرق.

ودلَّ قوله على أنَّ المؤمنين كانوا يساعدونه في صنع السفينة.

﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ أي: فإنا نقابل سخريتكم بمثلها، بسبب جهلكم وغروركم، أو إنَّا نسخر منكم عندما ينزل العذاب بكم.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أي: فسوف تعلمون علم المشاهدة واليقين، مَنْ يصيبهُ عذابٌ فيه ذل ومهانة، وهو الغرق في الدنيا.

﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي: يحلُّ عليه عذاب دائم أبداً لا ينقطع، وهو عذاب النار يوم القيامة.

ولا بدَّ أن تكونَ السفينة كبيرة ضخمة، بذل ﵇ مع المؤمنين جهداً كبيراً متواصلاً حتى أكملوا صنعها.

وانتظر ﵇ بعد أن فرغَ من صنع السفينة، الأجل الموعود الذي جعله له الله تعالى علامة، وهي نبع الماء بقوَّةٍ من التنُّور.

وهو تنُّور الخبز الذي كان نوح ﵇ ينضِجُ فيه الخبزَ، وقد يكون المراد الجنس، فيشمل تنور نوح وكل تنور في الأرض، وقد يراد بالتنور وجه الأرض(١).

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ وهو نزول العذاب بهم.

---

(١) انظر: روح المعاني: ١٢/ ٥٢.

﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ أي: نبع منه الماء وارتفع بشدة وغزارة.

وهو دليلٌ على كمال قدرة الله تعالى، إذ أخرج الماء من موضع وجود النار.

- **شحن السفينة وتحميلها:**

وعلم نوح عليه السلام أنَّ وقت الطوفان قد أزف، فأسرع إلى السفينة يحمل فيها ما أمره سبحانه بحمله، وهو حمل عجيب شحنه فيها عليه السلام بقدرته تعالى ومشيئته وأمره:

﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ أي: احمل في السفينة من كل نوع من أنواع المخلوقات الأرضية البرية زوجين ذكراً وأنثى.

فالزوج: الفرد الذي له مُشاكِلٌ من نوعه، فالذكر زوج للأنثى، وهي زوج للذكر، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

وقرئ على الإضافة: (**من كلِّ زوجين اثنين**).

ولا بدَّ أنه تعالى سخَّر هذه الأزواج لنوح عليه السلام، فجاءته منقادةً طائعةً، إذ هو سبحانه الآمر والمعين على تنفيذ الأمر، والمعونة تأتي على قدر المؤونة، فلا حاجةَ بنا إلى الخوض بكيفية الشحن كما فعل المفسرون، كما لا حاجة أيضاً إلى تقييد عموم الآية بقدرة نوح واستطاعته، كما رأى سيد قطب رحمه الله حين قال: «﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ مما يملك نوح أن يمسك وأن يستصحب من الأحياء، وما وراء ذلك خبط عشواء»[1].

إنَّ الآية مطلقة تدلُّ على العموم، ويؤكد العمومَ قراءةُ الجمهور بالإضافة، كما ذكرنا (**من كلِّ زوجين اثنين**)؛ و(**كل**) إذا أضيفت إلى نكرة عمَّت، وتخصيص العموم من دون مخصص هو خبط عشواء، ويدلُّ العموم على أنَّ الطوفان عمَّ الأرض اليابسة كلها في ذلك العصر، فالأمرُ معجِزٌ خارقٌ لقدرات

(١) في ظلال القرآن: ٤/ ٥٤٨.

البشر، أجراه جلَّ وعلا على يد نبيه نوح عليه السلام، كما أجرى كثيراً من المعجزات وخوارق العادات على يد غيره من الأنبياء عليهم السلام، فشحْنُ السفينة بأزواج من جميع الأنواع الأرضية البرية، أمر معجز تمَّ بأمر الله ومشيئته وقدرته، وقد سمَّاه الله آية، أي: معجزة؛ في قوله: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ [يسٓ: ٤١].

كما سمَّى سبحانه صُنع السفينة نفسها آية في قوله الكريم: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٥]، وكأنها أول سفينة صنعها الإنسان في التاريخ.

﴿وَأَهْلَكَ﴾ أي: واحمل في السفينة أهلك، وهم أهل بيته من النساء والأولاد.

﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ أي: إلا من سبق عليه قضاء الله تعالى في الهلاك والغرق، لأنه اختار الكفر، وهم زوجته وأحدُ أولاده، قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠]؛ وكانت خيانتهما بالكفر والمخالفة في الدين.

وقال جلَّ جلاله أيضاً: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٧].

﴿وَمَنْ ءَامَنَ﴾ أي: واحمل المؤمنين أيضاً، فقد وعد سبحانه بنجاة الأنبياء، ونجاة أتباعهم من المؤمنين، كما في قوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٣].

﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أي: ما آمن إلا عدد قليل من قومه، مع أنه عليه السلام لبث يدعوهم مدة طويلة امتدت نحو ألف عام، كما مرَّ معنا.

ولهذا الخبر دلالته، فمن أجل هذا العدد القليل المؤمن، أجرى الله

الطوفان الذي دمَّر كلَّ شيء في الأرض من حياة وعمران، وجعل وراثة الأرض وعمرانها بعد ذلك لهذا العدد القليل المؤمن، إنَّ البذرةَ المسلمة في الأرض شيءٌ عظيمٌ في ميزان الله تعالى(١).

• **الطوفان:**

وأمرهم عليه السلام أن يركبوا في السفينة على اسمه تعالى:

﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ أي: وقت جريها وإرسائها، فحركتها وثباتها بمشيئته تعالى وقدرته، فهي في رعايته وحِماه.

﴿إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يغفر للمؤمنين ما سلف من معاصيهم، ويرحمهم بتيسير سُبُل نجاتهم.

وفتح سبحانه بقدرته ومشيئته أبوابَ السماء بماء منهمر، وفجَّرَ الأرض عيوناً، فتدفَّق الماء من كل جزء من أجزائها، من جبالها ووديانها وسهولها، ومن بين صخورها وحبات رمالها وترابها، قال تعالى: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر].

والتقى ماء السماء وماء الأرض على أمر قد قدَّره الله تعالى، وهو إهلاك الكفرة بالطوفان الذي عمَّ الأرض كلَّها.

وارتفع الماءُ فوق اليابسة، وطفتِ السفينةُ فوق الماء، وتحركت بقدرة الله ومشيئته، الذي قال: ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر: ١٤].

وثارتِ العواصفُ، وهاجتِ الأمواجُ، وارتفعت حتى غدت كالجبال العالية، وجرت السفينةُ بعناية الله بين هذه الأمواج الهائلة:

(١) في ظلال القرآن: ٤/ ٥٧١.

﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ أي: تشبه الجبالَ في ضخامتها وعلوها وارتفاعها، ومن كابدَ البحرَ حين ارتجاجه وهيجان أمواجه، ورآه ثائراً مزبداً مزمجراً، يدركُ دقَّةَ هذا التشبيه وموضوعيته، ومع ذلك ظلَّت السفينة تجري بهم بمشيئته تعالى ورعايته، وتحت كنفه وحراسته، كما قال تعالى: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر].

وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَى أيضاً: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١].

• **الوالد المشفق والولد المغرور:**

وفي هذا الوقت العصيب، رأى نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ أحد أولاده خارج السفينة، مذعوراً خائفاً، وهو يشتدُّ راكضاً فراراً من الغرق، مع غيره من الفارين المتجهين إلى الأماكن المرتفعة والقمم العالية، فثارت في صدره مشاعر الأبوة الإنسانية الحانية، وهي لا شك عند الأنبياء أقوى وأكمل من غيرهم؛ لأن الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أكمل الناس في جميع الصفات الإنسانية المادية والمعنوية(١).

واندفع النبيُّ الوالد ينادي ولده بصوت تغلب عليه شفقة الأبوة وحنانها:

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ﴾ أي: كان عند ركوب السفينة في مكان عزل به نفسه عن أبيه وإخوته والمؤمنين، فلم يكن بين رُكَّابها، وقيل: في معزل عن الكفار قد انفرد عنهم، ولذلك دعاه إلى السفينة(٢).

﴿يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ﴾ أي: اركب معنا في السفينة، وكن مع المؤمنين، ولا تكن مع الكافرين فتكون من الهالكين.

---

(١) انظر: الأنساب والأولاد، للمؤلف.

(٢) روح المعاني: ١٢/٥٩.

وغلبَ على الولدِ الكافرِ الجهلُ والطيشُ والغرورُ، فرفض دعوة أبيه الحانية المشفقة.

﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ۝٤٣﴾.

﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ﴾ أي: سألجأ إلى جبل مرتفع يمنعني من الغرق في الماء.

قال ذلك ظنّاً منه أن هذا الطوفان كغيره من السيول المعتادة، التي يعتصم منها بالأماكن المرتفعة، فبيَّن له نوح عليه السلام أن الأمر اليوم يختلف، وأنه قضاء الله المبرم:

﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا مانع اليوم من الطوفان الذي أمر به جلَّ وعلا، وتعلَّقت به إرادتُه، وسبق به علمُه، فلا بدَّ أن يدركهم الطوفان، ولو كانوا في قمم الجبال.

﴿إِلَّا مَن رَّحِمَۚ﴾ أي: إلا مَنْ أراد الله رحمته ونجاته، وهم الذين ركبوا في السفينة، نوحٌ ومَنْ معه من المؤمنين.

وانقطع الحوار بين الوالد المشفق، وبين الولد العاق المغرور، قطعه الموج المرتفع الهادر، مما يدل على قوة الطوفان وسرعته وشدته.

﴿وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ﴾ أي: كان الولد من الهالكين.

ففي لحظة واحدة تغيَّر المشهد، وابتلع الموج الهادر كل شيء، وإننا ـ كما قال سيد قطب رحمه الله ـ بعد آلاف السنين، لنمسك أنفاسنا ونحن نتابع السياق، والهول يأخذنا كأننا نشهد المشهد، وهي تجري بهم في موج كالجبال، ونوح الوالد الملهوف يبعث بالنداء تلو النداء، وابنه الفتى المغرور يأبى إجابة الدعاء، والموجةُ الغامرةُ تحسِمُ الموقف في سرعة خاطفة راجفة، وينتهي كل شيء، وكأن لم يكن دعاء ولا جواب[١].

---

(١) في ظلال القرآن: ٤/ ٥٤٩.

• **انتهاء الطوفان وعودة التوازن:**

ووقع قضاؤه تعالى، وتمَّ أمرُه، ثم بأمره تعالى هدأت العاصفةُ أيضاً، وتوقَّف الماء المنهمر من السماء، والمتفجِّر من الأرض، وخيَّم السكون:

﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ﴾ أي: اشربي ماءك الذي خرج منك للطوفان، وردِّيه إلى جوفك، دون المياه المعهودة التي كانت على سطحك في الأنهار والعيون والبحيرات وغيرها، فلا بدَّ أن يعودَ التوازن الذي قدَّره العليم الحكيم إلى الأرض، والذي دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ ﴿١٩﴾ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ﴾ [الحجر].

ولا شكَّ أنَّ قدرته سبحانه تتعلَّق بذرات الموجودات مهما دقَّت، وأن مشيئته تعالى نافذة فيها أيضاً، وأنّ علمه وسعَ كلَّ شيء، وهو يعلم مكاييل المياه، وعدد قطر الأمطار، وعدد ورق الأشجار، فلا يعسر عليه تعالى التمييز بين مياه الطوفان، وبين غيرها من المياه التي كانت على سطح الأرض، ألا ترى أنَّه ﷻ يميِّز في كل لحظة بقدرته وعلمه بين المياه المالحة والعذبة في الأرض، فلا تطغى إحداهما على الأخرى، كما أخبر عن ذلك بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞ وَجَعَلَ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٗا وَحِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا﴾ [الفرقان: ٥٣].

﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾ أي: أمسكي وتوقفي عن إرسال المطر.

وتمَّ مراده تعالى مباشرة دون تأخير، فكل المكونات من سماء وأرض وأجرام وذرات منقادة لأمره ومشيئته ﷻ.

﴿وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ﴾ أي: نقصَ الماءُ وشرع بالتراجع، رجع ماء الأرض إلى

موطنه في جوفها، وقد كشف علم طبقات الأرض عن وجود كميات هائلة من المياه في جوفها. وارتفع ماء السماء بالتبخر المعهود، أو بالوسيلة التي قدرها العليم الحكيم.

﴿وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي: تمَّ الأمرُ الإلٰهي، ووقع مراده جل وعلا بإهلاك الكافرين.

﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ﴾ أي: رست السفينة على جبل الجودي، وهو جبل في شمال العراق.

﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي: هلاكاً للقوم الذين ظلموا أنفسهم بعنادهم وكفرهم.

ولم يصرِّح سبحانه بمن أغاض الماء، ولا بمن قضى الأمر وسوَّى السفينة وقال: بُعداً، كما لم يصرِّح بقائل: يا أرض ويا سماء، سلوكاً في كل واحد لسبيل الكناية، وأنَّ تلك الأمور العظام لا تكون إلا بفعل فاعل قادر، وتكوين مكوِّن قاهر، وأنَّ فاعلها واحد لا يُشارَك في فعله، فلا يذهب الوهم إلى أن يقول غيره: يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي، ولا أن يكون الغائض والقاضي والمسوِّي غيره[١].

• **المسؤولية الشخصية:**

ويبدو أنَّ نوحاً عليه السلام ما عرف أنَّ ولده أصبح من الهالكين، بعد أن حال الموجُ بينهما، كما أنه ما كان يعلم أنَّ ولده كان كافراً، وبقيت أمواجُ القلقِ والخوفِ على ولده تتقاذفه، كما كانت أمواجُ الطوفان تتقاذف السفينة، ولمَّا سكنتِ العاصفةُ، وأقلعتِ السماءُ، وغِيْضَ الماءُ، أخذ ينظر حوله في الآفاق البعيدة والقمم العالية، التي بدأت تظهر، لعلَّه يرى ولده، ثم توجه إلى الله تعالى ضارعاً:

---

(١) تفسير النسفي: ١/ ١٩٠.

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: إن وعدك حق ثابت لا خُلْفَ فيه، ولا شك في إنجازه والوفاء به، وقد وعدتني أن تنجي أهلي، وإن ابني من أهلي.

﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ أي: أعلم الحكّام وأعدلهم.

﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

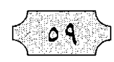
﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي: إنه لا يُعَدُّ من أهلك، أو ليسَ من أهلك الذين أمرتُك بحملهم في السفينة.

وعلى التقديرين لم يكن ولده من الذين وعد الله بإنجائهم، وبيَّن سبحانه سبب ذلك فقال:

﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ أي: إنه ذو عمل غير صالح، فجعل العامل نفس العمل مبالغة، فقد كان كافراً، ونجاة من نجا بسبب إيمانه وصلاحه.

وقرابة النسب تنقطع بالموت على الكفر، ولهذا لا يتوارثان، وقرابة الدين أقوى من قرابة النسب، ولهذا لا تنقطعُ بالموت، بل تبقى وتستمر، وينفع الله تعالى الميت المسلم بصلاة المسلمين عليه ودعائهم واستغفارهم له، ويجمع الله بينهم بفضله ورحمته في الجنة، بعد أن يلحقَ المقصِّر منهم بالسابق، كما في قوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١].

﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي: لا تسألن ما ليس لك به علم بجواز مسألته، وفيه دليلٌ على أن نوحاً عليه السلام كان يجهل كفر ولده.



﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ أي: إنِّي أحذِّرك بعد أن عرفت حقيقة الأمر، أن تكون من العاصين.

فلا تدلُّ هذه الموعظة على أن نوحاً عليه السلام قارفَ ذنباً، بل هي تأديبٌ له، وتحذيرٌ من فعله في المستقبل، ولهذا بادر عليه السلام إلى اللجوء إلى الله تعالى، والاستعاذة به ليعصمه من مقارفة أي ذنب، وأظهر بهذا الدعاء احتياجه وافتقاره إلى الله تعالى، وكمال خضوعه له:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ﴾ أي: أعوذ بك أن أسألك ما لا علمَ لي بصحته؛ تأدباً بأدبك واتعاظاً بموعظتك.

﴿وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي﴾ أي: ما سبق مني، وهذا يدلُّ على كماله عليه السلام، وعظيمِ خشيته لله تعالى، حتى رأى أنَّ ما سبقَ منه ذنب ينبغي عليه أن يستغفر الله منه.

﴿وَتَرۡحَمۡنِيٓ﴾ أي: بالعصمة والفضل والإحسان.

﴿أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ أي: الهالكين.

والجدير بالذكر أن خبر نوح مع ولده لم يذكر إلا في سورة هود، مع أنَّه سبحانه ذكر قصة نوح في عدة سور، وخصَّص لها في المفصَّل سورة كاملة سُمِّيَتْ باسمه.

وقد دلَّت هذه الحلقة من قصة نوح عليه السلام، على أنَّ الإنسانَ مسؤولٌ عن عمله مسؤولية شخصية فردية، فلا يسأل أحد عن ذنب غيره مهما كانت القرابة بينهما، فمن بطَّأ به عملُه لم يسرع به نسبه، وكلُّ إنسانٍ مكلَّفٌ مسؤول عن كسبه واختياره، كما في قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء].

ولعلَّ هذا سر انفراد سورة هود بهذه الحلقة الجديدة من قصة نوح عليه السلام مع قومه، فهي تتفقُ تماماً مع موضوع المسؤولية والجزاء، الذي تدور آيات السورة في فلكه.

• **البشرية من جديد:**

﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ﴾ أي: انزل من السفينة بأمن وسلام من الله تعالى وخيرات نامية تفضَّل بها عليك.

﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ﴾ أي: وتفضَّل سبحانه بها أيضاً على أمم ممن معك في السفينة.

فالبشرية الجديدة تتشعَّبُ منهم، وهم يحملون في أصلابهم نطف النسل الجديد، الذي سيمتدُّ وجودُه إلى يوم القيامة، إذ قدَّر سبحانه أن يكون نوح عليه السلام هو الوالد الثاني للبشرية بعد آدم عليه السلام، فمن أولاده الذين كانوا معه في السفينة، تناسل البشرُ وانتشروا في الأرض، وأصبحوا بعد ذلك قبائل وشعوباً، وأمَّا الآخرون من المؤمنين الذين كانوا معه في السفينة، فلم يجعل الله تعالى ـ بحكمته وقدرته ـ لهم ولداً ولا نسلاً، وأخبر سبحانه عن ذلك في **سورة الصافات** بقوله: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾﴾.

وهكذا بدأت عمارة الأرض بالمؤمنين الموحِّدين، كما بدأت في فجرها الأول في عهد آدم عليه السلام، الذي كان رسولاً إلى أولاده، فالكفر طارئ على البشرية، والله سبحانه خلق البشر موحِّدين، وفطرهم على ذلك، ثم طرأ عليهم الكفر بسبب تزيين الشيطان ووسوسته، كما مرَّ معنا في الحديث الشريف: «**إني**

خلقتُ عبادي حنفاءَ كلَّهم، وإنَّهم أتتْهُم الشياطينُ فاجْتالَتْهُم عن دينهم» [رواه مسلم (٢٨٦٥)].

وهم الذين عناهم الله تعالى بقوله:

﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: وسيكون ممن معك في السفينة أمم سيمتعهم الله تعالى مدة حياتهم في الدنيا، ثم يكونُ مصيرهم بسبب كفرهم وفجورهم إلى العذاب الأليم يوم القيامة.

فقد عادت البشرية الجديدة إلى التوحيد، الذي كانوا عليه في عهد آدم عليه السلام، وهبطوا من السفينة مؤمنين موحِّدين، ثم أخرج الله منهم نسلاً انقسموا إلى فريقين: فريقٍ مؤمن بالله وبمسؤوليته أمامه يوم القيامة، وهم أمم السلام والبركات والخيرات، وفريقٍ آخر كافرٍ بالله، جاحد للمسؤولية والجزاء، وهم أمم المتاع والعذاب.

وكان محمد بن كعب القُرظي رحمه الله عندما يقرأ هذه الآية يقول: دخل في هذا السلام كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة، وكذلك في العذاب والمتاع كل كافر وكافرة إلى يوم القيامة[١].

وهذه الحقيقة، حقيقة أنَّ أول عقيدة عُرفت في الأرض هي عقيدة الإسلام لله تعالى وحده، تقودنا إلى رفض كل ما يخبط فيه من يسمون علماء الأديان المقارنة، وغيرهم من التطويريين، الذين يتحدَّثون عن التوحيد بوصفه طوراً متأخراً من أطوار العقيدة، سبقته أطوار شتى من التعدد للآلهة، ومن تأليه القوى الطبيعية والأرواح والشموس والكواكب . . . إلى آخر ما تتخبط به هذه البحوث، التي قامت منذ بدايتها على منهج موجَّه بعوامل تاريخية ونفسية وسياسية معينة، تهدفُ إلى تحطيم قاعدة الأديان السماوية والوحي الإلٰهي، وتزعمُ أنَّ الأديان من صنع البشر، وأنها تطورت بتطور الفكر البشري على مدار الزمان[٢].

---

(١) تفسير ابن كثير: ٢/٤٤٨.

(٢) انظر: في ظلال القرآن: ٤/٥٥٥.

وأوردت الآيات تعقيباً واحداً على قصة نوح عليه السلام، بخطاب وجهته إلى النبي ﷺ، تصبِّره وتثبته في مواجهة عناد قومه وأذاهم:

﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ﴾ فهي من التاريخ البعيد السحيق الموغل في القدم، والتي ما كان النبي ﷺ ولا قومه يعلمونها.

ولا يزال الجهل بها مستمرّاً حتى عصرنا الحاضر، فهي من العصور التاريخية المظلمة، التي لم يتمكن المؤرِّخون من إلقاء أي ضوء كاشف عليها، ولهذا أطلقوا عليها اسم عصور ما قبل التاريخ.

﴿مِن قَبْلِ هَذَا﴾ أي: من قبل الوقت الذي أوحى الله فيه هذه الآيات إليك.

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: اصبر على تبليغ الرسالة كما صبر نوح عليه السلام، فإنَّ النصرَ والفوزَ للمتقين، كما كان لنوح عليه السلام والمؤمنين معه.

- **قصة هود وقومه:**

﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ أي: أرسلنا إلى عاد أخاهم في النسب هوداً عليه السلام.

وكانوا أمة تسكنُ الأحقافَ في جنوب الجزيرة العربية، ما بين عُمان إلى حضرموت، ولعلَّها الآن منطقة صحراء الربع الخالي، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٢١].

﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أي: اعبدوا الله وحده وأطيعوه. وكانوا مشركين يعبدون الأصنام.

﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ أي: ما لكم معبود يستحق العبادة غير الله تعالى.

﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ أي: ما أنتم بجعل الألوهية لغيره تعالى إلا كاذبون.

ثم أعلن عليه السلام براءةَ دعوته وترفُّعَها عن أي مطلب دنيوي ونفع مادي، فقال:

﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾﴾.

﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ﴾ أي: ما أجري إلا على الذي خلقني؛ لأنَّ دعوتي خالصة له جل وعلا، فهي منه وإليه.

وقد مرَّ معنا أنَّ جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قد أعلنوا مثل هذا الإعلان، عند قول نوح: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ [هود: ٢٩].

ويبدو أن هوداً عليه السلام أعلن ذلك ردّاً على اتهام قومه له أو تلميحهم له، بأنه يريد من دعوته هذه أن يحقِّقَ لنفسه بعض المكاسب المادية، ولهذا قال معقباً:

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أفلا تعقلون أنني لا أريد من دعوتي هذه أي كسب دنيوي.

﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ أي: اسألوا ربكم المغفرةَ لما سلف من كفركم ومعاصيكم، بالإيمان به وعبادته وحده.

﴿ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ أي: توبوا إلى الله بتركِ الكفر والمعاصي والندم عليها.

وقد مرَّ معنا في أول السورة أن نبينا عليه الصلاة والسلام، قال مثل ذلك لقومه عندما كان يدعوهم: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ [هود: ٣]؛ فقد حثهم النبيُّ ﷺ على قبول دعوته والاستغفار والتوبة، وأطمعهم بالمتاع الحسن في الدنيا والثواب الجزيل في الآخرة، كما فعل هود عليه السلام، الذي قال لقومه:

﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ أي: ينزل سبحانه المطرَ عليكم متتابعاً بالخير الكثير الوفير.

ويبدو أنَّهم كانوا أهل غنًى وسَعةٍ، وأهل زرع وضَرْع، وقد حبس الله تعالى عنهم المطر بسبب بغيهم وظلمهم وإعراضهم عن دعوة نبيهم عليه السلام، دلَّ على ذلك قوله تعالى على لسان هود: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الشعراء].

وأما احتباس المطر فدلَّ عليه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف: ٢٤].

فالقوم كانوا يتلهَّفون على نزول المطر، بسبب احتباسه الطويل عنهم، ولهذا أطمعهم نبيهم هود عليه السلام به.

﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ أي: يمدكم ربكم بمزيد من أسباب القوة والسعة والغنى، فقد كانوا أقوياء في الأبدان والأموال، وقد أشار عليه السلام إلى قوة أبدانهم في قوله الذي حكاه الله تعالى عنه: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩].

وقد أبطرتهم قوتهم، وجعلتهم يتكبرون على الناس ويظلمونهم، ولهذا قال لهم نبيهم هود:

﴿وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ﴾ أي: لا تعرضوا عن دعوة الله وعبادته، مصرِّين على ما أنتم عليه من ظلم وإجرام، فقد كانوا عتاة أقوياء جبارين، كما مرَّ في قول هود لهم: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٠].

وقد حكى الله تعالى عنهم من شدة تكبُّرهم وتجبُّرهم: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥].

فدعوة الأنبياء عليهم السلام دعوةُ خيرٍ وإصلاح للناس، تواجه الظالمين وتردعهم عن ظُلمهم وطُغيانهم.

﴿قَالُواْ يَـٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿قَالُواْ يَـٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ﴾ أي: ما جئتنا بحجة تدلُّ على صحَّة دعوتك، ومعجزة تبين صدق رسالتك.

قالوا ذلك عناداً وتغافلاً عن البينات والحجج التي أيده الله تعالى بها، فما من نبيٍّ بعثه الله تعالى إلا وأيده بالبينات الدالة على صدقه وصحة نبوته، قال تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۛ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ﴾ [إبراهيم: ٩].

وفي الحديث الشريف: أنَّه عليه الصلاة والسلام قال: «**ما مِنَ الأنبياءِ نبيٌّ إلا أعطيَ مِنَ الآياتِ ما مِثْلُهُ آمنَ عليه البَشَرُ، وإنَّما كانَ الذي أوتيتُه وحياً أوحاهُ اللهُ إليَّ، فأرجو أنْ أكونَ أكثرَهم تابعاً يومَ القيامةِ**» [رواه البخاري (٤٩٨١)].

﴿وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا﴾ أي: وما نحن الذين نترك عبادة آلهتنا ونتبع قولك.

﴿عَن قَوۡلِكَ﴾ أي: صادرين عن قولك.

﴿وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: وما نحن لك بمصدِّقين.

فكلامهم يدلُّ على تكبُّرهم وتجبُّرهم، وأنهم مصرُّون على كفرهم وشركهم، ومتمسِّكون بأوثانهم وأصنامهم، وقد قابلوا نبيهم هوداً بهذه المقابلة الجافية الغليظة، التي أظهرَ الله جفوتها وغلظتها في **سورة الأعراف** بقوله: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

ثم ازدادوا جفوةً وغلظةً وسوءَ أدبٍ معه عليه السلام، فقالوا له:

﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥﴾.

﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ﴾ أي: لا نقول فيك إلا قولاً واحداً، وهو أنَّ بعضَ آلهتنا غضبَ من مقالتك، وأصابك بسوء، جنون أو خبل.

• **براءة وتَحَدٍّ:**

فما كان من هود ﵇ إلا أن واجه جفوتهم وغلظتهم بشجاعة وثقة، فأعلنَ براءته من كفرهم وشركهم، وتحدَّاهم وتحدَّى آلهتهم أيضاً أن يقدروا على إيصال أي ضرر إليه:

﴿قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِۦۖ﴾ أي: إني أشهد الله أني بريء مما تشركون من دونه تعالى، واشهدوا أنتم أيضاً أني بريءٌ من ذلك.

وهو إمعان منه ﵇ في تحديهم وفي التهكُّم منهم، والاستهانة بقوتهم ووعيدهم.

﴿فَكِيدُونِي جَمِيعٗا﴾ أي: فكيدوني أنتم وآلهتكم مجتمعين، فإني لا أبالي بكم ولا بهم.

﴿ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ أي: لا تمهلوني ولو طرفة عين.

وهذا الموقفُ الشجاعُ من أعظم المعجزات، فإنَّه عليه الصلاة والسلام كان رجلاً مفرداً، بين الجم الغفير والجمع الكثير، من عُتاةِ عاد الغلاظ الشداد، وقد خاطبهم وحقَّرهم وحقَّر آلهتهم، وهيجهم على مباشرة المضارة، فلم يقدروا على مباشرة شيء، وظهر عجزُهم عن ذلك ظهوراً بيِّناً، فكيف لا وقد التجأ إلى ركن منيع رفيع، واعتصم بحبل متين[١]، حيث قال:

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود: ٥/ ١٠٥.

﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ﴾ فهو ربي وربكم شئتم أم أبيتم.

وتدلُّ كلماته عليه السلام على شدة ثقته بالله تبارك وتعالى واعتماده عليه.

﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ﴾ أي: ما من دابة تدب على الأرض، إلا هو مالكٌ لها، قادرٌ عليها، فلا تتحرك ولا تسكن إلا بإرادته وقدرته جلَّ وعلا، فأنتم في قبضةِ قدرته، وتحتَ قهر مشيئته جل جلاله.

والناصيةُ: مقدِّمةُ الرأس، والأخذ بالناصية تمثيلٌ للقهر والتمكن، والعرب إذا وصفوا إنساناً بالقهر والتمكن من إنسان آخر ذلَّ له وخضع، قالوا: ما ناصية فلان إلا بيد فلان، وكانوا إذا أسروا الأسير فأرادوا إطلاقه والمنَّ عليه، جزُّوا ناصيته، ليكونَ ذلك علامةً على قهره، فخوطبوا في القرآن بما يعرفون[(١)].

﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ أي: إنَّه سبحانه مع كمال قدرته وتمام مشيئته، على عدل وحكمة، لا يظلم أحداً ولا يفعل بهم إلا ما هو الحق والعدل.

أو: إنه تعالى لا يضيعُ عنده معتصمٌ به ومتوكل عليه، ولا يفلتُ منه ظالم.

﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ﴾ أي: إن تعرضوا عن دعوتي فأنتم المسؤولون عن ذلك أمامَ ربكم، أما أنا فمسؤولٌ عن تبليغ رسالة ربكم، وقد أبلغتُكم هذه الرسالة، وأديت لكم الأمانة.

﴿وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾ أي: وهو سبحانه قادر على أن يهلككم ويستخلف قوماً غيركم.

---

(١) انظر: تفسير الرازي: ٥/ ١٠٠.

﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا﴾ أي: لا تضرونه تعالى بإعراضكم؛ لأنه الغني عنكم، فطاعتكم لا تنفعه، وكفركم وفجوركم لا يضرُّه جلَّ وعلا.

﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ أي: إن ربي رقيب مهيمن على كل شيء، فهو قائم على كل نفس، فلا تخفى عليه أعمالُكم، وهو سائلكم عنها، ومجازيكم عليها.

- **العذاب الغليظ:**

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ أي: بإنزال العذاب بهم. وفي التعبير عنه بالأمر المضاف إلى ضميره ﷻ، وعن نزوله بالمجيء، ما لا يخفى من التفخيم والتهويل[1].

﴿نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ أي: نجينا هوداً والمؤمنين بفضل منَّا عليهم.

﴿وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ أي: شديد، وهو الريح العقيم.

ذكره سبحانه هنا مجملاً، وفصله في مواضع أخرى، كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة].

وقوله أيضاً: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر].

وقوله أيضاً: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف].

ثم دعت الآيات إلى الاعتبار بقصَّتهم، والاتعاظ بما حلَّ بهم:

---

(١) تفسير أبي السعود: ٥/١٠٧.

﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ أي: هذه قصتهم ومصيرهم، كفروا بآيات ربهم عناداً واستكباراً بعد أن استيقنوا صحتها، كما فعل فرعون وقومه، الذين قال تعالى فيهم: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤].

﴿وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ﴾ أي: عصوا جميعَ رسل الله تعالى، فعصيان رسولهم هود عليه السلام عصيان لجميع المرسلين؛ لأن دعوتهم واحدة.

﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي: اتبعوا المتجبرين المعاندين من رؤساء الكفر والضلال.

ولا يخلِّصهم هذا الاتباع من المسؤولية والجزاء يوم القيامة، فكل إنسانٍ مسؤولٌ عن اختياره وكسبه، وإن رؤساء الضلال والكفر يتبرؤون يوم القيامة من أتباعهم، قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة].

وجزاؤهم يبدأ من الدنيا ويمتد إلى الآخرة، ولهذا قال تعالى:

﴿وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ فهي لعنةٌ ملازمةٌ لهم لا تفارقهم، تتبعهم حيث كانوا، وتدور معهم حيث داروا، والمرادُ منها الإبعاد عن رحمته تعالى، ولا تخفى المقابلةُ بين اتِّباعهم لزعمائهم، واتِّباع اللعنة لهم.

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: أتبعوا أيضاً يوم القيامة لعنة توصلهم إلى عذاب جهنم.

﴿أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ وهو دعاء عليهم بالهلاك مع كونهم هالكين؛ لتفظيع حالهم والاعتبار بقصَّتهم، ويبدو أنَّ وصفهم بقوم هود لتمييزهم عن عاد الثانية، إذ يرى بعض المفسرين أنه وجد في التاريخ أمتان

سُمِّيتا بعاد، وقوم هود هم عاد الأولى، وإليه أشار قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾ [النجم: ٥٠]، والله سبحانه أعلم.

• **قصة صالح وثمود:**

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾.

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ﴾ أي: وأرسلنا إلى ثمودَ أخاهم صالحاً، وهي قبيلة كبيرة كانت تسكن في شمال الجزيرة العربية، في وادي الحِجْرِ بين المدينة المنوَّرة وتبوك، قريباً من ساحل البحر الأحمر.

وقال لهم صالح عليه السلام الكلمة التي قالها نوح وهود عليهما السلام من قبله: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ﴾ وهذا يدلُّ على أن رسالة الأنبياء واحدة.

﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: هو الله الذي ابتدأ خلقكم من تراب الأرض، فهو وحده المستحق للعبادة.

وإخباره عن هذه الحقيقة دليلٌ على صحة نبوَّته وصدق رسالته، فما كان الناسُ في زمنه يعرفونها، وقد أخبر سبحانه عنها في عدد من آيات التنزيل الحكيم، منها قوله الكريم: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢].

وقوله أيضاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [الحج: ٥].

﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ أي: وهو أقدركم على عمارتها، والتمكين فيها، فلولا أنَّه تعالى ذلَّل الأرض لحياة الإنسان، ومهَّدها له، ومكَّنه من الاستفادة من خيراتها، ما استطاعَ الإنسان أن يعيش عليها.

فكلمةُ نبيِّ الله صالح تذكيرٌ لقومه بفضل الله تعالى عليهم، فقد يسَّر لهم بناءَ القصور الفخمة والبيوت الكبيرة، وقد استفادوا من الجبال المحيطة بهم، فقطعوا صخورها ونحتوها، وبنوا بها بيوتهم وقصورهم، كما حكى سبحانه ذلك

عنه في قوله الكريم: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٧٤].

﴿فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ﴾ أي: اسألوه أن يغفرَ لكم ذنوبكم، ثم توبوا إليه بترك الكفر والمعاصي والندم عليها، ومرَّ معنا أنَّ نوحاً وهوداً عليهما السلام أمرا قومهما بالاستغفار والتوبة، كما فعل صالح عليه السلام.

﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ﴾ أي: يسمعكم، ويبصركم، ويعلم جميع أحوالكم، ورحمته أيضاً قريبة، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

﴿مُّجِيبٞ﴾ أي: لمن دعاه وسأله، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ﴾ أي: قال الملأ من قومه: يا صالحُ كانت لك قبل هذا الكلام مكانة ووجاهة بيننا، وقد انقطع الآن رجاؤنا فيك.

ويبدو أنَّ صالحاً عليه السلام كان معروفاً بينهم بسداد الرأي وحُسن المشورة، فكانوا يرجعون إليه في كثير من أمورهم.

﴿أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ أي: من الأصنام والأوثان.

ودلَّ سؤالهم على إنكارهم وتعجبهم، وأنهم لا حجةَ لهم في عبادة الأوثان سوى تقليد آبائهم تقليداً أعمى.

﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ﴾ أي: وإننا نشك في صحة دعوتك وغير مطمئنين إليها، فالمُريب: المُوقع في الريبة، وهي قلق النفس وانتفاء الطمأنينة.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ۝٦٣﴾.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾ أي: أخبروني إن كنت على حجة وبصيرة من ربي وأكرمني بالنبوة.

وهذه الأمورُ، وإن كانت محققةَ الوقوعِ، ولكنَّها صدرت بكلمة الشك، اعتباراً لحال المخاطبين، ورعايةً لحسن المحاورة، لاستنزالهم عن المكابرة(١).

﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾ أي: فمن يجيرني من عذاب الله تعالى إن عصيتُه بترك تبليغ الرسالة التي كلَّفني بها، فأنا مسؤول عن التبليغ، كما أنكم مسؤولون عن قبولها والانقياد لها.

ويلاحَظُ التشابه في كثير من نقاط الحوار، بين الأنبياء والأمم الكافرة التي أُرسلوا إليها، مع اختلاف الزمان والمكان، كما يلاحظ اهتمام الأنبياء بإبراز مسؤوليتهم أمام الله تعالى عن تبليغ الرسالة، ومسؤولية الأمم عن قبولها والالتزام بها.

﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ أي: فما تزيدونني بما تقولون سوى أن أصِفَكم بالخسران، وأقول لكم: إنكم الخاسرون.

أو: لا تفيدونني إن أطعتكم وتابعتكم غير الخسران، فكيف أترك دعوة ربي ورحمته، وأسير وراءكم في طريق الخسران والضياع؟!.

﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ۝٦٤﴾.

﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ أي: هذه الناقةُ التي خلقها الله تعالى على غيرِ مألوفِ الناس وعاداتهم، معجزة تدل على صدق رسالتي وصحة نبوَّتي.

---

(١) تفسير أبي السعود: ٥/ ١١٠.

أضيفت الناقةُ إليه تعالى إضافةَ تشريفٍ؛ لأنَّه تعالى خلقها دون سابق أسباب، لتكونَ معجزةً، فهي لهم معجزة، تدلُّهم على صدق نبيهم صالح، كما أنها كانت تدرُّ عليهم لبناً يكفيهم كلَّهم، ولهذا كانت عندما ترد الماء تشربه كلَّه، كما قال تعالى: ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥].

﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ أي: اتركوها تأكل وترعى، فليس عليكم مؤونة إطعامها.

﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ أي: لا تتعرضوا لها بما يسيء إليها، فضلاً عن قتلها.

﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ أي: ينزل الله بكم عذاباً قريباً من وقت التعرُّض لها، فلا يؤخِّر عنكم. وقد جاء وصفه أيضاً بعذاب عظيم، في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٥٦].

ومع أنه عليه السلام حذَّرهم، خالفوا أمره وقتلوا الناقة المعجزة:

﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾.

﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ أي: تمتعوا بالحياة في مساكنكم مدة ثلاثة أيام فقط، وبعدها ينزل بكم العذاب، عذاب يوم عظيم.

﴿ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ أي: وعد حق ثابت لا خُلْفَ فيه.

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ أي: نجَّاهم الله تعالى برحمته وفضله، كما نجَّى نوحاً وهوداً والمؤمنين برحمته وفضله.

﴿وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ﴾ أي: ونجيناهم من ذلٍّ وفضيحة ذلك اليوم.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: هو القادر الغالب، ينجي من يشاء برحمته، ويهلك من يشاء بعدله.

ثم بيَّن سبحانه العذابَ الذي أنزله بهم فقال:

﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ أي: طوَّقتهم الصيحة من كل مكان، وهي الصاعقة والصوت المفزع، ومعها الزلزلة الشديدة، قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٧٨].

ويمكن أن يرادَ بالرجفةِ الارتعاشة الشديدة التي حلَّت في أجسادهم عندما سمعوا الصوت الهائل المفزع، سكنت بعدها أجسامهم سكون الموت، فلا حراك بها.

﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ أي: هامدين موتى لا يتحركون.

﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾.

﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ﴾ أي: كأنهم لم يقيموا ويتمتعوا بهذه الديار التي كانت تزخر بحركتهم ونشاطهم.

﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ﴾ أي: كفروا بربهم، وجحدوا بآياته، فهم يستحقون العذاب الذي أنزله الله بهم.

﴿أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ أي: هلاكاً لهم وإبعاداً لهم عن رحمته وساحات فضله.

وقد جاء هذا التعقيب شبيهاً بتعقيبه تعالى على إهلاك عاد: ﴿أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود: ٦٠].

• بين يدي قصة لوط وقومه:

وغيَّرت الآياتُ الأسلوبَ المطرد، الذي التزمته في عرضها لبعض وقائع الأمم الغابرة: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ﴾ [هود: ٥٠]، ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ﴾ [هود: ٦١]؛ لأنها ستعرض بين يدي قصة لوط وقومه خبراً عن نبي الله إبراهيم ﷺ،

والبشارة التي تفضَّل الله تعالى بها عليه، وهذا الخبرُ يناسِبُ قصة لوط مكاناً وزماناً وموضوعاً:

فالمكان: الأرض المباركة فلسطين، فقد كان عليه السلام يقيم في فلسطين، في البلدة التي تسمى الآن باسمه: الخليل، بعد أن هاجر من بلاد قومه العراق، أما القومُ الذين أُرسِلَ إليهم لوط فكانوا يقيمون في مدينة سدوم وما حولها، في مكان البحر الميت الآن أو بحيرة لوط.

والزمانُ: كان متقارباً أيضاً، فالواقعتان حدثتا في وقت واحد تقريباً.

والموضوع: بيان العاقبة الطيبة للذين يلتزمون الحدود المشروعة المنسجمة مع الفطرة السليمة في علاقاتهم الجنسية، من حصول الخيرات والبركات والنسل الطيب والذرية الطاهرة، وبيان النتيجة السيئة الوخيمة لمن يتجاوزون الحدود المشروعة، ويشذّون عن الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها.

- **إبراهيم والبشرى:**

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًاۖ قَالَ سَلَٰمٌۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ﴾ وكانوا من الملائكة؛ لأن رُسلَه تعالى إلى الأنبياء ملائكة، كما في قوله: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٧٥]. وتدل كلمة ﴿رُسُلُنَآ﴾ على أنهم كانوا ثلاثة فأكثر.

﴿بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ وهي البشارة بالولد، ولم يرزق عليه السلام بعدُ بولد من زوجه سارة، وكان قد سأل الله تعالى أن يهبه ولداً عندما هاجر من بلاد قومه: ﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات].

فرزقه الله ولداً من هاجر، وكانت أَمَةً مصرية مملوكة لزوجه سارة، وهبتها له فأولدَها إسماعيل، فغارت منها سارة، وحدث بينهما ما يكونُ بين الضرائر، فأمره الله تعالى أن يأخذَ هاجر وإسماعيل، ويسافر بهما إلى وادي مكة من أرض

الحجاز، ويتركهما هناك، ويرجع إلى مكان إقامته في فلسطين، وكان مِنْ خبرهما بعد ذلك ما ذكرناه في **سورة البقرة عند** قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾.

﴿قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ﴾ أي: سلَّمنا عليك سلاماً.

﴿قَالَ سَلَـٰمٌ ۖ﴾ أي: عليكم سلام، وقد حيَّاهم عليه السلام بأحسن من تحيتهم؛ لأنها جملة اسمية دالَّةٌ على الدوام والثبات، فهي أبلغ(١).

وجاءت الملائكةُ إليه بهيئات بشرية، فأسرع بتقديم الطعام إليهم:

﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ أي: ما تأخر في المجيء، بل عَجِلَ فأحضرَ عجلاً سميناً مشوياً على الجمر، مما يدلُّ على كرمه وحبه للضيوف، ومسارعته إلى إكرامهم، قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الذاريات].

ومن المعلوم أنَّ الملائكة لا يأكلون ولا يشربون؛ لأنَّ أجسادهم نورانية، فلم يمدوا أيديهم إلى الطعام:

﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ أي: لما رأى أيديهم لا تمتدُّ إلى الأكل من العجل أنكرهم، وظن أنَّهم لم يأتوا بخير، كما هو المعروف عند الناس.

﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ﴾ أي: استشعر خوفاً منهم.

وصارحهم عليه السلام بما في نفسه، قال تعالى: ﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ [الحجر: ٥٢]، فردَّ عليه الملائكةُ يطمئنونه ويعرفونه بحقيقة أنفسهم ومهمتهم:

﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ أي: أُرسلنا بالعذاب إلى قوم لوط.

---

(١) روح المعاني: ١٢/ ٩٤.

ثم أخبروه بالبشارة التي يحملونها له، قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ [الحجر].

ويبدو أنَّ زوجه سارة ما سمعت البشارة بالولد أول الأمر، إذ كانت بعيدةً عن المجلس في داخل بيتها، وحضرت عند الحديث عن إهلاك قوم لوط:

﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾.

﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ﴾ أي: ضحكت سروراً بهلاك المفسدين الشاذِّين المعرضين عن النساء إلى الرجال، ولعلَّ ميلَ النساء الفطري إلى الرجال هو سبب سرورها، فشذوذُ الرجال وانصرافُهم عن النساء يؤثر كثيراً عليهن.

﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ﴾ أي: بشرناها بولد اسمه إسحاق.

ولا يخفى ما في نسبة البشارة إلى الله تعالى ـ مع أنَّها كانت بلسان رسلِهِ من الملائكة ـ من تكريمٍ لهذه المرأة الصالحة، التي استنكرت انحرافَ الشاذين من الرجال، وفرحت بانتقام الله تعالى منهم.

﴿وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ أي: وبشرناها أيضاً بأنها ستعيش حتى تقر عينها برؤية ولد ولدها، يعقوب بن إسحاق ﷺ، فهي بشارة مضاعفة وفرحات متوالية، على قلب هذه المرأة الكريمة الصالحة.

ودلّت البشارةُ على أنَّ إسحاقَ سيعيشُ حتى يتزوج، فهو لم يكن الذبيحَ كما يزعم اليهود، بل الذبيحُ هو إسماعيل ﷺ.

﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ أي: قالت وهي في غمرة فرحتها، تعلن استعظامها لقدرة الله تعالى وتعجبها منها.

وأصل **الويل** في اللغة: الخزي، ثم شاع النطقُ به عند النساء في كل أمر يستعظَمُ ويتعجَّبُ منه.

﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾ أي: كيف ألد وأنا في سن العجز والإياس؟!.

ومن المعلوم أنَّ المرأة إذا تقدَّمت بها السن، ينقطع دمُ حيضها، وتتعطل أجهزةُ الإخصابِ والولادةِ فيها، وهذا إذا كانت ولوداً، فكيف إذا كانت عقيماً كزوج إبراهيم، التي استبدَّت بها الفرحةُ، فضربت بيدها على وجهها، ورفعت صوتها تعلِنُ تعجبها من عظيم قدرة الله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ [الذاريات: ٢٩].

﴿وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا﴾ أي: وهذا زوجي في سن الشيخوخة، يقال: إنها كانت في سن التسعين، وكان عليه السلام في سن المئة والعشرين، والله أعلم.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ أي: بالنسبة إلى سُنَّته تعالى في عباده.

- **بيت النبوة:**

﴿قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: قال الملائكة: أتعجبين من أمر الله في قدرته وحكمته جلَّ وعلا، وأنت في بيت النبوة ومهبط الوحي، وموضع المعجزات والكرامات والأمور الخارقة للعادات؟!.

﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ أي: رحماته تعالى متتابعة عليكم، وخيراته النامية المتكاثرة عليكم يا أهل البيت.

والمراد به بيت النبوة، البيت المفرد العلم، معدن النبوة، ومحتد الرسالة، الذي تفرعت منه كل النبوات والرسالات، حتى ختمت بخاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد عليه وعلى آله الصلاة والتسليم، قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

ودلت الآية على دخول الزوجة في أهل البيت، ويؤكِّده ما أنزل الله في بيت النبوة، مخاطباً أمهات المؤمنين: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ أي: إنه المحمود الذي يستوجب الحمد، عظيم الكرم والإحسان والشرف والمجد، جلَّ وعلا.

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾﴾.

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ﴾ أي: ذهب الخوف الذي اعترى إبراهيم حين أنكر أضيافه.

﴿وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ أي: بعد أن ذهبَ الخوفُ وحصلَ السرورُ بالبشرى.

﴿يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ﴾ أي: شرع يجادل رُسُلنا في شأن عقاب قوم لوط لعلَّه يؤخر عنهم.

وفصَّل تعالى هذه المجادلة في **سورة العنكبوت** بقوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾.

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ﴾ أي: غير عجول على الانتقام من الكفار.

﴿أَوَّٰهٌ﴾ أي: كثير التأوُّه خوفاً من الله تعالى، وتأسفاً على الناس.

﴿مُّنِيبٌ﴾ أي: راجع إلى الله غير غافل عنه.

وهو مدحٌ من الله تعالى لإبراهيم عليه السلام بهذه الصفات الكريمة، التي تدلُّ على رقة قلبه، ورهافة مشاعره، وشفقته الكبيرة على الناس، فمجادلته عليه السلام كانت بسبب دوافع نفسية كريمة، يُعْذر بسببها ولا يلام عليها. ولهذا اكتفى الملائكةُ بقولهم له:

﴿يَـٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَـٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ٧٦﴾.

﴿يَـٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَـٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ﴾ أي: يا إبراهيم أعرض عن هذا الجدال، إنه قد جاء قضاء ربك المحتم، وحكمه المبرم، بعد أن أمهلهم تعالى مدةً تكفي للتوبة والإنابة، لكنهم أصروا على كفرهم وفجورهم.

﴿وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ﴾ أي: عذاب لا يُمنع ولا يُدفع بجدال أو غيره.

• **في بيت لوط:**

وجاءتِ الملائكةُ إلى لوط عليه السلام، وهو في بيته، بهيئات جميلة حسنة، وانتقلت الآياتُ إلى بيت لوط، لتصفَ لنا كيف استقبلَ أضيافه ذوي الوجوهِ الحسنةِ، وما حدثَ له مع قومه:

﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ ٧٧﴾.

﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ﴾ أي: ساءَه مجيئهم، خوفاً عليهم من قومه.

﴿وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ﴾ أي: أحسَّ بضيق وانقباض في صدره، وقال يحدِّث نفسه: هذا يوم شديد.

وحدث المكروه الذي توقعه من قومه، فما لبثوا عندما سمعوا بأضياف لوط، أن أتوه مسرعين:

﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ٧٨﴾.

﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ﴾ أي: جاؤوا إلى بيت لوط مسرعين يدفع بعضُهم بعضاً، وهم يتسابقون إلى الفاحشة.

﴿وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ أي: وكانوا قبل هذا الوقت منهمكين في

فعل السيئات، فالقوم أدمنوا على الفواحش والشذوذ، ولهذا لم يستحيوا من مسارعتهم إليها، ولم يجدوا في أنفسهم أدنى غضاضة.

ولما رآهم عليه السلام مقبلينَ نحوه كالثيران الهائجة، وسُعار الشهوة يضطرِمُ في صدورهم، ما كان منه إلا أن تصدَّى لهم أمام بيته، ليدفعهم عن ضيوفه، وعن شرف بيته وكرامته، وعرضَ عليهم أعزَّ ما عنده:

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى﴾ أي: هؤلاء بناتي فتزوجوهن.

وأراد عليه السلام بهذا العرض عليهم، أن يحمي أضيافه ببناته، ويبدو أنه عليه السلام ما قصد بناته الصُّلبيات فقط، وإنَّما قصد عموم نساء قومه، فهو بالنسبة لمقامه الرفيع بينهم كالوالد لهم، والدليل على ذلك ما حكاه سبحانه عنه في قوله: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء].

﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ﴾ أي: هن أطهر لكم حقيقةً ومعنى، ففي إتيان النساء في المأتى الطبيعي استجابةٌ للفطرة السليمة، أمَّا إتيان الذكور في موضع القذارة والنجاسة، فهو شذوذٌ عن الفطرة السليمة، وانتكاسٌ إلى القذارة والنجاسة.

﴿ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ﴾ أي: اتقوا الله بالخوف منه وخشيته والتزام حدوده، ولا تلحقوا بي الذلة والمهانة والفضيحة، باعتدائكم على حرمة أضيافي، وهي محاولةٌ منه عليه السلام في استثارة نخوتهم، لعلَّ فيهم بقية من مروءة ونخوة، كما حكى الحق عنه في **سورة الحجر**: ﴿قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ أي: أليسَ فيكم رجلٌ واحد فيه خير واستقامة ورشاد؟!.

وهذا يدلُّ على أن سُعار الشهوة الشاذة غلب عليهم جميعاً، كما غلب على قلوبهم فلم يبقَ فيها أي جانب من جوانب الخير، حتى اختلَّت القيمُ عندهم،

وانعكست نظرتُهم إلى الأمور، فأصبح المعروف المألوف باطلاً ومنكراً في نظرهم، ولهذا ردوا عليه قائلين بوقاحة وسوء أدب:

﴿قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾﴾.

﴿قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ أي: ما لنا في النساء اللاتي تريدُ أن ننصرف إليهن من حاجةٍ ومأربٍ. فقضاءُ الوطرِ وتلبيةُ نداءِ الشهوة بالطريق الفطري المشروع أمرٌ باطل في نظرهم.

﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ أي: من العمل الخبيث الفاحش.

فما أقبحَ الإنسانَ عندما ينسلخ عن مسؤوليته، وتستبدُّ به أهواؤه ونزواته!.

إنّ قومَ لوط صورةٌ للواقع الأليم الذي يمكن أن تنحطَّ إليه البشرية، يبين لنا ضرورة التكليف، وشدة حاجة الناس إلى الرسالات الإلٰهية، التي تبيِّنُ لهم حكمةَ وجودِهم، وجوهرَ حياتهم، وتربِّي في نفوسهم ووجدانهم الشعور بالمسؤولية أمام خالقهم، فلا يمكن ضبطُ النفوسِ الجامحة إلا بتربية الوجدان الديني، الذي يجعلُ الإنسانَ يستشعِرُ رقابةَ الله تعالى عليه ويقدِّر مسؤوليته أمامه يوم القيامة.

ولنا أن نتصوَّر مدى المعاناة النفسية الأليمة، التي مرَّ بها نبي الله لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ، في تلك الفترة الحرجة، ويبدو أنه التفت أخيراً إلى ضيوفه، كالمعتذر إليهم عما يرونه من قومه:

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾.

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً﴾ أي: لو أجدُ عندكم قوةً أستعينُ بها على هؤلاء الكفرة الفجرة، لفعلتُ بهم وفعلتُ. وحذفَ جوابَ **(لو)** لدلالة السياق عليه، وليذهبَ الخيال في تقديره مذهباً بعيداً.

﴿أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ أو ألجأ إلى جانب قوي منيع، أمتنع فيه معكم.

لقد شغلته المعاناة النفسية الأليمة عن قوة الله تعالى وحوله، ولهذا قال سيدنا رسول الله ﷺ: «**يغفرُ اللهُ للوطٍ إنْ كانَ ليأوي إلى ركنٍ شديدٍ**» [رواه البخاري (٣٣٧٥)].

ورأى بعض العلماء أنَّ في قول النبي ﷺ هذا مدحاً للوط، لأنه لم يأوِ إلى قومه، وأوى إلى الله تعالى.

وقال النووي: يجوز أنه لما اندهش بحال الأضياف قال ذلك، أو أنه التجأ إلى الله في باطنه، وأظهر هذا القول للأضياف اعتذاراً[(١)].

عندئذٍ كشف الملائكة له عن حقيقتهم، وجَلوا له أمرهم:

- **الصبح القريب:**

﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ﴿٨١﴾﴾.

﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ﴾ أي: لن يتمكنوا من الوصول إليك، فدعنا وإياهم وتنحَّ عنهم، فالله سبحانه لا يتخلَّى عن أحبابه وأوليائه، بَلْه أنبياءه، وهو القائل: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١].

فلن يغلبَ الفجارُ الأبرارَ، والله سبحانه ما خلق الخلق لأصحاب المجون والفجور والشذوذ.

أذِنَ الله تعالى لأحدِ ملائكته أن يظهرَ جزءاً من بنيته النورانية، في وجوه أولئك الذين أعمت الشهوة الشاذة بصائرهم، فطمست أعينهم، وسلبت بمشيئته تعالى وقدرته قوة الإبصار، فرجعوا يلتمسون الدروبَ في الظلام إلى بيوتهم،

---

(١) انظر: فتح الباري: ١/ ٤١٦.

وهم يقولون: إن هؤلاء أسحر أهل الأرض، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ [القمر: ٣٧].

ثم التفت الملائكة إلى لوط قائلين له:

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ أي: اخرج من البلد مع أهلك في الليل.

﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ أي: لا ينظر أحد إلى ما وراءه، كما يفعل النازحون عن بلدهم ووطنهم، يغادرونه، وهم ينظرون إليه، مودِّعين آسفين على فراقه، فالبلد بمن فيه بلد ملوث بالمجون والفجور، فلا تأسفوا على فراقه، ولا تنظروا إليه نظرة مودِّع.

﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ﴾ أي: لا تَسْرِ بها، ولا تخرجها معك؛ لأنها ليست على دينك، ولا بد أن يصيبها ما يصيب قومها من العذاب، ولن تنفعها صلتها بك، لأنها اختارت الكفر، وهي مسؤولة عن كسبها واختيارها، كما قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠].

فكل إنسان ـ كما مرَّ معنا ـ مسؤول مسؤولية فردية شخصية عن عمله.

ويبدو أن لوطاً عليه السلام استعجلَ إنزالَ العذاب بهم من شدة ما عانى منهم، وما رأى من خبثهم وإجرامهم وشرهم، فقال له الملائكة:

﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ أي: إنَّ الموعد الذي قدَّره الحق تبارك وتعالى لإنزال العذاب بهم، عند ظهور نور الصبح، وهو قريب.

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ أي: لما جاء أمر الله تعالى بإهلاكهم، وتطهير الأرض من دنسهم وفسادهم وشذوذهم، قلبنا الأرض بهم، وجعلنا

أعلاها في موضع أسفلها، والجزاءُ من جنس العمل؛ لأنهم عكسوا الأمور، وانتكسوا عن الفطرة السليمة، التي فُطِر الناس عليها.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ أي: أنزل الله عليهم أيضاً حجارة من طين متحجِّر متتابع فوق رؤوسهم.

﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾.

﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾ أي: معلَّمة، فكل حجر موجَّه لواحد منهم لا يخطئ هدفه، لأنه مرسل من عند الله تعالى القوي العزيز العليم.

وقد عذبهم الله تعالى بعذاب ثالث قطعاً لدابرهم، قال تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر].

﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ أي: وهذه الحجارة يمكن أن تنزل على غيرهم من الظالمين، ففي الآية تهديد ووعيد شديد لكل الشاذين المنحرفين المتشبهين بقوم لوط.

• قصة شعيب وقومه:

وتحوَّلت الآيات إلى الشمال قليلاً من بلاد ثمود، إلى قوم نبي الله شعيب عليه السلام في مدين:

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾﴾.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ أي: وأرسلنا إلى مدين أخاهم شعيباً، وقال لهم كما قال الأنبياء من قبله:

﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾.

وأبرزَ عليه السلام آفةً خطيرةً ابتُلِي بها قومُه، وهي التلاعب بالمكاييل والموازين، ليأكلوا أموال الناس بالباطل، فقال:

﴿وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾ أي: إني أراكم بسعة وغنى ورخاء، فلا تزيلوا هذه النعمة عنكم بالغش والاحتيال.

﴿وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ أي: أخشى أن ينزل بكم ـ إن أصررتم على كفركم ومعاصيكم ـ عذاب يومٍ لا ينجو منه أحد.

﴿وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

﴿وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي: أتمُّوهما بالعدل، وأزيلوا ما أحدثتم فيهما من نقص.

فهو ينصحهم ليصلحوا ما أفسدوا من المكاييل والموازين، حتى يتحقَّق العدلُ في جميع معاملاتهم المستقبلة، وتشيع الثقة بينهم.

﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ أي: ولا تنقصوا الناس أيَّ حقٍّ من حقوقهم، مما يدلُّ على أن الاحتيالَ والكذبَ والغِشَّ كان سائداً في معاملاتهم.

﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي: لا تعملوا على نشر الفساد في الأرض.

وكانوا إلى جانب ما تقدَّم يقطعون الطرق على الناس، مستفيدين من موقع بلادهم على طرق القوافل بين الشمال والجنوب والغرب والشرق، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٨٦].

﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾﴾.

﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: ما يبقى لكم من مال حلال بعد أن تردُّوا الأموالَ المسروقةَ والمغصوبةَ إلى أصحابها، خيرٌ لكم من الأموال الكثيرة التي جمعتموها بالباطل، بشرط أن تؤمنوا بالله تعالى، وتلتزموا بأحكام دينه وشرعه، فلا خيرَ مع الكفرِ.



أو: إن كنتم تصدقونني فيما أقول لكم وأدعوكم إليه، فما يرزقكم الله تعالى بالحلال خيرٌ ممَّا تجمعونه بالحرام.

وقد يكون مراده أنْ يبيِّنَ لهم أن الحلال الطيِّب ولو كان قليلاً، خيرٌ من الخبيث الكثير المحرم، قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ١٠٠].

﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ أي: وما أنا الذي أحفظ أعمالكم وأسألكم عنها، بل أنا مبلغ وقد أعذرتُ إذ أنذرتُ، وأنتم مسؤولون أمام ربكم.

لكنَّ الشَّرَه والطمعَ وحبَّ المال أعمى بصائرهم، واستعمر قلوبهم، ولوثَ ضمائرهم، فلم يتأثروا بموعظة نبيهم، وردوا عليه بتهكُّم وازدراء واحتقار:

﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾.

﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾؟! أي: من الأصنام والأوثان.

وقد بلغوا في قولهم هذا أقصى مراتب الانحراف والزيغ والضلال، حيث لم يكتفوا بإنكار الوحي الآمر بذلك، حتى ادعوا أنْ لا آمر به من العقل واللب أصلاً، وأنه من أحكام الوسوسة والجنون، وعلى ذلك بنوا استفهامهم[(١)].

كأن صلاته عليه السلام في نظرهم من أفاعيلِ المجانينِ، وأنها هي التي أمرته بذلك.

﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ۖ﴾ أي: وصلاتك توحي إليك أيضاً لكي نمتنع عن التصرُّف في أموالنا كما نشاء؟!.

إنَّه الجشع وطغيان المال الذي يدفعُ أصحابه إلى استغلاله واستثماره بطرق تعسفية، كالربا والاحتكار والغش والتلاعب بالمقاييس، تحت شعار الحرية

(١) تفسير أبي السعود: ٥/ ١٢٥.

الاقتصادية، ويؤدي هذا إلى تكديس الثروات في أيدي حفنة قليلة من الناس، يزيدُهم سرفاً وترفاً وبطراً، ويزيدُ عامةَ الناس فقراً وفاقة وحرماناً.

﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ ولا يخفى أنهم ما أرادوا وصفه عَلَيْهِ السَّلَامُ بهذه الصفات، بل أرادوا التهكم به والسخرية منه عَلَيْهِ السَّلَامُ.

- **خطيب الأنبياء:**

وردَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ عليهم متجاهلاً تهكُّمهم واستهزاءهم، ووجَّه كلامه إلى تأكيد صدق رسالته، وصحة نبوَّته، وإلى تنزيه دعوته عن تحقيق أي كسب مادي له، فقد رزقه الله تعالى رزقاً طيباً حلالاً يكفيه ويغنيه، وهو لا يريدُ بدعوته إلا الإصلاح العام في المجتمع.

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ (٨٨)﴾.

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ﴾ أي: أخبروني كيف أتخلَّى عن دعوتي، وهي قائمة على بينة واضحة من ربي، ورزقني معها رزقاً طيباً حسناً، يغنيني ويكفيني؟!.

فقوله هذا يشبه قول الأنبياء السابقين الذين نزَّهوا دعوتهم عن أي كسب مادي، عندما قال كل واحد منهم: ﴿يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ﴾ [هود: ٥١] كما مرَّ معنا، لكن شعيباً عَلَيْهِ السَّلَامُ عرض هذا المعنى بأسلوب آخر.

﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ﴾ أي: وما أريد أن أذهب من خلفكم فأفعلَ ما نهيتُكم عنه، لأستأثر بالنفع والكسب دونكم. وهو تعريضٌ ببعض الأساليب الملتوية التي يلجؤون إليها، لاحتكار البضائع وتحقيق الأرباح.

﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ﴾ أي: ما أريد بدعوتي إلا الإصلاح والنصيحة والموعظة، على قدر استطاعتي.

﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أي: وما توفيقي إلا بتأييده سبحانه ومعونته، ولهذا فإني أتوكل عليه وأرجع إليه لا إلى غيره.

وكان الخليفة الأموي الصالح عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ، يختم كتبه إلى عمّاله بقوله تعالى: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[1].

ثم أضاف شعيبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى موعظته ودعوته تهديدَهم بعذاب الله تعالى، مع إخبارهم بشفقته عليهم، وخوفه أن يصيبَهم ما أصابَ الأمم الهالكة من حولهم، وجمع عَلَيْهِ السَّلَامُ كلَّ هذه المعاني بكلمات بليغة مؤثرة، فهو حقّاً خطيب الأنبياء:

﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾﴾.

﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍۚ﴾ أي: لا تحملنَّكم عداوتي وبغضي على الإصرار على الكفر والفساد، فيصيبكم العذاب والهلاك، كما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح.

﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ فهم قريبون منكم في المكان والزمان، فالعذاب الذي أنزله الله بقوم لوط ذاعَ وانتشرَ بين الناس، وتناقله المسافرون والركبان، وآثاره لا زالت باقية حتى اليوم، في أخفض مكان في العالم عن سطح البحر، وهو البحر الميت أو بحيرة لوط.

ثم ختم عَلَيْهِ السَّلَامُ كلماته بحثِّهم على الاستغفار والتوبة، كما فعل الأنبياء قبله:

﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾.

أي: عظيم الرحمة كثير المودة للمستغفرين التائبين.

وبقي قوم شعيب مصرِّين على كفرهم وفسادهم، مع أنهم سمعوا أدلَّة الحقِّ

---

(١) تفسير ابن كثير: ٢/٤٥٧.

الواضح على أحسن وجه وأبلغه، وقابلوا كلامه المحكم المؤيد بالحجج القاطعة بالإعراض، وتظاهروا بالغباء، وقلَّةِ الفهم، ولوَّحوا له مهددين متوعدين:

﴿قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾﴾.

﴿قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ أي: ما نفهم أكثر كلامك، فهو كلام غريب غير مفهوم في نظرهم، مما يدل على تبلُّدِ مشاعرهم، وغلظةِ طباعهم.

وكثيراً ما نشاهد في عصرنا الحاضر أمثال الملأ من قوم شعيب، ممن طغى حُبُّ المال على نفوسهم، وسيطر على أفكارهم، فلا يفهمون إلا ما يسمَّى في العصر الحاضر لغةَ المال، وهي في الحقيقة لغة الجشع والشره والطمع، فإذا ما حدثتهم بلغته أنصتوا إليك بكل ذرة في أجسادهم، وأما إذا حدثتهم حديثاً آخر أعرضوا عنك، وأغلقوا دون حديثك أسماعهم وعقولهم، ورأوا فيما تحدثهم به مضيعة لوقتهم. ثم أضافوا قائلين:

﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ﴾ أي: نراك قليلَ المال لا قوةَ لك. فالمال في نظرهم هو القوة، وما كان عَلَيْهِ السَّلَامُ من أصحاب الثراء الواسع والغنى الكبير.

﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ ۖ﴾ أي: لولا عشيرتك التي تنتمي إليها لقتلناك رجماً بالحجارة. وقد هدَّدوه أيضاً بالإخراج من البلاد وطرده منها، قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَـٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَـٰرِهِينَ﴾ [الأعراف: ٨٨].

﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ أي: أنت لست عزيزاً علينا، وإنَّما رهطك وعشيرتك هم الأعزة عندنا.

ويبدو أنَّ رهطه عَلَيْهِ السَّلَامُ كانوا مثلهم متمسِّكين بالكفر والفساد، ولهذا أظهروا الميلَ إليهم والإكرام لهم.

• **توبيخ وتحدٍّ:**

وما كان شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ يعتزُّ بعشيرته، ولا يعتمد عليهم، ولا يحتمي بهم،

ومرَّ معنا أنَّه أعلنَ اعتزازه بالله تعالى واعتماده عليه وحده، عندما قال: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

ولهذا ردَّ عليهم منكراً قولهم هذا وموبِّخاً لهم عليه:

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾﴾.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾؟! أي: كيف تجعلون رهطي أعزَّ عليكم من الله ﷻ؟! فإن تهاونكم بي تهاون بالله تعالى، فهو الذي أرسلني إليكم.

ولا يخفى ارتفاعُ نبض كلماته وحرارة عاطفته، ممَّا يدل على غضبه ﵇ لربه تعالى:

﴿وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّاۖ﴾ أي: جعلتموه سبحانه كالشيء المنبوذ وراء ظهوركم، لا تبالون به، ولا تخافون من سطوته، وأنتم في قبضة قدرته وتحت قهر مشيئته.

﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ فلا يخفى عليه شيء منكم، ولا نجاة لكم من سطوة عذابه وانتقامه.

ثم ألقى ﵇ إليهم كلمته الأخيرة، بصيغة الإنذار الأخير لهم:

﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌۖ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾﴾.

﴿يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي: اعملوا بالأسلوب والطريقة التي تختارونها لأنفسكم، فأنتم مسؤولون عن عملكم واختياركم، ومجزيون عليه أوفى الجزاء وأعدله في الدنيا والآخرة.

﴿إِنِّي عَٰمِلٌۖ﴾ أي: بما شرعه لي ربي وكلَّفني به، فكلٌّ منَّا مسؤول عن عمله وكسبه واختياره.

﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أي: يفضحه ويهينه بسبب سوء كسبه واختياره.

﴿وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ أي: وستعلمون أيضاً أينا الكاذب. وفيه تعريض بكذبهم في ادعائهم القوة والقدرة على رجمه ﷺ، ووصفه بالضعف والهوان.

﴿وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ أي: انتظروا ما يحلُّ بكم إني معكم منتظر.

وهكذا أظهر ﷺ ثقته الكاملة بالله تعالى، وتحدَّاهم بصراحة وعرَّض بهم ووبَّخهم، دون أن يبالي بتهديدهم ووعيدهم.

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾.

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ أي: بفضل منه تعالى، كما نَجَّى الأنبياء السابقين، ومن كان معهم من المؤمنين.

﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ كما أخذت قبلهم ثمود، وارتعشت أجسامهم، واهتزت لقوَّتها، ثم همدت، قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٩١]. وقال هنا:

﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ أي: هامدين لا حراك بهم.

﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾.

﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ أي: مضوا وانقضوا كأنهم ما كانوا وما سكنوا هذه الديار، ولا جمعوا هذه الأموال.

﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ أي: هلاكاً لمدْيَن وبُعداً لهم عن رحمته تعالى، كما أُبعدت ثمودُ عن رحمته وساحات فضله.

وذكر سبحانه ثمودَ لأنهم كانوا جيرانهم، قريباً منهم في الدار، وشبيهاً بهم في الكفر وقطع الطريق، وكانوا عرباً مثلهم[١].

---

(١) تفسير ابن كثير: ٢/٤٥٨.

ويمكن أن يكون ذِكرُ ثمودَ، لأن مصير مدين وإهلاكهم يشبه مصير ثمود.

• **موسى وفرعون:**

وختمت الآياتُ استعراضَها التاريخي لبعض قصص الأنبياء مع أممهم، بوقفةٍ قصيرةٍ عند نبيِّ الله موسى عليه السلام مع فرعون، أظهرت فيها مسؤولية كل إنسان مسؤولية شخصية فردية، وأشارت إلى أنَّ اتباع قوم فرعون وطاعتهم له لا يخلِّصهم من مسؤوليتهم أمام الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾﴾.

أي: أرسلنا موسى مؤيَّداً بالمعجزات الباهرة، والحجة البينة الواضحة.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾﴾.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ أي: إلى فرعون وأعوانه ورجال دولته.

ومن المعلوم أنَّ رسالةَ موسى كانت أيضاً إلى بني إسرائيل وعامة المصريين، ولكنَّ الآيات ذكرت رأس الضلال وحاشيته، الذين كانوا أكثر الناس طاعةً له، ومسارعة إلى تنفيذِ أوامرِه، ولهذا قال تعالى فيهم:

﴿فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ﴾ أي: اتبعوه اتباعاً أعمى دون أدنى نظر وتفكير.

﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ أي: وما كان أمر فرعون على خير وهدًى، بل كان طاغية متجبراً يدَّعي لنفسه صفة الألوهية والربوبية، ويقول ما حكاه تعالى عنه: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

وفي وصفه بعدم الرشاد تجهيلٌ لمتبعيه، الذين تابعوه على أمره، وهو شر محض وضلال ظاهر، وأعرضوا عن دعوة موسى عليه السلام المؤيدة بالمعجزات الباهرة والسلطان المبين.

﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ۝٩٨﴾.

﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أي: يتقدَّمهم يوم الحساب والجزاء، فكما كان قدوتهم في الضلال في الدنيا، كذلك يتقدمهم إلى النار يوم القيامة.

﴿فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ أي: يوردهم النار كما يورد الراعي قطيع الغنم، ويدخلون فيها وراءه.

وهذا نصٌّ صريح في عذاب فرعون يوم القيامة في النار، وردٌّ على القائلين بنجاته من العذاب[١].

﴿وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ أي: بئس الورد الذي يردونه النار، لأنَّ الوردَ إنما يرادُ لتسكين العطش وتبريد الأكباد، والنارُ على ضدِّ ذلك[٢].

ولعنهم الله تعالى في الدنيا والآخرة، كما لعن الأمم الكافرة قبلهم، فقال:

﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ۝٩٩﴾.

﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ فهي لعنة تتبعهم وتلازمهم ولا تفارقهم في الدنيا والآخرة.

ولما كانت اللعنة أمراً زائداً على عذابهم، جعلت كمعونةٍ لهم على سبيل التهكُّم، فوصفت بقوله تعالى:

﴿بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ أي: وبئس العون المقدَّم لهم. ويطلق الرفدُ في الأصل على كل ما يضافُ إلى غيره.

❁ ❁ ❁

---

(١) انظر: تفسير سورة يونس في تفسيرنا الموضوعي الكبير هذا، تحت عنوان: (الإنسان بين التقدير والتكليف في سورة يونس).

(٢) تفسير أبي السعود: ٥/ ١٣٥.

الفصل الثالث

الاستقامة على التكليف والتحذير من الظلم

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَآءَ

رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾

• **التعقيب:**

وشرعت الآيات في التعقيب على تلك القصص، وبيان ما فيها من مواعظ وعبر وحكم، بعد أن أبرزت في أثناء عرضها مسؤولية الإنسان الشخصية الفردية، عن كسبه واختياره، والجزاء الذي يبدأ في الدنيا ويمتد إلى الآخرة.

والتفتتِ الآياتُ في أول تعقيب إلى مخاطبة النبيِّ ﷺ، تثبته وتواسيه في مواجهة قومه، وتؤكد أنَّ هذه الأخبار التاريخية من وحيه تعالى، المنزل على الرسول ﷺ:

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ﴾ ذلك الذي تقدَّمَ ذكره، بعض أخبار البلاد والمدن الهالكة والحضارات البائدة، نقصُّه عليك يا محمد.

﴿مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ أي: بعضُها لا تزالُ آثارها قائمة ماثلة للعيان، كديار ثمود، التي مرَّ النبيُّ ﷺ فيها وهو في طريقه إلى تبوك.

فعن **ابن عمر** رضي الله عنهما: أن النبيَّ ﷺ لما مرَّ بالحِجْرِ قال: «**لا تدخلوا مساكنَ الذين ظلموا إلا أنْ تكونوا باكينَ، أن يصيبَكم ما أصابهم**» ثم تقنَّعَ بردائه، وهو على الرَّحْل. [رواه البخاري (٣٣٨٠)].

وفي رواية أخرى عنه: أنَّ رسولَ الله ﷺ لمَّا نزلَ الحِجْرَ في غزوة تبوك، أمَرهم ألا يشربوا من بئرِها، ولا يستقوا منها، فقالوا: قد عجنَّا منها واستقينا، فأمرَهم أنْ يطرحوا ذلك العجينَ، ويهرقوا ذلك الماء. [رواه البخاري (٣٣٧٨)].

وبعض هذه القرى الهالكة أصبحَ حصيداً عفَّى عليه الزمن، ومحا آثاره كالزرع المحصود إذا مرَّ عليه زمن طويل.



﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾﴾.

﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْۖ﴾ أي: ما ظلمهم الله تعالى بإهلاكهم، فهو منزَّهٌ عن الظلم، وعن جميع صفات النقص، ولكنْ ظلموا أنفسَهم بسوء اختيارهم وكسبهم، عندما ظنُّوا أنَّهم غير مسؤولين، وأنهم خُلِقوا للعبث واللهو والبغي، فأعرضوا عن رسالات الله تعالى وكذبوا أنبياءه.

﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَۖ﴾ أي: فما نفعتهم آلهتُهم التي عبدوها من دون الله تعالى، عندما نزل بهم العذاب والهلاك، فما دفعت عنهم عذاباً، ولا أخَّرت عقاباً.

﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ أي: وما زادوهم غير تخسير، فبدل أن ينفعوهم زادوا في خسارتهم، التي لا عوضَ لها، ولا تلافي عنها، إذ صرفوهم عن المهمة الأساسية التي خلقهم الله لها، وهي عبادته تعالى وعمارة الأرض بطاعته والتزام شرائعه.

• **تحذير عام:**

وإهلاكُه تعالى للبلاد الظالمة، وإسقاطُه للحضارات الفاسدة، لم ينته ولن يتوقَّفَ، فله تعالى سننٌ في خلقه لا تتغير ولا تتبدل، وهذا ما قرره تعالى في التعقيب الثاني بقوله:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌۚ﴾ أي: ومثل ذلك الإهلاك والتدمير الذي أنزله الحق في الأمم الظالمة الباغية، سيكون انتقامه وإهلاكه للبلاد الظالمة والأمم الفاسدة الطاغية.

وقد يختلفُ أسلوبُ التدمير والانتقام من الأمم الباغية الظالمة، ولكنَّه واقعٌ

بهم لا محالةَ، كما يشاء سبحانه وكما تعلَّق به علمه، قال تعالى: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٣].

وقال أيضاً: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

وعن **أبي موسى الأشعري** رضي الله عنه: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**إنَّ الله** عز وجل **يُمْلِي للظالم، فإذا أخذه لم يُفْلِتْهُ**» ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾. [رواه مسلم (٢٥٨٣)].

ومهما كان انتقام الله تعالى من الظالمين، فهو أليم شديد:

﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾.

وفي الآيةِ تحذيرٌ عام لكل الأمم والأجيال، ولجميع الأفراد والجماعات.

ولا يَعتبر بهذه القصص ويستفيد من دروسها ومواعظها، إلا الإنسان الذي يشعر بمسؤوليته عن هذه الحياة، ويؤمن أنه ما خُلِق عبثاً، وأنه مكلف مسؤول مُثاب أو معاقب، فالشعور بالمسؤولية مفتاح كل خير وصلاح، والانسلاخ عنها مفتاح كل شر وفساد، وقد دأبت الآياتُ الكريمةُ في السورة على التركيز على هذا المعنى وإبرازه، وهو التعقيبُ الثالث على ما تقدم من قصص في السورة، قال تعالى:

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾﴾.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: إن فيما تقدَّم من أخبار الأمم الهالكة لعبرة وموعظة لمن قدَّر مسؤوليته عن أعماله يوم القيامة، وخاف مما فيها من حساب وجزاء، فأصلح عمله وسلوكه، والتزم بدين الله تعالى وشرعه.

﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾ أي: يوم القيامة يوم لا بدَّ منه، يجمع الله تعالى فيه جميع الناس، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة].

وقال ﷻ أيضاً: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التغابن: ٩].

﴿وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ أي: يشهده جميع الخلائق ولا يغيب عنه أحد.

﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾﴾.

أي: وما نؤخر يوم القيامة إلا لأجل مقدر محسوب، سبق في علمه تعالى، وتعلَّقت به إرادتُه ومشيئتُه، ولا يعلمه إلا هو ﷻ، فإذا انتهتِ العدةُ المقدرة المحسوبة، أقامه العليم الخبير.

- **الأشقياء والسعداء:**

ومرَّ معنا أنَّ الناس بالنسبة لهذا اليوم فريقان: فريق جاحد له، وفريق مصدِّق به، وكذلك يكونون فيه عندما يقيمه الله تعالى:

﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾﴾.

﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ أي: عندما يأتي يومُ القيامة لا يجرؤ أحد على الكلام إلا بإذنه جل وعلا، فالمُلك فيه لله تعالى وحده، والأمرُ والحكمُ فيه له أيضاً وحده، وحتى الملائكة المقرَّبون والأنبياء والمرسلون لا يتكلَّمون إلا بإذنه سبحانه، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٣٨].

ففي أول الحشر يخيِّمُ على الخلائق صمتٌ رهيبٌ، وسكون عميق شامل، قبل أن يبدأَ الحسابُ، ويميز الله تعالى بين الأشقياء والسعداء:

﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ أي: فمن المكلفين شقي وجبت له النار، واستحقَّ العذاب، بسوء كسبه واختياره، ومنهم سعيد، وجبت له الجنة، بفضل الله تعالى، بسبب حسن اختياره وكسبه.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ۝١٠٦﴾.

أي: فأما الذين اختاروا طريقَ الشقاء، وأصرُّوا عليه حتى الموت، فمصيرهم إلى النار، لهم فيها من شدَّةِ حرها زفيرٌ وشهيقٌ، وهو كناية عن تردد أنفاسهم بصعوبة ومشقة، فالزفيرُ إخراجُ النَّفَسِ بصعوبة، والشهيقُ أخذه كذلك.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٠٧﴾.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ أي: ماكثين فيها ما دامتِ السمواتُ والأرض. وهذا التوقيتُ عبارة عن التأبيد ونفي الانقطاع، بناء على منهاج قول العرب: (ما أقامَ ثبيرُ)، (وما لاح كوكب)، و(ما اختلف الليل والنهار)، وغير ذلك من كلمات التأبيدِ، وليس المرادُ تعليقَ قرارهم فيها بدوام السموات والأرض، فإنَّ النصوصَ القاطعةَ دالةٌ على تأبيد قرارهم فيها، وانقطاع دوام السموات والأرض.

وإن أريد التعليق فالمراد سموات الآخرة وأرضها، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨][(١)]، وهي باقية بمشيئته تعالى لا زوال لها.

﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ وهذا الاستثناءُ يبيِّن لنا أن دوام بقائهم وخلودهم فيها، بمشيئته تعالى كما أخبرنا بنصوص قاطعة كثيرة عن ذلك، فمشيئته تعالى نافذةٌ أبداً فيهم، وخلودُهم في النار ليس أمراً ذاتيّاً، إنما هو بمشيئته جلَّ وعلا.

ولهذا قال سبحانه بعد ذلك، يبين طلاقة مشيئته وكمالها:

﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ وقد أراد خلودهم في النار أبداً، وأخبر عن ذلك بآيات كثيرة:

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود: ٥/ ١٣٩.

منها قوله الكريم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب].

ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾﴾ [النساء].

ومنها قوله أيضاً: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣].

والجدير بالذكر أنَّ المفسرين اختلفوا في المراد من هذا الاستثناء على أقوال كثيرة، نقلَ كثيراً منها ابنُ جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه، واختار ما نقله عن خالد بن معدان والضحاك وقتادة وابن سنان، ورواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس والحسن أيضاً: أنَّ الاستثناءَ عائدٌ على العصاة من أهل التوحيد، ممن يخرجهم الله من النار بشفاعة الشافعين؛ من الملائكة والنبيين والمؤمنين، حتى يشفعوا في أصحاب الكبائر، ثم رحمة أرحم الراحمين، فتخرج من لم يعمل خيراً قط، ولكنه قال يوماً من الدهر: لا إلـٰه إلا الله... ولا يبقى بعد ذلك في النار إلا من وجب عليه الخلود فيها ولا محيد له عنها[1].

وأما مصير السعداء، فهم في الجنة خالدين فيها أيضاً بمشيئته تعالى:

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ﴾ أي: إن خلودهم في الجنة منوط بمشيئته تعالى، وقد أخبر تعالى في آيات كثيرة أنه شاء خلودهم أبداً.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «معنى الاستثناء ـ هاهنا ـ أنَّ دوامهم فيما هم فيه من

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير: ٢/ ٤٦٠.

النعيم، ليس أمراً واجباً بذاته، بل هو موكول إلى مشيئة الله تعالى، فله المنة عليهم دائماً»(١).

﴿عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾ أي: أعطوا في الجنة عطاءً غير مقطوع، فهو مستمر بفضله تعالى أبداً، كما في قوله الكريم: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ﴾ [التين: ٦].

- **الجزاء الوافي:**

وعادت الآيات إلى مخاطبة النبيِّ ﷺ تثبته وتواسيه، مما يدل على شدة ما كان ﷺ يعاني من عنادهم وغلظتهم، كما تدل على أنها نزلت عليه وهو في مكة المكرمة، في ذروة مواجهته للمشركين، وتؤكد على تقرير المسؤولية الكاملة والجزاء الوافي لجميع المكلَّفين:

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّمَّا يَعۡبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ مَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبۡلُۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمۡ نَصِيبَهُمۡ غَيۡرَ مَنقُوصٖ ١٠٩﴾.

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّمَّا يَعۡبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾ أي: لا تكنْ في شكٍّ من سوء عاقبة ما يعبد هؤلاء المشركون، الذين تواجههم وتلقى منهم الأذى والجحود.

﴿مَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبۡلُۚ﴾ أي: ما يعبدون إلا الأصنام والأوثان، كما كان آباؤهم يعبدونها، فهم مثل آبائهم في الشرك والكفر، وسيصيبهم مثل ما أصاب آباءهم، كما قصصنا عليك.

﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمۡ نَصِيبَهُمۡ غَيۡرَ مَنقُوصٖ﴾ أي: وإنا سننزل بهم نصيبهم المقدر لهم من العذاب، كاملاً غير ناقص.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير: ٢/ ٤٦٠.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ أي: آتيناه التوراة، فاختلف فيه بنو إسرائيل، آمن به بعضهم وكفر آخرون، كما اختلف قومك في القرآن الكريم.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: ولولا أنه تعالى قدَّر ألا يعاجلَ الكافرينَ بالعذاب، وأن يمهلهم إلى الأجل المقدر لهم، لأنزلَ العذابَ الذي يميّزُ بينهم وبين المؤمنين، فيهلك الكافرين، وينجي المؤمنين، كما حدث فيما قَصَّهُ علينا.

﴿وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ أي: وإن كفار قومك ليستحقون معاجلتهم بالعذاب؛ لأنهم في شك منه وارتياب.

﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾﴾.

﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي: وإنَّ كلا الفريقين، المؤمن والكافر، مسؤولون أمام الله تعالى، وسيوفيهم جزاء أعمالهم من ثواب وعقاب.

﴿إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي: عليم بحقيقة أعمالهم، لا يخفى عليه شيء منها، ولهذا سيكون الحساب كاملاً، والجزاء من عقاب وثواب وافياً.

- **الأمر بالاستقامة:**

فالناقدُ بصير، وهو سبحانه قائمٌ على كلِّ نفس بما كسبت، والإنسان تحت الرقابة الإلٰهية الدائمة، وهو مسؤولٌ أمامَ الحق تعالى مسؤولية كاملة، وهذا يفرِضُ عليه الالتزامَ الدائمَ بدين الله تعالى وشرعه، والاستقامةَ الكاملةَ على منهجِه، ولهذا توجهتِ الآياتُ إلى النبي ﷺ، تأمُره أمراً صريحاً قاطعاً ملزماً:

﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾﴾.

﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ أي: كن دائماً على الصراط المستقيم، الذي أمرك الله

تعالى به، فهو أمرٌ شاملٌ لكل أوامر الله تعالى، في العقيدة والعبادة والمعاملة، وتحمُّلِ أعباء الرسالة، وتبليغ الأمانة.

ولا بدَّ أن يستشعرَ القارئُ لهذه الكلمات أنها أمرٌ علوي، أُمِر به النبي ﷺ، وصدرت من ذاتٍ آمرةٍ، وليس نابعاً من ذاته ووجدانه، كما يزعم الجاحدون لظاهرة الوحي، كما يدرك المتدبِّر للآية ثقلَ المسؤولية الملقاة على عاتق النبي ﷺ، فمهمته ثقيلة، ومسؤوليته متميزة عن غيره من الناس، ولهذا وُجِّه إليه الخطاب أولاً.

ولما كان النبيُّ ﷺ أعظمَ الناس معرفة بالله تعالى، وأشدَّهم خشيةً له جل جلاله، كان أكثرَ الناس تقديراً لخطورة الأمر الإلٰهي، الذي أمره الحقُّ عز وجل به، فعن **ابن عباس** رضي الله عنهما قال: **ما نزلت على رسولِ اللهِ ﷺ آيةٌ أشدّ من هذه الآيةِ ولا أشقّ**[1].

ثم عمَّم سبحانه الأمر بالاستقامة إلى جميع المؤمنين، فقال:

﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ أي: وليستقمْ أيضاً مَنْ تابَ من الكفر والشرك، وشاركك في الإيمان والسير على طريق الإسلام.

﴿وَلَا تَطْغَوْا۟﴾ أي: لا تنحرفوا عن حدود الله التي شرعها لكم بإفراط أو تفريط، فإنَّ أيَّ تجاوُزٍ للحدود المشروعة يخلُّ بحقيقة الاستقامة، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وقال جل جلاله أيضاً: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

ومن هنا كانت الاستقامةُ شديدةً وثقيلةً، فهي تستدعي أولاً فقهاً بدين الله تعالى وعلماً بأحكامه، كما في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٠].

وقول النبي ﷺ: «**مَنْ يُرِدِ اللهُ به خَيْراً يفقهه في الدِّينِ**» [رواه البخاري (٧١)].

---

(١) روح المعاني: ١٢/١٥٢.

كما تستدعي الاستقامة أيضاً خوفاً من الله تعالى، ومراقبة له، ولهذا ختم سبحانه آية الأمر بالاستقامة فقال:

﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾.

فشأنها شأن خطير، ولهذا قال العلماء: الاستقامةُ عينُ الكرامةِ، فمن وفقه الله تعالى إليها فقد أكرمه أعظمَ كرامة، وله عند الموت أكبر بشارة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

• الركون إلى الظالمين:

ثم حذَّرتهم الآياتُ من أمرٍ كبيرٍ خطيرٍ، يصادِمُ الاستقامة ويخالفها مخالفة كاملة، بقوله تعالى:

﴿وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

﴿وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أي: لا تميلوا أدنى ميل إلى الظالمين مهما كانوا. والآيةُ أبلغُ ما يتصوَّرُ في النهي عن الظلم، والتهديد عليه، وخطابُ الرسول ﷺ ومَنْ معه من المؤمنين، للتثبيت على الاستقامة، التي هي العدلُ، فإنَّ الميلَ إلى أحد طرفي الإفراط والتفريط ظلمٌ على نفسه أو على غيره(١).

والركونُ حقيقةً الاستنادُ والاعتمادُ، والسكونُ إلى الشيء والرضا به، ولهذا نقل العلماء في بيان حقيقته أقوالاً متقاربة. قال قتادة: معناه لا تودوهم ولا تطيعوهم، وقال ابن جريج: لا تميلوا إليهم. وقال أبو العالية: لا ترضوا أعمالهم(٢).

---

(١) تفسير أبي السعود: ٥/ ١٤٤.

(٢) تفسير القرطبي: ٩/ ١٠٨.

وقال علي بن أبي طلحة: عن **ابن عباس** رضي الله عنهما: لا تداهنوا. وقال ابن جرير: عن **ابن عباس** رضي الله عنهما: لا تستعينوا بالظلمة، فتكونوا كأنكم رضيتم بأعمالهم[(١)].

والآيةُ عامةٌ في جميع الظالمين، سواء كانوا من الكفار والمشركين، أو من عصاة المؤمنين، قال القرطبي رحمه الله: «وهذا هو الصحيحُ في معنى الآية، وأنها دالة على هجران أهل الكفر والمعاصي، من أهل البدع وغيرهم، فإن صحبتهم كفر أو معصية»[(٢)].

﴿فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ أي: ليس لكم من دونه تعالى أولياء ينقذونكم، ولو وجدوا لا يستطيعون نصركم.

فالركونُ إلى الظالمين ظلمٌ في نظر الإسلام، لأنه يشجِّعُ الظالمين على ظلمهم، ويجعلهم يتمادون فيه. ولعمري إنَّ الآيةَ أبلغ شيء في التحذير من الظلمة والظلم، ولهذا قال الحسن: جمع الدين في لاءَيْنِ؛ يعني: ﴿وَلَا تَطْغَوْاْ﴾، ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ﴾.

ويُحْكَى أنَّ الموفق أبا أحمد طلحة العباسي صلَّى خلفَ الإمام، فقرأ هذه الآية فغُشِيَ عليه، فلمَّا أفاق قيل له، فقال: هذا فيمن ركنَ إلى من ظلم، فكيف الظالمُ[(٣)].

وقال الله جل جلاله للنبي ﷺ: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء].

وإذا كان هذا حال النبي ﷺ، فما حالنا؟! أسأل الله تعالى أن يثبتنا على الحق، وألا يجعلنا فتنة للظالمين.

- **الصلاة والإحسان:**

ثم بيَّن تعالى أفضل وسيلة يستعين بها المؤمن للثبات على الحق، ويعتصم بها من الزلل ومن الركون إلى الظالمين، فقال:

---

(١) تفسير ابن كثير: ٢/ ٤٦١.

(٢) تفسير القرطبي: ٩/ ١٠٨

(٣) روح المعاني: ١٢/ ١٥٥.

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ١١٤﴾.

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ﴾ أي: أقم الصلاة في الصباح والمساء، وفي ساعات من الليل، أو طائفة من الليل.

﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ أي: إنَّ فعل الحسنات، كإقامة الصلوات الخمس، يمحو الله بهن الخطايا والذنوب.

وفي الحديث الشريف: عن **ابن مسعود** رضي الله عنه: أنَّ رجلاً أصاب من امرأة قبلةً، فأتى رسول الله ﷺ، فذكرَ ذلكَ له، فأُنزلتْ عليه: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ١١٤﴾ قال الرجل: أَلِيَ هذه؟ قال: «**لِمَنْ عَمِلَ بها مِنْ أُمَّتي**» [رواه البخاري (٤٦٨٧)].

والسيئاتُ التي تُمحى بأداء الصلوات هي الذنوب الصغيرة، أما الذنوبُ الكبيرة فلا بدَّ لها من توبة، لقوله تعالى: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا﴾ [النساء: ٣١].

ولقول النبيِّ ﷺ: «**الصلواتُ الخمسُ، والجمعةُ إلى الجمعةِ، ورمضانُ إلى رمضانَ، مكفِّرات ما بينهنَّ إذا اجْتُنبَتِ الكبائرُ**» [رواه مسلم (٢٣٣)].

﴿ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ أي: إقامة الصلاة ذكرى للذاكرين، لأنها تذكِّرهم بالله تعالى، ومسؤوليتهم يوم القيامة أمامه، فتبعثهم إلى طاعته، وتحجزهم عن معصيته، كما قال سبحانه: ﴿ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

﴿وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١١٥﴾.

أي: اصبر على إقامة الصلاة، والقيام بما كُلِّفت به، وذلك بالدوام عليها

والتمسك بها، كما قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢].

فإنه تعالى لا يضيع أجر المحسنين في طاعته وعبادته، وقد مرَّ معنا أنه يوفيهم أجورهم كاملة من غير بخس، كما في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠].

ودلَّت الآية على أنَّ الصبرَ على الصلاةِ وغيرها من التكاليف الشرعية، يوصِلُ إلى مرتبة الإحسان، وهي مرتبةٌ رفيعة، عرَّفها النبي ﷺ بعد أن سأله جبريل عنها فقال: «**الإحسانُ أن تعبدَ الله كأنَّكَ تراهُ، فإن لم تكنْ تراهُ فإنَّه يراكَ**» [رواه البخاري (٥٠) ومسلم (٩)].

وأشار عليه الصلاة والسلام في الجواب إلى حالتين: **أرفعهما**: أن يغلبَ عليه مشاهدة الحق سبحانه بقلبه، حتى كأنه يراه بعينه. **والثانيةُ**: أن يستحضِرَ أنَّ الحقَّ سبحانه مطلعٌ عليه يرى كل ما يعمل. وهاتان الحالتان يثمرهما معرفة الله وخشيته، قال النووي: معناه أنك إنما تراعي الآداب المذكورة، إذا كنتَ تراه ويراك، لكونه يراك لا لكونك تراه، فهو دائماً يراك، فأحسن عبادته وإن لم تره[1].

- **الترف وانتشار الفساد:**

ثم بيَّن تعالى أنَّ من مسؤولية كل فرد، مقاومة المفسدين ودفع فسادهم، فإن ذلك من أهم أسباب سلامة المجتمع وبقائه، وإن شيوع الفساد في المجتمع وتغلب المفسدين عليه، يؤدي إلى هلاكه وسقوطه، فقال سبحانه:

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾﴾.

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: هـلَّا

(١) فتح الباري: ١/ ١٢٠.

كان في الأمم الهالكة من قبلكم أولو عقل وفضل وقوة، ينهون المفسدين عن الفساد، ويمنعونهم من نشره بين الناس.

وسُمِّي الفضلُ والجودُ بقيةً، لأن الرجل يستبقي مما يخرجه أجوده وأفضله، فصار مثلاً في الجودة والفضل، ويقال: فلان من بقية القوم، أي: من خيارهم، ومنه قولهم: «في الزوايا خبايا وفي الرجال بقايا»(١).

﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ أي: لكن القلَّة المؤمنة التي أنجيناها من الأمم الهالكة، ما كانت قادرةً على قمع المفسدين، بسبب قلَّتهم وضعفهم، فالقادرون على قمع المفسدين كانوا هم المفسدين الذين اتبعوا شهواتهم ونزواتهم.

﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾ أي: تركوا النهي عن الفساد واهتموا بتحصيل شهواتهم وسرفهم وترفهم.

ولا شكَّ أنَّ الترفَ والتبذيرَ من أهم أسباب شيوع الفساد في المجتمعات، ولهذا نرى المترفين في كل عصر أكثر الناس فساداً، وأشدَّهم مسارعة إلى مقاومة دعوة الأنبياء والمرسلين، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

وقال ﷻ أيضاً: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦].

﴿وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ أي: وكان هؤلاء المترفون مجرمين، ارتكبوا جرائم كثيرة، ونشروا فساداً كبيراً، حتى وصلوا إلى ما هم عليه من السرف والترف والتبذير.

وكلمة ﴿لَوْلَا﴾ فيها معنى التفجُّع والأسف، وفي ذلك إشارة إلى أنه تعالى ما خلق الخلق ليعذبهم فهو الرحمن الرحيم والبرُّ الكريم، وأنه تعالى ما أهلكهم إلا بسبب ظلمهم وفسادهم، ولهذا قال سبحانه:

---

(١) تفسير النسفي: ٢/ ٢٠٨.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾.

أي: الله سبحانه لا يهلك الأمم ويسقط الحضارات ما دام أهلها على صلاح وخير وهدى، فهو الحكم العدل المنزَّه عن الظلم.

وقد يكون المرادُ من الظلم هنا الشرك والكفر، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

والمعنى أنه تعالى لا يهلك أهل القرى بمجرد كونهم مشركين، إذا كانوا مصلحين في المعاملات فيما بينهم، فلا يظلم بعضهم بعضاً، ولا يبغي أقوياؤهم على ضعفائهم، فعذاب الاستئصال لا ينزل لأجل كون القوم معتقدين للشرك والكفر، بل إنما ينزل ذلك العذاب إذا أساؤوا في المعاملات، وسعوا في الإيذاء والظلم، ويقال في الأثر: «المُلْك يبقى مع الكفرِ، ولا يبقى مع الظلم».

والدليل عليه أنَّ قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب، إنما نزل عليهم عذاب الاستئصال لما حكى الله عنهم من إيذاء الناس وظلم الخلق[١].

وأكد هذا المعنى القرطبيُّ رحمه الله فقال: دلَّ هذا على أن المعاصي أقرب إلى عذاب الاستئصال في الدنيا من الشرك، وإن كان عذابُ الشرك في الآخرة أصعبَ، وفي «**جامع الترمذي**» [٢١٦٨] من حديث **أبي بكر الصديق** رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «**إنَّ الناسَ إذا رأوا الظالمَ فلم يأخذُوا على يديهِ، أوشكَ أن يعمَّهُم اللهُ بعِقَابٍ مِنْ عندِهِ**»[٢].

فالمجتمعاتُ البشرية التي يتحكَّم فيها الفاسدون والظالمون، ويشيع فيها الظلم والعدوان واضطهاد الضعفاء، هي المجتمعات التي يتسارع إليها الهلاك والدمار، وتنتهي بالسقوط قبل غيرها من المجتمعات، وشواهد التاريخ ووقائع العصر الحاضر، تصدِّقُ ذلك وتؤكده، وهذا يبين لنا خطورة الركون إلى

---

(١) تفسير الرازي: ٥/ ١٤٤.

(٢) تفسير القرطبي: ٩/ ١١٤.

الظالمين، والوعيد الشديد لكل من يداهنهم ويمالئهم، فضلاً عمن يعاونهم على ظلمهم واستبدادهم.

• **الرحمة والخلق:**

ثم بيَّن تعالى كمال قدرته وتمام حكمته ورحمته وإحسانه في مخلوقاته، فقال:

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي: لا اختلاف بينهم، ولا نزاع، كما في قوله سبحانه: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

ولكنَّه تعالى خلقَهم ليبتليهم ويختبرهم، فجعلَ لهم اختياراً وقدرة على التمييز بين الخير والشر، وهذا سرُّ استمرارِ الاختلاف قائماً بينهم.

﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ أي: لا يزالون مختلفين في الحقِّ، مخالفين له، إلا مَنْ هداهم الله تعالى إلى الحق ورحمهم، لأنَّه عَلِمَ منهم حسنَ الاستعدادِ للخضوع للحق، والرضا به، والالتزام بمنهجه، كما في قوله سبحانه: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣][(١)].

﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ أي: خلقهم ليرحمهم، ويسعدهم بطاعته وعبادته، كما في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

---

(١) انظر: تفسير سورة البقرة، في تفسيرنا الموضوعي الكبير هذا، تحت عنوان (الإسلام لله تعالى في سورة البقرة).

ويحجبُ أكثرُ الناس أنفسَهم عن رحمته تعالى، بكفرهم وظلمهم، ويعرِّضون أنفسهم للعقاب والعذاب بسوء اختيارهم.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ أي: حقَّت ووجبت.

﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أي: لأملأن جهنم من الجِنة والناس أجمعين، الذين أعرضوا عن عبادة الله وطاعته، ولم يصدِّقوا بمسؤوليتهم عن أعمالهم أمامه تعالى.

والحسابُ والجزاءُ أمرٌ ضروري يدلُّ على كمال حكمته تعالى ورحمته في خلقه، كما في قوله: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢][١].



---

(١) انظر: تفسير سورة الأنعام، وقد أسميناها في تفسيرنا الموضوعي هذا: (بصائر الحق في سورة الأنعام).



الخاتمة

﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

وأخيراً ختم الله تعالى السورة بإجمال ما فصّله فيها، فقال:

﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾.

﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ أي: في كل نبأ نقصُّه عليك من أنباء الرسل السابقين، تثبيتٌ لقلبك على الحق، وأنت تواجِهُ عنادَ المشركين وأذاهم.

﴿وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: وجاءك في هذه السورة بيان الحق الثابت الذي لا محيد عنه، إلى جانب ما فيها من موعظة بليغة، وتذكرة نافعة للمؤمنين.

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾﴾.

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي: اعملوا بالأسلوب والطريقة التي تختارونها لأنفسكم. فأنتم مسؤولون عن عملكم واختياركم، ومجزيون عليه أوفى الجزاء وأعدله في الدنيا والآخرة.

﴿إِنَّا عَٰمِلُونَ﴾ أي: إنا عاملون على طريقتنا وأسلوبنا كما شرع لنا ربنا.

وقد مرَّ معنا أن نبي الله شعيباً قال لقومه مثل ذلك: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ [هود: ٩٣]، وكذلك قال تعالى هنا:

﴿وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾.

أي: انتظروا عاقبة كسبكم واختياركم، إنا منتظرون ما وعدنا ربنا من فضله ورحمته.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: ملكاً وعلماً وتدبيراً، لا تخفى عليه خافية.

﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ أي: إلى قدرته ومشيئته وعلمه يرجع أمر الخلق كلُّه.

﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ فإنه كافيك وناصرك.

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فلن يترككم جلَّ وعلا دون مسؤولية وجزاء.

وهكذا أظهر سبحانه بهذا الإجمال، جميعَ ما سبقَ تفصيلَه في آيات السورة، إنَّه الإحكامُ والتفصيلُ في التنزيل الحكيم، وإنه حقّاً كتاب أُحكمت آياته ثم فُصِّلَتْ من لَدُنْ حكيمٍ خبيرٍ.





تفسير سورة يوسف

الوَحْيُ والنُّبُوَّةُ والعِلْمُ فِي سُورَةِ يُوسُف

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المُقَدِّمَة

الحمد لله ربِّ العالمين، وأفضلُ الصلاةِ وأتمُّ التسليم على سيدنا محمدٍ، وعلى آله وأصحابه، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعدُ: فإنَّ حاجَتنا ماسَّةٌ وشديدةٌ إلى الحِكَم الكبيرة، والأحكام الكثيرة، والمواعظ البليغة، في قصة يوسف عليه السلام، وخاصةً إلى الجانب الذي برزَ كمحورٍ أساس لموضوع السورة، وهو **بيان حقيقة الوحي**، وكونه مصدراً من مصادر الحقيقة والعلم، وتقريبه بأسلوب علمي موضوعي إلى أذهان الناس، والرد على الماديِّين المنكرين له، الذين قَصَروا معرفة الحقائق على ما يخضع لحواسِّ الإنسان بواسطة العلوم التجريبية المحسوسة.

وقد جعلهم هذا ينكرون كثيراً من الحقائق الثابتة، ويرون أنها أمور غيبية تدخل في دائرة الظنِّ والحَدْس والتخمين، أو في دائرة التخيلات والأوهام.

وإنني لأرى أنَّ أمثلَ أسلوب للردِّ عليهم وتزييفِ أفكارهم، هو أسلوب القرآن الكريم، الذي أنزله الحكيم العليم، والذي اعتمد على العقل والواقع.

لقد خاطب الله تعالى في كتابه الكريم جميعَ الناس على اختلاف أفكارهم ومشاربهم ومستوياتهم، كما جادل جميعَ المخالفين والمعاندين من الماضين

والمتأخرين والمُحْدَثين، فلم ينزله الله لعصر واحد، كما هو حال الكتب السابقة، بل جعله سبحانه خاتِمَ كتبه ورسالاته ووَحْيه، وخاطب به جميع الأجيال المتعاقبة إلى قيام الساعة.

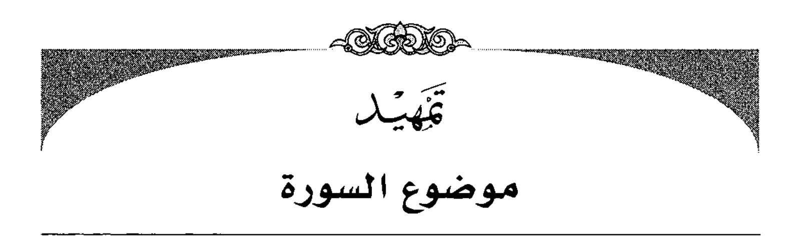
وقد جاء هذا التفسير في ثلاثة فصول:

- **الفصل الأول**: تضمَّن الحديث عن **المحن المتوالية التي مَرَّ بها يوسف** عَلَيْهِ السَّلَامُ.
- **الفصل الثاني**: تحدَّث عن **حياته** عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد اجتيازه للمِحَن، **وانتقاله إلى سُدَّة الحكم والسلطان**.
- **الفصل الثالث**: **التعقيبات** التي أوردها سبحانه على حوادث القصة.

وسيرى القارئُ كثرةَ العِبَر والمواعظ المبثوثة في كلِّ كلمةٍ وآيةٍ من آياتِ هذه السورة، والتي لا يمكن حصرها والإحاطة بها؛ لأنَّ معاني كلام الله لا يستطيع أحدٌ أن يحيط بها، فقد أبرزتُ منها ما ظهر لي مع إقراري بقصوري وعَجْزي.

أسأله سبحانه أن يجعل عملي خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفعني به يوم الدين، وينفع به قارئه، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه والتابعين.





تمهيد

موضوع السورة

لا شك أنَّ للقصَّة في القرآن الكريم حِكَماً جليلةً، وفوائد علميةً كبيرةً، إضافة إلى المواعظ الكثيرة والعِبَر البليغة، فكلامُ الله تعالى يتنزَّهُ عن اللَّغوِ والباطل وما لا فائدة فيه.

ولقد جاءت قِصَّةُ يوسف عليه السلام في سورةٍ كاملةٍ دليلاً واضحاً على هذه الحقيقة، إذ ظهر فيها من الحِكَم والمواعظ والعِبَر شيءٌ كثيرٌ، لا يمكن استقصاؤه، لتعذُّر الإحاطةِ بمعاني كلامِ الحكيمِ العليمِ في القرآن الكريم.

وما ذُكِرَتِ القصةُ كاملةً في سورةٍ واحدة استغرقت جميعَ آياتها تقريباً، إلا للاستفادة بما فيها من حِكَم وأحكام وعبر ومواعظ، وهذا ما قرره سبحانه وتعالى في مستهل السورة بقوله الكريم: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧﴾.

وقرَّره أيضاً في التعقيب الأخير على حوادث القِصَّة ووقائعها في آخر آيات السورة: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝١١١﴾.

وقد بَرَز من بين هذه الحِكَم الكثيرة والعبر البليغة موضوعُ السورة الأساس الذي ركَّزت عليه آياتها، وأبرزته في كثير من حوادث القِصَّة ووقائعها، كما سيأتي معنا، وهو التأكيدُ على أنَّ القرآن الكريم وَحْيٌ من الله تعالى، أُنْزِل على النبيِّ صلى الله عليه وسلم، وأنَّ الوحيَ مصدرٌ من أعظم مصادر العلم والحقيقة، فالحقيقةُ لا تُعرَف كلُّها بالعلوم التجريبية وحواسِ الإنسان المادية، فثمَّةَ مصدرٌ آخر للحقيقة، لا يصل إليه إلا من اختارهم الله تعالى واجتباهم من الأنبياء والمرسلين، وهو الوحي المنزَّل من الله تعالى عليهم.

وقد أبرزت الآيات الأولى في السورة هذا الموضوع وأكَّدته بقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٣﴾.

كما أكدته أيضاً من التعقيب الأول على حوادث القصة في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يُوسُف: ١٠٢].

ويلاحظ القارئ أنَّ سورةَ يوسف اهتمت كثيراً ببيان صِلَةِ **الوحي بالعلم**، وأنَّ الوحيَ مصدرٌ من مصادره، فعلمُ تعبيرِ الرؤيا وعلومُ يوسف عليه السلام التي كانت سببَ نجاتِه من محنة السجن وتمكينه في أرض مصر وسلطانها، ممَّا علَّمه الله تعالى يوسُفَ بواسطة الوحي، ولهذا قال عليه السلام: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ﴾ [يوسف: ٣٧].

وعلومُ يعقوب عليه السلام التي عَبَّر بها رؤيا يوسف، وواجَه أيضاً بها أولادَه مما علَّمه الله بواسطة الوحي أيضاً، ولهذا قال عليه السلام: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٨٦].

ووصفه سبحانه بقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ [يوسف: ٦٨].

وكلُّ هذه العلوم جزءٌ من علم الله تعالى الذي وَسِع كلَّ شيءٍ علماً، والذي قال: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦]. كما سيأتي معنا عند الحديث عن هذه الآيات في مواضعها إن شاء الله تعالى.



الفصل الأول

المِحَنُ المُتَوالِيَةُ الَّتي مرَّ بِهَا يُوسُفُ عليه السلام

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٣ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ۝٤ قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٥ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝١٠ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ۝١١ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝١٢ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ۝١٣ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ۝١٤ فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١٥ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ۝١٦ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ۝١٧ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ

ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَـٰبُشْرَىٰ هَـٰذَا غُلَـٰمٌ ۚ
وَأَسَرُّوهُ بِضَـٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟
فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ
نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ
أَمْرِهِۦ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ
قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا
لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ
﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ
بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ
أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ
مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ
إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ
﴿٢٩﴾ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا
فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ
سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَـٰشَ لِلَّهِ مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا
مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ
مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّـٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا
تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ
إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ
مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ
رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ
تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا

يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾.

• **القرآنُ الكريم واللغةُ العربية:**

ابتدأ الله تعالى سورةَ يوسف بالتنويه بفضلِ القرآن الكريم وشرفه، فقال:

﴿الٓر (١) تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝١﴾.

أي: هذه الآيات المنزَّلة على محمدٍ ﷺ آياتُ الكتاب الواضح الدلالة على أنه كلام الله تعالى.

وقد أنزله سبحانه باللغة العربية، فقال:

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٢﴾.

فالقرآن الكريم عربيُّ اللغة، أنزله سبحانه على النبي العربي سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الهاشمي القرشي ﷺ في أرض العرب، إذ قدَّر سبحانه أن تكونَ رسالةُ كل رسولٍ بلسان قومه، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: ٤].

وقد جاء التأكيد على وصف القرآن الكريم بأنه عربيُّ اللغة في عددٍ من الآيات الكريمة: منها: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣].

ومنها قوله ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا وَصَرَّفۡنَا فِيهِ مِنَ ٱلۡوَعِيدِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ أَوۡ يُحۡدِثُ لَهُمۡ ذِكۡرٗا﴾ [طه: ١١٣].

ومنها قوله ﷻ: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾ [الشعراء]... وغير ذلك من الآيات.

وكلُّ ذلك يدلُّ دلالةً قاطعةً على أنَّ القرآن الكريم عربيُّ اللغة بجميع

---

(١) سبق الحديث عن مثل هذه الحروف في تفسير سورة البقرة.

كلماته؛ قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ الآية [فصلت: ٤٤].

وقال أيضاً: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٢٨].

وما ذهب إليه بعضُهم من وجودِ كلماتٍ قليلة غير عربية في القرآن غير صحيح، فالقرآن كلُّه عربي، وما مِنْ كلمةٍ فيه إلا كان العربُ يتكلَّمون بها قبل نزوله.

ويدلُّ نزولُ القرآن الكريم باللغة العربية على فضلها وشرفها على سائر اللغات، لأنَّه سبحانه اختارها لغةً لأفضل الكتب وأشرفها، كما يدلُّ على أنَّ اللغة العربية تمتاز بقدرتها الفائِقةِ على تأدية المعاني مهما كانت.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: «﴿ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾، أي: الواضح الجليُّ الذي يفصح عن الأشياء المبهمة ويفسرها ويبينها، ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وذلك لأنَّ لغةَ العرب أفصحُ اللغات وأبينُها وأوسعُها وأكثرُها تأديةً للمعاني التي تقوم بالنفوس»[(١)].

فكأنه رَحِمَهُ اللهُ يرى أنَّ القرآن الكريم كتاب مبين واضحٌ جليٌّ لأنه نزل بلغة العرب، أفصحِ اللغات وأبيَنِها وأوسعِها وأكثرِها تأديةً للمعاني.

● **اللغة العربية والعلم:**

وهذا يفنِّدُ مزاعمَ القائلين بعجز اللغة العربية عن مسايرة ركب التطور العلمي في العصر الحاضر، وهي أكذوبةٌ كبيرة، وفِرْيَةٌ عظيمة على اللغة العربية، روَّجها أعداءُ الإسلام من المستشرقين، وأخذَ بها مع الأسف كثيرٌ من المثقفين العرب، فعزلوا لغتهم العربية عن مجالات الدراسة والتدريس في معظم الجامعات والكليات العلمية، وغفلوا عن حقيقة هامة، هي أنَّ اللغةَ العربية كانت لغة الحضارة الإسلامية التي ضمَّت تحت أجنحتها مختلف الثقافات والعلوم التي كانت سائدة في العالم، الحضارة التي خلَّفت أكبر تراثٍ علمي وحضاري لأمة من الأمم.

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٢/ ٢٣٩.

وغفلوا أيضاً عن أنَّ كون اللغة العربية هي لغة القرآن الكريم الذي لا تنتهي معانيه، والذي أخبر عن كثير من الحقائق العلمية التي ما عُرفت إلا في العصر الحاضر، وقد ذهب بعضُ العلماء في مؤتمر الإعجاز العلمي للقرآن الكريم الذي عُقد في القاهرة سنة (١٩٨٦م) إلى المطالبة بجعل الكلمات القرآنية العلمية لأطوار خلق الجنين هي المصطلحات العلمية، ونادى هؤلاء بتعميمها على سائر الأوساط العلمية، بسبب ما وجدوا من دقتها العلمية المتناهية في وصف أطوار الجنين وأحواله.

ولقد نجحت جامعةُ دمشقَ منذ تأسيس كلياتها العلمية نجاحاً باهراً في تدريس مختلف العلوم الطبية والهندسية والطبيعية باللغة العربية، وتمكَّن القائمون عليها من تعريب مختلف المصطلحات العلمية، فكانت بحق مثالاً علميّاً عربيّاً يجب الاقتداء به.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، ثم قوله سبحانه بعد ذلك مباشرة: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ يدلُّ على مرونة اللغة العربية، وقدرتها على تأدية مختلف المعاني بأفصح المباني وأوضحها، فأحسنُ القصص أنزلها سبحانه باللغة العربية، وهي في الأصل قصةٌ غيرُ عربية في أشخاصها وأحداثِها، فالقصةُ عِبْريةٌ، مع ذلك قصَّها الله تعالى علينا في القرآن العربي المبين بأرفع بيان؛ وأفصحِ كلام؛ في سورةٍ واحدة، بأداءٍ واقعي كامل، رغم تنوُّع الشخصيات والمواقف، ورغم كثرة العواطف والمشاعر ودقتها واختلافها، وكلُّ ذلك يدل على فضل اللغة العربية وشرفها وقدرتها على تأدية مختلف المعاني سواء كانت تاريخية أو علمية أو غير ذلك.

وعلى العرب أن يدركوا هذه الحقيقة ويعقلوها ويفهموها، عليهم أن يدركوا حكمته سبحانه في اختيار لغتهم للتنزيل الحكيم، ويعرفوا بذلك قدرَها ومكانتَها، وسرَّ قوله تعالى في أول سورة يوسف: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

وإيراد القصة العبرية باللغة العربية يدلُّ أيضاً على أنّ القرآن الكريم وحيٌ من الله تعالى؛ ولهذا قال تعالى يخاطبُ النبي ﷺ:

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾﴾.

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ﴾ فلا علاقةَ للنبيِّ ﷺ بالقرآن الكريم سوى أنه تلقَّاه بواسطة الوحي وبلَّغه للناس.

وما كان ﷺ قبل نزوله عليه يتوقع نزوله، ولا يتطلَّع إليه، فنزولُ القرآن الكريم على النبيِّ ﷺ كان مفاجأةً كبيرة له ﷺ، كما قال في ختام الآية:

﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ الذين لم يخطُرْ ببالهم، ولم يقرع سمعهم، فهو كقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ﴾ [القصص: ٨٦].

وقوله تعالى: ﴿أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ يدلُّ على أن قصص القرآن يغني عن غيره من القصص، ففيه الأدبُ العالي الرفيع الذي يحكي واقع النفوس البشرية وما جُبِلت عليه من خير وشر بواقعية صادقة أمينة سليمة، فيها دروس كبيرة، وعظات كثيرة، وعِبَرٌ بليغة، سنشير إليها إن شاء الله تعالى في مواضعها.

• **رؤيا يوسف** عليه السلام:

وقعت أحداثُ قصةِ يوسُف في القرن السابع عشر قبل الميلاد على وجه التقريب، أي قبل نزولها على النبيِّ ﷺ في القرآن الكريم بأكثر من أَلْفَين وثلاثمئة سنة.

بدأت القصةُ في بيت نبي الله يعقوب ابن نبي الله إسحاق ابن نبي الله وخليله إبراهيم عليهم السلام، وكان يعقوبُ مقيماً في بادية فلسطين من أطراف بلاد الشام الجنوبية.

وكان ليعقوبَ عليه السلام اثنا عشر ولداً من زوجاتِه الأربع، فهم أولادُ علّاتٍ، أصغرهم (بنْيامين) شقيق يوسف عليه السلام.

ويشاءُ الله تعالى أن يرى يوسفُ رؤيا وهو لا يزالُ غلاماً صغيراً في نهاية العقد الأول من عمره على الراجح، يأتي إلى أبيه ليقصها عليه:

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾﴾.

كانت هذه الرؤيا محورَ القصةِ وبدايتَها، وكان تحقُّقها وتأويلها نهايتَها السعيدة.

وعرف نبيُّ اللهِ يعقوبُ بعين النبوة التي تبصِرُ الحقائق ولا تخطئ أنَّ الله تعالى قدَّر لولده يوسفَ مستقبلاً باهراً مشرقاً، وأنَّه سبحانه سيصطفيه ويجتبيه ويكرمه بكرامة النبوة، التي أكرمَ بها من قبلُ آباءه يعقوبَ وإسحاقَ وإبراهيمَ ﷺ.

وجاء في الحديث الشريف: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ: أيُّ الناسِ أكرم؟ قال: «**أكرمُهم عندَ اللهِ أتقاهم**» قالوا: ليسَ عن هذا نسألُكَ، قال: «**فأكرمُ الناسِ يوسفُ نبيُّ اللهِ ابنُ نبيِّ اللهِ ابن نبيِّ اللهِ ابن خليلِ اللهِ**» [رواه البخاري (٤٦٨٩)].

وأدرك يعقوبُ ﷺ أيضاً أنَّ إخوةَ يوسف سيخضعون له ويعظمونه، ويَخِرُّون له ساجدين إجلالاً واحتراماً وإكراماً، وكان ذلك جائزاً في شريعتهم، فنصحَ يعقوبُ ولدَه يوسفَ أن يكتمَ هذه الرؤيا، وخاصةً عن إخوته، خوفاً عليه من حسدهم وبغيهم، فإنَّ كلَّ ذي نعمةٍ محسودٌ، كما جاء في الحديث الشريف: «**استعينوا على إنجاحِ الحوائجِ بالكتمان فإنَّ كُلَّ ذي نعمةٍ محسود**» [رواه الطبراني والبيهقي وأبو نعيم][(١)].

﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾﴾.

﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا﴾ أي: فيحتالوا لك ليهلكوك أو يضرُّوك بتزيين الشيطان وتسويله:

﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

---

(١) انظر: المعجم الأوسط (٢٤٥٥): ٣/ ٥٥؛ فيض القدير: ١/ ٦٣٠.

ثم أخبره عليه السلام بأنَّ الله تعالى سيصطفيه، ويشرِّفه بكرامة النبوة:

﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ أي: وكما أكرمك ربُّك بهذه البشرى التي أراكها في منامك، يختارك ويصطفيك ربُّك للنبوة.

- **تأويل الأحاديث:**

﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ أي: تأويل الرؤيا وتعبيرها، وهو ما ذهبَ إليه جمهور المفسِّرين، حتى قال القرطبي رحمه الله: «وأجمعوا أنَّ ذلك في تأويل الرؤيا، وقد كان يوسفُ عليه السلام أعلمَ الناس بتأويلها»(١).

والتأويل: ردُّ الشيء إلى الغاية المرادة منه، يقال: أوَّلَ الشيء إليه: أرجعه، وأوَّلَ الكلام: فسَّره، وردَّه إلى الغاية المرْجُوَّةِ منه، وأوَّلَ الرؤيا: عَبَّرها(٢).

والأحاديث: جمع حديث، وهو ما يتحدَّثُ به من كلام.

فالرؤيا التي يراها الإنسانُ في نومه مجموعةُ أحاديث تختلف باختلاف مصدرها.

وقد بيَّن النبيُّ ﷺ أقسامَ الرؤيا بحسب مصدرها فقسَّمها إلى ثلاثة أقسام:

١ ـ رؤيا صالحة وهي بشرى من الله.

٢ ـ ورؤيا تحزين من الشيطان.

٣ ـ ورؤيا من حديث الإنسان مع نفسه.

قال عليه الصلاة والسلام: «**إذا اقتربَ الزمانُ لم تكدْ رؤيا المسلم تَكْذِبُ،**

---

(١) انظر: تفسير القرطبي: ٩/ ١٢٩.

(٢) انظر: المعجم الوسيط.

وأصدقُكم رؤيا أصدقُكم حديثاً، ورؤيا المسلمِ جزءٌ من ستةٍ وأربعينَ جزءاً من النبوة ـ وفي رواية: **من خمسة وأربعينَ ـ والرؤيا ثلاثة: فالرؤيا الصالحة بشرى من الله، ورؤيا تحزين من الشيطان، ورؤيا مما يحدِّثُ الإنسانُ نفسَه، فإن رأى أحدُكم ما يكرهُ فليقُمْ فليصلِّ، ولا يحدِّثْ بها الناسَ»** [رواه مسلم (٢٢٦٣)].

والجديرُ بالذكر أنَّ هذا التقسيمَ للرؤيا لغير الأنبياء ﷺ، فرؤيا الأنبياءِ وحيٌ لا تسلُّط للشيطان عليهم، قال تعالى عن إبراهيم ﷺ: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢].

وقالت عائشة ﵂: **أولُ ما بدئَ رسولُ اللهِ ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحةُ في النومِ، وكان لا يرى رؤيا إلا جاءتْ مثلَ فَلَقِ الصُّبحِ.** [رواه البخاري (٣) ومسلم (١٦٠)].

- **الرؤيا عند علماء النفس:**

ويرى أكثرُ علماءِ النفس أنَّ الرؤيا التي يراها الإنسانُ في نفسِه حديثُ نفسٍ مصدره نفس الرائي، فهي نشاطٌ نفسيٌّ للنائم، وهو ما ذهب إليه الفيلسوف القديم **أرسطو**، وتابعه عليه من الفلاسفة المتأخِّرين **سيغموند فرويد**، فهو يرى أنَّ الرؤيا نتاجُ نشاطنا النفسي الخاص، وتحقيقٌ مقنع لرغبة مقموعة أو مكبوتة[(١)].

فالرؤى والأحلام عند أكثر علماء النفس ناتجةٌ عن عواملَ نفسيةٍ، ووليدة سلسلةٍ من الظواهر النفسية، وتعبيرٌ عن رغبات مكبوتة، وتذكيرٌ بحالات ومشاهد سبق أن مرَّت بنا منذ زمن طويل، وعليه فإنَّه من المنطقي أن تفسَّر الأحلام على طريقة التحليل النفسي، وذلك بأن يوضعَ الإنسانُ في حالة نفسية تماثل بعض المماثلة تلك التي تسبق النوم، وتماثل حالة التنويم المغناطيسي من حيث توزيع الطاقة النفسية، ثم يأخذ المحلل بدراسة الحلم من خلال هذه المقارنة[(٢)].

---

(١) انظر: المقدمة لكتاب تفسير الأحلام، ص١٣.

(٢) المرجع السابق، ص١٧.

فأكثرُ علماء النفس يحصرون الرؤيا في النوع الثالث الذي ذكره النبي ﷺ في الحديث السابق في قوله ﷺ: «**ورؤيا ممَّا يحدِّث الإنسانُ نفسَه**» [رواه مسلم (٢٢٦٣)].

لكنَّ الواقع المشاهَدَ يدلُّ على أنَّ للرؤيا مصادرَ أخرى خارجةً عن نفس الإنسان كما أخبر النبي ﷺ، فالرؤيا التنبُّئيَّة التي تنبئ الإنسانَ عن بعض ما سيحدثُ له في المستقبل واقعٌ معروفٌ ومشهودٌ، ولم يستطع فرويد إنكارَها، فقد رأى أنَّ هذه المسألة ليست موضعَ تفكير، وهو يفضل أن يقال: إن الأحلام تحيطنا علماً بالماضي، أما اعتقاد الأقدمين بأنَّ الأحلام تنبئ بالمستقبل فأمر لا يخلو في رأيه كل الخلوِّ من الصدق[(١)].

وقد أكَّد العالم الفرنسي **شارل ريشيه** من خلال التجارب التي قام بها، بشكل لا يقبل الشكَّ أنَّ كثيراً من الناس يرون في نومهم أحلاماً تنبئ بأمور غيبية، وعلَّل ريشيه وغيره من العلماء هذا الأمرَ بأنَّ الإنسان ليس جسداً فحسب، بل هو روح أكثر منه جسداً[(٢)].

إنَّ الحقيقةَ لا تُعْرَفُ كلُّها بواسطة حواس الإنسان الظاهرة المحدودة، فحواسُّه وإدراكه تنام معه عندما ينام، كيف يرى الإنسان ويسمع ويدرك مختلف المشاعر من خوف وألم وغضب وسرور وهو نائم؟!.

• **الرؤيا التنبُّئية:**

الرؤيا التنبُّئية محورُ قصة يوسف ﷺ، ودوافعُ حوادثها الأساسية، وقد سمَّى الله تعالى هذه الرؤى التنبُّئية: الأحاديثَ، وتأويلها علمٌ من العلوم التي أكرم الله تعالى بها يوسف ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ وهو ما تنبَّأ به أبوه يعقوب ﷺ، وقد تمَّ هذا بالفعل، وأخبر الله تعالى أنه أنعم

(١) المقدمة لكتاب تفسير الأحلام، ص١٤.

(٢) المرجع السابق، ص١٥.

على يوسف عليه السلام بعلم تأويل الأحاديث في الآية التي ستأتي معنا: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ٢١].

وكان لهذا العلم الذي علَّمه الله يوسفَ عليه السلام دورٌ كبير في تحريك أحداث القصة كما سيأتي معنا، وشعر عليه السلام بفضل الله عليه بما علَّمه فقال كما سيأتي معنا: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ١٠١].

فهو علم وهْبِيٌّ لا يخضع لمقاييس التعليم المادية، ولا يُكتَسَبُ، وهو علم أيضاً لا يخطئ إذا صَدَرَ عن الأنبياء عليهم السلام كرؤياهم، فهي دائماً رؤيا صادقة لا تخطِئُ، لهذا هي جزءٌ من الوحي كما مرَّ معنا في حديث [البخاري (٣) ومسلم (١٩٠)].

وكل ذلك يدلُّ على وجود مصادر للحقيقة وراء المصادر المادية التي عرفها الناس وألفوها.

وقد يكون للعوامل النفسية تسبُّبٌ في الرؤى والأحلام، كما يرى علماء النفس، ولكنَّها ليست الأسباب الوحيدة، إذ يتعرَّضُ الإنسان في نومه لمؤثِّرات متعددة بعضها نابع من نفسه، وبعضها خارج عنه، إمَّا مِنَ الله تعالى بواسطة المَلَك، وإمَّا مِنَ الشيطان بنزغه ووساوسه كما سيأتي معنا في الحديث النبوي الشريف.

ولهذه الإلقاءاتِ تأثيرٌ على الإنسان في حال اليقظة أيضاً، ويشعر الإنسان بآثارها بما يجده في نفسه من نوازع تنزع به إلى الخير أو تنزع به إلى الشر.

قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ للشيطانِ لَمَّةً بابنِ آدمَ وللمَلَك لَمَّةً، فأمَّا لَمَّةُ الشيطانِ فإيعادٌ بالشَّرِّ، وتكذيبٌ بالحقِّ، وأمَّا لمَّةُ المَلَكِ فإيعادٌ بالخيرِ، وتصديقٌ بالحقِّ، فمَنْ وجدَ ذلكَ فليعلمْ أنَّه مِنَ اللهِ تعالى، فليحمَدِ الله، ومَنْ وجدَ الأُخرى فليتعوَّذْ باللهِ مِنَ الشيطانِ**» [رواه الترمذي (٢٩٨٨) والنسائي (١٠٩٨٥) وابن حبان (٩٧٧) في صحيحه][(١)].

فالرؤى التنبُّئية واقعٌ مشاهَد، لا يمكِنُ إنكاره، وقد أخبر الله في قصة يوسف عن وقوع عدد منها؛ وهي: رؤياه عندما كان صغيراً، ورؤيا صاحبيه في

---

(١) انظر: موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان: ١/ ٤٠.

السجن، ورؤيا المَلِك، وكلها رؤى تنبُّئية صادقةً، وهي من هذه الناحية أنموذَجٌ مصغَّر لظاهرة الوحي، ومثال مقرِّب لمعناه وحقيقته.

ولهذا عدَّ رسول الله ﷺ الرؤيا التنبُّئية الصادقة جزءاً من ستة وأربعين جزءاً من النبوة كما مرَّ معنا، لأنها تشبهُ الوحيَ في إلقائها وخفائها، وتشبهه أيضاً بصدقها وموافقتها للحقيقة.

وأمَّا كونها جزءاً من ستة وأربعين جزءاً من النبوة، فبالنسبة له عليه الصلاة والسلام، إذ ابتُدئ عليه الصلاة والسلام في أول نزول الوحي عليه بالرؤيا الصادقة كما مرَّ معنا في حديث **عائشة** رضي الله عنها مدة ستة أشهر، ثم استمر بعد ذلك نزول الوحي عليه مدة ثلاثة وعشرين عاماً، فكانت مدة الوحي بالرؤيا جزءاً من ستة وأربعين جزءاً من مدة نزول الوحي عليه ﷺ.

والرؤيا التنبُّئية الصالحةُ بالنسبة للمؤمن بشرى من الله تعالى له في حياته الدنيا، قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٦٣ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [يونس].

وعن **عبادة بن الصامت** رضي الله عنه: أنه سأل رسولَ اللهِ ﷺ فقال: يا رسول الله أرأيتَ قول الله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ [يونس: ٦٤]؟ فقال: «**تلكَ الرؤيا الصالحةُ يراها الرجلُ أو تُرى له**» [رواه أحمد (٦/ ٤٤٥) والترمذي (٣١٠٥)][1].

وتعبيرُ الأنبياء للرؤيا علمٌ أوحى الله تعالى به إليهم، ولهذا فهو علم وهبي لَدُنِّي من الله تعالى لا يُخطئ ولا يُخالِفُ الحقيقة أبداً، وشواهد سورة يوسف تؤكِّد هذه الحقيقة كما سيأتي معنا. وأما غير الأنبياء الذي يعبِّرون الرؤيا؛ فتعبيرُهم يمكِنُ أن يخطئ أو يصيبَ، لأنَّه نتيجة جهدهم وكسبهم، ومهما بلغوا

---

(١) انظر: (الإنسان بين التقدير والتكليف في سورة يونس)، وهو تفسير سورة يونس في هذه الموسوعة الكبيرة (التفسير الموضوعي لسور القرآن العظيم).

من الفضل والعلم، وشفافية الروح، وعلو المدارك، فلن يصلوا إلى مقام النبوة، لأنه مقامٌ غير مكتسب، لا اختيارَ لهم فيه، بل هو محضُ فضلٍ من الله تعالى.

وأقربُ مثالٍ إلى ذلك ما جاء في الحديث الشريف: أنَّ رجلاً أتى رسولَ اللهِ ﷺ فقال: يا رسولَ اللهِ، إنِّي أرى الليلةَ في المنامِ ظلَّةً تنطِفُ (تقطُر) السمنَ والعسلَ، فأرى الناسَ يتكففون منها بأيديهم، فالمستكثرُ والمستقلُّ، وأرى سبباً واصلاً من السماءِ إلى الأرض، فأراك أخذتَ به فعلوتَ، ثم أخذَ به رجلٌ من بعدِكَ فعلا، ثم أخذَ به رجلٌ آخرُ فعلا، ثم أخذَ به رجلٌ آخر فانقطعَ بهِ، ثم وُصِلَ له فعلا.

قال أبو بكر: يا رسولَ اللهِ بأبي أنتَ واللهِ لتَدَعَنِّي فلأَعْبُرَنَّها.

قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**اعبرها**».

قال أبو بكر: أما الظُلَّةُ فظُلةُ الإسلامِ، وأمَّا الذي ينطِفُ من السَّمنِ والعَسَلِ فالقرآنُ، حلاوتُه ولينُه، وأمَّا ما يتكفَّفُ الناس مِنْ ذلكَ فالمستكثِرُ مِنَ القرآنِ والمستقلُّ، وأمَّا السببُ الواصِلُ مِنَ السماءِ إلى الأرضِ فالحقُّ الذي أنتَ عليه، تأخذُ به فيُعليكَ اللهُ بهِ، ثم يأخذُ به رجلٌ مِنْ بعدِكَ فيعلو به، ثم يأخذُ به رجلٌ آخرُ فيعلو به، ثم يأخذُ به رجلٌ آخرُ فينقطِعُ به، ثم يوصَلُ له فيعلو به. فأخبرْني يا رسولَ اللهِ بأبي أنتَ أصبْتُ أم أخطأْتُ؟.

قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**أصبتَ بعضاً وأخطأتَ بعضاً**» [رواه البخاري (٧٠٤٦)].

فأبو بكر رضي الله عنه على علمه وفضله يخطِئُ ويصيبُ في تعبير الرؤيا، لأنه ليس نبيّاً، فالأنبياءُ وحدَهم يصيبون ولا يخطئون، لأنَّهم يرون الأمور بعين النبوة التي لا تخطئ.

- **إخوة يوسف ليسوا أنبياء:**

وتابعت الآيات الكريمة حكايةَ كلمات يعقوب لولده يوسف عليه السلام:

﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ بنزول الوحي والنبوة.

﴿وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ أي: وعلى من يصطفيهم ويختارهم للنبوة من آل يعقوب.

فكلمة (**آل يعقوب**) تعمُّ الأنبياء وغيرهم، وقد تفرَّعَ من أبناء يعقوب

الأسباطُ ـ القبائل ـ الاثنا عشر، الذين يكوِّنون اليهود، وقد اختار الله تعالى منهم من عهد موسى إلى عهد عيسى كثيراً من الأنبياء.

ولا دليلَ في الآية على أنَّ إخوةَ يوسف كانوا أنبياء، كما رأى بعضُ المفسرين، فما صدر منهم في حق أبيهم وأخيهم ـ كما سيأتي معنا ـ لا يتفق مع أخلاق الأنبياء قبل النبوة وبعدها، ولو كان إخوةُ يوسف هم مراد قوله تعالى: ﴿ءَالِ يَعۡقُوبَ﴾ لكان الأظهر والأخصر أن يقول: وعلى إخوتك.

والقول بأنَّهم لم يكونوا أنبياء هو قول أكثر المفسرين سَلَفاً وخلفاً، فلم يُنقل عن أحدٍ من الصحابة ولا عن التابعين أنه قال بنبوتهم، لكنْ وُجِدَ بعد ذلك بعض المفسرين القائلين بنبوتهم كابن زيد والبغوي، وقد بالغ في ردِّه القرطبيُّ وابنُ كثير، وذكر ابنُ تيمية رَحِمَهُ اللهُ في مؤلَّف له خاص هذه المسألة، وملخصه: الذي يدلُّ عليه القرآنُ واللغةُ والاعتبارُ أنَّ إخوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ليسوا بأنبياء، واحتجَّ مَنْ قال بأنهم أنبياء بقوله تعالى في آيتي **البقرة والنساء**: ﴿وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾ وفسَّر ذلك بأولادِ يعقوب، والصوابُ: أنه ليس المراد بهم أولاده لصلبه بل ذريته، كما يقال لهم: بنو إسرائيل، ويقال لسائر الناس: بنو آدم.

وقوله تعالى: ﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ١٥٩ وَقَطَّعۡنَٰهُمُ ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا أُمَمٗاۚ . . .﴾ الآية [الأعراف]: صريحٌ في أنَّ الأسباط هم الأمم من بني إسرائيل، وكل سِبط أمة، وقد صرَّحوا بأن الأسباط من بني إسرائيل كالقبائل من بني إسماعيل، وأصل السِّبط شجرة واحدة ملتفة كثيرة الأغصان، فلا معنى لتسمية الأبناء الاثني عشر أسباطاً قبل أن ينتشر عنهم الأولاد[1].

ولو كانوا أنبياءَ ما وصَّاهم يعقوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عندما حضره الموت بالثبات على عبادة الله الواحد الأحد؛ قال تعالى: ﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣].

---

(١) انظر: روح المعاني: ١٢/ ١٨٤.

﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ﴾ بإكرامهما بالنبوة.

﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ﴾ بأحوال خلقه.

﴿حَكِيمٌ﴾ في أفعاله، فلا يجعل النبوة والرسالة إلا في أكمل الناس خَلْقاً وخُلُقاً: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

ولا شكَّ أنَّ نبيَّ الله يعقوب ﷺ كان ينظر إلى المستقبل بعين النبوة والوحي، عندما بشَّر ولدَه يوسف بكل هذا المستقبل الباهر، فقد كان حينئذٍ نبيّاً يُوحَى إليه، ورؤيا يوسف لا تحمل في تعبيرها كل هذه المبشِّرات التي ذكرها يعقوب، وقد صرَّح ﷺ بأنَّ حديثه هذا وحيٌ من الله، كما سيأتي معنا بقوله: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٨٦].

ولو أنَّه ﷺ علمَ أنَّ الله تعالى سيصطفي بقية أولاده ويكرمهم بالنبوة كما يكرِمُ يوسفَ، لبشَّرهم كما بشَّره، وأخبرهم كما أخبره، مما يؤكِّد أنَّ النبوَّةَ في أبناء يعقوب كانت ليوسف ﷺ فقط.

﴿لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧﴾.

أي: في قصة يوسف وإخوته عبرٌ كثيرة، وعظات بليغة، وأدلة قاطعةٌ على أن القرآن كلام الله تعالى، لكلِّ الذين سألوا عن قصَّتهم، أو للذين يسألون وللذين لا يسألون، لقوةِ دلالة الكلام على المحذوف، كقوله: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] أي: والبرد.

فالقصةُ مليئةٌ بالعبر والمواعظ والحِكم والأحكام، ولم تذكر في التنزيل الحكيم لمجرد الاطلاع على أحوال بعض الأمم السالفة، ويتنزَّه كلام الحكيم العليم عن اللغو والباطل وما لا فائدة فيه، ولهذا كرَّر القرآن الكريم دعوة الناس ليتدبروا آياته، ويعرفوا ما فيها من حكم وإحكام وإعجاز، كقوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

وقوله أيضاً: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

● **البغاةُ الحَسَدةُ:**

أول دروس قصة يوسف وعظاتها أنها بيَّنت خطورة الحسد، وشدةَ تأثيره على النفوس، وما يترتَّب عليه من ارتكاب الجرائم، وحدوث الخصام، فقد كشفت الآياتُ أنَّ نفوس إخوة يوسف انطوت على حَسدٍ كبير لأخيهم، وبيَّنت أنَّ مبعث حَسدِهم أنانيتُهم، وطمعهم، وحب الاستحواذ والتملك المسيطر عليهم.

وأكثرُ ما يقع الحسدُ بين الإخوان والأقارب، والجيران والأقران.

وقد وقعت أولُ جريمة قتلٍ في الأرض بسبب الحسد، قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْـَٔاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

والعجيب أنَّ الله تبارك وتعالى أمرَ النبيَّ ﷺ أن يقرأ هذه الآية وما بعدها على خلائف وذرية إخوة يوسف من اليهود الذين كانوا في المدينة المنورة، قال ابنُ كثير في بداية تفسيرها: اقرأ على هؤلاءِ البغاةِ الحسدةِ إخوان الخنازير والقردة من اليهود وأمثالهم وأشباههم(١).

وقد ختم الله تبارك وتعالى هذه القصة بقوله في بني إسرائيل: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ [المائدة: ٣٢].

وكثيراً ما تظهر صفاتُ الآباء في أبنائهم وأحفادهم، فكأنَّ سورة يوسف تكشِفُ لنا حقيقة ما تنطوي عليه نفوس اليهود من بني إسرائيل سلائل إخوة يوسف، وهذا يفسِّر لنا ما عُرف عن اليهود من الحسد والبغي والسعي لنشر

---

(١) انظر تفصيل القصة في: تفسير سورة المائدة، المسمَّى في تفسيرنا الموضوعي الكبير هذا: (الحلال والحرام في سورة المائدة).

الفتن والفساد بين الناس، وما عُرِف عنهم أيضاً من عنصرية بغيضة قائمةٍ على شعورهم بالامتياز عن بقية الناس.

• **التسوية بين الأبناء:**

وبعد أن أشارت الآية السابقة إلى ما في السورة من عظات وعبر، نقلتنا الآياتُ مباشرةً إلى إخوة يوسف وكيدهم ومكرِهم به، وبيانِ سبب هذا الكيد والمكر:

﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨﴾.

﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ فحقدهم على يوسف وأخيه لم يكن مبعثه سوى أنَّ يعقوب عليه السلام كان متعلِّقاً بولده يوسف وأخيه أكثر من تعلُّقه ببقية أولاده، وهو أمرٌ طبيعي يوجد عند كثير من الآباء والأمهات، فالأب عادةً يحبُّ ولده الصغير ويعطف عليه أكثر من أولاده الكبار، لأنه يشعر أن الصغير يحتاج إلى عطفه ورعايته أكثر من الكبير الذي اشتد عوده، وقويت بنيته، وأصبح مستغنياً عن عطف والده ورعايته.

وقد سبق أن تمتَّع إخوة يوسف بعطف أبيهم ومحبته عندما كانوا صغاراً، كما يتمتع يوسف وأخوه الآن، فالضعيف موضعُ الشفقة والعطف أكثر من القوي، ولما سُئلت إحدى الأمهات: أي بنيك أحبُّ إليك؟ قالت: الصغير حتى يكبر، والغائب حتى يقدم، والمريض حتى يشفى.

فلا عُذْرَ لإخوة يوسف بحسدهم لأخيهم وانتقادهم لأبيهم، وهو نبيٌّ كريم لم يفعل ما يفعله بعضُ الآباء الجهلة، عندما يفضِّلون ولداً على ولد بالأموال والهدايا، وهو أمرٌ مستنكَرٌ وغيرُ مشروع، حذَّر منه النبي ﷺ.

فعن **النعمان بن بشير** رضي الله عنه قال: أعطاني أبي عطيةً، فقالت عَمْرَةُ بنتُ رواحة: لا أرضى حتى تُشْهِدَ رسولَ اللهِ ﷺ. فأتى رسولَ اللهِ ﷺ فقال: إنِّي أعطيتُ ابني من عَمْرَةَ بنتِ رواحةَ عطيةً، فأمَرَتْني أن أُشهِدَكَ يا رسولَ اللهِ. قال: «**أعطيتَ سائرَ ولدِكَ مثلَ هذا؟**» قال: لا. قال: «**فاتقوا اللهَ واعدِلوا بينَ**

أولادِكم» فرجعَ فردَّ عطيته. وفي رواية قال: «**لا أشهدُ على جَوْرٍ**» [رواه البخاري (٢٥٨٧ و٢٦٥٠) ومسلم (١٦٢٣)].

فالأبُ مطالَبٌ أن يعدِلَ بين أولاده بالأمور المادية، فلا ينبغي أن يخصَّ بعضهم بمال أو هدية دون إخوته، فإنَّ هذا يبعثهم على التحاسد والتباغض، ويثيرُ بينهم الخلافَ والشِّقاقَ، وكم تَسبَّب بعض الآباء في إثارة الخصومات بين أولادهم بسبب سوء تصرفهم هذا.

ولا يطالَبُ الأبُ أن يسويَ بين أولاده بالأمور العاطفية كالمحبة والشفقة، لأنه لا يقدر على ذلك، فلا سلطانَ للإنسان على قلبه، ولا يستطيعُ أن يتحكَّم بعواطفه، ونبينا ﷺ لم يستطع أن يسوِّيَ بين زوجاته بالمودة والمحبة، مع أنه كان يقسِمُ بينهنَّ بالعدل، ويقولُ: «**اللهمَّ هذِهِ قسْمتي فيما أملكُ، فلا تَلُمْني فيما تملِكُ ولا أَمْلِكُ**» [رواه أبو داود (٢١٣٤) والترمذي (١١٤٠) والنسائي (٧/ ٦٣) وابن ماجه (١٩٧١)].

وقال تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٢٩][1].

﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أي: ونحن جماعة يعصب بعضنا بعضاً، ويشدُّ بعضنا أزر بعض. أو: ونحن جماعة قادرون على خدمته والقيام بحاجاته ومنافعه أكثر من يوسف وأخيه، والعُصبة تُطلق على العَشَرة، وما زاد عليها.

﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: إنه في محبته لهما أكثر من محبته لنا في خطأ واضح! قالوا ذلك في حق أبيهم، وهم يعلمون أنه نبيٌّ كريم، فقد أعماهم الحقدُ والحسدُ عن رعاية حقوق النبوَّة وحقوق الأبوة، وعن وجوب رعايتها.

وتدلُّ الآيةُ على أنَّ يوسف عليه السلام كتمَ عن إخوته أمرَ الرؤيا كما أوصاه أبوه، فما أشاروا إليها في حديثهم هذا فيما بينهم.

---

(١) انظر تفصيل الموضوع في كتابنا: السيدة عائشة أم المؤمنين وعالمة نساء الإسلام، ط. دار القلم بدمشق.

• المـــؤامرة:

وبعد انتقادِهم أباهم، ووصفهم له بالضلال المبين، شَرَعوا يأتمرون بأخيهم يوسف، ويبحثون عن طريقة يتخلَّصون بواسطتها منه، وكان قتله أو رميه بمهلكة من الأرض هو رأي أكثرهم:

﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾﴾.

﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ أي: أرضاً نائية منقطعةً يهلك فيها.

﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ أي: يَصْفُ لكم ويخلُص لكم وجه أبيكم، فيقبل عليكم، ويزداد حبُّه لكم.

ظنوا أنه عندما يفقد يوسفَ، يخرجُ حبُّه من قلبه، وما علموا أنه عندما يفقده سيزداد حُبّاً له وشوقاً إليه، وأنَّ خيال ولده المفقود سيبقى ماثلاً في قلبه، وأنَّ قلبه لن يخلوَ لهم، وهو يعلم أنهم سبب إبعاد حبيبه عنه ومفارقته له.

وقولهم: ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ يدلُّ على غِلظة نفوسهم، وتبلُّد مشاعرهم، فغياب المحبوب يلهبُ الشوقَ ويضاعفُ المحبةَ، وأنَّى لهم أن يستشعروا هذه المعاني؛ وقلوبُهم ممتلئةٌ بالحقد والحسد والضغينة والبغي.

﴿وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾ وهكذا أضمروا التوبة قبل الذنب[1].

والتوبةُ قبل ارتكاب الجريمة لا تكونُ توبةً، بل هي تبريرٌ للجريمة وتشجيعٌ على اقترافها، والتوبة الحقيقية لا تكون إلا مع الندم على ارتكاب الجريمة، وما دامَ المجرمُ غيرَ نادم على اقترافه لجريمته فلا يُعَدُّ تائباً مهما تاب واستغفر، قال النبيُّ ﷺ: «**الندمُ توبةٌ**» [رواه أحمد (١/ ٤٢٣ ـ ٤٣٣)].

وقد انحدرَ هذا التبريرُ للجريمةِ بالتوبةِ الجاهزة إلى ذريتهم وخلفهم، إذ هي السمةُ البارزةُ لكثيرٍ من اليهود، حتى وصفَهم الله تعالى بها في قوله الكريم:

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٢/ ٢٤١.

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

قال ابن كثير في تفسيرها: «أي: يعتاضون عن بذل الحق ونشره بِعَرَض الحياة الدنيا، ويسوِّفون أنفسهم، ويعدونها بالتوبة، وكلَّما لاحَ لهم مثل الأول وقعوا فيه»(١).

ويبدو أنَّ أحدَهم استفظع قتلَ يوسف، فاقترح عليهم مكيدةً أخرى للتخلُّص منه، لا قتل فيها:

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ أي: ألقوه في قَعْر الجُبِّ وظلمتها الغائبة عن الأنظار.

والجُبُّ: البئرُ الواسعةُ، سميت جُبّاً لأنها جُبَّتْ من الأرض، أي قُطعت. وأراد القائل بئراً معينة معروفةً لديهم، ولهذا عرَّفها فقال: (الجب) وتقع على طريق القوافل بين بلاد الشام ومصر.

﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ أي: يأخذه بعض المسافرين السائرين على الطريق.

والالتقاط: أخذُ شيءٍ مشرفٍ على الضياع، ومنه اللقيط: الولد الصغير الذي يوجد ملقًى على الأرض لا يُعرف أبواه.

وبهذا يصبحُ الكريم ابن الكريم يوسف عليه السلام لقيطاً في أيدي الغرباء.

﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ أي: إن كنتم فاعلين بمشورتي.

ويدلُّ قوله هذا على أنه كان مرتاباً من قبولهم لرأيه، بسبب ما يرى من شدَّة حقدهم وضغينتهم على يوسف عليه السلام، ولكنَّ الله تعالى غالب على أمره، قدَّر ليوسفَ ألا يموت حتى يُبتلى بما ابتلي به، ثم يمكِّنه الله تبارك وتعالى في

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٢/ ٦١.

الأرض، فانصرفوا عن قتله وإلقائه في مهلكةٍ من الأرض، إلى إلقائه في الجبِّ الواقعة على طريق القوافل، واتفقوا على هذا الرأي، ثم ائتمروا فيما بينهم على أسلوب التنفيذ وارتكاب الجريمة.

- **تنفيذ الجريمة:**

وَشَرعوا في تنفيذ الجريمة، وجاؤوا أباهم قبل التنفيذ:

﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ۝١١﴾.

فوجئَ أبوهم بهذا السؤال المغلَّف بالاستنكارِ والعِتَاب، وادعائهم النصحَ لأخيهم يوسف، والنُّصح يدل على الإخلاص والأمانة، وكذبوا بهذه الدَّعوى، فقلوبهم كانت ممتلئةً حقداً على يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وقبل أن يسمعوا جوابَ أبيهم على سؤالهم وعتابهم طلبوا منه أن يرسله غداً معهم إلى المراعي والقِفار، كأنَّ كلامَهم أمرٌ محقَّق لا شك فيه ولا ارتياب:

﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝١٢﴾.

﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ أي: ليتمتَّع بالخِصب والسَّعَة واللعب.

ولا بدَّ أنهم قالوا ذلك بحضور يوسف، الذي فَرِح بهذا الرأي ببراءةِ الأطفال وضمَّ صوته إلى أصواتهم ليأذَنَ له أبوه ليخرج غداً مع إخوته.

ثمَّ أكَّدوا لأبيهم أنهم سيقومون على حفظه ورعايته:

﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾.

وقابل يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ مكرَ أولاده وكيدهم بصدرٍ سليم، ونفسٍ بريئة صافية، فهو نبيٌّ كريم، لا يحمل في صدره غِشّاً لأحد فضلاً عن أولاده، وهو أيضاً أبٌ رحيمٌ ممتلئُ القلبِ بعاطفةِ الأبوَّة الصادقة، ولهذا صارحَ أولادَه بما يحمله في قلبه من المحبة الشديدة لولده يوسف، وما درى عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه بهذه المصارحة

والمكاشَفَةِ قد سعَّر أحقادَ أولادِه على أخيهم، وألهبَ مشاعرَ الحقد والغضب في نفوسهم، فجعلهم أكثر تصميماً على تنفيذ جريمتهم:

﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ﴾ أي: إنَّ ذهابكم به يُدخل عليَّ حزناً، فأنا شديدُ المحبة له، لا صَبْرَ لي على مفارقته ولو لبعض يوم، وشدَّة المحبة تؤدِّي إلى مشاعر الخوف والقلق على المحبوب.

﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ فقد كانت أرضُهم كثيرةَ الذئابِ، وكان يوسف عليه السلام صغيراً، لا يستطيعُ الامتناع منها بنفسه.

﴿وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾ أي: وأنتم عنه في حال غفلةٍ وانشغالٍ.

فردُّوا على أبيهم والغيظُ يأكلُ قلوبَهم:

﴿قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أي: جماعةٌ فينا مَنَعَةٌ وقوة.

﴿إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ أي: إنا لضعفاء عاجزون مستحقون للهلاك، لأنَّه لا نفعَ في حياتنا، فإذا ما ضيَّعنا أخانا، وأكَلَه الذئب، فنحن لِمَا سواهُ أشدُّ تضييعاً.

وأيُّ أبٍ يكونُ في مثل موقف يعقوب عليه السلام لا بد أن يستجيبَ لطلب أولاده، فرفضُه لطلبهم معناه أنه لا يثق بهم، وأنَّه لا يأتمنهم على أخيهم، فأذِن لهم، وذهبوا بيوسف معهم.

﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّۚ﴾ أي: اتفقوا كلُّهم على إلقائه في ظلمة الجب.

وحكى الله تعالى إجماعَهم على جريمتهم هذه، لأنَّها جريمةٌ فظيعةٌ منكَرَةٌ، فكلُّهم اشتركوا بها، وتحمَّلوا وزرها، وقاموا بتنفيذها بلا رادعٍ ولا مانعٍ، فلم يهتزَّ ضمير واحد منهم في أثناء تنفيذ الجريمة، وهو يرى أخاه الصغير خائفاً زائغَ البصرِ، يستثيرُ شفقتهم بصراخه ودموعه، فلا يتحرَّكُ قلب واحد منهم، ولا يهتز ضميره ووجدانه.

ولا بدَّ أنَّ يوسفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قد فوجئ بعد ابتعادهم عن أبيهم بانفجار أحقادهم المكبوتة في صدورهم، فقد ظهرت فجأةً في عيونهم التي تنظر إليه شَزْراً، وتقدحُ في وجهه ناراً، وفي أيديهم التي انهالت عليه ضرباً ولَكْماً.

ألا ما أقسى قلوبهم التي لم تتأثر باستغاثات أخيهم الصغير ودموعِه وهم يدفعونه دفعاً إلى مكان الجريمة، ثم وهم يشتركون كلُّهم في إلقائه في ظلمةِ قَعْرِ الجُبِّ!.

ولقد سَرَتْ هذه القسوةُ من قلوبهم إلى قلوب أبنائهم وأحفادهم وأنسالهم، حتى وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٧٤].

ولا عجبَ بعد هذا في كلِّ ما جرى ويجري من جرائم اليهود التي ارتكبوها ولا يزالون يرتكبون أمثالها في فلسطين(١).

• **في قَعْر الجب:**

وأدركت رحمةُ اللهِ الغلامَ الصغيرَ وهو في قعرِ الجُبِّ وظلمته، يتحسس موطئاً لقدميه، وموضعاً يستند إليه، وهو يرتعشُ من برودة الماء، ويرتجف من هول الجريمة التي فاجأته على غير توقع وانتظار.

خرج مع إخوته طلباً للأنس والانشراح، فإذا به يُلْقَى في قعر بئر مظلمة،

---

(١) إذا أردت أن تعرف شدة قسوة قلوب اليهود، فاقرأ كتاب: الكنز المرصود في قواعد التلمود، وهو من إصدارات دار القلم بدمشق.

وينقل من حِجْر والده وعطفه وحنانه إلى وحشة الجُبِّ وظلمتها وعفونتها ورطوبتها. . . وتداركه الله برحمته ولطفه:

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ بوحي الإلهام أو بوحي الإنباء، الله سبحانه أعلم.

المهم أنه ﷻ تداركه برحمته ولطفه بما سكَّن نفسَه المضطربة، وأزال وحشتَه وخوفَه، فشعرَ أنَّ الله تعالى معه يرعاه ويرحمه ويلطف به، وأنه سينجيه من محنته، ويظهره أيضاً على إخوته، حتى يأتيَ الوقتُ الذي يذكِّرهم فيه بجريمتهم هذه:

﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنك يوسف لعلوِّ سلطانك، وقوةِ شأنك حينئذٍ.

أو: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنَّ الله تعالى آنسَه وهو في قَعْر الجبِّ وظلمتها، فأزالَ وحشته، ونفَّسَ كربته بما أوحى إليه، فتحوَّل قعرُ الجُبِّ المظلمةِ الموحشِ إلى أُنْسٍ ونورٍ.

ولا يتخلَّى سبحانه عن أصفيائه وأوليائه أبداً، يمدُّهم ويرعاهم، ويكلؤهم برحمته وعنايته، وهم في ذِرْوةِ معاناتهم، فعندما كان رسولُ اللهِ ﷺ في غارِ ثور، والمشركون مُحْدِقون بالغارِ من كلِّ جانبٍ، والسيوفُ بأيديهم مُشْرَعةٌ، وقلوبُهم ممتلئةٌ بالحقد والغضب، وأبو بكر ﵁ يذرِفُ الدمعَ بصمتٍ، وهو في داخلِ الغارِ مع رسول الله ﷺ خوفاً عليه، أنزل الله عليه قوله الكريم: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠].

وعندما خرج رسول الله ﷺ من مكة مهاجراً إلى المدينة المنورة ونظر إليها نظرةَ المودِّع أنزل الله عليه قوله الكريم مثبِّتاً ومبشِّراً له بالعودة إليها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى

فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [القصص: ٨٥].

ولما خافت أم موسى على وليدها من الذبَّاحين، وأوحى الله إليها أن تلقيه في اليمِّ، وهو أمرٌ كبير وخطير على كل أم في مثل موقف أم موسى، ثبَّتها الله سبحانه، وسكَّن قلبها، وأزال حزنَها: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧].

- **التزوير والكذب:**

وانتظر إخوةُ يوسفَ بعد ارتكاب جريمتهم حلولَ الظلام ليستتروا به، فإنَّ ملامحَ وجوهِ المجرمين تكادُ تفضحهم:

﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾﴾.

أي: يتكلَّفون إظهارَ الجَزَعِ والأسفِ على يوسف، وهم يبكون.

وفي ذلك درسٌ للحكَّام والقضاةِ، فلا ينبغي لهم أن يتأثروا بالمظاهر التي يفتعلها بعضُ المتخاصمين، أخرج ابنُ المنذر عن الشَّعبيِّ قال: جاءت امرأةٌ إلى شُريح القاضي تخاصِمُ في شيءٍ، فجعلت تبكي، فقالوا: يا أبا أمية أما تراها تبكي؟ فقال: قد جاء إخوة يوسف عشاءً يبكون(١).

﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ في العَدْوِ على الأقدام، أو في أعمالٍ توزعناها من سَقي ورعي واحتطاب وصَيْد.

(١) روح المعاني: ١٢/١٩٩.

﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا﴾ الذي يتمتَّعُ به الإنسانُ كالثيابِ والطعام.

﴿فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ بعد ابتعادِنا عنه مباشرة. فكأنَّه كان ينتظر ذهابَهم ويراقبُ حركاتِهم، فهو ذئبٌ ذكيٌّ أريب!.

وكانوا في قرارة أنفسهم يعلمون أنَّ أباهم لن يصدِّقهم، فَكَذِبُهم واضحٌ مكشوف لكل عاقل، بَلْه نبيِّ اللهِ يعقوب عليه السلام؛ ولهذا قالوا:

﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ أي: ما أنتَ بمصدِّق لنا فيما قلنا ولو كنا في حقيقة الأمر صادقين.

لقد ألهاهم الحقدُ الفائرُ عن سَبْك الكذبة، فلو كانوا أهدأ أعصاباً ما فعلوها منذ المرة الأولى(١).

﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾.

﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ﴾ أي: قميص يوسف الذي نَزَعوه عنه قبل أن يُلقوه في الجُب.

﴿بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ أي: هو الكذب بعينه.

وللقميص دورٌ كبير في قصة يوسُفَ عليه السلام، كما سيأتي معنا، ويبدو أنَّهم غفلوا عن تمزيق القميص، إذ لم تصفه الآيةُ إلا بأنَّه قميص مُلَطَّخ بدم كذب، مما دلَّ على كذبهم، فلا يُعقل أن ينزعَ الذئبُ قميصَ يوسف قبل أن يأكله، إنَّه إذاً لذئب ذو أناةٍ وحِلم!.

وحيلةُ إخوة يوسف هذه لا يصدِّقها أيُّ إنسان، ومن الطبيعي ألا يصدِّقُها نبي الله يعقوب، الذي ينظرُ بعين النبوة التي تصيبُ ولا تخطِئُ، وبإحساس الوالد الرحيم الشفيق.

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ أي: زيَّنت وسهَّلت لكم أنفسكم أمراً منكراً قبيحاً.

---

(١) في ظلال القرآن: ٤/ ١٩٧٥.

- **الصبر الجميل:**

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي: فشأني وحالي صبرٌ لا جزعَ فيه ولا شكوى فيه للخَلْق، مع الرضا بقدر الله تعالى وقضائِه.

﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ أي: أسأله تعالى المعونةَ في كشف الحقيقة، وإظهار تزويركم وكذبكم.

ويبدو أنَّ الله تعالى خَصَّ هذه الأمة المسلمة بقول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ التي أنزلها في قوله الكريم: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة].

فلو كان يعقوب عليه السلام يعلمُ هذه الكلمة لقالَها عندما فقد ولدَه يوسف، وواجه هذه المصيبةَ الكبيرة.

هكذا استقبل عليه السلام مصيبته بفراق ولده الحبيب يوسف، ومصيبته أيضاً بعقوق أولاده، واحتيالهم وكذبهم، وحقدهم على أخيهم، وحسدهم له؛ ولهذا طلب المعونة من الله تعالى ليواجه كذبهم وتزويرهم، وما كان عليه السلام يستطيعُ أن يفعل شيئاً سوى الصبر الجميل والاستعانة بالله تعالى.

استعانَ بالله تعالى وحدَه، ولم يطلب معونةَ أولاده؛ لأنَّه يعلمُ أنهم هم سبب بلائه ومصيبته، فكيف يستعينُ بهم، ولم يقم عليه السلام يبحث بنفسه عن ولده، ويتفحَّصُ عنه لمعرفته بشدة حقدهم على يوسف، فقد خشي إن بالغَ في الطلب والبحث عنه أن يُقدموا على إيذائه وقتله؛ ولهذا لم يجد سوى الصبرِ الجميل، وتفويض الأمرِ بالكلِّية لله تعالى، لا سيما إن قلنا: إنه عليه السلام كان عالماً بأنَّ ما وقعَ لا يمكنُ تلافيه حتى يبلغَ الكتابُ أجله[1].

وتركتِ الآياتُ الكريمة يعقوبَ عليه السلام، وقد طوى جوانحه على آلامه وأحزانه، وانتقلتْ إلى يوسفَ عليه السلام في قَعْر الجُبِّ تقصُّ أخبارَه وتحكي أحواله:

---

(١) انظر: روح المعاني: ١٢/٢٠٢.

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ ۖ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ أي: جَماعةٌ من المسافرين.

﴿فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ﴾ إلى الجبِّ ليستقيَ منها الماء.

﴿فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ﴾ أي: أرسل دَلْوَه إلى ماء الجب، فرأى يوسُفُ ﷺ فيها سُلَّم النجاة وسبيلَ الصعود من قاع الجب، فتعلَّق بها، وفوجِئَ الواردُ بغلام يخرج متشبِّثاً بدلو الماء، فصاحَ مستبْشِراً:

﴿قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ﴾ أي: يا بشرى أقبلي هذا أوانك، نزَّل البشرى منزلة شخص يُنادى، ممَّا يدل على شدَّة وقع المفاجأة على نفسه عندما رأى يوسف.

- **استعباد الحُر:**

﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً﴾ أي: أخفوا أمرَ وجودِه في البئر، وجعلوه بضاعةً للتجارة، ولم يكلِّفوا أنفسَهم عناءَ التحقيق في أمره ومعرفة حقيقته.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ ولا يخفى ما فيها من تهديد ووعيد لأولئك الذين استعبدوا يوسف ﷺ، وهو حرٌّ كريم.

واستعبادُ الحرِّ واسترقاقُه من كبائر الذنوب في الإسلام، قال عليه الصلاة والسلام: «**قال الله تعالى: ثلاثةٌ أنا خصمُهم يومَ القيامةِ، ومن كنتُ خصمَه خصمتُه: رجلٌ أعطى بي ثمَّ غَدَرَ، ورجلٌ باعَ حُرّاً فأكلَ ثمنَه، ورجلٌ استأجَرَ أجيراً فاستوفى منه ولم يعطِهِ أَجْرَهُ**» [رواه البخاري (٢٢٧٠)].

فالإسلام دينُ الحرية، فهو يسعى في تحرير الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله تعالى، ولهذا شجَّعَ على تحرير الأرقَّاء، وجعل ذلك عبادةً من أفضل العبادات التي يتقرَّب بها إلى الله تعالى، قال تعالى: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ [البلد].

وشرع الإسلامُ صرفَ مال الزكاة في فكِّ الرقاب من أسْرِ العبودية ورقِّها، قال

تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ [التوبة: ٦٠].

كما جعل تحرير الرقبة كفارةً لكثير من الذنوب والآثام كالقتل خطأً، والإفطار في رمضان بغير عذر، وعدم الوفاء باليمين المنعقدة... وغيرها.

ولم يكتفِ الإسلامُ بذلك، بل ضيَّق مصادِرَ الاسترقاق المشروع وجعلها قاصرةً على استرقاق الأسرى في الجهاد إذا رأى وليُّ أمر المسلمين مصلحةً في استرقاقهم وأذن فيه، فلا يجوزُ استرقاق الأسرى إلا بهذا الشرط، وبذلك أغلقَ الإسلامُ المصادر الكبيرةَ التي كانت للرق، وفوَّض وليَّ الأمر بإغلاق المصدر الوحيد الذي أقرَّه الإسلامُ إذا وجد المصلحةَ في ذلك؛ ولهذا لما تنادت الدولُ في نهاية القرن الميلادي الماضي إلى تحريم الرق ومنعه وافق السلطان العثماني وليُّ أمر المسلمين في ذلك الوقت على منعه وتحريمه، وأصدَرَ أمراً بمنع استرقاق الأسرى، وبهذا أغلق هذا المصدر الوحيد في نظر الإسلام لاسترقاق الإنسان.

• **باعوا النبيَّ ﷺ:**

وهكذا أصبح الكريمُ ابنُ الكريمِ ابنِ الكريمِ ابن الكريم يوسف ﷺ عبداً مُسْتَرقّاً، وحُمِلَ بضاعةً إلى سوق الرقيق في مصر، وعُرِض كأيْ سلْعةٍ للبيع:

﴿وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ۝٢٠﴾.

﴿وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ﴾ أي: باعه مسترقُّوه بثمنٍ قليل.

﴿دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ﴾ ولو كان الثمنُ كثيراً لكان دراهم موزونة لا معدودة.

﴿وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ أي: كانوا غيرَ حريصين عليه ولا راغبين فيه، لأنهم التقطوه التقاطاً، والملتقِطُ للشيءِ متهاونٌ به، ولهذا باعوه بثمن قليل بَخْس.

ورأى بعضُ المفسرين أنَّ إخوة يوسف هم الذين استرقُّوا أخاهم، وهم الذين تولَّوا بيعه لرجال القافلة، وذلك أنهم كانوا يرصدون الجب، ولما رأوا

الوارد يستخرجه منها جاؤوا إليهم وزعموا أنه عبدٌ آبق لهم، وسكت يوسف خوفاً منهم، ثم باعوه للسيَّارة بثمن بخس، وكانوا فيه من الزاهدين.

ولا يخفى ما في هذا الرأي من التكلُّف وتشتيت الضمائر، والمعروف أن المجرم يبتعدُ عن مكان الجريمة كي لا تُحيطَ به الشكوك.

وظلَّت عينُ الله تعالى ترعى يوسف وتكلؤه في جميع تقلُّباته ومراحل حياته، وقدَّرَ سبحانه أن يشتريَ يوسفَ رجلٌ تفرَّس في وجهه الخير والنُّبْل وكرمَ المَحْتِد، كان هذا الرجلُ هو عزيزَ مصر، كما صرَّحت الآيات بعد ذلك، ومن رحمته تعالى بيوسفَ أن جعله بضاعةً كاسدةً في نظر طالبي الشراء، إلى أن حضرَ عزيزُ مصرَ بقدرة الله ومشيئته، وألقى الله تعالى محبة يوسف في قلبه والرغبة في شرائه، فاشتراه، وأخذه إلى بيته معزَّزاً مكرماً، وأوصى زوجته به.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ أي: اجعلي محل ثُوائِه وإقامتِه حسناً مرضيّاً، وهذا كناية عن إكرامه عليه السلام نفسه على أبلغ وجه وأتمه[1]، ولا شكَّ أنَّ إكرامَ مثواه إكرامٌ لنفسِ يوسف عليه السلام.

﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ في قضاء مصالحنا.

﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًاۚ﴾ أي: نَتَبنَّاه ونجعله ولداً لنا. ويبدو أن عزيزَ مصر كان لا يولد له.

وكان التبنِّي واستلحاق إنسان بنسب إنسان آخر أمراً شائعاً في المجتمعات القديمة، وعند العرب قبل الإسلام، حتى إنَّ النبيَّ ﷺ تبنَّى زيدَ بنَ حارثة،

(١) روح المعاني: ١٢/٢٠٧.

وألحقه بنسبه الشريف قبل مبعثه عليه الصلاة والسلام، فكان يُدعى: زيدَ بنَ محمد، حتى أنزل الله تعالى على النبي ﷺ تحريمَ ذلك بقوله الكريم: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب]. فرجعَ النبيُّ ﷺ عن ذلك، وحرَّم أن ينتسبَ الإنسانُ إلى غير أبيه وقال: «**ليسَ مِنْ رجلٍ ادَّعَى إلى غيرِ أبيه وهو يعلمُه إلا كَفَر**» [رواه البخاري (٣٥٠٨) ومسلم (٦١)].

وقد جرتِ العادةُ أن يهانَ الرقيقُ ولا يُكرم، ولكنَّ الله تعالى هَيَّأ ليوسف عليه السلام أن يعيشَ مُكرَّماً ومعزَّزاً في أرفع بيوت مصر وأعلاها، مما يدلُّ على عنايته تعالى ورعايته له في محنته وغربته ورقِّه وحرمانه من أبيه وأهله، ولهذا قال جلَّ وعلا:

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: جَعلنا له مكاناً كريماً في أرض مصر حتى أمرَ عزيزُ مصرَ وهو الرجل الثاني في الحكمِ والسلطانِ امرأتَه دونَ سائر حاشيته بالعناية بيوسف وإكرام مثواه وإقامته.

- **والله غالب على أمره:**

فعاش عليه السلام في قصر عزيز مصر معزَّزاً مُكَرَّماً، ونما وشَبَّ أحسن شباب وأجمَلَه وأكْمله، وجَمَعَ الله تعالى له جَمَالَ الخَلْقِ وجمال الخُلُقِ، وعلَّمه سبحانه في هذه الفترة من حياته علوماً كثيرةً، منها علم تعبير الرؤيا:

﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ وقد علَّمه الله تعالى هذا العلم من غير واسطة، كما هو ظاهر من لفظ الآية، ومن قوله الذي سيأتي أيضاً: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ﴾ [يوسف: ٣٧].

﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ فلا يستعصي عليه أمر، ولا يمانعه شيء، وهو القائل: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

أو: واللهُ متولٍّ على أمرِ يوسفَ لا يَكِلُه إلى غيره[(١)].

وقد أرادوا هلاكه، وأراد الله تعالى سلامته ونجاتَه، فكان ما أراده سبحانه، فلا رادَّ لقضائه، ولا غالبَ لمشيئته جَلَّ جَلَالُهُ.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا يعلمون أنَّ الأمرَ كلَّه لله تعالى وحده.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ﴾ أي: بَلَغَ الغايةَ في اشتدادِ جسمِهِ وقوتِه، ويكون هذا عادةً ما بين الثلاثين إلى الأربعين من عُمر الإنسان، قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥].

﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ﴾ أي: آتيناه علمَ النبوَّة وحكمتها. أو: آتيناه حكمة في أقواله وأفعاله، وعلَّمناه علوماً كثيرة، كما أشرنا سابقاً، ولعلَّه الأرجحُ، لأن الله تعالى قال عن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [القصص: ١٤] وما كان حينئذٍ نبيّاً، فما نبأه سبحانه حتى عادَ من مَدْيَنَ إلى مصر، إذ أوحى إليه وهو في طريق عودته.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ الذين بَلغوا مَرتبة الإحسان في طاعته تعالى وعبادته، وهي المرتبة التي قال فيها ﷺ: «**الإحسانُ أن تعبدَ اللهَ كأنَّك تراهُ، فإنْ لم تكنْ تراهُ فإنَّه يراكَ**» [رواه البخاري (٥٠) ومسلم (٩)].

وقال تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

- **تحريم الاختلاط بين الرجال والنساء:**

ثم أخبر سبحانه كيف كان يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ محسناً في طاعته وعبادته، ووقَّافاً عند حدودِهِ المشروعة في أحْرجِ الساعات وأخطرها وأكثرِها فتنةً وابتلاءً:

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود: ٤/ ٢٦٣.

﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٢٣﴾.

﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ لقد أُعجبت سيدةُ البيت زوجة العزيز بجمال يوسف وشبابه ووسامته وكمال رجولته، فَفُتِنَت به، وأحبَّتْه وعشِقَتْه، وشجَّعها على ذلك كونه عليه السلام يعيشُ قريباً منها في قصرها، فهو في بيتها، يغدو ويروح أمام ناظريها، وهو في ريعانِ شبابه، وقد حَبَاه الله تعالى نَضْرةً وجمالاً وبهاءً، لا نظيرَ له في زمانه، حتى وصفه ﷺ عندما رآه ليلة الإسراء والمعراج بقوله: «**فإذا أنا بيوسف؛ إذا هو قد أعطي شَطْر الحسن**» [رواه مسلم (١٦٢)].

ولا شكَّ أنَّ دخول الرجل على المرأة واختلاطَه بها من أكبر أسباب الافتتان التي تؤدِّي إلى الفواحش والزنى، ولهذا حرَّم الإسلام اختلاطَ الرجل بالمرأة، وخلوتَه بها، قال رسول الله ﷺ: «**لا يخلونَّ أحدُكم بامرأةٍ إلا مَعَ ذي رَحِمٍ مَحْرَمٍ**» [رواه البخاري (٥٢٣٣) ومسلم (١٣٤١)].

وحذَّر النبيُّ ﷺ من دخولِ الرجالِ على النساءِ فقال: «**إيَّاكم والدخولَ على النساءِ**» فقال رجلٌ من الأنصار: أفرأيتَ الحَمْوَ؟ قال: «**الحَمْوُ الموتُ**» [رواه البخاري (٥٢٣٢) ومسلم (٢١٧٢)]. **والحمو**: القريبُ من جهةِ الزوج.

وأرادَ ﷺ في قوله هذا أن يبيِّن أنَّ شأنَ القريبِ إذا دخلَ على المرأةِ أخطرُ من غيره، لأنَّ النساءَ عادةً يتساهلنَ في الاحتجابِ والتسترِ عن الأقاربِ، ولأنَّه يدخلُ دونَ أن يَخْشَى إنكارَ الناس عليه.

وقد شرط الله تعالى في الخادِمِ الذي يدخلُ على النساء لخدمتهن، أن يكونَ طفلاً لا يعرِفُ شيئاً عن أمور العلاقات الجنسية مع النساء، أو كبيراً لا شهوةَ له نحو النساء، فقال: ﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ﴾ [النور: ٣١].

وأمر سبحانه أيضاً الرجال والنساء جميعاً أن يغضُّوا أبصارَهم عن النظر إلى العورات والمحرَّمات، وأن يحفظوا عوراتهم بسترها، والبعد عن الفواحش

والآثام، فقال جلَّ وعلا: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠].

• **المعركة:**

وعندما تُفْتَنُ امراةٌ برجلٍ وتشتهيه تدنو منه بلطف، وهي تَعْرِض عليه حسنَها وجمالَها وتُغريه بنفسها؛ ليكونَ هو المفتونَ بها والطالبَ لها.

ولا بدَّ أن تكونَ امرأةُ العزيز قد فعلت ذلك، وحاولتْ أن تلفتَ نظر يوسفَ إلى جمالِها ومواضعِ الفتنة في جسدها.

والفرصُ المواتيةُ لغرضها هذا كثيرةٌ وكبيرةٌ، فقد كانا يعيشان في بيت واحد وتحت سقفٍ واحد، وهي السيدة الآمرة في البيت، مما يدلُّ على طول المحنة التي مرَّ بها يوسف عليه السلام.

ومدلول كلمة (وَرَاوَدَتْهُ) يدلُّ على طول المحنة وشدَّتها، إذ معناها دارت عليه بالحيل، فهو كناية عن المخادعة التي هي لازم معنى: (راد، يرود)، إذا جاء وذهب، فقد دارت عليه بكل حيلة، ونصبت له أشْراك الخِداع، ويلزم منه القصد والإتيان، والإقبال والإدبار، والرفق والمهلة، وإعمال الحيلة[1].

ولا بدَّ أنْ يكونَ عليه السلام قد عَرَف قصدها، وفَهم مرادَها، فالأنبياء عليهم السلام أذكى الناس، وأكثرهم فِطنة ونباهةً، فكان عليه السلام يسعى ما استطاع أن يغضَّ بصره عنها، ويتجاهل نظراتها وحركاتها، ويسعى أيضاً أن يبقى بعيداً عنها، ولكنَّ مشكلته عليه السلام أنه كان يعيشُ في قصرها، وتحت سلطانها وأمرها، وهو المعنى البارز من قوله تعالى: ﴿ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا﴾ فيوسف عليه السلام مضطرٌّ أن يكون في بيتها، وأن يكونَ أحياناً موجوداً في مخدعها المخصَّصِ لها وحدَها، والذي تنام فيه مع زوجها، وهذا يبيِّن لنا مدى المعاناةِ النفسيةِ الشديدة التي كان عليه السلام يعاني منها، والإحراجِ الشديد الذي كان يشعرُ به وهو يواجه تبرجَها وتهتكها.

والأنبياء عليهم السلام أطهرُ الناسِ نفوساً، وأنقاهم قلوباً، وأكثرهُم حياءً.

---

(١) انظر: نظم الدرر: ١٠/٥٦.

ومرَّت أيام، ولعلَّها شهور وأعوام، على هذه المعركة الصامتة الرهيبة بين الطُّهر والعفاف، والحياء المسلح بسلاح الإيمان بالله تعالى من جهة، وبين الشهوة المسعورةِ المسلحة بسلاح الفتنة والإغراء والتمكن والسلطان من جهة أخرى.

وكلَّما ازدادَ عليه السلام إعراضاً وإباءً ازدادت إقبالاً عليه، وشغفاً به، وازدادت تهتكاً وإغراءً.

وأخيراً فاضَ بها الكيل، وبَلَغَ السيلُ الزُّبى، وانتقلت من التلميح إلى التصريح، وقذفت إلى ميدان المعركة كُلَّ ما تملك من أسباب الفتنة والإغراء، وأسباب التمكن والسُّلطان، أمرته بالحضور إلى مخدعها، وضربت عليه الحِصار، وطوَّقته بكل ما عندَ المرأة الأنثى الغنية المتْرفة من أطواق الإغراء والفتنة، ومن وراء كل ذلك طوَّقته أيضاً بِطَوْق الحصار المادي عندما غلَّقت الأبواب:

﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾ أحكمت إغلاقَ الأبوابِ، كل الأبواب، وهذا يدلُّ على أن ميدان المعركة كان وراء عدة أبواب مغلقة.

﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَۚ﴾ أي: تَهيَّأتُ لك، وتزيَّنْت لك، فكل ما ترى أمامك لك وحدك، فتعال إلى الاتصال، وهلمَّ إلى الوصال.

• **الانتصار:**

واحتدمَ الصِّراعُ، ووصلت المعركةُ إلى لحظات الحسم، فَحَسمها عليه السلام بكلمةٍ:

﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ﴾ وانتصرَ نبيُّ الله يوسف، انتصرت العِفَّة والبراءةُ والطُّهرُ على الرذيلةِ والدناءةِ والسفاهةِ، لقد عاذَ نبيُّ الله بمعاذٍ فانتصرَ، عزَّ من اعتزَّ باللهِ، وانتصرَ من استنصر بالله.

﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَۖ﴾ كيف أعصي ربي الذي أحسنَ مثواي؟! أكرمني ورحمني، وكان معي في كلِّ محنة، ومنَّ عليَّ بكل نعمة.

وكأني بيوسف عليه السلام كانَ في تلك اللحظةِ التي قال فيها هذه الكلمات يعيش حقيقتها، تذكَّر حاله عندما ألقاه إخوته في الجب، وكيف أدركته رحمة الله

تعالى، فآنسته، وبشَّرته وهو في ظلمة قعر الجب ووحشته ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٥].

وتذكَّر حاله وهو في سوق العبيد معروضاً للبيع بأيدي النخَّاسين، والزبائن يطوفون به، يتأملونه، ويقلِّبونه كما يقلَّبُ المتاع، ثم يُعرضون عنه زاهدينَ به، حجبهم الله تعالى بقدرته ومشيئته عن رؤية ملامح الجمال والبهاء في مُحَيَّاه، جعله الله تعالى بضاعة كاسدة في نظرهم حتى جاء عزيزُ مصرَ إلى السوق، فتفرَّس فيه معاني النبل والطهر، وألقى الله تعالى محبته في قلبه، وأخذه إلى بيته معزَّزاً مكرماً، وأوصى به زوجته قائلاً: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًاۚ﴾ [يوسف: ٢١].

ولهذا رأى كثيرٌ من المفسِّرين أنَّ يوسف عليه السلام أراد بقوله: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ﴾ عزيز مصر، لأنَّه كانَ سيده ومالكه في نظر الناس، وقد أحسنَ إليه وأكرمه، وأكرم مثواه، وأوصى زوجته به، فلا أقابل إحسانه بالإساءة إليه وخيانته.

وفي كلمات يوسف عليه السلام تعريضٌ كبيرٌ بامرأة العزيز، فهي زوجته، وعليها أن تحافظَ على عرضِهِ وشرفه، وهذا من أوجب واجبات المرأة نحو زوجها، قال تعالى: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ﴾ الآية [النساء: ٣٤].

﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الذين يضعونَ الشيءَ في غير موضعه، فإذا وضعْتَ الخيانةَ في موضع الأمانة كنتَ ظالماً، ولا فلاح للظالم ولا نجاح.

وجاءت كلماتُ يوسف عليه السلام بغاية التناسق والحُسن، ذكر أولاً حقَّ الله تعالى ووجوب رعايته، ثم ذكر حقَّ الرجل الذي أحسنَ إليه، وقبح خيانته، ثم ذكر حقَّ نفسه، وأنَّ عليه أن يحفظها ويصونها عمَّا يُشينها ويُؤذيها، فهذه اللذةُ القليلةُ يتبعها ضررٌ كبيرٌ في الدنيا وعذابٌ شديد في الآخرة، وبهذا يكونُ ظالماً لنفسه، ولا فلاح للظالمين(١).

---

(١) انظر: التفسير الكبير: ١٨/١١٧.

- **إثبات ونفي:**

بيَّنت لنا الآياتُ الكريمة أكثر من مرة أنَّ الله تعالى كان مع عبده ونبيه يوسف عليه السلام في كل محنة مرَّ بها، وأنه سبحانه غالبٌ على أمره يكلؤه ويرعاه، وهاهي الآياتُ تبيِّن لنا هنا معونتَه تعالى ليوسف عليه السلام وتثبيتَه له، وهو يواجه امرأة العزيز في معركة من أخطر المعارك، وفي محنةٍ من أكبر المحن التي مرَّت به في حياته.

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ أثبتت الآيةُ هَمَّ امرأة العزيز وقصدَها الفاحشة، وعزمَها عليها، ونفت همَّ يوسفَ عليه السلام، فما همَّ بالفاحشة، ولا قصدَ إليها، ولا عَزَم عليها، فقالت تؤكِّدُ همَّ امرأةِ العزيز وعزمَها على الفاحشة: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾ أكَّدته باللام الموطِّئة للقسم، وبـ (قَدْ) الدالة على التحقيق والتوكيد.

وعندما تحدَّثت الآيةُ عن يوسف نَفت همَّه: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ فلم يهمَّ بها عليه السلام، ولم يقع منه أيُّ قصدٍ للفاحشة والمعصية؛ لأنه رأى برهان ربه، كان عليه السلام حاضرَ القلب والنفس مع الله تعالى، كان في مرتبة الإحسانِ التي أشرنا إليها سابقاً عند قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢٢]، والتي وصفها سيدنا رسول الله ﷺ بقوله: «**أن تعبد اللهَ كأنَّك تراهُ، فإنْ لم تكنْ تراهُ فإنَّه يراكَ**» [رواه البخاري (٥٠) ومسلم (٩)].

فالآيةُ بيَّنت فضله سبحانه على يوسف، وتثبيته له في محنته، فلولا أن رأى برهان ربه لَهَمَّ بها، و(**لولا**) حرفٌ يدلُّ على امتناعِ شيءٍ لوجودِ غيرِه، وهَمُّ يوسف لم يقع، ولم يوجد، لوجود برهان الله تعالى، وجواب (**لولا**) هنا مقدَّم، أو مقدَّرٌ محذوف دلَّ عليه ما قبلها، وهو كما يقال: قد كنتَ من الهالكين لولا

أنَّ فلاناً خلَّصك، وما زعمه بعضُ علماء اللغة من أنَّ تقدُّمَ جواب **(لولا)** شاذ وغير موجود في الكلام الفصيح، غير صحيح، فالقرآن الكريم هو أفصح كلام عربي، كما مرَّ معنا في أول السورة: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢﴾ فهو الكلام الذي يُحتج به على غيره، ولا يُحتج بغيره عليه أبداً.

وقد تكرَّر مثل هذا في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ١٠]؛ فلولا تثبيتُ الله لأمِّ موسى وربطه على قلبها، كادت أن تكشفَ أمرَ موسى، وكذلك هنا لولا تثبيت الله تعالى ليوسف لَهَمَّ بها، فالأمرُ خطيرٌ والمحنةُ شديدةٌ، وعنايةُ الله تعالى ورعايته كانت مع يوسف عليه السلام تثبِّتُه وتحفظه، فما هَمَّ وما عزم وما قصد.

ومثله أيضاً قوله تعالى: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ [الفرقان: ٤٢].

والهمُّ والعزم من أعمال القلب، وقلبُ يوسف عليه السلام كان ممتلئاً بذكر الله تعالى، فلا يجتمعُ فيه النقيضان، دلَّ عليه ما حكاه سبحانه عنه فيما سبق: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٢٣].

ولهذا قال رسول الله ﷺ: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**» [رواه البخاري (٢٤٧٥) ومسلم (٥٧)].

فلا يجتمعُ الخوفُ من الله والتصديقُ به، مع العزمِ على الفاحشة والمعصيةِ في وقتٍ واحد وقلب واحد.

وإنِّي لأعجبُ من الروايات الشاذَّة المنسوبة إلى بعض الصحابة والتابعين والتي ذكرها بعضُ المفسرين، فهي واضحةُ البطلانِ، ظاهرةُ الفسادِ، بعضُها يقول: جَلَس يوسف منها مجلس الرجل من المرأة، وبعضها شَطَح بخياله إلى شيء من التفصيل فقال: استلقت له، وجلس بين رِجْليها ينزع ثيابَه، ويحل التُّكة ـ رباط السروال ـ، كأنَّهم كانوا حاضرين معهما، وغفلوا عن الكلمة المدوِّية الصريحة المعلِنَة التي هَتَف بها لسان يوسفَ عليه السلام وقلبُه: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾.

ولقد كان العلامة الفخر الرازي رحمه الله في تفسيره من خير المدافعين عن نبيِّ الله يوسف، ودفعَ عنه هذه التهمةَ الظالمةَ التي لا تليق بكمالِ الأنبياء عليهم السلام، الذين اختارهم الله تعالى واصطفاهم ليكونوا الأسوة الحسنةَ للناس، أجتزئ من كلامه ما يلي مع بعض التصرف والاختصار:

إنَّ كل مَنْ كان له تعلُّق بتلك الواقعة شهدَ ببراءة يوسف عليه السلام:

- فيوسف قال: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٢٣].
- وقال أيضاً: ﴿هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾ [يوسف: ٢٦].
- والمرأةُ اعترفت وقالت: ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [يوسف: ٥١].
- والنِّسوة قلن: ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ [يوسف: ٥١].
- وزوج المرأة عَرَف الحقيقة فقال لزوجته: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٨].
- وقال لها أيضاً: ﴿وَٱسْتَغْفِرِي لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ [يوسف: ٢٩].
- وكذلك أظهر الشاهدُ من أهلها براءةَ يوسف عليه السلام، وحتى إبليس شهد بطهارته بقوله: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [صٓ]، ويوسف عليه السلام منهم لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].
- وفوق كل ذلك شهادة الله تعالى العليم الخبير: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤][(١)].

- **برهان ربِّه:**

لقد تعدَّدت آراءُ أصحاب الروايات الشاذَّة الذين اتَّهموا يوسف عليه السلام بالهَمِّ على فعل المعصية، في تفسير ﴿بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾، ويدلُّ تعدُّد الآراء على ضعفها وتناقضها.

فبعضُهم قال: إنَّ المرأةَ قامت إلى صنمٍ في زاويةِ البيتِ، فسترته بثوبٍ

---

(١) انظر: التفسير الكبير: ١٨/ ١٢٠.

وقالت: أستحيي من إلٰهي هذا من أن يراني على معصية، فقال يوسف: أتستحيين من صنم ولا أستحيي من إلٰهي القائم على كل نفسٍ بما كسبت؟! فوالله لا أفعل ذلك أبداً.

وبعضهم قال: تمثَّلَ له يعقوبُ عاضّاً على أصابعه، وهو يقول: أتعمل عمل الفجار وأنتَ مكتوبٌ في زمرة الأنبياء؟!.

وبعضُهم قال: رأى في سقف الغرفة ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ [الإسراء: ٣٢].

وبعضُهم قال: سمع هاتفاً يقول: لا تكن كالطير يكون له ريش، فإذا زنى ذهب ريشه.

وبعضُهم قال: ركضه جبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فلم يبق فيه شيء من الشهوة إلا خرج[(١)].

وكل هذه الروايات اجتمعتْ على شيءٍ واحد رغم ما فيها من اختلاف، وهو أنَّ برهان ربه الذي رآه يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ كان شيئاً ماديّاً محسوساً، رآه بعينه أو سمعه بأذنه.

ولكنّي أرى أنَّ البرهان كان شيئاً معنويّاً رآه بعين بصيرته، قال العلامة أبو السعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ أي: حجَّتَه الباهرة الدالة على كمال قبح الزنى، وسوءِ سبيله، والمراد برؤيته لها كمالُ إيقانه بها ومشاهدته لها مشاهدةً واصلةً إلى مرتبة عين اليقين»[(٢)].

وقد نقل هذا الآلوسي في «روح المعاني»، وأقرَّه عليه[(٣)].

وقال البقاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا﴾ بعين قلبه ﴿بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ الذي آتاه إياه من الحكم والعلم، كان البرهان حاضراً لديه حضور من يراه بالعين، لم يُغَطِّهِ وفور شهوة ولا غلبة هوى»[(٤)].

---

(١) انظر: مجموعة التفاسير: ٣/ ٣٩٦.

(٢) تفسير أبي السعود: ٢/ ٢٦٦.

(٣) انظر: روح المعاني: ١٢/ ٢١٣.

(٤) نظم الدرر: ١٢/ ٦٣.

ويتفق هذا المعنى تماماً مع موضوع السورة الأساس، فالوحيُ نوع من العلم يلقيه الله تعالى في قلوب مَنْ يشاء من عباده، فتنجلي لهم بواسطته الحقائق، ولقد مرَّ معنا أنَّ الله تعالى قادِرٌ على إلقائه إليهم وهو نائمون، بما يريهم من الرؤيا الصادقة، فما بالك إذا كانوا أيقاظاً منتبهين؟!.

وقد يقول قائل: لا شكَّ أنَّ يوسف عليه السلام كان يَعْرِفُ من قبلُ قُبْحَ الزنى، وأنه فاحشةٌ ومعصيةٌ، فرؤيته له في هذا الوقت تحصيل أَمر حاصل.

وأقول: إنَّ المعارف والعلوم لدى الإنسان تكون على درجاتٍ متفاوتةٍ في الوضوحِ والظهورِ والاقتناعِ بها، فثمَّةَ أمورٌ كثيرة نعرفها، ثم تطرأ علينا أحوال تزيدنا بها معرفةً ويقيناً، وقد يغفلُ الإنسان أحياناً عن كثير من الحقائق التي يعرفها، ثم يتذكرها فجأة في بعض الأحوال، ويزداد يقيناً بها، ولعلَّ البرهان الذي رآه يوسف عليه السلام من هذا القبيل، فقد كان يعلم أنَّ الزنى حرام وقبيح، ولكنَّه في هذا الوقت بالذات ازدادَ علماً ومعرفةً ويقيناً بقبح الزنى وشناعته وتحريمه، فكأنَّه عليه السلام قد شاهد الزنى بموجب ذلك البرهان النيِّر على ما هو عليه في حدِّ ذاته أقبح ما يكون، وأوجبَ ما يجب أن يُحْذَرَ منه، ولذلك فعل من الاستعصام والحكم بعدم فلاح من يرتكبه[١].

ثم بيَّن الله تعالى الحكمة من جعل يوسف يرى برهان ربه فقال:

﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ﴾ كالهمِّ بالزنى ودواعيه.

﴿وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ كالزنى وغيره من كبائر الذنوب.

وسبب صرفه عن السوء والفحشاء بيَّنه اللهُ سبحانه في قوله:

﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾.

• **الفرار:**

ثم بادرَ عليه السلام فَفرَّ من ميدان المعركة، واتَّجه مُسْرِعاً نحو أول الأبواب

---

(١) تفسير أبي السعود: ٢/ ٢٦٦.

المغلقة، فرَّ عليه السلام وهو المنتصر؛ لأنَّ بقاءه معها وراء الأبواب المغلقة، والستائر المُسْدَلة، يعرِّضه للشبهةِ والتُّهمة، والعاقلُ يسعى لدرءِ الشبهات عن نفسه، ويتجنَّب مواطن التهمة والريبة.

وهو درس عملي علَّمه يوسف عليه السلام لكلِّ عاقلٍ يتدبَّرُ معاني كلمات الله تعالى في تنزيله الحكيم.

ورَسَم لنا عليه السلام أيضاً في سلوكه هذا أمراً آخر، وهو أنَّ على الإنسان في مثل هذه المواقف أن يتهم نفسَه فيفرَّ، ولا يقرَّ مغترّاً بنفسه، زاعماً أنَّه متمكن منها، ومسيطرٌ عليها، فقد يضعف الإنسانُ أمام نفسه، ويرمي لها بالزِّمام، فتقودُه إلى المهالك، وما أكثَرَ الذين انخدعوا بأنفسهم في مثل هذه المواطن، فضعفوا وسقطوا!.

درسانِ بليغانِ وعبْرتانِ كبيرتانِ فيما فعله يوسف عليه السلام، يحتاجُ إليهما كل فتًى وفتاة في هذا العصر.

أولهما: اتهامُ النفسِ وعدمُ الركونِ إليها والثقة بها.

وثانيهما: تجنُّبُ مواطنِ الرِّيبة واتقاؤها.

فإذا ما ابتليتَ فَفِرَّ ولا تقرَّ، وتذكَّرْ نبيَّ اللهِ يوسف عليه السلام، فأنتَ مهما كنتَ لست أقوى منه، ولا أتقى منه.

ويجب أن يَضمَّ إلى فرار الجسد عن مواطن التُّهمة والرِّيبة وابتعاده عن مواضع الفتنة، فراراً آخر بالروح والقلب إلى الله تعالى الذي قال: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ [الذاريات: ٥٠].

وقد فعل يوسف عليه السلام هذا أيضاً كما سيأتي، وهو خلاصةُ التوجيه الكريم الذي توجَّه به نبينا محمد ﷺ إلى ابن عباس رضي الله عنهما قائلاً: «**يا غلامُ إنِّي أعلمُكَ كلماتٍ: احفظِ اللهَ يحفظكَ، احفظِ اللهَ تجدْه تُجاهَكَ، إذا سألتَ فاسألِ اللهَ، وإذا استعَنْتَ فاستعنْ باللهِ**» [رواه الترمذي (٢٥١٦)].

﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ﴾ **والاستباق**: طلبُ السَّبَق إلى الشيء، قال العلماء: هذا من اختصار القرآن المعجز الذي تجتمع فيه المعاني(١).

بادَرَ عليه السلام كما قلنا إلى تركِ موضع الفتنة، واتَّجه مسرعاً إلى الباب، واستبدَّتِ الشهوةُ بالمرأة، وطغت على جميع مشاعرها، واندفعت وراءَه متهالكةً عليه، مع أنَّ المرأةَ في مثل هذه الحالات تفضِّل أن تكون مطلوبةً لا طالبةً، فلا تكتمل لذَّتها ومتعتها إلا بذلك، وتَشَبَّثت بِثيابه من الخَلف وهي تجذبه إليها:

﴿وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ﴾ أي: شقَّت قميصه طولاً من جهة ظهره.

ثم وقعتِ المفاجأةُ، إذ فوجئا بظهور زوجها عند الباب:

﴿وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ﴾ أي: وَجَدا زوجَها عند الباب، فهو **(سَيِّدها)** وحدها لا (سيِّدهما) وليس سيداً ليوسف؛ لأن ملكيته ليوسفَ في الأصل ليست مشروعةً، والإسلامُ لا يعترف باستعباد الحرِّ، ولا يقرُّه كأمر واقع، ويبقى الإنسانُ حرّاً في شرع الله تعالى، والحرامُ يبقى حراماً، ولا يحلُّ مهما طال عليه الزمنُ، وشاع بين الناس.

وهو سيِّدُها، لأنَّ الزوجَ سيدُ زوجته، ومالكُ أمرِها بعد الزواج، وعليها أن تطيعه في غير معصية الله تعالى، قال تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ﴾ [النساء: ٣٤].

وقال عليه الصلاة والسلام: «**لو كنتُ آمراً أحداً أن يسجدَ لأحدٍ لأمرتُ المرأةَ أن تسجدَ لزوجها**» [رواه الترمذي (١١٥٩)].

وفوجئت برؤية زوجها، فبادرت تدفع التُّهمة عن نفسها وتتَّهم يوسف عليه السلام:

---

(١) تفسير القرطبي: ٩/ ١٧٠.

﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ تذكَّرتِ الآنَ أنها أهْلُ هذا الرجل، وأنها موضعُ أمانتِه وشرفه.

﴿إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، وهكذا وضعت نفسَها في موضع المُدَّعي والقاضي، وأصدرت الحكم بسجنِ المتهم أو بمعاقبته بعذاب أليم.

وهذا يدلُّ على أنها أرادت الانتقامَ من يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لكبريائها الجريحة التي مرَّغها بالتراب، وتبرئة نفسها أيضاً.

• **براءة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ:**

ومن عادةِ أكثر الناس في مثل هذه المواقف أن تستبدَّ بهم الغَيْرةُ، فتثور ثائرتهم، وتغلي مراجل الغضب في صدورهم، ويندفعوا دون أدنى تبصُّرٍ ورويَّةٍ إلى تصديق التهمة.

وكم أدى مثل هذا الاندفاع والتهور إلى اتهام البرآء، وحدوث المظالم، وسفك دماء بريئة، ولهذا شرع الله تعالى لإثبات جريمة الزنى شهادةَ أربعةِ شهودٍ عدولٍ من ذوي الديانة والأمانة، كما توعَّد الذين يرمون غيرهم بتهمة الزنى بعقوبة القذف فقال جل وعلا: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٤].

وقولها: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾؟ بأسلوب الاستفهام، يدلُّ على أنها أرادت استفزازَ مشاعر زوجها وإثارةَ غضبِهِ وغَيْرته، فينتقم من يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ قبل أن يحقِّق بالأمر، ويكتشفَ الحقيقةَ.

ولكن الله سبحانه أراد أمراً آخر، وهو غالبٌ على أمره، أراد جلَّ وعلا إظهار براءة نبيه يوسف من التهمة التي حاولت هذه المرأة إلصاقَها به، وهو سبحانه يدافع عن الذين آمنوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج: ٣٨].

وهو عَزَّ وَجَلَّ يدافع عن أنبيائه وأصفيائه الذين اختارهم بحكمته وعلمه، ورفعهم

إلى مقام الأسوة الحسنة للناس، فلا يمكِّن الفجّار والفسّاقَ من تشويه سمعتهم، وتنفيرِ الناس عنهم.

ولمّا حاول بعضُ بني إسرائيل أن يفعلوا مثل هذا بنبي الله موسى عليه السلام، وأشاعوا عليه قالة السوء، أظهر الله تعالى براءته وأخبر عن ذلك بقوله الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩].

ألهم سبحانه زوجَ المرأةِ أن يقابِلَ استفزازَها له بهدوءٍ وتأنٍّ وَرَوِيَّةٍ، ويبدو أنَّه لم يصدِّق ادعاءَها بسبب ما علمه من أخلاق يوسف ونُبْلِه وصدقه وأمانته.

وبادرَ عليه السلام إلى الدفاع عن نفسه قائلاً بثبات قلب ورباطة جَأْشٍ:

﴿قَالَ هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿قَالَ هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِيۚ﴾ واضطر عليه السلام أن يوجِّه التهمة إليها ليدافعَ عن نفسه، ولولا ذلك لَكَتَم عليها ولم يفضحْها[1].

فالسترُ أولى في مثل هذه الحالات، وهو ما نَدَب إليه الإسلام، قال عليه الصلاة والسلام: «**وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِماً سَتَرَهُ اللهُ في الدُّنيا والآخرةِ**» [رواه مسلم (٢٦٩٩)].

وتدلُّ قرائنُ الحال كلها على صدق يوسف وبراءته، فتغليقُ أبواب القصر لا يتمُّ إلَّا بأمرها وإرادتها، وزينتُها الكاملةُ، وحرصُها على إبداء مفاتنها، ووجودُها عند الباب، كلُّ ذلك يدلُّ على كذبها، ولو كان عليه السلام طالباً لها لحاصرها في الداخل لا عندَ البابِ.

ومع كلّ هذه القرائن هَيَّأ الله تعالى برحمته شاهداً من أهلها ليكون ألزمَ لها:

---

(١) تفسير النسفي: ٣/ ٣٩٨.

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾.

• **المتكلمون في المهد:**

واختلفَ المفسِّرون في الشاهد، هل كان كبيراً أو صغيراً، فقال بعضُهم: كان صبيّاً في المهدِ أنطقه الله ﷻ، وهي رواية عن **ابن عباس** رضي الله عنهما، عن النبيِّ ﷺ قال: «**تكلَّمَ أربعَةٌ، وهم صغارٌ: ابنُ ماشطةِ ابنةِ فرعونَ، وشاهِدُ يوسفَ، وصاحبُ جُرَيْجٍ، وعيسى ابنُ مريمَ**» [رواه أحمد (١/ ٣٠٩) وابن حبان (٢٩٠٤)].

إلا أنَّ ما رواه البخاري [٣٤٣٦] ومسلم [٢٥٥٠] يدلُّ على أنَّ المتكلِّمين في المهدِ ثلاثةٌ فقط، ليس شاهد يوسف منهم، فعن **أبي هريرةَ** رضي الله عنه: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**لَمْ يتكلَّمْ في المهدِ إلا ثلاثةٌ: عيسى ابنُ مريمَ، وصاحبُ جريجٍ، وبيْنا صبيٌّ يرضَعُ مِنْ أُمِّهِ، فمرَّ رجلٌ راكبٌ على دابَّةٍ فارهةٍ وَشَارَةٍ حسنةٍ، قالت أُمُّه: اللهمَّ اجعلْ ابني مثلَ هذا، فتركَ الثديَ وأقبلَ إليهِ، فنظرَ إليه فقال: اللهمَّ لا تجعَلْني مثلَه، ثم أقبلَ على ثديه فجعلَ يرتَضِعُ. . .**».

وقد ظنَّ بعضُهم أنَّ حديثَ أصحاب الأخدود الذي أورده مسلم [٣٠٠٥] يعارِضُ هذا الحديث، لكنَّ لفظَ الحديث يدلُّ على أنَّ المتكلِّمَ في قصةِ أصحاب الأخدود ما كان صبيّاً في المهد، بل كان غلاماً، ولفظه: «. . .**حتَّى جاءتِ امرأةٌ ومعها صبيٌّ لها، فتقاعستْ أن تقعَ فيها، فقال لها الغلامُ: يا أُمَّه اصبري فإنك على الحقِّ**».

ولهذا رجَّح القرطبيُّ رحمه الله أن يكونَ الشاهدُ رجلاً لا صبيّاً في المهد، وقال: لو كانَ صبيّاً تكلَّمَ لكانَ الدليلُ نفسَ كلامه دونَ أن يحتاجَ إلى استدلالٍ بالقميص، ويكونُ ذلك خرقَ عادةٍ ونوعَ معجزةٍ[1].

وللمرّةِ الثانية يُذْكر قميص يوسف في القصة، وهو في هذه المرة غير القميص الذي حَمَله إخوانه إلى أبيهم، وجاؤوا عليه بدم كذب.

---

(١) تفسير القرطبي: ٩/ ١٧٤.

وقد قدَّر تعالى أن يجعلَ في هذا القميص الدليلَ القاطعَ على براءته عليه السلام وصدقِه، وأن يجيءَ ذلك على لسانِ شاهدٍ من أهل امرأة العزيز الذي قال:

﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾ أي: من جهة صدره.

﴿فَصَدَقَتْ﴾ في ادِّعائها.

﴿وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ لأن تمزيق القميص في هذه الحالة يدلُّ على أنَّه هو الطالبُ لها، وأنَّها كانت تدفعه عنها.

﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾ من جهة ظهره.

﴿فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ لأنه يدلُّ على أنها كانت تطلبه وهو مُعْرِضٌ عنها.

﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾ تأكَّد زوجُها من صِدق يوسف عليه السلام وأمانته وبراءتِه، وعَرف كذبَها وخيانتَها، ومعَ ذلك لم يفعلْ شيئاً سوى أنْ قالَ على وجه العموم دونَ أنْ يوجِّه كلامه إليها:

﴿قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ إنَّ ما حدثَ من مكرِكُنَّ واحتيالكن، وهو مكرٌ واحتيالٌ كبير، فالمرأةُ تملِكُ مِنْ وسائلِ المكرِ والكيدِ بالرجلِ شيئاً كثيراً؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ: «**ما تركتُ بعدي فتنةً أضرَّ على الرجالِ مِنَ النِّساءِ**» [رواه البخاري (٥٠٩٦) ومسلم (٢٧٤٠)].

وتُعطينا الآيات صورة لما يحدث في المجتمعات الغنية المترفة المنحلَّة البعيدة عن الإيمان بالله تعالى، فالانهماكُ في السَّرَف والترفِ قد جمَّد مشاعرهم البشرية، وأضعفَ الإحساسَ الفطريَّ الطبيعيَّ في غيرتهم على أعراضهم

وشرفِهم، وهذا ما نشاهِدُه في العصر الحاضر في المجتمعات المادية الغربية من تبلُّدٍ في المشاعر يصلُ في كثيرٍ من الحالات إلى حد الدياثة[١].

واكتفى عزيزُ مِصرَ بتوجيه بعض اللوم والعتب إلى زوجته بأسلوب الوعظ والنصح بعد أنْ أمرَ يوسف بكتمان ما حدث:

﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ أي: لا تتحدَّثْ به، ولا تهتَمَّ به، ولا تلتفت إليه.

﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ ولم يقل: إنك كنت خاطئةً، محافظة على مشاعرها، كأنَّه كان يخشى مواجهتها بهذه الصفة.

وقد تعجَّبَ بعضُهم من برودة أعصابه، وسكون نفسه في موقف تغضبُ فيه النفوس عادةً، وردُّوا سببه إلى لطف الله تعالى بنبيه يوسف عليه السلام[٢].

ولا شكَّ أنَّ فيه لطفاً من الله تعالى، ولكني أرى أن سببه يعود إلى حياة السَّرَف والتَّرَفِ والبعدِ عن دين الله وشريعته.

ويُسْدَلُ السِّتَار على المشهد وما فيه ـ كما قال سيد قطب رحمه الله ـ وقد صوَّر السياقُ تلك اللحظة بكلِّ ملابساتها وانفعالاتها، ولكن دون أن ينشئ منها معرضاً للنزوة الحيوانية الجاهرة، ولا مستنقعاً للوحل الجنسي المقبوح[٣]، كما يفعل كثير ممن يسمونهم بأدباء القصة في العصر الحاضر، تجار الأدب الجنسي المكشوف.

لقد أخذتْ مشاهدُ الجنس في القصة مساحتها كاملةً في حدود المنهج النظيف اللائق بالإنسان، من غير تزوير ولا نقصٍ، ولا تحريفٍ للواقع، ومرَّت الآياتُ على هذه المشاهد، وهي تعرِضُ أحداثَ القصة دون أن تقف عندها، كأنها محورُ حياة الإنسان كلِّها كما يفعل أدعياء الأدب، إنهم يحاولون مسخ

---

(١) **الدياثة**: فقدُ الغيرة والخجل. **والديوث**: من يرى الخَبَثَ في أهله وخاصته، ويقرهم عليه.

(٢) انظر: تفسير القرطبي: ٩/ ١٧٥.

(٣) في ظلال القرآن: ٤/ ١٩٨٣.

الكائن البشري باسم الواقعية والصدق الفني، فيعرضون مواقفَ الجنس كما لو كانت هي وجهة الحياة البشرية بجملتها، فيجعلون منها مستنقعاً واسعاً عميقاً، مزيناً في الوقت ذاته بالأزهار الشيطانية[١].

• المقطِّعات أيديهن:

وشاع الخبرُ وانتشر، رغم التكتُّم عليه، ومحاولةِ إخفائِه، ولاكَتْهُ ألسنةُ ربَّات القصور من أمثال امرأة العزيز، اللواتي لا همَّ لهنَّ إلا أن يتحدثنَ عن خفايا القصور وفضائحها.

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٣٠﴾.

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ﴾ أي: عزيز مِصر، فهي زوج عزيز مصر الذي يأتي في التمكُّن والسلطان بعد الملك مباشرة.

﴿تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ﴾ أي: تطلبه للوصال، وإيثارهنَّ صيغةَ المضارع للدلالة على دوام المراودة، كأنَّها صارت سَجِيَّةً لها، أَضَفْنَهُ إليها ﴿فَتَىٰهَا﴾ لإبانة ما بينهما من التباين البيِّن، الناشئ عن الخادمية والمخدومية، أو المالكية والمملوكية، مبالغة في لومها[٢].

﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ﴾ أي: غلبها حبُّه حتى شقَّ شغافَ قلبها، وهو حجابه أو وسطه.

ومرادهنَّ تأكيدُ لومها، وعذْلها في حُبِّها له، وهي امرأةُ العزيز، بينما هو فتًى من فتيانها، ومملوكٌ من مماليكها، فلومهنَّ غيرُ متَّجهٍ إلى تقبيح الزنى، فكأنهنَّ لا يرَينَ به شَيْئاً ولا قُبحاً، وإنما لومُهُن مُتَّجِهٌ إلى كونها لم تراعِ في اختيارها ما يناسبها في مكانتها الاجتماعية المرموقة.

---

(١) في ظلال القرآن: ٤/ ١٩٥٩.

(٢) انظر: روح المعاني: ١٢/ ٢٢٦.

﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: في خطأٍ واضحٍ ظاهر لأنها لم تحسن اختيار من يناسبها.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ أي: علمَتْ بلومهنَّ لها، وما يتحدثنَ به عنها.

وجاءَ التعبيرُ عنه بالمكر؛ لأنَّ إشاعتَه ونشرَه فضيحةٌ كبرى بالنسبة لمكانتها العالية المرموقة في أوساط المجتمع، فهو نوعٌ من أقبح أنواع الغيبة المحرّمةِ في الإسلام، التي قال تعالى فيها: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ تدعوهنَّ إلى وليمةٍ في قصرها.

﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾ أي: هيَّأت لهنَّ مجلساً للطعام يتَّكِئْن فيه، كما هو حال المترفين المتكبرين.

﴿وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ لتقطيع ما يقدَّم لهنَّ من طعامٍ وفاكهةٍ، وهذا يدلُّ على أنَّ المصريين القدماء قطعوا شوطاً كبيراً في التمدُّن.

وبعدَ أنْ أمرت بتقديم الطعام إليهنَّ، وانشغلنَ بتقطيعه وتناوله، أمرت يوسف عليه السلام أن يظهرَ أمامهنَّ.

﴿وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ وما كان عليه السلام يستطيعُ مخالفةَ أمرها، فلا يزالُ يعيشُ في قصرِها، ويبدو أنَّ زوجَها لم يفكِّرْ في إبعادِ يوسف عنها.

﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾ أي: عَظَّمْنَه لحسنِهِ وجماله، فدُهِشْنَ وتحيَّرنَ.

﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ أي: جَرَحْنَ أيديهنَّ، وسالت دماؤهنَّ، فما أحْسَسْنَ بألم الجراحِ لفَرْطِ دهشتهِنَّ وحَيْرتهنَّ وانشغالِهِنَّ بجماله عليه السلام.

﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ أي: يتنزَّه اللهُ خالقُ هذا الجمال ومبدعُه، فمن قدر على خلق هذا الجمال يتنزَّه عن كلِّ صفاتِ النقصانِ، ويتَّصفُ بكل صفات الكمال.

﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ لأنَّه فاقَ البشرَ بالحُسْنِ والجمالِ، وفاقهم أيضاً بعفته وأمانته، مع أنه في غاية شبابه ورجولته.

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ في جماله وأخلاقه.

ويدل قولهنَّ هذا على أنَّ رسالة الأنبياء والمرسلين قد وصلَتهنَّ وبلَغتهنَّ فهنَّ يُقرِرْنَ بوجودِ الله خالق المكوَّنات، وبوجود عالم الملائكة، فما من أمةٍ إلا أرسل الله تعالى إليها رسولاً كما قال سبحانه: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

والمصريُّون من أقدم الأمم حضارةً ومدنيَّةً، ولا بدَّ أنَّ الله تعالى أرسلَ إليهم رسلاً، وكان يوسف عليه السلام واحداً منهم.

- **ضحايا الفساد والاستبداد:**

وحولتهُنَّ رؤيةُ يوسفَ من العَذْلِ إلى العَزْرِ[1]، وأحست امرأة العزيز بشيء من الزهوِّ والانتصار:

﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

و﴿قَالَتْ﴾ وهي تشيرُ إلى يوسف بإشارة التفخيم:

﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ أي: في حبِّه وعشقه.

ثم اعترفت لهنَّ بكلِّ صراحةٍ قائلةً:

﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ أي: عَصَم نفسَه عنها رغم كثرةِ المراودةِ وقوتها، ورغمَ اكتمالِ شبابه ورجولته.

وبعدَ أن تراجعنَ عن لومها وعذلها، لم تجدْ غضاضةً أن تصارحهنَّ بأنها ما زالتْ عاشقةً له، مشغوفةً به، مصمِّمةً على أن تنالَ مرادَها منه، ولو بالتهديد والوعيد:

---

(١) **العذل**: اللوم. **والعزر**: النصر والتأييد.

﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾، ويدلُّ قولُها هذا على أنَّ الفضيحةَ لم تؤثِّر على مكانتها، ولم تضعف سلطانَها وتسلُّطَها، فالمجتمعاتُ التي استشرى فيها الفسادُ والاستبدادُ لا تؤثِّرُ فيها الفضائح، بسبب إدمانها عليها وكثرتها فيها.

فلا زالت امرأةُ العزيز تستطيعُ سجنَ نبيِّ اللهِ يوسفَ ﷺ، وتعريضَه لصنوف من الأذى والعذاب.

لقد عرف تاريخُ البشرية وواقعُها المعاصرُ كثيراً من أمثال هذا المجتمع المنْحَلِّ الهابط، الذي تتحكَّمُ بمصير أبنائه حَفْنةٌ من الرجال الضعفاء المنحلين، الذين سيطرت عليهم شهواتهم ونزواتهم، فأسلموا أمورَهم إلى نسائهم وخليلاتهم، حتى أصبحنَ الحاكماتِ الحقيقياتِ لهذه المجتمعات، وأصبحتْ أكبرُ الشؤونِ وأخطرُها تُدارُ من مخادعهنَّ وأماكن لهوهنَّ وفجورهنَّ.

وهذا ما يفسِّر لنا بقاءَ يوسف في قصرها رغم الفضيحة التي حدَثت.

إنَّ من المتوقع في مثل هذه الأحوال أن يبادرَ عزيزُ مصرَ إلى إبعاد يوسف عن زوجته بعدما رأى من شدَّةِ تعلُّقها وشغفها به، ولكنَّه لا يملِكُ قرار الإبعاد، لأنَّه بيدها لا بيده، فهي الحاكمة الحقيقيةُ وهي صاحبة القرار.

ولم تستطعْ هذه المرأةُ بكلِّ سلطانها وجمالها وأنوثتها أن تنتصرَ على نبيِّ الله يوسف ﷺ، الذي لا يزالُ يعيشُ قريباً منها، في قصرها وتحت أمرها وسلطانها، وانضمَّ إليها جميعُ من تعرف من المترفات، يعرضنَ معها كلَّ ما يملكنَ من أسبابِ الفتنةِ والإغراء وأسباب الوعيد والتهديد.

وما كان ﷺ صخرةً صمَّاء، لا إحساسَ لها ولا شعور، كما قال الشاعر:

أصخرةٌ أنا، ما لي لا تغيِّرُني هذي المُدامُ ولا هذي الأغاريْدُ

بل كان يحمل قلباً إنسانيّاً كريماً رحيماً، ينبضُ بأعلى المشاعر وأرفعها، ولهذا اتَّجه إلى الله تعالى يدعوه، وهو واقفٌ بينهنَّ، وهنَّ يراودنه عن نفسه، ويتبارَيْنَ في عَرض فِتنتِهنَّ وجمالهن عليه:

﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ اختار عليه السلام أخفَّ الضررين، وأهونَ الشرينِ، فالسجنُ فيه إضرارٌ ببدنه ونفسه، وما يدعونه إليه فيه إضرارٌ بدينه وخُلُقه، وهو أشدُّ ضرراً وأعظمُ خطراً من الأول، ورسم عليه السلام بسلوكه هذا القاعدة الشرعية الفقهية: «**يُختار أهونُ الشَّرَّيْنِ وأخفُّ الضَّرَرَيْنِ**».

والسجنُ بلاءٌ لا ينبغي لأحدٍ أن يتمنَّاه، ولكنَّه عليه السلام آثره على ما يدعونه إليه، فهو معنى قوله: ﴿ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ ثم تواضعَ للهِ جلَّ وعلا، وأظهرَ افتقاره لمعونته سبحانه، فجرَّد نفسَه عن كل حول وقوة، فلا حَوْل له إلا بالله تعالى، ولا ثباتَ له في محنته إلا بتثبيته سبحانه، فأقبل على الله جل جلاله يناجيه بضراعةٍ وخشوع:

﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ أي: أمِلْ بسبب ضعفي وطبعي إليهن.

﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ الذين لا يعملون بما يعلمون، أو من السفهاء الطائشين.

فلا يغترَّ إنسانٌ بنفسِه، ويُعْرِض عن ربه، فلا يمتنعُ أحدٌ عن معصية الله تعالى إلا بعونه ومدده جلَّ وعلا.

ودلَّ دعاؤه عليه السلام على أنَّ الزنى لا يحلُّ بالإكراه مهما كان شديداً، ولو أُكرِهَ رجلٌ بالسجن على الزنى ما جازَ له إجماعاً[١].

﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾ بتثبيته ومعونته سبحانه.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لدعاءِ الملتجئين إليه.

---

(١) تفسير القرطبي: ٩/ ١٨٧.

﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ بأحوالهم.

ونفَّذَتِ امرأةُ العزيز تهديدَها ووعيدَها بعد أن يئستْ من نَيْل مُرادِها، ودخَل عليه السلام السجنَ:

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ٣٥﴾.

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم﴾ أي: عزيز مصر ومَنْ حوله.

﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ الدالَّة على براءةِ يوسف وأمانته وعفَّتِه.

﴿لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ﴾ دون إدانة ولا محاكمة، ولهذا لم يحدِّدوا مدةً معيَّنة لسجنه، فالحينُ وقتٌ غيرُ محدَّد، وكم في السجون من أبرياء، هم ضحايا الفساد والاستبداد، وما أكثرَ الذين دخلوها أحياءً، وخرجوا منها أمواتاً!.

• **يوسف عليه السلام في السجن:**

ودخل نبيُّ الله الكريم ابنُ الكريم ابنِ الكريم ابنِ الكريم السجنَ بعد أنْ خرجَ من محنته الكبرى في قصر العزيز تقيّاً نقيّاً، ليواجِهَ محنةً أخرى؛ ضيقَ السجن وظلمتَه ووحشته، والشعورَ بالظلمِ والاضطهادِ، وهو سجنٌ آخرُ للنفسِ، يزيدُها همّاً وألماً وحسرةً.

ومن رحمة الله تعالى بيوسفَ أنَّه هيَّأ له سببَ خروجه منه عند دخوله:

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٦﴾.

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ﴾ فقد دخلَ عليه السلام باختياره وإرادته كما مرَّ معنا في قوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾ [يوسف: ٣٣].

وبقيتِ امرأةُ العزيزِ تراوده حتى دخوله السجنَ.

وأما الفَتَيانِ فإنَّهما أُدخلا السجن مُكرهَيْنِ مُجبرَيْنِ، وكانا من حاشية ملك مصر والمقرَّبين منه، **أحدُهما**: كان **طباخَ الملكِ**، والمسؤولَ الأول عن طعامه،

وثانيهما: كان **ساقيَ الملك**، والمسؤولَ الأوَّلَ عن شرابه، وقد نُمِيَ إلى الملكِ أنَّ مؤامرةً تحاكُ لقتله بواسطة دسِّ السُّم في طعامه أو شرابه، فأمَرَ بسجن السَّاقي والطَّباخ للتحقيقِ معهما في الأمر.

وللرؤى والأحلام تأثيرٌ كبير على المسجونين، إذ هي صلتهم الوحيدة بالحرية والحياة خارج أسوار السجن، تمنِّيهم بأمانٍ عَذْبة، تبعث آمالَهم، وتنعشُ قلوبَهم ونفوسَهم.

مُنًى إن تكنْ حقّاً تكنْ أعذبَ المُنَى وإلَّا فقد عِشْنا بها زَمَناً رَغدَا

فهي محورُ حديثهم عندما يستيقظون من نومهم.

- **رؤيا الفَتَيَيْنِ:**

وعادتِ الآياتُ مرَّة ثانيةً إلى موضوع الرؤيا وتأويلها، فللرؤيا في قصة يوسف دورٌ كبيرٌ في تحريك أحداثِ القصَّةِ بتقديرِ الله تعالى، ولها أيضاً صلةٌ وثيقةٌ بموضوع السورة، كما مرَّ معنا [انظر: سورة يوسف: ٤] إذ قدَّر سبحانه أن يرى كلُّ واحدٍ من هذين الفتيين رؤيا، قصَّها على نبيِّ الله يوسُفَ طالباً منه تعبيرها:

﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ﴾ أي: رأيتُ، وعبَّر بالمضارع لاستحضار صورةِ الرؤيا.

﴿أَعْصِرُ خَمْرًاۖ﴾ أي: أعصر عِنَباً، وسمَّاه خمراً باعتبار ما يؤول إليه، فلا يعصرون العنب إلا ليصنعوا من عصيره الخمرَ، ويبدو أنَّ الساقيَ هو صاحِبُ هذه الرؤيا.

﴿وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ﴾ ويبدو أنها رؤيا الطباخ، فرؤيا كل واحد منهما متصِلة بطبيعةِ عمله في قصر الملك.

﴿نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ﴾ أي: أخبرنا بتعبير ما رأينا، وبيِّن لنا مآلها، فأول ما يهجسُ في خاطر السجين إذا رأى رؤيا أنها رؤيا تنبُّئيَّة، وأنَّه يمكِنُ أن يرى من خلال تعبيرها مصيرَه ومستقبلَه.

﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ في تعبير الرؤى.

فقد كان عَلَيْهِ السَّلَامُ يُعَبِّر للسجناء رؤاهم وأحلامَهم، وكان أيضاً يُحسِنُ إليهم في

معاملته، يواسيهم ويساعدهم. فهو من المحسنينَ حقّاً، أحسنَ في طاعة الله تعالى وعبادته، كما مرَّ معنا، وأحسَنَ في معاملته مع الناس في سَعَة القصور وفي ضِيق السجون، بقي عليه السلام محافظاً على جوهره الأصيل المضيء، ثابتاً في مقام الإحسان، رغم ما طرأ على حياته من تغيير وتبديل.

ولم ينسَ عليه السلام مهمته الأساس التي كلَّفه الله تعالى بها، وهي الدعوةُ إلى توحيد الله تعالى وعبادته وحده، فهو نبيٌّ مرسَلٌ كريم يحمل دعوةً ورسالةً، وعليه أن يبلِّغَها للناس في كلِّ مكانٍ، في القصور أو في السجون، وفي أي زمان، وما علَّمه تعالى علمَ تأويلِ الرؤيا إلَّا ليسخِّره في دعوته وتبليغ رسالته، فهو وسيلةٌ لجَذْبِ الناس إليه، والتفافِهم عليه، وهو أيضاً وسيلة لتعريف الناس بصدقه وصحة نبوته، وتقريبِ معنى الوحي وحقيقته من قلوبهم وعقولهم، كما مرَّ معنا في موضوع السورة.

- **دعوة إلى الله في السجن:**

وقام عليه السلام بذلك خير قيام، عرض على الفتيينِ أولاً الأمرَ المعجزَ الخارقَ لعاداتِ الناس الذي أجراه الله تعالى على يده كدليلٍ على صدقه وصحة نبوته، وهو قدرتُه على رؤيةِ الحوادث المستقبلة القريبة الحدوث، وذكر لهم أمثلة عملية على ذلك:

﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ﴾ من خارجِ السجنِ بواسطة الزائرين من الأهل والأقارب والأصحاب، وما أرادَ عليه السلام طعامَ السجنِ الذي يقدَّم عادةً للسجناء، والذي ألِفوه واعتادوا عليه، وعلموا أنواعه وأوقاته، فنفوسُ السجناء تنتظِرُ بشوقٍ ولهفةٍ زيارةَ صديقٍ أو قريبٍ، وتفرح كثيراً بما يحمله الزائرون لهم من هدايا أو طعام.

إنَّ الزيارةَ تنعِشُ آمالهم، وتبعثُ فيهم الحيويَّة والنشاط، وتجعلُهم يشعرونَ أنه يوجد في العالم الثاني خارجَ أسوار السجن من يهتمُّ بهم، ويشاركُهُم همومَهُم وحزنَهُم. وإخبار السجين بزيارةٍ قريبة الوقوع، وبما يحملُ الزائرُ معه من طعام، بشرى سارَّة له تنزل على قلبه نزول المطر على الأرض العطشى، التي طال عطشُها، واشتدَّ ظمؤها، وعُرف عليه السلام بين السجناء بهذا الأمر، ولهذا ذكَّرَهم به وحدَّثَهم عنه حديثَ الواثق من نفسه:

﴿إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَاۚ﴾ أي: إلا أخبرتكما بحقيقته قبل أن يصل إليكما.

ثم بيَّن لهما أنَّ هذا الذي يجري على يديه ليس في الحقيقة منه، إنَّما هو من عند الله تعالى:

﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ﴾ فهو عِلمٌ لدنِّي من الله تعالى، الذي هو مصدرُ كلِّ علم، يلقيه إلى من يشاء من عباده بواسطة **الوحي**، وعلوم الوحي حقٌّ وصِدْقٌ، لا يلحقها أي خطأ.

وبهذا تمكَّنَ عليه السلام مِنْ أنْ يدخلَ إلى نفسَيْهما بلطف وذكاء، وأن يشدَّ انتباهَهُما إلى الله تعالى، فَعَرَضَ عليهما عقيدةَ التوحيدِ من خلال حديثه معهما عن نفسه، فقد كانا يثقان به ثقةً كبيرةً، فقال:

﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ﴾ الذينَ كانَ يعيشُ معهم خارج السجن فهم قوم الفتيين اللذين يتحدَّث إليهما، فهو أسلوبٌ لطيفٌ بيَّن فيه خطأ ما كانا عليه من ملَّةٍ واعتقاد.

﴿لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ حقَّ الإيمان؛ لأنَّهم لا يعبدونه سبحانه وحده، ولا ينزِّهونه عن صفات النقص، فمعرفةُ وجودِ الله تعالى غير كافية للإيمان به، وقد كانوا كما مرَّ معنا يعرفون وجودَ الله تعالى، ويجري على ألسنتهم ذكره، ولكنَّهم ما كانوا يتجهون إليه وحده بالعبادة والطاعة.

ثم وصفهم بصفةٍ أُخرى تجعلهم أيضاً غير مؤمنين بالله تعالى:

﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ أي: لا يصدِّقون بيومِ القيامةِ، وما فيه من حسابٍ وجزاء وهو ركنٌ هامٌّ من أركانِ الإيمان يدلُّ على كمال قدرته تعالى وكمال علمه وحكمته.

﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ﴾ فملَّتهم هي مِلَّةُ التوحيدِ القائمِ على تنزيه الله عن أيِّ شريك، وهذا الاتباعُ فضلٌ من الله تعالى.

﴿ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ لا يشكرون الله على نعمة إرسال الرسل، وإنزال الوحي، كما قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

وبعدَ أنْ دخلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى نفسَيْهما هذا المدخل اللطيف، أخذَ يتوغَّل أكثر وأكثر في حَذَرٍ ولين، حتى أفْصَحَ عن عقيدته ودعوته إفصاحاً كاملاً، وصارحهما بفسادِ عقيدتهما وبطلانها بأسلوبٍ يقومُ على التفكير والموازنة العقلية المؤدِّية إلى ظهور الحقيقة ورجحان كفَّتها:

﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ﴾ فهما صاحبا سجنه، ورفيقا محنته ومشقَّته، فصحبتُه لهما صحبةٌ صادقةٌ ممزوجةٌ بالألم والعناء، لا غشَّ فيها ولا خداع.

﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ فكثرةُ الأربابِ توجد الخلَل والفساد في العالم، كما قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

ثم إنَّ هؤلاءِ مقهورون ومسخَّرون لله الواحدِ الأحدِ الذي ذلَّ كلُّ شيءٍ لعزِّ جلاله وعظمةِ سلطانه.

﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ أي: ما تعبدونَ إلا أسماء لا مسمَّيات لها؛ لأنَّها في الأصلِ لا تستحِقُّ أن تُعبدَ وتُعظَّمَ، فكأنَّها معدومةٌ غيرُ موجودةٍ.

﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ أي: ما أنزل الله حجةً ولا برهاناً على عبادتها.

﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أي: الحاكمية في الدين والتشريع لله تعالى وحده، وقد:

﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ المستقيم الثابت.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ هذه الحقائق، فيتخبَّطونَ في جهالاتهم وضلالِهم.

ثم عبَّر عليه السلام لكلٍّ منهما رؤياه بعد أنْ وجَّه إليهما هذه الدعوة الصريحةَ إلى دين التوحيدِ وعبادةِ الله تعالى وحده، فلقد رأى كلُّ واحدٍ منهما رؤيا تنبُّئية تخبرُ عن مصيره ومستقبله:

﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْـَٔاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾﴾.

﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا﴾ أي: سيصبحُ ساقي الملك وصاحب شرابه، وهو الذي رأى أنه يعصر خمراً، ولم يعيِّنْه لئلا يدخل الحزن على الآخر.

﴿وَأَمَّا ٱلْـَٔاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ﴾ أي: يقتل ويُصْلَب، وتأكلُ الطير من لحم رأسه.

﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ أي: قُدِّر وأُبْرِم الأمرُ الذي سألتما عنه.

وهذا يدلُّ على شدَّةِ ثقته بنفسه عليه السلام، فهو ينظرُ بعين النبوَّة التي لا تخطئُ أبداً؛ لأنها تنظرُ بوحي الله تعالى علَّام الغيوب.

ولم يتركْ عليه السلام الأخذَ بأسبابِ السلامة والخروج من السجن، مع توكُّله على الله تعالى، وتفويضِ أمره إليه، ولمَّا أمَرَ المَلِكُ بإخراج الساقي من السجن، وجاءَ يودِّعُ يوسُفَ عليه السلام، ويَعْرِضُ عليه مساعدتَه؛ طلبَ عليه السلام منه أن يذكر أمرَه للملكِ، لعلَّه أن ينصفَه ويخرجَه من سجنه.

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا﴾ أي: عَلِم وتيقَّن بنجاته، فالظنُّ يأتي بمعنى اليقين والعلم، كما في قوله تعالى: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٠].

﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ أي: سيِّدك ومتولِّي أمرك.

ولكنَّه بعدَ خروجه من السجن وعودته إلى العمل في القصر، انشغلَ بما فيه من زخرف ومتاع، وأنْساه الشيطانُ قضية يوسفَ عليه السلام، حتى مرَّت سنواتٌ ويوسُف عليه السلام في السجن:

﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ أي: تذكيرَ الملك بقضيَّة يوسف.

﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ **والبِضْعُ**: ما بين الثلاث إلى التسع.

- **رؤيا المَلِك:**

بقي يوسف عليه السلام في السِّجنِ حتَّى جاءَه الفَرَجُ من الله تعالى مباشرةً، وكان ذلك بسبب ما قدَّر سبحانه لملك مصر أن يرى في نومه رؤيا تنبُّئيَّةً، كانت بتقدير العليم الحكيم سَبباً لخروج يوسف من السجن، ونهاية لمحَنِهِ وآلامه:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ مهازيل.

﴿وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾ وقد الْتَوَتِ اليابساتُ على الخضر حتى غلبنَ عليهن، فحالهن كحال البقرات.

اهتمَّ الملك لهذه الرؤيا التي يظهر منها أنَّ الضعيفَ يغلِبُ القوي، ولعلَّه خشي أن يكونَ لها صلة بحكمه وسلطانه، فجمعَ أعوانه ووزاءَه وكبار الكهنة والمنجِّمين والسحرة فقصَّها عليهم، ثم قال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ أي: إن كنتم عالمين بتعبير الرؤيا.

وعلمُ التعبير مختصٌّ بتفسير الرؤيا، وسمي هذا العلم تعبيراً، لأنَّ المفسر للرؤيا يعبرُ من ظاهرها إلى باطنها ليستخرج معناها(١).

﴿قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ أي: هذه الرؤيا مجموعةُ أحلامٍ باطلةٍ ومختلطة.

وأصل معنى **الضغث**: الحزمةُ المختلطةُ من أنواع الحشيش، كما في قوله تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤].

وهكذا أعجزهم الله تعالى عن تعبيرها، وحَجَبَهم عن تأويلها لأمر دبَّره، وحكمةٍ قدَّرها، فأقروا بعجزهم وجهلهم:

﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾.

وكان الفتى السَّاقي صاحبُ يوسف في السجن حاضراً مجلس الملك،

---

(١) تفسير الخازن: ٣/ ٤١٢.

فعندما سمعَ رؤيا الملك، ورأى عجزَ المعبِّرين والمنجِّمين والسحرة عن تأويلها، تذكَّر صاحب سجنِه يوسف عليه السلام.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي: تذكَّر أمرَ يوسفَ بعد مدةٍ طويلة:

سيذكرني قومي إذا جدَّ جدُّهُم وفي الليلةِ الظَّلْماءِ يُفْتَقَدُ البَدْرُ

﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ أي: أخبركم بتأويل رؤيا الملك. وكلماتُه تدلُّ على شدة ثقته بنفسه.

﴿فَأَرْسِلُونِ﴾ أي: ابعثوني إلى من عنده علم التأويل والتعبير.

- **تعبير الرؤيا:**

ولـمَّا كانَ الأمرُ يتَّصل بالملك، وعلى جانبٍ كبير من الخطورة والأهمية ذهبَ السَّاقي بنفسه إلى يوسف في السجن، فخاطبه باحترام وتعظيم قائلاً:

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ أيها المبالغ في الصدق.

قال ذلك حسبما علمه وجرَّبه من أحواله في مدة إقامته في السجن، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ على المستفتي أن يعظِّم المفتي[1].

﴿أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ وهذا يدل على أنَّ رؤيا الملك شاعت وانتشرت بين الناس، وأحدثت نوعاً من الخوف والاضطراب في نفوسهم.

---

(١) روح المعاني: ٤/ ٢٥٤.

﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ تأويلها، ويعلمون أيضاً فضلك وعلمك ومكانتك، وكأنه بهذا أراد أن يعتذِرَ ليوسفَ عن تقصيره في حقِّه ونسيانه لقضيته.

ودون أن يستفسرَ عليه السلام عن الرائي وصفاته وأحواله ومهنته واسمه وكنيته والوقت الذي رأى فيه الرؤيا كما يفعل المعبرون، قال عليه السلام بلسانِ الواثقِ من نفسه وعلمه؛ لأنه نبيٌّ يرى بعين الوحي والنبوة، ولا يحتاجُ إلى تفكير ومقارنة واستنباط واستدلال بالأسماء والأحوال، والأوقات والإشارات لمعرفة تأويلها:

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ دائبين على الزرع بجدٍّ واجتهادٍ دون انقطاع مدة سبع سنين متوالية.

ويلاحَظُ أنَّه عليه السلام وجَّه كلامه إلى عامة الناس؛ لأنه علم أنَّ لهذه الرؤيا التنبُّئية صلة بالأحوال الاقتصادية والمعيشية التي سيكون عليها الناس لخمس عشرة سنة.

﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِۦٓ﴾ أي: اتركوا الحبَّ بعد حصاد الزرع في داخل سنبله وقشْره، فذلك أبقى له على طول الزمن.

﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ أي: استخرجوا من الحَبِّ مقدار ما يكفيكم في هذه السنوات، وادَّخروا الباقي، وليكن ما تأكلون أقل مما تدَّخرون.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ أي: سبع سنين مُجْدِبة مُمْحِلة شديدة على الناس.

﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ تستهلكونَ فيهنَّ كلَّ ما ادخرتم في سنوات الخصب السابقة.

﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ أي: إلا قليلاً تحفظونه لزراعته وبذره.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ بعد السنين السبع المجدبة.

﴿عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ﴾ يُمطَرون، فالغيثُ هو المطر.

﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ الثمار والفواكه، مما يدلُّ على سعة الرزق وكثرة الخِصْب.

- **التخطيط للمستقبل:**

لم يكتفِ عليه السلام بتعبير الرؤيا، بل بادرَ فوضعَ لهم خطة عمل لمواجهة سنوات القحط والجفاف، خطة اقتصادية تتناول الحياة الزراعية والتموينية للأمة خلال خمس عشرة سنة مقبلةً.

فخطط التنمية في مختلف مجالات حياة الأمم والشعوب من تعليم وزراعة وصناعةٍ وعمران، والتي عرفها الناس في العصور الحديثة، ليست حديثةً ولا مبتكرةً، إنَّها قديمةٌ ذكرها القرآن الكريم، ووضع أصولها وطبقها النبيُّ الكريم ابن الكريم يوسُفُ عليه السلام.

ومع ذلك فإننا نرى أنَّ خطط التنمية تُرْسَمُ وتطبَّقُ في المجتمعات الغربية الكافرة أكثر بكثير من المجتمعات الإسلامية التي يُتلى فيها القرآن الكريم آناء الليل وأطراف النهار!.

نراهم يخططون لمستقبل حياتهم، ويضعون نصبَ أعينهم أهدافاً عاليةً لتقدمهم، ثم يطبِّقونَ خططهم ومناهجهم، وغالباً ما ينجحون في الوصول إلى أهدافهم وأمانيهم، بينما نرى أنفُسَنا في عالمنا الإسلامي المعاصر متخلِّفين وفاشلين، فلماذا وبين أيدينا القرآن الكريم يرشدنا ويهدينا؟!.

ولا يتعارضُ التخطيطُ للوصول إلى مستقبل أفضل مع الإيمان بالقضاء والقدر، فالتخطيطُ ليس إلا أخذاً بالأسباب الموصِلَة بتقدير الله تعالى إلى الأفضل، والأخذُ بالأسباب مطلوبٌ شرعاً في الإسلام، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ...﴾ [الأنفال: ٦٠].

وقال عليه الصلاة والسلام: «**احرصْ على ما ينفعُكَ، واستعنْ باللهِ ولا تَعْجزْ**» [رواه مسلم (٢٦٦٤)].

ويوسف عليه السلام الذي رسم هذه الخطة لأحوال الأمة المعيشية لمستقبلٍ يمتدُّ خمسة عشر عاماً نبيٌّ كريمٌ، مؤمنٌ بقضاء الله وقدره، ويعلم أنَّ كلَّ شيءٍ خلقه تعالى بقدرٍ، سبق به علمه سبحانه، وتعلقت به مشيئته في الأزل، ويعلم أيضاً أنَّ الإنسانَ لا يستطيعُ أن يخترق أسوار القدر، ولكنَّ القدرَ غيبٌ عن الإنسان، وقد أُمِر بأن يسعى في تحصيل أسباب ما يراه نافعاً، واجتناب أسباب ما يراه ضارّاً، ثم يرضى بما قدَّر الله تعالى له.

ولم يكتفِ عليه السلام بتعبير رؤيا الملك، بل قدَّم لهم نُصْحه وإرشاده وخبرته وعلمه في شؤون الزراعة والادخار والتموين، وهذا يدلُّ على أنَّ العلومَ التي علَّمها الله تعالى يوسف لم تكن محصورةً في علوم العقيدة والعبادة وتعبير الرؤيا، فقد كان عليه السلام يَعْلَمُ علوماً كثيرة تتعلق بشؤون الزراعة والادِّخار والتموين تعلَّمها دونَ أن يدخلَ مدرسةً وجامعةً، علَّمه الله إياها بواسطة **الوحي** الذي أنزله عليه، كما مرَّ معنا في قوله: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ﴾ [يوسف: ٣٧].

ولم يبخل عليه السلام بعلومه وخبرته، كما يفعل الآن الخبراء الذين تستقدمهم الدولُ المتخلِّفةُ من الدول المتقدمة في مجال العلوم، فلا يقدِّمون مشورتهم وخبرتهم للمحتاجين إليها حتى يأخذوا عليها ثمناً باهظاً وامتيازاتٍ كبيرة، قدَّمها عليه السلام للمحتاجين إليها قبلَ أنْ تُطلبَ منه، قدَّمها لمن أساؤوا إليه وظلموه وأدخلوه السجن بسبب عفته وأمانته، قدَّمها لهم، وهو لا يزالُ في سجنهم قبل أن يخرجوه منه.

- **المطالبة بالتحقيق:**

وعرف الملكُ فضلَ يوسف عليه السلام وعِلْمَه، فأَمَرَ بإخراجه من السجن وإحضاره إليه:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ﴾ ولكنَّ يوسف عليه السلام أبى أن يخرجَ من السجن حتى تثبتَ براءته، فقد رأى أنَّ دخوله السجن عرَّضه للشبهةِ، ولهذا أصرَّ أن ينفيَها عنه قبل خروجه.

وقد وردت السُّنَّةُ بمدحه على ذلك، والتنبيه على فضله وشرفه وعلوِّ قدره؛ ففي «الصحيحين»: عنه ﷺ قال: «**نحنُ أحقُّ بالشكِّ مِنْ إبراهيمَ إذ قال: ربِّ أرني كيف تحيي الموتى، ويرحمُ اللهُ لوطاً لقد كانَ يأوي إلى ركنٍ شديدٍ، ولو لبثتُ في السجنِ ما لبثَ يوسفُ لأجبتُ الداعيَ**» [رواه البخاري (٤٥٣٧) ومسلم (١٥١، ٢٣٨)].

وقوله عليه الصلاة والسلام: «**نحنُ أحقُّ بالشكِّ مِنْ إبراهيمَ**» معناه: لا تظنوا أنَّ إبراهيمَ عليه السلام كان يشكُّ في قدرته تعالى على إحياء الموتى، فلو كان يشكُّ لَكُنَّا نحنُ أحقُّ بالشكِّ منه، هذا من تواضعه عليه الصلاة والسلام وحرصِه على تبرئة الأنبياء عليهم السلام من كل سوء.

وأرادَ النبيُّ ﷺ من قوله: «**ولو لبثتُ في السجنِ ما لبثَ يوسفُ لأجبتُ الداعيَ**» مَدْحَ يوسفَ، والثناءَ عليه بسبب صبره وقوَّته على تحملِ آلام السجن، وفي الوقتِ نفسِه أظهرَ عليه الصلاة والسلام تواضعه وضعفَه وافتقارَه إلى الله تعالى، وما أرادَ عليه الصلاة والسلام انتقادَ يوسفَ والطعن عليه، كما فَهِمَ صاحبُ كتاب (مؤتمر تفسير سورة يوسف) حتى دعا إلى الإعراض عن الحديث الشريف ورفضه[1].

وحمل القرطبيُّ رحمه الله الأمرَ على اختلاف وجهات النظر في أمر له أكثر من جهة جيدة، فقال: «كيف مدحَ النبيُّ ﷺ يوسفَ بالصبر والأناةِ وتركِ المبادرة

(١) انظر: مؤتمر تفسير سورة يوسف، للشيخ عبد الله العلمي الغزِّي: ٢/ ٩٠٠.

إلى الخروج، ثم هو يذهبُ بنفسه عن حالة قد مدح بها غيره؟! فالوجهُ في ذلك أنَّ النبيَّ ﷺ أخذَ لنفسِه وجهاً آخرَ من الرأي له جهة أيضاً من الجودة»[1].

فالمبادرةُ إلى الخروج عند نبينا ﷺ أَوْلى، لأنَّ فيها مسارعةً إلى التخلُّص من بلاء السجنِ، ويمكنه بعدَها المطالبةُ بإظهارِ براءته، وكشف الحقيقة، وقد كان عليه الصلاة والسلام يكره تمنِّي البلاء ويقول: «**لا تتمنَّوْا لقاءَ العدوِّ، وسَلُوْا اللهَ العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا**» [رواه مسلم (١٧٤١)].

ولا ننسَ «**أنَّه ﷺ نبيُّ الرحمةِ**»، «**وأنَّه ما خُيِّرَ بينَ أمرينِ إلا أخذ أيسرَهُما ما لم يكن مأثماً**» [رواه البخاري (٣٥٦٠) ومسلم (٢٣٢٧)].

﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ﴾ من المَلِك ليخرجَهُ من السجن.

﴿قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ أي: ما خبرهن في هذا الأمر، واختار عَلَيْهِ السَّلَامُ واقعةَ تقطيعِ الأيدي مِنْ بينِ وقائع القصة لأنها أعجبُ الوقائع وأغربها، وأكثرها إثارةً للسامع، فيستقصي الحوادث المتصلة بها والأسباب المؤدية إليها.

واتبعَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أسلوبَ الاستفهام والتلميح تهييجاً للمَلِكِ لينصرفَ إلى التحقيقِ فيما حَدَثَ، فلا يغضبْ على يوسف بسبب رفضه تنفيذَ أمرِه، والحضورَ إليه.

﴿إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ أي: إنَّ الله عليم بمكرهنَّ واحتيالهن.

- **التحقيق والبراءة:**

ونجحَ عَلَيْهِ السَّلَامُ في تحقيق مراده، وبادر الملكُ إلى التحقيق وباشره بنفسه، وأظهرتْ نتيجةُ التحقيقِ براءةَ يوسف وعفَّته وأمانته وأنه سُجن ظلماً، فأمر بإحضارِ النسوة، وسألهنَّ سؤال المتهم لهن:

---

(١) تفسير القرطبي: ٩/٢٠٧.

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾﴾ .

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦۚ﴾ وفوجئنَ بالتُّهمة الموجَّهة إليهن، فلم يستطِعْنَ إنكارها، رغم ما لهنَّ من مكانةٍ ووجاهةٍ وسلطان، فقد وُجِّهت إليهن من الملك، ولكنهنَّ أعرضنَ بذكاءٍ ودهاءٍ عن الاعتراف والفضيحة إلى الشهادة ببراءة يوسف.

﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ أي: يتنزَّه الله الذي خلق مثل يوسف عن كل نقصٍ.

﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍۚ﴾ في أي أمر من الأمور.

وهكذا ظهرتْ براءةُ يوسف عليه السلام، وأجمع النِّسوةُ على ذلك، ولم تجد امرأة العزيز بدّاً من الاعتراف:

﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: ظهر وثَبَتَ بعد خفاء.

﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي: وإنَّ يوسف لمن الصادقين في قوله: ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِىۚ﴾ [يوسف: ٢٦].

ولـمَّا علمَ يوسف عليه السلام بظهور براءته وشهادة النسوة على ذلك واعتراف امرأة العزيز قال:

﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾﴾ .

﴿ذَٰلِكَ﴾ بقائي في السجن ومطالبتي بالتحقيق.

﴿لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: ليَعْلَمَ العزيزُ أني لم أخنه في غيابه مطلقاً، فما أُدخِلتُ السجنَ إلا ظلماً.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ فلو كنتُ خائناً ما نصرني ربي، وأظهر براءتي؛ لأنه سبحانه لا يوفِّق الخائنين ولا يسددُهم، ولا بدَّ أن يأتيَ يومٌ يُظهِرُ الله تعالى فيه الحقَّ، ويُبطل مكرَ الخائنِ، ويفضحه.

ثم أظهر عليه السلام تواضعَه لله تعالى، وافتقارَه إليه، وفضله عليه، بعصمته عن السوء والفاحشة فقال:

﴿ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٣ ﴾.

﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ﴾ أي: ما أردتُ تزكيةَ نفسي، بل أردتُ إظهارَ ما أنعمَ الله عليَّ من العصمةِ والتوفيق[١].

﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ أي: إنها بطبعها مائلة إلى الشهوات.

﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾ إلا ما رحمه الله تعالى من النفوس بعصمتها وحفظها.

﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ يغفِر ذنوبَ المستغفرين ويسترها، ويرحم عبادَه الصالحين فيعصمُهم ويحفظُهم.

• **دروس وعبر:**

وبهذا انتهت محنة يوسف عليه السلام، وانتقل من ظلمة السجن إلى نور الحرية، فعلا نجمُه، وذاعَ صيته، وانتشرَ خبره، بينما أفلَ نجم العزيز وزوجته، فلم يعدْ لهما أيُّ ذكر، وعلم الناس فضل العفَّة والأمانة والصدق، وعلموا أيضاً قبح الخيانة والاحتيال والكذب.

ودالتْ دولةُ الخيانة والظلم، فالظلمُ ظلماتٌ يوم القيامة، وعاقبته في الدنيا وخيمة، ومهما أملى الله تعالى للظالم فلا بد أن يأخذه: «**إنَّ اللهَ لَيُمْلي للظالمِ حتَّى إذا أخذَه لم يُفْلِتْهُ**» [رواه البخاري (٤٦٨٦) ومسلم (٢٥٨٣)].

وصدق الله العظيم القائل: ﴿وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ﴾ [القلم: ٤٥].

فلا يغترَّ الظالمون بإملاء الله تعالى لهم، فدعوات المظلومين ترتفع إلى الله تعالى مع زفراتهم ودموعهم، والله جل جلاله سميعٌ لأقوالهم عليم بأحوالهم وهو الحكم العدل.

---

(١) تفسير البيضاوي: ٣/ ٤٢٠.

والأيام دُوَلٌ: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، والليالي حبالى، والصبحُ قريبٌ، وهو سبحانه المعزُّ والمذِلُّ، والرافعُ والخافضُ، والمعطي والمانع: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

ورحم الله القائل[1]:

لكلِّ شيءٍ إذا ما تمَّ نُقْصَانُ ... فلا يُغَرَّ بِطيْبِ العَيْش إنسانُ

هي الأمورُ كما شاهدتُها دُوَلٌ ... مَنْ سَرَّهُ زَمَنٌ ساءَتْهُ أزمانُ

والعاقل من وُعِظ بغيره، والشقيُّ من وُعِظ بنفسه.

ودلَّ ما تقدَّم أيضاً على أنَّ العاقبةَ الطيبةَ للإحسان والتقوى، وأنَّ الله تعالى مع المتقين، وأنَّ مَنْ كانَ مع الله كان الله تعالى معه، وأنَّه سبحانه لا يتخلَّى عن أنبيائه وأوليائه وأحبابه، وأنَّ وحي الله للأنبياء حق، فهم ينظرون بنور وحي الله تعالى فلا يخطِئون ولا يزلون، فهم معصومون بعصمته تعالى، ومحفوظونَ بحفظه ورعايته.



(١) أبو البقاء الرندي، من قصيدة يرثي بها مدينة رندة في الأندلس التي سقطت بيد الكفرة (ن).

الفَصْلُ الثَّانِي

يُوسُفُ عليه السلام في سُدَّةِ الحُكْمِ والسُّلْطَان

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ

أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُواْ نَفْقِدُ
صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا
لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن
وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ
ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن
يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ۞ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ
فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ
مَّكَانًاۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا
مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ
إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّاۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ
أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ
يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِىۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ
ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى
كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ فَصَبْرٌ
جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ
يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ
تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى
وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ
وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ
عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ
عَلَيْنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ
جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِىۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآۖ
إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ

اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ (٩١) قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢) اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (٩٣) وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ (٩٤) قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (٩٥) فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٩٦) قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (٩٧) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٩٨) فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠) ۞ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٠١)﴾

- **المكين الأمين:**

أُعْجِبَ الملكُ بأمانةِ يوسفَ وصدقه وعفَّته، وأُعجبَ أيضاً بعلومه وخبرته، فأحبه واشتاقَ لرؤيته:

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤)﴾.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ أي: أجعله خالصاً لنفسي، فلا يشاركني فيه أحد. وهذا يدلُّ على شدة حب الملك وشوقه إليه.

وكم بينَ أمرِ الملك السابق قبل التحقيق: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ﴾ [يوسف: ٥٠] وبين أمره اللاحق بعده من فرق: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ فالعلمُ وحدَه لا يكفي لظهور الفضل، فما عرف الملك فضلَ يوسف بعلمه فقط، الذي ظهر له عندما عبَّر الرؤيا، إنَّما عَرَف فضله بعدَ التحقيق، وظهور براءته وعفته

وصدقه وأمانته عليه السلام، **ولا فائدةَ مِنْ عِلْمٍ لا خُلُقَ معه**، والإيمان بالله تعالى معدن الأخلاق الكريمة وأساسها ومنبعها.

وازدادَ تقديرُ الملك ليوسف وإعجابه به بعد أَنْ رآه وسمع كلامه، فالكلامُ مرآةُ المتكلِّم، يُظهر حقيقتَه، ويكشف هويتَه، والإنسانُ مخبوءٌ تحت لسانه، فإذا تكلَّمَ عُرف.

﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ أي: أصبح لك عندنا مكانةٌ كبيرة، ومنزلةٌ رفيعة، وأصبحتَ أيضاً مؤتمناً على كل شيء.

فالمكينُ الأمينُ أعزُّ الصفات وأكرمها وأرفعها، وقد أثنى الله تعالى بهما على أمين الوحي جبريل عليه السلام بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير].

وقولُ المَلِكِ هذا يدلُّ على علوِّ مداركه، وحسنِ فراسته، وحبه للأخلاق الكريمة، وإنصافه وعدله، مع أنَّه من ملوك الهكسوس، وهم البدو الرُّحَّل، الذين استولَوا على الحكم في مصر، واستأثروا به دون الأسرة المصرية الحاكمة التي ينتمي إليها الفراعنة، ولهذا ذكره الله تعالى بالملك، ولم يذكره بفرعون، كما في قصة موسى عليه السلام.

• **طلب العمل والمنصب:**

وعلوُّ الهمَّةِ من الإيمان، وما أرادَ الكريمُ ابنُ الكريم أنْ يعيشَ في بلاط الملك من غير عمل، كما هو حال كثيرٍ من حاشية الملوك والحكام، بل أرادَ أن يقومَ بعملٍ كبيرٍ مفيدٍ، ويتحمَّل مسؤوليته، فرشَّح نفسه لأخطر المناصب وأعلاها، وأكبرها عملاً وجهداً ودأباً وسهراً، وأكثرها نفعاً لعامة الناس وضعفائهم وفقرائهم؛ والتكفل بإطعام شعوب جائعة في أزمَاتٍ اقتصادية خانقة تَبِعَةٌ كبيرة، ومسؤولية جسيمة، يهرب منها الرجال؛ لأنها قد تكلِّفهم رؤوسهم(١).

ومع ذلك رشَّح يوسفُ عليه السلام نفسَه لتحمُّل تبعة هذه المسؤولية الخطيرة:

---

(١) انظر: في ظلال القرآن: ٤/ ٢٠٠٥.

﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ٥٥﴾.

﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ أي: اجعل أمرَ إدارة خزائن المال والطعام في أرض مصر إليَّ؛ فإنِّي أمينٌ عليها، خبيرٌ بتدبيرِ شؤونها ووجوه مصالحها.

وصف عليه السلام نفسَه بالأمانة والعلم، وهذا يدلُّ على جواز طلب المنصب لمن كانَ أهلاً له، ولو كان منصبَ إمارةٍ وولاية عامة، بل يجب عليه أن يطلبَ العملَ لنفسه إذا توقَّف عليه إقامة واجب، ولا يوجد من يقوم به غيره.

وما في «**الصحيحين**» [البخاري (٦٦٢٢) ومسلم (١٦٥٢)] من حديث **عبد الرحمن بن سَمُرَة** رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**يا عبدَ الرحمن، لا تَسألِ الإمارةَ، فإنَّكَ إن أوتيتَها عن مسألةٍ وُكِلْتَ إليها، وإنْ أُعْطِيْتَها مِنْ غيرِ مسألةٍ أُعِنْتَ عليها**» واردٌ في غير ذلك(١).

أي: وارد في حال وجود من يقوم بها ويصلح لها، فالأَوْلى حينئذٍ ألا يطلبها لنفسه، وما طلبها عليه السلام لنفسه إلا لعلمه أنَّه وحدَه الذي يستطيعُ القيام بأعبائها، ولهذا قال:

﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ ولم يقل: إني حسيب كريم، ولا قال: جميل مليح، سألها بالحفظ والعلم لا بالنسب والجمال(٢).

وأراد عليه السلام بقوله هذا التعريفَ بنفسِه، ليوضعَ في المنصب الذي يناسبها، وهو أمرٌ مطلوب، وما أرادَ تزكيتها، وهو أمرٌ مذمومٌ، قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢].

- **الرجل المناسب في المكان المناسب:**

ووضعُ الإنسان في العمل الذي يناسبه أمر ضروري وجوهري لتقدُّم

---

(١) انظر: روح المعاني: ٥/٥.

(٢) انظر: تفسير القرطبي: ٩/٢١٦.

المجتمع ونموه، ولذلك دعا الإسلام إلى التخصص والاختصاص، قال تعالى: ﴿فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧].

وقال أيضاً: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

أمر الله تعالى في الآية الأولى بالرجوع في كلِّ شأن إلى أصحاب العلم والخبرة فيه، وحذَّر في الآية الثانية الإنسانَ من التدخل في شؤونٍ ليست من اختصاصه، وقرَّر مسؤوليته عن كل ما يقع نتيجة تصرفاته الفضولية وآرائه الطفيلية، فالتخصُّصُ هو السبيل الأقوم لعمران الحياة، وهو يستدعي وضع كل إنسان في مكانه الذي يتناسب مع كفاياته العلمية والعملية(١).

وهو من مهمَّات الحاكم ووليِّ الأمر في المجتمع، فالمحاباةُ في المناصب، ووضعُ الإنسانِ في غير موضعه المناسب له غشٌّ للأمة وخيانةٌ لها، قال عليه الصلاة والسلام: «**ما مِنْ عبدٍ يسترعيه اللهُ ﷻ رعيةً، يموتُ يومَ يموتُ وهو غاشٌّ رعيَّته إلَّا حرَّمَ اللهُ تعالى عليه الجنةَ**» وفي رواية: «**فلم يُحِطها بنُصْحِهِ لم يُرِحْ رائحةَ الجنَّةِ**» [رواه البخاري (٧١٥٠) ومسلم (١٤٢)].

وقال أيضاً: «**ما مِنْ أمير يلي أمورَ المسلمين، ثمَّ لا يجهدُ لهم وينصحُ لهم إلَّا لم يدخلْ معهم الجنَّةَ**» [رواه مسلم (١٤٢)].

وعن **يزيد بن أبي سفيان** رضي الله عنهما قال: قال لي أبو بكر الصديق رضي الله عنه حين بعثني إلى الشام: يا يزيدُ، إنَّ لك قرابةً عسيتَ أن تُؤْثِرَهم بالإمارة، وذلك أكثرُ ما أخافُ عليكَ، بعدما قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ وَلِيَ مِنْ أمر المسلمينَ شيئاً فأمَّرَ عليهم أحداً محاباةً، فعليه لعنةُ اللهِ، لا يَقبلُ اللهُ مِنْهُ صَرْفاً ولا عَدْلاً حتى يدخلَه جهنَّم**» [رواه الحاكم (٤/ ٩٣) وصحَّحه].

ودلَّ قوله عليه السلام للملك: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾ على جوازِ قبولِ العملِ

(١) انظر: حياتنا والموعد المجهول، وهو من منشورات دار القلم بدمشق.

والوظيفةِ من الحاكمِ الكافرِ، وخاصةً إذا كان في العمل مصلحةٌ للمسلمينِ، ورعايةٌ لشؤونهم.

• الحاكم الصالح:

وجَدَ الملكُ في يوسفَ عليه السلام الأمانةَ والخبرةَ، فوافق على طلبه، وسَلَّمه مسؤوليةَ إدارة الشؤون الاقتصادية والزراعية والمالية في مملكته كلها، وأصبحَ عليه السلام الوزيرَ الأول في مصر، وعزيزها، وصاحب الكلمة النافذة فيها بعد الملك، وجمعَ اللهُ له بهذا النبوة والحكم، فقد كان نبيّاً وحاكماً، وفي هذا ردٌّ على أولئك الذين يحصرون مهمةَ الأنبياءِ في بيان شؤون العقيدة والعبادة فقط، ويحاوِلون عزلَ الدين عن الشؤون المتعلقة بالحكم والسياسة والاقتصاد، وغير ذلك من الأمور العامة.

قال تعالى يبيِّن فضله على نبيِّه يوسف ونعمته عليه:

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: كما جعلنا له مكانةً عالية في قلب الملك جعلنا له مكانةً في أرض مصر كلِّها، ولا بدَّ أنه عليه السلام استفاد من هذا التمكين في الدعوة إلى عبادة الله الواحد الأحد، ونشر عقيدة التوحيد بين المصريين، فقد جعله الله رسولاً إليهم كما جعله حاكماً عليهم.

ونجح عليه السلام في نشر التوحيد في أوساط العامة من الضعفاء والفقراء، أمَّا كبار الأغنياء والمترفين الذين كانوا يشكِّلون حاشيةَ وبطانةَ الأسرة الفرعونية فلم يتقبَّلوا دعوته، دلَّ على ذلك ما حكاه الله تعالى من كلام مؤمن آل فرعون وهو يخاطب فرعون وحاشيته في زمن موسى عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ [غافر: ٣٤].

﴿يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ﴾ أي: ينزل في أي مكان يريدُ من أرض مصر، وهذا يدلُّ على قوة سلطانه ﷺ، وتمكُّنه في جميع مدن وقرى مصر، وكل ذلك من فضله تعالى ورحمته.

﴿نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ﴾ بمقتضى حكمته تعالى وعلمه.

﴿وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ وكما أحسن ﷺ في الضرَّاء والمحنة بصبره وتقواه، أحسن ﷺ أيضاً في السرَّاء والنعمة، فأطاع الله تعالى في الأمَّةِ التي ولَّاه الله أمرَها في سنوات السَّعَةِ والرَّخاء، وفي سنوات الجَدْبِ والضرَّاء.

وما أشدَّ حاجةَ الأمم والشعوبِ إلى الحاكم الصالح الذي يخشى اللهَ تعالى ويتَّقيه، فلا يغرُّه سلطان؛ لأنه يرى سلطانَ الله تعالى أعظم وأجل من سلطانه، ولا يستبدُّ به طمع؛ لأنه يرى أن ما عند الله تعالى خير وأبقى من كنوز الدنيا الزائلة، فقلبُه متوجِّه إلى الآخرة التي قال تعالى عنها:

﴿وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٥٧﴾.

- **المعجزة الاقتصادية:**

وكان ﷺ في حكمه حفيظاً عليماً، كما وصف نفسه، استغل سنوات الخِصْب والرَّخاء أحسنَ استغلال، فوجَّه المصريين إلى الاستفادة منها ببذل أقصى الجهد، واستصلحَ كثيراً من الأراضي البور فأحياها، وأوصلَ إليها الماء من النِّيل بواسطةِ شَبكةٍ كبيرة من التُّرع والقَنوات، ورسم لها نظاماً دقيقاً مُحْكماً للريِّ والصَّرف، ولا يزال هذا النظام قائماً حتى الآن في كثير من الأراضي المصرية، كما لا تزال كثير من التُّرع والقنوات تُنسب إليه ﷺ وتسمَّى باسمه.

ولم يسخِّر ﷺ طاقاتِ الأمةِ لبناء القصور والقبور، كما فعل الفراعنة، الذين لا زالت آثارُهم تدلُّ على طغيانهم واستبدادهم وظلمهم.

وأنشأ ﷺ أيضاً المخازنَ الكبيرة لخزن فائض المحاصيل الزراعية، وتمكَّن بمعونة الله له من تحقيق معجزة الخَزْن والادخار للمحاصيل الزراعية إلى مدى

أربع عشرة سنة، والتي تعجز عن مثلها أكبر الدول في عصرنا الحاضر، عصر التقنية والتكنولوجيا، وما أكثر ما نقرأ في المجلات والصحف عن التلف الذي يصيب المحاصيل الزراعية المدَّخرة بسبب سوء التخزين والادخار.

ولما انتهت سنواتُ الخِصْبِ والرَّخاءِ، وأقبلتْ سنواتُ القحط والجوع والجفاف، التي عمَّت المنطقةَ كلها، مصرَ وما حولها من البلاد، وضع ﷺ نظاماً لتوزيع المُؤَن والطعام على الفقراء والمحتاجين من داخل مصر وخارجها، وأشرف بنفسه ﷺ على التوزيع، وكان يباشره بنفسه أحياناً كما سيأتي معنا، دونَ تمييزٍ بين المصريين وغيرهم من المحتاجين.

فالإيمانُ بالله تعالى ينمِّي مشاعرَ الخير في نفس الإنسان، ويدفعه إلى تقديم المعونة والمساعدة إلى كل الناس، فلا يميِّز بينهم، كما يفعل الآن الماديون الغربيون عندما يضطرون لتقديم بعض المساعدات إلى غيرهم، تراهم يساوِمون الجائعين والمُعْدَمين في إفريقية وغيرها، ليتخلَّوا عن دينهم وعقيدتهم مقابل ما يقدِّمونه لهم لسد جوعهم ودفع خَلَّتهم.

كان نبيُّ الله يوسف ﷺ مثالاً رفيعاً للحاكم الصالح والعالم المؤمن المتواضع، كان ﷺ عالماً بشؤون الزراعة، ومهندساً في الري، وخبيراً في الادِّخار والتوزيع، وكل ما كان عنده من علوم آتاه الله تعالى إياها بفضله ورحمته دون معلم ولا كتاب ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾ [يوسف: ٣٧].

فالحقيقةُ لا تُعرَفُ كلُّها بواسطة حواس الإنسان المادية، فثمة مصدر آخر للحقيقة أعلى وأرفع وأعظم، وهو وحي الله تعالى المنزل على أنبيائه.

- **التوزيع:**

ومضت سنواتُ الخيرِ والرخاء، وكانت بالنسبة ليوسف ﷺ سنوات العَمَل والجهد المتواصل بالليل والنهار استعداداً وتحضيراً لسنوات القحط والجفاف، ألا يقرأ الكُسالى المتواكلون المنتشرون في العالم الإسلامي سورةَ يوسف ﷺ؟!.

وجاءت سنواتُ القحطِ والجفافِ، وتحوَّلت جهود النبيِّ الكريم إلى تنظيم

توزيع المدَّخرات، لا على المحتاجينَ الجائعينَ فقط، وإنما توزيع المدِّخرات على سنوات الجفاف السبع، لتغطية حاجات الاستهلاك فيها كلها، فقد رأى ﷺ بعين النبوة من خلال رؤيا الملك البعدَ الزمني لامتداد أزمة الجفاف، فلا بدَّ إذاً من رسم خطة للتوزيع كما فعل في خطة الإنتاج والادِّخار، تغطي حاجات السنوات السبع، وتطبق بدقةٍ وحزم وعزم.

خطة يستطيعُ المحتاج بواسطتها أن يأخذ حاجته، دون أن يقف ساعات كثيرة في طوابير طويلة على أبواب مراكز التوزيع، كما هو الحال في كثير من المجتمعات في العصر الحاضر، العصر الذي سخَّر فيه الإنسانُ الآلةَ، واستفاد منها في هذا المجال في توفير الجهد والوقت.

ورأى ﷺ ألَّا يقدِّمَ الطعامَ من دون مقابل، فإنَّ ذلك يشجِّعُ الناسَ على سرعة استهلاكه وتبديده، ولهذا وجدَ من الحكمةِ أن يتقاضى ثمن الطعام من القادرين على دفع ثمنه.

• **قدوم إخوة يوسف إلى مصر:**

وشمل القحطُ والجفافُ مصرَ وما حولها من البلاد، وتسامَعَ الناسُ في كل مكان أخبار التوزيع للمؤن والطعام في مصر وأخبار حاكمها الصالح، فشدُّوا إليه الرِّحال من كل حَدَب وصوب، يمتارون في هذه السنوات العجاف:

﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾ نَسَبَتْهم الآيةُ إلى يوسف وعرَّفتهم به، فلولاه لكانوا نَكِرات لا يذكرهُم أحد، ولا يعرفهم، جاؤوا بعد مرورِ سنواتٍ طويلةٍ على جريمتهم التي ارتكبوها بحقِّ أخيهم وأبيهم.

ألجأتهم المجاعةُ والفاقةُ، فجاؤوا يَمْتارون لأنفسهم ولأهليهم ولأبيهم الشيخ الكبير، الذي لم ينسَ ولدَه يوسفَ، ولا يزال حزيناً على فراقه، ويمنِّي النفسَ بلقائه.

ولا بد أن نتساءل هنا: لماذا لم يبادر يوسف إلى الاتصال بأبيه بعد خروجه من السجن، وتمكُّنه من حكم مصر، وهو يعلم شدَّة حزن أبيه على فراقه؟ هل شغله تدبير شؤون الحكم وخطط الإنتاج والادخار عن أبيه وأمه وأخيه وأهله وذويه؟ أما كان يستطيعُ أن يرسلَ إلى أبيه رسولاً أو رسالة يخبره بمكانه، ويحيطه علماً بأحواله، فينهي بذلك آلامه وأحزانه؟!.

لا شكَّ أنَّه ﷺ كان يستطيع أن يفعل ذلك، ولعلَّه لم يفعله لأنه نبيٌّ كريم، ورسولٌ أمين، لا يتحرَّك ولا يسكن ألا بأمر الله تعالى ومشيئته، فعواطفُه نحو أبيه وأمِّه وأهلِه وراء رسالته ونبوته.

وكذلك حال أبيه يعقوب ﷺ، فهو نبيٌّ كريم أيضاً مكلَّف برسالة حملها إلى القوم الذين كان مقيماً بينهم، ولا يستطيعُ مفارقتهم ومغادرةَ موطن رسالته حتى يأذنَ الله تعالى له بذلك، ولهذا لم يهاجِر نبيُّنا ﷺ إلى الحبشةَ عندما هاجر أصحابُه إليها، ولم يهاجر إلى المدينة المنورة حتى أذن الله تعالى له بالهجرة، مع أنَّ أكثر أصحابه سبقوه بالهجرة، فشأنُ النبيِّ الرسولِ يختلف عن عامة الناس، وما يمكن أن يَرِدَ حول عامة الناس من تساؤل لا يَرِدُ في حق النبي الرسول يوسف ﷺ.

﴿فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ﴾ وهذا يدلُّ على أنَّ يوسف ﷺ كان يقيمُ في مركز التوزيع ويشرف عليه بنفسه، أو أنه كان يتوقَّعُ مجيئهم، فلمَّا جاؤوا أمر أن يُدخلوا عليه، ولكن قوله تعالى:

﴿فَعَرَفَهُمْ﴾ يرجِّح الرأي الأول، إذ عرف أنهم إخوته بعد دخولهم عليه.

﴿وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ وهم لم يعرفوا أنه أخوهم يوسف، فقد كان صغيراً عندما ألقوه في الجبِّ، وملامحُ الصغير تتغيَّر بمرور السنين أكثر من الكبير، ويمكن أن تكون معرفتُه لهم حَصَلت بعد أن سألهم وحقَّق معهم.

فلا بد أنه سألهم عن أسمائهم وبلادهم وأولادهم وعبيدهم وخدمهم

ليعطيهم على حسب حاجتهم، ولا بدَّ أنهم أخبروه عن أبيهم وأخيهم اللذين لم يحضرا معهم، وبيَّنوا له سبب تخلُّف أخيهم لشدة محبة أبيه له وخوفه عليه.

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ أي: أعطاهم ما جاؤوا لأجله، وما يحتاجون إليه في سفرهم، وكان يعطي كفاية عام واحد.

﴿قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ تظاهر بأنه يريد التأكُّد من صدقهم، فطلب منهم أن يحضروا أخاهم معهم في المرة القادمة.

ثم رغَّبهم بكرمه وحُسن ضيافته ليعودوا إليه فقال:

﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ﴾ أي: أعطيه لمستحقِّيه كاملاً غيرَ ناقص.

﴿وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ للضيف والمُكْرِمينَ له.

ثم بعد الترغيب توعَّدهم بالحرمان والمنع من دخول البلاد إذا لم يحضروا أخاهم معهم:

﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾﴾.

بلادي.

﴿قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾﴾

﴿قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ أي: سنجتهدُ في طلبهِ من أبيه.

ثم أكَّدوا كلامهم قائلين:

﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾.

وكي يضمنَ عليه السلام رجوعَهم، أمر بعض أتباعه ومعاونيه أن يَرُدُّوا إليهم ثمنَ

الطعام الذي أحضروه معهم دون أن يشعروهم بذلك، ليعرفوا كرمَه وإحسانَه فيرجعوا إليه:

﴿وَقَالَ لِفِتْيَـٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَـٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿وَقَالَ لِفِتْيَـٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَـٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ﴾ في أوعيتهم.

﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ﴾ إذا وَصَلوا إلى أهلهم.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

● **رسالة رمزية إلى يعقوب:**

وعندما عادوا إلى أبيهم أخبروه بما حَدَث لهم، وبادَرُوا إلى مطالبته أن يرسل أخاهم معهم في المرة القادمة:

﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ﴾ في المستقبل، جعلوا التهديدَ بالحرمانِ من الطعامِ توطئةً للمطالبة بإرسال أخيهم معهم.

﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ﴾ أي: نرفع المانع، ونأخذ ما نحتاج من الطعام.

﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾، وذَكَّرَه قولُهم هذا بقولهم السابق عندما سألوه أن يرسل يوسف معهم: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ [يوسف: ١٢].

ولا بد أن دموعاً سالت من عينيه المقرَّحَتَيْن من كثرةِ البكاء على فراق يوسف حتى انطفأ نورُهما، وانتظر ﷺ حتى هدأت نفسُه، وتوقفت دموعه:

﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ أي: كيف آمنُكم عليه، وقد فعلتم بأخيه يوسف ما فعلتم، وقد ذكرتم مثل هذه الكلمات التي تذكرونها الآن: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [يوسف: ١٢] فهل حفظتم يوسف؟!.

﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا﴾ فحفظُ الله خيرٌ من حفظهم، والتفويض إلى الله تعالى والاعتماد عليه:

﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

ونستدلُّ من كلمات يعقوب عليه السلام أنَّه لم يرفضْ طلبهم، فثمَّة هاجسٌ يهجس في قلبه أنَّ وراء هذا الطلب سرّاً، وأنَّه ربَّما له صلة بولده الحبيب يوسف، فضلاً عن القحط الشديد الذي اضطره إلى إرساله معهم.

وبعد أن فتحوا أوعيتَهم وفوجئوا بوجود ثمن الطعام فيها، عادوا يطالبون أباهم بإرسال أخيهم معهم محتجِّين بما وجدوا في أوعيتهم:

﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾﴾.

﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِي﴾ أي: ماذا نطلبُ من هذا الرجل عزيزِ مصرَ بعد أنْ أحسن إلينا كلَّ هذا الإحسان؟!.

﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ تفضُّلاً منه وكرماً، فينبغي أن نقابل كرَمَه هذا وإحسانه بالاستجابة لطلبه.

﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ أي: نحضرُ لهم الميرة، وهي الطعام الذي يجلب من بلدٍ إلى بلد.

﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ من المخاطر والمكاره.

﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ حِمْل بعير على أحمالنا، وكان يوسفُ يعطي كلَّ إنسان حملَ بعيرٍ.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الذي أحضرناه من الميرة.

﴿كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ لا يكفينا، فلا بدَّ لنا أن نعود للميرة مرة أخرى.

ومن طبيعة الحاسدِ أنه يكونُ طمَّاعاً شَرِهاً، ولقد أصاب يوسف عليه السلام الهدف تماماً، لأنه كان يعرف حقيقة إخوته، وما تنطوي عليه نفوسُهم من طَمَعٍ وشَرَه، ولهذا أطمعهم ومنَّاهم، وردَّ عليهم ثمن طعامهم ليأتوه بأخيهم، ولا عَجَبَ فيما نراه من جشع خَلَفهم من اليهود وطمعهم وحسدهم.

ولا بدَّ أنَّ يعقوبَ عليه السلام تساءل في نفسه عن سر ما فعله عزيز مصر مع أولاده؛ لماذا أكرمهم واحتفى بهم، وردَّ عليهم ثمنَ طعامهم بهذا الأسلوب اللطيف، وطلب إحضارَ أخيهم معهم في المرة الثانية، وعيَّنه بقوله: ﴿بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ [يوسف: ٥٩]؟ والأنبياء عليهم السلام أفطن الناس وأذكاهم، ونفوسهم حسَّاسةٌ شفَّافة، شديدة التأثر، سريعة الفهم.

تُرى هل كان ما فعله يوسف بإخوته ومطالبته بأخيه رسالةً رمزيةً منه لأبيه[١] أخبره فيها أنَّه في مصر، وأنَّ وقتَ اللقاء أصبح قريباً، وسيأتي معنا في قول يعقوب: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف: ٨٧] ما يشير إلى ذلك.

- **التوكُّل والحذر:**

وافق أخيراً نبيُّ الله يعقوبُ على إرسال ولده الشقيق الأصغر ليوسف مع إخوته، بعد أن أخذَ منهم ميثاقاً مؤكَّداً بالأيمان المغلَّظة على حمايته وحفظه:

---

(١) انظر: مؤتمر تفسير سورة يوسف: ٢/١٠٠٣.

﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ﴾ أي: إلا أن تُغلَبوا وتهلكوا، فلا تقدروا على ردِّه، وأصله من إحاطة العدو، فإنَّ من أحاط به العدوُّ فقد هلك غالباً[1].

﴿فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ رقيبٌ وحسيب، وهو أقصى ما يستطيع يعقوب أن يفعله لولده.

ولم ينسَ عليه السلام أن يزوِّد أولاده بوصاياه عندما أرادوا السفر:

﴿وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ﴾ كأنه عليه السلام خشي عليهم من أعين الحُسَّاد ومكرهم بسبب ما كان لهم من الهيئات الحسنة والأُبَّهة والجمال، فحذَّرهم ألا يدخلوا جميعاً من باب واحد عند وصولهم إلى مركز التوزيع، وأوصاهم أن يدخلوا أفراداً من أبواب متفرقة.

● **العين والحسد:**

فَلِعَيْن الحاسد تأثيرٌ سَلْبيٌّ ضار بالمحسود بتقدير الله تعالى، أثبتته النصوصُ القطعيةُ وشواهد الواقع الكثيرةُ المحسوسةُ، قال الله تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾ [القلم: ٥١].

وقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**العَيْنُ حَقٌّ**» [رواه البخاري (٥٧٤٠) ومسلم (٢١٨٧)].

---

(١) انظر: روح المعاني: ٥/ ١٤.

وقال أيضاً: «**العَيْنُ حقٌّ، ولو كانَ شيءٌ سابِقَ القدرِ سبقتْهُ العَيْنُ، وإذا استُغْسِلْتُم فاغْسِلُوا**» [رواه مسلم (٢١٨٨)].

وقالت عائشة رضي الله عنها: **كان يُؤمَرُ العَائن فيتوضَّأُ، ويغْسلُ منه المعين**. [رواه أبو داود (٣٨٨٠) وأحمد (٣/ ٤٤٧)].

وقالتْ أيضاً: **كان إذا اشتكى رسولُ اللهِ ﷺ رَقَاهُ جبريلُ**، قال: «**بسمِ اللهِ يبريكَ، مِنْ كُلِّ داءٍ يَشْفِيكَ، وَمِنْ شَرِّ حاسِدٍ إذا حَسَدَ، وَمِنْ شَرِّ كلِّ ذي عَيْنٍ**» [رواه مسلم (٢١٨٥)].

فثمةَ جانبٌ خفيٌّ في الإنسانِ يتأثَّرُ ويؤثِّرُ، دأبت سورة يوسف على إثباته، فالرؤيا تدلُّ على وجوده، كما مرَّ معنا، فهي تدلُّ على تأثره بما يُلقى إليه من خارج الإنسان، والوحي وعلومه يؤكده، ويجعله حقيقةً ملموسة، والعينُ الحاسدةُ تدلُّ أيضاً على إمكانية تأثير الإنسان في غيره بمشيئة الله تعالى وتقديره.

ولم يستطعِ الإنسانُ أن يعرفَ شيئاً عن هذا الجانب الخفيِّ في كيانه، والذي يشكِّلُ الجزءَ الهام، أو الأهم، في تكوينه، وهو الذي قال عنه سبحانه: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

وأرواحُ الناسِ أنواعٌ، بعضُها يغلب عليه الخير والصلاح، وهي الأرواح الطيبة، وبعضها يغلبُ عليه الشرُّ والفسادُ، وهي الأرواحُ الخبيثةُ، المؤذية الحاسدةُ.

وبعد أن أوصى يعقوبُ أولادَه استدرك قائلاً:

﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍۖ﴾ فالحذرُ لا يدفعُ القدرَ، وما أوصاهم بالحذرِ إلَّا من قبيل الأخذِ بالأسباب الظاهرة للسلامةِ والوقاية، وهو أمرٌ مطلوبُ شرعاً، قال تعالى: ﴿وَخُذُواْ حِذْرَكُمْۚ﴾ الآية [النساء: ١٠٢].

وقال أيضاً: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِۛ﴾ الآية [البقرة: ١٩٥].

﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ﴾ القَدَري والشَّرعي.

﴿إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ فالتوكُّل لا يمنعُ من الأخذِ بأسباب الوقاية والحذر.

- **لقاء الشقيقين:**

وتفرَّقَ إخوةُ يوسف على الأبواب تنفيذاً لوصية أبيهم:

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦٨)﴾.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ﴾ ذلك الدخول.

﴿يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ أي: يدفع عنهم شيئاً قدَّره تعالى عليهم.

ويعقوب عليه السلام يعلمُ ذلك، وما أوصاهم بالدخول متفرقين:

﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ أي: أظهرها بوصيته لهم، وهي خوفه وشفقته عليهم، وما صدرَ عن مُجرَّدِ عاطفة فقط، بل عن علم بما يجرُّ حسدُ الحاسدين على المحسود من ضرر بتقدير الله تعالى.

﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ من أحوال النفوس وطبائع الأرواح، فالوحي مصدر من مصادر العلم، لا يكونُ إلا للأنبياء عليهم السلام.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ هذه الحقائق المستورة لأنهم محجوبون عنها.

ويشير قوله تعالى: ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ إلى أنه عليه السلام كان يتوقع حدوثَ شيءٍ ما لأولاده، ولهذا ساوره القلق عليهم، وأوصاهم وحذَّرهم، فتصرفاتُ عزيز مصر معهم غيرُ عادية، ولعلها كما قلنا رسالة رمزية من يوسف لأبيه عليهما السلام.

وبادر يوسف عليه السلام إلى ضمِّ شقيقه الأصغر إليه، وتعريفه بنفسه، فعل ذلك بِنَجْوَةٍ عن إخوته:

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

أي: لا تحزن بما فعلوه معنا، فقد أحسنَ الله إلينا، وجمعَ بيننا.

وأوصاه أن يكتم الأمر عن إخوته.

ورسم ﷺ خطةً لإبقاء شقيقه عنده، وشرعَ في تنفيذها.

- **الاتهام بالسرقة:**

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ﴾ أي: في وعاءِ شقيقه.

والسِّقايةُ: الإناءُ الذي يشرب به الملك، جُعلت كيلاً يُكال به الطعامُ.

ولمَّا افتقدها الجنودُ وقف أحدهم ينادي:

﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ﴾ يا أصحابَ العيرِ، وهي الإبل التي عليها الأحمال.

وفوجِئَ إخوةُ يوسفَ بهذا الاتهامِ، فاهتمُّوا له وانزعجوا منه:

﴿قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾﴾.

﴿قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم﴾ أي: قال إخوةُ يوسفَ وهو مقبلون على الجنود: ﴿مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾؟.

﴿قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ﴾ سقايته التي يشربُ بها، وكانت تشبه الكأس.

﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ من الطعام جائزةً له.

﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾ كفيلٌ ضامنٌ أؤدِّيه إليه، وهي من كلام المنادي.

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ٧٣﴾.

﴿قَالُواْ﴾ أي: إخوة يوسف.

﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بالسرقة، أي: واللهِ ما جئنا لنشرِ الفسادِ في الأرض بالسرقةِ، فهي من أعظمِ أنواعِ الفسادِ في الأرض، وتؤدِّي إلى إشاعةِ الخوفِ والاضطراب في المجتمع، ولهذا شرعَ الإسلامُ قطعَ يدِ السارقِ حَسْماً لهذا الفساد، ودفعاً له.

﴿وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾ وكذبوا في دعواهم هذه، لأنَّهم احتالوا على أبيهم، فنزعوا يوسفَ منه، وألقوه في الجب، كما مرّ معنا في الآيات (١١ ـ ١٨).

﴿قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ٧٤﴾.

﴿قَالُواْ﴾ أي: الجنود.

﴿فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ﴾؟.

﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ٧٥﴾.

﴿قَالُواْ﴾ أي: إخوةُ يوسف.

﴿جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ﴾ بأن يُسْترقَّ ويصبحَ عبداً للمسروق منه. وكان هذا جزاء السارقِ في شريعة يعقوب عليه السلام، ولهذا قالوا:

﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: هذا جزاء السارقين في شريعتنا.

ولما شرع المفتِّش بالبحث عن المسروق في الأوعية:

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦)﴾.

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ أي: شقيق يوسف.

وقد يقول قائل: هذا الكيدُ والاحتيالُ لا يليقُ بحالِ يوسفَ عليه السلام؟.

وأقول: لقد فعل يوسفُ ما فعلَ بأمر الله تعالى ووحيه، ولهذا قال سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ أي: أوحينا إليه وعلَّمناه إياه[1].

﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ أي: ما كان يستطيعُ أن يأخذَ أخاه في شرع ملك مصر، لأنَّ شرعه معاقبة السارق بغير استرقاقه.

﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ فما أخذه إلا بمشيئة الله تعالى وإذنه، فالأمر منوطٌ بمشيئته سبحانه.

﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ﴾ بالعلم الذي نوحيه إليه، ونخصه به، كيوسف عليه السلام، فقد أعزَّه الله تعالى، ورفعَ مقامه بالعلوم التي علَّمه سبحانه إياها، في الدين والعبادة وتعبير الرؤيا والزراعة والادِّخار والتوزيع، قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١].

﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ أي: وفوق كلِّ ذي علم من الخلق عليم؛ وهو الخالق العظيم، الذي وسِع علمُه كلَّ شيء.

فعلى العالِم ألَّا يغترَّ بعلمه، ويتواضع للناس، ويسخِّرَ علمَه لفائدتهم، كما فعل يوسف عليه السلام، وعليه أيضاً أن يسعى دائماً في طلب العلم، والاستزادة منه، قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

---

(١) تفسير البيضاوي وتفسير النسفي: ٣/ ٤٣٧.

وما فعله يوسف عليه السلام يدلُّ على جواز الاحتيال لإحقاق الحق وإزهاق الباطل، قال ﷺ: «**إنَّ الحَرْبَ خَدْعَةٌ**» [رواه البخاري (٣٠٣٠)].

وقال أيضاً لنُعيم بن مسعودٍ الغَطَفانيِّ عندما جاءه مُسْلِماً في أثناء غزوة الخندق: «**إنَّما أنتَ فينا رجلٌ واحدٌ، فخذِّل عنَّا إن استطعتَ، فإنَّ الحَرْبَ خَدْعَةٌ**»[1] .

وكان ﷺ حينئذ محصوراً مع أصحابه في المدينة المنورة، من قِبَل القبائل المشركة المتحزِّبة على المسلمين، وقد انضمَّ إليهم يهودُ بني قريظةَ بعد أن نقضوا عهدهم مع النبيِّ ﷺ، واحتال نُعيمُ بنُ مسعودٍ رضي الله عنه على الأحزاب ومن كان معهم من اليهود حتى تمكَّن من إشاعةِ الفرقةِ بينهم، وتوهينِ صفهم وفشلهم.

واحتال أيضاً بعضُ الصحابة على كعب بن الأشرف أحدِ كبارِ يهودِ المدينة، حتى أنزلوه من حِصْنه وقتلوه، وكَفُّوا أذاه وشرَّه عن المسلمين.

- **الحقد القديم:**

وبدل أن يسعى إخوةُ يوسفَ لإثبات براءة أخيهم:

﴿قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ٧٧﴾.

﴿قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾ أي: لا عجب أن يسرق، فقد سرقَ أخٌ له من قبل، وأرادوا يوسفَ عليه السلام.

وبهذا ثبَّتوا التهمة على أخيهم؛ فما أغباهم! وما أشدَّ حقدَهم على يوسف عليه السلام! فلا زالتْ قلوبُهم بعد كلِّ هذه السنين تحقدُ على يوسف حتى اتهموه وافتروا عليه.

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ١٣٧.

وغضب عليه السلام عندما سمعَ إخوته يتهمونه بالسرقة ويفترون عليه، وحُقَّ له أن يغضب، ولو لم يكن نبيّاً كريماً رحيماً لبطشَ بهم، ولكنَّه كظمَ غيظه وأخفى انفعاله:

﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ ولم يظهر الكلمة التي حاكت في نفسه، وهي:

﴿قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ أي: أنتم شرٌّ منزلةً عند الله، والله أعلم بحقيقة ما تقولون.

وبعد أن اتهموه وافتروا عليه أخذوا يَتَمَسْكنون له، ويتذللون ضارعين مستعطفين، إنَّها صفاتُ خلفهم من اليهود لم تتغيَّر مع مرور الزمان:

﴿قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٧٨﴾.

﴿قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ في السنِّ والقدر.

﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

ورفض عليه السلام استعطافهم ورجاءَهم، وسَفَّه اقتراحهم، فهو أمرٌ يخالِفُ دين الله تعالى وشرعه، فلا يجوزُ ترك الجاني، وأخذُ البريء:

﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَـٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَـٰلِمُونَ ۝٧٩﴾.

﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَـٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ ولم يقل: مَنْ سَرَقَنا، ليكون كلامه موافقاً للحقيقة.

﴿إِنَّآ إِذًا لَّظَـٰلِمُونَ﴾ لأننا نخالِفُ الحكمَ الذي صدر عنكم عندما قلتم: ﴿جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [يوسف: ٧٥].

والجديرُ بالذكر هنا: أنَّ الإسلامَ حرَّم الشفاعةَ لمنع إقامة حدٍّ من حدود الله تعالى، كحد السرقة وحد الزنى بعد رفعه إلى الحاكم، فعندما كلَّم **أسامةُ بن زيدٍ** رضي الله عنهما رسولَ اللهِ ﷺ في شأنِ المرأةِ المخزوميَّةِ التي سرقتْ، قال رسول الله ﷺ:

«يا أسامةُ أتشفَعُ في حدٍّ من حدود اللهِ؟!» ثم قام فاختطبَ، فقال: «**إنَّما هَلَكَ الذين مِنْ قبلِكُم أنّهم كانوا إذا سَرَقَ فيهم الشريفُ تركوه، وإذا سَرَقَ فيهم الضعيفُ أقاموا عليه الحَدَّ، وايمُ اللهِ لو أنَّ فاطمةَ بنتَ محمَّدٍ سرقتْ لقطعتُ يدَها**» [رواه البخاري (٦٧٨٨) ومسلم (١٦٨٨)].

وحرَّم أيضاً معاقبةَ غير الجاني في العقوبات البدنية كالجلد والسَّجْن والقصاص، قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ الآية [الإسراء: ١٦].

- **تأنيب الضمير:**

﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾﴾.

﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا﴾ فلما يئسوا من إجابة يوسف لمطلبهم، اعتزلوا وخَلَوا إلى بعضهم يتحادثون سرّاً ويتشاورون، فكأنهم يريدون الاعترافَ بأمرٍ يخفونه.

﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وهو الذي سبق ذكره في قوله تعالى: ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ [يوسف: ٦٦].

﴿وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ﴾ أي: وتعلمون أيضاً تقصيركم في حقِّ يوسف، وما فعلتموه به.

﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ﴾ فلن أرجعَ معكم وأغادرَ أرضَ مصر.

﴿حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ﴾ في العودة.

﴿أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى﴾ بما قضاه وقدَّر عليَّ.

﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ لا يُردُّ قضاؤه، ولا معقِّب على حكمه.

وهكذا استيقظَ ضميرُ أحدِهم بعدَ كلِّ هذه السنين والأحداث، واعترفَ

بجريمتهم في حقِّ يوسف وأبيه، فهو لا يستطيعُ مواجهةَ أبيه بعد أن استيقظَ ضميرُه، ورأى بشاعةَ الجريمةِ التي اشترك فيها مع إخوته.

واحد من عشرة فقط استيقظ ضميرُه بعد أكثر من عشرين سنة، وهو يرى أباه في لوعته وحزنه وألمه، أين كان ضميره في خلال هذه السنوات الطويلة؟! لماذا لم يهتزَّ ضميرُه عندما امتدت أيديهم إلى يوسف وألقته في الجب، وهو يسمع صراخه وتوسله؟!.

أكثر من ستين سنة مرَّت على مأساة فلسطين، ولا يزال الفلسطينيون المشرَّدون عن بيوتهم يعيشون تحت الخيام، تلاحِقُهم نيران الصواريخ والطائرات والمذابح، وضمير اليهود لم يستيقظ بعد، فمتى؟!.

وتابع كبيرهم كلامه قائلاً:

﴿ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَـٰفِظِينَ ﴿٨١﴾﴾.

﴿ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ﴾ ابنك السارق، ولا علاقةَ لنا به، لم يقولوا: (إنَّ أخانا سرق) مما يدلُّ على وقاحتهم، وسوء أدبهم مع أبيهم.

﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ وهو غيرُ صحيح، فشهادتهم قائمة على الظنِّ لا على العلمِ، لأنَّ وجودَ الصُّواع في رَحْله لا يدلُّ دلالة قطعيةً على أنه السارق، فمن جعلَ بضاعتهم في رحالهم في المَرة الأولى، يستطيعُ أن يضع الصُّواع في رَحْل أخيهم.

﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَـٰفِظِينَ﴾ أي: ما كنَّا نعلم ـ حين أعطيناك الميثاق ـ بالمستقبل الغائب عنا.

ولما كانوا يعلمون أنَّ أباهم لا يثقُ بهم بسبب ما رآه من كذبهم عندما جاؤوه عشاءً يبكون، وأخبروه بأنَّ الذئبَ قد أكل يوسف، طلبوا منه أن يتحقَّق بنفسه من صدقهم، فقالوا:

﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا﴾ أي: اسأل أهل البلد التي كنَّا فيها.

﴿وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ﴾ وأصحاب القافلة التي رجعنا معها.

﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾.

والكذاب لا يُصَدَّق ولو كان صادقاً، ولهذا لم يصدقهم عليه السلام، وقال لهم مثل ما قال لهم عندما جاؤوه عشاءً يبكون:

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾.

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ﴾. ثمَّ أضاف قائلاً:

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ﴾ فكأن ما حَدَث قوَّى رجاءه بقرب اللقاء.

واشتدادُ المحنة يؤذن بقرب انفراجها، إنه الأمل بالله تعالى:

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

- **دموع يعقوب عليه السلام:**

أعرض عليه السلام عن أولادِه، وانصرفَ إلى آلامه وأحزانه:

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾.

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ أظهر أسفه وحزنه على فراق يوسف رغم قِدَم العهد به، ولم يظهرْ أسفَه على فراق ولديه الآخرين مع أنه حديثُ عهد بفراقهما، ولعلّ السبب أنه يعرف مكانَهما وما حدَث لهما، أمَّا يوسف فلا يعلم مكانه وما حَدَثَ له.

﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾ والبكاء الطويل، فإنَّ الحزن المديد والبكاء الكثير يضعفُ البصر، وقد يذهبه مع طول السنين.

﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ممتلئٌ غيظاً وحزناً.

وشدَّةُ حزنه تدلُّ على قوة مشاعر الأبوة في قلبه، وهي مشاعر إنسانية رفيعة تفيض بها قلوب الكُمَّل من الناس، وكلَّما ازداد الإنسانُ إيماناً بالله سبحانه، كانت عواطف الأبوة أقوى في قلبه، وأنصع في نفسه، فالإيمان بالله يكمِّل إنسانيةَ الإنسان، ويفجِّرُ فيها ينابيعَ الخير والإحسان والحنان.

ولهذا نرى الكفَّارَ يغلبُ عليهم ضعفُ المشاعر الإنسانية، ولا عجب أن نراهم يقطعون أرحامهم، ويتخلَّون عن أبنائهم من أجل ملذاتهم الجسدية، وقد أصبحت قطيعةُ الرحم، وانحلالُ الأسرة أعظمَ السِّمات البارزة في حياتهم الاجتماعية[١].

والأنبياءُ عليهم السلام أكمل الناس إيماناً، فهم أكملهم وأصدقهم في مشاعرهم الإنسانية عامةً، ومشاعر الأبوة خاصة، وكان حزنُ يعقوب عليه السلام أثراً من آثار مشاعر الأبوة الكريمة من قلبه.

والحزنُ الشديدُ غيرُ محظورٍ، لأنه من أعمال القلب، ولا سلطان للإنسان على قلبه، إنَّما المحظورُ والمنهيُّ عنه لطم الخدود، وشقُّ الجيوب، والنِّياحةُ كما كان أهل الجاهلية يفعلون.

قال رسولُ اللهِ ﷺ عندما ماتَ ولدُه إبراهيمُ: «**تدمَعُ العينُ، ويحزَنُ القلبُ، ولا نقولُ إلا ما يُرضِي ربَّنا، واللهِ يا إبراهيمُ إنا بكَ لمحزونونَ**» ولـمَّا رأى عبدُ الرحمن بن عوف دموعَ رسول الله ﷺ قال له: وأنتَ يا رسولَ اللهِ؟! قال: «**يا ابنَ عوفٍ إنَّها رحمةٌ**» [رواه البخاري (١٣٠٣) ومسلم (٢٣١٥)].

ودمعت عيناه ﷺ عندما رُفِعَ له ولدٌ لإحدى بناته وهو يموتُ، وقال: «**هذه رحمةٌ جعلَها في قلوبِ عبادِهِ، وإنَّما يرحمُ اللهُ من عبادِهِ الرحماءَ**» [رواه البخاري (١٢٨٤)].

وأقبل إخوةُ يوسف على أبيهم يلومونه بدلَ أن يواسوه:

---

(١) انظر كتاب المؤلف: الأنساب والأولاد، ص٤١، وهو من مطبوعات دار القلم بدمشق.

﴿قَالُواْ تَاللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

أي: واللهِ لا تزالُ تذكرُ يوسفَ حتى تدنو من الموتِ أو تموتَ حقيقةً.

وتدل كلماتهم على أنهم لا يزالون على حقدهم وحسدهم ليوسف، وغَيْرَتهم منه، فلم يخلُ لهم وجهُ أبيهم بإبعادِ يوسف عنه، كما كانوا يؤمِّلون، بل ازدادَ عليه السلام تعلُّقاً به وشوقاً إليه، وظلَّ طوال هذه السنين يأمل بلقائه.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: أشكو همِّي ـ الذي لا أستطيعُ حبسه في قلبي ـ وحزني إلى الله تعالى، فدعوني مع ربي أبثُّه همِّي، وأرفعُ إليه حزني.

والبثُّ: أصعبُ الهمِّ الذي لا يصبرُ عليه صاحبه، فيبثُّه إلى غيره[1].

﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: أعلم من رحمة الله وإحسانه ما لا تعلمون، فسيأتيني بالفرج من حيث لا أحتسب. فقد كان عليه السلام يعلم أن يوسفَ لا يزالُ حيّاً، ويتوقع لقاءه؛ لأنَّ رؤيا ولده يوسف كانت رؤيا صادقةً، وقد عبرها نبيُّ الله يعقوب بعين النبوة التي لا تخطئ أبداً.

ثم أمرَ أولادهَ أن يعودوا مرةً ثالثةً إلى مصر للبحث عن يوسف وأخيه، وكأنَّه كان يتوقع وجودَ يوسف في مصر، ويرى أنَّ ما حدث لأخيه له علاقة بيوسف:

﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ أي: تعرَّفوا أخبارَ يوسف وأخيه بحواسِّكم في صبر ومن غير يأس:

﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾ أي: من رحمة الله تعالى، ففيها الاسترواحُ من

---

(١) تفسير النسفي: ٣/ ٤٤٦.

الكربِ الخانقِ، لما ينسم على الأرواح من رَوح الله اللطيف الرحيم.

﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ فلا يأسَ مع الإيمانِ مهما اشتدَّ الكرب والضيق، وإنَّ المؤمنَ لفي روحٍ من ظلالِ إيمانه، وفي أُنسٍ من صلته بربه، وفي طمأنينةٍ من ثقته بمولاه، وهو في مضايق الشدَّةِ ومخانقِ الكروب[(١)].

• **كشف الحقيقة:**

لم يستجبْ إخوةُ يوسف لطلب أبيهم، وانتظروا حتى نَفَقَت ميرتُهم، واشتدَّت حاجتُهم، فيمموا وجوهَهم شطرَ مصر يمتارون، وقد عضَّتهم السنون، وأتَتْ على كُلِّ ما عندَهم، ولم يجدوا ثمناً لميرتهم سوى نقودٍ زيوفٍ كاسدةٍ.

ودخلوا على يوسف يشكون إليه فاقتهم، يرجون إحسانه وفضله:

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾﴾.

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ﴾ أي: ببضاعة مدفوعة غير مقبولة.

﴿فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ﴾ فأتمَّ لنا كيل الميرة.

﴿وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ﴾ بقبول بضاعتنا الكاسدة، ولا تَنْقص كيلنا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ﴾ أحسن الجزاء وأكمَلَه.

ويلاحظ أنهم أعرضوا عن وصية أبيهم، فلم يذكروا كلمةً واحدةً بشأن أخيهم؛ بل ركَّزوا اهتمامهم على طلب المساعدة المادية، فكأنَّها في نظرهم أولى من أخيهم ومن وصية أبيهم، فالمطالبُ المادية هي المحور الأساس في حياتهم.

ولما رأى ﷺ ذِلَّتهم وانكسَارَهم رقَّ لحالهم، فكشفَ لهم حقيقته، وأظهرَ أمرَه بعد أن ذكَّرهم بجريمتهم المنكرة، وما أظهر ﷺ لهم أمرَه حتى أَذِنَ الله تعالى له في ذلك.

---

(١) في ظلال القرآن: ٤/ ٢٠٢٦.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «والظاهر ـ والله أعلم ـ أنَّ يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ إنما تعرَّف إليهم بنفسه بإذن الله تعالى له في ذلك، كما أنَّه إنَّما أخفى منهم نفسه في المرَّتين الأوليين بأمر الله تعالى له في ذلك»(١).

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ (٨٩)﴾.

أي: عندما كنتم متلبِّسين بحالِ الجاهلين، أصحاب السفاهة والحماقة والطيش، فالمراد من الجهل هنا السَّفَه والحمق والطَّيْشِ، كما في قوله الشاعر:

أَلا لا يَجْهَلَنْ أَحَدٌ علينا فَنَجْهَلَ فوقَ جَهْلِ الجَاهِلِيْنَا

وكأنه عَلَيْهِ السَّلَامُ ذكَّرهم بحالهم القبيحة التي كانوا عليها؛ ليبادروا إلى التوبة والاستغفار، وتصفية أنفسهم وتطهيرها، وما أراد عَلَيْهِ السَّلَامُ الانتقام والتشفِّي، فالأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لا يحقدون على أحد، ولا يقابلون الإساءة بمثلها، إنَّما يقابلون الإساءة بالإحسان، ويدفعون السيئة بالحسنة، كما قال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

وتحقَّق بهذا ما أوحى الله تعالى به إلى يوسف عندما جعلوه في غيابة الجب: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٥].

وفاجأتهم الحقيقة وأدهشتهم، فما كانوا يتوقعون أن يؤول أمر يوسف إلى كل هذا العزِّ والسلطان والتمكين، حتى يصبحَ عزيزَ مصر، ويأتي إليه إخوته الذين ألقوه في الجب يطلبون فضله وإحسانه، وكأنَّهم لم يصدِّقوا ما سمعوا، فسألوه:

﴿قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي ۖ قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ۖ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠)﴾.

﴿قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ أحقّاً أنتَ يوسفُ، يوسف حاكم مصر، ومن بيده مفاتيح خزائنها وخيراتها؟!.

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٢/ ٢٦٠.

فأجابهم عليه السلام مؤكِّداً لهم الحقيقة:

﴿قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى﴾ الشقيق.

﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ﴾ بفضله ورحمته، فلا تعجبوا.

﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

فالتقوى والصبر سلاحُ المؤمن وعدَّته في كل أحواله وتقلباته؛ وخاصة في أوقات المصائب والمحن، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق].

وقال أيضاً: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ۝١٢٧ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل].

• بين موقفين:

وأقرَّ إخوة يوسف بفضل يوسف عليهم، وعَرَفوا أنَّ الله تعالى فضَّله عليهم، واعترفوا أنهم كانوا مخطئين بحسدهم له وبغيهم عليه:

﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ۝٩١﴾.

﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ أي: واللهِ لقد فضَّلك الله علينا.

﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ قالوا ذلك معترفين له بالفضل والأثَرةِ عليهم في الخَلْق والخُلُق، والسعة والملك، وأقرُّوا له بأنَّهم أساؤوا إليه، وأخطؤوا في حقه[1].

فأجابهم عليه السلام بقلبه الطاهر النقي:

﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٩٢﴾.

﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ أي: لا عتبَ عليكم ولا لومَ اليوم، فلن أذكرَ

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٢/ ٢٦٠.

لكم منذ اليوم ذنباً، فالماضي قد مضى بما فيه، وقد مسحَ لقاءُ اليومِ شقَاءَ السنين الطويلة، وعَنَاء المحن الماضية الكثيرة.

ولم يكتفِ عليه السلام بهذا، بل توجَّه إلى الله تعالى يسأله المغفرةَ لهم والستر عليهم. ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

وبعد قرون كثيرة متوالية وقف خاتمُ النبيين والمرسلين سيدنا محمد ﷺ عند الكعبة المشرفة، بعدَ أن دخلَ مكةَ المكرمة فاتحاً، وقال يخاطِبُ أهل مكة: «**ما تقولون أنِّي فاعلٌ بكم؟**» قالوا: خيراً، أخٌ كريم وابنُ أخ كريم، فقال: «**أقولُ كما قالَ أخي يوسف: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ اذهبوا فأنتم الطلقاء**»[1].

ولا شك أنَّ يوسف عليه السلام وقفَ من إخوته موقفاً كريماً ونبيلاً، ولكنَّ موقف رسول الله ﷺ كان أكرمَ وأنبلَ؛ لأنَّ يوسفَ عليه السلام قال ذلك لإخوته، بينما النبي ﷺ قاله لقبيلته وعشيرته، وإخوةُ يوسف ألقوه في الجبِّ، وأبعدوه عن أبيه، بينما المشركون كذَّبوا رسولَ اللهِ ﷺ وآذوه، وعذَّبوا أصحابه، ومنعوه أن يبلِّغ دعوة الله تعالى، حتى خرجَ مهاجراً إلى المدينة المنورة، فحاربوه، وحاولوا قتله، وقتلوا كثيراً من أصحابه، ومثَّلوا بهم، وألَّبوا الأحزاب عليه، ثم بعد كل هذا عفا عنهم بعد أن تمكَّنَ منهم، فكان عفوه عليه الصلاة والسلام أكمل وأنبل.

- **الدواء والشفاء:**

ثم أمرهم عليه السلام أن يسرعوا بالبشرى إلى أبيه قائلاً:

﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَـٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

وعادت آياتُ السورةِ للمرة الثالثة إلى قميص يوسف، وهو في هذه المرة لا يحمِلُ دماً كذباً، ولا دليلَ براءته، وإنما حَمَل في هذه المرة الدواءَ والشفاءَ

(١) انظر: زاد المعاد: ٣/ ٤٠٨.

لعيني أبيه يعقوب اللتين ابْيضَّتا من الحُزنِ على فراقه، فما سرُّ هذا القميص؟ إنَّه قميص يوسف، يحمل أثراً من جسدِ نبيِّ الله يوسف ﷺ، جعل الله تعالى فيه الشفاءَ لِعَيْني يعقوبَ ﷺ، فالأمرُ معجزةٌ أكرمَ الله تعالى بها نَبِيَّيْن كريمَيْن، وهو سبحانه قادر على خلق الشفاء من دون دواء، وما الدواء إلا سبب للشفاء، أما المسبب الحقيقي فهو الله تعالى.

والأمر ليس خاصّاً بالأنبياء ﷺ، فكثيراً ما قرأنا وسمعنا أن الله تعالى منَّ بالشفاء على بعض المرضى بعد أن يئسَ الأطباءُ من شفائهم، ولقد ذكر الطبيب الفرنسي ألكسيس كاريل في كتابه «**الإنسان ذلك المجهول**» كثيراً من حوادثِ الشفاء من دون دواء، رآها بنفسِه أثناء ممارسته لمهنته؛ مما دفعه إلى تأليف كتابه هذا للردِّ على الماديين، الذين ينكرون الجانب الروحي لدى الإنسان.

ومن آخر ما قرأتُ في هذا الموضوع ما نشرته جريدة «المسلمون» في تحقيق صحفي عن حوادث شفاءٍ حدثت لمرضى بعد أن يئس الأطباء من شفائهم[١].

فالشفاءُ بيد الله تعالى يخلقه عند تعاطي أسبابه كتناول الدواء، ويخلقه أيضاً من دون أسباب بقدرته ومشيئته، فلا ينبغي لأحدٍ أن ييئسَ من رحمة الله تعالى، والإنسانُ ليس مادةً فقط، بل هو روحٌ ومادةٌ، والروح هي الجانب المهم في تكوينه، ومع ذلك فهو لا يعلم شيئاً عنها.

وقول يوسف ﷺ:

﴿ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَـٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا﴾ يدل على شدة ثقته بتحقُّق ما يقول؛ إنَّه على يقين أنَّ أباه سيشفى ويرجع بصيراً كما كان؛ لأنَّه يكلِّمهم بلسان النبي الذي لا ينطق عن الهوى، إنْ هو إلا وحي يوحى، والوحي لا يخطئ أبداً، لأنه من العليم الخبير سبحانه.

ونلاحظ كيف تأدب ﷺ مع أبيه بقوله:

---

(١) انظر: جريدة المسلمون، عدد (١٩٠)، تاريخ ١٨/ ٢/ ١٤٠٩هـ.

﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، ولم يقل: وأتوني بأبي، فأبوه نبيٌّ كريم لا يأتي إليه إلا إذا أذن الله تعالى له بذلك، كما سبق بيانه، ولهذا سكت عن أبيه مفوِّضاً أمر حضوره إلى مصر إلى ربه سبحانه.

• **ريح يوسف وآثار الأنبياء:**

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ (٩٤)﴾.

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾ أي: انفصلت عن البلد التي كانت فيها وغادرتها.

﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾ لمن كان حولَه من الأهل والأحفاد:

﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ أي: إني لأشمُّ رائحةَ يوسف، وعبَّر بكلمة **(أجدُ)** لتأكُّده منها، فرائحة يوسف موجودةٌ حقيقةً في حاسَّةِ شمِّه، وهو يحسُّ بها حقيقةً لا تخيُّلاً، كما هو حال العشاق المتيَّمين، كقول أحدهم:

وإنِّي لأَسْتَشْفِي بِكُلِّ غَمَامَةٍ ... يهبُّ بها مِنْ نحوِ أرضِكِ رِيحُ

وقول الآخر:

ألا يا نسيمَ الصُّبحِ مَا لكَ كُلَّما ... تَقَرَّبْتَ منَّا فاحَ نَشْرُك طَيِّبا

كأنَّ سُلَيْمَى نُبِّئَتْ بِسِقَامِنَا ... فَأَعْطَتْكَ رِيَّاهَا فَجِئْتَ طَبيبَا

ومثله في الشعر كثير، وكلُّه من المبالغات والتخيلات، لكنَّ قولَ يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ حقيقةٌ وجدها نبي كريم فأخبر عنها.

كيف وجدها؟ وكيف ميَّزها عن غيرها؟ وكيف تذكَّرها وقد مرَّ على مفارقته ليوسف أكثر من عشرين عاماً؟.

والجواب: إنَّها أمرٌ معجز، أوجدها الله تعالى بقدرته لنبيِّه الكريم يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، فهي معجزةٌ له وحده، ولهذا لم يجدها من كانوا معه، ولم يشعروا بها، وهو ما جعل يعقوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يستدرك قائلاً لهم:

﴿لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ أي: لولا أن تنسبوني إلى الفَنَدِ ـ وهو فسادُ العقلِ بسبب تقدُّم العمر ـ لصدَّقتموني.

ولقد حدث ما توقعه عليه السلام منهم:

﴿قَالُواْ تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾.

أي: والله إنك لا زلتَ متمسِّكاً بخطئك القديم، وهو توقع لقاء يوسف ورؤيته.

﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ﴾ حاملُ القميص.

﴿أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾ أي: رجع قويَّ البصر، كما كان قبل أن يضعف بصره بسبب طول حزنه.

فالأنبياءُ عليهم السلام أكملُ الناس خَلْقاً وخُلقاً، وهم معرَّضون كسائر البشر إلى إصابتهم بالمرض والضعف، ولكنَّهم لا يصابون بأمراضٍ منفِّرةٍ تنفِّر الناس عنهم، وضعفُ البصر والعمى لا يُعدُّ من الأمراض المنفِّرة.

أظهر الله تعالى في قميص يوسف معجزتين ليعقوب عليه السلام:

الأولى: عندما وجدَ ريح يوسف عندما فَصَلت العير من مصر.

والثانية: أنه رجع بصيراً عندما لامَسَ القميصُ وجهَه..

فأيُّ سرٍّ جعله الله تعالى في قميص يوسف؟!.

وهذا يفسِّر لنا شدَّةَ حرص الصحابة رضي الله عنهم على آثار النبي ﷺ، **فكانَ إذا ما توضَّأَ ابتدرُوْا وَضوءَه، وكادوا يقتتلونَ عليه، ولا يَبْصُقُ بصاقاً ولا يتنخَّمُ نُخَامةً إلا تلقَّوها بأكفِّهم، فدلَكُوا بها وجوهَهم وأجسادَهم، ولا تسقطُ منه شعرةٌ إلا ابتدرُوْهَا**. [رواه البخاري (٢٧٣١ ـ ٢٧٣٢)].

وقال أنس بن مالك رضي الله عنه: **لقد رأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ والحلَّاقُ يحلِقُه، وأطافَ به أصحابُه، فما يريدونَ أن تقعَ شعرةٌ إلا في يدِ رجلٍ**. [رواه مسلم (٢٣٢٥)].

وعندما نامَ رسولُ اللهِ ﷺ في دارِ أنسٍ، جاءتْ أمُّه بقارورةٍ تجمَعُ فيها عَرَقَهُ، فسألَها رسولُ اللهِ ﷺ عن ذلك، فقالت: **نجعلُه في طيبنا، وَهُوَ مِنْ أطيبِ الطِّيْبِ.** [رواه مسلم (٢٣٣٢)].

وفي روايةٍ أخرى قالت: **نرجو بركتَهُ لصبيانِنَا.** قال: «**أصبتِ**».

وكان ﷺ إذا صلَّى الغداةَ جاء خدمُ المدينة بآنيتهم فيها الماء، فما يُؤتى بإناءٍ إلا غمسَ يدَه فيها، فربَّما جاؤوه في الغداة الباردة فيغمس يده فيها. [رواه مسلم (٢٣٢٤)].

وعن **طَلْق بن علي** رضي الله عنه قال: خرجنا وفداً إلى رسولِ اللهِ ﷺ، فبايعناه وصلَّينا معه، وأخبرناه أنَّ بأرضِنَا بَيْعةً لنا، واستوهبناه من فَضْل طَهُوْرِهِ، فدعا بماءٍ، فتوضَّأ وتمضمضَ، ثم صبَّه لنا في إدَاوةٍ، وقال: «**إذا أتيتُم فاكسِرُوْا بَيْعتكم، وانضَحُوْا مكانَها هذا الماءَ، واتَّخذوها مَسْجِداً**» فقلنا: إنَّ البلدَ بعيدٌ، والحرَّ شديدٌ، والماءَ ينشفُ، فقال: «**مدُّوهُ مِنَ الماءِ، فإنَّه لا يزدادُ إلا طيباً**» فقدمنا بلدَنا، وكسَرْنا بَيْعتنا، ثم نضحنا مكانها، واتخذناها مسجداً، فنادَيْنا فيه بالأذانِ، قال: والراهبُ رجلٌ مِنْ طَيْءٍ، فلمَّا سمعَ الأذانَ قال: دعوةُ حقٍّ. ثم استقبلَ تَلْعَةً مِنْ تلاعِنا فَلَمْ نَرَهُ بَعْدَهُ. [أخرجه النسائي (٧٠١)].

والتلعة: مجرى الماء في أعلى الوادي، وما انهبط من الأرض؛ فهي من الأضداد، والجمع: تلاع.

- **تعارض وتناقض:**

وأول كلمة قالها يعقوب عليه السلام بعد أن ردَّ الله عليه بصره:

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فقد كان عليه السلام على علم من الله تعالى لا يخطئ، علَّمه الله تعالى إيَّاه بواسطة الوحي الذي ينزله على الأنبياء، فهو مصدرٌ كبيرٌ من أكبر مصادر الحقيقة والعلم، والإنسان لا يعرفُ كلَّ شيءٍ بواسطة حواسه الظاهرة المحدودة، وما يمكن أن يتعلَّمه بحواسه قليل جدّاً

بالنسبة لما يمكن أن يتعلَّمه ويتلقاه من الله تعالى، وهذا ما أكدتْ عليه آياتُ السورةِ، كما مرَّ معنا.

ولا بدَّ من التنبيه هنا إلى أنَّ بعض المتأخرين ممن كتبوا في تفسير سورة يوسف، حاول صرفَ معاني هذه الآيات الكريمة عن حقيقتها التي وُضِعَتْ لها إلى معانٍ مجازية، فما وُفِّق، وجانَبَ الصواب، ووقع في تناقض وتعارض واضحين[1].

فالأصل الذي ينبغي التزامه في التفسير أن تُحْمَلَ الكلمات القرآنية على معناها الحقيقي، ولا يجوز صرفها إلى معنى آخر مجازي إلا بوجود صارف من القرآن الكريم أو السنة النبوية الصحيحة.

فلا يجوزُ أن نفسِّرَ قميص يوسف بمكانته ووجاهته في السياسة والحكم، وكيف يستقيمُ لنا هذا المعنى والله يقول: ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَـٰذَا﴾؟! فما فائدةُ اسم الإشارة إذا لم يكن عليه السلام يُشيرُ به إلى قميصه الذي كان في يده، وسلَّمه لإخوته؟!.

وكيف يقول لهم: ﴿فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى﴾ إذا كان مراده المكانة والوجاهة التي كانت له في مصر؟! فهل المكانةُ والوجاهةُ من الأشياء المادية التي تلقى إلقاءً؟ أم تنقل نقلاً ويتحدث بها؟.

والأنبياء عليهم السلام لا يهتمون بالمراتب والسلطان، ولا يَحفلون بالوجاهة والمكانة، فيوسفُ لا يهتمُّ لها كل هذا الاهتمام حتى يكلِّف إخوته أن ينقلوا أخبارها إلى أبيه، ويعقوب عليه السلام نبيٌّ كريم أيضاً، لا يهتم بكل هذه الأمور الدنيوية حتى يفرحَ بها فرحاً يرد له بصره، وهل وَجَدَ يعقوبُ رائحة يوسف عليه السلام من خلال مكانته وسلطانه أم من قميصه؟! اللهمَّ إني أبرأ إليكَ من مثل هذا التخليط وسوء الفهم.

- **تأويل الرؤيا:**

وبادر إخوةُ يوسف يطلبون من أبيهم أن يسألَ الله تعالى المغفرة لهم معترفين بذنوبهم:

---

(١) انظر: مؤتمر تفسير سورة يوسف: ٢/ ١٢٦٥.

﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾﴾.

ولم يُجِبْهم عليه السلام إلى طلبهم مباشرة، بل أخَّره إلى وقت آخر، كأنَّه عليه السلام أراد أن يشعرهم بفداحة ذنبهم.

أو: أنَّه أخَّرَ الاستغفار إلى وقت تُرجى فيه الإجابة أكثر كوقت السَّحَر.

أو: لعلَّه عليه السلام أَخَّرَهُ حتى يلتقيَ بيوسف ويراه ويطمئن عليه، فما راءٍ كمن سمعا:

﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾.

وتدلُّ الآية على جواز طلب الاستغفار من أهل الصلاح والتقوى، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤].

وَرَحَل يعقوب وأبناؤه إلى مصر:

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾.

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ أي: ضمَّهُما عليه السلام إليه.

ويدل ظاهر الآية على أنَّ أمَّه كانت حيةً؛ خلافاً لما ذهب إليه أكثر المفسرين، فإنَّهم قالوا: ماتت أمُّه قبل أن تبدأ أحداث القصة، وتأثَّروا بذلك بما يُروى عن بني إسرائيل من أخبار، وهي أخبار لا ثقة بها، كما سيأتي، والأصل حمل الكلام على حقيقته، ولم تُذكر في القصة لأنه لم يكن لها دور في حوادثها.

﴿وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ أي: ادخلوا مصر دخولَ المستوطنين بها بلا خوفٍ من أحدٍ، فأنتم آمنون.

أو: لعلَّه عليه السلام خرجَ لاستقبالهم إلى حدود بلاد مصر، وقال لهم ذلك ثَمَّة.

وكرَّم عليه السلام والديه، وأجلسهما على السرير الذي كان يجلس عليه:

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾.

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ والظَّاهِرُ أنَّه سريرٌ مرتفعٌ عمَّا حوله، ولا يجوزُ للولد أن يجلسَ في مجلسٍ مرتفع عن مجلس والديه.

﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ﴾ أي: وانحنى والدا يوسف وإخوته ليوسف انحناء التواضع والتحية، وكان هذا جائزاً في شريعتهم، وهو محرَّمٌ في الإسلام.

﴿وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ﴾ وهي التي ذكرها سبحانه في أول السورة.

﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ﴾ صِدْقاً.

فهي رؤيا تنبُّئية صادقة، وقد علمَ يعقوبُ ﵇ صدقَها منذ سمعها من يوسف، ولهذا كان يقول: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فالرؤيا الصادقة وسيلةٌ من وسائل العلم تقرِّب للإنسان حقيقةَ الوحي الذي يتلقاه الأنبياءُ ﵈.

ثم تحدَّث ﵇ بنعم الله تعالى عليه بعد مفارقته لأبيه، فقال:

﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾، ولم يذكر ﵇ إحسان الله تعالى بتيسير إخراجه من الجُبِّ حتى لا يعرِّض بإخوته.

﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ أي: البادية التي كانوا يقيمون بها، والواقعة بأطراف بلاد الشام الجنوبية.

﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ﴾ أي: أفسدَ الشيطانُ ما بيني وبين إخوتي. ولا تَسَلُّطَ للشيطان على يوسف ﵇؛ لأنه نبيٌّ كريم، وإنَّما تسلَّط على إخوته كما مرَّ معنا، مما يؤكد أنهم لم يكونوا أنبياء.

﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ﴾ أي: إنه تعالى لطيفٌ في تدبيره، لما يريد، يلطف بعباده من حيث لا يعلمون، ويرفُق بهم.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بأحوالِ عباده.

﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في تدبير أمورِ خلقه.

- **أمنية يوسف:**

ثم توجَّه عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى الله تعالى بهذا الدعاء الخاشع الضارع:

﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾.

﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ قدَّم عَلَيْهِ السَّلَامُ بين يدي دعائه اعترافه بفضل الله تعالى عليه بما أعطاه من الملك والسلطان، وبما علَّمه من علوم تعبير الرؤيا.

﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: يا مبدعَ السموات والأرض وخالقَهما على غير مثال سبق.

﴿أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: أنت متولِّي أمري كلِّه في الدنيا والآخرة، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦].

وبعد هذا الثناء والتفويض رفع عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى ربِّ العزة سُؤْله:

﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ واشتمل على أمرين:

أولهما: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا﴾ أي: أمِتْني وأنا مستسلمٌ لأمرك ومشيئتك وحدك، وهي أمنية كل مؤمن بالله تعالى، أن يموت على الإسلام الكامل له جَلَّ جَلَالُهُ كما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

فالموت على الإسلام مطلبٌ عزيز ونفيسٌ وشريفٌ، حتى تشوَّفت إليه نفسُ الكريم ابنِ الكريم يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، إنَّه عَلَيْهِ السَّلَامُ يتَّهمُ نفسَه، ويخشى أن ينزلَ به الموتُ وهو في حال غفلةٍ عن ربه، وإذا كان هذا حالُ النبيِّ الكريم فما حالنا نحنُ؟! ولهذا كان النبيُّ ﷺ يكثر من القول تعليماً لنا: «**يا مقلِّبَ القلوبِ، ثبِّتْ قلبي على دينك**» [رواه مسلم (٢٦٥٤)].

وهو ما علَّمنا إياه ربُّنا بقوله الكريم: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

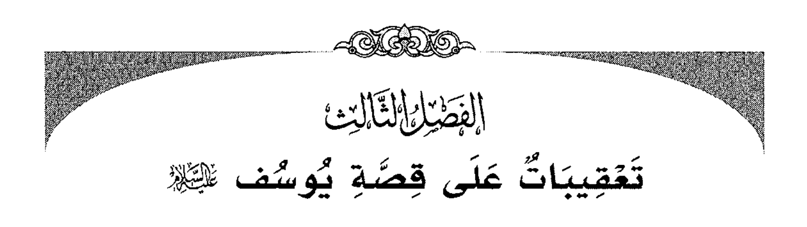
وثانيهما: ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ في الرفيق الأعلى مع الأنبياء والصدِّيقين والشهداء الذين ذكرهم تعالى في قوله: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

وهم الذين طلبَ النبيُّ ﷺ اللحاقَ بهم وهو يجودُ بأنفاسِهِ الأخيرة، قالت **عائشةُ** رضي الله عنها: فلمَّا نزلَ برسول الله ﷺ ورأسه على فخذي غُشِيَ عليه ساعةً، ثم أفاق، فأشخصَ بصره إلى السقف ثم قال: «**اللهمَّ الرفيقَ الأعلى**» فكانت تلك آخر كلمةٍ تكلَّمَ بها رسولُ اللهِ ﷺ. [رواه البخاري (٤٤٤٩)].

تلك هي أمنيةُ يوسف عليه السلام عزيز مصرَ، وصاحب سلطانها وخيراتها: الموتُ على الإسلامِ، واللحاقُ بقافلة الصالحين الأبرار، أصحاب الرفيق الأعلى.

أسألك ربِّي الوفاةَ على الإسلامِ واللحاقَ بالصالحينَ.





الفصل الثالث

تَعقيبَاتٌ عَلَى قِصَّةِ يُوسُف عليه السلام

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾.

- **التعقيب الأول:**

وبعد أن فَرَغت آياتُ السورة من قصة يوسف عليه السلام أوردت بعدها سبعة تعقيبات:

كان **أوَّلُها** في قوله تعالى وهو يخاطب النبيَّ ﷺ:

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي تقدَّم من قصة يوسف.

﴿مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ﴾ الغائب عنك، والذي لا تعرفه إلا بالوحي؛ ولهذا قال بعده:

﴿نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ﴾ أي: نُنَزِّله عليك بالوحي، وهو ما أرادتِ السورةُ أن تؤكده كحقيقة واقعة بآثاره المحسوسة الملموسة، وقصةُ يوسف وما فيها من أخبار الغيب من آثار الوحي المحسوسة الملموسة.

وقد جاء التعقيبُ الأول هذا متَّفقاً تمامَ الاتفاق مع ما قرره سبحانه في صدر السورة بقوله: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾﴾.

فلولا الوحيُ ما عَرف النبيُّ ﷺ القرآن الكريم، وما وقف على ما فيه من أخبار وأحداث ماضية غائبة عنه، فبين رسول الله ﷺ وبين الزمن الذي حدثت فيه حوادث قصة يوسف أكثر من ثلاثة وعشرين قرناً، وكان عليه الصلاة والسلام أميّاً لا يقرأ ولا يكتب، وعاش بين قوم أميين، يغلب عليهم الجهل، وبعيداً عن مواقع أحداث القصة؛ ولهذا قال تعالى له:

﴿وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ﴾ أي: لدى إخوة يوسف.

﴿إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ﴾ على إلقاء يوسف في الجب.

﴿وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ﴾ بيوسف عليه السلام.

اختار سبحانه ذكر هذا المشهد من مشاهد قصة يوسف؛ لأنه كان أخفى مشاهدها وحوادثها، فقد بالغَ إخوةُ يوسف عندما مكروا به في إخفائه، ورغم هذا أظهره العليم الحكيم، الذي يعلم السرَّ وأخفى، والذي يعلم كل غائبة في السموات والأرض، وأعلم به النبيَّ ﷺ بالوحي المنزل عليه بعد ألفين وثلاثمئة سنةٍ من زمنِ وقوعه؛ فهو كقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤].

وقوله أيضاً: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأۡنَا قُرُونٗا فَتَطَاوَلَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيٗا فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ تَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا وَلَٰكِن رَّحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص].



فالوحي إذاً مصدرٌ من مصادر المعرفة والعلم، وهو مصدرٌ يقيني لا يخطئُ أبداً، ولا مجالَ لإنكاره؛ لأنه يحمل في مضمونه مؤيِّداتِ صدقه، وشواهدَ وقوعه وصحَّته.

- **قصة يوسف بين القرآن والتوراة:**

وقد زعم بعض المستشرقين والمتأثرين بهم أنَّ النبيَّ ﷺ قد استقى هذه الأخبار من التوراة، وهذا الزعم باطل من وجوه كثيرة:

أولاً: **ليس ثمةَ دليلٌ** واحدٌ يثبتُ وقوعَه.

ثانياً: كان عليه الصلاة والسلام **أميّاً**، لا يقرأُ ولا يكتبُ.

ثالثاً: عاش عليه الصلاة والسلام **في مكةَ** بعيداً عن أهل الكتاب وعن مواقع القصة في مصر وفلسطين.

رابعاً: القصةُ **عبريةٌ** في أبطالها، وقد كانوا يتكلَّمون بعدة لغات: العبرية والآرامية والمصرية القديمة، بينما ذكرت القصة في القرآن الكريم باللغة العربية وبأعلى أساليبِ البلاغةِ والفصاحةِ عند العرب، كما قال سبحانه في أولها: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢].

خامساً: هناك فروق جوهريةٌ كبيرة بين ما ذكره **القرآن الكريم** عن حوادث القصة، وبين ما هو موجود في **التوراة**، ولو كان النبيُّ ﷺ اقتبسها من التوراة كما زعموا لما وجدت هذه الفروق، وفيما يلي بعضها:

١ ـ لم يذكر **القرآنُ** سوى رؤيا واحدة ليوسف، وهي رؤياه للشمس والقمر والكواكب، ولم يذكر أنَّه قصَّ رؤياه على إخوته، بينما تذكر **التوراة** له رؤيا ثانية سابقة على هذه الرؤيا، وهي أنَّه رأى نفسَه مع إخوته في الحقل، ومع كل واحد حزمة، وأنَّه رأى حزم إخوته سجدت لحزمته، وفيها أيضاً: أنه قصَّها عليهم، وقصَّ عليهم أيضاً رؤياه الثانية.

٢ ـ ذكرت **التوراة** أنَّ يعقوب انتهر ولده يوسف عندما قصَّ عليه رؤياه،

وقال له: هل نأتي أنا وأمك وإخوتك لنسجدَ لك إلى الأرض؟! بينما **القرآن** ذكر أنَّ يعقوبَ أثنى على ولدِهِ يوسف، وتنبأ له بمستقبل باهر.

٣ ـ ذكرتِ **التوراةُ** أنَّ يوسف ذهبَ مع إخوته إلى المرعى بأمر أبيه، بينما ذكر **القرآن** أن يعقوب عليه السلام كان يخشى على ولده من الذهاب مع إخوته، وأنه ما أرسله معهم إلا بعد طلبهم وإلحاحهم.

٤ ـ مرَّ معنا في **القرآن** أنهم جاؤوا أباهم عشاءً يبكون بعد أن جعلوا يوسف في الجبِّ، وهم يحملونَ القميصَ، بينما ذكرتِ **التوراةُ** أنهم أرسلوا القميصَ إلى أبيهم بواسطة رسول أرسلوه إليه.

٥ ـ ذكر **القرآن** أن يعقوب قال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]، وفي **التوراةِ** أنَّه مزَّق ثيابه، ولبس مَسْحاً وناحَ على ابنه أياماً كثيرة.

٦ ـ ذكر **القرآنُ** أنَّ وَارِدَ السيارة أخرجَ يوسف من الجب، وفي **التوراة** أنهم سحبوه منها وباعوه للقافلة.

٧ ـ لم تذكر **التوراةُ** وصيةَ عزيز مصر لزَوجته بيوسف ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ [يوسف: ٢١].

٨ ـ لم تذكر **التوراةُ** عند المراودةِ تغليقَ الأبواب، وذكرت أنَّ يوسفَ هرب وحدَه إلى الباب، وأنَّها لم تلحقْ بهِ، وأنها أمسكتْ ثوبه فتركه في يدها.

٩ ـ ذكرت **التوراةُ** أنَّ عزيزَ مصر حَميَ غضبُه عندما اتهمت زوجته يوسف، بينما **القرآن الكريم** ذكر ما يخالِفُ ذلك.

١٠ ـ لم تذكر **التوراةُ** شيئاً عن كلام النسوة وحادثة تقطيع الأيدي، كما أنَّها لم تذكر دعوة يوسف صاحبي سجنه إلى الإيمان بالله الواحد الأحد.

١١ ـ وصف **القرآن** حاكمَ مصر بالملك، بينما وصفته **التوراة** بفرعون.

١٢ ـ في **القرآن** أنَّ يوسفَ عبَّر رؤيا الملك للساقي وهو لا يزال في

السجن، بينما في **التوراة** أنَّ فرعون أرسلَ إليه وأخرجَه من السجن، ثم قصَّ عليه حلمه فعبره يوسف له.

١٣ ـ لم تذكر **التوراة** قول يوسف: ﴿ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥].

١٤ ـ ذكرت **التوراةُ** أنَّ إخوة يوسف سافروا إلى مصر مرَّتين، وأنَّه أظهرَ لهم أمره في المرة الثانية، بينما مرَّ معنا في **القرآن** أنهم سافروا إلى مصر ثلاث مرات، وأظهر لهم أمره في المرة الثالثة.

١٥ ـ صرَّح **القرآن** بأنَّ الذين سجدوا ليوسف هم أبواه وإخوته، بينما ذكرت التوراة أن الذين سجدوا ليوسف هم إخوته فقط بعد موت أبيهم(١).

• **التعقيب الثاني:**

ومع كلِّ هذه الحقائق التي أوردتها السورةُ، والتي تؤكِّدُ ظاهرةَ الوحي ووقوعها، ونزولَ القرآن الكريم على النبيِّ ﷺ بواسطة الوحي، مما يدلُّ على صحة نبوته وصدق رسالته، نرى كثيراً من الناس يعرضون عن هذه الحقائق وينكرونها ويجادلون فيها، ويثيرونَ الشبهات حولها، ولهذا جاء التعقيب الثاني على قصة يوسف في قوله تعالى:

﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾.

فمهما كنتَ حريصاً على إيمانهم وتصديقهم، فقرَّبتَ لهم الحقائق، وحشدتَ لهم البراهينَ القطعية، والحججَ البالغة، فإنَّ أكثرهم يبقى مُعْرِضاً عن الحق مُعَانِداً له.

وهي حقيقةٌ واقعةٌ ملموسةٌ ومشهودةٌ في كلِّ عصر من عهد النبي ﷺ وحتى يومنا هذا، فلا عَجَبَ بعدَ ذلك أن نرى في عصرنا المادي الحاضر أقواماً

---

(١) انظر: مؤتمر تفسير سورة يوسف: ١/ ١٢٢، عن الإصحاح السابع والثلاثين من سفر التكوين.

ينكرون ظاهرةَ الوحي، ويستبعدون حدوثها، بل ينكرونَ الجوانب الروحية في الإنسان، كما نرى أيضاً مَنْ ينكرُ نبوة النبيِّ ﷺ وصحة رسالته، زاعمينَ أنه اقتبس ما في القرآن الكريم من أخبار من كتب أهل الكتاب، وهم في قرارةِ أنفسهم يعلمونَ أنَّهم يكذبون، وما حملهم على هذه المزاعم الباطلة إلا التعصُّب الأعمى المذموم، وإنَّ قوله تعالى في هذا التعقيب: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ لدليل على أنه كلام العليم الخبير الذي وسع علمه كل شيء في كل زمان ومكان.

• **التعقيب الثالث:**

وجاء التعقيبُ الثالثُ على قصة يوسف ينزِّه النبيَّ ﷺ عن أي غرض مادي، فدعوتُه عليه الصلاة والسلام كدعوةِ جميع المرسلين قبله منزهة عن الأغراض الدنيوية المادية التي جعلَها المعاندونَ لدعوته هدفهم الكبير، الذي يَسْعَوْنَ وراءه في حياتهم، ويضحُّون مِنْ أجلِه بكلِّ حقيقة، قال تعالى يخاطب النبيَّ ﷺ:

﴿وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾.

وهذا دليلٌ يدلُّ على صدقه عليه الصلاة والسلام: لقد فتحَ الله عليه فتوحاً كبيرة، وجاءته أموالٌ كثيرة، وغَنِم غنائمَ عظيمة، وتوفي عليه الصلاة والسلام ودرعُه مرهونةٌ، وليس في بيته شيءٌ يأكله ذو كبدٍ حَرَّى، إلا شطرَ شعيرٍ على رفِّ حُجرة السيدة عائشة رضي الله عنها[(١)].

ولمَّا طلب منه أمهاتُ المؤمنين أن يوسِّعَ عليهنَّ في النفقة بعد أن فتحَ الله عليه، هجرهنَّ عليه الصلاة والسلام شهراً، واعتزلهنَّ حتى أنزل الله عليه قوله الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [الأحزاب].

---

(١) انظر: السيدة عائشة أم المؤمنين، للمؤلف، وهو من إصدارات دار القلم بدمشق.

فمن يفعل ذلك غير الأنبياء عليهم السلام؟! لمَّا ملك يوسف عليه السلام كنوزَ مصرَ وخيراتها، وأصبحَ الحاكمَ الحقيقي فيها، سأل الله تعالى أن يرحل عن الدنيا ليلحقَ بقافلة الصَّالحين في الرفيق الأعلى، وما سأل ذلك عندما كان مُمْتَحناً في الجب والسجن، بل سأل ذلك وهو متربِّع على سُدَّة الحكم في مصر وبيده مفاتيح خزائنها وخيراتها، وكذلك فعل نبينا ﷺ عندما شعر أنَّه بلَّغ دعوته، وأدى أمانته، وعلم أنها أصبحت في أيدٍ أمينة ستحملها بعده إلى أطراف الدنيا، اختار عليه الصلاة والسلام الرفيق الأعلى.

• **التعقيب الرابع:**

وما أكثر البراهين والبيِّنات في القرآن الكريم، وما أكثرها أيضاً في أنفسنا وفي الكون المحيط بنا، ومع ذلك فإنَّ كثيراً منَّا يعرضون عنها ولا ينتفعون بها؛ ولهذا قال تعالى في التعقيب الرابع:

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

أي: ما أكثر الدلائل التي يشاهدونها، ولا يتفكرون فيها، ولا ينتفعون بها.

وما أصدقَ هذه الآية الكريمة في أولئكَ العلماء الباحثين في المخابر والمراصد ومراكز البحث العلمي، وهو يشاهدونَ كثيراً من آثار قدرة الله تعالى وحكمته في هذا الكون، ومع ذلك تراهم لا يؤمنونَ بمبدعها وخالقها سبحانه!.

وقد يقول قائلٌ: كيف نقول: إنَّ أكثرَ الناس لا يؤمنون بالله تعالى ولا ينتفعون بما يشاهدون من آثار قدرته، وقد مرَّ معنا في آيات السورة ما يدل على إيمان أكثرهم بالله تعالى، فالنِّسوة اللاتي قطَّعن أيديهن قُلنَ: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾ [يوسف: ٣١] وهنَّ نساء الطبقة المترفة في مصر، وهذا يدلُّ على أنهنَّ كُنَّ يعرفن الله تعالى؟!.

وأقول: لقد ذكرتُ هذا في موضعه وبيَّنتُ وجهه، وقد زادته الآية التالية وضوحاً:

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾.

فهم يقرُّون بوجود الله تعالى ـ فما أنكرَ وجودَ الله تعالى إلا حَفنةٌ من الماديين والدهريين ـ ولكنَّهم مع إقرارهم بوجوده يشركون بعبادته وطاعته، وما أرسل الله تعالى الرسل ليقولوا للناس: آمنوا بوجود الله تعالى، فالإيمانُ بوجوده سبحانه فطرةٌ مركوزةٌ في فطر الناس، عرفتها كل الأمم والشعوب، وإنَّما أرسل الله تعالى الرسلَ ليقولوا للناس: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩] أي: اعبدوه وحده وأطيعوه وحده، ولا تعبدوا غيره من صنم أو وثن أو حاكم أو شيطان أو مَلك أو ولي أو نبي.

ومرَّ معنا قول يوسف لصاحبي سجنه: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف].

فتأمَّل الانسجام والاتفاق بين ما حكى الله من كلام يوسف ﷺ وبينَ ما جاء في التعقيب على القصة: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦].

ولابدَّ لأولئك المعرضين عن الأدلة والبراهين ذوي العقول المغلقة، والمشاعر الغليظة المتبلِّدة من أسلوب آخر يهزُّ مشاعرهم، لعلَّها تتفتحُ على الهدى وتقبَلُ الرشاد، وهو أسلوبُ الترهيبِ مما ينتظرهم من العذاب في الدنيا والآخرة:

﴿أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾﴾.

﴿أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ﴾ أي: نازلة ومصيبة تنزل بهم فجأة.

﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أو يأتيهم يومُ القيامةِ بأهواله وأفزاعه، وهم لا يشعرون بإتيانه وغير مستعدين له. فهو كقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ

ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل: ٤٥].

- **التعقيب الخامس:**

وجاء التعقيبُ الخامس يأمرُ النبيَّ ﷺ أن يبيِّن للناسِ حقيقةَ الطريق الذي يسير عليه في الدعوة إلى الله تعالى:

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾.

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ فالدعوةُ إلى الله تعالى بأسلوب عقلي علمي أساسُه الحجةُ والبرهانُ هي سبيلي الذي أسيرُ عليه، فالإيمانُ بالله يقومُ على الإقناع بالحجة والبرهان، لا بالإكراه بالسيف والسِّنان، ولا بواسطة التهويلات والشعوذات وإحاطة الإنسان بهالة من الافتراءات والأكاذيب.

دعوةُ الإسلام دعوةٌ واضحةٌ بيِّنة صريحةٌ، تستند إلى الحجج والبراهين والأدلة العقلية والنقلية، وهي دعوةٌ مفتوحة مستمرَّةٌ إلى قيام الساعة، فلا تنتهي وتموت بموت النبيِّ الخاتم ﷺ، بل هي مستمرةٌ بعدَه يحملها أصحابه وإخوانه المؤمنون برسالته.

﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ إلى يوم الدين.

وتصدير الآية بـ ﴿قُلْ﴾ يدلُّ على حقيقة **الوحي** الذي يقوم على تلقي النبي ﷺ من ربه ﷻ، وقد تكرر مثل هذا الاستهلال للآية كثيراً في القرآن، حتى بلغَ عددُ الآياتِ المصدَّرة بـ (**قل**) أكثر من ثلاثمئة آية، وكلُّ ذلك يؤكِّد تلقي النبيِّ ﷺ للقرآن الكريم من مصدرٍ خارجٍ عنه، منزَّه عن كل صفات النقص.

﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أي: وأنزِّهُ اللهَ وأجِلُّه وأعظِّمُه وأقدِّسُه عن أن يكون له

شريكٌ، أو نظيرٌ، أو عديلٌ، أو نديدٌ، أو ولدٌ، أو والدٌ، أو صاحبةٌ، أو وزيرٌ، أو مشيرٌ، تبارك وتقدَّسَ وتنزَّه عن ذلك كلِّه علوّاً كبيراً(١).

﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ لأنني بريءٌ منهم، ومن كل مظاهر شركهم وكفرهم.

ودعوته عليه الصلاة والسلام هذه ليست بِدْعاً بين دعوات الأنبياء قبله، بل هي مكمِّلة وخاتمة لها، وكما أوحى الله إليهم أوحى إليه:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾﴾.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ﴾ فالأنبياءُ رجال أوحى الله إليهم كما أوحى إلى النبي ﷺ، واختارهم من أهل المدن كما اختاره عليه الصلاة والسلام من مكة المكرمة أم المدن وأفضلها وأقدسها، فلماذا ينكرُ كثير من المستشرقين ظاهرةَ الوحي بالنسبة للنبيِّ ﷺ، بينما يُقِرُّون بها وبنزولها على موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء؟!.

ثم وَجَّهت الآيةُ الدعوة للمعارضين والمعاندين إلى الاعتبار بآثار الأمم المكذبة المعارضة:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ﴾ أي: فيعتبروا بآثارهم التي ما زالت باقية بعدهم، فهي كقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

فآثارهم تدل على أن الله تعالى أهلكهم ونجَّى رسُلَه والمؤمنين كما جاء في قوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٣]؛ فالعاقبةُ الطيبة لهم في الدنيا والآخرة، كما مرَّ معنا بالنسبة ليوسف عليه السلام:

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٢/ ٢٦٥.

﴿وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

- **التعقيب السادس:**

ومهما اشتدَّت المحنُ، وطالَ عليها الزمنُ، فلا بدَّ أن يأتيَ الله تعالى بعدها بالفرج، فكلُّ آتٍ قريب، والصبحُ غيرُ بعيدٍ، لقد امتدت محنةُ يوسف عليه السلام أكثرَ من عشرين سنة، ثم جعل الله العاقبةَ الحميدةَ الطيبةَ له، فلا يأسَ مِنْ رحمةِ الله تعالى ولا قنوط، فالنصرُ قد يتأخَّرُ، والفرج قد يتراخى، والأمرُ منوطٌ بمشيئته تعالى وقدرته، والله سبحانه لا يعجل لعجلة عباده:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ﴾ أي: استيأس الرسل من إيمان قومهم، وأيقنوا أنهم كذَّبوهم، وأنّهم لن يصدِّقوهم، فالظن هنا بمعنى اليقين كما مرَّ معنا في قوله: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا﴾ [يوسف: ٤٢].

فقد لبثَ نبيُّ الله نوح عليه السلام يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ثم بعد أن يئسَ من إيمان قومه دعا عليهم قائلاً: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح].

فعندما تشتدُّ المحنةُ يأتي الفرج من الله تعالى، والمؤمنون في أشد حالات الافتقار إلى رحمته سبحانه ونصره، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

﴿جَآءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ فجأة على غير انتظار.

﴿فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ﴾ نجاته، وهم النبي ﷺ والمؤمنون معه.

﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: ولا يُردُّ عذاب الله إذا نزل عن القوم المجرمين.

- **التعقيب السابع:**

ثم ختم الله تعالى آياتِ السورةِ بقوله الكريم:

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ﴾ فما ذكرتِ القصةُ إلَّا لِمَا فيها من العبر والعظات، يدركُها وينتفعُ بها أصحابُ العقول الذين يستعملون عقولهم ولا يعطلونها، ففي الآية دعوةٌ لأصحاب العقول كي يستعملوا عقولهم، ويتدبَّروا آيات القرآن الكريم، ليجدوا الأدلة القاطعة على صدق النبي ﷺ، وصحة رسالته.

وقد صدَّر الله تعالى سورة يوسف بهذه الدعوة: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾﴾، وجاءت مرةً ثانية في ختامها لتدل على أهمية استعمال الإنسان لعقله بشكل علمي وموضوعي، ومجرَّد عن التعصُّب والهوى، فلا ينبغي المسارعةُ إلى إنكار الحقائق بحجة أنها أمور غيبية لا تدركها حواس الإنسان، فوقائع قصة يوسف حقائق واقعية تاريخية، وليستْ خيالاتٍ وظنوناً وأوهاماً.

﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ يُخْتَلق.

﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب المنزلة.

﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يحتاج إليه في الدين والعقيدة.

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾؛ فالإيمان هو الشرط الأساس الأول للانتفاع بآياتِ التنزيلِ الحكيم، وما فيها من حِكَم وأحكامٍ وعبَر ومواعظ.

أسأله سبحانه أن يثبِّتنا على الإيمان، وأن يجعلَ لنا من كلِّ همٍّ فرجاً، ومن كل ضيقٍ مخرجاً، إنَّه هو السميع العليم، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه والتابعين.

❁ ❁ ❁



تفسير سورة الرعد

الأَسْبَابُ والـمُسَبَّبَاتُ فِي سُورَةِ الرَّعْد

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المُقَدِّمَةُ

موضوع السورة

الحمد لله ربِّ العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم، على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فقد اهتمت سورةُ الرعدِ بموضوعٍ من أخطر الموضوعات في الاعتقاد، زاغتْ بسببه عقائدُ كثيرٍ من الناس عن الصراط المستقيم، وهو موضوعُ الأسبابِ، وارتباطها بالمسببات.

مهَّدت الآياتُ في السورة لبيان الاعتقاد الحق ببيان كمال قدرة الله تعالى وعلمه وتمام مشيئته، ونفاذها في جميع المكونات، من السماوات التي رُفعتْ بقدرته تعالى بغير عَمَد، إلى الشمس والقمر المسخَّرينِ بقدرته ومشيئته، إلى الأرض الممدودة وما فيها من جبال وأنهار، إلى الثمرات وما فيها من اختلاف في الخصائص والصفات، فهو سبحانه الذي يدبِّر الأمرَ ويفصِّل الآيات، فلا خالقَ سواه، ولا مدبِّرَ غيره، وعلمه تعالى وسعَ كلَّ شيء، يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد، فلا يتحرك في الكون كلِّه متحرِّك؛ ولا يسكن

ساكنٌ؛ إلا بعلمه وقدرته ومشيئته ﷻ، فهو الذي يُرِينا البرقَ خوفاً وطمعاً، وهو أيضاً الذي يُنْشِئُ السحابَ الثقال.

وليست الأسباب إلا نواميس أبدعها الله سبحانه بحكمته، تجري الظواهرُ الكونيةُ عليها بمشيئته وقدرته، فلا تأثيرَ لها إلا إذا وافقت قَدَره تعالى وتدبيره، فله وحدَه الخَلْقُ والتدبير، والتأثير والتخصيص، والجميع خاضعونَ لمشيئته، وتحتَ قهر قدرته، والأسباب الظاهرة والخفية لا تخلقُ ولا تؤثر، ومشيئته جلَّ وعلا دائماً النافذة الغالبة: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١].

وللإنسان كسبٌ واختيارٌ، وكسبه واختياره ليس سوى أسباب لما قدره الله تعالى عليه بسابق علمه ومشيئته، ومع ذلك لا ينبغي للإنسان أن يتكلَ على ما سبقَ به علمُه تعالى، فهو غيبٌ عن الإنسان، بل عليه أن يحرِصَ على التمسك بما كُلِّفَ به من أمر الله تعالى التشريعي، وفي الوقت نفسه يرضى بأمره القدري، أولئك هم المستجيبون لدعوته، الراضون بشريعته، المطمئنون بذكره، لهم بسبب تحصيلهم لهذه الأسباب النتائج الطيبة والعواقب الحميدة، لهم حسن المآب وعقبى الدار.

أسأله تعالى أن يجعلنا منهم، ويثبتنا على الحق، ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

❁ ❁ ❁

تفسير سورة الرعد

الأسْبَابُ والـمُسَبَّبَاتُ في سُورَةِ الرَّعْد

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَاۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ

﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ ﴿١٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ

كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ (٣١) وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٣٢) أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ (٣٣) لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ (٣٤) ۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ٱلنَّارُ (٣٥) وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ (٣٦) وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ (٣٧) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (٣٨) يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ (٣٩) وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ (٤٠) أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ (٤١) وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّـٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ (٤٢) وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَـٰبِ (٤٣)﴾.

- **الخلقُ وَالتَّدبيـرُ:**

﴿الٓمٓر ۚ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (١)﴾.

بدأ الله تبارك وتعالى سورة الرعد بالأحرف النورانية المقطعة:

﴿الٓمٓر﴾ كما بدأ السُّوَر التي قبلها: يوسف وهود ويونس، والتي بعدها: إبراهيم والحجر، بُدئت كلُّها بقوله تعالى: ﴿الٓر﴾ وخصت الرعد بزيادة حرف الميم، ولا شكَّ أنَّ لهذه الحروف دلالاتها ومعانيها، وتدلُّ زيادة المبنى على

زيادة المعنى، ممَّا يدلُّ على أنَّ لسورة الرعد ميزة تمتاز بها على ما قبلها وما بعدها من السور.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: تلك آيات السورة الكاملة العجيبة في بابها[١] فكأنَّها نفسُ الكتاب، وليست سورة من سوره، فهي من أعاجيب السور القرآنية التي تأخذ في نَفَس واحد، وإيقاع واحد، وجوٍّ واحد، وعطرٍ واحدٍ، من بَدْئها إلى نهايتها[٢].

﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: والقرآن الكريم المنزَّلُ إليك من ربك كلُّه حق ثابت لا شك فيه، فليس الكمالُ لسورة الرعد وحدَها، وإنَّما هو وصفٌ ثابت للقرآن الكريم كله.

ومع كماله وقوة دلائله وبراهينه فإنَّ كثيراً من الناس يعرضون عنه، ولا يؤمنون به بسبب قلَّة النظر وعدم التدبر:

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: لا يؤمنون بأن القرآن الكريم كلام الله أنزله على النبي ﷺ.

ثم شرعت الآياتُ ببيان كمال قدرة الله تعالى، وأنها وحدها المؤثرة في الموجودات كلِّها، كما أنَّ مشيئته تعالى وحدَها هي النافذة في جميع المكونات:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ أي: الله ﷻ بقدرته الكاملة خلق السماوات مرفوعةً بالنسبة إلى الأرض بغير عمد ـ كما ترونها ـ فهي مرفوعة مباشرة بقدرته تعالى ومشيئته بغير أسبابٍ تؤدي إلى رفعها، كما في قوله

---

(١) تفسير النسفي: ٣/ ٤٦٦.

(٢) في ظلال القرآن: ٤/ ٢٠٣٩.

سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١].

وقوله ﷻ أيضاً: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحج: ٦٥].

وقوله ﷻ أيضاً: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَاۖ وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [لقمان: ١٠].

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ﴾ أي: على الوجه اللائق بجلاله وكماله ووحدانيته ـ كما مرَّ معنا ـ.

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ﴾ أي: ذلّلهما لمنافع عباده ومصالح بلاده، وهما يجريان بقدرته تعالى ومشيئته إلى وقت معلوم ينتهيان إليه ولا يجاوزانه، فهما جرمان مقهوران محكومان لقاهر عليم حكيم.

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ أي: الله وحده يدبِّر أمرَ المخلوقات كلها، فلا يتحرك متحركٌ، ولا يسكن ساكن، إلا بمشيئته وقدرته ﷻ، فله وحده الخلق والتدبير، ولا خالقَ سواه، ولا مدبِّرَ غيرُه.

﴿يُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ أي: يبيِّن الدلائلَ الدالَّة على وحدانيته، وكمال قدرته، وتمام مشيئته.

﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ أي: لعلَّكم تصدقون تصديقاً لا شكَّ فيه بلقائه تعالى، والمصير إلى حكمه، وأمره بعد الموت، فالقادر على الخلق والتدبير قادرٌ على الإعادةِ والجزاءِ، فأنتم في قبضة قدرته تعالى، وتحت قهر مشيئته في الحياة وبعد الممات.

- **التأثير والتخصص:**

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنْهَٰرًاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِۖ يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٣﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ أي: الله وحدَه الذي بسط الأرض، وجعلها ممتدةً

بالنسبة للإنسان، ومع أنَّ شكلها الكلي كروي، إلا أنَّه تعالى جعلها بحكمته وقدرته مبسوطة للإنسان، ممتدة امتداد نظره، فهذا دليلٌ على كمال قدرته وحكمته، ولهذا قال: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝ وَإِلَى ٱلسَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية].

وبهذا المدِّ والبسط للأرض تمكَّنَ الإنسانُ من العيش عليها، ومن التقلُّب في جنباتها، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ۝ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح].

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا﴾ أي: جعل تعالى في الأرض جبالاً ثابتة وأنهاراً جارية.

وكثيراً ما يقرن سبحانه بين الجبال والأنهار في آيات كثيرة؛ منها: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٥].

ومنها أيضاً: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٦١].

ومن المعلوم أنَّ الجبالَ تمدُّ الأنهار بالماء، إذ ينبع أكثرها من سفوح الجبال.

﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ أي: جعل سبحانه في الأرض من كلِّ الثمرات زوجين اثنين، كل واحد منهما زوج للآخر، يقابله ويكمِّله، ويتمُّ بهما التكاثر والتوالد بقدرته تعالى ومشيئته.

فالزوجيةُ مبثوثةٌ في كل أنواع المخلوقات، وهي بتدبيره سبحانه ومشيئته سبب بقاء الأنواع وتكاثرها، مع أنَّه تعالى هو الخالق الحقيقي للأسباب والمسببات، كما في قوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦].

وقوله أيضاً: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩].

﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ أي: يغطي سبحانه الليل بالنهار، كما في قوله الكريم: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: ٥٤].

واكتفى بذكر تغشية الليل بالنهار مع تحقق عكسه؛ للعلم به، فهو كقوله: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ [الزمر: ٥].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: لقوم يتأملون هذه الظواهر الكونية، فيعلمون أنَّ لها صانعاً حكيماً عليماً قادراً، يدبِّر أمرها، ويهيئ أسبابها.

﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾.

﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ أي: ويوجد في الأرض قطع متقاربات في المكان، ومع ذلك فهنَّ مختلفاتٌ في الخصائص والصفات، فهذه رخوة، وتلك صلبة، وبعضُها طيِّبة، وبعضها سبخة، وبعضها تصلح للزرع فقط، وبعضها تصلح للزرع والشجر، أو للشجر فقط، وهذا يدل على وجود مخصص، خَصَّ كل قطعة بخصوصية تميزها عن غيرها.

﴿وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ﴾ أي: وفيها أيضاً جنات من أعناب وزرع.

﴿وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ أي: وفيها أيضاً نخيل، بعضها صنوان متفرع من أصل واحد، وبعضها غير صنوان، نخلة منفردة بأصلها لا صنو لها.

﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾ أي: تُسقى هذه الجنات والزروع والنخيل بماء واحد.

﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾ أي: ومع وجود أسباب التشابه، نجعلها متفاوتةً في الطعم والرائحة واللون والحجم وغير ذلك من الصفات والخصائص، ممَّا يدلُّ على أنَّ الأسبابَ ليست هي المؤثرة والمخصصة، فالتأثير والتخصيص للخالق المدبر، الذي أعطى كلَّ حبة وثمرة صفاتها وخصائصها، بقدرته الكاملة، ومشيئته النافذة، وحكمته الباهرة.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: لقوم يعملون بمقتضى العقل.

فإنَّ العقلَ المتفكر في هذه الظواهر لا بدَّ أن يجزمَ بوجود خالق قادر عالم،

هو وحدَه الذي خلق الخلق، وهو وحده الذي يدبِّر أمره، وما الأسباب والصفات والطباع إلا آثار قدرته، وبديع حكمته سبحانه، فالأسبابُ لا تخلق، والطباع لا تؤثر كما يزعمُ الدهريون والطبائعيون، إنَّما المؤثر الحقيقي هو الله تعالى وحده، خالق الأسباب والمسببات.

- **أعاجيب المعاندين:**

وتوقفت الآياتُ فجأةً عن عرض دلائل قدرته تعالى وباهر حكمته، والتفتت تخاطِبُ الإنسانَ المستغرِقَ في تأمل هذه الظواهر الكونية، المتعجب من بديع الحكمة الربانية، لتُنبِّهه إلى أمور ثلاثة أكثر عجباً:

ـ **الأمر الأول**: إنكار الكافرين قدرة الله تعالى على إعادتهم إلى الحياة بعد الموت:

﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾﴾.

﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ أي: إن تعجب ممَّا ترى من عظيم قدرته تعالى وباهر حكمته ونفاذ مشيئته، فعجب قولهم:

﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا﴾ أي: بعد الموت وتمزُّق أجسادنا وتفرُّقها.

﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۗ﴾ أي: أإنا نعاد ونُخلق من جديد؟! وهو استفهامٌ بعد استفهام يدل على إنكارهم لقدرته تعالى على إعادتهم إلى الحياة ثانية بعد الموت.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ﴾ أي: أولئك قد كفروا بربهم، لأنهم أنكروا قدرته على إعادتهم إلى الحياة بعد الموت، فإنَّ إنكارهم هذا وصف له سبحانه بالعجز والعبث واللعب، وهو الإله القادر الحكيم العليم، يتنزَّه عن كل صفات النقص والعجز.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْۖ﴾ أي: وأولئك مقيَّدون بأسباب الضلال، فلا يُرْجَى خلاصُهم منها، كالكِبْرِ والحسد والطمع والجشع وتغلُّب الشهوات والأهواء.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ بسبب سوء كسبهم وإعراضهم عن التفكر في الدلائل والشواهد التي تدلُّهم على كمال قدرته تعالى ومشيئته.

ـ **والأمر الثاني**: الذي يُتعجَّبُ منه أيضاً، بيَّنه تعالى بقوله:

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٦﴾.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ أي: يستعجلونك بالعقوبة قبل العافية.

وذلك أنَّ المشركين كانوا يطلبون من النبيِّ ﷺ العقوبةَ والعذاب، بدلاً من السلامة والعافية، وقد حكى سبحانه ذلك عنهم في آيات كثيرة، منها قوله الكريم: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [صٓ: ١٦].

ومنها أيضاً: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ۝١ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٞ﴾ [المعارج].

وقوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [الأنفال: ٣٢].

﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُۗ﴾ أي: والحال أنه قد مضت العقوبات في الأمم المكذبة أمثالهم، فما لهم لم يعتبروا بالأمم المعذَّبة قبلهم؟! **والمَثُلات**: جمع مُثْلَةٍ، وهي العقوبةُ تَنْزِلُ بالإنسان، فيُجْعَل مثلاً ليرتدعَ به غيره.

وليس تأخير العذاب عنهم بسبب إهمال وضعف، بل لأنه تعالى حليم رحيم، ولهذا قال بعد ذلك:

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْۖ﴾ أي: مع ظلمهم أنفسهم.

وحقيقةُ **المغفرةِ** السترُ، والمراد أنه سبحانه يستر المذنبين، ويؤخِّر عذابهم، لعلَّهم يتوبون عن ظلمهم، فهو ذو عفو وصفح وستر للناس، مع أنَّهم يظلمون ويخطئون بالليل والنهار(١).

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٢/ ٢٧١.

فالله ﷻ لا يعجل لعجلة عباده، وهو القائل: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [يونس: ١١].

وهو أيضاً سبحانه شديد العقاب:

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ أي: للمصرِّين على كفرهم وفجورهم.

وبهذا يعتدل الرجاء برحمته تعالى والخوف من عقابه، كما في قوله: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٧].

ـ وأما **الأمر الثالث** المعجب: فذكره الله تعالى في قوله:

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾﴾.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ أي: هلَّا أنزل عليه معجزة من ربِّه تدلُّ على صحة نبوَّته، وصدق رسالته.

ووجه التعجُّب من قولهم هذا أنَّ الله تعالى أنزل على النبيِّ ﷺ معجزةَ القرآن الكريم الخالدةَ التي تدل دلالة واضحةً على صحة نبوته، وصدق رسالته، وتغني عن غيرها من المعجزات، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَـٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت].

﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾ أي: إنَّما عليكَ أن تبلِّغهم رسالة ربك، وتنذرهم من عذابه، ولست مكلَّفاً بالاستجابة لمطالبهم واقتراحاتهم التي تدل على جحودهم وعنادهم.

﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ أي: ولكلِّ قومٍ نبيٌّ مخصوصٌ بهم، أيده الله بمعجزات تناسِبُ قومه، وتدلُّهم على الحق.

والمعجزةُ القرآنيةُ معجزة بيانية تناسِبُ ما اشتهر به العرب من الفصاحة وحسن البيان، فلماذا يعرضون عنها ويطلبون غيرها؟! إنه لأمر عجيب حقّاً!.

وقد يكونُ (**هاد**) معطوفاً على (**منذر**)، و(**لكل قوم**) متعلِّق به، فالمنذر والهادي هو رسولُ الله ﷺ لجميع الأقوام.

- **كمال عِلْمِهِ تعالى:**

وبعد توقُّف الآيات مع أعاجيب المعاندين والجاحدين استأنفت حديثَها عن كمال صفاته جلَّ وعلا، فبينت كمالَ علمه الذي وَسِعَ كل شيء من مخلوقاته، كبيرِها وصغيرِها، حاضرِها وغائبها، ظاهرها وخفيِّها:

﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾﴾.

﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ أي: الله تعالى يعلمُ ما تحمِلُ كل أنثى في رحمها، ويعلمُ أيضاً ما تضع كل أنثى، فهو كقوله: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] أي: والبرد.

و(**كلُّ**) إذا أضيفت إلى نكرةٍ تفيدُ العموم لكلِّ أنثى خلقها الله تعالى في هذا الكون المترامي الأطراف، كلُّ أنثى في الإنسان والحيوان، في الوبر والمدر، في السهولِ والجبالِ وأعماقِ الوديان، في الأنهارِ ولجج البحار.

﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ أي: ويعلم سبحانه ما تغيض الأرحام، وما تزداد.

ومعنى **تغيض**: تنقصُ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ٤٤].

ويقابِلُ النقصُ الزيادةَ، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾.

ولنتأمل دِقَّةَ الكلمة القرآنية، وشدةَ اتساقها مع ما قبلها وما بعدها؛ قال سبحانه: ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ ولم يقل (وما تزيد)؛ لأن الزيادة التي تحصل في الأرحام زيادة محسوبة مقدَّرة.

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ وليست زيادةً فائضةً عن مقدار الحاجة.

ويقرِّرُ علمُ الطب الحديث أنَّ الأرحامَ لا يغيضُ منها شيء عن الحاجة في الأحوال الطبيعية أبداً[(١)].

وحمل علماءُ التفسيرِ الغيضَ والزيادةَ في الأرحام على الدم الذي يدخلُ إليها ويخرجُ منها، وعلى مدة الحمل، فقد تنقصُ أو تزيدُ، وعلى عدد الأجنة في حياتها أو موتها واكتمال تخلُّقها أو نقصه.

- **من الحقائق العلمية في القرآن:**

وأضافَ علمُ الطبِّ الحديث أبعاداً جديدة في معاني الآية الكريمة:

منها: **نقصُ السائل الأمينوسي وزيادته**، وهو سائلٌ يظهر في البويضة الأمشاجِ في جوفٍ ممتلئٍ بالماء، يزدادُ ويكبرُ حتى يحيطَ بالحمل من كل جوانبه، ويصبح الجنين سابحاً في هذا الماء، يبلغ حجمه (٥٠ سم^{3}) في الأسبوع الثاني عشر من بداية الحمل، ثم يزداد حتى يصل إلى الليتر في الأسبوع السادس والثلاثين من الحمل، ثم بعد ذلك يبدأ بالنقص والغيض تدريجيّاً، فإذا تأخرتِ الولادةُ عن موعدها شحَّ كثيراً.

وتستدعي الضرورة تبدل هذا السائل، فيتبدل دائماً عبر الأغشية وعبر المشيمةِ وبواسطة البلع والتبول من الجنين، وقد قُدِّرت سرعة تجدده بحوالي (٤٠٠ ـ ٥٠٠ سم^{3}) في الساعة عند تمام الحمل، أي إنَّه يتجدد بكامله في اليوم الواحد حوالي (٨ ـ ١٢) مرة، فهو إذن دائماً في غيض وازدياد.

ويجري في الأرحام أيضاً غيضٌ وازديادٌ فيما يسمونه: **الدوران الرحمي المشيمي**، إذ من المعلوم أنَّ الدم الوارد إلى الرحم عند حدوث الحمل يتضاعف خمس عشرة مرة تقريباً، وهذا الدم يخترق جدار الرحم ليصبَّ في البحيرات الدموية الموجودة في المشيمة، حيث تسبح زغابات الجنين فتأخذ من الدم غذاء الجنين، وتعطيه فضلاته وإفرازاته، وهذه الدورة الدموية تغيضُ وتزدادُ، تحمل للجنين رزقه وهواءه، وتطرح عنه فضلاته وسمومه، وهي محسوبة بدقة، وتزيد

---

(١) انظر: كتاب القرار المكين، ص٨٦.

تدريجيّاً مع ازدياد حاجات الجنين، وصدق الله العظيم: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾.

والرحمُ نفسُه يزداد حجمه ووزنه، ويتضاعف من ألف إلى أَلْفَي مرة، ليستوعب الجنينَ والمشيمةَ والسائلَ الأمينوسي، وربما توءماً آخر، ثم يبدأ الغيضُ بعد الولادة مباشرةً، فيغيض ويضمر في فترة النفاس، حتى يعودَ إلى وزنه وحجمه الذي كان عليه قبل الحمل.

وتزداد الأرحام بالحمل، وقد تغيض في حالات البويضة الرائقة، حيث يتلاشى الحمل، ويذوبُ، وهو بين النطفة والعلقة، ويرتشفه الرحمُ، فلا يرى الطبيبُ على شاشة تصوير الرحم إلا كيساً ممتلئاً بالسائل الأمينوسي.

وقد تغيض الرحم أحدَ التوءمين، ويبقى الآخر ينمو ويزداد حتى الولادة.

ويغيض الرحم ويزداد في غير أوقات الحمل، فهو دائماً في حال غيض وازدياد، ففي أثناء الحيض يغيضُ الرحم غشاءَه الباطن، وينقطع عنه الدمُ ويتآكل، ثم يطرحه إلى الخارج، وفي أثناء الطُّهر يستعدُّ الرحم لاستقبال الحمل فيزداد، ويبقى الرحمُ بتقدير الله تعالى في غيضٍ وازديادٍ دائمين[(١)].

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ أي: وكل شيء خلقه الله تعالى بقدر معين، لا يزيد عنه، ولا ينقص عمَّا تعلقت به إرادته، وسبق به علمه.

فكل حادث يحدث بوقت وحال معينين، ويهيئ الله له أسباباً تُساق إليه حسب ما تقتضيه حكمته الباهرة جلَّ وعلا، كما قال: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

وقال أيضاً: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١].

وعندما سأل فرعونُ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه].

---

(١) انظر: القرار المكين، ص٩٠ ـ ٩٨ بتصرف واختصار.

فهو مقدِّر الأسباب والمسببات وخالق كل شيء ﷻ.

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ۝٩﴾.

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: يعلم ما يغيبُ عن خلقه، وما يشاهدونه.

أو: يعلم المعدوم والموجود.

﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ أي: العظيم الشأن، فهو أكبرُ من كلِّ كبيرٍ، ويتضاءل عنده تعالى كل شيء فيه صفات تقتضي الكبر، فالكل في قبضة قدرته ومشيئته.

﴿ٱلْمُتَعَالِ﴾ أي: المستعلي على كل شيء في ذاته وصفاته ﷻ، فلا يدنو من أوج علوِّه ـ في ذاتٍ أو صفةٍ أو فعلٍ ـ عالٍ، كما قال ﷻ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

ويستوي السر والجهر بالنسبة إلى علمه تعالى، ولهذا قال:

﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ۝١٠﴾.

﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ فهو كقوله تعالى: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧].

﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ أي: ويستوي في علمه من يستتر بالليل، ومن يتحرك في النهار، بارزاً ظاهراً، متصرفاً في حوائجه، فيستوي في علم الله السرُّ والجهرُ، والظاهر في الطرقات، والمستخفي في الظلمات.

والسارب: الذاهبُ في الطريق، ومنه قولهم: انسربَ الماءُ، وقال الأصمعي: خلِّ سَرْبه، أي: طريقه(١).

- **الارتباط بين الأسباب والمسببات:**

ومع كمال علمه تعالى وقدرته، وتمام مشيئته، اقتضت حكمته سبحانه أن

(١) تفسير القرطبي: ٩/ ٢٩٠.

يدبِّر أمرَ المكونات بأسباب ومسببات، وأن يكونَ بينهما ارتباط بتقديره ومشيئته أيضاً، مع العلم أنه تعالى قادر على الخلق والتدبير من غير تقدم أسباب: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

وبث سبحانه الأسباب في جميع المكونات الظاهرة والخفية، والمشاهَدة والغائبة، وأخبر عن ذلك بقوله:

﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾.

﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ﴾ أي: لكلِّ إنسان ملائكةٌ تعتقب في حفظه من جميع جوانبه، **فالمعقِّبات**: جمع معقِّبة، من عقب إذا جاء على عقبه من غير فاصل زمني، كأنَّ أحدَهم يطأُ عَقِبَ الآخر، ويجوز أن يكون إطلاقُ المعقبات على الملائكة، لأنهم يتعقبون أقوال الشخص وأفعاله، ويتبعونها ويحفظونها بالكتابة[1]، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾ [الانفطار].

وقال أيضاً: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

وفي الحديث الشريف: **عن أبي هريرة** رضي الله عنه: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**يتعاقبونَ فيكم ملائكةٌ بالليلِ وملائكةٌ بالنهارِ، ويجتمعونَ في صلاةِ الفَجْرِ، وصلاةِ العَصْرِ، ثم يعرجُ الذين باتوا فيكم فيسألُهم ـ وهو أعلمُ بهم ـ كيفَ تركتُم عبادِي؟ فيقولون: تركناهم وَهُمْ يصلُّون، وأتيناهم وهم يصلُّون**» [رواه البخاري (٥٥٥) ومسلم (٦٣٢)].

﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: كائنة من أمر الله.

منهم من يحفظونه بأمر من الله تعالى من أسباب الضرر والهلاك، فقد أخرج **أبو داود وابن المنذر وابن أبي الدنيا** وغيرهم: عن **علي** رضي الله عنه قال: لكلِّ عبدٍ

---

(١) انظر: روح المعاني: ١٣/ ١١٢.

حفظةٌ يحفظونه، لا يخرُّ عليه حائطٌ، أو يتردَّى في بئرٍ، أو تصيبُه دابةٌ، حتَّى إذا جاءَ قدرُ اللهِ الذي قُدِّرَ له خَلَّتْ عنه الحفظةُ، فأصابه ما شاءَ اللهُ أن يصيبَه(١).

وروى **الطبراني** بإسنادٍ حسنٍ عن **ابن عباس** رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾ قال: ملائكةٌ يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، فإذا جاء قدرُه خلَّوا عنه(٢).

وقد **يُتساءل** عن فائدةِ هذا الحفظ، والمقدَّرُ كائنٌ، وغيرُ المقدَّر لا يكونُ؟.

والجواب: هكذا تعلَّقت مشيئته تعالى وحكمته في تدبير مخلوقاته، وكما جعل للمحسوسات منها أسباباً محسوسة، وربط بها مسبباتها مع قدرته تعالى على إيجاد المسببات بغير أسباب، كذلك جعلَ في غير المحسوسات المغيبات عنَّا أسباباً ربط بها المسببات.

فللعالم نواميسُ ونظمٌ أبدعها العليم الحكيم، تدل على وحدانيته، تعلَّقت بها إرادته، وسبق بها علمُه، يدبِّر تعالى بها أمر مخلوقاته، وقد أكد سبحانه هذا المعنى بقوله بعد ذلك:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ أي: إنَّ الله تعالى لا يغيِّر حالَ قومٍ من خير أو شر كانوا عليه حتى يغيروا الذي بأنفسهم من طاعة أو معصية، ومن إيمانٍ أو كفرٍ، فقد شاءَ سبحانه أن تكونَ أسبابُ تغير أحوال الإنسان نابعةً من نفسه وسلوكه، فلا يعامِل الحقُّ عباده بحسب علمه فيهم، بل يعاملهم بحسب عملهم الواقع بكسبهم واختيارهم.

والنصوصُ في هذا المعنى كثيرة، منها: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا﴾ [الإسراء: ١٦].

ومنها أيضاً: ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ﴾ [إبراهيم: ٧].

---

(١) روح المعاني: ١٣/ ١١٣.

(٢) فتح الباري: ٨/ ٣٧٢.

ومنها أيضاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد: ٧].

ولما تساءل الصحابة عن سبب الخسارة الكبيرة التي حلَّت بهم في غزوة أُحُد، أخبرهم سبحانه أنها بسبب نابع من أنفسهم فقال: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

وحتى لا يسيءَ أحدٌ فهمَ هذه النصوص، فيظنَّ أنَّ مشيئته تعالى تابعة لمشيئة عباده، بيَّن سبحانه طلاقة مشيئته وكمالها، وأنها هي النافذةُ في جميع مخلوقاته، وأن مشيئةَ مَنْ يشاءُ من عباده تابعةٌ لمشيئته تعالى المطلقة فقال:

﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ﴾ أي: فلا يدفعه شيء.

﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ أي: ليس لهم من دون الله من والٍ يلي أمرَهم، ويدفع عذابه عنهم. فقد دلَّت الآية على أنَّ خلافَ مرادِ اللهِ تعالى محالٌ(١).

• إنشاء وتدبير وتسبيح:

فكسب الإنسان واختيارُه ومشيئتُه ليست سوى أسباب لما قدَّره تعالى بسابق علمه ومشيئته، والأسبابُ لا تأثيرَ لها بالمسببات، الخالق والمدبِّر والمؤثر هو الله تعالى وحدَه، ونحن مكلَّفون بتحصيل الأسباب، فهي المفاتيحُ التي نستفتحُ بها خزائنَ جوده تعالى وإحسانه، ولا ينبغي الاتكال على ما سبقَ في علمه تعالى، وتعلَّقت به مشيئته، فالأقدارُ غيبٌ عنا.

وفي الحديث الشريف: عن **علي** رضي الله عنه قال: كنا جلوساً مع النبيِّ ﷺ ومعه عودٌ ينكتُ به في الأرض، فنكسَ، وقال: «**ما مِنْكُمْ مِنْ أحدٍ إلا قد كُتِبَ مقعدُهُ مِنَ النار أو مِنَ الجنَّةِ**» فقال رجلٌ من القومِ: ألا نتَّكلُ يا رسولَ اللهِ؟ قال: «**لا، اعملوا فكلٌّ مُيَسَّرٌ**» وزاد شُعْبَةُ في روايته: «**لما خُلِقَ له**» ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ الآية [الليل: ٥]. [رواه البخاري (٦٦٠٥)].

وإذا ترك الإنسانُ الأسبابَ توكُّلاً على ما قُدِّر له عرَّض نفسه للمسؤولية والعقوبة، بسبب المخالفة وترك التكليف.

---

(١) تفسير البيضاوي: ٣/ ٤٧٦.

والنواميس الكونية التي نراها في هذا الكون ليست سوى أسباب أجرى الله تعالى بها مقدوراته، ومن المعلوم المشاهد أنَّ الظواهر الكونية ترتبط بأسباب ونواميس، ومع ذلك فالآية الكريمة تردُّ أمرَ تدبيرها وحدوثها إلى الله تعالى وحده كما تردُّ أمر رؤيتنا لها أيضاً إليه تعالى وحده:

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي: هو سبحانه وحده الذي يجعلكم ترونَ البرق وأنتم خائفون من نقمته، طامعون في رحمته؛ ولولا أنه تعالى أقدرنا على رؤية البرق ما رأيناه ولو كانت أسبابُ الرؤية موجودةً لدينا سليمةً غيرَ معطلة.

﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ أي: وهو وحده تعالى الذي ينشِئُ السحابَ المثقلة بالماء الكثير.

وقد أخبرنا سبحانه في **سورة الروم** أنَّ تكوينَ السحاب مرتبط بأسباب ونواميسَ قدَّرها العليم الحكيم، فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

وقال في **سورة النور** أيضاً: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾﴾.

وكل ذلك يدل على أنه سبحانه وحده خالقُ الأسباب، ومقدِّرُ النواميس، فهو الذي ينشئ السحاب، وما الرياحُ التي تحمل بخار الماء إلى طبقات الجوِّ الباردة حيث يتكاثف ويتراكم بعضه فوق بعضه، إلا أسباب ونواميس لا تؤثر إلا بتقديره تعالى ومشيئته.

والواجبُ على المسلم أن يردَّ الحوادث كلَّها إلى الله تعالى لا إلى أسبابها

ونواميسها، كما جاء في الحديث الشريف: عن **زيد بن خالد الجهني** رضي الله عنه قال: صلَّى بنا رسولُ اللهِ ﷺ صلاةَ الصبحِ بالحديبيةِ في إثرِ السماءِ كانتْ من الليلِ، فلمَّا انصرفَ، أقبل على الناسِ فقال: «**هَلْ تدرون ماذا قال ربُّكم؟**» قالوا: اللهُ ورسولُه أعلم، قال: «**أصبحَ مِنْ عبادِي مؤمنٌ بي وكافِرٌ، فأمَّا مَنْ قال: مُطِرْنا بِفَضْلِ اللهِ ورحمتِهِ، فذلِك مؤمنٌ بي كافِرٌ بالكوكَب، وأمَّا مَنْ قالَ: مُطِرنا بِنَوْءِ كذا وكذا، فذلكَ كافِرٌ بي مؤمنٌ بالكوكبِ**» [رواه مسلم (٧١)].

وهو ما دلَّ عليه قوله تعالى بعد ذلك:

﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ أي: ينزِّه الرعدُ الحقَّ جلَّ جلاله عن صفات النقص تنزيهاً متلبِّساً بحمده على كماله تعالى وغناه.

وهو محمول إمَّا على التسبيح كما في قوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

أو هو محمول على المعنى المجازي، لأنَّ الرعدَ ظاهرةٌ كونيةٌ تدل على عظمة خالقها ومدبرها جلَّ جلاله.

وقد سبق معنا في **سورة البقرة** الحديث عن حقيقة الرعد عند قوله تعالى: ﴿أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٞ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ١٩].

﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ﴾ أي: والملائكةُ تسبِّحُ أيضاً بحمده تعالى من خشيته وتعظيمه وإجلاله كما في قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠].

﴿وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ﴾ أي: والله سبحانه هو الذي يرسل الصواعقَ، وهي شحنات كهربائية حارقة تنزل من جهة السماء عند حدوث ظاهرة الرعد والبرق.

﴿فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ أي: من يشاء سبحانه إهلاكه وتدميره، سواء كان إنساناً أو حيواناً أو نباتاً أو عمراناً، فتكوين الصواعقِ ونزولُها يتمُّ بإرادته وقدرته سبحانه، وإن كان مرتبطاً بأسباب ونواميس كما يقول علماء الأرصاد الجوية.

﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ﴾ أي: والمشركون يجادلون رسول الله ﷺ في وحدانيته تعالى وكمال قدرته ونفاذ مشيئته مع كثرة الظواهر الكونية التي تدل على ذلك.

﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ أي: وهو جل وعلا شديد القوة والنقمة والعقوبة.

- **دعوة الحق:**

فالمؤمن الحقيقي يسعى في تحصيل الأسباب، ولكنه لا يعتمِدُ عليها، بل يعتمد على الله تعالى وحده، ويتَّجه إليه وحده بالعبادة والدعاء:

﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾﴾.

﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ أي: لله تعالى وحدَه دعوة الحق، لأنه سبحانه الذي يسمع الدعاء، ويجيب الداعي إذا دعاه.

أو: له تعالى الخضوع الحق، لأنه وحدَه المستحق للعبادة والتذلل والخضوع، فهو الإلٰه الحق الخالق القادر المدبر، كما في قوله سبحانه: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢].

﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ﴾ أي: والآلهة المزعومة التي يتوجه إليها الكفارُ بالدعاءِ والعبادةِ لا يستجيبون لهم بشيء، فلا يجلبون نفعاً، ولا يدفعون ضرراً بسبب ضعفهم وعجزهم، فدعاؤها باطل لا يؤدي إلا إلى الحسرة والأسف.

مثلُهم كمثلِ الذي يمدُّ يديه إلى الماء يدعوه ويسأله أن يذهب عطشه ويرويه، فلا يسمعُ الماءُ دعاءَه، ولا يحس بعطشه:

﴿إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ﴾ أي: يمدُّ يديه إلى الماء داعياً له ليصلَ إلى فمه، فلا يصلُ الماءُ إلى فمه أبداً، لأنه عاجز ضعيف، لا يتحرَّك من نفسه، لا بدَّ له من محرِّك يحرِّكه، فمع أنه سبب للري ودفع العطش، وسبب لخروج النبات من الأرض، فإنَّه لا يؤثر بنفسه إلا إذا وافق قدر الله تعالى بخلق الري وإخراج النبات.

فالذين يتعلَّقون بالأسباب، وينسبون التأثير إليها واهمون ومخطئون، فالشمس والقمر والنجوم والنار وغيرها من المعبودات الزائفة ليست سوى أسباب كالماء، لا تؤثر ولا تخلق، فالتوجه إليها بالدعاء والعبادة وهمٌ وضلال.

﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ أي: في خسارة وضياع وبطلان.

فجميعُ المخلوقات من أصغر ذراتها إلى أضخم أجرامها خاضعة لله تعالى، فهي في قبضة قدرته، وتحت قهر مشيئته:

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ ﴿١٥﴾﴾.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ أي: لله ﷻ يخضع ويذل وينقاد كل من في السماوات والأرض، إما طائعين، كانقياد المؤمنين لأمره تعالى الشرعي، وإما كارهين كانقياد الكافرين لأمره القَدَري، فمن يستطيعُ أن يخرج على نواميس قدرته وسطوة أقداره جلَّ وعلا؟!.

﴿وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾ أي: وحتى ظلالهم خاضعة دائماً لنواميس قدرته جلَّ وعلا، فهي تمتد في أول النهار وتنقبض في آخره، بحسب الناموس الكوني الذي وضعه القادر القاهر العليم الحكيم، كما في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ [الفرقان].

فلكلِّ مخلوقٍ سجودُهُ وخضوعُهُ الخاصُّ به، والملائمُ له، كما في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل].

● **تقرير وبرهان:**

وبعد هذا البيان الواضح لانقياد جميع المخلوقات لله تعالى، أمرت الآياتُ النبيَّ ﷺ أن يسأل المعاندين الجاحدين سؤال التحدي لهم:

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾﴾.

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؟ أي: من خالق السماوات والأرض ومدبِّر أمرهما؟.

وبادرت الآيات إلى الجواب قبل أن يجيب المسؤول؛ لأن السائل والمسؤول في تقرير الجواب متساويان، فالجواب أمر بدهي منطقي لا تردد فيه ولا توقف:

﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ فالسائل والمسؤول يقرّان بأنَّ الله هو ربُّ السماوات والأرض، لا ربَّ سواه ﷻ.

وما أوردت الآية السؤال والجواب إلا لإلزام المسؤولين بما بعده، وهو:

﴿قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾؟ أي: قل على سبيل الإلزام لهم: بما أنَّ الله وحده هو رب السموات والأرض، فكيف اتخذتم غيره أولياء، وهم عاجزون ضعفاء، لا يستطيعون جلبَ نفعٍ لأنفسهم، ولا دفعَ ضررٍ عنها، فضلاً عن أن ينفعوكم أو يضروكم؟!.

وتابعت الآيةُ تلقينَ النبيِّ ﷺ الحجةَ بعد الحجةِ، والبرهانَ بعد البرهانِ، مما يؤكِّد أنَّهُ كلامُ الله تعالى، أنزله على النبيِّ ﷺ، ليس له فيه إلا التلقي والتبليغ.

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾؟ وهو سؤال إنكار، أي: لا يستوي الأعمى الذي لا يبصرُ دلائل الحق وبصائره، والبصير الذي أبصرَ الدلائل والبصائر، فآمن بالله تعالى وخضع لأمره وشرعه.

﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾؟ أي: وكذلك لا يستوي الكفر والإيمان، فلا تشابه بينهما أبداً بأيٍّ وجهٍ من الوجوه، فهما ضدان ونقيضان لا يلتقيان.

واتجهت الآيةُ بعد هذا البرهان القاطع الملزم توبّخ المشركين المعاندين:

﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾؟ أي: ليس الأمر كذلك، فالله سبحانه خالق كل شيء، ولا خالق سواه حتى يشتبه الأمر عليهم بين مخلوقاته تعالى وبين مخلوقات غيره، فليس في الوجود مخلوق لغيره تعالى.

﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي: من الأسباب والمسببات.

﴿وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ أي: وهو المتفرد بالربوبية والقهر، فالجميع في قبضة قدرته وتحت قهر مشيئته جلَّ وعلا.

فهذا تقرير لما سبق الإخبار عنه في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٥].

- **الحق والباطل في الحال والمآل:**

ومن أساليب القرآن الكريم في تقريب المعاني وتوضيحها ضربُ الأمثال، ولهذا أوردتِ الآياتُ المثلين التاليين لتوضيح ما سبق تقريره وتأكيده، وتقريبه للأذهان وتثبيته في القلوب:

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أي: أنزل الله تعالى من جهة السماء ماءً، وهو ماء المطر الذي ينزله الله تعالى من السحاب الثقال، الذي سبق ذكره في قوله: ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ [الرعد: ١٢].

﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ أي: وسالت مياه الأمطار في الأودية التي نزلت عليها على حسب مقدارها وسعتها.

وأشار سبحانه بهذه الكلمة: ﴿بِقَدَرِهَا﴾ إلى اختلاف قلوب الناس في قبول الحق والانتفاع به، كما في الحديث الشريف: عن **أبي موسى الأشعري** رضي الله عنه: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**مَثَلُ ما بعَثَنِي اللهُ بهِ منَ الهُدَى والعلمِ كمثلِ الغيثِ الكثيرِ أصابَ أرضاً، فكانَ منها نقيةٌ قبلتِ الماءَ، فأنبتتِ الكلأَ والعُشْبَ الكثيرَ، وكانت منها أجادبُ أمسكتِ الماءَ، فنفعَ اللهُ بها النَّاسَ، فشَرِبوا وسَقَوْا وَزَرعوا، وأصابتْ منها طائفةً أخرى، إنما هي قِيْعانٌ، لا تمسِكُ ماءً، ولا تنبتُ كلأً، فذلك مثلُ مَنْ فقه في دينِ اللهِ ونفعَه ما بعثني اللهُ بهِ، فَعَلِمَ وعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بذلك رأساً، ولم يقبلْ هُدى اللهِ الذي أُرسلتُ بهِ**» [رواه البخاري (٧٩)].

﴿فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ﴾ أي: فحمل السيل زبداً عالياً منتفخاً، وهو الرغوة وما يعلق بها مما يطفو على سطح الماء، هذا هو المثل الأول.

وأما الثاني فهو:

﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥۚ﴾ أي: وينشأ أيضاً زبد مثل زبد الماء من فِلزَّات المعادنِ، التي يذيبونها في النار طلباً للذهب والفضة، ليتحلَّوْا بهما، أو طلباً للحديد والنحاس وغيرهما من المعادن، التي يصنعون منها الأواني والوسائل التي يتمتعون بها في حياتهم.

ثم بيَّنَ الله تعالى وَجْهَ التشبيه والتمثيل فقال:

﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَۚ﴾ أي: فإنَّ الحق مثل الماء الذي تسيل به الأودية، والذي يثبت في الأرض، وينتفعُ به الناس، ومثل المعادن المذابة أيضاً التي تستقرُّ وتثبتُ، وينتفعُ بها الناس.

وأما الباطل فمثل الزبد الطافي على سطح الماء وفوقَ المعادنِ المذابة، تراهُ منتفخاً منتفجاً مستكبراً متعالياً، ثم لا يلبثُ أمامَ قوة وسطوع براهين الحق أن يضمحلَّ ويتلاشى، فيا خسارة مَنْ يتعلَّقُ بالباطل؛ ويعتمد عليه، ويغترُّ بانتفاخه وظهوره! ويا خسارة مَنْ يعتمدُ على الأسبابِ ويغترُّ بها، ويعرِضُ عن الله تعالى خالق الأسباب والمسببات!.

﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾ أي: يذهب متفرقاً ضائعاً مهما علا وانتفخ.

﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: يثبت ويبقى في الأرض، فلا يذهب ولا يضيع، فالباطل مهما علا على الحق فإن الله تعالى يمحقه ويبطله، ويجعل العاقبة للحق وأهله، كما في قوله سبحانه: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨].

وقوله أيضاً: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: ٢٦].

﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ أي: كذلك يضربُ الله الأمثال المقرِّبَة للمعاني، والملائمةَ لها، والتي تدلُّ على رحمته تعالى بعباده، حيث يسَّرَ لهم أسبابَ فهم آياته، والانتفاعَ بها، فيسَّرَ لهم بهذه الأمثال الرائعة البليغة المحكمة سبلَ الهداية والاستجابة لدعوته، فلا عُذْرَ للناس في الإعراض عن دعوة الله تعالى، وعليهم أن يستجيبوا لها.

﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾﴾.

﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: العاقبة الحسنة الطيبة.

﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ﴾ أي: لبذلوا ذلك كلَّه، ليخلِّصوا أنفسهم من عذاب النار يوم القيامة، كما في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٦].

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: يُحَاسَبون حساباً عسيراً على جميع ذنوبهم، فلا يُغْفَرُ لهم شيءٌ منها، ممَّا يؤدي إلى عذابهم، فمَنْ نوقِشَ الحساب عُذِّبَ، كما ورد في الحديث الشريف: عن **عائشة** رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**مَنْ حُوسِبَ يومَ القيامةِ عُذِّبَ**» فقلتُ: أليس قد قال الله ﷻ: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾

[الانشقاق: ٨]؟ قال: «**ليسَ ذاكِ الحسابُ، إنَّما ذاكِ العرضُ، مَنْ نُوقِشَ الحسابَ يَوْمَ القيامةِ عُذِّبَ**» [رواه مسلم (٢٨٧٦)].

﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ أي: وبئس المكان الممهد لإقامتهم في جهنم.

• **مقدمات ونتائج:**

ثم عقدت الآيات مقارنةً بين المؤمنين والكافرين، لإظهار ما بين الفريقين من تفاوت كبير في الاعتقاد والسلوك والأخلاق، وفي العاقبة والمصير أيضاً:

﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾﴾.

﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: فاستجاب للحق ورضي به وانقاد له.

﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾؟! أي: كمن هو أعمى القلب والبصيرة، فما استجاب للحق ولا رضي به.

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: إنما يتَّعظ وينتفع بهذه المواعظ والأمثال أولو العقول الصافية المبصرة المتحررة من أسر التقاليد والشهوات.

﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ والمراد العهدُ الذي عقدوه على أنفسهم حين اعترفوا بربوبية الله تعالى في أصل الفطرة التي فُطروا عليها، والذي أخبر الله تعالى عنه في قوله الكريم: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

أو المراد العهدُ الذي قطعوه على أنفسهم حين استجابوا لدعوته تعالى، واتبعوا رسله، فإنَّ هذا العهدَ يلقي عليهم التزاماتٍ وتبعاتٍ بالانقياد لأمره، والتمسك بأحكام دينه وشرعه.

﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾ أي: ولم يكن منهم نقض لهذا العهد والميثاق، بل استمروا عليه وتمسَّكوا به.

ولا شك أنَّ الوفاءَ بعهد الله تعالى يستدعي الوفاء بجميع العهود والمواثيق التي يقطعها الإنسان على نفسه.

﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ أي: من الأرحام والجيران والمؤمنين، بالإحسان إليهم، ومعاونتهم، ومناصحتهم، ومراعاة حقوقهم، فالمسلمُ لا يعيشُ لنفسِهِ فقط، إنما يعيشُ لينشرَ الخيرَ والصلاحَ في البلاد وبين العباد.

﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ الْحِسَابِ﴾ أي: يخافون من الله تعالى خالقهم ومالك أمرهم، فيراقبونه في كل أعمالهم وأقوالهم؛ لأنهم يؤمنون بالجزاء والمسؤولية أمامه يوم القيامة، فيخافون أن يشدَّدَ عليهم الحساب، فالرقابةُ على أعمالهم وسلوكهم نابعة من داخل قلوبهم ومن أعماق وجدانهم.

﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ أي: حبسوا أنفسهم عن المحارم والمآثم، وقاموا بما كلفهم الله به، ابتغاء مرضاته سبحانه من غير نظر إلى سواه.

﴿وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ﴾ أي: أدَّوها كاملة مستقيمة كما شرعت وكلِّفوا بها.

﴿وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ أي: أنفقوا من أموالهم النفقات الواجبة عليهم في السرِّ والجهر، وفي الليل والنهار، لأنهم يبتغون بها وجه الله تعالى.

﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ أي: يعاملون الناس معاملة طيبة كريمة، فيتجاوزون عن المسيء، ويدفعون القبيح بالحسن، كما في قوله تعالى: ﴿وَالْكَٰظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

وقوله أيضاً: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ أي: أولئك المتصفون بهذه الصفات الجميلة لهم العاقبة الحسنة الطيبة يوم القيامة. وهي:

﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ٢٣﴾.

﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا﴾ أي: جناتُ الإقامةِ الدائمة، يدخلونها ولا يتحوَّلون عنها.

﴿وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ﴾ أي: ويدخلها معهم الصالحون من آبائهم وأزواجهم وأولادهم، فالدارُ لا تطيبُ من دون الأحباب، ولهذا يجمعُ الله بينهم في الجنَّةِ، ليكتملَ سرورهم ونعيمهم، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾ [الطور: ٢١].

﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ﴾ أي: يدخلون عليهم من أبوابِ الجنَّةِ، أو من أبواب القصور، يحملون إليهم من ربهم البشائر والهدايا والتحيات، قائلين لهم:

﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٤﴾.

﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ﴾ أي: بسبب صبركم على طاعته تعالى، أكرمكم ورحمكم وتفضَّل عليكم.

﴿فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ أي: فنعم عاقبة الدنيا الجنة، فما أجملها من عاقبة! نسأل الله تعالى أن يكرمنا بها.

ثم قال سبحانه في الفريق الآخر الأعمى، المعرض عن بصائر الحق وشواهده:

﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ٢٥﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ أي: أعرضوا عن عهد الله وميثاقِهِ، وانتكسوا في مهاوي الشرك والكفر.

﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ أي: لأنهم لا يهتمون إلا بأنفسهم وشهواتهم، فهم أنانيون فرديون ماديون، غلبت عليهم الأَثَرةُ، فجمَّدت مشاعِرَهم البشرية، وأضعفت أحاسيسَهم وعواطفهم الإنسانية.

﴿وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ويعملون على نشر الفساد في الأرض.

فالإيمان بالله تعالى صلاح للعباد والبلاد، بينما الكفر فسادٌ للأفراد والمجتمعات، يؤدي إلى إشاعة الفردية والأنانية وتقطيع الأواصر الإنسانية، كما في قوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد: ٢٢].

ويلاحظ أنّ هذه الصفة ﴿وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أتت في مقابل ثلاث صفات كريمة للفريق الأول، وهي: إقامة الصلاة، والإنفاق، ودفع السيئة بالحسنة، ممَّا يدل على أهمية هذه الصفات، وتأثيرها الكبير في إصلاح المجتمع وتنقيته من الفساد.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ أي: أولئك المتصفون بهذه الصفات القبيحة لهم الطرد والحرمان من رحمته تعالى، ولهم أيضاً العاقبة السيئة يوم القيامة في جهنم، فشتَّان ما بين الفريقين من اختلاف في العقيدة والسلوك والمصير.

- **الأسباب والرزق:**

وقد يقول قائل: ما دام الكفَّارُ أصحابَ عنادٍ في الاعتقاد، وفسادٍ في الأخلاق والسلوك، فلماذا يوسِّعُ الله تعالى عليهم الرزق، فإنَّ سعةَ الرزق والغنى تزيدُ في عنادهم وفسادهم؟.

وجاء **الجواب** على هذا التساؤل في أثناء قوله تعالى:

﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: الرزق منوطٌ بمشيئته تعالى وحكمته، يوسعه على من يشاء، ويقلله على من يشاء، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٣٠].

وجعل سبحانه لتحصيل الرزق في الدنيا أسباباً، ميَّز بها بين المُجدِّ العامل والكسول الخامل، وأتاح سبحانه هذه الأسباب لجميع الناس، دون تمييز بين المؤمن والكافر، فالدنيا دارُ ابتلاءٍ واختبارٍ لجميع المكلَّفين، والرزق من أسباب الابتلاء، فأسبابه متاحة للجميع، كما قال تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠].

ولمَّا سأل إبراهيمُ عليه السلام ربَّه الرزق للمؤمنين من أهل مكة، بيَّنَ له تعالى أنه يرزق الكافرين أيضاً في الدنيا: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [البقرة: ١٢٦].

فسعة الرزقِ ليستْ دليلاً على كرامةِ صاحبهِ عند الله تعالى، كما أنَّ قِلَّته ليستْ دليلاً على إهانته، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّاۖ﴾ [الفجر].

فالقوم عملوا على تحصيل أسباب الرزق، فأتقنوا العلم والعمل، فوسَّع الله تعالى عليهم رغمَ كفرهم وفجورهم وفسادهم.

والمسلمون إذا ما حصَّلوا أسباب الرزق، وأحسنوا العلم والعمل مثلهم، وسَّع الله تعالى عليهم من فضله وكرمه.

ومع أنَّ الرزقَ في الدنيا متاحٌ للجميع بمشيئته تعالى، إلا أن مواقف الناس منه تختلف:

﴿وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي: فرح الكافرون بكثرة الغنى، وسعة الرزق، فرح بطرٍ وعنادٍ وفسادٍ، حصروا همَّهم في الدنيا، وقصروا نشاطهم عليها، فجعلوها غايتهم ومنتهى آمالهم، مع أنها في الحقيقة وسيلة إلى حياة أعلى وغاية أسمى، وهي الآخرة.

وأدَّى بهم الفرحُ بالدنيا إلى الاغترار بها، والاطمئنان إليها، فغفلوا عن الآخرة والعمل من أجلها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ

بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يونس].

﴿وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ أي: وما الحياة الدنيا بكلِّ ما فيها من رزقٍ ومتاعٍ في جانب الآخرة إلا شيءٌ قليلٌ يسير، تنقضي بسرعة كالزبد المنتفخ فوق الماء، لا يلبثُ حتى يتلاشى وينطفئ.

وصَرَفَهم اغترارُهم بالدنيا وتعلُّقهم بها عن رؤية شواهد الحق وأدلَّته، فأعرضوا عن آيات القرآن الكريم معاندين، وأقبلوا على النبيِّ ﷺ يسألونه مزيداً من المعجزات:

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ۝٢٧﴾.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ وهو الأمر المعجب الذي سبق ذكره في صدر السورة.

وردَّ سبحانه على طلبهم هناك بقوله: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧].

وجاء ردُّه تعالى هناك متناسباً تماماً مع موقع الآية من سباقها وسياقها. أما هنا فردَّ تعالى عليهم بقوله:

﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ فالهداية والإضلال بمشيئته تعالى التامة النافذة في كلِّ الموجودات، وليست المعجزاتُ سوى أسبابٍ قدَّرها العليم الحكيم لهدايةِ مَنْ شاء هدايته، ومهما أنزل تعالى عليهم من معجزات وخوارق عادات لن يؤمنوا إذا لم تتعلَّق مشيئتُهُ بهدايتهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١].

وهو سبحانه مع تمام مشيئته، عليم حكيم، يعلم أين يجعل هدايته، فيهدي إليه من أناب، أي: أقبلَ إلى الحق وتأمَّلَ في دلائله وشواهده، ورَجَعَ عن الباطل.

- **الاطمئنان بذكر الله تعالى:**

ونتيجة ذلك تنشرح صدور المؤمنين لدعوة الله تعالى، وتطمئن بذكره:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ الذين آمنوا برسالة النبي ﷺ، وتسكن قلوبهم وتستقر بالقرآن الكريم، فعندما تتلو كلام الله تعالى أو تسمعه يزولُ عنها الاضطرابُ والقلقُ والوحشةُ، وتمتلئُ بالسرور والسكينة والأنس.

وإطلاقُ الذكر على القرآن الكريم شائعٌ، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وقوله أيضاً: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٠].

وسببُ اطمئنان قلوبهم بذلك علمهم أنَّه أعظم المعجزات، فلا يقترحون الآيات التي يقترحها غيرهم(١).

والعدول إلى صيغة المضارع **(وتطمئن)** لإفادة دوام الاطمئنان وتجدده، فإنَّ القرآنَ الكريمَ معجزةٌ باقيةٌ إلى يوم القيامة(٢).

﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ أي: تطمئن القلوب بذكره تعالى لا بذكر غيره، فكأنَّ الذين لا يطمئنون بذكره لا قلوبَ لهم.

وسبب اطمئنان القلوب بذكره تعالى: لأنها فُطِرَتْ على معرفته وتوحيده، وكل الأدلة العقلية والشواهد الحسية تدلُّ على وجوده تعالى ووحدانيته، وهذا ما يجعلُ القلوبَ تستقرُّ وتسكنُ عند ذكره، دون أن يداخلها شيءٌ من القلق والاضطراب والحيرة التي تمتلئ بها قلوب الجاحدين المعاندين المنحرفين عن أصل الفطرة التي فطرهم سبحانه عليها.

---

(١) روح المعاني: ١٣/١٤٩.

(٢) تفسير أبي مسعود: ٣/ ٢٠.

ولا يتنافى هذا مع قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]؛ لأن وجل القلوبِ عند ذكره تعالى لا يتنافى مع اطمئنانها، فالاطمئنانُ عدم الشك والقلق والحيرة، لا عدمُ الخشية والتعظيم، والوجَل من آثار خشيته تعالى وتعظيمه، وقد تهتزُّ القلوب أولاً عند ذكره خشيةً وتعظيماً، ثم تطمئن وتسكن وتستأنس برحمته تعالى وفضله، كما قال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

وبما أنَّ ذكره تعالى ينفي عن القلوب الحَيرةَ والقلقَ والاضطرابَ، أمرنا سبحانه أن نكثر من ذكره وألا نغفل عنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب].

فبذكره سبحانه تبقى قلوبُنا مطمئنةً إليه، مستأنسةً بفضله ورحمته، فإذا ما نزل بها الموتُ سمعتِ النداء القدسي الكريم: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ [الفجر]. أسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم.

ولا شكَّ أنَّ مَنْ كان كذلك عاشَ حياة طيبة خالية عن القلق والحَيرة والاضطرابات النفسية والعقد العصبية، وما أكثرها في عصرنا الحاضر؛ بسبب غفلة الناسِ عن ربِّهم، وبُعْدِهم عن طاعته وشريعته، ولهذا قال تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ أي: فرحٌ وسرورٌ وقُرَّةُ عينٍ لهم. أو: خير وكرامة لهم. أو: عيش طيِّب لهم. والكلُّ متقارب.

و ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ عبارةٌ جامعةٌ، تدلُّ على أنَّ أطيبَ الأشياء في كل الأمور حاصل لهم[1].

---

(١) تفسير النيسابوري: ١٣/ ٨٦.

﴿وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ أي: ولهم أيضاً مصير ومرجع حسن، وهو الجنة.

- **المعجزة القرآنية:**

وبعد أن بينت الآياتُ كيف يؤدِّي اختلافُ المقدِّمات والمواقف في الدنيا إلى اختلاف في المصير والنتائج في الآخرة، التفتت إلى النبيِّ ﷺ، تبيِّنُ له المعجزةَ الكبرى التي خَصَّه الله بها، وتطلبُ منه أن يدعوَ المخالفين إليها، وأن يواجههم بها، ففيها من مؤيدات الحق وبراهينه وحُججه ما ليس في غيرها:

﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ﴾ أي: أرسلناك إلى أمَّة، كما أرسلنا من قبلك إلى الأمم السالفة، فأنتَ لستَ بِدْعاً في الرسل.

وفي الآيةِ إشارةٌ إلى ما تمتازُ به الأمة المسلمة التي أُرسِل إليها النبي ﷺ، فهي آخر الأمم.

﴿لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي: لتقرأ عليهم القرآن الكريم الذي أوحينا إليك، رحمة لهم وسبباً لهدايتهم.

ومع ذلك قابلوا هذه النعمة الكبرى بالإعراض والجحود:

﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي: والحالُ أنهم يكفرون بالرحمن الذي أرسلك رحمة للعالمين.

فلا تبالِ بعنادهم وإعراضِهم، واستمِرَّ في دعوتهم وتحديهم بما أوحى الله إليك.

﴿قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: الرحمنُ الذي كفرتم به وجحدتم فضله، هو خالقي ومالِكي، الذي ربَّاني وبلَّغني أعلى مراتب الكمال، فلا يستحق العبادةَ والطاعةَ أحدٌ غيره.

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ أي: توكلتُ عليه وحدَه، لا على غيره، وإليه توبتي ورجوعي، فارجعوا عما أنتم عليه من كفر وعناد.

فكلَّما ازدادَ القومُ تكبراً وعناداً وبُعْداً عن الله تعالى، ازداد النبيُّ ﷺ تذللاً له، وإعلاناً لشدة افتقارهِ إليه، واعتماداً عليه وحده ﷻ، وهو ما ينبغي على الدعاةِ إلى اللهِ تعالى أن يتحلَّوْا به، وهم يواجهونَ عنادَ المعاندين، وطغيان المتجبرين.

والقرآن الكريم الذي أوحاه الله إليك، هو معجزتك الكبرى، فجاهدهم به وأنت تدعوهم إليه، فهو **أعظم المعجزات**:

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ أي: ولو أنَّ قرآناً ما سيرت به الجبال إذا أنزل عليها.

﴿أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ﴾ أي: أو تصدعت به الأرض، وتشققت من هيبته.

﴿أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي: أو سمعته الموتى، وأجابت دعوته.

لكان هذا القرآنُ الذي أنزله الله تعالى عليك، فهو حقيقٌ أن يكونَ مصدراً لكلِّ أمر خارق للعادة، فهو معجزةٌ لا مثيل لها، فكيف يطلبون غيره؟!.

وقد يكون المعنى: لو كان شيءٌ من ذلك بقرآن غيره لكان به[(١)].

وحذف جواب ﴿لَوْ﴾ لاتجاه الكلام إليه، والمقصودُ من الآية بيانُ عِظَمِ شأن القرآن الكريم، وفسادُ رأي المخالفين الذين يقترحون غيره من المعجزات، وبيانُ غلوِّهم في المكابرة والعناد، وتماديهم في الضلال والفساد[(٢)].

ففي الآية مقارنةٌ بين المعجزة القرآنية، وبين غيرها من المعجزات التي أيَّدَ الله تعالى بها الأنبياء السابقين، فالمعجزةُ القرآنيةُ تمتازُ عليها كلّها، فإنَّه ليسَ

(١) انظر: نظم الدرر: ١٠/ ٣٤٠.

(٢) تفسير أبي السعود: ١٣/ ٢١.

ثمةَ حجةٌ ولا معجزةٌ أبلغَ ولا أنجعَ في العقول والنفوس من القرآن الكريم، الذي لو أنزله الله على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله.

ولقد صنع هذا القرآنُ في النفوس التي تلقَّته وتكيَّفت به أكثر من تسيير الجبال، وتقطيع الأرض، وإحياء الموتى، لقد صنع في هذه النفوس وبهذه النفوس خوارقَ أضخمَ وأبعدَ آثاراً في أقدار الحياة، بل أبعدَ أثراً في شكل الأرض ذاته، فكم غيَّر الإسلامُ والمسلمون من وجه الأرض، إلى جانب ما غيَّروا من وجه التاريخ[1].

وفي **الحديث الصحيح**: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**ما مِنَ الأنبياءِ نبيٌّ إلا أُعْطِيَ من الآياتِ ما مِثْلُهُ آمنَ عليهِ البشرُ، وإنَّما كانَ الذي أُوْتِيْتُهُ وحياً أوحاه اللهُ إليَّ، فأرجو أنْ أكونَ أكثرَهم تابعاً يومَ القيامةَ**» [رواه البخاري (٤٩٨١)].

فلقد انقرضت معجزةُ كلِّ نبي بموته، وأما القرآن الكريم فهو المعجزة الباقيةُ على امتداد الأيام، لا تنقضي عجائبه، ولا يَخْلَقُ على كثرة الردِّ، ولا يشبع منه العلماء.

﴿بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ﴾ أي: ليس الأمرُ بيدي، فأنا عبدٌ مرسلٌ، بل الأمر كلُّه لله تعالى، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، فهو سبحانه قادر على الإتيان بما اقترحتموه من الآيات والمعجزات، لكنَّ مشيئتَه لم تتعلق بذلك، كما قال تعالى عندما حكى مقترحاتهم: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥۗ قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾ [الإسراء].

- **تبشير وتثبيت:**

ويبدو أنَّ بعضَ المؤمنين تمنَّوْا خلقَ مثل هذه المعجزات طمعاً في إيمان المشركين، فأنزل الله تعالى:

---

(١) في ظلال القرآن: ٤/ ٢٠٦١.

﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ أي: أفلم يعلم ويتبين؟! واستعمل (اليأس) هنا بمعنى العلم؛ لأن الآيسَ عن الشيءِ عالمٌ بأنه لا يكون.

﴿أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۗ﴾ أي: أنه تعالى لو يشاءُ هدايةَ جميع الناس لهداهم، فإنَّه قادرٌ على ذلك، كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]، لكنَّه تعالى شاء أن يكونَ لهم كَسْبٌ واختيارٌ، ابتلاء لهم.

ثم حملت الآية إلى المؤمنين البشرى باقتراب النصر تثبيتاً لهم:

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ﴾ أي: تصيبهم قارعةٌ تقرعهم وتقلقهم؛ والمراد المصائبُ والبلايا التي ابتلوا بها، كالقتل والأسر وسنوات القحط والجدب.

﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ أي: تنزل قريباً منهم فتفزعهم وتقلقهم، بحيث يظلون دائماً في همٍّ وحُزْنٍ وخوف وقلق، فلن يتركهم الله تعالى آمنين مع طغيانهم وظُلمهم.

﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِۚ﴾ أي: حتى يأتي أمره تعالى، الذي قدَّره بالفتح والنصر، وكأن هذه الآية نزلت قبل فتح مكة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ فوعده حقٌّ وصدق لا يتخلَّف، وقد حقق سبحانه لهم كل ما وعدهم به من فتح ونصر وتمكين، كما في قوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًاۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔاۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

وبعد تبشير المؤمنين بالنصر وتثبيتهم، اتجهت الآيات إلى تثبيت النبي ﷺ:

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: أمهلتُهم وأخَّرت عقابهم.

﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي: فكيف كان عقابي إياهم؟ وهو استفهامٌ يفيدُ تعظيمَ العقاب الذي أنزله سبحانه بهم، ويحمل في طياته وعيداً شديداً لأمثالهم من المعاندين المستهزئين.

ثم بيَّنَ تعالى كمالَ قدرته، وأنهم جميعاً تحت قهر مشيئته، وبيَّن أيضاً عجز وضعف معبوداتهم وأصنامهم، بأسلوب الاستفهام الإنكاري، الذي ظهر لنا في كثير من آيات السورة:

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۗ﴾ أي: أفمن هو رقيب ومهيمنٌ على كلِّ نفسٍ بما عملتْ من خيرٍ أو شرٍّ، كمن ليس كذلك؟!.

وحذف الجواب لدلالة السياق عليه، وهو قوله سبحانه:

﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ﴾ أي: قل لهم على سبيل التحدي: اذكروا أسماء هؤلاء الشركاء، وبينوا أوصافهم، فإن أسماءهم وأوصافهم تدل على عجزهم وضعفهم وأنهم لا يستحقون العبادة.

﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أم تخبرونه أن له شركاء في الأرض، وهو لا يعلمهم، مع أنه تعالى يعلم ما في السموات والأرض؟.

﴿أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ﴾ أي: أم أنكم تتعلَّقون بمجرَّدِ أقوال باطلة لا أساس لها في الحقيقة والواقع؟.

وبعد أن أزاحت الآيات عنهم كلَّ الشبهات، وسدت عليهم جميعَ المنافذ، وطوقتهم بالحجج والبراهين الدامغة، واجهتهم بالحقيقة، وهي أنهم وقعوا أسرى أوهام وأضاليل:

﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ﴾ أي: بل حُبِّبَ للذين كفروا شركهم وعنادهم، بسبب اتباعهم لوساوس الشيطان، أو انقيادهم لأهوائهم وشهواتهم، فكانت النتيجة:

﴿وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ﴾ أي: ومُنِعوا عن السير على الطريق المستقيم، المؤدي إلى فضله تعالى ورضوانه.

﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾ أي: ومن يضلل الله تعالى بخذلانه وحرمانه من توفيقه ومعونته، فما له من هادٍ يوفقه للهدى؛ لأنَّ إرادته تعالى هي الغالبة النافذة في جميع المخلوقات.

● **العاقبتان:**

وهؤلاء الضالون المخذولون معذَّبون في الدنيا والآخرة:

﴿لَّهُمۡ عَذَابٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَقُّۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ٣٤﴾.

﴿لَّهُمۡ عَذَابٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ أي: هم في الدنيا أشقياء معذَّبون، بسبب القلق والحَيْرة والاضطراب الذي يملأُ نفوسهم، ويعشش في قلوبهم، فلا يتذوَّقون سكينةَ الإيمانِ وحلاوتَه، وبردَ اليقين، الذي يشعر به المؤمنون عندما يذكرونه سبحانه ويتلون آياته، كما مرَّ عند قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

وهم أشقياءُ أيضاً بأنواع المصائب والقوارع، التي ينزلها الله تعالى بهم، كما مرَّ قريباً: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوۡ تَحُلُّ قَرِيبٗا مِّن دَارِهِمۡ﴾ [الرعد: ٣١].

﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَقُّۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ﴾ أي: عذاب يوم القيامة أشق من عذاب الدنيا، لشدَّته ودوامه، وليس لهم هناك مانع يمنع عنهم عذابه تعالى.

ثم بيَّنت الآياتُ في مقابل شقاء هؤلاء وحرمانهم، بعض أنواع النعيم الذي أعدَّه الله تعالى للمؤمنين يوم القيامة:

﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَاۚ تِلۡكَ عُقۡبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۖ وَّعُقۡبَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ٣٥﴾.

﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ﴾ أي: صفة الجنة الغريبة العجيبة التي وُعِدَ

المتقون، فالمثل يُطْلَقُ على الشيء الغريب، وكل ما في الجنة غريب عجيب لا مثل له، كما في الحديث الشريف: عن **أبي هريرة** رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ: «**قال اللهُ ﷻ: أعددتُ لعبادي الصالحينَ ما لا عين رأتْ، ولا أذن سمعتْ، ولا خطرَ على قلبِ بشرٍ**» [رواه مسلم (٢٨٢٤)].

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي: تجري الأنهار تحت قصورها ودورها، وحيث شاء أهلها يفجرونها تفجيراً، قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥].

﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ أي: طعامها وثمارها وظلالها دائمة لا تنتهي، كما قال تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة].

وفي الحديث الشريف: عن **أبي هريرة** رضي الله عنه: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**إنَّ في الجنّةِ لشجرةً يسيرُ الراكِبُ في ظلِّها مئةَ سنةٍ لا يقطعها**» [رواه مسلم (٢٨٢٦)].

﴿تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ أي: تلك الجنة مآل المتقين ومصيرهم.

﴿وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ فشتان ما بين العاقبتين والمصيرين.

- **التنزيل العربي:**

وجاء بعد بيان العاقبتين مباشرةً وصفُ موقفي الفريقين من المعجزة القرآنية، وكأنَّه تعليل للاختلاف بين العاقبتين والمصيرين:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: من المسلمين، أو ممن سبقهم من أهل الكتاب: اليهود والنصارى.

والمراد: المنتفعون بالكتاب دونَ غيرهم، المؤمنون به الإيمان الصحيح، والمتمسِّكون بأحكامه، فكأنه ما أنزل إلا إليهم.

﴿يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ أي: يفرحون بما أَنْزَلَ الله إليك في القرآن الكريم، ولا تضيقُ صدورهم به، ولا يضطرِمُ في نفوسهم الحسدُ والبغي، كما حكى الله عن عامة أهل الكتاب في قوله: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٥].

﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾ أي: ومن الجماعات الكافرة الذين تحزَّبوا على النبي ﷺ من المشركين واليهود والنصارى، من ينكِرُ بعضَ القرآن الكريم، لأنَّه يتعارض مع عقائدهم الباطلة، فالمشركون أنكروا التوحيدَ والمعادَ وعيبَ آلهتهم وتسفيهَ أحلامهم، واليهودُ أنكروا النسخَ لأحكام شريعتهم، والنصارى أنكروا وصفَ المسيح بالعبوديةِ للهِ تعالى.

وأما ما في القرآن الكريم من قصص وأخبار عن الأمم الماضية، وحِكَم وأمثال، فما استطاعوا أن ينكروا شيئاً منها، فكأنَّهم بإنكارهم ما أنكروا من القرآن الكريم يريدونَ أن يكونَ تنزيلُهُ تابعاً لأهوائهم، ولهذا توجَّهت الآية تخاطب النبي ﷺ، تأمره أن يعلنَ تمسكه بكل ما أوحى الله تعالى به إليه:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓۚ إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾ فالعبادة والدعوة والمرجع إلى الله تعالى وحده، لا إلى أهوائكم المختلفة وأرائكم الباطلة، وهذا ما دعا إليه جميع الأنبياء السابقين.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّاۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّاۚ﴾ أي: وكما أنزلنا إلى الأنبياء السابقين، أنزلنا القرآن الكريم عليك حُكْماً قاطعاً ثابتاً ملزِماً، يفصل بين الحق والباطل، لا يقدر

أحدٌ أن يَنْقُصَ شيئاً منه، عربي اللسان واللغة، كما قال تعالى في **سورة الشعراء**: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾.

فتمسَّكْ به، واحذرهم أن يضلوكَ عن شيء منه:

﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ أي: ما لكَ وليٌّ ينصرُك من الله، ولا واقٍ يقيكَ من عذابه.

ومثلُ هذا التحذير والوعيد للنبيِّ ﷺ يؤكد أنَّ القرآن الكريم كلام الله تعالى، ولا دخلَ للنبيِّ ﷺ فيه إلا التلقي والتبليغ، كما أنَّ فيه حسماً لأطماع الكافرين، وتهييجاً للمؤمنين على الثبات والتمسُّك بجميع ما كلَّفهم الله تعالى به، فإذا كان هذا حالُ النبيِّ ﷺ، فكيف يكون حالُ غيره.

وبمثل هذا الخطاب ثبَّتَ اللهُ تعالى النبيَّ عليه الصلاة والسلام في مواجهة مكرهم وكيدهم وعنادهم، كما في قوله في **سورة الإسراء**: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾.

واعترض أكثر المنكرين لبعض القرآن الكريم، على بشرية النبي ﷺ مع أنَّ شأنه ﷺ في هذا شأن جميع الأنبياء والمرسلين:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ﴾ أي: كما أرسلناك أرسلنا رسلاً من قبلك.

﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً﴾ أي: وهم يتصفون بالصفات البشرية من الزواج والتوالد، وهي من أبرز الصفات المحسوسة التي تدل على بشريتهم.

ودلَّت الآيةُ على أنَّ الزواجَ من سُنَنِ المرسلين، كما دلَّت على أنَّ إرساله

تعالى لهم كان بمحض إرادته ومشيئته، فما كان للرسل أيُّ تدخل فيما أوحاه إليهم، وفي المعجزات التي أيدهم بها.

﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: وما كان لأيِّ رسولٍ منهم أن يأتيَ بمعجزةٍ إلا بمشيئة الله تعالى، الذي قدَّر كلَّ شيء، وجعل لكلِّ مقدَّر أجلاً محدوداً، لا يتقدم عنه ولا يتأخر:

﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ أي: لكل أمرٍ قضاه الله تعالى أجل مؤقت بوقت محدود معلوم.

- **المحو والإثبات:**

فلا يتحرَّك في الكون متحرِّك، ولا يسكن ساكن، إلا بمحض مشيئته وقدرته جلَّ وعلا:

﴿يَمْحُوا ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿يَمْحُوا ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ أي: يدبِّر أمر المخلوقات والمكونات حسب مشيئته تعالى، وكما سبقَ في علمه الأزلي الذي أحاط بكل مقدراته، كما مرَّ معنا في أول السورة: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ [الرعد: ٢].

وكما قال سبحانه في **سورة آل عمران**: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾.

وقد اختار هذا المعنى الإمام الطبري رحمه الله في تفسيره من بين أقوال كثيرة للمفسِّرين، عرضها ثم قال: «وأولى الأقوال التي ذكرت في ذلك بتأويل الآية وأشبهُها بالصوابِ، القولُ الذي ذكرناه عن الحسن ومجاهد، وذلك أنَّ الله تعالى ذكره توعَّد المشركين الذين سألوا رسول الله ﷺ الآيات بالعقوبة، وتهدَّدهم بها، وقال لهم: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨].

يُعْلِمهم بذلك أنَّ لقضائه فيهم أجلاً مثبتاً في كتاب، هم مؤخَّرون إلى وقتِ مجيءِ ذلك الأجل، ثم قال لهم: فإذا جاء ذلك الأجلُ، يجيءُ اللهُ بما شاء ممن قدَّرنا أجله، وانقطع رزقه، أو حان هلاكُه أو اتضاعُهُ، من رفعةٍ أو هلاكِ مالٍ، فيقضي ذلك في خلقه، فذلك محوه، ويثبتُ ما شاءَ ممَّن بقي أجلُهُ ورزقُه وأكلُه، فيتركه على ما هو عليه، فلا يمحوه[1].

فالمحو والإثبات على هذا القول في المكوَّنات لا في الأقدار، وهو مرتبطٌ بموضوع السورة الأساس، فالله سبحانه هو وحده الخالق المدبِّر المؤثر، والأسباب لا تخلق ولا تؤثِّر، ولا تثبت ولا تمحو، والكل يحدث بمشيئته تعالى وقدرته.

والجدير بالذكر أنَّ جمهور المفسرين حملوا المحو والإثبات في الآية على محو الأقدار المكتوبة وإثباتها، واختلفَ القائلون بذلك، فحمل بعضُهم الآية على الخصوص، وأخرجوا من عمومها السعادة والشقاوة، والحياة والموت، فهي مقدَّرات ثابتة لا تُمحى، وحمل آخرون الآية على العموم، فالأقدارُ برأيهم يمحو الله ما يشاء منها، ويثبت ما يشاء، واستدلوا بقول النبي ﷺ: «**مَنْ سَرَّه أن يُبْسَطَ له في رزقِهِ، وأن يُنْسَأَ له في أثرِهِ فليصِلْ رَحِمَهُ**» [رواه البخاري (٢٩٨٥)].

وبما رواه **الإمام أحمد** [٥/ ٢٧٧] عن **ثَوْبانَ**: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**إنَّ الرَّجُلَ لَيُحْرَم الرزقَ بالذنبِ يصيبُهُ، ولا يَرُدُّ القدرَ إلَّا الدعاءُ، ولا يزيدُ في العُمُرِ إلا البِرُّ**».

وبما روي عن بعض الصحابةِ والتابعين: أنَّهم كانوا يتضرَّعون إلى الله تعالى أن يثبِّتهم في السعداء، فقد أخرج ابن أبي شيبة في «**المصنف**» [٣٠٠٢٣]: عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: **ما دعا عبدٌ قط بهذه الدعواتِ، إلا وُسِّعَ عليه في معيشته: يا ذا المنِّ ولا يُمَنُّ عليه، يا ذا الجلالِ والإكرامِ، ويا ذا الطَّوْلِ**

---

(١) جامع البيان: ١٣/ ١١٤.

والإنعامِ، لا إلهَ إلَّا أنتَ ظَهْرُ اللاجئينَ، وجَارُ المستجيرينَ، وَمَأْمَنُ الخائفينَ، إنْ كنتَ كتبتني عندك في أُمِّ الكتابِ شقيّاً فامحُ عني اسمَ الشقاوةِ، وأثبتني عندكَ سعيداً، وإنْ كنتَ كتبتني عندكَ في أُمِّ الكتابِ محروماً مقتَّراً عليَّ رزقي، فامحُ حِرماني، ويسِّرْ رزقي، وأثبتني عندكَ سعيداً موفَّقاً للخير، فإنَّكَ تقولُ في كتابك الذي أنزلتَ: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

وأخرج عبد بن حميد وغيره: عن عمر رضي الله عنه: أنَّه قال وهو يطوفُ بالبيت: **اللهمَّ إنْ كنتَ كتبتَ عليَّ شقوةً أو ذنباً فامحُهُ، واجعلْهُ سعادةً ومغفرةً، فإنَّك تمحو ما تشاءُ وتثبتُ، وعندَكَ أُمُّ الكتابِ**[1].

وجمعوا بين هذه الأحاديث والآثار، وبين قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: ٦١] بحمل ما وردَ من الزيادةِ على البركة في العمر، والتوفيق إلى الطاعة، وعمارة وقته بما ينفعه في الآخرة، ويُبقي له ذكراً حسناً بعد موته.

وقد تكونُ في رأي بعض العلماء الزيادةُ حقيقيةً، وذلك بالنسبة إلى علم الملَك الموكل بالعمر، وقد سبقَ في علم الله تعالى ما يكونُ ويقعُ، وهو لا يتقدَّم ولا يتأخر، فالمحو والإثبات بالنسبة لما في علم الملك، وما في أم الكتاب هو الذي في علم الله تعالى، فلا محوَ فيه البتةَ، ويقال له: القضاءُ المبرَمُ، ويقال للأول: القضاءُ المعلَّقُ[2].

وقد يقال على هذا: ما الحكمةُ في تعليق هذه الأقضية على بعض الأعمال بالنسبة لعلم الملائكة؟.

لا شكَّ أنَّ في ذلك حِكَماً كثيرة، وقد يكونَ منها إظهارُ فضل هذه

---

(١) روح المعاني: ١٣/١٦٩.

(٢) فتح الباري: ١٠/٤١٦.

العبادات، كالصدقةِ والدعاءِ وصلةِ الرحمِ، وترغيبِ الناس فيها، لأنَّهم مفطورون على حب الحياة وسعة المال والغنى.

﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: عنده تعالى العلم الثابت الأزلي الذي لا محو فيه ولا تغيير، وهو الأصل لجميع ما يكتب.

والمشهورُ عند أكثر المفسرين أنَّه اللوحُ المحفوظ الذي لا يغيَّرُ ولا يبدَّلُ ما فيه، وما من كائن إلا مكتوب فيه.

ويقوِّي ما اختاره الإمام الطبري بأنَّ المرادَ من المحو والإثبات تدبيره تعالى لأمر مخلوقاته، حسب مشيئته وعلمه وحكمته، قوله تعالى بعد ذلك:

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ أي: إنزال العذاب بهم، كما مرَّ في قوله تعالى: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الرعد: ٣٤].

وقوله جَلَّ: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ [الرعد: ٣١].

﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ أي: نقبضك ونميتك قبل ذلك.

﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ أي: إنَّما عليكَ تبليغُ الرسالة فقط، وليس من الضروري أن ترى نزول العذاب بهم، فإنَّه منوطٌ بالأجل الذي قدره تعالى، وسبق به علمه، وهو لا يتغير ولا يتبدل.

﴿وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ أي: حسابهم وجزاؤهم علينا لا عليك، فلا تهتمَّ بما وراءَ تبليغ الرسالة، وما يترتَّبُ على التبليغ من مسؤولية وحساب، كما في قوله سبحانه في **سورة الغاشية**: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾.

فعلى الداعي إلى الله تعالى أن يهتمَّ بالدعوة فقط، دون أن يتطلع إلى النتائج، فهي في حَدِّ ذاتها غايةٌ وعبادةٌ من أعظم العبادات، وثباته عليها من

أجلِّ النعم، وأعظم الانتصارات، فأنتَ أيها الداعي عبدٌ لله تعالى وتدعو إلى الله تعالى، ولست عبداً للنصر والفوز، إنَّ الدعاة إلى الله تعالى ليس عليهم إلا أن يؤدّوا تكاليفَ الدعوة في كلِّ مراحلها، وليس عليهم أن يبلغوا بها إلا ما يشاؤه الله، كما أنّه ليس لهم أن يستعجلوا خطوات الحركة، ولا أنْ يشعروا بالفشل والخيبة إذا رأوا قدر اللهِ يُبطِّئُ بهم عن الغلب الظاهر والتمكين في الأرض(١).

• **حُكمه تعالى المبرم وشهادته الخالدة:**

وفي الآيةِ أيضاً تهديدٌ غيرُ مباشر للكافرين، أتبعه سبحانه بتهديد صريح مباشر فقال:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤١)﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ أي: ننقصها بظهور المسلمين عليها، فالمرادُ على هذا المعنى: أرضُ مكة، وأطرافها: ما حولها، أو ننقصها بخرابها، أو بموت أهلها، أو بموت علمائها وفقهائها وأهل الخير فيها.

والأولى حمل الآية على العموم، فهي تدعو المشركين إلى الاتعاظ بمصير القرى الهالكة، والأمم البائدة المعذبة من حولهم، حتى لا يغتروا بطول أعمارهم، وكثرة أموالهم، كما في قوله تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٤].

وكقوله أيضاً: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٧].

﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾ أي: لا راد لحكمه، فهو نافذ وواقع لا محالة، ليس له دافع ولا مانع، ولا يتعقب حكمَه أحدٌ بتغيير أو نقص.

---

(١) في ظلال القرآن: ٤/ ٢٠٦٥.

﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: له سبحانه كمال القدرة، ولا يشغله حساب عن حساب، بل يحاسبهم يوم القيامة جميعاً، ويجازيهم جميعاً.

﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: مكر الكافرون من قبلهم بالرسل والمؤمنين، فكان مكرُهم وبالاً عليهم، كما يمكر المشركون برسول الله ﷺ وأصحابه.

﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ﴾ أي: مكرهم لا يؤثِّر إلا بمشيئته تعالى وقدرته، فهو خالق الأسباب والمسببات فمكر من مكرَ منهم لا يضرُّ ولا يؤثِّر، إلا إذا وافقَ قدر الله تعالى، كما جاء في قول نبي الله إبراهيم عليه السلام وهو يناظر قومه: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٨٠].

فلا يصاب الإنسان إلا بما سبق به علمه تعالى، وتعلَّقت به مشيئته: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١].

وقال سبحانه: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧].

﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ﴾ أي: يعلمُ ما تكسب وتختار كل نفس من خير أو شر، كما مرَّ عند قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ﴾ [الرعد: ٣٧].

ومع هذا الكسب والاختيار، لا يقع إلا ما سبق به علمه سبحانه وتعلَّقت به مشيئته، فلا تأثير لمكرهم إلا إذا وافق قدر الله تعالى.

﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ أي: وسيعلمون لمن تكون العاقبة الطيِّبة المحمودة والتي ذكرتها آيات السورة أكثر من مرة، كقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾، وقوله: ﴿تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾﴾.

ثم بينت الآيات في آخر السورة شدةَ عنادِهم، وتحجُّرَ عقولهم، وقسوة

قلوبهم، فلا يزالون ينكرون صحة نبوَّته عليه الصلاة والسلام، وصدقَ رسالته، بعد كلِّ هذه الدلائل الشواهد والأمثال الحسية والعقلية:

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًاۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًاۚ﴾ وأُمِرَ النبيُّ ﷺ أن يقولَ لهم مقابل جحودهم وعنادهم:

﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: شهادته تعالى على صدق رسالتي وصحة نبوتي تكفي عن كل شهادة، فهي أعظمُ من كلِّ شهادةٍ، ولا تكون إلا حقّاً وصدقاً.

﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: وشهادةُ من عنده علم القرآن الكريم، وما فيه من إعجاز يدلُّ على صدق النبيِّ ﷺ، وصحة رسالته، والذين سبق بيان صفاتهم في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾ [الرعد].

وقيل: المرادُ بالكتاب: التوراةُ والإنجيلُ، ويكون المراد على هذا بمن عنده علم الكتاب: من أسلمَ من أحبار اليهود والنصارى، كعبد الله بن سلام رضي الله عنه.

والأولى حملُ الآية على العموم، فيدخلُ فيه من أسلمَ من أحبار اليهود والنصارى، وهو ما يتفق مع ما سبق في السورة من إشادة بالقرآن الكريم، وتنويه بدلائل الإعجاز التي فيه، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰۗ﴾ [الرعد: ٣١].

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

وقوله أيضاً: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّاۚ﴾ [الرعد: ٣٧].

وفي إضافة شهادة المؤمنين إلى شهادة الله تعالى، تكريمٌ كبيرٌ لهم، وتنويهٌ بعلمهم ومعرفتهم، فهو كقوله سبحانه: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النِّساء: ١٦٦].

ونحن نشهدُ بما شهدَ الحقُّ سبحانه به، نشهدُ بصدقِ النبيِّ ﷺ وصحةِ رسالته، ونسأله تعالى أن يثبتنا عليها.





تفسير سورة إبراهيم

الدَّعْوَةُ والهِدَايَةُ فِي سُورَةِ إِبْرَاهِيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المُقَدِّمَةُ

موضوع السورة

دارت آيات سورة إبراهيم في فَلَك الدعوة والهداية، فبدأت بالحديث عن دعوة النبي الخاتم عليه الصلاة والسلام، ووظيفته الكبرى في إخراج الناس من الظلمات إلى النور، ليسيروا على منهج الحق والصراط المستقيم.

وثنَّت بالحديثِ عن دعوة موسى عليه السلام، وأوردت معها دعوةَ الأنبياء عليهم السلام مجملةً، فأظهرت بذلك وحدة دعوتهم ووحدة مصدرها.

وقبل ختامها عرضت دعوة إبراهيم عليه السلام من خلال دعواته الضارعة الخاشعة التي رفعها من جوار بيت الله الحرام.

والمقصد الأساسُ من الدعوة الهدايةُ إلى عبادة الله الواحد الأحد، والدعوةُ سببُ الهدايةِ والطريقُ المؤدي إليها، وبينهما ما بين الأسباب والمسببات من الارتباط، وفي الوقتِ نفسه لا تكونُ الهدايةُ إلا بإذنه تعالى ومشيئته، فهو الخالق والمالك والمدبر، ولا يحدُثُ شيءٌ في الكون إلا بعلمه ومشيئته: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾ [إبراهيم: ١].

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

ولهذا كان التثبيت على الهداية أول شيء سأله إبراهيم عليه السلام في دعواته: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

وهو ما يحتج به يوم القيامة رؤساء الضلال على أتباعهم: ﴿قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢١].

ومع ذلك فالإنسانُ المكلَّفُ مسؤولٌ ومحاسبٌ، لأنَّ له اختياراً وكسباً وقدرة على التمييز، وفعل ما يختاره، وهو ما يحتج به الشيطان يوم القيامة على أتباعه: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وقد أقامَ الله تعالى الحجةَ على الناس بدعوة الرسل إليهم، ففيها البلاغُ والكفايةُ لمعرفة الصراط المستقيم، والخروجِ من ظلمات الجهل والضلال والشرك، إلى نور الإيمان وهدايته.

ويبقى الإنسانُ دائماً مفتقراً إلى الله تعالى في الهداية وفي الثبات عليها، والاستمرار على الصراط المستقيم حتى تنتهيَ حياته الدنيا، ولهذا عليه دائماً أن يلجأ إلى الله تعالى، يسأله المعونةَ والتثبيتَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة].

❁ ❁ ❁

تفسير سورة إبراهيم

الدَّعْوَةُ والهِدَايَةُ في سُورَةِ إِبْرَاهِيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝٢ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ۝٣ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٤ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٥ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝٦ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ۝٧ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ۝٨ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝٩ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝١٠ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا

بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ
وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ
لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٣﴾
وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ
كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا
يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ
غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَـٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا
يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَـٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ
ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ
﴿٢٠﴾ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ
عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَـٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا
لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ
فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟
أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ
ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ ﴿٢٣﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً
طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ
رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ
خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ
فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ
إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ
ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل
لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا

بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ
مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ
﴿٣٢﴾ وَسَخَّر لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا
سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ وَإِذْ قَالَ
إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ
كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن
ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ
تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا
يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ
إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا
وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ
ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ
مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ
فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟
أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ
وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ
وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ
وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟
لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن
قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ
﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾ ۞ .

- **دعوة النبيِّ الخاتم ﷺ:**

بدأت سورة إبراهيم ببيان دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام، ووظائفهم التي كُلِّفوا بها، من خلال الحديث عن دعوة خاتمهم عليه الصلاة والسلام، ووظيفتِهِ التي كُلِّفَ بها، والتي هي أثقل الوظائف، وأعظمُها سعةً وشمولاً، إذ كان كل نبي يُبعث إلى قومه خاصة، وبُعث النبي الخاتم عليه الصلاة والسلام إلى الناس كافة.

افتتح الله تعالى آيات السورة بالحروف النورانية المقطعة، كما افتتح سورة الرعد قبلها، ومرَّ معنا أنَّ فاتحةَ **سورة الرعد** رباعيةُ الأحرف: ﴿الٓمٓرۚ﴾، وأما سورة إبراهيم فثلاثيةُ الأحرف:

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝١﴾.

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾ أي: هذا كتابٌ أنزلناه إليك، والخطاب للنبي ﷺ.

﴿لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي: لتخرجَ الناس بدعائك إياهم من ظلمات الجاهلية والكفر والضلال، إلى نور الإيمان وهديه وعدله.

ودلت كلمة ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ على كثرةِ طرق الكفر ومِلله، بينما دلَّت كلمة ﴿ٱلنُّورِ﴾ على أنَّ طريقَ الإيمانِ واحدٌ لا ثاني له، وفي كلمة ﴿ٱلنُّورِ﴾ أيضاً إشارة إلى وضوحه، وكثرة بيانه وحججه وبراهينه.

﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾ أي: تخرجهم من الظلماتِ إلى النورِ بتيسير ربهم وتوفيقه، أو بمشيئته سبحانه، فمن النبيِّ ﷺ الدعوةُ والتبليغُ والبيانُ، ومن الله تعالى التوفيقُ والهدايةُ.

والعلاقةُ بين الدعوة والهداية كعلاقة الأسباب بالمسببات، كما سبق تقريره في **سورة الرعد**، فالارتباطُ بينهما بالوجود فقط، وأمَّا التأثيرُ فللَّه تعالى، الذي قال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦].

فهو سبحانه عليم حكيم، يعلم أينَ يجعل هدايته، كما يعلمُ أينَ يجعلُ دعوته ورسالته، قال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ [الرعد: ٣٧].

﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ أي: إلى دين الإسلام، وهو طريقُ العزيز الذي لا يغلب، والحميد المستحقُّ للحمد على إنعامه وإحسانه جلَّ وعلا.

وفي ذكر الاسمين الكريمين من أسمائه الحسنى تنويهٌ بالقرآن الكريم المُعْجِز، الذي لا يقدِرُ على إنزاله إلا العزيز الذي لا يغلب، والمستحق للحمد على كماله وتفضله بهذه النعمة العظمى على عباده، كما أنَّ فيهما حثّاً على التمسك بدين الله وشرعه، والإذعان لأحكامه، فالهدايةُ إلى النور لا تتم إلا بالاستسلام لدين الله تعالى، والرضا بأحكام شريعته، فالعقيدةُ والشريعةُ وجهان لحقيقة واحدة لا يمكن الفصل بينهما.

﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾﴾.

﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ﴾ أي: له ما في السموات وما في الأرض خلقاً وملكاً وتدبيراً، وهو دليلٌ على غناه جلَّ وعلا، فهو غني عن عبادتنا وطاعتنا، وما أرسل إلينا الرسل وأنزل علينا الكتب إلا بمحض رحمته وإحسانه، ولهذا توجهت الآية تتوعَّد المعرضين عن رحمته تعالى والجاحدين لها:

﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ أي: في يوم القيامة، يوم المسؤولية والجزاء.

• أسباب الضلال:

ثم بيَّنت الآياتُ أنَّ أسبابَ وقوعهم في العذاب الشديد يوم القيامة نابعة من داخل نفوسهم، إذ هي نتيجة كسبهم واختيارهم:

﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: الذين يفضّلون الحياة الدنيا

على الآخرة، ولهذا تراهم منصرفين إلى الدنيا فقط، منهمكين بالعمل لها، غافلينَ عن عمل الآخرة، كما في قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝٢٠ وَتَذَرُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ [القيامة].

وقوله أيضاً: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى].

ودلَّت كلمةُ ﴿يَسْتَحِبُّونَ﴾ على اختيارهم وكسبهم، حتى إنَّ بعضَ المفسِّرين قال في تفسيرها: يختارونها عليها، فإنَّ المختار للشيء يطلب من نفسه أن يكونَ أحبَّ إليها من غيره[١].

وقال الإمام الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يعني جلَّ ثناؤه بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ الذين يختارون الحياة الدنيا ومتاعها ومعاصي الله فيها، على طاعة الله وما يقرِّبهم إلى رضاه من الأعمال النافعة في الآخرة»[٢].

فالتعلُّقُ بالدنيا والانهماكُ بهما من أكبرِ أسبابِ الإعراض عن دعوة الأنبياء والمرسلين.

﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: يعرضون بأنفسهم، ويمنعون غيرهم عن قبول الدعوة التي تخرجهم من الظلمات إلى النور.

﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: ويطلبون أن يروا في دعوة الله تعالى ما يكون عوجاً قادحاً فيها.

أو: ويصفون دين الله تعالى وشريعته بالاعوجاج بواسطة الافتراء والكذب، كما يفعل ملاحدة هذا العصر من دعاة الإلحاد والعلمانية، فهم يصفون الشريعة الإسلامية بالقصور والجمود، والعجز عن تلبية الحاجات التشريعية للعصر الحاضر، وهي في الحقيقة مستقيمة وقوية وغنية؛ تلبِّي حاجات الناس في كل عصر ومصر، وصدق الله العظيم القائل في **سورة هود**: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَـٰدُ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝١٨ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ۝١٩﴾.

---

(١) تفسير البيضاوي: ٣/٥٠٨.

(٢) جامع البيان: ١٣/١٢١.

ويمكن أن يكون المعنى: ويريدون مِنْ أهلها أن ينحرفوا عنها، بهجرِها والإعراض عن أحكامها.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ﴾ أي: ضلوا عن دعوة ربهم، وابتعدوا كثيراً عن صراط العزيز الحميد.

• تيسير أسباب الهداية:

ومن رحمته سبحانه بالناس أنه يسَّر لهم أسباب الهداية، وقرَّب الدعوة منهم، وذلك بإرسال كل رسول بلغة القوم الذي أرسل إليهم:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٤﴾.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾ أي: وما أرسلنا من رسولٍ قبلك يا محمَّدُ ﷺ إلا بلغة القوم الذين أرسل إليهم.

ويُطْلَقُ اللسانُ على الجارحة واللغة، والمراد هنا اللغة، كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢].

﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾ أي: ليبيِّنَ لهم رسالته ودعوته، فيسهل عليهم فهمها، ولا يكون لهم عذر في الإعراض عنها.

ومن المعلوم: أنَّ النبيَّ الخاتم ﷺ بُعث إلى الناس جميعاً، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقال أيضاً: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [سبأ: ٢٨].

وألسنة الناس مختلفة، ولغاتهم متنوعة، فالحجة قامت على العرب، فكيف تقوم على غيرهم؟!.

والجواب: إنها تقوم عليهم بتبليغهم الرسالة، وذلك بنقل مبادئها ومضمونها إلى لغاتهم، وهي مسؤولية العرب على وجه الخصوص أكثر من غيرهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ﴾ [الزُّخرُف: ٤٤].

وتدل الآية أنَّ على الدعاة أن يتعلَّموا لغةَ القوم الذين يدعونهم، لكي يتمكنوا من إيصال الدعوة إليهم، وذلك من أسباب تيسير فهمها وقبولها.

﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ أي: فيخذل الله تعالى من يشاء عن قبول الدعوة، ويوفق لقبولها من يشاء، فالدعوةُ وتبليغُ الرسالة سببٌ للهداية، وهي وظيفة الرسل، أمَّا قبول الدعوة والهداية إليها فمن الله تعالى، حسب مشيئته وسابق علمه، ولذلك رفع: ﴿فَيُضِلُّ﴾ لأنه أريدَ به الابتداءُ لا العطفُ على ما قبله[1].

﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ أي: وهو سبحانه الغالب على أمره، الفعَّال لما يريد، والحكيم في توفيق من وفَّقه للإيمان وهداه إليه، وفي إضلال من أضلَّه عن الإيمان، كما في قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

- **دعوة موسى** عليه السلام:

واختارت الآياتُ بعد الحديث عن دعوة النبي الخاتم ﷺ، الحديثَ عن دعوة موسى عليه السلام، ففيها ما يميِّزها عن دعوة الأنبياء، فقد كانت موجهةً لأمتين مختلفتين: الأمة المصرية الحاكمة، والأمة الإسرائيلية المحكومة المقهورة.

وقد أيَّد الله تعالى دعوة موسى بمعجزات حسية كثيرة وكبيرة، تدلُّ على صدق دعوته وصحة رسالته، ونجحَ موسى عليه السلام مع أخيه هارون، بعدَ طول معاناة وصبر، فخلَّص بني إسرائيل من الظلم الذي كانوا يعانون منه، وكان عليه

---

(١) تفسير الطبري: ١٣/ ١٢١.

بعدَ ذلك أن يركِّز دعوته على بني إسرائيل، ليثبتها في قلوبهم، ويجعلهم يلتزمون بصراط العزيز الحميد، ويتمسَّكون بشريعة التوراة التي كلَّفهم سبحانه بها.

واقتصرت الآيات على إظهار هذا الجانب من دعوة موسى عليه السلام لصلته بموضوع السورة:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٥﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أي: بالمعجزات التي أيدناه بها.

﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي: أخرجهم بالدعوة من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان.

﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ﴾ أي: وذكرهم بما في أيام الله السالفة من النقم والنعم التي مرَّت عليهم أيام المحنة والشدة والبلاء، حين كانوا تحت قهر فرعون وجنوده، وأيام الفرج والنصر والعزة، حين أصبحوا ملوكاً بعد أن كانوا مملوكين.

فالآيةُ تتحدَّثُ عن المرحلة الثانية لدعوة موسى عليه السلام، بعد النجاة من فرعون وظلمه، وهي المرحلةُ التي توجبُ على بني إسرائيل الانقيادَ والإذعانَ لله تعالى، وشكره ومعرفة فضله وإحسانه عليهم.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي: إن في هذا التذكير دروساً وعبراً ينتفع بها كل صبار شكور.

والصبَّار: الكثيرُ الصبرِ على طاعة الله تعالى وعن معاصيه، وعند التعرُّض للبلاء والمحن، **والشكور**: الكثير الشكر لله تعالى على نعمه وإحسانه.

والآية تشيرُ إلى أنَّ حياة الإنسان لا تستمرُّ على وتيرة واحدة، فقد يُبتلى بالخير تارةً، وبالشرِّ تارة أخرى، كما في قوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وعلى الإنسان أن يواجه ظروفَ الحياة وتقلُّباتها بالصبر والشكر، ولا يتمُّ له

هذا إلا إذا كان مؤمناً بالله تعالى، فالإيمانُ أمرٌ ضروري للإنسان، به تصبح حياته خيراً مهما تغيَّرت وتبدَّلت، كما في الحديث الشريف: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**عجباً لأمرِ المؤمنِ، إنَّ أمرَهُ كلُّه خَيْرٌ، وليسَ ذلكَ لأحدٍ إلا للمؤمنِ، إنْ أصابتْهُ سرّاءُ شكرَ، فكانَ خيراً له، وإنْ أصابتْهُ ضرَّاءُ صَبَرَ، فكانَ خيراً له**» [رواه مسلم (٢٩٩٩)].

ولا يعرف الإنسانُ قيمة النعمة، ويتذوّق طعمها الحقيقي، إلا إذا عرف طعم الحرمان، وتذكر أيام الظلم والطغيان، ولهذا ذكَّر موسى عليه السلام قومه بالظلم الذي كانوا فيه:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾﴾.

أي: وفي تخليصكم من ظلم آل فرعون نعمة عظيمة، لا تستطيعون أن تقوموا بحقِّ شكرها.

ويمكن أن يكونَ معنى كلمة ﴿بَلَآءٌ﴾ اختبارٌ وامتحانٌ من الله تعالى لكم، في حال المحنة وفي حال النعمة، فعليكم بالصبر والشكر، وأقبلوا على عبادته تعالى وطاعته، وتمسَّكوا بشريعته، فهو كقوله تعالى: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

وسَنَّ موسى عليه السلام للدُّعاة إلى الله تعالى من بعده أسلوباً كريماً في الدعوة، فتذكير الناس بأيام الله تعالى، وما كان فيها من نقم ونعم، يرقِّق قلوب المدعوين، ويفتح نفوسهم للاستجابة وقبول الدعوة.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ﴾ أي: آذنكم ربُّكم، وأعلمكم

إعلاماً واضحاً، على لسان رسله، وفي كتبه المنزلة، لئن شكرتموني على نعمي وإحساني لأزيدنَّكم منها، فالشكرُ سببٌ لدوام النعم، وزيادة الفضل والإحسان، وحقيقةُ الشكر الاعترافُ بنعمة المنعم وفضله مع تعظيمه وطاعته.

﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ أي: إن جحدتم فضلَه تعالى عليكم، وأعرضتُم عن طاعته وعبادته، فإنَّ عذابه الذي ينزله بكم شديد في الدنيا وفي الآخرة، ففي الدنيا تزولُ النعمةُ، وتحرمون من التمتع بها، وفي الآخرة بعذاب جهنم.

ويبدو أن موسى عليه السلام أحسَّ مِنْ قومه العنادَ، والاستمرار على ما كانوا عليه من الفساد، فشدَّدَ عليهم بالوعيد، وأغلَظَ له بالترهيب:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾﴾.

فهو جلَّ وعلا غنيٌّ عنكم وعن جميع المخلوقات، لا تنفعه طاعتكم، ولا يضرُّه كفركم وفجوركم، مستوجبٌ سبحانه للحمد بذاته، لكماله جل جلاله، وإن لم يحمده أحدٌ من خلقه.

- **دعوة الرسل** عليهم السلام:

ثم ذكَّرهم موسى عليه السلام بأيَّام الأمم قبلهم، وبالعذاب الذي أنزله الله تعالى بهم، بسبب كفرهم وإعراضهم عن دعوة الرسل عليهم السلام:

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾﴾.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أي: لا يحصي عددَهم ولا يحيطُ بهم علماً إلا الله تعالى، ممَّا يدل على كثرتهم.

﴿جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ أي: جاءتهم رسلهم بالحجج الواضحة والمعجزات الدالة على صدق دعوة الرسل.

﴿فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ أي: كذَّبوا الرسل، وردُّوا أقوالهم، ووضعوا أيديهم على أفواههم تكذيباً لهم وتسكيتاً.

﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ﴾ أي: وقالت الأممُ المعاندة لرسلهم: إنَّا ننكر صحة رسالتكم وصدق دعوتكم.

﴿وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ﴾ أي: وإنَّا في شك مُوْقِع بالريبة مما تدعوننا إليه، وهو الإيمان بالله تعالى وتوحيده.

ودلَّت الآية على أنَّ موقف الأمم المكذِّبة من دعوة الرسل متشابهة، مع أنها كانت أمماً كثيرة، وعاشت في بلاد متباعدة، وأزمان مختلفة، فالبنية النفسية والعقلية للإنسان بقيت كما هي، لم تتغير ولم تتبدل، على الرغم من تبدُّل أنماط المعيشة وتطورها.

ودلَّت الآية أيضاً على أنَّ دعوةَ الرسل واحدةٌ، وأنهم اتبعوا أسلوباً واحداً في مواجهة أقوامهم، وهذا يدلُّ على أنَّ مصدرَ رسالتهم واحد، وهو وحي الله تعالى، فدعوة الرسل من الله تعالى، وإلى الله ﷻ.

وردَّ الرسلُ على تكذيبِ وعنادِ أقوامهم بقوة برهانهم، مع رباطة جأشٍ وثبات قلبٍ:

﴿قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴿١٠﴾﴾.

﴿قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ أي: كيف تشكُّون بالله تعالى ووحدانيته، وهو مبدعُ السمواتِ الأرض، فكلُّ شيءٍ فيهما يدلُّ على وجوده ووحدانيته جلَّ وعلا؟!.

﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ أي: أرسلنا إليكم يدعوكم ليرحمكم ويغفر لكم ذنوبكم التي سلفت منكم قبل الاستجابة لدعوته والإيمان به، كما في قوله سبحانه: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ﴾ أي: ويجعلكم تتمتَّعون بأعماركم حتى تحينَ آجالكم. فالإيمان بالله تعالى والاستجابة لدعوته يؤدِّي إلى خيري الدنيا والآخرة.

وتظهر لنا من كلمات الرسل شدَّةُ شفقتهم على أممهم وأقوامهم، وحرصُهم على إيمانهم وصلاحهم، واحتمالُهم لغلظتهم وإعراضهم، ومع ذلك ظلَّ المعرضون المعاندون متمسكين بإعراضهم وعنادهم.

﴿قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ أي: ما أنتم إلا بشر مثلنا، لا فضل لكم علينا، فلماذا تكون لكم النبوَّة دوننا؟!.

إنَّه الحسد الذي جعلَهم يعرضون ويعاندون، ومعه التقليد الأعمى للآباء والأجداد:

﴿تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ أي: تريدون بهذه الدعوة أن تمنعونا عمَّا كان عليه آباؤنا.

فالحسدُ والتقليدُ الأعمى كانا ولا يزالان أعظمَ المعوقات عن دعوة الأنبياء عليهم السلام، وعن كل خير وصلاح.

﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي: فأتونا بحجة واضحة تدلُّ على صحة دعوتكم، وهو سؤال تعنُّت وعناد؛ لأنه تعالى أيَّد المرسلين بالبينات والحجج القاطعات، الدالة على صدقهم وصحة رسالتهم.

وبقي الرسل عليهم السلام على هدوئهم ورباطةِ جأشهم، على الرغم ممَّا في كلام معارضيهم من أسباب الإثارة والانفعال والغضب، فالداعي إلى الله تعالى عليه أن يتحلَّى بقوة الإرادة ورباطة القلب:

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾.

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أي: ما نحنُ إلا بشرٌ مثلكم، لا ندَّعي خلاف ذلك ولا ننكره.

﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أي: ولكنَّ الله يتفضَّل على مَنْ يشاءُ من عباده بالنبوَّة والرسالة، فيصطفي من يشاء من عباده لهذا المنصب الخطير الجليل، فلا كسبَ لنا ولا اختيارَ بما تفضَّل به ربنا علينا، وبشريتنا لا تمنع مشيئته تعالى عنا.

﴿وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: وما صحَّ وما استقامَ أن نأتيكم بشيء مما تقترحون إلا بمشيئته تعالى، فنحن خلقٌ من خلقه جلَّ وعلا، في قبضةِ قدرته وتحت قهر مشيئته.

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: وعليه جلَّ وعلا؛ لا على غيره يتوكل المؤمنون.

وهكذا واجه الأنبياءُ عليهم السلام عنادَ أقوامهم واستكبارهم، بإظهار المزيد من انقيادهم وطاعتهم لله تعالى، وافتقارهم إليه، واعتمادهم عليه وحده، ثم أضافوا إلى ذلك متسائلين:

﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾ أي: وأيُّ عذرٍ لنا في عدم التوكل عليه تعالى، وقد هدانا السبلَ الموصلةَ إلى رحمته وفضله، فكما أنَّ الدعوةَ منه وإليه سبحانه، فالهدايةُ أيضاً منه جلَّ وعلا، فهو إذن حقيقٌ بأن نتوجه إليه بالعبادة والطاعة وكمال التفويض.

وبهذا أيضاً أعلن الرسلُ عليهم السلام كمالَ عبوديتهم لله تعالى، وتجرُّدَهم وانسلاخهم عن أيِّ حول وقوة لهم، فالفضلُ للهِ تعالى أولاً وآخراً، والتوكُّلُ عليه والتفويض إليه وحده.

ودلَّ هذا الإذعانُ لله والتوكل عليه: أنَّ الرسلَ عليهم السلام أحسوا أن معارضيهم يمكرون بهم، فبادروا إلى مصارحة أقوامهم بما يدبرون ويمكرون، معلنين ثباتهم على الدعوة، وتمسُّكهم بالرسالة، وأنهم لا يبالون بمكرهم وأذاهم:

﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ أي: فكما توكلنا عليه تعالى في الدعوة والهداية، نتوكل عليه أيضاً في الصبر على أذاكم وكيدكم، فتوكُّلُنا عليه سبحانه دائم في جميع الأحوال والظروف.

وحدث ما توقعه الرسل عليهم السلام:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَاۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَاۖ﴾ أي: ليكونَنَّ أحدُ الأمرين، إمَّا إخراجُ الرسل من ديارهم وأوطانهم، وإمَّا أن يعودَ الرسلُ إلى ملتهم وكفرهم، أي: يصير الرسل إلى ملة أقوامهم، لأنَّهم ما كانوا قبل الرسالة كافرين، وإنما كانوا على أصل التوحيد الذي فطر الله الناس عليه، وقد حفظهم سبحانه من لوث الشرك والكفر، حتى أكرمهم بعصمة النبوَّة والرسالة.

وقد يكون قولهم: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَاۖ﴾ مبنيّاً على ظنِّهم أنَّ الرسل كانوا على ملتهم، ثم خالفوهم، لأنَّ الرسل ما كانوا قبل الرسالة يظهرون مخالفتهم[1].

﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وبهذا الوحي ثبَّتَ الله تعالى الرسلَ،

---

(١) تفسير الخازن: ٣/ ٥١٥.

وبشَّرهم بإهلاك أعدائهم، فلا يتخلَّى سبحانه عن رسله وأصفيائه: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١].

﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ⑭﴾.

﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ۚ﴾ أي: لنسكننكم أرضَ الظالمين بعد إهلاكهم سكنى الآمنين المتمكنين، كما في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ أي: ذلك الإهلاك للظالمين، والتمكين للمؤمنين، حقٌّ ثابت لمن خشي الله تعالى واتَّقاه، وخاف عذابه الذي توعَّد به الكفار والفجار.

أو: لمن خاف الله تعالى وتذكَّر أنه قائم عليه، يعلم كل أحواله، ومحيط بكلِّ أعماله، كما في قوله سبحانه: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۗ﴾ [الرعد: ٣٣].

- **العذاب الغليظ:**

﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ⑮﴾.

﴿وَاسْتَفْتَحُوا﴾ أي: سألوا الله تعالى الفتحَ والنصرَ، وهو إما من الرسل بعد أن يئسوا من إيمان المعاندين مِنْ قومهم، فاستنصروا اللهَ تعالى عليهم، كما في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَٰتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩].

وقد يكونُ الاستفتاحُ من المشركين المعاندين، كما فعل مشركو قريش في بدر قبل بَدْءِ القتال، ففي بعض الروايات أنَّ أبا جهلٍ قال حين اللقاء: اللهمَّ أقطعنا للرحم، وآتانا بما لا نَعْرِفُ، فأَحِنْهُ الغداةَ. فكان المستفتِح، فأنزل الله

تعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١٩]. [رواه أحمد (٥/ ٤٣٢) والنسائي في الكبرى (١١٢٠١) والحاكم (٢/ ٣٢٨)].

وقد يكون المرادُ كلا الفريقين، فكلٌّ منهما قد استنصر وطلبَ الفتح.

﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي: وخسر كلُّ جبار متكبر معاند للحقِّ، ولم يفلحْ باستفتاحه، ففتحه سبحانه أفلح به الرسل والمؤمنون.

﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾﴾.

﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ أي: بَيْنَ يديه جهنم. وهو وصفٌ لحاله في الدنيا، فإنَّه مرصد لها، واقف على شفيرها، لا يفصله عنها إلا الموت.

﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾ أي: ويُسقى في جهنم من ماء يسيل من جلود المعذَّبين فيها.

﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾.

﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ أي: يشربه بصعوبةٍ ومشقةٍ، جرعة بعد جرعة، لا باختياره، وإنما يجبَرُ على تجرعه، ولا يقدر على ابتلاعه، بسبب شدَّة حرارته وقُبح طعمه ورائحته، فكيف يكون حاله لو ابتلعه؟!.

﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ أي: تأتيه أسبابُ الموتُ، وتحيطُ به من كل مكان، فيعاني من آلامها، ولكنَّه لا يموت فيستريح، لأنَّه تعالى هو المميتُ، والأسباب لا تأثيرَ لها، وقد قدَّر سبحانه لأصحاب النار الخلود فيها، يعذبون فيها أبداً بأسباب الموت ولا يموتون، كما قال سبحانه:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ [فاطر: ٣٦].

﴿وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ أي: ويستقبل دائماً عذاباً غليظاً متجدداً، كما قال تعالى: ﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ: ٣٠].

وقد يقول قائل: ألا ينتفعون يومَ القيامة بأعمالهم الصالحة التي فعلوها في الدنيا، كَقِرى الضيفِ وإغاثةِ الملهوف، وعمارةِ بيت الله الحرام؟!.

والجواب: جاء في قوله تعالى:

﴿مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (١٨)﴾.

﴿مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ أي: أعمالهم ضائعة ذاهبة، كرماد حملته الريحُ، ففرقته ونسفته في يوم عاصفٍ، فلم تُبْقِ منه شيئاً، وكذلك أعمال الكفار لا تنفعُهم يوم القيامةِ، بسبب كفرهم وجحودهم، فلا يقبلُ اللهُ العملَ إلا إذا كان خالصاً له، وابتغي به رضوانه، وقال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

﴿لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ أي: لا يقدرون يوم القيامة أن يحصِّلوا شيئاً من ثواب أعمالهم، لأنَّها ضاعت وبطلت بسبب كفرهم، وهذا يزيدُهم حسرةً وغمّاً وكمداً، فكم تعبوا وشقوا في الدنيا، فما جنوا إلا العذاب، ولا حصدوا إلا الشقاء، كما قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].

﴿ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ أي: ذلك هو الخسرانُ الكبيرُ، الذي لا يُرجى عَوْدُه، فخسارتهم كبيرة عميقة لا تلافي لها.

- **تخاصم أهل النار:**

والمسؤوليةُ والجزاءُ يوم القيامة أمران ضروريان، يُظهران حكمة الله تعالى من خلقه، فما خلق الله تعالى هذه المكونات، وأبدع فيها ما أبدع من النواميس عبثاً ولعباً، ذلك ظنُّ العابثين اللاعبين في الحياة الدنيا، الغافلين عن حكمة خلقهم وجوهر وجودهم:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: ألم تعلم أيها الإنسانُ أنَّ اللهَ خلقَ السماواتِ والأرضَ وما فيهما بالحق الثابت، القائم على حكمته الباهرة، ومشيئته وقدرته.

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: إن يشأ يعدمكم، ويخلق خلقاً آخر مكانكم، فوجودكم واستمرارُ حياتكم مرتبطان بمشيئته تعالى الطليقة وقدرته التامة، فمنه سبحانه الإيجاد والإمداد.

﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾.

أي: وما ذلك على الله تعالى بممتنع ومتعذر، فهو قادرٌ على كل شيء، وهو الحقيق بأن يُطاع ويُعبد، وما أرسل سبحانه الرسل، وأنزل الكتب، إلا ليبيِّنَ لكم كيف تعبدونه وتُطيعونه، فطاعةُ الرسلِ طاعةٌ لله تعالى، ومعارضة دعوتهم والانصراف عنهم إلى غيرهم من رؤوس الكفر وزعماء الشرك ضلال وفساد في الدنيا، وحسرة وعذاب في الآخرة.

﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي: خرجوا جميعاً من قبورهم إلى أرض الحساب

والجزاء، ولمَّا وصلوا إلى جهنم واجتمعوا فيها:

﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا﴾ أي: قال الأتباع من عامة الكفار لرؤسائهم في الضلال والكفر: إنَّا كنا أتباعاً لكم في الدنيا.

﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ﴾؟ أي: هل أنتم دافعون عنا شيئاً من عذاب الله تعالى؟.

﴿قَالُواْ لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡ﴾ أي: قال رؤساء الضلال مُعتذرين: لو هدانا الله إلى طريق الحق والنجاة لهديناكم إليه.

وهي كلمةُ حقٍّ أريدَ بها باطلٌ، فالهدايةُ لا تكونُ إلا بمشيئته تعالى، ولكنَّهم تغافلوا عن حقيقةٍ أخرى هامة أيضاً، وهي أنَّ الله تعالى جعل لهم اختياراً وكسباً، وحذَّرهم وأنذرهم من اختيارِ الكفرِ والضلالِ، ورغَّبهم بعبادته وطاعته وحده بواسطة دعوة الرسل عليهم السلام، فلا عذر لهم في الاحتجاجِ بمشيئته تعالى، بعد أن ألزمهم بحججه البالغة، وآياته القاطعة.

﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ﴾ أي: ما لنا من مهربٍ ومنجًى من العذاب، فلا يفيدنا الجزع، وهو شدة الحزن، كما لا يفيدنا الصبر وحبس النفس على المكاره والآلام، فالعذابُ أمرٌ لازم لا خلاصَ لنا منه.

ودلَّت الآيةُ على أنَّ اجتماع عامة الكفار بزعماء الكفر ورؤساء الضلال في جهنم لا يُخَفِّفُ من شقائهم وآلامهم، بل يزيدهم شقاءً وحسرةً وألماً، فلا يواسي بعضُهم بعضاً، بل يتوجَّه بعضُهم إلى بعض باللوم والتقريع والنزاع والخصام، ممَّا يزيدُ في حسرتهم وشقائهم، قال تعالى: ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ ١٦٦ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة].

فهي صورة من صور الخصام والنزاع بين أهل النار، تزيد في شقائهم وعذابهم وحسرتهم ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقّٞ تَخَاصُمُ أَهۡلِ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٦٤].

• **خطبة الشيطان في جهنم:**

ثم انتقلت الآياتُ إلى وصف مواجهة الكفَّار لرأس الشر ومنبع الكفر، للشيطان في دركات جهنم، فإنَّ هذه المواجهة أبلغُ في الألم، وأعمقُ في الأسف والندم، فَحَكَتْ كلمةَ الشيطان وخطبتَه في أهل النار، التي يردُّ بها على لومهم وتقريعهم له، فجاءت كلمةً صريحةً زادت في أسفهم وألمهم:

﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي: لما فُرِغَ من الحساب، واستقر أهل الجنة فيها، وأهل النار فيها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ أي: إنَّ الله وعدكم وعداً صادقاً ثابتاً لا خُلْفَ فيه، بواسطة رسله وكتبه المنزلة عليكم.

﴿وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ أي: وعدتُكم وعوداً كاذبةً باطلةً، كذبت بها عليكم، فخدعتُكم وغرّرْتُ بكم، كما في قوله تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠].

﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ أي: وما كان لي عليكم تسلُّط وسلطةٌ أجبرُكم بها على طاعتي واتِّباعي، سوى أني دعوتكم فاستجبتم لي باختياركم وإرادتكم.

﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾ أي: لا تلوموني بسبب وعودي الباطلة، وخداعي لكم، ولوموا أنفسكم على استجابتكم لدعوتي بلا حجة ولا برهان،

بل بمجرد تزيين وتسويل، ولوموا أنفسكم أيضاً لإعراضكم عن دعوة ربكم، المؤيدة بالحجج والبينات.

ولا يريدُ الشيطان بهذه الكلمات أن يتنصَّلَ من مسؤولية خداعهم والتغرير بهم، فهو يعلم أنه مسؤول عن ذلك، بل أرادَ أن يبيِّنَ لهم أنهم أحقُّ باللوم منه، وأن عليهم أن يتوجهوا أولاً باللوم إلى أنفسهم.

﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾ أي: ما أنا بمغيثكم ومخلصكم من العذاب، وما أنتم أيضاً بمغيثين لي، فكلانا مبتلًى بالعذاب، ومحتاجٌ إلى مغيث يغيثه ويخفف عنه.

﴿إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ أي: إني أنكرت وتبرأت اليوم من إشراككم لي بالله سبحانه، عندما أطعتموني وجعلتموني معبوداً من دونه تعالى.

فطاعةُ غيرهِ تعالى شركٌ وكفرٌ، وكثيراً ما حذَّرنا سبحانه من ذلك في آيات القرآن الكريم، منها قوله تعالى في **سورة يسٓ**: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ لأنهم عبدوا غيره تعالى، وهو وحدَه المستحق للعبادة، فوضعوا العبادة في غير موضعها الصحيح، وهو أقبح أنواع الظلم، كما قال تعالى على لسان لقمان الحكيم: ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

ولا شكَّ أنَّ كلمةَ الشيطان هذه أكثرُ إيلاماً من كلمات رؤوس الضلال زعماء الكفر، فهي أكثرُ صراحةً، واجههم فيها بالحقيقة كاملة، دون أدنى مواربةٍ وانحرافٍ، فلم يُغْفِلْ أيَّ جانبٍ من جوانب الحقيقة، كما فعل رؤساء الضلال وزعماء الكفر.

وكما تعلَّقت مشيئتُهُ تعالى في الدنيا بهداية المؤمنين إلى الحق وتثبيتهم عليه، تعلَّقت أيضاً بنجاتهم من العذاب ودخولهم الجنة، ولهذا قال تعالى في

مقابل ما سبق من صور الخصام بين أهل النار، والأسف والندم الذي يحرق نفوسهم وقلوبهم:

﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي: بأمره ومشيئته جل وعلا.

﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ أي: تستقبلهم ملائكةُ الجنة، وتحييهم، وتسلِّمُ عليهم، كما في قوله تعالى في **سورة الزمر**: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

وقوله تعالى أيضاً في **سورة الرعد**: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾.

- **كلمتان وشجرتان:**

ثم ضرب الله تعالى مثلينِ لدعوة الرسل ولدعوةِ الشيطان، أظهرَ فيهما ما بينَ الدعوتين من تباين كبير، وما يترتَّبُ على كلِّ دعوةٍ من آثار في الفرد والمجتمع:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ وهي كلمةُ التوحيدِ، أساس دعوة الأنبياء جميعاً عليهم السلام.

﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ أي: مثلها كمثل شجرة طيبة.

﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: جذورها قوية راسخة في الأرض، وأعلاها مرتفع بارز في جهة السماء.

﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَاۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَاۗ﴾ أي: تعطي ثمراً طيباً في كلِّ وقتٍ بمشيئته تعالى وقدرته.

ووجهُ تشبيه كلمةِ التوحيدِ وأثرها في نفوس المؤمنين وسلوكهم بالشجرةِ الطيِّبةِ الراسخةِ الجذور، الممتدة الأغصان، الدائمة العطاء، أنَّ الإيمانَ راسخٌ ثابتٌ قويٌّ في قلوب المؤمنين، لأنه يتلاءم مع أصل الفطرة التي فطر الله الناس عليها، كما أنه مؤيدٌ بالبراهين والحجج القاطعة، التي تزيدُهُ قوةً وثباتاً في قلوب المؤمنين، وهو يثمِرُ العمل الصالح، والطاعةَ الخالصة لله تعالى، والأخلاق الطيبة الكريمة.

﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: يتذكرون ما في هذه الأمثال من عظات وعبر ودروس نافعة.

وأما المثال الثاني، فضُرِب للكلمة الخبيثة:

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: اقتلعت من فوق الأرض؛ لأنَّ جذورها قريبةٌ من وجه الأرض، غير ممتدة في أعماقها، مما يدلُّ على عدم ثباتها، وضعف جذورها في داخل الأرض.

﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ أي: ما لها استقرار في الأرض ولا ثبات.

وكذلك حالُ عقائد الشرك والكفر، لا ثباتَ لها في قلوب الكافرين؛ لأنَّها تصادِمُ فطرةَ التوحيد التي فُطروا عليها، ولا تستندُ إلى أي حجج وبراهين، ولهذا نراهم في اضطراب نفسي وقلق فكري، لا يجدون برد الإيمان وسكينته التي يتذوَّقها المؤمنون، فلا تستندُ عقائدُهم إلَّا على مجرَّد التقليد الأعمى، والاستجابة لوساوس الشيطان ونزغاته ووعوده الكاذبة.

• **تثبيت وخُذلان:**

ثم بيَّنت الآياتُ عنايته تعالى بالمؤمنين، وتثبيتَه لهم على الحق، وهم يواجهون مكر شياطين الجن والإنس وكيدهم وفتنتهم:

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ أي: يثبتهم تعالى على القول الثابت، المؤيد بالحجج والبراهين.

﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: على مدى حياتهم في الدنيا، فلا يكون منهم أدنى انحراف عن دين الله القويم وصراطه المستقيم.

وهذا التثبيتُ هو الهدايةُ التي يدعو بها المؤمنون في كل صلاة قائلين: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦].

وقد علَّمنا سبحانه أَنْ نسألَه الثباتَ على الحق، في عدد من الآيات الكريمة، منها قوله الكريم: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

وفي الحديث الشريف: عن **عبد الله بن عمرو بن العاص** رضي الله عنهما: أنَّه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ قلوبَ بني آدمَ كلها بينَ إصبعين مِنْ أصابعِ الرحمن، كقلبٍ واحدٍ يصرفُهُ حيثُ يشاءُ**» ثم قال عليه الصلاة والسلام: «**اللهمَّ مصرِّفَ القلوبِ صَرِّفْ قلوبنا على طاعَتِكَ**» [رواه مسلم (٢٦٥٤)].

﴿وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ﴾ أي: ويثبتهم على الحق أيضاً في أول ما يستقبلون من منازل الآخرة، عندما يُسألون بعدَ الدفن في قبورهم، فيجيبون ولا يتلعثمون، كما في الحديث الشريف: عن **أنس بن مالك** رضي الله عنه: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**إنَّ العبدَ إذا وُضِعَ في قبرِهِ، وتولَّى عنه أصحابُهُ، إنَّه ليسمعُ قرعَ نعالِهم، يأتيه ملَكانِ فَيُقْعدانِهِ، فيقولانِ له: ما كنتَ تقولُ في هذا الرجل؟ فأمَّا المؤمنُ فيقول: أشهدُ**

أنَّه عبدُ اللهِ ورسولُه، فيُقالُ لَهُ: انظرْ إلى مقعدِكَ مِنَ النارِ، قد أبدلكَ اللهُ بهِ مقعداً من الجنَّةِ، فيراهما جميعاً» [رواه مسلم (٢٨٧٠)].

وعن **البراء بن عازب** رضي الله عنه: أن النبيَّ ﷺ قال: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ قال: «**نزلَتْ في عذابِ القبر، فيقال له: مَنْ ربُّكَ؟ فيقول: ربِّيَ اللهُ ونبيي محمَّد، فذلك قوله** ﷺ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾» [رواه مسلم (٢٨٧١)].

﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: يخذل الله الظالمين، الذين ظلموا أنفسهم واختاروا طريق الضلال، فلا يهديهم ولا يثبتهم.

﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ أي: يفعل الله ما تتعلَّق به مشيئته، فهو الفعَّال لما يريد، ومشيئته طليقة نافذة في كلِّ الموجودات، مع العلم أنه تعالى عليمٌ حكيمٌ.

ثم أكدت الآياتُ مسؤوليتهم عن العذاب الذي وصلوا إليه:

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ أي: ألم ترَ إلى رؤوس الكفر والضلال، الذين أعرضوا عن دعوة الله تعالى، وهي أعظمُ النعمِ التي منَّ بها عليهم، فكفروا بها وجحدوها، بدل أن يشكروا الله عليها، والسؤال للتعجيب من حالهم وسوء اختيارهم وكسبهم.

﴿وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ أي: وأوردوا قومهم الذين اتبعوهم دار الهلاك، وهي نار جهنم، كما فعل فرعون، الذي قال الله عنه: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ [هود: ٩٨].

وهي نتيجة تعطيل قومه لعقولهم وأفكارهم، وطاعتهم له طاعة عمياء، عندما قال لهم: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٦٩].

﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾.

أي: أوصلهم زعماءُ الضلال إلى جهنم، يحترقون في نارها، وهي بئس المقر والمأوى.

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أي: جعلوا أمثالاً ونظراء لله تعالى في استحقاق العبادة.

﴿لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي: ليضلوا الناسَ عن سبيل الله، وهو الصراط المستقيم الذي بُعث المرسلون لكي يبينوه للناس، ويدعوهم للسير عليه، كما مرَّ في أول السورة: ﴿كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾﴾.

﴿قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ أي: تمتعوا بشهواتكم التي هي سبب ضلالكم وكفركم، فإنَّ مآلكم وعاقبتكم إلى النار، كما قال سبحانه: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ﴾ [الزمر: ٨].

وفي مقابل أمر الوعيد والتهديد، الذي وجهته الآية للضالِّين المضلِّين، أمرتِ النبيَّ ﷺ أن يذكِّر المؤمنين بالاستقامة على أمر الله، والثبات على طاعته:

﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَـٰلٌ ﴿٣١﴾﴾.

﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: قل يا محمَّدُ لعباد الله الذين استجابوا لدعوته، واتبعوا رسله، ففي وصفهم بالعبودية لله تعالى والإيمان به تشريف وتكريم.

﴿يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ أي: قل لهم أن يستمرُّوا على أداء الصلاة على وجهها الصحيح المشروع، وإنفاق بعض المال على وجوهه

المشروعة، كما أمر سبحانه، فإنَّ ذلك يثبتهم على الحق، لأنهم يستنزلون بذلك رحمة الله تعالى عليهم ومعونته وهدايته.

﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾ أي: من قبل أن يأتي يوم القيامة، الذي لا انتفاعَ به بدرهم ولا دينار، ولا بصداقة أو قرابة، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

- **الشكر والعبادة:**

فشكرُ النعمةِ يتطلَّبُ معرفة المنعم، والانقياد لأمره وطاعته وعبادته، والواجب على الإنسان كلَّما تعددت نعمُ الله عليه وزادت، أن يزدادَ شكراً لله تعالى، واعترافاً بفضله وإحسانه، وإقبالاً على عبادته وطاعته، ولهذا توجَّهت الآياتُ إلى بيان كثرة نعم الله تعالى على الإنسان، وأنَّها لا تحصى بعدٍّ ولا تحد بحدٍّ:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ أي: من أجلكم؛ فكلُّ ما في هذه الظاهرة الكونية الكبيرة من إبداع وإحكام، من أجل تأمين رزقكم، وضروريات معاشكم، فهذه اللقمةُ التي تصلُ إلى أفواهكم، سخَّرَ الله من أجلها ظواهرَ كونية كبيرة أدَّت إلى وصولها إليكم، كما في قوله تعالى في **سورة عبس**: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ أي: وسخر لكم السفن المختلفة في أنواعها وأحجامها، لتجري في البحر بمشيئته سبحانه، التامة النافذة

في كل الموجودات، فلولا هذه النواميس التي جعلها في البحار والرياح، ما تمكن الإنسان من تسيير السفن في البحر.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَـٰرَ﴾ أي: كما سخَّر لكم البحارَ لانتفاعكم ومصالحكم، سخر لكم الأنهار أيضاً لمنافعكم ومصالحكم.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ﴾ أي: وسخر لكم الشمس والقمر دائمين في جريانهما، حسب الناموس الكوني الذي أبدعته حكمة الخالق، فلا يتوقفان ولا يفتران، ولا يطرأُ أيُّ خلل واضطراب على حركتهما، وكل ذلك دبَّره الحكيم العليم من أجل مصالحكم ومنافعكم واستمرار وجودكم على هذه الأرض.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أي: وسخر من أجل مصالحكم ومنافعكم الليل والنهار، فهما يتعاقبان بحسب نظام دقيق مرتبط أشد الارتباط بحياتكم ومنافعكم، كما في قوله تعالى في **سورة يسٓ**: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَـٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

وقوله أيضاً في **سورة القصص**: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

فكل هذه النظم الكونية الدقيقة وضعت من أجل الإنسان، وتأمين مصالحه ومنافعه وحياته على الأرض، مرتبطة بها كلها ارتباط الأسباب بالمسببات، وكلها في الحقيقة من الخالق العظيم، كما قال جلَّ وعلا في **سورة الجاثية**:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ﴾ أي: أعطاكم كل ما سألتموه بلسان حالكم وفقركم واحتياجكم، فهو أعلمُ منكم بما تحتاجون إليه، وما هو ضروري لحياتكم واستمرار وجودكم، لأنه هو الخالق لكم ولكل ما يحيط بكم: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

وثَمَّةَ نعمٌ خفية كبيرة وعظيمة لا يعلمها الإنسان، لأنّها لا تخضع لحواسه ومداركه فلا يستطيعُ أن يحيطَ بها؛ لا يُحيط بها إلا خالقها جلَّ وعلا.

﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ﴾ أي: لا تستطيعون حصرها والإحاطة بها، فَنِعمُ الله أكبرُ وأجلُّ وأوسعُ من مداركِكم وتصوركم، وحقه جلَّ وعلا عليكم في عبادته وطاعته أعظم بكثير من طاقاتكم وقدراتكم، فمهما عبدتموه فأنتم مقصِّرون في حقِّ شكر نعمه، ومع ذلك:

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ أي: كثيرُ الظلم لنفسه بالإعراض عن طاعة ربه، وكثيرُ الجحودِ لنعمه تعالى عليه، كما مرَّ في قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨].

وأكد ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

- **دعوة إبراهيم عليه السلام:**

قدَّمتِ الآياتُ في مقابل الإنسان الظلوم الكفور، أنموذجاً للإنسان الشكور العابد القانت لله تعالى وحده، وذلك من خلال ذكرِها للدعوات الخاشعة الضارعة التي رفعَها نبيُّ اللهِ إبراهيم عليه السلام إلى ربه جلَّ وعلا، من جوار بيته الحرام.

ويبدو أنَّ إبراهيم عليه السلام رفعَ هذه الدعوات، بعد أن فرغَ من رفع قواعد بيت الله الحرام، ويمكن أن تكون مجموعة من الدعوات صدرت عنه في أحوالٍ وأوقاتٍ مختلفةٍ:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (٣٥)﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ أي: اجعل مكة المكرَّمةَ بلداً ذا أمنٍ. فالأمنُ أمرٌ هام وضروري للإنسان في كلِّ بلد، ولهذا كان الأمنُ أولَ شيءٍ سأله إبراهيم عليه السلام لمكة المكرمة.

وهذه هي المرة الثانية التي يسأل إبراهيمُ فيها الأمنَ لمكة المكرمة، فقد مرَّ في **سورة البقرة** أنه سأل الأمن في دعائه لمكان مكة، قبل بنائها وظهورها، عندما كان المكان وادياً مقفراً: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦)﴾.

﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ أي: ثبتني وأبنائي على ملة التوحيد، وأبعدنا عن عبادة الأصنام.

ففي دعائه هذا إظهارٌ لعبوديته لربه وافتقاره إليه، فهو يعلم أنَّ الهداية بمشيئته جلَّ وعلا، ويناسِبُ اسم **الرب** حال إظهار الإنسان لذلَّته وضعفه، وافتقاره لربه جل وعلا، ولهذا نرى أكثرَ الدعوات القرآنية الكريمة مصدَّرةً بهذا الاسم الكريم، الذي يدلُّ على أنَّه تعالى هو الخالق المالك المدبر لجميع شؤون خلقه، وأنَّه المربي لهم، والمتفضل عليهم، بأسباب الوجود والنماء والتربية.

﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٦)﴾.

﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ﴾ أي: إنَّ الأصنامَ تسببن في إضلال كثير من الناس، عبدوها، وأعرضوا عن عبادة الله تعالى.

﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾ أي: فمن تبعني في دعوتي إلى التوحيد، والاستسلام لله تعالى وشرعه، فإنَّه على ديني وملتي، والمتمسكين بحبلي.

﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: ومن عصاني وخالف دعوتي، فإنك تقدر على أن تغفر له وترحمه.

وبهذا أعلنَ عَلَيْهِ السَّلَامُ براءته من عبدةِ الأصنام، وردَّ أمرَهم إلى الله تعالى، إن شاء عذبهم بعدله، وإن شاءَ غفر لهم بفضله، كما قال عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨].

وليس في مثل هذه الأدعية ـ كما قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ أكثرُ من الردِّ إلى مشيئة الله تعالى، لا تجويز وقوع ذلك[١]، فقد أخبرنا الله تعالى أنه قدَّر العذاب والخلودَ للمصرِّين على الكفر، والمتمسكين به حتى الموت، فلن يغفر الله لهم ولن يرحمهم.

• **الصلاة في الحرم:**

﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ٣٧﴾.

﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ أي: أسكنتُ بعضَ ذريتي بوادٍ لا زرعَ فيه، لأنه لا يصلحُ للزرع، بجوار بيتك المحرم، الكعبة المعظَّمة، ونسبه إلى الله تعالى نسبةَ تشريفٍ وتكريم، قال تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْيَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٧].

وأراد عَلَيْهِ السَّلَامُ في قوله: ﴿أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي﴾ ولده إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومن يولَدُ له، وذلك عندما أتى به من بلاد الشام إلى وادي مكة، وتركه هناك مع أمه

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٢/ ٣٠١.

هاجر، ولم يكن فيه يومئذٍ أحدٌ، كما مرَّ في **سورة البقرة**، عند قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ [١٢٦].

﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: أسكنتهم بهذا الوادي الخالي من كل مرتَفَقٍ ومرتَزَقٍ، ليقيموا الصلاة عند بيتك المحرم، ويعمروه بذكرك وعبادتك.

قال القرطبي رحمه الله: «تضمَّنت هذه الآيةُ أنَّ الصلاة بمكة أفضل من الصلاة بغيرها»[١].

وهذا ما دل عليه الحديث النبوي الشريف: عن **أبي هريرة** رضي الله عنه: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**صلاةٌ في مسجدي هذا خيرٌ من ألفِ صلاةٍ فيما سواه، إلا المسجدَ الحرامَ**» [رواه البخاري (١١٩٠)].

وقد أخرج الإمام أحمد [٤/٥] وصححه ابن حبان [١٦١٨]: عن **عبد الله بن الزبير** رضي الله عنهما: أنَّ الرسول ﷺ قال: «**صلاةٌ في مسجدي هذا أفضلُ من ألفِ صلاةٍ فيما سواه من المساجدِ إلا المسجدَ الحرامَ، وصلاةٌ في المسجدِ الحرامِ أفضل من مئةِ صلاةٍ في هذا**».

وفي «سنن ابن ماجه» [١٤٠٦]: من حديث **جابر** رضي الله عنه مرفوعاً: «**وصلاةٌ في المسجدِ الحرامِ أفضلُ من مئةِ ألفِ صلاةٍ فيما سواه**».

وروى البزار [كشف: ٤٢٢] والطبراني في «الكبير»: من حديث **أبي الدرداء** رضي الله عنه رفعه: «**الصلاةُ في المسجدِ الحرامِ بمئة ألفِ صلاةٍ، والصلاةُ في مسجدي بألفِ صلاةٍ، والصلاةُ في بيتِ المقدسِ بخمسمئةِ صلاةٍ**» قال البزار: إسناده حسن[٢].

وتكرير النداء ﴿رَبَّنَا﴾ وتوسيطه، لإظهار كمال عنايته بإقامة الصلاة، فإنَّها عمادُ الدين، ولذا خَصَّها بالذكرِ مِنْ بين سائر شعائره[٣].

---

(١) تفسير القرطبي: ٩/ ٣٧١.
(٢) فتح الباري: ٣/ ٦٧.
(٣) روح المعاني: ١٣/ ٢٣٧.

﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ أي: اجعل قلوب الناس تسرع إليهم شوقاً وحبّاً.

﴿وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ أي: ارزقهم من أنواع الثمارِ لعلَّهم يكونون من الشاكرين المعترفين بفضلك وإحسانك.

وفيه دليلٌ على أنَّ تحصيل منافع الدنيا إنَّما هو ليستعان بها على أداء العبادات، وإقامة الطاعات[١].

ولا يخفى ما في دعائه عليه السلام من مراعاةِ حُسْنِ الأدب، والمحافظة على قوانين الضراعة وعرض الحاجة، واستنزال الرحمة، واستجلابِ الرأفةِ، ولهذا مُنَّ عليه بُحسن القبول، وإعطاء المسؤول، ولا بِدْعَ في ذلك من خليل الرحمن عليه السلام[٢].

ولا يزالُ أهلُ مكة المكرمة، يتمتَّعون ببركة هذه الدعوات الكريمة، بالأمن والأمان، وتعلُّقِ قلوب المؤمنين ببلدهم الحرام، وبالأرزاق والثمار المختلفة المحمولة إليهم من جنبات الأرض وأطرافها، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القَصص: ٥٧].

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (٣٨)﴾.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ أي: تعلم سرَّنا كما تعلم علننا من الحاجات وغيرها، وما سألناك هذه الحاجات لكونها غير معلومة لك، بل لإظهار افتقارنا إليك، وتذللنا لعزتك.

﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ أي: قال الله تعالى ذلك تصديقاً لنبيِّه عليه السلام.

---

(١) تفسير الخازن: ٣/ ٥٣٥.

(٢) روح المعاني: ١٣/ ٢٤٠.

ونظيرُه قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ بعد حكاية قول ملكة سبأ: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾ [النمل: ٣٤].

ويمكن أن تكون تتمةً لكلام إبراهيم عليه السلام، والتفت من الخطاب إلى الإخبار لتربية المهابة، والإشعار بعلة الحكم وعمومه(١).

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾.

أي: الحمد لله الذي وهب لي مع كبر سنِّي، إسماعيلَ وإسحاق، إنَّ ربي لمجيبُ الدعاءِ، فالسمعُ بمعنى القبول والإجابة، كما في قولنا في الصلاة: «**سمع الله لمن حمده**».

وكان عليه السلام قد سأل الله تعالى أن يرزقه الولد، عندما خرج مهاجراً من بلد قومه، فقد حكى الله عنه ذلك بقوله في **سورة الصافات**: ﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾.

وكأنَّه عليه السلام بهذا الثناء على الله تعالى، يتوسَّلُ إليه بحمده واعترافه بسابق نعمه عليه، وهذا ما فعله نبي الله زكريا عليه السلام في دعائه الذي قال فيه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤].

فقد عوَّده الله تعالى الإجابة وأطمعه فيها، والكريمُ لا يخيِّبُ من أطمعه بفضله وعوَّده على إحسانه وكرمه.

﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: اجعلني مواظباً على إقامة الصلاة بمعونتك وتوفيقك، فالإنسان مفتقر إلى الله تعالى في كلِّ أموره، والعبادة منه سبحانه وإليه، والفضل له أولاً وآخراً.

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ أي: واجعل من ذريتي مقيمي الصلاة، فقد دعا عليه السلام أولاً

---

(١) تفسير أبي السعود: ٣/ ٥٣.

لنفسه ثم للصالحين من ذريته، ليكونَ أسوةً حسنة لهم في إقامة الصلاة والمواظبة عليها، كما جاء في دعائه مع ولده إسماعيل: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٨].

﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾ أي: تقبل دعائي وعبادتي وطاعاتي، وهو أدبٌ رفيعٌ مع الله تعالى، يدعوه ويتذلل إليه، ثم يسأله أن يتقبله بفضله وكرمه.

وقد ظهر مثل هذا الأدب أيضاً في دعائه ﷺ مع ولده إسماعيل، عندما كانا يرفعان قواعد بيت الله الحرام: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾.

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي﴾ أي: اغفر لي ما فرط مني مما أراه ذنباً.

وهذا يدل على شدة تواضعه ﷺ لربه، واتهامه لنفسه بالتقصير في حق شكر نعم الله تعالى عليه.

وهذا الشعورُ كان يدفعُ نبينا محمداً ﷺ لمضاعفة عبادته وقيامه في الليل، فكان يقوم حتى تَرِمَ قدماه، ففي الحديث الشريف: عن **المغيرة** رضي الله عنه قال: إنْ كانَ النبيُّ ﷺ ليقومُ، أو ليصلي، حتى تَرِمَ قدماه أو ساقاه، فيُقَالُ لَهُ، فيقول: «**أفلا أكونُ عبداً شكوراً**» [رواه البخاري (١١٣٠)].

﴿وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ أي: واغفر لأمي وأبي، ويبدو أنَّ أمه كانت مؤمنة، ووقع استغفاره لأبيه قبل أن يتبين له أنه عدو لله، بإصراره على الكفر حتى الموت، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ أي: واغفر للمؤمنين كافة يوم القيامة، عند وقوع الحساب، وسبق لنبيِّ الله نوح ﷺ سؤال المغفرة لجميع المؤمنين، كما في قوله تعالى: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ [نوح: ٢٨].

وكان الشعبيُّ رحمه الله يقول: ما يسرني بنصيبي من دعوة نوح وإبراهيم عليهما السلام للمؤمنين والمؤمنات حُمْرُ النَّعَمِ[1].

• **الظالمون يوم القيامة:**

وفي دعوات إبراهيم عليه السلام، تعريضٌ كبير بمشركي قريش، الذين انحرفوا عن ملة التوحيد التي كان عليها جَدُّهم الأول إسماعيل وأبوه إبراهيم عليهما السلام، وتعريضٌ أيضاً بعبادتهم الأصنام والأوثان في بيت الله الحرام، الذي رفع قواعده إبراهيمُ وإسماعيلُ لعبادة الله تعالى وحده، ليكونَ رمزاً لوحدة الأمة المسلمة وتوحيدها، وتعريضٌ أيضاً بإعراضهم عن دعوة النبي الخاتم ﷺ، وهي من أجلِّ وأعظم نعم الله تعالى عليهم، وتمسكهم بعبادة الأصنام والأوثان، وهو من أقبحِ وأعظمِ أنواع الظلم.

ولهذا توجهت الآيات الكريمة إلى النبيِّ ﷺ تخاطبه مثبتة له في مواجهة هذا الظلم الكبير الذي أحدثه المشركون في مكة المكرمة، وتتوعَّد هؤلاء الظالمين بأشد أنواع الوعيد والتهديد:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ﴾ أي: ولا تحسبن الله عندما يُنظِرُ المشركين، ويؤخر عقابهم، أنه غافل عنهم، مهمل لهم، فإنه سبحانه يتنزَّه عن الغفلة، ولا يعزُبُ عنه شيء في الأرض ولا في السماء، فَدُمْ على الدعوة إلى التوحيد، ونزهه عن الغفلة.

وفي الآية تنبيهٌ إلى خطورة ذلك الحسبان والظن، وأنَّ الاحتراز عنه واجب، حتى نُهي عنه النبيُّ المعصوم، فالغفلة من صفات النقص التي يتنزَّه الله تعالى عنها كلها.

---

(١) روح المعاني: ١٣/ ٢٤٤.

﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ أي: إنَّما يؤخرهم ليوم تتجمد فيه الأبصار من شدة الخوف، فترتفع أعينهم، وتبقى مفتوحة لا تطرف ولا تهتز من هولِ ما يرونَ في هذا اليوم.

﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ أي: مسرعين رافعي رؤوسهم.

أو: خافضي رؤوسهم. يقال: **أقنع**: إذا رفع رأسه، **وأقنع**: إذا طأطأ رأسه ذلة وخضوعاً، والآية محتمِلَةٌ للوجهين(١).

ويتقوّى الوجه الثاني بقوله تعالى في **سورة المعارج**: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

فالآيةُ تصفهم عند الخروج من قبورهم وتوجُّههم إلى أرض المحشر، فلا ينظرُ أحدٌ إلى أحد من شدة الخوف.

﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ أي: لا تطرفُ أعينُهم، لأنهم لا يستطيعون تحريكها من شدة الخوف.

﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ أي: وقلوبهم خالية فارغة، لفرط الحيرة والدهشة، لا تعي شيئاً.

وما دام الحق سبحانه غير غافل عنهم، فاستمِرَّ في إنذارهم بما أنزل الله عليك في القرآن الكريم من آيات الوعيد والتهديد:

﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾ أي: أنذر يا محمَّدُ الناسَ من عذاب يوم

---

(١) تفسير القرطبي: ٩/ ٣٧٧.

القيامة، لتخرجهم من الظلمات إلى النور، فهي وظيفتُك الكبرى التي أُرسلت من أجلها، كما مرَّ في أول آيات السورة: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾﴾.

وهاهي الآياتُ في ختامِ السورة تعرِضُ صوراً من العذاب الشديد والغليظ.

﴿فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أي: فيقول الذين ظلموا: ربنا أخر العذاب عنا، وردَّنا إلى الدنيا، وأمهلنا مدة يسيرة.

﴿نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ﴾ أي: نستدركُ ما فاتنا من إجابة دعواتك، واتباع رسلك.

وتظهر من خلال كلماتهم شدَّةُ ندمهم، وعمق حسرتهم على ما فرطوا.

وغاب عنهم في هذا السؤال حقيقتان كبيرتان:

الحقيقة الأولى: أنه تعالى قدَّرَ أن لا عودةَ لأحدٍ إلى الحياة الدنيا، فهي فرصة إذا ضاعت لا تعوَّضُ، كما في قوله تعالى في **سورة المؤمنون**: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

ويستوي في هذا الأمر الكافرون والمؤمنون، وأكّدَ ذلك قوله تعالى في خطاب موجَّه للمؤمنين في **سورة المنافقون**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾.

الحقيقة الثانية: أنَّ الهدايةَ منوطة بمشيئته تعالى وتوفيقه، كما مرَّ معنا، فإذا لم يشأ الله هدايتهم فلن يهتدوا، ولو عادوا إلى الدنيا مرة ثانية فسيعودون إلى ضلالهم وعنادهم وظلمهم، وقد أخبر سبحانه عن ذلك بقوله في **سورة الأنعام**:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُۖ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

ولهذا قرر الحق جلَّ وعلا خلودهم الأبديَّ في نار جهنم، لأنه تعالى يعلمُ مدى إصرارهم على كفرهم، وشدة عنادهم، مهما امتدت أعمارهم.

وأجيبوا على طلبهم العودة إلى الدنيا بقوله سبحانه:

﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ أي: أقسمتم من قبلُ في الدنيا، ما لكم عنها انتقال، وما لكم بعث ولا حساب ولا جزاء.

﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: ومع أنكم سكنتم في مساكن الظالمين من قبلكم.

﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ أي: وتبين لكم من أخبارهم وآثارهم كيف أهلكناهم، وانتقمنا منهم، فلم تعتبروا ولم تتعظوا.

﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ أي: وضربنا لكم أيضاً في القرآن الكريم الأمثال، على أنَّ سنَّةَ اللهِ في إهلاك الظالمين لا تتبدَّل، وأنه سيصيبكم ما أصابهم، فأعرضتم عن ذلك كله عناداً واستكباراً.

﴿وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ﴾ أي: والحال أنهم حين انتقمنا منهم، قد مكروا مكرهم الشديد القوي، واحتالوا في إبطال الحق وتأييد الظلم، ودفع أسباب الزوالِ والهلاك عنهم، فما نفعهم مكرهم، ولا ردَّ عنهم قضاءه تعالى المبرم في إهلاكهم.

فالمقصودُ بيانُ عجز الأسباب التي باشروها عن التأثير بنفسها، ومكرُهم

لا يزيدُ عن تحصيل الأسباب ومعاناتها، وهي لا تأثير لها بنفسها، ولهذا قال تعالى بعد ذلك:

﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ﴾ أي: لا تأثير له، لأنه متعلق بقدرة الله تعالى ومشيئته، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَلِلَّهِ ٱلۡمَكۡرُ جَمِيعٗاۖ يَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٖۗ وَسَيَعۡلَمُ ٱلۡكُفَّٰرُ لِمَنۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٤٢].

﴿وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ﴾ أي: وإن كان احتيالهم في حد ذاته قويّاً شديداً بحيث يمكِنُ أن تزول به الجبال الراسية، لو وافق قدر الله تعالى ومشيئته.

• **صُوَر من العذاب الغليظ:**

﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخۡلِفَ وَعۡدِهِۦ رُسُلَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخۡلِفَ وَعۡدِهِۦ رُسُلَهُۥٓۚ﴾ وهي المرة الثانية في ختام السورة، تتوجَّهُ الآياتُ بمثل هذا الخطاب للنبيِّ ﷺ، كأنها تقول له: استمرَّ في دعوتهم وإنذارهم، وَثِقْ بنصرِ الله تعالى وتأييده، وأنه لن يخلِفَ ما وعدَ به رسلَه من النصر والفوز والعز، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ﴾ أي: إنَّه تعالى ذو عزَّةٍ وغلبةٍ، لا يمتنع عليه شيءٌ أراده، قادرٌ على الانتقام ممن كفر وجحد.

ثم بيَّنت الآياتُ كمالَ قدرته تعالى ونفاذَ مشيئته، في تبديل الأرض والسموات يوم القيامة:

﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ﴾ أي: يتم ويحدث ما قدره تعالى وأراده، فيبدِّل الله السموات، ويحشر الناسَ على أرض جديدة، وتحت سموات جديدة، فعن **سهل بن سعد** رضي الله عنه: أن رسول اللهِ ﷺ قال: «**يُحْشَرُ الناسُ يومَ**

القيامةِ على أرضٍ بيضاءَ عفراءَ كقُرْصَةِ النقي (الدقيق الناعم) ليسَ فيها عَلَمٌ لأحدٍ [رواه مسلم (٢٧٩٠)].

وعن **عائشة** رضي الله عنها قالت: سألتُ رسولَ اللهِ ﷺ عن قوله ﷻ: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ فأينَ يكونُ الناسُ يومئذٍ يا رسول اللهِ؟ فقال: «**على الصراطِ**» [رواه مسلم (٢٧٩١)].

ويرى بعضُهم أنَّ تبديل الأرض بتبدُّل صفاتها فقط، ومدها وإزالة الجبال والوديان منها، كما قال تعالى في **سورة طه**: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾.

وقال أيضاً في **سورة الانشقاق**: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾﴾.

﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ أي: برزوا من قبورهم استجابةً لأمر الله الواحد القهار ومشيئته.

ثم أوردتِ الآياتُ صورةً أخرى لحال الظالمين المعاندين، ذوي المكر الشديد يوم القيامة:

﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾﴾.

أي: مشدودين بعضهم إلى بعض بالقيود والأغلال، وتصفيدهم زيادة على إهانتهم وإذلالهم، لا من أجل احتمال فرارهم، فلا فرارَ لأحدٍ، ولا فوتَ له من قبضة قدرة الحق جلَّ وعلا.

﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ أي: تُطْلَى أجسامُهم بالقطران، حتى يكونَ لهم كالقمصان.

ومن المعلوم أنَّ الإبلَ عندما تُصَابُ بالجرب، تطلى بهذه المادة لحرق الجربِ بحدتها وحرها ونتنِ ريحها، ومن صفاته أيضاً: تسارع اشتعال النارِ فيه.

﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي: تعلو النارُ وجوههم، وهم يسحبون في جهنم على وجوههم: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر: ٤٨].

﴿لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾﴾.

﴿لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ أي: قدَّر الله تعالى لهم هذا العذاب، ليجزيَ كلَّ نفس ظالمةٍ مجرمةٍ ما كسبتْ وما اختارتْ، فما ظلمهم الله تعالى، ولكنهم كانوا هم الظالمين.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: إنه تعالى لا يشغله حساب عن حساب، لكمال قدرته وتمام مشيئته.

وبعد عرض هذه الصور الرهيبة من صور العذاب الغليظ، ختم الله تعالى آيات السورة بقوله:

﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ﴾ أي: هذا الذي تقدَّم ذكره في السورة بلاغٌ، فيه كفايةٌ للناس في الموعظة والدعوة.

﴿وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾ أي: أنزله تعالى على رسوله ﷺ لينذِرَ به الناسَ، ويخرجَهم بتوفيقه تعالى وهدايته من الظلمات إلى النور.

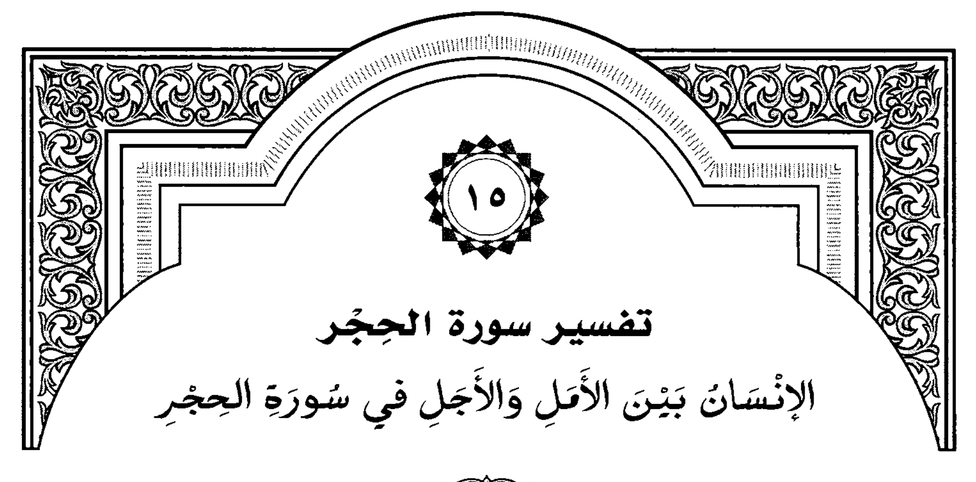
﴿وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي: وليعلموا أنَّه تعالى إلـٰه واحد، لا يستحقُّ العبادةَ والطاعةَ أحدٌ غيره، فتوحيدُ العبادة والطاعة لله جلَّ وعلا أساسُ دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والمقصِدُ الأول في رسالتهم والكتب التي أنزلت عليهم.

﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: وليتذكر هذه الحقيقةَ الكبرى ويتفهمها أولو الألباب، الذين يحسنون استعمالَ عقولهم، فللعقل الذي أكرم الله به الإنسان دورٌ كبير في الهداية، لأنَّه أعظم الوسائل التي تمكن الإنسان من المعرفة،

فدعوةُ المرسلين من الله تعالى وإلى الله تعالى، وهي تُخاطِبُ عقولَ الناس، وتدعوهم إلى أن يحسنوا استعمالها، والهداية من الله تعالى أيضاً، بتوفيقه ومعونته، كما في قوله تعالى في **سورة الفاتحة**: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾.

اللهم ثبتنا على الصراط المستقيم، بفضلك ورحمتك يا أرحم الراحمين.





١٥

تفسير سورة الحِجْر

الإِنْسَانُ بَيْنَ الأَمَلِ وَالأَجَلِ فِي سُورَةِ الحِجْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المُقَدِّمَة

الحمد لله ربِّ العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فهذا هو تفسير سورة الحجر، في هذه الموسوعة القرآنية التي تتحدث عن الوحدة الموضوعية لآيات السور القرآنية الكريمة، وذلك من خلال ما يظهر لي من معاني كلماتها وآياتها.

ويتناول موضوع سورة الحِجْر حياةَ الإنسان المحدودة بالموت، وموقعها من الكون الكبير المحيط بها، ولقد أبرزت السورةُ الكريمةُ من خلال هذا الموضوع عدداً من الحقائق الهامَّة الضرورية للإنسان:

أولها: أنَّ هناك ارتباطاً بين جميع أجزاء هذا الكون، وقد جعل الله تعالى هذا الارتباط قائماً على توازن دقيق، وهو السبب الأساس، بتقدير الله تعالى، لاستمرار وجود المكوَّنات، وعندما تقومُ الساعةُ يختلُّ هذا التوازن ويضطرب، وتتغير بتقديره تعالى النواميسُ والنظمُ التي كانت تضبط توازنه.

ولقد أدرك أنصارُ حماية البيئة من التلوث في العصر الحاضر جزءاً من هذه الحقيقة، ولهذا تراهم يبذلون جهوداً كبيرة لحماية الحياة من أخطار التلوث الذي

قد يؤدِّي بتقدير الله تعالى إلى حدوث خلل في التوازن القائم بين المكوَّنات.

ثانيها: يجب على الإنسان أن يكون متوازناً في سلوكه وحياته مع طبيعة حياته الروحية والفكرية والمادية والاجتماعية، ويستهدِفُ الإسلام في كل تشريعاته إلى إقامة مثل هذا التوازن في حياة الإنسان، وهو السبب الأساس لسعادته وراحته.

ثالثها: للأمل تأثيرٌ كبير على سلوك الإنسان، وهو يعكس مدى التوازن القائم في حياته، وطول الأمل في الحياة بحيث يتجاوز حدودها، ويؤدِّي إلى خلل واضطراب كبيرين في حياة الإنسان وسلوكه، ويؤدِّي أيضاً بتقدير الله تعالى إلى اضطراب وخلل في بيئة حياة الإنسان.

رابعها: الأمل في الله تعالى، هو الأملُ الذي لا ينبغي أن يُحدَّ بحدٍّ، فهو الضمانةُ الكبرى لجعل حياة الإنسان متوازنةً، لا إفراط فيها ولا تفريط، ولا يأس ولا قنوط، بشرط أن يكون هذا الأمل مقترناً بخشية الله تعالى وتعظيمه، والحذر من المسؤولية أمامه يوم القيامة.

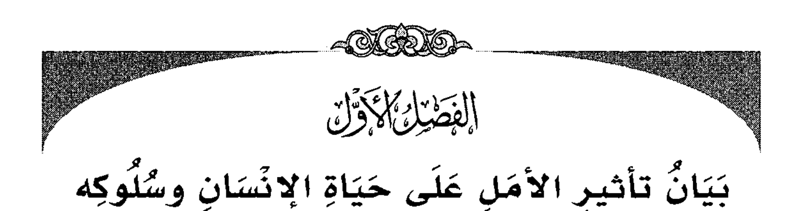
تلك هي النقاط الأساس البارزة، فيما يبدو لي، في سورة الحِجْر.

وقد جاء هذا التفسير في أربعة فصول وتعقيب أخير:

- **الفصل الأول: بيان تأثير الأمل على حياة الإنسان وسلوكه.**
- **الفصل الثاني: بيان التوازن في الكون والحياة.**
- **الفصل الثالث: القصة الأولى: الإنسان والشيطان، ونقاط الضعف البشري التي يستغلُّها الشيطانُ ليُدْخِلَ الخللَ على حياة الإنسان.**
- **الفصل الرابع: القصة الثانية: إبراهيم ولوط عليهما السلام والأمل في الله تعالى.**
- وأخيراً **التعقيب** على دور القرآن الكريم في تحقيق التوازن في حياة الإنسان.

أسأله سبحانه أن يسدِّد خطانا، وينوِّر أبصارنا وبصائرنا، ويوفقنا لما يحبه ويرضاه لنا، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

❁ ❁ ❁



بَيَانُ تأثيرِ الأمَلِ عَلَى حَيَاةِ الإنْسَانِ وسُلُوكِه

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ۝١ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ۝٢ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٣ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ۝٤ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ۝٥ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٧ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ۝٨ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٠ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝١١ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝١٢ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝١٤ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ۝١٥﴾

- **الأحرف المقطَّعة:**

بدأت سورة الحِجْر بالتنويه بفضل القرآن الكريم، ولَفْتِ أنظار المخاطَبين إلى حسن استماعه، وتدبُّر آياته ومَعانيه بقوله تعالى:

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ۝١﴾.

وتُشْبِه هذه البدايةُ لسورة الحجر، بدايةَ **سورة يونس** في قوله عزَّ شأنه: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾ وسبق أن قلتُ هناك: ذكر علماء التفسير أقوالاً

كثيرة في معاني الأحرف المقطَّعة التي استهل الله تعالى بها بعض السور القرآنية، ودلَّت كثرة أقوالهم على حقيقة هامة، وهي أنَّ الإنسانَ مهما تدبَّر كلمات الله تعالى فلن يقف على كل أسرارها، ولن يحيطَ بمعانيها، وهذا ما جعلَ كثيراً من المفسرين يرون أن معاني هذه الحروف مما استأثر الله العليم الحكيم بها، فهي من الآيات المتشابهة التي لا يعلمُ حقيقةَ معانيها إلا الله سبحانه الذي قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۗ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧].

ورأى فريق آخر من علماء التفسير أنَّ هذه الأحرف ذُكرت في أول بعض السور لِلَفْتِ الأنظار إلى إعجازِ القرآن الكريم، وتنبيه الأسماع إليه، فقد كان المشركون ينفرون عند تلاوة القرآن، فلمَّا نزلت: ﴿الٓمٓ﴾، ﴿الٓمٓصٓ﴾، ﴿الٓرۚ﴾، استنكروا هذا اللفظ، فلمَّا أنصتوا إليه ﷺ أقبل عليهم بالقرآن المؤتلف، ليثبته في أسماعهم وآذانهم، ويقيم الحجة عليهم، ففي هذه الحروف إشارة إلى حروف الهجاء، أعلمَ الله بها العربَ حين تحدَّاهم بالقرآن أنه مؤتلف من حروف هي التي بناء كلامهم عليها، ليكونَ عجزُهم عنه أبلغ في الحجة عليهم(١).

وقد انتصر ابن كثير رحمه الله في تفسيره لهذا الرأي، فقال بعد أن ذكرَ العلماءَ الذين ذهبوا إليه: «ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف فلا بدَّ أن يذكر فيها الانتصار للقرآن، وبيان إعجازه وعظمته، وهذا معلوم بالاستقراء في تسع وعشرين سورة»(٢).

وانظر على سبيل المثال إلى قوله سبحانه هنا:

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ﴾ أي: تلك السورة آيات الكتاب الكامل والمقروء، والمبيِّن للحق والباطل، والحلال والحرام، والظاهر إعجازه وإبداعه.

---

(١) انظر: فتح القدير، للشوكاني: ١/ ٢٩.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير، مقدمة التفسير.

والآيةُ تدلُّ على أنَّ القرآنَ مكتوب ومقروء، وقد حفظ الله تعالى بهاتين الصفتين القرآن الكريم، فهو محفوظ في الصدور، ومكتوب في السطور، كما سيأتي معنا عند قوله ﷻ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

● **وِدادة وحسرة:**

ثم شرعت الآياتُ الكريمةُ في بيان مضمون السورة وموضوعها الأساس بقوله تعالى:

﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ۝٢﴾.

أي: سيأتي على الكفار وقت يتمنون فيه لو كانوا مسلمين، ولكنَّ هذه الودادة والأمنية لا تنفعهم، لأنَّها جاءت في غير وقتها، فهي ودادة تغلب عليها الحسرة والندم، وأمنية تزيدهم حزناً وأسفاً.

وستكونُ هذه الودادة المشوبةُ بالحسرةِ والندم عندما ينزل الموت بهم، ويعاينون العذاب، ولهذا جاء التعبيرُ عنها بكلمة ﴿رُّبَمَا﴾ التي تفيد التقليل، إذ الموتُ يبهتهم بسكراته وغشياته، فإذا ما أفاقوا منها، وأدركوا شيئاً من الصحو، ودُّوا في لحظات الصحو والإِفاقة القليلة لو كانوا مسلمين.

ويعقبُ هذه الودادةَ القليلةَ في الدنيا حسراتٌ كثيرة يوم القيامة، فكلَّما عاين الكفَّار شيئاً من أهوال يوم القيامة ولوناً من ألوان النكال والعذاب في جهنم، وشاهدوا نجاةَ المسلمين منها، تمنَّوا وودُّوا لو كانوا مسلمين، فيوم القيامة هو يومُ الحسرةِ، لكثرة ما فيه من حسرة وندامة:

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩].

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۝٢٧ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ [الفرقان].

ثم التفتت الآياتُ تخاطبُ النبيَّ ﷺ:

﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾.

﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟﴾ أي: اتركهم يأخذوا حظوظهم من هذه الدنيا.

ولا يخفَى ما في الخطاب من تحقير للكافرين وإهانةٍ لهم، فلا عملَ لهم في الدنيا إلا الأكل والتمتعُ بمتاعها المادي الزائل الحقير، تلك هي معقد آمالهم، ومنتهى طموحاتهم، فما الذي يميِّزهم عن الحيوانات؟! ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمَّد: ١٢].

كما لا يخفى ما في هذا الأمر من تهديد ووعيد لهم، فهو كقوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ [المرسلات: ٤٦].

● **الدنيا وسيلة لا غاية:**

والأكل والتمتع بما خلق الله تعالى في الحياة الدنيا من الطيبات الحلال ليس محظوراً ولا ممنوعاً، قال تعالى في **سورة البقرة**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝١٦٨﴾.

وقال أيضاً في **سورة المائدة**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝٨٧ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ۝٨٨﴾.

والآيات في هذا المعنى كثيرة، فالحلال الطيب غيرُ محظور في الإسلام، إنَّما المحظورُ المحرَّم هو الإسراف في التمتع بالدنيا، والانشغال بها عن الآخرة، وهذا ما أراد الله سبحانه أن يبيِّنه في قوله:

﴿وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ﴾ أي: يشغلهم طول الأمل في الدنيا عن العمل للآخرة والاستعداد لها، فالدنيا وسيلةٌ للآخرة ومطيَّة لها، وليست غاية في نفسها، فالله سبحانه ما خلق الخلق وأحكمه وأبدعه للأكل والمتاع، يتنزَّه اللهُ عن ذلك وهو الحكيم العليم.

وإنَّ كثيراً من الناس يخطئون عندما يجعلون الدنيا غاية لخلقهم ووجودهم

فيها، ويغفلون عن الآخرة وما ينتظرهم فيها من مسؤولية وحساب، ولهذا تراهم منصرفين بكلِّ طاقاتهم وجهودهم إلى الدنيا، غافلين أو متغافلين عن الحكمة من خلقهم ووجودهم، وهي عبادته سبحانه وعمارة الأرض بطاعته.

وكما بدأت الآيةُ بالتهديد والوعيد ختمت به أيضاً بقوله ﷻ:

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ سوء صنيعهم وعاقبة آمالهم.

• آمال وآجال:

وتدل الآيةُ على أنَّ كثرةَ التلذذ والتنعم في الدنيا يؤدي إلى طول الأمل فيها وقلة العمل للآخرة، فمن طال أملُه قَلَّ عمله، لأنَّ الأملَ الطويل يشغل صاحبه عن أجله، ولهذا عدَّ النبيُّ ﷺ طولَ الأمل من الشقاء، فقال: «**أربعةٌ من الشقاءِ: جمودُ العينِ، وقسوةُ القلبِ، وطولُ الأملِ، والحرصُ على الدنيا**» [رواه البزار (كشف: ٣٢٣٠)].

وكثيراً ما تتجاوز الآمالُ حدودَ الآجال، فمهما امتدَّ عمر الإنسان فلن يعيشَ حتى يحقق كل آماله في حياته، وقد حذَّر النبيُّ ﷺ من الوقوع في شِراك الآمال الطويلة بأمثلة واقعية محسوسة، منها:

ما رواه **عبد الله بن مسعود** رضي الله عنه قال: خطَّ النبيُّ ﷺ خطّاً مربعاً، وخطَّ خطّاً في الوسطِ خارجاً منه، وخطَّ خطوطاً صغاراً إلى هذا الذي في الوسط، من جانبه الذي في الوسط، فقال: «**هذا الإنسانُ، وهذا أجلُه محيطٌ بهِ، أو قد أحاطَ بِهِ، وهذا الذي هو خارجٌ أملُه، وهذه الخططُ الصغارُ الأعراضُ، فإن أخطأه هذا نهشَهُ هذا**» [رواه البخاري (٦٤١٧) والترمذي (٢٤٥٤) والنسائي (تحفة: ٧/ ٢٠) وابن ماجه (٤٢٣١)].

وعن **أنس** رضي الله عنه قال: خَطَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ خطّاً، وقال: «**هذا الإنسانُ**» وخطَّ إلى جَنْبِهِ خطّاً، وقال: «**هذا أَجَلُهُ**» وخَطَّ آخرَ بعيداً منه، فقال: «**هذا الأَمَلُ، فبينما هو كذلكَ إِذْ جاءَهُ الأَقْرَبُ**» [رواه البخاري (٦٤١٨) والنسائي (تحفة ١/ ٢٨٥)].

وخيرُ علاجٍ لطولِ الأملِ الإكثارُ من ذكر الموت، لأَنَّه حدود أعمارنا،

ونهاية حياتنا في الدنيا، وهو ما أمر به ﷺ بقوله: «**أكثروا ذِكْر هاذِم اللذات**» [رواه ابن ماجه (٤٢٥٨) والترمذي (٢٣٠٧) وحسّنه] أي: قاطعها.

وقد أخبر رسول الله ﷺ أنَّ طولَ الأملِ مِنْ أسبابِ هلاك الأمة المسلمة في آخرِ الزمن، فقال: «**صلاحُ أوَّلِ هذه الأمة بالزهادةِ واليقينِ، وهلاكُ آخرِها بالبخلِ والأملِ**» [رواه الطبراني وابن أبي الدنيا في اليقين (٣) والأصبهاني في الترغيب (١٦٤). وفي إسناده احتمال للتحسين كما قال المنذري في الترغيب (٤٨٩٥، ٤٨٩٦)].

ولا شك أنَّ قوله عليه الصلاة والسلام ينسحبُ على كثير من المسلمين في العصر الحاضر لشدَّة تأثرهم بالحياة المادية الغربية، قال **عليُّ بن أبي طالب** رضي الله عنه: «**إنما أخشى عليكم اثنتينِ: طولَ الأمل، واتِّباعَ الهوى، فإنَّ طولَ الأملِ يُنسي الآخرة، واتِّباعَ الهوى يصدُّ عن الحقِّ**»[1].

• **الكتاب المعلوم:**

فلا ينبغي الاغترار بالدنيا والانشغال بها عن الآخرة، فكل شيء فيها مآله إلى زوال، وقد جعل الله تعالى له أجلاً محدوداً لا يتجاوزه:

﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ۝٤﴾.

أي: أجل مقدَّر معلوم لا يتقدم ولا يتأخر.

﴿مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ۝٥﴾.

فلا تستطيعُ أي أمةٍ، مهما بلغت في القوة والعلم والحضارة، أن تغيِّر من أجلها الذي قدَّره الله سبحانه، لا تقديماً ولا تأخيراً.

وجاء الإِخبار عن التأخير بصيغة الاستفعال ﴿يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾ للإِشعار بعجزهم

---

(١) تفسير الخازن: ٣/٥٤٨.

عن ذلك مع طلبهم له[١]، فالإنسانُ مفطورٌ على حب الحياة والبقاء، وكراهية الموت والفناء.

• إعراض وجحود:

ويؤدِّي الإسرافُ في التمتع بالدنيا وطول الأمل فيها إلى الإعراض عن الحق وجحوده، وهو ما فعله مشركو مكة عندما قالوا للنبيِّ ﷺ على سبيل الاستهزاء والتهكُّم:

﴿وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦﴾.

﴿وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾ أي: يا أيها الذي يدَّعي نزول القرآن عليه.

﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ في دعوتك إلى عبادة الله الواحد، وترك ما وجدنا عليه آباءنا، أو في ادِّعائك نزولَ القرآن عليك من الله تعالى.

ويشبه قولُهم هذا قولَ فرعون في نبي الله موسى ﵇: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧] فمواقف المعاندين المعرضين عن الحق وأقوالهم واحدةٌ، ولو اختلفت أزمانهم وبلادهم.

ثم بلغَ بهم العنادُ والجحودُ إلى مطالبة النبيِّ ﷺ أن ينزِّلَ الملائكة عليهم بالعذاب إن كان صادقاً في دعوته:

﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۝٧﴾.

أي: هلَّا تأتينا بالملائكة للعقاب على تكذيبنا لك، كما حدث للأمم المكذبة من قبل[٢].

وردَّ سبحانه على طلبهم هذا بقوله:

---

(١) روح المعاني: ١٥/ ١١.

(٢) انظر: تفسير البيضاوي وتفسير النسفي: ٣/ ٥٤٩.

﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾﴾.

﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: إلا بالحق الذي قدَّره سبحانه بمشيئته واقتضته حكمته، لا بحسب أهوائهم ومشيئتهم.

﴿وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ ولو نزلت عليهم الملائكة لَعُذِّبوا وأُهْلِكوا ولم يُؤخَّروا ويُمهلوا.

• **حفظ القرآن الكريم:**

ثم ردَّ سبحانه على استهزائهم بالنبيِّ ﷺ، ووصفهم له بصفة الجنون، وإنكارهم نزولَ القرآن الكريم عليه، بقوله ﷻ:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ أي: القرآن الكريم.

﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ من التحريف والتبديل والزيادة والنقص.

ففي الآية تأكيدٌ يفيدُ الجزم والقطع على أنه سبحانه هو الذي نزَّل القرآن الكريم على النبيِّ ﷺ، وأنه سبحانه هو الذي يتولَّى حفظَ القرآنِ الكريم بما قدَّر له من أسباب الحفظ، وأوَّلُ أسبابِ حفظه اختيار النبي الصادق الأمين عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ليكونَ الأمينَ الأوَّلَ للقرآن الكريم، والحافظَ له، والمبلِّغَ، فكيف تجرَّؤوا على مقامه الشريف، ووصفوه بصفة الجنون، وقد اختاره الحقُّ سبحانه لأمانة حمل القرآن الكريم وحفظه وتبليغه؟!.

فالقرآن الكريم محفوظٌ بحفظ الله تعالى رغم أنف المعاندين والجاحدين، مهما تعاقبت عليه الأزمان والحَدَثان، ولقد فعل سبحانه ما وعد بالآية الكريمة، وظهرَ بهذا أنَّه كلامُ اللهِ تعالى الذي لا يتخلَّفُ عن الحقيقة.

وقد مرَّ على القرآن الكريم حتى الآن ما يزيدُ على أربعة عشر قرناً، وهو محفوظ بحفظ الله تعالى، لم يلحقه أي تغيير أو تبديل، ولا زيادة ولا نقص،

كما أخبر سبحانه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٌ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت].

وتم حفظه رغم كثرة المعارضين له والمعاندين، ورغم ضخامة الأحداث والنكبات التي نزلت بالمسلمين على مدى تاريخهم، وسيبقى بإذن الله محفوظاً حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

• **محاولات فاشلة:**

لقد باءت بالفشل كلُّ محاولاتِ أعداء الإسلام لكي ينالوا من القرآن الكريم ما يريدون من تحريف وتبديل، منذ نزوله وحتى العصر الحاضر، مع العلم أنَّهم نجحوا في الافتراء على سُنَّة رسول الله ﷺ، ممَّا حمل علماء المسلمين على بذل جهود علمية مُضْنية حتى تمكنوا بحمد الله من تمحيص السُّنَّة وتنقيتها، كما نجحوا في إحداث الفتن بين المسلمين، وتقسيمهم إلى فرق وشيع وأحزاب، ونجحوا أيضاً في فتنة كثير من المسلمين عن دينهم وأخلاقهم. ولكنَّهم لم يستطيعوا بحمد الله أن يحدثوا في القرآن الكريم أي تغيير أو تحريف، رغم شدة مكرهم وقوة كيدهم.

قال سيد قطب رحمه الله: «لقد بذل أعداءُ هذا الدين ـ وفي مقدمتهم اليهود ـ رصيدَهم من تجارب أربعة آلاف سنة أو تزيد، في الكيد لدين الله، وقدروا على أشياء كثيرة... ولكنَّهم لم يقدروا على شيء واحد ـ والظروف الظاهرة كلها مهيأة له ـ لم يقدروا على إحداث شيء في هذا الكتاب المحفوظ... لقد كان هذا الوعدُ على عهد رسول الله ﷺ مجرَّدَ وعدٍ، أما هو اليوم من وراء كل تلك الأحداث الضخام، ومن وراء كل تلك القرون الطوال، فهو المعجزة الشاهدة بربانية هذا الكتاب، والتي لا يماري فيها إلا عنيد جهول»[1].

• **انقطاع الوحي وتمام النعمة:**

لقد تولَّى الله سبحانه حفظ القرآن الكريم، فبقي محفوظاً لم يلحقه باطلٌ من

---

(١) انظر: في ظلال القرآن: ٤/ ٢١٢٨.

بين يديه ولا من خلفه، بينما لم يتكفَّل سبحانه بحفظ الكتب المنزَّلة قبل القرآن كالتوراة والإنجيل، وجعلَ حفظها موكولاً بأحبار اليهود والنصارى ورهبانهم، فغيَّروا فيها وبدَّلوا، وأحدثوا فيها من التحريف ما أحدثوا، حتَّى أصبحت متعارضةً فيما بينها ومتناقضةً، كما أصبحت مليئةً بالأكاذيب والضلالات التي يتنزَّه عنها كلام العقلاء من الناس، بَلْه كلام الله تعالى الحكيم العليم الذي قال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

وجاء حِفْظ الله سبحانه للقرآن الكريم حجةً قائمةً على الناس إلى قيام الساعة، تلزمهم بالإسلام ديناً وشريعة، إذ اقتضت مشيئته سبحانه أن يكون الرسول ﷺ خاتمَ الأنبياء والمرسلين، وأن يُخْتَمَ الوحي بنزول القرآن الكريم، فلا نبيَّ بعده أبداً، ولا وحي.. انقطع الوحي، وتمت كلماته سبحانه صدقاً وعدلاً، تنير الطريق للناس، وتبين لهم معالم الحق والهدى إلى قيام الساعة: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وقال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الرسالةَ والنبوةَ قد انقضتْ فلا رسولَ بعدي، ولا نبيَّ**» [رواه أحمد (١٣٧٥٨) والترمذي (٢٢٧٢) وقال: حسن صحيح].

وقال ﷺ أيضاً: «**إنَّ لي أسماءً: أنا محمَّدٌ، وأنا أحمدُ، وأنا الماحي الذي يمحو اللهُ به الكفرَ، وأنا الحاشِرُ الذي يُحْشَرُ الناسُ على قدمي، وأنا العاقِبُ الذي ليس بَعْدَهُ نبيٌّ**» [رواه البخاري (٣٥٣٢) ومسلم (٢٣٥٤)][(١)].

- **البشارة الخالدة:**

وفي قوله سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ تثبيتٌ كبير للنبيِّ ﷺ في مواجهته لكيد المشركين ومكرهم، فالآية مكيةٌ نزلت على النبي ﷺ وهو

(١) انظر تفصيل الموضوع: في تفسير سورة الأحزاب، في تفسيرنا الموضوعي هذا، تحت عنوان: (النبي ﷺ وأزواجه في سورة الأحزاب).

يواجه أذى المشركين وجحودهم وعنادهم.

كما أنَّ في الآية بشارة للنبيِّ ﷺ وطمأنينة على بقاء الإِسلام، فلن يستطيعَ أحدٌ أن ينال من هذه الدعوة الجديدة الوليدة، فهي مستمرة وباقية بعد أن تكفَّلَ الله تعالى بحفظها وبقائها.

وتطمئنه أيضاً على حفظه للقرآن الكريم وحسن تلقِّيه له من الوحي، فهي كقوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة].

فَلْتَقَرَّ عينُك يا رسول الله، وليطمئن قلبك، فكلماتُ الله تعالى التي أنزلها عليك، وجمعها في قلبك، وبيَّنها بلسانك، ستبقى ما بقي الزمانُ، حجةً قائمةً، تدل الناسَ على صدقِ نبوتك، وصحة رسالتك، صلّى الله عليك وسلم وبارك، وعلى آلِكَ وأصحابك ما بقيت كلماتُ الحقِّ في الأرض تهدي الحائرين وترشد الضالين.

- **قلوب المجرمين:**

ثم تابعت الآيات الكريمة تسليةَ النبيِّ ﷺ عما يلقى من أذى المشركين ومكرهم:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾﴾.

أي: أرسلنا مِنْ قبلِكَ رسلاً إلى أممهم.

والشيع: جمع شيعة، وهي الفرقة والطائفة من الناس المتآلفة المتفقة الكلمة[1]، أصلها من فعل (شاع) المتعدِّي، بمعنى تبع، لأنَّ بعضهم يشايعُ بعضاً ويتبعه.

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾﴾.

فما تلقاه من هؤلاء المكذِّبين المعاندين لقيَ مثلَه الأنبياءُ والمرسلون من أقوامهم.

---

(١) تفسير القرطبي: ١٠/٦.

ثم أخبر سبحانه عن تمام مشيئته، وكمال قدرته، وأنَّه بمشيئته وقدرته يدخل الاستهزاء والتكذيب في قلوب المجرمين من مشركي مكة بسبب عنادِهم واستكبارِهم، فقال:

﴿كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝١٢﴾.

والسَّلْكُ: إدخالُ الشيءِ في الشيءِ.

والمعنى: فكما سلكنا التكذيبَ والاستهزاء في قلوب شِيَع الأولين، كذلك نسلكه في قلوب المجرمين من مشركي مكة[1].

فقد بيَّنت الآيةُ ما انطوت عليه قلوب المجرمين من استهزاء وتكذيب.

ونتيجة السَّلْك:

﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝١٣﴾.

﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي: بالقرآن أو بمحمد ﷺ.

﴿وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي: وقد مضت سنَّته تعالى بإهلاك المكذِّبين المعاندين، ففي الآية وعيدٌ وتهديدٌ لمشركي مكة.

- **باب من السماء:**

وما ظلمهم الله سبحانه بإدخال الاستهزاء والتكذيب في قلوبهم، لعلمه سبحانه شدة عنادهم وتكبرهم، قال عزَّ شأنه: ﴿كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [يونس: ٧٤].

وقال أيضاً: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ [البقرة: ٨٨][2].

---

(١) انظر: مجموعة التفاسير: ٥/ ٥٥١.

(٢) انظر تفصيل الموضوع في: تفسير سورة يونس، وقد جاء تحت عنوان: (الإنسان بين التقدير والتكليف في سورة يونس) في تفسيرنا الموضوعي الكبير هذا.

ثم بيَّن سبحانه شدَّة عنادِهم واستكبارِهم بجحودهم للمعجزات الحسية المشاهدة، فقال:

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾﴾.

أي: يصعدون، قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: «يخبر الله تعالى عن قوة كفرهم وعنادهم ومكابرتهم للحق، أنَّه لو فتحَ لهم باباً من السماء، فجعلوا يصعدون فيه، لما صدَّقوا بذلك، بل قالوا: إنَّما سُكِّرَتْ أبصارُنا»[١].

﴿لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا﴾ أي: سُدَّت أبصارنا، أو أخذت، أو سُحرت، أو صارت سَكْرَى، أو غُشيت وغُطيت، وكلُّها أقوال متقاربة تدل على أنهم أرادوا أنه فسدت أبصارنا، واعتراها خللٌ في إحساسها كما يعتري عقل السكران فيختل إدراكه[٢].

ثم أضربوا عن قولهم: ﴿سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا﴾، وادَّعوا أنَّهم مسحورون:

﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ أي: سَحَرَهم محمد ﷺ.

وهذا بيان لعنادهم العظيم الذي لا يقلعهم عنه شيء من الأشياء كائناً ما كان[٣].

كما أنَّه يرد اقتراحهم رؤية الملائكة الذي سبق الإخبار عنه في قوله تعالى: ﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الحجر: ٧].

فالآية سيقت لبيان عِنادِ المشركين والردِّ عليهم، فهي كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام: ٧].

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٢/ ٣٠٩.
(٢) روح المعاني: ١٥/ ٢٠.
(٣) فتح القدير: ٣/ ١٢٣.

قال سيد قطب رَحِمَهُ اللهُ: «يكفي تصورهم على هذا النحو لتبدوَ المكابرةُ السمجةُ، ويتجلَّى العنادُ المزري، ويتأكد أنْ لا جدوى من الجدل مع هؤلاء، ويثبت أنْ ليسَ الذي ينقصُهم هو دلائل الإيمان، وليسَ الذي يمنعهم أنَّ الملائكةَ لا تنزل، فصعودُهم هم أشدُّ دلالة وألصقُ بهم من نزول الملائكة، إنَّما هم قومٌ مكابرون، بلا حياء وبلا مبالاة بالحق الواضح المكشوف»[(١)].

وقول بعض الدارسين لظواهر الإِعجاز العلمي في القرآن: «إن فيها حقيقة علمية يؤكِّدها ما نُقِل عن أحد رواد الفضاء، أن بصره قد سُدَّ عندما صعدَ إلى الفضاء» **يخرِجُ الآيةَ عن مقصدها الأساس**، بل يجعلُ للمعاندين من المشركين عذراً في قولهم: ﴿سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا﴾ ما دام قولهم يحمِلُ هذه الحقيقة العلمية، وهذا يفسِدُ المعنى المراد فساداً كبيراً.

فالواجبُ علينا الحذرُ من الوقوع في مثل هذا، فلا ينبغي تحميل كلماتِ القرآنِ معانيَ تُخْرِجُها عن مقصدها الأساس الذي سيقت من أجله، كما لا ينبغي تفسير الكلمة القرآنية بمعزل عن سياقها وموضعها من الآية القرآنية.



(١) في ظلال القرآن: ٤/ ٢١٢٩.

الفصل الثاني

بَيانُ التَّوازُنِ في الكَوْنِ والحَياةِ

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَـٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾.

- **تَمْهيد:**

عندما ينسى الإنسانُ أنَّ حياته محدودةٌ بأجل معيَّن لا يتقدَّمُ ولا يتأخر، وأنَّ مواهبه وقواه الجسدية والفكرية محدودة أيضاً ومقدَّرة بمقادير معينة، يقع حينئذٍ الخللُ في حياته وسلوكه، فيغترُّ بنفسه، وتطول آماله بحياته، وتطغى عليه أهواؤه وشهواته، ويمتدُّ الخَلَلُ والفسادُ إلى علاقة الإنسان مع غيره من الناس وإلى العالم المحيط به.

وما ينطبقُ على الإنسانِ ينطبِقُ أيضاً على المخلوقات والمكونات كلِّها، فالخالقُ واحدٌ، بل إنَّ بينَ الإنسان والمكونات ارتباطاً يدل على كمال حكمة الله تعالى وعلمه، فقد جعلَ اللهُ لجميع المكونات والمخلوقات أعماراً وآجالاً محددة، وهذا التقديرُ مرتبطٌ بالنواميس الكونية التي جعلها سبحانه بقدرته ومشيئته أسبابَ استمرار الحياة وبقاء المخلوقات إلى الأجل المحدد لها.

فثمَّة ارتباطٌ وتوازنٌ بين مقادير المخلوقات وبين أعمارها وآجالها، يدل على حكمة الخالق وقدرته وعلمه، ولقد كشفَ العلمُ الحديثُ بعضَ أسرارِ هذا الارتباط والتوازن، ففي مجال الكواكب والأجرام السابحة في الفضاء وجدوا أنَّ حركتها وسرعتها مرتبطةٌ بأحجامها وكتلتها، ووجدوا أنَّ الجاذبيةَ التي جعلها الله ﷻ بين النجوم والأجرام، والتي تحفظ بتقديره سبحانه التوازن بين هذه الأجرام الكبيرة، وتضبط حركتها على أفلاكها، مرتبطة أيضاً بأحجامها وكتلها وكثافتها، ولذلك قالوا: إنَّ قانونَ الجاذبية التثاقلية، التي توصَّل إليها «نيوتن» هو: كلُّ جسمٍ مادي يجذِبُ أيَّ جسمٍ إليه بقوة تتناسب مع حاصل ضرب كتلتي الجسمين وعكس مربع البعد بينهما[١].

وهذا يدلُّ على أنَّ أيَّ نقصٍ أو زيادة في كتلتي هذه الأجرام يؤدِّي إلى خلل في مواقعها وحركتها، يمتدُّ تأثيرُه إلى التوازن القائم بينها، ويظهر أثره على استمرار الحياة بسبب ما يحدث من خلل في نواميسها.

ولقد ركَّزت آياتُ سورة الحِجْر التالية على التقدير الذي قدره الله تعالى للمكوَّنات، وما يؤدي إلى التوازن القائم بينها، وارتباط كل ذلك بحياة الإنسان المحدودة على الأرض، وكلُّ ذلك أدلةٌ قطعيةُ الدلالةِ على وحدانية الخالق وكمال علمه وقدرته وحكمته سبحانه.

- **السماء في القرآن الكريم:**

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾﴾.

هل المرادُ من السماء حقيقتها وجرمها المادي أو جهتها؟ كلا المعنيين ممكنٌ هنا، ولا نستطيعُ ترجيح أحدهما من دون مرجِّح، ولا يقال: الأصلُ حَمْلُ الكلام على معناه الحقيقي، لأنَّ القرآن الكريم أورد كلمة **(السماء)** بكلا المعنيين في مواضع كثيرة، فمثلاً الآيات التي أخبرت عن إنزال المطر من

(١) علم الفلك، لمحمد رضا مدور.

السماء أرادت جهة السماء، لأنَّ المطر يُنْزِلُه الله تعالى من السحاب، الذي هو في جهة السماء، إذ جاء التصريح بهذا المعنى في عدد من الآيات الكريمة، منها قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الروم: ٤٨].

ومنها أيضاً قوله عزَّ شأنه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ الآية [النور: ٤٣].

واستناداً إلى مثل هذه الآيات نستطيعُ أن نقولَ: إنَّ المراد من السماء في مثل قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ [الفرقان: ٤٨] السحاب الذي في جهة السماء.

وهناك آياتٌ أرادت حقيقةَ السماء وجِرْمها، كقوله تعالى:

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١].

و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١].

﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

إنَّما الذي نستطيعُ تأكيده والجزم به أنَّ حقيقة السماء مغايرة لحقيقة النجوم والكواكب، للمغايرة بينهما في آيات كثيرة، كقوله سبحانه: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ [الانفطار].

وقوله أيضاً: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ [الصافات: ٦].

وقوله عزَّ شأنه: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥].

ولا شك أن الزينة تغاير المزيَّن.

- **الجمال في المكونات:**

وقوله سبحانه:

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ أي: نجوماً، أو مواقع النجوم ومنازلها التي أقسمَ الله تعالى بها في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة]، أو منازل الشمس والقمر.

وأصلُ البروج في اللغة: الظهور، ومنه تبرُّجُ المرأةِ بإظهار زينتها، ولهذا تُسمَّى القصورُ الكبيرة العالية: البروج، جاء هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

﴿وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ﴾ أي: زيَّنا السماء للناظرين إليها بأبصارهم، كقوله سبحانه: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ [الصافات: ٦].

أو زيناها للناظرين إليها نظر التفكُّر والتدبُّر، المستدلين بذلك على قدرة مقدِّرها وحكمة مدبِّرها جلّ شأنه[(١)].

ولا شكَّ أنَّ جمالَ المخلوقات يدلُّ على وجود خالقها وكمال حكمته ومشيئته، لما فيه من دلالة على الإبداع والاختيار والتنسيق، وكثيراً ما نرى الآيات الكريمة تنبهنا إلى ظاهرة الجمال المبثوثة في كل المكونات دليلاً على وجوده سبحانه ونعمته وفضله، قال تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [النحل].

وقال أيضاً في جمال النبات: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٣].

وتأمَّل كيف لفت سبحانه الأنظارَ إلى إبداعه في اختلاف ألوان الثمار والجبال، وما يترتب على هذا الإبداع من جمال، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [فاطر: ٢٧].

فسبحانه ما أعظم حكمته وما أجلَّ رحمته!.

• **حَرَس في السماء:**

جمع الله تعالى للسماء الجمال المادي والجمال المعنوي، فقد زيَّنها بالكواكب والنجوم، وحفظها أيضاً من رِجْس الشياطين ودنسهم، فقال عزَّ شأنه:

---

(١) روح المعاني: ١٥/ ٢٣.

﴿وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾﴾.

الرجيم: المطرود عن كل خيرٍ، فالشيطان موكل بهذه الأرض وحدها، وبالغاوين من أبناء آدم فيها، أمَّا السماءُ فهو مطرودٌ عنها مطارد، لا ينالها ولا يدنسها، إلا محاولة منه تُردُّ كلما حاولها[1]. بدليل قوله سبحانه:

﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾.

مبين: واضح ظاهر.

والملاحظُ أنَّه سبحانه كلَّما لفت الأنظار إلى حكمته وإبداعه في تزيين السماء، ذكر بعده حفظه للسماء من الشياطين، كما في هذه الآيات، وفي قوله أيضاً الذي سبق ذكره: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: ٥].

وقوله أيضاً الذي مر معنا: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾ [الصافات].

فكما جعل سبحانه الكواكبَ زينةً للسماء الدنيا، جعلها أيضاً مراكز لحراسة السماء وحفظها من الشياطين، وَرَدَ ذلك صراحة على لسان الجن في قوله تعالى في **سورة الجن**: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾.

ويظهر لنا من خلال هذه الآيات أنَّ السماء ما كانت محروسة قبل البَعْثة النبوية ونزول القرآن الكريم، إذ كان بعض الجن والشياطين يصعدون إلى السماء، يسترقون السمع من الملائكة.

وهل كانوا يصعدون حتى يصلوا إلى جرم السماء؟ أم كانوا يصعدون في جو السماء وجهتها؟ النصوصُ القرآنية مطلقةٌ تحتمِلُ هذا وهذا.

---

(١) في ظلال القرآن: ٤/ ٢١٣٣.

وقد رويَ عن النبيِّ ﷺ ما يرجِّحُ الثاني، فعن **عائشة** رضي الله عنها قالت: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «**إنَّ الملائكةَ تنزِلُ في العنانِ** (وهو السحاب) **فتذكرُ الأمرَ قَضِي في السماءِ، فتسترقُ الشياطينُ السمعَ فتسمعه، فتوحيه إلى الكُهَّانِ، فَيَكْذِبُوْنَ مع الكلمةِ مئةَ كذبةٍ من عند أنفسِهم**» [رواه البخاري (٢٢١٠)].

● **الشهب المشتعلة:**

ويطلَقُ **الشهاب** في اللغة: **على الشعلة الساطعة من النار الموقدة**، قال الله جل جلاله: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [النمل: ٧].

ويطلق أيضاً **على الكوكب المضيء اللامع**، وعلى **بعض الأجزاء الصغيرة الملتهبة** المنفصلة عن بعض الكواكب والنجوم الملتهبة، وهذا المعنى هو المراد هنا في قوله: ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾.

ومن الثابت علميّاً أنَّ بعض النجوم وخاصةً القريبة من الشمس ذات حرارة عالية ملتهبة، وما ينفصل عنها من أجزاء ملتهب مثلها، وتزداد التهاباً وحرارة عندما تصل إلى جو الأرض وتحتكُّ بهوائها.

وليس من الضروري أن تكونَ الشهبُ لرمي الشياطين المسترقين للسمع فقط، إذ من الممكن أن يكون لها حِكَمٌ أخرى لا نعلمها، الله سبحانه يعلمها.

● **الجبال الرواسي:**

ثم تنقلُنا الآياتُ الكريمةُ من السماء وبروجها وزينتها إلى الأرض وجبالها ونباتها:

﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾﴾.

﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا﴾ أي: بسطناها ليمكن العيش عليها والانتفاع بها، فهو كقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَـٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَـٰهِدُونَ﴾ [الذاريات: ٤٨].

ولا يلزمُ من ذلك نفيُ كرويتها، كما قال بعضُ قدماء المفسرين، كما أنَّ الكرة العظيمة لعظمها تُرى كالسطح المستوي(١).

﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ أي: جبالاً ثابتة.

وقوله: ﴿وَأَلْقَيْنَا﴾ يدل على عظمة القدرة الإلـٰهية التي أصبحت الكتلُ الجبليةُ الهائلة بالنسبة لها أشياء صغيرة تُلقى على الأرض، كما تدلُّ على أنَّ الجبالَ أضيفت إلى الأرض، وثُبِّتَتْ فيها كما يثبَّتُ الوتدُ في الأرض، وقد جاء وصف الجبال بالأوتاد في قوله تعالى: ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ: ٧].

واتفقت الآياتُ بهذا مع ما يقوله علماء طبقات الأرض عن دور الجبال في تثبيت القشرة الأرضية، وعن وجود جذور للجبال في داخلها تعمل على تثبيتها وتمنع انزلاقها.

وتدل كلمة ﴿وَأَلْقَيْنَا﴾ أيضاً على أنَّ الجبالَ خُلقت بعد خلق الأرض، إلا أن استعمال كلمة **(جعل)** بدل **(ألقى)** في بعض الآيات كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٣١]، جعل بعضَ المفسرين يرونَ احتمالَ أنه سبحانه خلق الأرض من دون الجبال أولاً، ثم خلق فيها الجبال.

قال الفخر الرازي رَحِمَهُ اللهُ: «**فإن قيل**: أتقولون: إنَّه تعالى خلقَ الأرضَ من دون الجبال فمالت بأهلها، فخلق فيها الجبال؟ أو تقولون: إنَّ الله خلق الأرض والجبال معاً؟ **قلنا**: كلا الوجهين محتمل»(٢).

لكنَّ الحديث الشريف يرجِّحُ الوجه الأول: فعن **أبي هريرة** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: أخذَ رسولُ الله ﷺ بيدي فقال: «**خلقَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ التربةَ يومَ السبتِ، وخلقَ فيها الجبالَ يومَ الأحدِ، وخلقَ الشجرَ يومَ الإثنينِ، وخلقَ المكروهَ يوم الثلاثاءِ، وخلقَ النورَ يوم الأربعاءِ، وبثَّ فيها الدوابَّ يومَ الخميسِ، وخلقَ آدمَ بعدَ العصرِ مِنْ يومِ**

---

(١) انظر: التفسير الكبير: ١٩/ ١٧٤؛ وروح المعاني: ١٥/ ٢٨.

(٢) التفسير الكبير: ١٩/ ١٧٥.

الجمعةِ في آخرِ الخلقِ، في آخرِ ساعةٍ من ساعاتِ الجُمُعَةِ، فيما بينَ العصر إلى الليل» [رواه مسلم (٢٧٨٩)].

- **التقدير والتوازن:**

﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ﴾ أي: مقدَّر بمقدار معيَّن معلوم حسب ما تقتضيه حكمته سبحانه، فكل شيء في الأرض، وفي الكون أيضاً، مقدَّرٌ بمقدار معيَّن محدود لا يتجاوزه، قدره العليم الحكيم على وفق النواميس التي جعلها سبحانه أسبابَ استمرار الحياة، وهذه النواميسُ ليست حتميةً ولازمةً بنفسها، إنَّما حتميتُها وثباتُها واستمرارُها متعلِّقٌ بمشيئته سبحانه وقدرته.

فالتدبيرُ والتقديرُ له سبحانه، كما أنَّ الخلق له سبحانه وحده؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٣][1].

وقد كشف العلمُ الحديثُ بعضَ حكم التقدير والتحديد وارتباطه بنواميس استمرار الحياة التي قدَّرها سبحانه، فثمَّةَ توازن عجيب في مجال التنفس بين الحيوانات والإنسان والنبات والبحر، فالإنسانُ والحيوانُ يستنشق من الهواءِ الأوكسجينَ، ويلقي ثاني أوكسيد الكربون، ويقابِلُه النباتُ الذي يأخذُ ثاني أوكسيد الكربون، ويلقي الأوكسجين، وإذا زادت نسبةُ ثاني أوكسيد الكربون في الهواء امتصَّ البحرُ الزيادة، وأعادَ التوازنَ إلى الهواء.

ولو كانت الأرضُ أقلَّ وزناً مما هي عليه لنقصت جاذبيتُها، وابتعد الهواءُ عن جوها المحيط بها، وعدمت الحياة عليها، ولو كانت أثقل مما هي عليه لازدادت جاذبيتها، وتعذَّرت الحركة فوقها، وازداد وزن الإنسان بشكل يعطِّلُ نشاطه وحيويته، ويؤثر على حركته، فاعلم عظمة حكمته سبحانه، وبديعَ صنعه،

---

(١) انظر: تفسير سورة يونس، المسمَّى هنا في هذا التفسير الموضوعي الكبير: (الإنسان بين التقدير والتكليف في سورة يونس).

وإحاطةَ علمه، وسرّاً من أسرار إعجاز كتابه في قوله عزَّ شأنه: ﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ﴾.

فكل ما في الأرض يتناسب تماماً مع حاجات الناس المعيشية، مما يدل على فضله سبحانه وإحسانه عليهم، ولهذا قال سبحانه:

﴿وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ۝٢٠﴾.

﴿وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ بما يسَّر لكم فيها من أسباب الكسب وتحصيل الرزق.

﴿وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ وجعل لكم أيضاً الأولادَ والخدمَ والدواب والأنعام، فلكم منافعهم، وعلى الله سبحانه أرزاقهم لا عليكم[(١)].

فما أعظم فضله سبحانه وإحسانه!.

● **خزائنه سبحانه:**

ولا تظننَّ أن تقدير المخلوقات بمقادير معينة محددة يدل على أن خزائنه سبحانه محدودة، فخزائنُه سبحانه لا تحدُّها حدود، ولا تحيط بها أوزان ولا أعداد، لأنها آثار قدرته سبحانه، قال تعالى:

﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ۝٢١﴾.

﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ أي: ما مِنْ شيء إلا ونحن قادرون على إيجاده وتكوينه أضعاف ما خلقنا منه، فضرب الخزائن مثلاً لاقتداره سبحانه، أو شبَّه مقدوراته بالأشياء المخزونة التي لا يحوج إخراجها إلى كلفة واجتهاد[(٢)].

وبهذا بيَّن سبحانه سعةَ قدرته وكمالَ غناه.

ثم بيَّن بعد ذلك كمال حكمته وتمام مشيئته، فقال:

﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ﴾ حددته مشيئته واقتضته حكمته سبحانه.

---

(١) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ٢/٣٠٩.

(٢) تفسير البيضاوي: ٥/٥٥٦.

فإذا ما ضيَّق الله تعالى عليك الرزقَ، فلا تظننَّ أنَّ ذلك التضييق بسبب قلة ما عنده سبحانه، إنما ضيَّقه عليك لحكمة يعلمها، بيَّن بعضها بقوله ﷻ: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٧].

وقوله ﷻ أيضاً: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

فخزائنُهُ سبحانه ملأى لا ينقصها عطاؤه وإحسانه، قال رسول الله ﷺ: «**إنّ يمينَ الله ملأى، لا يُغيضُها** (أي: ينقِصُها) **نفقةٌ، سَحَّاءُ الليل والنهار، أرأيتُم ما أنفقَ منذُ خلقَ السمواتِ والأرضَ، فإنَّه لم يُغضْ ما في يمينِهِ**» [رواه البخاري (٧٤١٩) ومسلم (٩٩٣)]. قوله: «**سحاء**» أي: فياضة بالعطاء في كلِّ الأوقات.

وجاء في الحديث القدسي: «**يا عبادي! لو أنَّ أوَّلَكُم وآخرَكم، وإنسَكم وجنَّكُم، قاموا في صعيدٍ واحدٍ فسألوني، فأعطيتُ كلَّ إنسانٍ مسألته، ما نقصَ ذلك ممَّا عندي إلَّا كما ينقصُ المخيطُ** (الإبرة) **إذا أُدخلَ البحرَ**» [رواه مسلم (٢٥٧٧)].

وهذا التمثيلُ تقريبٌ للأذهان، ومعناه: لا ينقص شيئاً أصلاً كما سبق في الحديث الذي قبله، لأنَّ ما عندَ اللهِ لا يدخله نقصٌ، إذ هو من رحمته وكرمه، وأثر من آثار مشيئته وقدرته.

- **الرياح اللواقح:**

﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ أي: أرسلنا الرياحَ حواملَ تحمِلُ المطرَ.

فاللواقح: جمع لاقح، وهي الأُنثى التي قبلت اللقاحَ، فحملت الجنين، ووصف سبحانه الرياح بكونها لواقح، لأنَّها حوامل تحمل المطر، كما في قوله ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ

لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧].

ومعنى ﴿أَقَلَّتْ سَحَابًا﴾ حملت سحاباً، ولهذا يقال للريح التي لا تحمل خيراً: عقيم: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ [الذاريات: ٤١].

وتأتي اللواقحُ أيضاً بمعنى الملاقح، أي: التي تُلقح غيرها، فالريحُ تلقح السحابَ فيدرُّ المطرَ، وتلقح الشجر، فتتفتح عن أوراقها وأكمامها وثمارها(١).

وللرياح أيضاً دورٌ في تلقيح عناصر النبات المؤنَّثة بعناصره المذكَّرة، فعندما تهبُّ الرياحُ تحمِلُ غبار الطَّلْعِ المذكَّر إلى أزهار النبات المؤنثة، وهذا المعنى، وإن كان حقيقةً علميةً يحتمله لفظ كلمة (لواقح)؛ إلا أنَّ الوحدة الموضوعية لمعاني كلمات الآية لا تحتمله، وهي قوله سبحانه بعد ذلك:

﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أي: من السحاب الذي في جهة السماء الذي حملته الرياح.

﴿فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾ أي: جعلناه لكم سُقياً، تسقون به مزارعكم ومواشيكم.

ولفظ (أسقينا) أبلغُ من (سقينا) لما فيها من الدلالة على جعل الماء مُعدّاً لهم ينتفعون به متى شاؤوا(٢).

- **خزائن الماء في السماء والأرض:**

وقوله سبحانه:

﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ يدل على تفرُّده سبحانه بالقدرة الكاملة، إذ نفى عنهم ما أثبته لنفسه بما سبق من قوله ﷻ: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ [الحجر: ٢١]؛ فهو سبحانه الذي يرسِلُ الرياحَ، ويثير السحابَ، ويخزن الماء فيه، وينزله منه.

أو ﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ في داخل طبقات الأرض وتحت ثراها.

---

(١) أضواء البيان: ٣/ ١٣٤٢؛ ومجموعة التفاسير: ٥/ ٥٥٦.

(٢) روح المعاني: ١٥/ ٣١.

وقد قالوا: إنَّ مِنَ المياه الجوفية التي يستخرجها الناس من باطن الأرض في العصر الحاضر قد خزِّنت فيها منذ ملايين السنين بقدرته سبحانه، الذي خلق في الأرض أسباباً لحفظ الماء وبقائه فيها كل هذه الأزمان السحيقة، فهو سبحانه الخازنُ لهذه المياه على الحقيقة، ولو لم يخلق سبحانه لهذه المياه أسباب الحفظ لغارت في الأرض وضاعت، فإنَّ طبيعة الماء تقتضي الغَوْر والانسياب، فوقوفه عند حده لا بدَّ له من سبب مخصص[1].

قال عزّ شأنه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ [الملك: ٣٠].

وقال جَلَّ جلاله أيضاً: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٨].

فبقدرته سبحانه جعل للماء خزائن في جو السماء وباطن الأرض.

- **الوارث** عَزَّ وَجَلَّ:

وبعد أن بيَّن سبحانه تقديره للمخلوقات، وتخصيصه لكل منها بمقدار معيَّن على مقتضى حكمته ومشيئته، بيَّن سبحانه أنَّ الموتَ والحياة بمشيئتِه أيضاً وقدرته، وأنَّه سبحانه الذي لا يموتُ، فهو القديم الذي لا بدايةَ له، والباقي الذي لا نهاية له، فحضرته سبحانه حضرة إطلاق عن النواميس والحدود، قال عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ﴾ فهو سبحانه وحده الذي يحيي بالإيجاد، ويميت بالإفناء.

﴿وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ الباقون بعد موت المخلوقات وفنائها، كما قال جلَّ وعزَّ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن].

وقوله أيضاً: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨].

---

(١) تفسير البيضاوي: ٥/ ٥٥٧.

ويقال للباقي: وارث، استعارة من وارث الميت، لأنه يبقى بعد فنائه[١]؛ فاللهُ سبحانه هو الباقي بعد فناء خلقه، متصفاً بصفات الكمال والجلال.

• **المستقدمون والمستأخرون:**

ولا يُخرِجُ الموتُ والفناءُ المخلوقاتِ عن إحاطةِ علمه سبحانه وقدرته، فهو سبحانه محيطٌ بها في شتَّى أحوالها وأطوارها، موجودة كانت أو معدومة، في الحياة وبعد الممات، قال عزَّ شأنه:

﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

أي: من تقدَّم ولادةً وموتاً ومن تأخر، أو من خلق الله تعالى ومن لم يخلقه بعد، أو المتقدِّمين في الطاعات والمقصِّرين فيها.

فالآية تبيِّنُ كمالَ علمه تعالى لما كان ويكون، فلا يخفى على الله شيءٌ من أحوال خلقه، فيدخل فيه علمه تعالى بتقدمهم أو تأخُّرهم في الحدوث والوجود، وتقدمهم وتأخرهم في أنواع الطاعات والخيرات[٢].

ولن يقيم الله الساعة حتى تكتمل عدة المخلوقات التي سبق علمه سبحانه بهم، وتعلقت إرادته بخلقهم: ﴿لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ [مريم: ٩٤].

وهو وحده سبحانه القادر على جمعهم وحشرهم بعد موتهم وتفتت أجسامهم:

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ للحساب والجزاء.

﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ﴾ في إيجاده للمخلوقات على الوجه اللائق بها، وفي تقديره الحشر للجزاء والحساب.

﴿عَلِيمٌ﴾ وسعَ علمُه كلَّ شيءٍ وأحاط بكلِّ شيء سبحانه.

❁ ❁ ❁

---

(١) تفسير النسفي: ٥/٥٥٨.

(٢) انظر: التفسير الكبير: ١٩/١٨٢.

الفصل الثالث

القِصَّةُ الأُولَى

الإنسانُ والشّيطانُ

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾

- **التراب والنار:**

عَرْضُ القصص الواقعية والتاريخية على سبيل الاستشهاد والتأكيد لموضوع السورة وأفكارها من أساليبِ القرآنِ الكريم البارزةِ فيه، وهاهي الآياتُ الكريمةُ

في سورة الحِجْر تؤكِّدُ ما سبقَ تقريرُه فيها بذكر بعض القصص الواقعية والتاريخية، وتبدأ بقصة الإنسان والشيطان.

فبيَّنت الآياتُ في بداية القصة الاختلاف القائم بين تكوين البنية المادية للإنسان وبين تكوين بنية الشيطان، بقوله ﷻ:

﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ٢٦﴾.

والمراد من الإنسان في الآية: آدم عليه السلام أولُ مخلوق من البشر، خلق الله تعالى بنيته المادية من تراب الأرض، وجاء التصريح عن ذلك بآيات كثيرة؛ منها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ﴾ [الحج: ٥].

وبيَّن سبحانه أنَّ ذلك التراب مُزج بالماء، فصار طيناً يعلَقُ بالأيدي: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّن طِينٖ لَّازِبِۭ﴾ [الصافات: ١١].

وأنَّ هذا الطين تغيَّر واسودَّ حتى صار حمأً مسنوناً، ثم يبس حتى صارت له صلصلة كالفخار، كما في الآية هنا، وفي قوله أيضاً: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٤].

فالحاصلُ أنَّ الترابَ لما بُلَّ صار طيناً، فلمَّا أنتنَ صار حَمَأً مسنوناً، فلمَّا يبسَ صار صلصالاً(١).

والجدير بالذكر أنَّ علمَ التحليل الكيميائي أثبت أنك لو أخذتَ حفنةً من تراب الأرض، وأجريتَ عليها التحليل الكيميائي لوجدتها تتكون من ستة عشر عنصراً هي نفسُ العناصر التي يتكوَّن منها جسم الإنسان، ووجدت أيضاً اتحاد النسبة المئوية بين العناصر في التراب وجسم الإنسان(٢).

وأمَّا الشيطان فقد خلقه الله تعالى من نار السموم:

---

(١) فتح القدير: ٣/ ١٣٠.

(٢) انظر: جريدة العالم الإسلامي، العدد (١٠٦٤)، تحت عنوان: الإعجاز العلمي للقرآن.

﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾.

والجان: أبو الجن أو الشيطان، خلقه الله قبل خلق آدم من نار السموم، وهي الشديدة الحارة التي تقتل، فقال سبحانه: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن: ١٥].

وفي الحديث الصحيح: عن **عائشة** رضي الله عنها: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**خُلِقَتِ الملائكةُ مِنْ نورٍ، وخُلِقَ الجانُّ مِنْ مارجٍ مِنْ نارٍ، وخُلِقَ آدمُ ممَّا وُصِفَ لكم**» [رواه مسلم (٢٩٩٦)].

• **نَفْخ الروح:**

ثم شرعت الآيات تبيِّن ما حدث بعد أن خلق الله تعالى آدم عليه السلام:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾﴾.

فقد بيَّن الله تعالى للملائكة طبيعة البنية المادية للمخلوق الجديد، ثم قال لهم:

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ أي: أتممتُ خِلقتَهُ، وعدَّلت صورته، وهيأته لنفخ الروح فيه.

﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ **والنفخ**: إجراء الريحِ في الشيء، **والروح**: جسم لطيف أجرى الله العادة بأن يخلقَ الحياة في البدن مع ذلك الجسم.

وحقيقة قوله: ﴿مِن رُّوحِى﴾ إضافة خَلْق إلى خالقٍ، فالروح خلق من خلقه سبحانه، أضافه إلى نفسه تشريفاً وتكريماً، كقوله: أرضي وسمائي، وبيتي، وناقة الله، وشهر الله، ومثله ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ في الآية الكريمة: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ

إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٧١][١].

وقال بعض العلماء في قوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾: المراد منه تمثيلُ إفاضة ما به الحياة بالفعل على المادة القابلة لها، وليس هناك نفخ حقيقة[٢].

والعلماء متفقون على أنَّ قوله: ﴿رُّوحِى﴾ إضافة خلق الله للخالق للتشريف والتكريم، كبيت الله، وناقة الله.

وأمَّا حقيقةُ الروح فلا يعلمها إلا الله تعالى القائل: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

• **خطأ جسيم:**

وقد أخطأ سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ خطأً جسيماً عندما استعمل ألفاظاً موهمةً لمعنًى فاسدٍ، يصادِمُ العقيدة الإسلامية القائمة على توحيد الخالق سبحانه، وهو معنى الحلول الذي شاع عند بعض المتصوفة القائلين بأن الكونَ كلَّه بما فيه مجموعة إلٰهية، والله تعالى روحٌ لها، وهذا كفرٌ قطعاً كما قال الشيخ محمد الحامد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، إذ هو الحلول الذي يتبرأ منه المؤمنون[٣].

قال سيد قطب في ظلال هذه الآية: «ولا نملك أن نسأل: كيف تلبَّست نفخةُ الله الأزلي الباقي بالصلصال المخلوق الفاني، فالجدل على هذا النحو عبث عقلي.. إنَّه يقول: كيف يتلبَّس الخالد بالفاني؟ وكيف يتلبسُ الأزلي بالحادث؟ ثم ينكر أو يثبت أو يعلل، بينما العقل الإنساني ليس مدعوّاً أصلاً للفصل في الموضوع، لأنَّ الله يقول: إن هذا قد كان، ولا يقول: كيف كان؟

---

(١) تفسير القرطبي: ١٠/ ٢٤.

(٢) روح المعاني: ٥/ ٢٦.

(٣) انظر: العلامة المجاهد الشيخ محمد الحامد، للمؤلف، وهو من إصدارات دار القلم بدمشق.

فالأمر إذن ثابتٌ، ولا يملك العقل البشري أن ينفيه، وكذلك هو لا يملك أن يثبته بتفسير من عنده، من غير تسليم بالنص»[١].

لكنَّ علماء التفسير فهموا الآية فهماً لا يثير مثل هذه التساؤلات الفاسدة التي أثارها: كيف يتلبس الخالد بالفاني؟ وكيف يتلبس الأزلي بالحادث؟ والتي أثبتها بعد ذلك بقوله حكاية عن الله تعالى: «إن هذا قد كان. . . » إنَّ هذا لم يكن أبداً، وليس في الآية ما يدل على هذا التلبس، فإن قوله سبحانه: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ لا يدل على هذا المعنى قطعاً، وإلا لزم القول بأنَّه سبحانه حلَّ وتلبَّسَ في البيت الحرام عندما قال: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ﴾ [الحج: ٢٦]، وأنه سبحانه تلبس وحلَّ في الناقة عندما قال: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ [الأعراف: ٧٣]، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً، وهو القائل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، تقدَّست ذاته وتسامت صفاته ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

وقد قال سبحانه ردّاً على النصارى الذين زعموا أنَّه حلَّ في عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٧].

فهو سبحانه واحدٌ أحدٌ، مباينٌ لخلقِه بذاته وصفاته وأفعالِه، ولا يكونُ الإنسانُ مؤمناً إلا بهذا الاعتقاد.

- **سجود الملائكة:**

ثم أمر سبحانه الملائكة بالسجود لآدم على وجه التحية والإكرام:

﴿فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ وفي أمرهم بالوقوع، أي: السقوط، دليلٌ على أنَّ

---

(١) في ظلال القرآن: ٤/ ٢١٤٠.

المأمور به ليس مجرد الانحناء، كما قيل، بل السجود بالمعنى المتبادر(١)، وهو محرّمٌ في الإِسلام على أي وجه، سواء كان للتحية أو للتعظيم أو للعبادة.

قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**لو كنتُ آمراً أحداً أَنْ يَسْجُدَ لأحدٍ لأمرتُ المرأةَ أَنْ تَسْجُدَ لزوجِها**» [أخرجه الترمذي (١١٥٩)، وقال: حديث حسن صحيح].

وامتثل الملائكةُ لأمرِ الله تعالى:

﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٣٠﴾.

﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ﴾، فلم يشذَّ أحدٌ منهم.

﴿أَجْمَعُونَ﴾ ولم يتأخر أحد عن أحد، بل أوقعوا الفعل مجتمعين في وقت واحد(٢).

- **إباء إبليس:**

وأبى إبليس السجود تكبُّراً:

﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٣١﴾.

بعد أن شمله الأمرُ الإلٰهيُّ بالسجود مع الملائكة، كما جاء مصرحاً به في قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢].

ولما سأله سبحانه مقرِّعاً وموبِّخاً:

﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٣٢﴾.

ردَّ الخبيث لعنه الله بوقاحةٍ وتبجُّحٍ:

---

(١) روح المعاني: ١٥/ ٤٥. **قلت**: السجود لآدم استجابة لأمر الله، فهو في الحقيقة عبادة لله، وكان آدم جهةً للسجودِ، فهو بمثابة الكعبة، لذلك عندما امتنع إبليس عن السجود، كان عاصياً لله تعالى، قال تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢] (ن).

(٢) روح المعاني: ٥/ ٤٥.

﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾﴾.

رأى لنفسه فضلاً على آدم، لأنَّ أصلَ إبليس من نارٍ، بينما أصلُ آدمَ من طين، وقد جاء التصريحُ به في **سورة الأعراف** في قوله: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾﴾.

وما درى الخبيث أنَّ الفضل لا يكون بالأصل، وإنما يكون بعبادته سبحانه وطاعته وامتثال أمره، فاستحقَّ بسبب تكبُّره وتجبُّره طرده ولعنته:

﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾.

أي: اخرج من زمرة الملائكة، أو من السماء، أو من الجنة، فإنك مطرودٌ من كلِّ خير وكرامة.

﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ﴾ الباقية التي لا تزول.

﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ وجعل يومَ الدينِ غايةً لها، لأنَّه أبعدُ غايةٍ يضربُها الناسُ في كلامهم، فالمراد دوامُها من غير انقطاع، أو لأنه يوم الدين يعذب بما ينسى اللعن معه، أو يزداد يوم الدين عذاباً إلى اللعنة التي عليه[1].

عندئذٍ تسعَّرتْ نفسُ الخبيثِ حقداً على الإنسان وحسداً له، فسأل الله تعالى أن يؤخر أجله، ويطيل عمره إلى يوم القيامة:

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

فاستجاب الله تعالى دعوته، وهو سبحانه يعلم أنه سيسعى لإضلال كثير من

---

(١) انظر: مجموعة التفاسير: ٣/ ٥٦٢.

الناس وإغوائهم انتقاماً منهم، إذ اقتضت حكمتُه سبحانه أن تكونَ الدنيا دار ابتلاء واختبار، وأن يكونَ الشيطانُ فيها من أكبر أسباب الابتلاء والاختبار.

﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝٣٧﴾.

أي: إنك من الذين أخَّرتُ آجالهم.

﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ۝٣٨﴾.

وهو وقتُ النفخة الأولى التي يصعق بها كل من قدَّر سبحانه موتهم من أهل السماوات والأرض: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

- **نقاط الضعف البشري:**

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٣٩﴾.

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ أي: بسبب ابتلائي بالسجود لآدم الذي جعلني أضل.

﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أُقسِمُ لأزينن لهم في الأرض. وأراد من قوله: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ما فيها من شهواتٍ كثيرة، وآمالٍ طويلةٍ، تجعلُهم ينصرفون عن عبادة الله تعالى وطاعته، ويغفلون عن الآخرة، وما فيها من حساب وجزاء.

﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وهذا يدل على شدة ثقة الشيطان بنفسه وشدة مكره وخداعه.

ويبدو أنه علم نقاط الضعف عند الإنسان بما شاهد من تكوين جسده، فالإنسان مخلوق من تراب الأرض، وله جَوْف يصوِّت ويصلصل كالفخار، وعمره في الأرض مقدَّر ومحدود، فله إذن ميل وتعلُّق بشهوات الأرض.

وقد جاء في الحديث الشريف: «**لمَّا خلقَ اللهُ ﷻ آدمَ تركَهُ ما شاءَ اللهُ أن**

يدعَهُ، فجعلَ إبليسُ يطيفُ به، ينظرُ إليهِ، فلمَّا رآه أجوفَ عرفَ أنَّه خَلْقٌ لا يتمالَكُ» [رواه أحمد (١٢٤٧٨، ١٣٥٩٥)].

فلشهوات الإِنسان الجسدية تأثيرٌ كبير عليه إذا أُثيرت وسُعِّرت، ولهذا أخذ الخبيث على نفسه أن يزيِّنَ للإِنسان شهواته الجسدية الأرضية، ويثير في نفسه رغباته الجنسية، حتى يجعلَه ينهمك بها، وينصرف عمَّا كلَّفه الله تعالى به من العبادة والطاعة.

ويتمكن بهذا من إدخال الخلل على التوازن في حياة الإِنسان في حال طاعته لربه والتزامه بشرعه ومنهجه.

لقد أحلَّ الله تعالى للإِنسان أن يلبِّي مطالب جسده الأرضية ضمن حدود تقيم في حياته توازناً بين دنياه وآخرته، وبين جسده وروحه، فلا إفراط ولا تفريط، ولا غلو ولا تقصير، كما سبق بيانه في أول الباب، فإذا ما انخدع بتزيينات الشيطان، واستجاب لنزغاته، وقع الخلل في هذا التوازن، ودخل بالتالي في العناء والشقاء.

- **مطايا الشيطان:**

وأهم مطايا الشيطان ووسائله لتحقيق أغراضه: **التسويف وتطويل الأمل**، فالإِنسان بطبعه يميلُ إلى الأرض ويحبُّ البقاءَ فيها، ويكره الفناء، وهي نقطةُ ضعفٍ كبيرةٍ في الإِنسان، وعن طريقها تمكَّن الخبيث من إغواء آدم وحواء عندما كانا في الجنة، وجعلهما يرتكبان المحظور، ويأكلان من الشجرة المحرَّمة عليهما، فقد أخبرهما بأنها شجرة الخلد، وأقسم كاذباً أنهما ينالان الخلودَ والمُلكَ الذي لا يبلى إن أكلا منها: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف].

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠].

فالأماني الكاذبة والآمال الطويلة مطايا الشيطان لإغواء الإنسان، قال سبحانه: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠].

• **سبيل النجاة:**

﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

الذين أخلصتَهم لك، واصطفيتَهم لطاعتك، أو المخلصين في طاعتهم لك، ولا يلتفتون لأحد سواك.

وفيه مدحٌ للإخلاص، فهو سبيل النجاة من كيد الشيطان ومكره.

ثم بيَّن سبحانه أنه ليس للشيطان تسلط على أحد من عبيده، بحيث يتمكن من قهره وإجباره على المعصية، يستوي في هذا المخلصون وغيرهم، فقال عزَّ شأنه:

﴿قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾﴾.

أي: حق عليَّ أن أراعيه بلا انحراف فيه، ولا عدول عنه إلى غيره، وهو فضل منه سبحانه التزم به لعباده.

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ أي: ليس لك تسلُّط وإجبار على أحد من عبادي المخلصين وغيرهم، فلا يستطيعُ إبليسُ سوى تحسين المعصية، وتزيين الفاحشة، ولهذا يتبرأ من أتباعه يوم القيامة عندما يتَّجهون إليه باللوم والتقريع: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وقوله سبحانه:

﴿إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ استثناء مما تقدم، ولكنَّه بسبب انقيادهم للشيطان

ومتابعتهم له[١]، فسلطانه عليهم بسبب انخداعهم بكيده ومكره، ولهذا وصفهم الله تعالى بصفة الغاوين، فالغواية والضلالة نابعة من أنفسهم.

● **أبواب جهنم:**

وجاءت الآياتُ تتوعَّد أولئك الغاوين الموالين للشيطان المتبعين له، حتى يرتدعوا عمَّا هم فيه وينزجروا:

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

وفي جَعْلِ جهنم موعداً لهم تهكم مُرٌّ بهم، فكأنَّهم على ميعاد مع جهنم[٢].

﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ أي: لجهنم سبعة أبواب، أو سبع طبقات.

﴿لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ معيَّن له ومفرز، والسبب فيه اختلافهم في مراتب الكفر والفجور.

ثم بيَّنت الآياتُ مصيرَ المخلَصين الذين لم يتمكن الشيطان من إغوائهم اتباعاً للأسلوب القرآني في الجمع بين الترهيب والترغيب:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾﴾.

هكذا على الإطلاق دون قيود وحدود، ويقال لهم:

﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾ أي: ادخلوا الجنة التي هي دار السلام بسلام.

---

(١) انظر: التفسير الكبير: ١٩/ ١٩٤.

(٢) روح المعاني: ١٥/ ٥٢.

﴿ءَامِنِينَ﴾ من طروء المكدِّرات والمنغِّصات، ومن الحقد والحسد، فقد وصلتم دار السلام والأمان.

فلا يدخلون الجنة حتى يطهِّرَ الله تعالى قلوبهم ونفوسهم من جميع الآفات، وكذلك يكمِّل ويجمِّل أجسامهم:

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ من حقد، حتى أصبحوا:

﴿إِخْوَانًا﴾ يجلسون مع بعضهم.

﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾.

﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ أي: لا يصيبهم في الجنة تعب وعناء.

﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾. أسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم بفضله وكرمه.

- **النشوء والارتقاء:**

لابدَّ لنا هنا أن نشير إلى خطأ ما يسمى بنظرية النشوء والارتقاء، أو نظرية داروين، نسبة إلى اليهودي الإنكليزي دارون (١٨٠٩ ـ ١٨٨٢م)، لأنَّها تصادِمُ الآيات القرآنية الكريمة التي سبقت في هذه السورة، وفي غيرها من السور القرآنية، والتي بيَّن الله تعالى فيها كيف بدأ خلقُ الإنسان، وذلك بسبب انتشار هذه النظرية بين كثير من أبناء المسلمين، فهي تدرَّسُ في كثير من مدارسهم وجامعاتهم، وتتحدَّث عنها بشكل مستمر وسائلُ الإعلام بواسطة الأفلام التلفزيونية التي يسمونها: العلمية، مع أنَّ نصوص القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية تكذبها، وكذلك العلم الحديث قد نقضها ولم يعد يأبه بها(١).

(١) انظر: القرار المكين.

وتقول هذه النظرية: إن الأحياء يتخلَّق بعضها من بعض بسبب تأثير البيئة والزمن، وإن هناك اختياراً طبيعيّاً في الأحياء، بحيث لا يبقى إلا الأقوى، وصفاته هي التي تورث عنه.

وقد صنَّفَ أصحاب هذه النظرية المخلوقات الحية، فوجدوا أن أعلاها الإنسان، يليه القرد، وأن أدناها وحيد الخلية، فقالوا تبعاً لهذا: إن الخلق ابتدأ بوحيد الخلية، ثم تطور وارتقى حتى وصل إلى الإنسان(١).

وتصنيفهم للمخلوقات يدل على وحدة الخالق سبحانه، وهو أمر سبق أن لاحظه علماء المسلمين منذ زمن بعيد، ونبَّهوا عليه، كابن خلدون في مقدمته، والدَّمِيري، والبلخي، والفخر الرازي(٢).

وأما قولهم: «إنَّ الأحياء يتخلَّق بعضُها من بعض بسبب تأثير البيئة والزمن» فلا دليلَ لهم عليه، فلو أنَّ مهندساً أنشأ ألفَ بناية تتميز كل واحدة عن التي قبلها ببعض التفاصيل، ولكنها تشترك كلها بطريقة واحدة في التصميم والإِنشاء، فهل نقول: إن كلَّ بناية قد اشتقت من التي قبلها وتطورت عنها؟! أم نقول: إن الذي صمم وأنشأ الأولى هو نفسه الذي صمم وأنشأ الثانية وطورها حسب الظروف التي حدثت(٣).

ثم إنَّ علم الوراثة الحديث قد هدم كلَّ أساس لهذه النظرية، فقد أصبح من الثابت أن الأصول تورث الفروع المتفرعة عنها كل ما تحمل من خصائص بواسطة الكروموزومات، ولا نجد بين أجناس المخلوقات اتفاقاً في الخصائص الموروثة، بل نجد بينها تبايناً ظاهراً، واختلافاً حتى في عدد الكروموزومات، فعددها مثلاً في الإِنسان (٤٦)، وفي القرد (٤٨)، وفي الغنم (٥٤)، وفي الحصان (٦٦)، وفي الكلب (٧٨)(٤).

---

(١) انظر: القرار المكين.

(٢) انظر كتاب: خلق الإنسان بين الطب والقرآن.

(٣) انظر: القرار المكين.

(٤) المصدر السابق نفسه.

ولهذا فقد أعلن القرار العلمي على بطلان النظرية الداروينية، بل إن داروين نفسه في كتابه «**أصل الأنواع**» أقرَّ بوجود ثغرات كثيرة ومشكلات كبيرة معقدة في نظريته، منها: أنه عثر على هياكل حيوانات تعود إلى ما قبل العصر الجليدي تشبه هياكل لحيوانات مماثلة لا تزال موجودة[1].

وقد عثروا في السنوات الأخيرة في البحار القريبة من جزر القمر على سمكة كانوا يعتقدون انقراضها منذ عدة ملايين من السنين.

كل ذلك يؤكِّد بطلان هذه النظرية التي سبق وأكدت الآيات الكريمة بطلانها وفسادها.



---

(١) انظر كتاب: نقض أوهام المادية الجدلية (الديالكتيكية)، للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي.



الفصل الرابع

القِصَّةُ الثَّانِيَةُ

إبْرَاهِيمُ وَلُوطٌ عليهما السلام والأَمَلُ باللَّهِ تَعَالَى

﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾.

• **الرجاء والخوف:**

تناولت القصَّةُ الثانيةُ موضوعَ الأمل عند الإِنسان من جانب آخر، وهو أملُ الإِنسانِ بالله تعالى ورحمته.

وفي هذا الجانب ينبغي أن يكونَ أملُ الإِنسان بربه كبيراً، ورجاؤه به عظيماً، فلا قنوطَ من رحمة الله تعالى، ولا يأسَ في جميع الأحوال والظروف، بل الواجب على الإِنسان المؤمن أن يكون على ثقة كبيرة بالله تعالى، وأن يكون أملُه برحمته سبحانه قويّاً، فلا يجتمع الإِيمان بالله تعالى مع اليأس والقنوط من رحمته، قال سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

ويجب على الإِنسان المؤمن في الوقت نفسه ألَّا يغفل عن مسؤوليته عن أعماله أمام الله تعالى يوم القيامة، وما يترتَّب عليها من حساب وعقاب، فالإِنسانُ مهما اجتهد في طاعة الله يجد نفسه مقصِّراً، ومهما تحرَّز عن المعاصي والذنوب لابدَّ أن يدركه ضعف الإِنسانِ فيقارِفُ بعضها، ولهذا ينبغي أن يكونَ دائماً على خوف ووجل من الله تعالى، وبهذا يجمعُ الإِنسان المؤمنُ بين الرجاء والخوف في قلبه، يرجو رحمة الله، ويخشى عذابه، ويبقى بهذا الجمع متوازناً في حياته ومستقيماً في سلوكه، فلا يستطيعُ الشيطان أن يستغلَّ قوةَ رجائه وطول أمله برحمة ربه، فيوقعه بِشَرَكِ غروره وخداعه، فالخوف من الله وخشيته تقطع على الشيطان الطريق.

أما إذا أمنَ مِنْ عذابِ الله وغَلَبَ عليه الرجاءُ برحمته ومغفرته عندئذٍ يقعُ الخلل في حياته، ويتمكن الشيطان من المكر به وخداعه، الأمر الذي حذَّر منه سبحانه في آيات كثيرة، منها قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝٥ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر].

وما أكثر الذين تمكَّن الشيطانُ من التغرير بهم من جانب الرجاء والأمل، إذ جعلهم يطمعون بفضل الله ورحمته، ويغفلون عن عقابه وعذابه، فانغمسوا في المعاصي، وأخَّروا التوبة حتى نزل بهم الموت، وفاجأهم الأجلُ المجهول، عندئذٍ

يدركون خسارتهم وتفريطهم، فيسألون الله تعالى أن يؤخِّر آجالهم، ويطيلَ في أعمارهم، كما قال سبحانه فيهم: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون].

إنها وِدادةٌ وأمنيةٌ لا تتحقق، لأنَّ آجالهم لا تتقدَّمُ ولا تتأخر كما سبق بيانه في السورة.

● **المغفرة والعذاب:**

وتأكيداً لهذه المعاني بدأ الله تعالى القصةَ الثانيةَ في سورةِ الحِجْر بقوله الكريم:

﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾﴾.

وقوله سبحانه: ﴿عِبَادِىٓ﴾ تشريفٌ كبير للمؤمنين المقرِّين بالعبودية لله تعالى، ومغفرته سبحانه لا تكونُ إلا لمن تاب وأناب، وأقلع عن المعاصي والآثام، إذ هو القائل سبحانه: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢].

ومهما كانت ذنوب الإنسان التائب كبيرة، فإنَّ الله تعالى يغفرها، ويسترها برحمته وفضله، إذا صدق صاحبها في توبته، وأخلص لله تعالى في إنابته: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [الزمر].

بشرط أن يبادرَ إلى التوبة دون تسويف لها وتأخير، لأنَّه لا يدري متى ينزل به أجله المقدَّر لموته، قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧]؛ أي: يتوبون بعد زمن قريب من فعل المعصية دون تسويف ولا تأخير، وإلا لم تقبل توبتهم، وانسحب عليهم قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٨].

على هؤلاء المسوِّفين الذين غرَّهم طول الأمل في الحياة الدنيا أن يعلموا أن عذاب الله أليم:

﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (٥٠)﴾.

ولا يخفى ما في أسلوب العرض في الآيتين الكريمتين من تغليب لجانب الرجاء والأمل برحمة الله تعالى ومغفرته، فتقديمه بالذكر مع تأكيده وتوصيف ذاته سبحانه به دون التعذيب، يرجح جانب الرجاء، كما يرجحه أيضاً أمره سبحانه رسوله ﷺ أن يبلغ عباده هذا المعنى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩]؛ فكأنَّه سبحانه أشهد رسولَه ﷺ على نفسِه في التزام المغفرة والرحمة[١].

وينبِّهُ العلماءُ إلى أنَّ على الإنسان أن يغلِّبَ في نفسه جانب الخوف والخشية في حال السَّعَة واليسر، كي لا تغلبَه شهواته، وأنَّ عليه أن يغلِّبَ جانبَ الرجاء والأمل في حال المرض والخطر، كي يكونَ على ثقة بالله تعالى ورحمته.

- **ضيف إبراهيم:**

ويتفق تغليبُ جانب الأمل والرجاء مع سياق الآيات الكريمة في السورة التي شرعت في عرض قصة إبراهيم عليه السلام مع الملائكة الذين أرسلهم الله تعالى إليه يحملون له البشارة بغلام عليم:

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (٥١)﴾.

وهم الملائكة الذين جاؤوا إلى إبراهيم عليه السلام بالبشارة. وكلمة ﴿ضَيْفِ﴾ تدل على المفرد والجمع لأنها مصدر.

﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ (٥٢)﴾.

﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ وهم متشكِّلون بهيئة البشر.

﴿فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ أي: فزعون خائفون.

ولا تظنَّنَّ أن إبراهيم عليه السلام واجههم بهذا عندما دخلوا عليه، فقد كان عليه السلام

---

(١) تفسير الخازن: ٥/٥٦٦.

كريماً، ويحبُّ أن يغشاه الضيوفُ دائماً في بيته، وإنَّما قال ذلك في نفسِه بعدَ أن قدَّم لهم الطعام، ولم تمتد أيديهم إليه، لأن أجسام الملائكة نورانية، فهم لا يأكلون ولا يشربون، ولا يحتاجون إلى ما يحتاجُ إليه الإنسان المخلوق من تراب الأرض، والذي يتغذّى بما تخرجه له الأرض.

فقد أجملتِ الآياتُ هنا ما فَصَّلَتْه في **سورة هود** بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًاۖ قَالَ سَلَٰمٌۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةًۚ قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾.

- **البشرى:**

﴿قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿قَالُواْ لَا تَوْجَلْ﴾ أي: لا تخف.

﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ أي: كثير العلم، وهو إسحاق، إذ جاء التصريح به في **سورة هود** [٦٩ ـ ٧١]، فقد صرحت الآيات باسمه واسم ولده يعقوب عليه السلام، وأما الغلام الذي بُشر به إبراهيم والموصوف بالحلم في قوله تعالى في **سورة الصافات**: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ فهو إسماعيل عليه السلام.

فالبشارةُ تكررت لإبراهيم عليه السلام، ولهذا حكى الله تعالى عن إبراهيم قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

ثم تابعت الآياتُ تقصُّ الحوارَ بين الملائكة وإبراهيم عليه السلام:

﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

وسؤاله عليه السلام على سبيل التعجُّب من قدرة الله تعالى على الخلق والإيجاد من دون مصاحبة الأسباب، فقد تقدَّم عليه السلام هو وزوجته في السن، وكبرا، وشاخا، فضلاً عن أن زوجته كانت عقيماً لا تلد.

ولم يكن سؤاله على سبيل الاستبعاد كما زعم بعض المتأخرين من الكتَّاب[(١)].

وقد جاء التصريح بالتعجُّب في قوله تعالى في سورة هود: ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾.

وردَّ الملائكةُ على إبراهيم مؤكدين البشارة:

﴿قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

أي: لا تكن من الآيسين من خَرْق الله تعالى العادة لك، فهذا يدلُّ على أنَّ مقصده ﵇ استعظامُ نعمته عليه في ضمن التعجب العادي المبني على سنة الله تعالى بين عباده، لا استبعاد ذلك بالنسبة إلى قدرته ﷻ، فإنه ﵇ أجلُّ قدراً من ذلك[(٢)].

وبادر ﵇ إلى نفي القنوط عنه:

﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾.

أي: الكفار الذين لا يعرفون سَعَة رحمة الله تعالى وكمال علمه وقدرته فاستفهامُه للإنكار لنفي القنوط عن نفسه بأبلغ وجه[(٣)].

وهكذا بيَّنت لنا الآياتُ الكريمةُ من خلال هذه المحاور أنه يجب أن يكون أملُ الإنسان بالله تعالى كبيراً، مهما كانت الظروف المحيطة به، فقدرته سبحانه طليقة لا تحدُّها حدود، ولا تقف أمامها موانع وعادات ونواميس، فالذي قدَّر النواميس قادر على خرقها.

- **مهمة المرسلين:**

ولما اطمأن إبراهيم ﵇ إلى ضيوفه، وذهب عنه الخوف والحذر منهم،

---

(١) انظر: في ظلال القرآن: ٤/٢١٤٨.

(٢) انظر: روح المعاني: ١٥/٦٢.

(٣) المرجع السابق نفسه.

وعرف حقيقتهم، أقبل يسألهم عن المهمة التي أُرسلوا من أجلها:

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

أي: ما أمركم وشأنكم الخطير الذي أُرسلتم لأجله، فكأنه عليه السلام أدرك أن مجيئهم ليس للبشارة فقط:

﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

وهم قوم لوط الذين كانوا يقيمون في بلاد سدوم وعمورة، حيث البحر الميت الآن في فلسطين، واستثنوا منهم:

﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾﴾.

وهم البيت المسلم الوحيد الذي كان في قوم لوط، فقد جاء في قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات].

وشذَّت امرأة لوط عن هذا البيت المسلم، فقد كانت موافقة لقومها على كفرهم، فشملها العذابُ والهلاكُ الذي أنزله الله تعالى بهم، ولم ينفعها رباطُ الزوجية الذي يربطها بنبي الله لوط عليه السلام، بسبب كفرها، فاستُثْنِيَتْ من آل لوط الناجين بقوله تعالى:

﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

أي: حكمنا وقضينا أنَّها مع الباقين من الكفرة لتهلك معهم.

وبهذا كشف الملائكة عليهم السلام حقيقةَ المهمةِ التي أرسلوا من أجلها لإبراهيم عليه السلام.

- **استباق الحوادث:**

ثم انتقلت الآيات لتصف ما حدث للرسل مع لوط عليه السلام وقومه، والملاحظُ أن الآيات هنا في سورة الحجر لم تراعِ الترتيب الوقوعي لأحداث القصة، كما

فعلت عندما عرضت القصة في مواضع أخرى من القرآن الكريم، مثل: **سورة هود**، فقد استبقت هنا الحوادث، وقدَّمت ذكر بشارة الملائكة للوط ﷺ بهلاك قومه، ونجاته هو وأهل بيته المؤمنين مما سينزل بهم، قدَّمت البشارةَ قبل الحديث عن معاناة لوط ﷺ من قومه عندما أتَوا مسرعين إلى بيته ليعتدوا على ضيوفه، ويفعلوا الفاحشة بهم، ومدافعته ﷺ لهم وما لقي في ذلك منهم.

ولعلَّ الحكمةَ في استباق الآيات للأحداث، والمبادرة إلى ذكر البشارة قبل وصف المحنة والشدة تقوية أمل المبتلى بالمحنة بالله تعالى، وتعزيز ثقته به سبحانه، فكأنَّ الآيات تقول للإنسان المبتلَى بالشدة والضيق: أيها الإنسان الممتحَنُ، كُنْ على ثقة كبيرة برحمة الله وفضله، إياك أن تيئس مهما اشتدت عليك المحن، واجتمعت عليك المصائب والنقم، فرحمته سبحانه قريبةٌ، وفَرَجُه غير بعيد. وبهذا يظهر لنا مدى الارتباط والاتساق بين الآيات وموضوع السورة.

• **في بيت لوط:**

﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾﴾.

أي: لما كان الملائكة المرسلون في بيت لوط ﷺ، وليس المراد ابتداء مجيئهم، فالآيات لم تراعِ الترتيب الوقوعي لحوادث القصة، كما قلتُ قبل قليل.

﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

ولم يقل ﷺ هذا للملائكةِ عندما جاؤوا إليه، وإنما قال لهم ذلك بعد أَنْ جاء قومه إلى بيته مسرعين، ووقف ﷺ دونَ ضيوفه، يمنعُ عنهم أذى قومه وفحشهم وشذوذهم، وعانى في هذا عناءً شديداً، حتى اضطر إلى القول: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠].

والملائكة جالسون في هيئة البشر لا يتكلَّمون، ولا يساعدونه في دفع قومه

وردِّهم، عندئذٍ التفتَ إليهم منكِراً موقفَ الخذلان وتركَ النصرةِ قائلاً لهم: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾.

فردَّ الملائكة عليه، كاشفين له حقيقتهم، ومبيِّنين له جلية الأمر:

﴿قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

فأتوا بكلمة ﴿بَلْ﴾ التي تدل على الإضراب عمَّا حسبه من ترك النصرة له[١]. أي: ما تركنا نصرتك، بل جئنا لنصرتك بالعذاب الذي كنتَ تتوعَّدُ قومَك به، وكانوا يشكون فيه، ويكذِّبونك من أجله. ثم أكَّدوا كلامهم قائلين:

﴿وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

وتأكيداً لصدقهم بادروا إلى نصرته، فطمسوا أعين قومه، وأخذوا على أبصارهم، فانصرفَ قومُ لوط وهم لا يبصرون شيئاً، يتلمَّسون طريقَهم بأيديهم وهم يقولون: إنَّ لوطاً يؤوي في بيته أسحر أهل الأرض! قال تعالى في **سورة القمر**: ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾﴾.

- **الصبح القريب:**

ثم أمر الملائكةُ لوطاً عليه السلام بترك هذا البلد الظالم أهلُه، والهجرة عنه، مع المؤمنين من أهل بيته، لينجوَ من العذاب الذي سينزل به:

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ أي: اخرج منها مع أهلك المؤمنين بعد مضي جزء من الليل.

---

(١) انظر: روح المعاني: ١٥/ ٦٧.

﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ﴾ ووصَّوْا لوطاً بأن يكون في مؤخّرةِ أهله، ليحميهم ويطّلع على أحوالهم.

وهكذا ينبغي أن يكونَ حالُ أمير القوم أو الجماعة في حال الانسحاب من مكانِ الخطرِ، يسيرُ في آخرهم، ويقدِّم نجاتهم على نجاة نفسه، ويحمي ضعيفهم، ويحمل المنقطع منهم.

﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ حتى لا يرى ما وراءه من عذاب لا يطيقه، أو لا يلتفت متحسِّراً على مفارقة مثل هذا الوطن.

﴿وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ أي: إلى حيث يأمركم الله تعالى بالمضيِّ إليه.

وهذا دليل على رحمته سبحانه ولطفه بعباده المؤمنين، نجَّاهم من الهلاك، وأرشدهم إلى مكان الأمن والسلامة.

ويبدو أن لوطاً عليه السلام كان يستعجِلُ نزولَ العذاب بقومه لكثرة ما رأى من جرائمهم وكفرهم ومنكرات أخلاقهم، فأخبره تعالى أنَّه قدَّر أن يكونَ هلاكُهم عند شروق الشمس في الصباح:

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَـٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

فلا يتغير الأجل الذي قدَّره سبحانه وقضاه: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١].

• **التصدي:**

وبعد أن استبَقَتِ الآياتُ الحوادثَ، وبادرت إلى كشف حقيقة ضيف لوط، والمهمة التي جاؤوا من أجلها، عادت إلى الوراء لتبين شذوذَ قوم لوط، وما فعلوا حين سمعوا بقدوم ضيف لوط عليه السلام:

﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

فرحين بضيوف لوط، لا لإكرامهم، والقيام بحق ضيافتهم، بل ليفعلوا الفاحشة بهم.

فما كان من لوط عليه السلام إلا أن تصدَّى لهم، يدافع عن ضيوفه، حتى لا يُفتضحَ بهم، ويبذل كل ما يستطيعُ ليكفَّ شرَّ قومه عنهم:

﴿قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي﴾ وحق على الرجل أن يكرمَ ضيفه.

﴿فَلَا تَفۡضَحُونِ﴾ فيهم، فإنَّ من أُسيءَ إلى ضيفه فقد أُسيءَ إليه.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في أمرهم.

﴿وَلَا تُخۡزُونِ﴾ ولا تعرِّضوني للخزي والهوان بالاعتداء عليهم.

لكنَّ شهوةَ الشذوذ تسعَّرت في نفوسهم، واستبدَّت بقلوبهم، وغلبتْ على كلِّ رواسب المروءة والحياء فيها، فردوا عليه مؤنبين ومهدِّدين، لأنَّه استضافَ هؤلاء الغرباء، ويذكرونه بما سبق أن نهوه عنه:

﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾﴾.

أي: أو لم ننهك أن تضيف أحداً من العالمين، وتحول بيننا وبينهم. فإنهم كانوا يتعرَّضون لكل من يمرُّ ببلادهم، وكان لوط عليه السلام يمنعهم عنه بقدر طاقته.

ثم ذكَّرهم بالطريق الفطري الذي أحلَّه الله تعالى لقضاء هذه الشهوة المتَّقدة في نفوسهم:

﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾﴾.

يعني: نساءكم وأزواجكم، فإنَّ للنبيِّ مقام الأبوة في قومه، ويؤكده ما حكاه الله عنه في قوله: ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء].

ولكنَّ الشذوذَ والانحرافَ عن الفطرة السليمة سيطر عليهم، واستبدَّ بهم،

فغلبَ على عقولِهم، وجمَّد أحاسيسهم ومشاعرهم، ولهذا أقسمَ اللهُ تعالى بعُمُر النبيِّ ﷺ ليؤكدَ شدَّةَ تأثير الشذوذ عليهم، فقال ﷻ:

﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿لَعَمْرُكَ﴾ أي: بعمرك قَسَمي.

- **مقام رفيع:**

قال القاضي أبو بكر ابن العربي: «قال المفسِّرون بأجمعهم: أقسم الله تعالى هنا بحياة محمد ﷺ تشريفاً له، وهكذا قال القاضي عياض: أجمع أهل التفسير في هذا أنَّه قَسمٌ من الله ﷻ بمدة حياة محمد ﷺ، وأصله ضم العين، من العُمر، ولكنَّها فتحت لكثرة الاستعمال، ومعناه: وبقائك يا محمد ـ ﷺ ـ وقيل: وحياتك، وهذا نهايةُ التعظيم، وغايةُ البر والتشريف»[١].

وقال ابن كثير رحمه الله: «أقسمَ الله تعالى بحياة نبيه صلوات الله وسلامه عليه، وفي هذا تشريفٌ عظيمٌ، ومقامٌ رفيعٌ، وجاهٌ عريضٌ، قال **ابن عباس** رضي الله عنهما: ما خلقَ الله وما ذرأَ وما برأ نفساً أكرمَ عليه من محمَّدٍ ﷺ، وما سمعتُ الله أقسمَ بحياة أحدٍ غيره»[٢].

وليس قَسَم الله تعالى بحياة النبيِّ ﷺ معترضاً في قصة لوط كما رأى القرطبيُّ في «تفسيره»[٣]؛ إذ الخطاب موجَّهٌ منذ بداية القصة للنبيِّ ﷺ، كما مرَّ معنا في قوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحجر] فهو إذن متفق تماماً مع سباق الآيات، ومتفق أيضاً مع سياقها، فستعودُ الآياتُ بعدَ قليلٍ تخاطِبُ النبيَّ ﷺ كما سيأتي معنا.

وهذا أيضاً يبيِّن خطأً سيد قطب رحمه الله عندما قال: «بينما المشهد البشعُ

(١) تفسير القرطبي: ١٠/ ٣٩.
(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ٢/ ٣١٥.
(٣) تفسير القرطبي: ١٠/ ٤٠.

معروضٌ على هذا النحو المثير، يلتفتُ السياقُ خطاباً لمن يشهدُ ذلك الخطاب على طريقة العرب في كلامهم بالقسم ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾»[(١)].

فالخطاب للنبيِّ ﷺ، وليس لمن يشهدُ ذلك المشهد باتفاق المفسرين. وجاء متفقاً مع سباق الآيات من أول القصة ومع سياقها في نهايتها.

• **سكرة لا ثورة:**

﴿إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ﴾ أي: ضلالتهم أو غوايتهم، وما أجملَ قولَ البيضاوي رحمه الله: «غوايتهم أو شدة غلمتهم التي أزالت عقولَهم وتمييزهم»[(٢)].

﴿يَعْمَهُونَ﴾ يتحيَّرون أو يترددون أو يلعبون.

وهذا يبيِّنُ لنا شدة تأثير الشذوذ الجنسي على من ابتُلي به، إذ يفقِدَ معه تفكيرَه وتمييزَه وتوازنه، ويجعله منطمس البصر والبصيرة، فلا يرى ولا يبصر إلا ما يطفِئُ غلمته، وينقع غلته، ويسكن شهوته.

وهذا يفسِّر لنا ما يُنْشَرُ في الصحف عن فضائح لرجال كبار من ذوي المناصب العالية والوجاهة في مجتمعاتهم، ضُبِطوا وهم يمارسون هذا الشذوذ.

لقد انتشر الشذوذُ الجنسيُّ في المجتمعات الغربية وغيرها انتشاراً كبيراً، نتيجة الانحلال الخُلُقي، وانعدام القِيَم الدينية الصحيحة، ونتيجة تشجيع وسائل الإعلام لما يسمُّونه بثورة الجنس، وهي ـ والله ـ سكرةٌ وليست ثورةً، سكرةٌ أعمت بصائرهم وأبصارهم عن رؤية العواقب الوخيمة التي تتهددهم وتقرع أبوابهم.

وما الأمراض الجنسية الخطيرة المنتشرة في هذه المجتمعات، وعلى رأسها مرض فَقْدِ المناعة المكتسب الذي يسمونه (الإيدز) إلا بداية لهذه العواقب الوخيمة لسكرة الجنس المسيطرة عليهم، وصدق الله العظيم: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

فأيُّ خيرٍ يُرجى من مجتمع تسودُ فيه سكرة الجنس؟! مثل هذا المجتمع

---

(١) انظر: في ظلال القرآن: ٤/ ٢١٥٠.

(٢) تفسير البيضاوي: ٣/ ٥٧١.

الذي استشرى فيه الفساد، واستفحل فيه الداء، لا يمكن إصلاحه، فقد أصبحَ مغلوباً على أمره، لا يقبل أي علاج أو إصلاح، فلا بدَّ إذن من استئصاله وبتره، كي لا يسري فساده وشذوذه إلى غيره من المجتمعات.

● **الاستئصال:**

أهلك الله تعالى الأممَ المكذِّبة للأنبياء والمرسلين، كلُّ أمة بنوع واحد من أنواع العذاب، أمَّا قومُ لوطٍ فقد أهلكهم الله تعالى بثلاثة أنواع من العذاب، يكفي كلُّ واحد لإهلاكهم واستئصالهم:

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

وهو صوتٌ شديدٌ قاصفٌ، جاءهم عند شروق الشمس.

﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾﴾.

﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ أي: قلَب الله تعالى بلادهم، وذلك برفعها إلى عنان السماء ثم قلبها، لا كما زعم بعضهم بحدوث بركان أو زلزال، ورفعها وقلبها ثم الهوي بها جاء صريحاً في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾﴾ [النجم]، والهوي لا يكون إلا من ارتفاع وعلو.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ وهو النوع الثالث من أنواع العذاب الذي أنزله الله تعالى بهم: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود].

فالمطر كان من حجارةٍ ولم يكن مطراً معهوداً كما زعم بعضهم(١).

والحجارةُ من طين مستحجر، وكلُّ حجر معلَّمٌ بعلامة خاصة بصاحبه الذي

---

(١) انظر: تفسير سورة النمل، المسمَّى في هذا الكتاب: (المعجزة والإعجاز في سورة النمل).

أُعد له، فأهلكهم الله جميعاً، حاضرهم وغائبهم، إذ تتبعتهم الحجارةُ فضربتهم وأهلكتهم، وطهرت الأرضَ من فسقهم ورجسهم.

- **الحصن الحصين:**

ثم عقَّب سبحانه على ما أنزل بقوم لوط من أنواع العذاب بقوله:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ۝٧٥﴾.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ﴾ لعلامات ودلالات على قدرته سبحانه، وعلى انتقامه سبحانه من الذين يكذِّبون رسله، ويخرجون على منهجه الذي رسمه لهم، وفطرته التي فطرهم عليها.

﴿لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ للمتأملين بعين بصيرتهم وبصرهم آثارَ هذه النقم الظاهرة على تلك البلاد، فآثارهم في بحيرة لوط أو البحر الميت لا تزالُ باقيةً وماثلةً للعيان في هذه المنطقة التي أصبحت نتيجةَ ما حدث فيها أخفضَ منطقة في العالم عن مستوى سطح البحر، كما صارت بحيرةً منتنةً لا يعيش فيها مخلوق مائي حي حتى الآن.

﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ۝٧٦﴾.

أي: إنها واقعة على الطريق الواضح الذي كان المشركون من أهل مكة يسيرون فيه عندما يسافرون من الحجاز إلى بلاد الشام، فيمرُّون عليها ليلاً أو نهاراً، قال ﷻ: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۝١٣٧ وَبِالَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات].

ولكنَّهم لا يعقلون، فلا ينتفعُ مِنْ هذه القصص وما فيها من عبر ومواعظ إلا المؤمنون، ولهذا قال سبحانه بعد ذلك:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٧٧﴾.

فالإيمانُ حصنُ المؤمن الحصين من غوائل الشذوذ وشرور الانحراف، ولا سبيلَ لحماية مجتمعاتنا الإسلامية منها إلا بتقوية الإيمان في القلوب، وتربية

الأجيال الناشئة على مراقبة الله تعالى وخشيته، وإبعادهم عن أسباب الإثارة الجنسية الوافدة إلينا من بلاد الغرب والشرق لإشاعة الفاحشة والشذوذ بين أبنائنا وبناتنا، وتشجيع الزواج بتسهيل أسبابه وتيسير وسائله.

• **وقفة تأمل:**

ثم عرَّجت الآياتُ على أصحاب الأيكة، وهم قومُ شعيبٍ في مَدْيَن، لكونهم قريبين من قوم لوط، فَمَدْين تقع إلى الجنوب من البحر الميت على الطريق المؤدي إلى الحجاز، ومَرَّت الآيات عليهم من غير توقف، للتذكير بحالهم فقط، شأنها شأنُ المسافِر المسرع:

﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾.

والأيكةُ: الشجرُ الملتفُّ، وكان ظلمُهم بكفرهم، وقطعهم الطريق على المسافرين، ونقصهم المكيال والميزان.

﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾﴾.

أي: إنَّ قوم شعيب وقوم لوط على طريق مبين واضح بين الحجاز والشام.

ثم توقَّفت الآياتُ قليلاً عند أصحاب الحِجْر، الذين تقعُ منازلهم على الطريق نفسه إلى الجنوب مِنْ مَدْينَ بلاد قوم شعيب:

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾﴾.

وهم ثمود قوم نبي الله صالح عليه السلام.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾﴾.

أي: آتيناهم الدلائلَ الدالة على صدق نبي الله صالح الذي أُرسل إليهم،

كالناقة التي خلقها الله تعالى من صخرةٍ بِدُعاءِ صالح عليه السلام، فأعرضوا عنها، ولم ينتفعوا بها.

﴿وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾﴾.

من غير خوفٍ من الموت؛ لاغترارهم بطول الآمال والأعمال، ولا تزالُ بيوتُهم الباقيةُ حتى الآن ـ وهي منحوتةٌ في داخل الصخر ـ تشهَدُ على أنَّهم كانوا مطمئنين إلى الدنيا، غير خائفين من نوازلها ومصائبها، كما تدلُّ على طول آمالهم فيها، وكثرة انهماكهم بشهواتها، ولعلَّ هذا سرُّ توقف الآيات عندهم هذه الوقفة المتأنية، ليتأمل الإنسان في أحوالهم، ويعتبر بمصيرهم.

وقد مرَّ النبي ﷺ على بلادهم، وهو في طريقه إلى غزوة تبوك، وأمر أصحابه إذا دخلوا مساكنهم أن يدخلوها معتبرين خائفين من الله تعالى وسطوته وانتقامه، فقال ﷺ: «**لا تدخلوا مساكنَ الذين ظلمُوا أنفسَهم، أن يصيبَكم ما أصابَهم؛ إلا أنْ تكونوا باكينَ**» ثم قنَّعَ رأسه، وأسرع السير، حتى أجازَ الوادي. [رواه البخاري (٤٣٣) ومسلم (٢٩٨٠)].

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

أي: في وقت الصباح.

﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

من الأموال والزروع والثمار.

فالآيةُ تدلُّ على أنَّ القومَ كانوا على درجة عالية من الغنى والثراء، وهو سببُ انشغالهم بالدنيا، وطول آمالهم فيها، وغفلتهم عن الآخرة.

❁ ❁ ❁

التعقيب الأخير
دَوْرُ القُرآنِ الكَريمِ في تَحقِيقِ التَّوازُنِ في حَيَاةِ الإنْسَانِ

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾

وأخيراً جاء التعقيبُ على ما تقدَّم من إهلاك الله تعالى للأمم المكذِّبة للرسل والمفسدة في الأرض، يبيِّنُ ضرورةَ إهلاكهم، وتطهير الأرض من شرورهم، فالله سبحانه ما خلق الخلقَ بهذا الإتقان والإحكام والتوازن الذي تقدَّم بيانه في آيات السورة، للفساد والإفساد، ولا للعب واللهو، فأفعالهُ سبحانه منزهةٌ عن كلِّ ذلك، قال ﷻ:

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾﴾.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: إلَّا خلقاً متلبِّساً بالحق

والحكمة، فلا يلائِمُه استمرارُ الفسادِ، واستقرارُ الشرورِ فيه، وقد اقتضت الحكمةُ إهلاكَ أمثال هؤلاء دفعاً لفسادهم، وإرشاداً لمن بقي إلى الصلاح[١].

وقد أضاف سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ظلال هذه الآية معنًى جديداً مفيداً بقوله: «إنَّ الحقَّ عميقٌ في تصميم هذا الوجود، عميقٌ في تكوينه، عميقٌ في تدبيره... ولم يتلبَّس بتصميمه خداعٌ ولا زيفٌ ولا باطلٌ، والباطلُ طارئٌ عليه، ليس عنصراً من عناصر تصميمه»[٢].

فالحقُّ ثابتٌ أصيلٌ، والباطِلُ طارئٌ دخيلٌ، والساعةُ آتيةٌ لا ريبَ فيها، لإِحقاقِ الحق وإزهاق الباطل.

﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾ حيث ينتقمُ الله تعالى فيها من المكذِّبين والمعاندين لدعوة المرسلين.

وما دام الحق قويّاً وأصيلاً:

﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾.

- **الصفح الجميل:**

وهكذا عادت الآياتُ الكريمةُ إِلى مخاطبة النبيِّ ﷺ، بهذا التوجيه الكريم للعفو عنهم، والصبر على أذاهم، ومقابلة عنادهم وإعراضهم بالأخلاق الكريمة الطيبة التي كان يتصف بها ﷺ.

﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ **والصفح**: العفو، وفسَّره بعضُهم بأنه ترك التثريب، أي: ترك العتاب واللوم، وهو أبلغُ من مجرَّدِ العفو، وروي عن **علي وابن عباس** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ: أنَّ الصفحَ الجميلَ ما خلا من عتابٍ[٣].

ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٩].

---

(١) انظر: روح المعاني: ١٥/ ٧٧؛ وتفسير البيضاوي: ٣/ ٥٧٣.

(٢) في ظلال القرآن: ٤/ ٢١٥٣.

(٣) روح المعاني: ١٥/ ٧٧.

وفي أمره عليه الصلاة والسلام بالصفح عنهم دليلٌ على أنَّه كان قادراً على الانتقام منهم.

وقد يقول قائل: كيف وهو ﷺ لا يزال في مكة في قلَّة من أصحابه؟.

والجواب: إنه كان يستطيعُ أن يدعوَ عليهم، كما فعل غيره من الأنبياء، عليه وعليهم الصلاة والسلام، ومعلوم أنه لم يدعُ على قومه، بل كان يدعو لهم.

ففي الآية توجيه كريمٌ إلى دعوة الكفار بالحلم والتأني، واحتمال جفوتهم وغلظتهم، حتى يشرَحَ الله تعالى صدورهم للإيمان، وليست منسوخةً بآيات القتال، كما رأى بعض المفسرين.

وهذا التوجيه الكريمُ ليس خاصّاً بالنبيِّ ﷺ وحدَه، فحكمه يشمل كل داعية يدعو إلى الله تعالى، إذ هو ﷺ قدوتهم، ولا نجاح لهم في دعوتهم إلا بالاقتداء به، والتزام سنَّته ومنهجه، وقد جاءت بعض الآيات تعمِّم الخطاب بالصفح، كقوله تعالى: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ الآية [البقرة: ١٠٩].

● **الخلَّاق العليم:**

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ﴾ لجميع المخلوقات على الإطلاق.

﴿الْعَلِيمُ﴾ بجميع أحوالهم، فلا يخفَى عليه شيءٌ من أمرهم، فعليك أن تكِلَ الأمورَ إليه، ليحكم بينك وبينهم.

فكأنَّ الآيةَ تعلل ما سبق من التوجيه الكريم إلى الصفح الجميل.

ورأى بعضُهم أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ تقريرٌ ليوم القيامة وتأكيد له، فهو سبحانه قادر على إقامة الساعة؛ لأنه ﴿الْخَلَّاقُ﴾ الذي لا يعجزه شيءٌ، ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما تمزَّق من الأجساد بعد الموت، وما تفرَّق في التراب، فهو كقوله: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ۚ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [يسٓ: ٨١].

وبهذا تكون الآية مؤكدة لما قبلها من قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾ [الحجر: ٨٥]، ومعلِّلة أيضاً قوله: ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥]، والله سبحانه أعلم بمراده وأسرار كتابه.

• **السبع المثاني:**

وتابعتِ الآياتُ الخطابَ للنبيِّ ﷺ تبيِّنُ فضلَ الله العظيم عليه، بما آتاه من آيات القرآن الكريم، المظهرة للحق الذي خلق الله السموات والأرض من أجله:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ (٨٧)﴾.

ذهب بعضُ المفسرين إلى أنَّ المراد من السبع المثاني: آيات سورة الفاتحة السبع، فهي السبع المثاني والقرآن العظيم، وقيل لها: المثاني؛ من التثنية، لأنَّها تتكرر في الصلاة، أو من الثناء، لاشتمالها على ما هو ثناء على الله ﷻ، وقيل لها: القرآن العظيم، لأنها أعظم سورةٍ فيه.

ففي الحديث الصحيح: **عن أبي سعيد بن المعلَّى** قال: كنتُ أصلِّي في المسجدِ، فدعاني رسولُ اللهِ ﷺ فَلَمْ أُجِبْهُ، ثم أتيتُه، فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، إنِّي كنتُ أصلِّي. فقال: «**ألم يَقُلِ اللهُ تعالى:** ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]؟!» ثم قال: «**ألا أعلِّمُكَ سورةً هي أعظمُ السورِ في القرآنِ، قبلَ أن تخرجَ مِنَ المسجِدِ؟**» ثم أخذَ بيدي، فلمَّا أرادَ أن يخرجَ قلتُ: ألم تقل: لأعلمنَّكَ سورةً هي أعظمُ سورةٍ في القرآنِ؟ قال: «**الحمدُ للهِ ربِّ العالمين، هي السبعُ المثاني والقرآنُ العظيمُ الذي أُوتيتُه**» [رواه البخاري (٤٤٧٤)].

وعطف (**القرآن العظيم**) على (**السبع المثاني**) مع أنَّ المرادَ بهما واحدٌ لما عُلم في اللغة العربية من أنَّ الشيءَ الواحدَ إذا ذكر بصفتين مختلفتين، جاز عطفُ إحداهما على الأخرى، تنزيلاً لتغاير الصفات منزلةَ تغاير الذات[1].

وذهب فريقٌ آخر من المفسرين إلى القول: بأنَّ الله تعالى أعطى النبيَّ ﷺ سورة

(١) أضواء البيان: ٣/ ١٩٥.

الفاتحة، وأعطاه أيضاً القرآن العظيم، فيكونُ العطفُ من قبيل عطفِ العامِّ على الخاص، وهو لا يتعارض مع ما ذكر في الحديث النبوي السابق، إذ يمكن أن يقال: إنَّ تسمية الفاتحة بالمثاني وبالقرآن العظيم، لا ينافي وصفَ القرآن بكامله بذلك أيضاً، فقد وصف الله تعالى القرآن بصفة المثاني في قوله الكريم: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ . . .﴾ الآية [الزمر: ٢٣].

فهو مثانٍ من وجه، ومتشابه من وجه، وهو القرآن العظيم أيضاً.

كما أنَّه ﷺ لما سُئِلَ عن المسجد الذي أسس على التقوى، فأشارَ إلى مسجده، والآية نزلت في مسجد قباء، فلا تنافي، فإن ذكر الشيء لا ينفي ذكر ما عداه إذا اشتركا في تلك الصفة، والله أعلم[1].

والأَوْلى المصيرُ إلى هذا المعنى، لأنَّه يتفقُ مع موضوع الآية التي نزلت تبيِّنُ فضلَ الله العظيم على نبيه ﷺ، فقد أعطاه سورةَ الفاتحةِ، وأعطاه القرآنَ العظيمَ، وخصَّ الفاتحة بالذكر تنويهاً بالمعاني العظيمة التي اشتملت عليها. وقد مر معنا بعضها عند الحديث عن سورة الفاتحة.

- **التحذير من زهرة الدنيا وزينتها:**

ومن خَصَّه الله تعالى بهذا الفضل العظيم، وأنزلَ عليه سورة الفاتحة والقرآن العظيم، لا ينبغي أن يلتفتَ إلى الدنيا، ويهتمَّ بها إلا بالقدر الذي يبلِّغ فيها رسالة القرآن العظيم، ولهذا جاءت الآيات بعد ذلك بهذا التوجيه الكريم والتأديب الرفيع للنبي ﷺ:

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾.

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ أي: لا تطمح ببصرك طموح راغب.

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٢/٣١٨.

﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ أي: أصنافاً من الكفّار من زهرة الدنيا وزينتها، فإنه مستحقر بالنسبة لما أوتيته(١).

فهو كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١].

ولهذا كان رسول الله ﷺ لا يحفلُ بالدنيا، ولا يهتمُّ بها، بل قَصَرَ همَّه، ووجَّه عزمه إلى تبليغ دعوة الله تعالى، مع أنَّ النهيَ في الآيةِ لا يفيدُ الإلزام والتحريم، فليس ثَمَّةَ مانعٌ شرعيٌّ يمنعُ النبيَّ ﷺ من التوسُّع في المعيشة، ضمنَ حدود ما أحلَّ الله تعالى من الطيبات، وهو سبحانه القائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١].

لكنَّه عليه الصلاة والسلام اختارَ شظفَ العيش، وعدمَ التمتع بمتاع الدنيا، ودامَ على ذلك هو وأهلُ بيته حتى توفَّاه الله تعالى(٢)، ليكونَ أسوة وقدوة لأصحابه ولأمته من بعده، إذ كان يخشى عليهم من أن تُفتحَ عليهم الدنيا، ويقبلوا على زهرتها وزينتها، ويُفتنوا بها.

وهذا يفسِّرُ لنا دعوةَ النبيِّ ﷺ التي قال فيها: «**اللهمَّ اجعلْ رزْقَ آلِ محمَّدٍ قوتاً**» وفي رواية: «**كفافاً**» [رواه البخاري (٦٤٦٠) ومسلم (١٠٥٥)].

وقوله عليه الصلاة والسلام عندما اجتمع عليه أصحابُه بعدَ أَنْ سمعوا بقدوم أبي عبيدةَ بنِ الجرَّاح رضي الله عنه بمالٍ من البحرين، قال لهم: «**أَبْشِرُوا وأمِّلُوْا ما يَسُرُّكم، فواللهِ ما الفَقْرَ أَخْشَى عليكم، ولكنْ أَخْشَى أن تُبْسَطَ الدنيا عليكم، كما بُسِطَتْ على مَنْ كانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنافَسُوْهَا كما تَنَافَسُوْهَا، فُتُهلِكَكُم كما أهلكتهم**» [رواه البخاري (٣١٥٨) ومسلم (٢٩٦١)].

وقد مرَّ معنا في أول السورة ما يفيدُ أنَّ كثرةَ الإقبال على الدنيا وكثرة التمتع

---

(١) انظر: تفسير البيضاوي وتفسير النسفي: ٣/ ٥٧٦.

(٢) انظر: تفسير سورة الأحزاب، ضمن هذا التفسير الكبير، وقد أسميناه هنا: (النبي ﷺ وأزواجه في سورة الأحزاب).

والتلذذ بطيباتها المادية، يؤدِّي إلى طول الأمل، والانشغال بها عن عبادته سبحانه وطاعته، إذن فقد جاءَ هذا التوجيه الكريم للنبيِّ ﷺ منسجماً تماماً مع موضوع السورة، ومتفقاً مع ما سبقه من الآيات الكريمة.

- **التواضع ولين الجانب:**

وقوله تعالى:

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ فيه توجيهٌ آخرُ للنبيِّ ﷺ كي لا يهتمَّ بأصحاب الدنيا، ولا يحفلَ بهم إذا أعرضوا عن دعوته، فقد كان ﷺ يحرصُ على إيمانهم، ويشقُّ عليه بقاؤهم على الكفر، بسبب مزيدِ شفقته عليه الصلاة والسلام حتى قال الله تعالى له: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨].

وقال له أيضاً: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦].

فلا ينبغي للنبيِّ عليه الصلاة والسلام أن يهتمَّ بهم بعد أن بلَّغهم دعوة الله تعالى، وأقامَ عليهم حجته، بل عليه أن يهتمَّ بالمؤمنين، فيقبل عليهم متواضعاً لهم، ولهذا قال ﷻ للنبيِّ عليه الصلاة والسلام:

﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: تواضع لهم، وارفق بهم، وأقبل عليهم ولو كانوا فقراء، فهو كقوله سبحانه: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

وخفض الجناح كنايةٌ عن لين الجانب والتواضع، وأصل ذلك أن الطائر إذا أرادَ أن يضمَّ فراخه إليه، بسطَ جناحيه عليهم، والتعبير عن اللين والعطف والتواضع بخفض الجناح يدل على أنَّ للمؤمنين مكانةً كبيرةً عند الله تعالى، فالله سبحانه أمر نبيَّه عليه الصلاة والسلام، وهو صفوته من خلقه، أن يتواضع للمؤمنين.

وهكذا كان حاله عليه الصلاة والسلام مع أصحابه، كما قال ﷻ في وصفه:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وهكذا ينبغي أن يكونَ حالُ المؤمنين فيما بينهم، يتواضعون ويتراحمون، كما كان حال الصحابة ﷺ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ﴾ [الفتح: ٢٩].

• **النذير المبين:**

ومقابل خفض الجناح للمؤمنين، أمرتِ الآياتُ النبيَّ ﷺ أن يواجه المعاندين والمكذِّبين بالإنذار والتخويف، فهو الأسلوب اللائق بهم:

﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾﴾.

البيِّن النذارة، فإنذاره عليه الصلاة والسلام واضح وصريح لا خفاء فيه.

﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

أي: أنذركم من عذاب أليم، كالعذاب الذي أنزله الله تعالى على المقتسمين، وهم الذين تقاسموا وتحالفوا على تكذيب المرسلين، فقد أخبرَ اللهُ عنهم بقوله: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٣٨].

أو هم جماعة من مشركي مكة، اقتسموا مداخل مكة، لينفِّروا القادمين إليها في أيام الموسم عن رسول الله ﷺ، ويؤكده قوله بعد ذلك:

﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾.

أي: جعلوه سحراً، أو جعلوه أجزاء متفرقة، فبعضُه في نظرهم سحر، وبعضه كهانة، وبعضه أساطير الأولين، وبعضه كذب، وكلُّ هذه الأقوال تدل على حَيْرتهم واضطرابهم.

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾﴾.

أقسمَ الله تعالى بذاته المقدَّسة ردّاً على أولئك المقتسمين المكذِّبين المعاندين، ليسألنَّهم يوم القيامة سؤال التوبيخ والتقريع.

﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

في الدنيا من الكفر والفجور.

- **إعلان الدعوة:**

ثم أمرت الآياتُ النبيَّ ﷺ بمواجهة المشركين علناً مع التحدي بعقيدة التوحيد عقائدهم الفاسدة والباطلة:

﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾.

﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ أي: اجهر بما أمرك الله به، وواجه الناس به، وبلِّغهم وحي الله تعالى، معلناً ذلك من غير استخفاء ولا خوف، أو فَرِّق بين الحق والباطل بما أمركَ اللهُ تبليغه، وأصله من الصَّدْع، بمعنى التفريق والشق.

وكانت هذه الآيةُ فاصلةً بين مرحلتين من مراحل الدعوة، إذ كان النبيُّ ﷺ قبلَها مستخفياً مع أصحابه حتى نزلت، فخرج هو وأصحابه[1].

قال ابن إسحاق في «السيرة»: «ثم إنَّ الله ﷻ أمر رسولَهُ ﷺ أن يصدعَ بما جاءه منه، وأن يباديَ الناس بأمره، وأن يدعوَ إليه، وكان بين ما أخفى رسول الله ﷺ أمره واستتر به إلى أَنْ أَمَرَهُ الله تعالى بإظهار دينه ثلاث سنين، فيما بلغني، من مبعثه، ثم قال الله تعالى له: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾»[2].

﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: لا تلتفت إلى المشركين، ولا تأبه بمعارضتهم

---

(١) تفسير الخازن: ٣/ ٥٧٩.

(٢) سيرة ابن هشام: ١/ ٢٣٧.

وعنادهم ولا تَخفْهم، فإنَّ الله كافيك مكرهم، وحافظك من كيدهم، فهو كقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧].

وتأتي المعونةُ من الله تعالى على قدر التكليف والمؤونة، فعندما كلَّفه بإعلانِ الدعوةِ بالجهرِ بها أخبره سبحانه بكفايته وحمايته عليه الصلاة والسلام من كيد المستهزئين وأذاهم، فقال جَلَّ جَلَالُهُ:

﴿إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ٩٥﴾.

من كبار المشركين؛ كالوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن عبد يغوث، وغيرهم، الذين كانوا يبالغون في أذى رسول الله ﷺ والاستهزاء به، وقد أهلكهم الله تعالى جميعاً، وكُفي ﷺ شرهم.

﴿ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٩٦﴾.

عاقبة شركهم وكفرهم يوم القيامة.

- **منابع القوة:**

ثم أرشده سبحانه إلى منابع القوة التي يستمدُّ منها النبيُّ ﷺ القوةَ والعزيمةَ للقيام بالأعباء الثقيلة التي كلَّفه الله تعالى بها، قال تعالى:

﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ٩٧﴾.

من الطعن في القرآن الكريم والاستهزاء بك.

﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٩٨﴾.

﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ كي يذهب عنك ما تجده في صدرك من ضيق وحزن،

ونزِّه ربك جلَّ وعلا عن كلِّ ما لا يليقُ بكماله وجلاله، مع الثناء عليه بجميع ما هو أهله من صفات الكمال والجلال.

فالتسبيحُ: تنزيه الله عن كلِّ صفات النقص.

والحمد: الثناءُ على الله تعالى بكلِّ صفات الكمال، بأن تقول: سبحان الله، والحمد لله، أو: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم.

وهذا يدلُّ على أنَّ ترديدَ مثل هذه الأذكار مع خشوع القلب، له تأثير كبير في شرح الصدر، وتنفيس الهم، وتخفيف الحُزْن، كما أنه يمدُّ الإِنسان بقوة وعزيمة، تكون عوناً له بإذن الله على مواجهة المصاعب والنوائب.

والجديرُ بالذكر أنَّ الإمامَ **البخاري** رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد ختم كتابه «**الجامع الصحيح**» بالحديث النبوي الشريف (٧٥٦٣): «**كلمتانِ خفيفتانِ على اللسانِ، ثقيلتانِ في الميزانِ، حبيبتانِ إلى الرحمنِ: سبحانَ اللهِ وبحمدِهِ، سبحانَ اللهِ العظيم**».

﴿وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ أي: المصلِّين، عبَّر عن الصلاة بالسجود لأن فيه غاية التذلل والخضوع لله تعالى، و«**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد**»، كما قال رسول الله ﷺ [رواه مسلم (٤٨٢)].

فالإِكثارُ من الصلاة، وخاصةً في جوف الليل، ومن التسبيح والحمد، وغير ذلك من الأذكار، يؤدِّي بفضل الله ورحمته إلى انشراح النفس، وإزاحة الضيق والهم عن الصدر، كما قال ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨][1].

وقال ﷻ أيضاً: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥].

وكان ﷺ إذا حَزَبَهُ أمرٌ فَزِعَ إلى الصلاةِ. [رواه أبو داود (١٣١٩) وأحمد (٥/٣٨٨)].

---

(١) وهي آخر آية سمعها سيدي الشيخ محمد الحامد رَحِمَهُ ٱللَّهُ قبل أن يتوفى، انظر كتاب: الشيخ محمد الحامد، للمؤلف، وهو من مطبوعات دار القلم.

• **اليقين والسراب:**

﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾.

﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ﴾ أي: دُم على ما أنت عليه من عبادته سبحانه وطاعته، فلا قيمة لحياة الإنسان ووجوده من دون عبادة الله تعالى وطاعته، فبها يدرك جوهر حياته وحكمة وجوده.

﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ أي: حتى يأتيك الأجلُ الموعودُ الذي لا شك فيه، وهو الموتُ.

ومن رحمته سبحانه أنه جعل أجل الإنسان المقدَّر لموته مجهولاً بالنسبة للإنسان، فلو كشف الله تعالى للناس آجالهم، وبيَّنَ لهم نهايةَ أعمارهم، لتعطَّلت سُبُلُ حياتهم، وتوقف سعيهم، وشُلَّتْ حركتهم، فما أعظم رحمة الله بنا!.

ولكن لا ينبغي أن يحملنا جهلُنا بموعدنا مع الموت على نسيانه والغفلة عنه، فتطغى علينا آمالٌ كبيرةٌ لا تتسع لها حياتنا، ونتخطَّى فيها آجالنا، ثم يأتينا الموت فيقطعنا عنها، فنقعَ في الحسرة الدائمة؛ الحسرة على حياة أضعناها، ونحن نركضُ خلفَ آمال لا تتسع لها حياتنا، فما هي إلا سرابٌ خادعٌ، سعينا طويلاً وراءه، وركضنا كثيراً من أجل تحصيله، ثم سقطنا على الطريق مع موعدنا المجهول، ونكون كالذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].

ما أكثرَ الذين تنسَحِبُ عليهم هذه الآية، أولئك هم تجار الخيال وأسرى الآمال[١].

وحتى لا نكونَ منهم علينا أن نتذكَّرَ دائماً قول الله تعالى للنبيِّ ﷺ: ﴿وَٱعْبُدْ

(١) انظر كتابنا: حياتنا والموعد المجهول.

رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾، والخطابُ وإن كان للنبيِّ ﷺ، فهو عام وشامل، وغيره عليه الصلاة والسلام أولى به، لأنه عليه الصلاة والسلام معصومٌ عن الغفلة، فلا تكونُ منه فترة عن العبادة، وانقطاع عن الطاعة أبداً.

ولمَّا سُئِلتِ السيدة **عائشة** ﵂ عن عمل رسول الله ﷺ قالت: «**كان عملُه ديمةً** (مستمرّاً)، **وأيُّكُم يستطيعُ ما كانَ رسولُ اللهِ ﷺ يستطيع؟!**» [رواه البخاري (١٩٨٧) ومسلم (٧٨٣)].

وقال رسول الله ﷺ: «**إن أحبَّ الأعمالِ إلى اللهِ ما دُووِمَ عليه وإنْ قَلَّ**» [رواه البخاري (٦٤٦٤) ومسلم (٧٨٢)].

- **التكليف لا يسقط عن المكلَّفين:**

وفي الآية ردٌّ على بعض الملحدين القائلين بسقوط التكليف بالعبادة عن الذين يَصِلُون ـ بزعمهم ـ إلى درجة الكَشْفِ والشهود، لأنَّ العبادةَ ـ بزعمهم أيضاً ـ ليست إلا لمحجوبين، ولقد مرقوا بذلك من الدين، وخرجوا من ربقة الإسلام وجماعة المسلمين[1].

قال ابنُ كثير ﵀: «ويستدل بهذه الآية على أنَّ العبادةَ كالصلاة ونحوها واجبةٌ على الإنسان ما دام عقله ثابتاً، فيصلِّي بحسب حاله، كما ثبت في «**صحيح البخاري**»: عن **عمران بن حُصين** ﵄: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**صَلِّ قائماً، فإنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فقاعداً، فإنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فعلى جَنْبٍ**».

ويستدل بها على تخطئة من ذهبَ من الملاحدةِ إلى أنَّ المرادَ باليقين المعرفة، فمتى وصلَ أحدُهم إلى المعرفةِ سقطَ عنه التكليف عندهم، وهذا كفرٌ وضلالٌ وجهلٌ، فإنَّ الأنبياء ﵈ كانوا ـ هم وأصحابهم ـ أعلم الناس بالله، وأعرفهم بحقوقه وصفاته، وما يستحق من التعظيم، وكانوا مع هذا أكثر الناس عبادةً ومواظبةً على فعل الخيرات إلى حين الوفاة، وإنَّما المراد من اليقين هاهنا الموت»[2].

---

(١) انظر: روح المعاني: ١٥/ ٨٧.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ٢/ ٣٢١.

ولا تقتصر العبادة في الإسلام على الصلاة والصيام والزكاة والحج، وإنَّما تمتدُّ إلى كلِّ شؤون الحياة، فطاعة الله تعالى فيها عبادة، وهذه هي عبادةُ النبيِّ ﷺ التي بنى بها أفضل المجتمعات، وأخرجَ خيرَ الأمم، وأنتجَ أنضرَ الحضارات الإنسانية وأزكاها وأزهاها.

أسأله سبحانه أن ينوِّرَ بصائرنا وقلوبنا، وأن يعلِّمَنا ما ينفعنا، وأن ينفعَنا بما علَّمنا.

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله أولاً وآخراً.





١٦

تفسير سورة النحل

التَّوْحِيدُ والشُّكْرُ فِي سُورَةِ النَّحْل

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المُقَدِّمَة

الحمد لله ربِّ العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فإنَّ نعم الله تعالى على الإنسان كثيرة وجليلة، لا يحصيها عدٌّ، ولا يحدُّها حدٌّ، وإنَّ على الإنسان أن يتوجَّه بالشكر إلى الله تعالى وحده على ما أنعم عليه وأولاه، وما خصَّه من خصائص، امتاز بها على غيره من المخلوقات.

ومع كثرة نعمه سبحانه على الناس، فإنَّ كثيراً منهم ينشغلون بالنعمة عن شكر المُنْعم، وينقطعون بها عن طاعة ربهم سبحانه وعبادته.

ولقد جاءت سورة النحل تذكِّر الإنسان بفضل الله تعالى عليه من خلال عرضها لثلاث مجموعات لبعض نعمه جلَّ وعلا على الإنسان، وتبيِّن له أيضاً كيف يكون الشكر، وارتباط الشكر بتوحيد الله تعالى، والانقياد لدينه وشرعه، فهي بحق **سورة التوحيد والشكر**، كما أنها في الوقت نفسه **سورة النِّعَم**، والناس في العصر الحاضر في أشدِّ الحاجة إلى هذه المعاني.

ولقد جاء الحديث عن موضوعها في هذا التفسير من خلال خمسة فصول

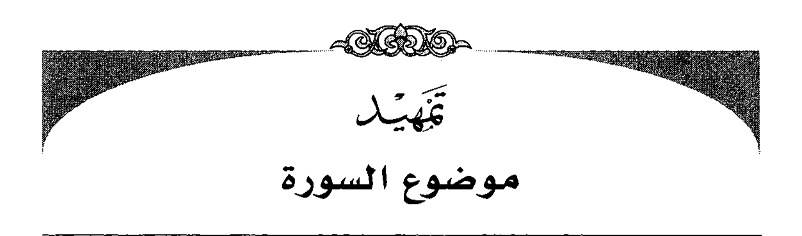
متسلسلة ومتوالية، مع توالي آيات السورة، بحيث يظهر الانسجام والتناسق الكامل بين آيات السورة من خلال الحديث عن معانيها، وهذه الفصول هي:

- **الفصل الأول: المجموعة الأولى من النعم** (نعم الله في خلق الإنسان وتنظيم حياته).
- **الفصل الثاني: جحود وعناد ومفارقات مستنكرة.**
- **الفصل الثالث: المجموعة الثانية من النعم** (نعم الله الضرورية لاستمرار حياة الإنسان).
- **الفصل الرابع: المجموعة الثالثة من النعم** (نعم الله التي يحتاج إليها الإنسان في حمايته ووقايته).
- **الفصل الخامس: مواساة وتثبيت.**
- **ثم التعقيب الأخير والختام.**

أسأل الله سبحانه التوفيق والسداد، وأن ينوِّر قلوبنا بنور التنزيل الحكيم، وأن يجنِّبنا الخطأ والزلل.

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.





تمهيد

موضوع السورة

إنَّ أي متدبر لآيات سورة النحل، يرى أنَّها تدور في فَلَك شكر الله تعالى، وارتباطه بتوحيده سبحانه وطاعته، والانقياد لدينه وشرعه.

وقد أبرزت الآيات فضل الله تعالى على الإنسان من خلال عرضها لبعض نعمه سبحانه على الإنسان في ثلاث مجموعات من النعم المتجانسة أو المتصفة ببعض الصفات المشتركة فيما بينها.

كما أبرزت الآيات مواقف أكثر الناس من ربهم سبحانه وما تفضَّل به عليهم من خلال إعراضهم عن دعوات الأنبياء والمرسلين، وإصرارهم على الكفر والشرك والفجور.

فللشكر ارتباطٌ وثيقٌ بالتوحيد والاستسلام، والانقياد لرسالة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، كما أنَّ الجحود والكفران مرتبطان بالكفر والشرك والفجور.

وتركيزُ آيات سورة النحل على هذه المعاني، جاء بمثابة تحليل لنفسية الإنسان، وتعرية لحقائق النفس البشرية، وما انطوت عليه في دخيلتها.

وقد ذكر الله تعالى في **المجموعة الأولى من النعم** نعمه سبحانه في خلق الإنسان وإيجاده، ونعمه في تنظيم بيئة حياته، وجعلها صالحةً لحياته ومعيشته.

وذكر سبحانه في **المجموعة الثانية بعض النعم** الضرورية لاستمرار حياة الإنسان، وفي الوقت نفسه تمتاز هذه النعم بكونها أدلة على كمال علمه سبحانه وقدرته وتمام مشيئته.

وذكر سبحانه في **المجموعة الثالثة النعمَ** التي يحتاجُ إليها الإنسان في حمايته ووقايته.

وجاء **تعقيب آيات السورة** بعد عرضها لكلٍّ مجموعة يدور حول بيان حقيقة الشكر، وارتباطه بعقيدة التوحيد والتسليم، والانقياد لدين الله مع ضرب الأمثال العقلية والتاريخية لتقريب هذه الحقائق، وتذكير الناس بها، ممَّا سيراه القارئ للكتاب.

كما اهتمَّت بعض آيات السورة بتثبيت المؤمنين الشاكرين على طريق الشكر، فلا يكونُ منهم انشغال بالنعمة عن المنعم، أو تعلُّق بالنعم بحيث يكفرون بالمنعم، ويجحدون فضله عليهم.

وكل ذلك بنسق بين الآيات، محكم التسلسل، قوي الاتساق، يدلُّ على أنَّ التنزيل الحكيم هو كلام ربِّ العالمين، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خَلْفه.



الفَصْلُ الأَوَّلُ

المَجْمُوعَةُ الأُوْلَى مِنَ النِّعَمِ

نِعَمُ اللَّهِ فِي خَلْقِ الإنْسَانِ وَتَنْظِيمِ حَيَاتِهِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١) يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ (٢) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٤) وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٧) وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨) وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ ۚ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (٩) هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١) وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٣) وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤) وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥) وَعَلَامَاتٍ ۚ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦) أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٧) وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨) وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (١٩)﴾.

- **حقيقة هامَّة:**

بدأت السورة بتقرير حقيقة هامَّة من خلال جملة فعلية إخبارية بصيغة الماضي، هذه الحقيقة هي أنَّ كلَّ ما قدَّر الله سبحانه من مكوَّنات وحادثات هي كائنة وحادثة لا محالة في وقتها المقدَّر لها، فما سبق به علمه سبحانه، وتعلَّقت به إرادته جلَّ وعلا، لا بدَّ أن يقع ويبرز إلى الوجود في الوقت المقدَّر لوجوده.

والحوادث والمخلوقات التي قدَّر سبحانه تكوينها ووجودها، ولمَّا يأتِ وقتها المقدَّر لها بعدُ، هي في حكم الحادثة الموجودة.

قرّر الله سبحانه هذه الحقيقة ردّاً على المشركين، الذين كانوا يستعجلون عذاب الله تعالى وحسابه يوم القيامة استبعاداً واستهزاءً، فقال سبحانه لهم:

﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١﴾.

﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ **والاستعجال**: طلب مجيء الشيء قبل وقته، والله سبحانه لا يعجل لعجلة عباده، فكلُّ شيء عنده بمقدار وأجل مسمَّى، سواءٌ في هذا النعم والنقم، فلكلِّ نعمة قَدْرُها ووقتها، وكذلك لكلِّ نقمة قَدْرُها ووقتُها، وإرادته جلَّ وعلا نافذة في كل المكوَّنات، ولا مصادفة في الخلق والتقدير، وكل شيء بتقدير العليم الخبير.

﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ﴾ تنزَّه وارتفع عن صفات العجز والتقصير، فله سبحانه الكمال المطلق، تقدَّست ذاته، وتسامت صفاته:

﴿عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾.

- **حياة القلوب ونور العقول:**

كان الأولى بالمشركين أن ينظروا في نعمه التي لا تُحصى، والتي تفضَّل سبحانه بها عليهم، بدل أن يستعجلوا عذابه وحسابه، وأعظم هذه النعم إنزال الوحي وإرسال الرسل:

﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝٢﴾.

﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ﴾ أي: بالوحي، فبه تحيا القلوب من موت الكفر والجهل، قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَـٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وقال ﷻ أيضاً: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤].

ولا حياة للقلوب والعقول من دون وحي الله تعالى، ففي ظلاله يتذوَّق الإنسان طعم الحياة الكريمة السعيدة، ويدرك حكمة وجوده، ولا معنى لحياة الإنسان من دونه، ولهذا سمَّاه الله تعالى روحاً، لأنه يعطي للمخلوقات كلِّها معنًى لوجودها، ويظهر حكمة خَلقِها وإبداعها، ومهما أوتي الإنسان من النعم فكمالها وتمامها بنعمة الوحي، الذي يصله بالله تعالى، ويوجهه إلى طاعته وعبادته.

وقد سمَّى الله تعالى الوحي روحاً في عدَّة آيات:

منها قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ﴾ [الشورى: ٥٢].

ومنها أيضاً: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَـٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ [غافر: ١٥].

والخلق محتاجون إلى وحي الله تعالى كحاجة أجسادهم إلى أرواحهم، فهو أعظم نعمه سبحانه عليهم، ولهذا ذكره سبحانه في صدر سورة النحل ـ وهي سورة النعم ـ تنويهاً بضرورته، وشدَّة حاجة الناس إليه.

﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ أي: ينزل الله تعالى الوحي بأمره ومشيئته.

﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ من الذين اصطفاهم سبحانه للنبوَّة والرسالة، فنزول الوحي منوط بمشيئته سبحانه وحده، وكذلك اصطفاء المنزل عليهم يكون بمشيئته تعالى وحده.

ولمَّا اعترض مشركو قريش على إنزال الوحي على النبيِّ ﷺ: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ

هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] ردَّ سبحانه على اعتراضهم فقال: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾؟ [الزخرف: ٣٢].

وردَّ عليهم أيضاً في **سورة الأنعام** فقال: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾.

فالنبوَّة اصطفاء وعطاء من الله تعالى، لا تُستجلَبُ ولا تُكتَسَبُ، بل هي محض فضل منه سبحانه، يختار لها من يشاء بحكمته وعلمه كما في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٧٥].

والأمر الأساس الذي يتضمَّنه الوحي **توحيد الله تعالى**:

﴿أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ أي: أعلِموا الناس أنَّه لا معبود بحقٍّ إلا الله تعالى، مع تخويفهم وتحذيرهم من عبادة غيره.

﴿فَٱتَّقُونِ﴾ أي: فاتقوا الله يا أيها المستعجلون لعذابه، فإن عذابه قريب، وبطشه شديد.

- **الخلق والحق:**

بالوحي يُظْهِر سبحانه حكمتَهُ في خلقه، فما خلقه سبحانه عبثاً ولا باطلاً، بل خَلَقَه جلَّ وعلا بالحق:

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾﴾.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ لا بالباطل، فالحقُّ أساس الخلق، وما أنزل الله الوحي إلا لإحقاق الحق، كما قال تعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الإسراء: ١٠٥].

وتجريد الخلق عن الحقِّ اتهام لله جلَّ وعلا في حكمته ورحمته، وهو ما نفاه سبحانه عن نفسه في آيات كثيرة؛ منها قوله سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

ومنها أيضاً: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء].

ومنها أيضاً: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان].

ونفاه سبحانه هنا أيضاً، وعدَّه شركاً يتنزَّه عنه فقال:

﴿تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

وانتقلت الآياتُ من الحديث عن الخلق عموماً إلى خلق الإنسان على وجه الخصوص، وبيان ما في خلقه من قدرة عظيمة وحكمة باهرة:

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾﴾.

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي: من ماء قليل، وهي مبدأ وجود الإنسان، تتكون من مني الرجل والمرأة، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ [القيامة: ٣٧].

وقال جَلَّ جَلَالُهُ أيضاً: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢].

والنطفة الأمشاج: هي البويضة الملقحة وما يحيط بها من سوائل.

﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ أي: فإذا هو بعد هذه البداية الضعيفة الحقيرة، يخاصم ربه وينكر فضله عليه، ويجحد نعمته.

وكلمة ﴿إِذَا﴾ الفجائية تدلُّ على أنَّ المتوقع من الإنسان الذي خلقه الله تعالى من النطفة الضعيفة القليلة الحقيرة، أن يقرَّ بفضل الله تعالى، وينقاد لأمره، ويشكر نعمته، لا أن يكفر ويجحد، ويخاصم في قدرة الله تعالى ويجادل، ففي الآية وصف للإنسان بالوقاحة والتمادي في كفران النعمة[١].

ومراد الآية الإنسان الكافر الجاحد، لا الإنسان المؤمن المخبت الخاشع،

---

(١) تفسير النسفي: ٣/ ٥٨٣.

وقد لقي النبيُّ ﷺ من أمثال هذا الإنسان الجاحد عناءً وأذى، حتى جاء أحدهم بعظم قد رمَّ وبلي، وفتته أمام النبي ﷺ، وقال: يا محمد، أتزعم أن الله يبعث هذا؟! فأنزل الله ردّاً عليه قوله الكريم في **سورة يسٓ**: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾[1].

- **الأنعام منافع وجمال:**

وبعد وصف الإنسان بالكفران والجحود، تابعت الآيات تذكيره ببعض نعم الله تعالى عليه:

﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾﴾.

﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ﴾ من أجلكم ولمنافعكم، وهي: الإبل والبقر والغنم، قال تعالى في **سورة يسٓ**: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ فللأنعام صلة وثيقة بمعيشة الإنسان ومصالحه.

﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ وهو ما يُدفأ به للوقاية من البرد من لباس وفرش وأغطية وغير ذلك، كما سيأتي معنا في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ [النحل: ٨٠].

﴿وَمَنَٰفِعُ﴾ أي: ولكم في الأنعام منافع كثيرة وكبيرة ستفصِّلها الآيات.

﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي: ومن لحوم الأنعام تأكلون. أفرد منفعة الأكل بالذكر لأهميتها وكثرة اعتماد الناس عليها.

وتقديم الجار والمجرور أفاد الحصر والتخصيص، إذ الأكل من لحوم الأنعام هو المعتاد المعتمد عليه عند أكثر الناس، وقد يأكل الناس أحياناً من

---

(١) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ٣/ ١٧١.

لحوم الحيوانات الأخرى كالطيور والأسماك إلا أنَّ اعتمادهم في الدرجة الأولى على لحوم الأنعام.

وثمة وجه آخر لانتفاع الناس من الأنعام ذكره سبحانه بقوله:

﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾﴾.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾ أي: تتذوَّقون برؤية الأنعام الجَمال، فترتاح نفوسكم، وتنشرح صدوركم.

والجمال: ما يُتجمَّل به ويُتزيَّن، أو هو الحسن، ويكون في الصورة وتركيب الخلقة، ويكون في الأخلاق الباطنة والأفعال أيضاً[1]، وجمال الأنعام في صورتها وتكوينها.

﴿حِينَ تُرِيحُونَ﴾ أي: عندما تردُّونها من مراعيها إلى مراحها في آخر النهار، فإنَّها تقبل ملأى البطون، حافلة الضروع، وللإبل رغاء، وللشاة ثغاء، يتردَّد بين الحقول والبيوت وهي تنادي صغارها.

﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ أي: وحين تخرجونها في الصباح إلى المراعي.

وتقديم الإراحة لأنَّ الجَمال فيها أظهر، إذ تقبل حينئذ تتهادى في مشيها وقد امتلأت بطونها وضروعها، تحمل الخير لأصحابها، فيكون سرورهم برؤيتها في ذلك الوقت أكثر وأكمل.

- **رواحل ومراكب:**

ثم أضافت الآيات بيان منفعة أخرى للإبل على وجه الخصوص، وهي منفعة الحمل والنقل، فلقد كان الناس يعتمدون عليها في أسفارهم، تحملهم مع أمتعتهم وبضائعهم:

---

(١) تفسير القرطبي: ١٠/ ٧٠.

﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ۝٧﴾.

﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ﴾ أي: وتحمل الإبل الأحمال الثقيلة التي يثقل عليكم حملها ونقلها، فالإبل هي المرادة بالذكر هنا، فهي التي تحمل الأثقال في الأسفار، وينبغي على الإنسان أن لا يحمِّلها فوق طاقتها، وأن يرفق بها في السير، فيريحها في أثنائه، ويهتم بإطعامها وسقيها، فالإسلام دين الإحسان والرحمة.

وقد جاء في الحديث الشريف: عن **أبي هريرة** رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا سافرتم في الخِصْب فأعطوا الإبلَ حظَّها من الأرض، وإذا سافرتم في السَّنَةِ** (القحط) **فأسرعوا عليها السيرَ**[1]**، وإذا عرَّستُم** (نزلتم) **بالليلِ فاجتنبوا الطريقَ، فإنَّها مأوى الهوام بالليل**» [رواه مسلم (١٩٢٦)].

﴿إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ﴾ أي: تحملكم وتحمل أثقالكم إلى بلد لا تصلون إليه من دونها إلا بجهد ومشقة وعناء.

﴿إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ بخلق الأنعام لكم وتسخيرها وتيسير الانتفاع بها.

وانتقلت الآيات من الإبل الرواحل إلى الدوابِّ المراكب، وهي تذكِّر الناس ببعض نعمه سبحانه عليهم:

﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٨﴾.

﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا﴾ أي: وخلق الخيل والبغال والحمير لأجل أن تركبوها.

﴿وَزِينَةٗۚ﴾ أي: وجعلها زينة.

وأشار تغيير نظم اللفظ في الآية إلى أن الزينة بفعل الخالق جلَّ وعلا، بينما

---

(١) كي تصلوا إلى المقصد وفيها بقية من قوتها.

الركوب بفعل المخلوق، أو لأن الركوب منفعة أساسية مقصودة، بينما التزيُّن منفعة كمالية غير مقصودة[١].

وتدلُّ الآية على إباحة اتخاذ هذه الحيوانات للزينة والجَمال، مع أنه من الكماليات في الحياة، وليس من الضروريات والحاجيات، فالتزيُّن والتجمُّل ضمن الحدود المشروعة أمر جائز مباح، قال تعالى في **سورة الأعراف**: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

● **إعجاز ومعجزة:**

﴿وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ من وسائل الحمل والنقل والركوب.

فقدرته سبحانه طليقةٌ، تتسع لما كان ولما يمكنُ أن يكون، والآية مفتوحةٌ، تنسحب على كلِّ الوسائل التي توصَّل الإنسان إلى صنعها بهداية الله تعالى وتوفيقه، كالسيارات والطائرات والقطارات وغيرها من المراكب، التي يمكن أن يتمكَّن الإنسان من صنعها في المستقبل؛ فالله سبحانه هو خالقها وحده، لأنه هو الذي أبدع النواميس التي تسير هذه المركبات بمقتضاها، وكذلك هو الذي خلق المواد التي صُنعت منها، وهو أيضاً الذي خلق الطاقة التي تحركها، وهو سبحانه أيضاً الذي هدى الإنسان إلى صُنعها وتركيبها على وفق النواميس التي أبدعها جلَّ وعلا، وبثها في المكونات.

والإشارة إلى هذه الوسائل بصيغة الإجمال والإبهام دون التصريح بها تدلُّ على حكمته سبحانه ورحمته بعباده، إذ لم يكن شيء من هذه الوسائل في عصر التنزيل، وما كان يخطر على قلب أحد وجود مثلها، والله سبحانه بحكمته ورحمته يخاطب الناس على قدر عقولهم وتصوراتهم، حتى لا يؤثِّمهم ويفتنهم، فلا يكون منهم اعتراض على كلامه جلَّ وعلا ولا تكذيب.

(١) انظر: تفسير البيضاوي: ٣/ ٥٨٦.

ورضي الله عن **عبد الله بن مسعود** عندما قال: ما أنتَ محدِّثاً قوماً حديثاً لا تبلغُه عقولُهم، إلا كان لبعضِهم فتنةً. [رواه مسلم كما في الفتح (١/ ٢٢٥)].

وبوَّب الإمام البخاري في «**صحيحه**» [٤٩] في كتاب العلم فقال: باب من خصَّ بالعلم قوماً دون قوم كراهية ألا يفهموا. ثم روى قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: حَدِّثوا الناسَ بما يعرفون، أتحبون أن يكذَّبَ اللهُ ورسولُه؟!.

ومن وجوه الإعجاز في القرآن الكريم أنه خاطب الناس في عصر التنزيل على قدر فهم عقولهم وتصوراتهم، وفي الوقت نفسه فإن كلماته تتسع لمعانٍ كثيرة متجدِّدة لا يمكن حصرها، بحيث تنسحب على جميع ما كان ويكون من الحقائق فهو جديد دائماً، لا تنتهي معانيه، ولا يخلق على كثرة الرد.

قال صاحب «**أضواء البيان**»: «ذكر جلَّ وعلا في هذه الآية الكريمة أنه يخلق ما لا يعلم المخاطبون وقت نزولها، وأبهم ذلك الذي يخلقه لتعبيره عنه بالموصول، ولم يصرِّح هنا بشيء منه، ولكنَّ قرينة ذلك في معرض الامتنان بالمركوبات، تدلُّ على أن منه ما هو من المركوبات، وقد شوهد ذلك في إنعام الله على عباده بمركوبات لم تكن معلومة وقت نزول الآية كالطائرات والقطارات والسيارات.

ويؤيِّد ذلك إشارة النبي ﷺ في الحديث الصحيح: عن **أبي هريرة** رضي الله عنه: أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**والله لينزلَنَّ ابنُ مريمَ حكَماً عادلاً، فليكسرَنَّ الصليبَ، وليقتُلَنَّ الخنزيرَ، وليضعَنَّ الجزية، ولتُتْرَكَنَّ القلاصَ، فلا يُسعى عليها، ولتذهبَنَّ الشحناءُ والتباغضُ والتحاسد، وليدعوَنَّ إلى المالِ فلا يقبله أحد**» [رواه مسلم (١٥٥)].

ومحل الشاهد من هذا الحديث الصحيح قوله عليه الصلاة والسلام: «**ولتتركن القلاص، فلا يسعى عليها**» فإنه قَسَمٌ من النبي ﷺ أنَّ الإبل ستترك، فلا يسعى عليها، وهذا مُشاهَد الآن للاستغناء عن ركوبها بالمراكب المذكورة»[1].

---

(١) أضواء البيان: ٣/ ٢١٨ ـ ٢١٩.

وبهذا ظهر إعجاز في كتاب الله، ومعجزة لرسول الله ﷺ، وظهر أيضاً أنه لا جمود ولا تحجُّر في تفكير المسلم وعقيدته.

قال سيد قطب رحمه الله: «إن الإسلام عقيدة مفتوحة مرنة قابلة لاستقبال طاقات الحياة كلِّها، ومن ثَمَّ يُهيِّئ القرآن الأذهان والقلوب لاستقبال كل ما تتمخض عنه القدرة، ويتمخض عنه العلم، ويتمخض عنه المستقبل، استقباله بالوجدان الديني المتفتح المستعد لتلقي كل جديد في عجائب الخلق والعلم والحياة»[١].

• السبيل القاصد والسُّبُل الجائرة:

إن خلق الأنعام والدواب، وتسخيرها للإنسان، من نعم الله العظيمة على الإنسان، وأعظم منها أنه سبحانه أنزل الكتب، وبعث الرسل، لكي يبيِّنوا للناس الطريق المستقيم، والمنهج القويم الذي يسعدهم في الدنيا والآخرة، ويوصلهم إلى فضل الله ورحمته، ولهذا قال سبحانه بعد ذلك:

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩﴾.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: إن بيان الطريق الموصل إلى الحقِّ عليه سبحانه، تفضُّلاً منه على عباده، ورحمةً بهم، فهو كقوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ [الليل: ١٢]، فعلى الله سبحانه ـ كما قال الزجَّاج ـ تبيين الطريق الواضح المستقيم، ودعوة الناس إليه بالحجج والبراهين[٢].

ولهذا أنزل الله سبحانه الملائكة بالوحي على الأنبياء والمرسلين كما مرَّ معنا في قوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ [النحل: ٢].

﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾ أي: ومن السبل مائلٌ عن الاستقامة، لا يوصل إلى المقصد، مائل عن القصد وهو الوصول إلى الله تعالى والفوز برضوانه.

---

(١) في ظلال القرآن: ٤/ ٢١٦١.

(٢) انظر: تفسير النسفي: ٣/ ٥٨٧.

وتغيير الأسلوب في الآية يدلُّ على أنه ليس بحقٍّ على الله تعالى أن يبيِّن طرق الضلالة[١].

فقد تكفَّل سبحانه بفضله ورحمته ببيان الطريق القاصد المستقيم فقط، إذ كل طريق يخالفه طريق جائر، فلا حاجة إلى بيانها وتفصيلها، وهي كثيرة ومتشعِّبة، فمعرفة طريق الحق تكفي وتُغني، وقد حذَّر سبحانه من الانحراف عن الطريق القاصد المستقيم، فأيُّ انحرافٍ عنه يوقع في الطرق الجائرة الضالة، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

- **من بلاغات القرآن الكريم:**

وقوله سبحانه: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ من بلاغات القرآن الكريم، ففي كلمة ﴿قَصْدُ﴾ كثير من المعاني، هي في الحقيقة ميزات وخصائص للشريعة الإسلامية؛ يقال: قصد الطريق قصداً: استقام، وقصد إليه: توجَّه إليه عامداً، وقصد في الأمر: توسط لم يُفْرِط ولم يُفَرِّط، وقصد في الحكم: عدل، وقصد في النفقة: لم يسرف ولم يقتر، وقصد في مشيه: اعتدل فيه. والقاصد في الأسفار: السهل، يقال: بيننا وبين الماء ليلة قاصدة: هيِّنة السير، لا تعب فيها ولا بطء، والقاصد من السهام: المستوي نحو الرمية، يقال: قصد السهم: أصاب، والقصد: الرشد، يُقال: هو على القصد أو على قصد السبيل: إذا كان راشداً[٢].

فالاستقامة والرشد، والتوسط والاعتدال، والسهولة واليسر كلُّها من معاني القصد، وهي من خصائص وميزات الشريعة الإسلامية، فالحمد لله الذي جعلنا على السبيل القاصد، وأسأله تعالى الثبات عليه.

﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ هداية التوفيق إلى الإيمان، والسير على السبيل القاصد.

---

(١) تفسير البيضاوي: ٣/٥٨٦.

(٢) انظر: المعجم الوسيط: ٢/٧٣٨.

ولكنه سبحانه بحكمته ومشيئته قدَّر أن يكون للإنسان اختيار وكسب وإرادة، فبيَّن له السبيل القاصد، وحذَّره من السبل المخالفة، لأنَّها سبلٌ جائرةٌ، وأنزل الكتب، وبعث الرسل، ومكَّنه سبحانه أيضاً من التمييز والاختيار، بما وهب له من وسائل التمكين، وهي العقل والسمع والبصر، وجعله مسؤولاً عن كسبه واختياره.

- **نعم من السماء والأرض:**

واستمرت الآيات في تذكير الإنسان بنعم الله تعالى عليه، فشرعت في النعم التي جعلها سبحانه في البيئة المحيطة بالإنسان، إذ جعلها سبحانه صالحة لعيش الإنسان، مسخرة لمنافعه ومصالحه، قال تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أي: الله وحده الذي ينزل الماء من السحاب المرتفع في جو السماء.

﴿لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ﴾ لكم أيها الناس من هذا الماء شرابٌ تشربونه.

ومن المعلوم أن مصادر المياه العذبة من ينابيع وآبار وأنهار وبحيرات تغذيها مياه الأمطار، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ [الحجر: ٢٢].

وقوله جَلَّ جَلَالُهُ أيضاً: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٢١].

فماء الأمطار ضروريٌّ لسُقيا الناس، وضروري أيضاً لطعامهم، ولهذا قال تعالى بعد ذلك:

﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ أي: ومن ماء المطر الذي أنزله سبحانه النبات الذي ترعون فيه أنعامكم ودوابكم. وكذلك:

﴿يُنبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾.

﴿يُنبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي: يخرج الله تعالى بماء المطر لكم أيها الناس الزرع الذي يعطيكم الحبوب المختلفة، كالحنطة والذرة والشعير، وينبت به أيضاً الزيتون الذي فيه غذاء لكم ودواء، والنخيل التي جعل الله في ثمارها الغذاء، والفاكهة والأعناب التي تتغذون فيها وتتفكّهون، وغيرها من أصناف الفاكهة والثمار الكثيرة.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الإنزال من السماء والإنبات من الأرض.

﴿لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: لدليلاً على وجود الله تعالى وَجُودِه وفضله وإنعامه لقوم يتفكّرون فيما خلق الله تعالى لهم.

• **تسخير الليل والنهار:**

وانتقلت الآيات من عالم النبات إلى عالم الأفلاك:

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ﴾ أيها الناس.

﴿ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ الليل لسكونكم وراحتكم، والنهار لانتشاركم ونشاطكم ومعاشكم، فبيئة حياتكم منظَّمة تنظيماً دقيقاً محكماً متكاملاً.

والإنسان يحتاج إلى ظُلمة الليل، كما يحتاج إلى ضوء النهار، وقد كشف العلم الحديث أنَّ لتعاقب الليل والنهار أثراً كبيراً حاسماً في المحافظة على التوازن في بيئة الحياة واستمرارها، وأن له أيضاً ارتباطاً وثيقاً بنمو النبات، وفي المحافظة على النسبة المتوازنة في العناصر المكوِّنة للهواء.

كما أنَّ تعاقب الليل والنهار يخضع لنظام علوي دقيق، أبدعه الخالق العليم

الحكيم لكي يتخذه الناس أساساً لضبط حساباتهم ومواعيدهم في شؤون حياتهم، كما في قوله سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء: ١٢].

فالليل والنهار خاضعان لنظام دقيق محكم ثابت، لا يتغير إلا بمشيئة الله تعالى وحده وقدرته، ويبقى الناس مهما أوتوا من قوة وعلم، عاجزين عن أيِّ خرق لهذا النظام أو إحداث أدنى خلل فيه.

• **تسخير الشمس والقمر والنجوم:**

وكما سخَّر الله تعالى الليل والنهار للإنسان، سخر له أيضاً الشمس والقمر والنجوم، وقال في سياق تذكير الناس ببعض نعمه عليهم:

﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ أي: سخر الشمس والقمر لمنافعكم، فجعل الشمس مصدراً أساسيّاً للضوء والحرارة، وجعل القمر مصدراً للنور.

وفصَّل ذلك سبحانه في **سورة يونس** فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾.

وجعل سبحانه الشمس بعيدة عن الأرض بُعداً دقيقاً محكماً، بحيث لا يصل إلى الأرض من ضوئها وحرارتها إلا مقدار ما يحتاجه الناس في حياتهم ومعاشهم، وأي زيادة أو نقص في هذا المقدار الموزون يجعل بيئة الحياة في الأرض غير صالحة لاستمرار الحياة فيها، فكلُّ شيء أبدعه الله تعالى موزون بميزان العلم والحكمة، كما قال تعالى في **سورة الحجر**: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾[1].

---

(١) انظر في تفصيل الموضوع: تفسير سورة الحجر، المسمى في تفسيرنا الموضوعي هذا: (الأجل والأمل في سورة الحجر).

﴿وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ﴾ أي: والنجوم بأجرامها الكبيرة وأعدادها الكثيرة، مذللات مقهورات تحت قهره جلَّ وعلا وإرادته.

والعدول عن الجملة الفعلية إلى الجملة الاسمية يفيدُ الدوام والاستمرار، فالنجوم خاضعة دائماً لإرادة الله تعالى وقدرته، ولا تأثير لها في غيرها من المخلوقات والحوادث إلا بمشيئة الله وقدرته، وفي هذا ردٌّ على كلِّ من يعتقد أن للنجوم تأثيراً في الحوادث الأرضية، فهي مسخرةٌ لفائدة الناس، وفي قراءة: **(والنجومَ مسخراتٍ بأمره)** أي: وجعل النجوم مسخرات من أجلكم ولمنافعكم.

وسيأتي معنا في قوله تعالى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦]، بعض أوجه انتفاع الناس بالنجوم.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَعۡقِلُونَ﴾ أي: يستعملون عقولهم استعمالاً صحيحاً.

ويلاحظ أنه سبحانه ختم الآية السابقة بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوۡمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١١]، أي: يتدبرون ويتأملون في هذه الظواهر الكونية المذكورة في الآية، وهي فعلاً تحتاج إلى شيء من التفكر والتدبر لكي ينكشف للناس ارتباط إنزال المطر بإخراج النباتات المتنوعة.

بينما ختم سبحانه هذه الآية بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَعۡقِلُونَ﴾ لأنَّ الظواهر الكونية في هذه الآيات دلائل القدرة الباهرة فيها أكثر وضوحاً وبروزاً، فلا حاجة للتدبر والتفكر في إدراكها، يحتاج الإنسان فقط إلى أن يستعمل عقله بموضوعية وتجرُّد ليدرك ما فيها من أدلة واضحة تدل على عظمة الخالق وقدرته وحكمته.

- **معارض للفن والجمال في الأرض:**

وعادت الآيات إلى الأرض مرةً ثانيةً لتذكِّر الإنسان بلون آخر من النعم، سبق للآيات أن ذكرت مثله في الأنعام: ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ﴾ [النحل: ٦].

فالجمال ظاهرةٌ مثبوتةٌ في كلِّ المخلوقات، تدل على وجود الله سبحانه وقدرته وحكمته، كما تدل على فضله ورحمته:

﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: واذكروا ما خلق الله لكم في الأرض من الأجناس والأنواع.

﴿مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ﴾ وهي مع كثرتها مختلفة في الألوان والأشكال والأحجام، تظهر لكم في غاية الحُسن والجمال، قُدِّمت لكم في إطار جميل ولوحات منسقة لكي تنتفعوا بها، وتتذوَّقوا جمالها وحُسنها، فتنشرح صدوركم، ويزداد سروركم، فما أعظم فضل الله تعالى عليكم! جعل الله في الكون المحيط بكم معارض كثيرة للفن والجمال، فيها لوحات فنية في غاية الحسن والتنسيق، عرضت الآيات الكريمة بعضها في عدة آيات؛ منها: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

ومنها أيضاً: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر].

والجمال يتذوَّقه الإنسان بفطرته، فلا يحتاج معه إلى استعمال فكر وعقل ولهذا ختم الله تعالى الآية بقوله:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الجمال والحسن والتناسق والانسجام بين الألوان والأشكال.

﴿لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ يتعظون ويعتبرون.

- **تسخير البحر:**

وفي البحر أيضاً منافع كبيرةٌ ومعارض فنية جميلة رائعة:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَهُوَ﴾ وحده سبحانه.

﴿ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ﴾ هذا المخلوق الكبير العظيم الذي يغطي أكثر الأرض.

﴿لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ من أسماكه الكثيرة المتنوعة، وصفه بالطراوة لسهولة أكله ولطافته.

وفيه إشارة إلى المبادرة إلى أكله فور استخراجه من البحر، فمن المعلوم أنَّ السمك الطازج ألذ مذاقاً ونكهة من غير الطازج، ولهذا تُقام أفخم مطاعم السمك بجانب أماكن صيده ترغيباً للناس بلحم السمك الطازج الطري.

والبحر مصدر كبير من مصادر طعام الإنسان، زادت أهميته في العصر الحاضر بسبب تطور وسائل الصيد وتقدمها، وبسبب شَرَه الناس وشدة طمعهم وجشعهم، حتى أصبحوا يتنافسون على مصايد السمك في لجج البحار، ويحشدون الجيوش، وتشتعل الحروب.

وقد ذكر سبحانه البحر في عدة آيات في معرض الامتنان على الناس بتسخيره لهم، أو في سياق الأدلة الدالة على قدرته وعظمته سبحانه؛ كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الجاثية: ١٢].

وقوله ﷻ أيضاً: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [فاطر: ١٢].

ومن منافع البحر أيضاً: الدرر التي يستخرجونها من أعماقه لتكون حلية وزينة، ولهذا قال تعالى:

﴿وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ كاللؤلؤ والمرجان المذكورين في قوله سبحانه: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ۝٢٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢١ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن].

وإلى جانب كل هذه المنافع جمال البحر الآسر، وحسنه الباهر، ففيه لوحاتٌ جماليةٌ رائعةٌ تأسر العين، وتبهر القلب، ويزداد البحر جمالاً وحُسناً بالسفن وهي تتهادى بين أمواجه، تشق بصدورها صفحة الماء الممتدة على مدى امتداد النظر.

﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ دونك يا أيها الإنسان هذه اللوحة الفنية الرائعة، لترى فيها السفن بأحجامها المختلفة جارية في البحر، وقد خلَّفت وراءها على صفحته الزرقاء خطوطاً طويلة للمياه البيضاء المُزْبِدة الهائجة.

ومن وجوه انتفاع الناس في البحر: الانتقال والسفر بواسطته بين البلاد البعيدة، وبين القارات المنفصلة عن بعضها بالبحار الكبيرة المحيطة، وقد يسَّر الله تعالى للناس صنع السفن والمراكب التي يسافرون عليها في البحار للتجارة والكسب والصيد وغيرها من المقاصد:

﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: سخر الله لكم ركوب البحر لكي تطلبوا الرزق من فضله تعالى وإحسانه.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله تعالى على هذه النعم الكبيرة.

• **الجبال أوتاد الأرض:**

وانتقلت الآيات الكريمة من أعماق البحار وما فيها إلى ذُرى الجبال وقممها وجذورها، فبيَّنت فضل الله تعالى على الإنسان بتثبيت الأرض بالجبال، فلا تتزلزل ولا تضطرب، لكي يستطيعَ الإنسان أن يعيش عليها بأمان واطمئنان:

﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ﴾ أي: ألقى سبحانه في الأرض جبالاً ثقيلة ثابتة.

﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ لئلا تضطرب بكم.

ومن المعلوم أن باطن الأرض الذي تستند عليه قشرتها سائل ملتهب، والحمم التي تقذفها البراكين يؤكد ذلك، وهذا يجعل سطح الأرض مضطرباً منزلقاً غير مستقر، وقد ذكر المفسرون أنه سبحانه لمَّا خلق الأرض جعلت تمور، فقالت الملائكة: ما هي بمقر أحد على ظهرها، فأصبحت وقد أرسيت بالجبال[1].

(١) انظر: تفسير البيضاوي وتفسير الخازن وتفسير النسفي: ٣/ ٥٩٠؛ وقد ذكره ابن كثير في تفسيره وعزاه إلى الحسن البصري. مختصر تفسير ابن كثير: ٢/ ٣٢٦.

قال تعالى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ [النازعات: ٣٢].

فهي بالنسبة لسطح الأرض كالأوتاد، وهو ما صرَّح به تعالى في قوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ].

فللجبال دور كبير في تثبيت الأرض، حتى قال بعض المفسرين: «الجبال بالنسبة للأرض كالعظام للجسم، والأرض بلا جبالٍ كاللحم بلا عظام»[(١)].

وقد أثبت علماء طبقات الأرض أنَّ للجبال جذوراً ممتدة في داخل الأرض، والعجيب أن العلَّامة البيضاوي رحمه الله وهو من علماء القرن السابع الهجري المتوفى سنة (٦٨٥هـ)، أشار إلى هذه الحقيقة بقوله: «فلما خُلِقت الجبال على وجهها تفاوتت جوانبها وتوجهت الجبال بثقلها نحو المركز، فصارت كالأوتاد التي تمنعها عن الحركة»[(٢)].

وكلمة ﴿وَأَلْقَىٰ﴾ تدل على عظمته تعالى وقدرته، فجبال الأرض كلها بأثقالها وصخورها شيءٌ يلقى على الأرض إلقاءً، فما أعظم قدرته جلَّ وعلا!.

ثم ذكر سبحانه نعمته على الإنسان بالأنهار:

﴿وَأَنْهَٰرًا﴾ أي: وجعل في الأرض أنهاراً تحمل الماء العذب لسقياكم وسقيا أنعامكم ومزارعكم.

وللأنهار اتصال وثيق بالجبال، لأنها تستمدُّ ماءها من الجبال، إذ هي مخازن الماء بتقدير الله تعالى، وكثيراً ما تُذكر الأنهار والمياه العذبة مع الجبال، كما ذُكرت هنا، وفي قوله سبحانه أيضاً: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٧].

• علامات في النهار والليل:

ومن رحمته سبحانه بالناس أنه جعل بين الجبال فجاجاً وأودية لكي تكون

---

(١) تنوير الأذهان: ٢/ ٣٠٢.

(٢) تفسير البيضاوي: ٣/ ٥٩٠.

للناس بمثابة طرقات وممرات، فلا يضطرون إلى صعود الجبال الشاهقة في أسفارهم وتنقلاتهم، فقال جل وعلا:

﴿وَسُبُلًا﴾ أي: جعل بين الجبال طرقاً تسلكونها، فتصلون إلى مقاصدكم بسهولة ويُسر، كما في قوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ [طه: ٥٣].

إن هذه الوديان والفجاج بين الجبال مقدَّرة بتقدير الحكيم العليم، بحيث تكون طرقاً تصل بين المناطق التي قطعتها الجبال عن بعضها، يسلكها الناس إلى مقاصدهم فلا يضلون ولا يتيهون.

﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ بتلك السبل إلى مقاصدكم، وتصلون إلى بُغيتكم، فاعرفوا فضل الله تعالى عليكم، واشكروه على ما أعطاكم.

ومن فوائد الجبال والوديان والأنهار أيضاً أنَّها علامات ترشد الناس إلى الطرق والجهات، فهي معالم على الطرق ترشد المسافرين:

﴿وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ﴾ أي: وجعلها لكم علامات تهتدون بها في أسفاركم، وهي علامات النهار، وقد جعل سبحانه بفضله لليل علامات أيضاً، وهي النجوم، ولهذا قال سبحانه:

﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ فللنجوم مواقع خاصة في جهة السماء يهتدي بها المسافرون في البر والبحر، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٧].

ومواقع هذه النجوم ثابتة لا تتغير، مما يدلُّ على أن لها نظاماً يحكمها ويقهرها، أبدعه الخالق العليم الحكيم جل وعلا، ولهذا أقسم سبحانه بمواقع النجوم لما فيها من دلالة كبيرة على عظمته وقدرته: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة].

• **عجز وقصور:**

وتوجهت الآيات بعد هذا العرض لبعض نعم الله تعالى إلى المشركين بهذا السؤال، تنكر عليهم به شركهم وكفرهم وإعراضهم عن توحيده جلَّ وعلا وطاعته وعبادته:

﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿أَفَمَن يَخْلُقُ﴾ وهو الله سبحانه المتفرد وحده بالخلق والتدبير الذي قال: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢]، فلا خالق سواه جلَّ وعلا.

﴿كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ شيئاً بسبب عجزه وضعفه، فكيف تجعلونه في استحقاق الطاعة والعبادة كالخالق المنعم المتفضِّل عليكم بهذه النعم الجليلة الكثيرة؟!.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ هذه الحقيقة الظاهرة التي لا تحتاج إلى إعمال عقل وفكر؟!.

وتحولت الآيات من أسلوب الإنكار إلى أسلوب التقرير والتحدي، تبين فضل الله تعالى عليهم، وعجزهم عن إحصاء وحصر نعم الله تعالى عليهم:

﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾.

﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ أي: لا تضبطوا عددها لسببين: **أولهما**: كثرتها، **وثانيهما**: عجزكم وضعفكم وجهلكم.

فالأول نابعٌ من النعم نفسها، والثاني نابعٌ من المنعَم عليهم.

ولا يزال الناس منذ فجر وجودهم وحتى العصر الحاضر، عاجزين عن حصر نعم الله تعالى وإحصائها وضبطها بعدد معيَّنٍ، والعصر الحاضر عصر الحاسبات الآلية التي لها قدرة على استيعاب أعداد كبيرة من المعلومات، ومع ذلك فالناس فيه يجهلون أكثر مما يعلمون، وثمة مجالات كثيرة في أنفسهم وفي الكون المحيط بهم لم تبلغه معارفهم، ولم تتصوره عقولهم، لا يزالون كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

وثمة أيضاً نعم كثيرة خفية تتوقف عليها حياة الناس واستمرارها، لا يعلمها الناس، أشار إليها سبحانه بقوله الكريم: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ [لقمان: ٢٠].

وما دمتم عاجزين عن إحصاء نعم الله تعالى عليكم، فأنتم أعجز عن القيام بحقِّ شكرها، فحقه سبحانه عليكم كبير وعظيم، فاعبدوه وأطيعوه وأنتم مقرون بفضله جلَّ وعلا، ومعترفون بتقصيركم وعجزكم عن حق شكره سبحانه، واسألوه أن يتجاوز عن تقصيركم ويرحمكم:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

ولهذا كان النبي ﷺ يقوم من الليل في عبادته سبحانه ومناجاته حتى تتشقق قدماه الشريفتان، ويرى نفسه مقصِّراً في حق شكره سبحانه، ففي الحديث الشريف: عن عائشة رضي الله عنها: **أنَّ نبيَّ الله ﷺ كان يقوم من الليل حتى تتفطَّرَ قدماه،** فقالت عائشة: لِمَ تصنع هذا يا رسول الله، وقد غفر الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر؟ قال: «**أفلا أحبُّ أن أكونَ عبداً شكوراً**» [رواه البخاري (٤٨٣٧)].

قال العلماء: إنما ألزم الأنبياء أنفسهم بشدة الخوف، لعلمهم بعظيم نعمة الله تعالى عليهم، وأنه ابتدأهم بها قبل استحقاقها، فبذلوا مجهودهم في عبادته، ليؤدُّوا بعض شكره، مع أن حقوق الله أعظم من أن يقوم بها العباد[١].

ثم أكَّد سبحانه إحاطة علمه بكلِّ أحوال الناس ظاهرها وباطنها، فهم لا يعلمون نعمه سبحانه عليهم، وهو جل جلاله أحاط بكلِّ شيء علماً:

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾﴾.

لا تخفى عليه خافية.

❁ ❁ ❁

(١) فتح الباري: ٣/ ١٥.

الفصل الثاني

جُحُودٌ وعِنادٌ.. ومُفارَقاتٌ مُستَنكَرة

﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُخۡزِيهِمۡ وَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ إِنَّ ٱلۡخِزۡيَ ٱلۡيَوۡمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ فَأَلۡقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءِۭۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ۞وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرٗاۗ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ

ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟
كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّۖ وَمَا لَهُم
مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا
وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟
أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ وَٱلَّذِينَ
هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةًۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُۚ لَوْ كَانُوا۟
يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ
إِلَيْهِمْۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ
لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ
ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ
﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟
ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى
ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ۩
﴿٥٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِى
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا
مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾
لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْۚ فَتَمَتَّعُوا۟ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْۗ تَٱللَّهِ
لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ
أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمْسِكُهُۥ
عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِۖ وَلِلَّهِ
ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن
يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةًۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ
مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ

﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٦٤) وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٥)﴾.

• **حملة على الأصنام:**

وبعد أن عرضت الآيات هذه المجموعة من نعم الله تعالى على الإنسان، شرعت في بيان موقفه من خالقها جلَّ وعلا، فأكثر الناس وقفَ موقف الجحود والعناد، فبدل أن يتوجَّهوا إلى الله تعالى بالشكر والطاعة والعبادة، جحدوا فضله، وكفروا بنعمته، فعبدوا غيره، وأشركوا به سبحانه آلهةً مزعومةً ظاهرة العجز والضعف:

﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠)﴾.

﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ كالأصنام والأوثان.

﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا﴾ بسبب ضعفهم وعجزهم.

﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ محتاجون في وجودهم إلى خالقهم، الذي أخرجهم من العدم إلى الوجود.

فالإلٰه الذي يستحق العبادة يجب أن يكون واجب الوجود أزلاً وأبداً، موجوداً بنفسه، ولا يستمد وجوده من غيره.

وهذه الآلهة المزعومة أيضاً:

﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٢١)﴾.

﴿أَمْوَاتٌ﴾ جماداتٌ ميتة، لا حياة فيها ولا إحساس ولا شعور.

﴿غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ فلو كانوا آلهة على الحقيقة، لكانوا أحياء حياة حقيقية غير مكتسبة، وغير مسبوقة بالعدم، ولا يلحقها موتٌ وفناءٌ، فالإلٰه الحق حيٌّ

لا يموت، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [غافر: ٦٥].

وقال أيضاً: ﴿هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يونس: ٥٦].

فالحياة والموت بيده سبحانه، وبمشيئته وقدرته، كما أنه وحده المنعم المتفضِّل، فكيف تعرضون عن عبادته وطاعته، وتعبدون أصناماً لا تضرُّ ولا تنفع عاجزة جامدة؟! فما أشد عنادكم! وما أعظم جحودكم! وما أصدق قول الله تعالى فيكم: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

والإلٰه الحق ينبغي أن يكون عالماً بالغيوب، قادراً على بعث الناس يوم القيامة، بينما هذه الآلهة المزعومة جاهلة عاجزة.

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أي: لا يعلمون متى يبعثون.

- **حاملو الأوزار:**

وبعد هذه الحملة على الأصنام، أتبعتها الآيات بحملة أخرى على المشركين من عَبَدَتها، فوجهت الخطاب إليهم تقرِّعهم، وتوبِّخهم، وتقرر حقيقة التوحيد الكبرى التي يجب عليهم الإقرار بها والتسليم لها:

﴿إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ شئتم أم أبيتم، فهو خالقكم، ومالك أمركم، فهو وحده المستحق للعبادة والطاعة.

﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ وما فيها من بعث وحساب، وعقاب وثواب.

﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾ جاحدة للحق.

﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: وشأنهم التكبُّر والتجبُّر، وهو السبب الذي يجعلهم ينكرون الحق ويجحدونه.

ومثل هؤلاء لا يجدي معهم إلا أسلوب الوعيد والتهديد:

﴿لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿لَا جَرَمَ﴾ حقاً.

﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ فيجازيهم على عملهم وكفرهم أشد الجزاء.

﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ المتصفين بصفة التكبُّر، فضلاً عن الذين استكبروا عن عبادته وطاعته، وجحدوا فضله ونعمه وإحسانه.

ومن صور جحودهم وتكبُّرهم:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ الذي خلقكم وربَّاكم بفضله وإحسانه بما أنعم عليكم.

﴿قَالُوا﴾ بوقاحة وجرأة على الله تعالى وعلى كلامه المنزل على رسوله ﷺ:

﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: هو أكاذيب وأباطيل كان الأقدمون يرددونها.

وقد حكى الله تعالى عنهم مثل هذا القول في آيات كثيرة؛ منها: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥].

ومنها أيضاً: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣١].

بهذه الأكاذيب والافتراءات على كلام الله تعالى كانوا يصرفون الناس عن سماع القرآن الكريم، ويصدونهم عن دين الله تعالى، فعليهم يوم القيامة أن يتحمَّلوا مسؤولية ضلالهم وإضلالهم لغيرهم:

﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ فسيجازيهم سبحانه على جميع ذنوبهم،

فلا يغفر لهم شيئاً منها، بسبب رسوخهم بالكفر والضلال، ودعوتهم إليه، وصدهم عن الحق.

﴿وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ وسيجازيهم سبحانه أيضاً عن بعض ذنوب الذين اتبعوهم من عامة الكفار، الذين استغلُّوا جهلهم فأضلوهم، وحسَّنوا لهم السير في طرق الضلال، قال تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [العنكبوت: ١٣].

وهذا لا يعني إفلات عامة الكفار ونجاتهم من المسؤولية عن كفرهم وضلالهم، فهم مسؤولون، لأنه سبحانه زوَّدهم بأهلية التمييز والنظر، كما أنه سبحانه أرسل إليهم الرسل، وأنزل الكتب، ليبيِّن لهم طريق الحق القاصد الذي يجب عليهم أن يسيروا فيه، فلا عذر لهم، وجهلُهم لا يخلِّصهم من المسؤولية، ولا ينقص آثامهم، قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ دعا إلى هدًى، كان له من الأجرِ مثل أجور مَنْ تبعَه، لا ينقصُ ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالةٍ، كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقصُ ذلك من آثامهم شيئاً**» [رواه مسلم (٢٦٧٤)].

﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ أي: ألا بئس ما يحملون.

- **الواقعون في شرِّ أعمالهم:**

ثم دعتهم الآيات إلى الاعتبار بمصير الأمم الهالكة قبلهم:

﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: من قبل مشركي مكة المكرمة.

والمكر: الاحتيال والخديعة لإبطال دعوة الأنبياء والمرسلين، فأبطل سبحانه مكرهم، وأحبط كيدهم، وجعل تدميرهم في تدبيرهم.

﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ أي: نقض الله مكرهم من قواعده وأساسه الذي بُني عليه.

﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ فسقط عليهم السقف وهم تحته، فوقعوا في شرِّ أعمالهم، وردَّ الله تعالى مكرهم عليهم، كما قال: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣].

وقال أيضاً: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٠ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النمل].

ودلَّ قوله تعالى: ﴿مِن فَوْقِهِمْ﴾ على أنهم كانوا تحته، والعرب تقول: خرَّ علينا سقف، ووقع علينا حائط، إذا كان القائل يملكه وإن لم يكن وقع عليه(١).

﴿وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: أتاهم العذاب والهلاك في الدنيا من حيث لا يحتسبون ولا يتوقَّعون، فقدر الله تعالى لا يرد، ومشيئته نافذة في ذرَّات الموجودات، ومن مأمنه يُؤتى الحذر، فلا تغتر أيها المتكبر الظالم بقوتك وبأسك ومالِكَ وسلطانك، و«مَنْ سَرَّهُ زمنٌ ساءته أزمانُ»(٢).

- **مثوى المتكبرين:**

وهذا في الدنيا:

﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢٧﴾.

﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ أي: يعذبهم بعذاب يذلهم فيه، إذ الخزي هو العذاب مع الذلة والهوان.

﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ في زعمكم واعتقادكم.

﴿ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ﴾ أي: كنتم تعادون الأنبياء والمرسلين والمؤمنين من أجلهم، فما لهم لا يحضرون معكم ليدفعوا عنكم العذاب والهوان؟!.

---

(١) انظر: فتح القدير: ٣/ ١٥٧.

(٢) عجز بيت لأبي البقاء الرندي، وصدره: هي الأمور كما شاهدتُها دُوَلٌ.

فهو كقوله سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٦٢].

وقوله أيضاً: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ۝٩١ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٩٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشعراء].

ولا سبيل لهم في مثل هذا الموقف إلا السكوت، وهو إقرار ضمني على أنفسهم بما كانوا عليه من كفر وفجور، وعناد وكبر، صمتوا والأسف والندم يحرق قلوبهم.

وتكلَّم المؤمنون:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ وهو الوحي الذي أنزله الله على رسله.

أي: قال الذين انتفعوا به، فعبدوا الله وحده وأطاعوه، والعلم يدعو للإيمان، وهو من أشرف ما يتصف به الإنسان، ووصِفَ المؤمنون به إجلالاً لهم وتكريماً، لكونه منشأ كل فضيلة[(١)].

﴿إِنَّ ٱلْخِزْيَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ ففي هذا اليوم يظهر أهل الحق ويُكرمون، ويذلُّ أهل الباطل ويُهانون بالخزي والسوء.

ويبدأ عذابهم وهوانهم من حين مفارقتهم للدنيا، عندما تأتيهم الملائكة لتقبض أرواحهم:

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٢٨﴾.

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ﴾ أي: تحضر إليهم ملائكة الموت، وهم مصرُّون على ظلم أنفسهم بالكفر والشرك، فالقوم يصرُّون على جحودهم وعنادهم حتى الموت.

---

(١) انظر: نظم الدرر: ١٤/ ١٤٣.

﴿فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ﴾ أي: أظهروا الجزع والخوف حين عاينوا الموت، فاستسلموا وانقادوا، وذلوا ولانوا، وانسلخوا عن تكبُّرهم وعنادهم، وقالوا:

﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ﴾ نفوا عن أنفسهم أيَّ عمل سيِّئ كالكفر والجحود.

وتردُّ عليهم الملائكة قائلين:

﴿بَلَىٰٓ﴾ وهي هنا لنفي النفي، فما نفوه عن أنفسهم من عمل السوء منفي.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فلا فائدة من الإنكار، فالله سبحانه عليم بكلِّ أعمالكم.

تقول الملائكة ذلك لهم، وهم يضربونهم ويعذِّبونهم، بيَّن سبحانه ذلك في **سورة الأنفال**، فقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾﴾.

ويقال لهم يوم القيامة:

﴿فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

المتكبرين عن الإيمان، الجاحدين فضل الله تعالى عليهم.

والمثوى: المأوى ومكان الإقامة، وجهنم شرُّ مثوًى ومأوًى للمتكبرين.

- **مقارنة:**

عوَّدنا سبحانه في كتابه العزيز على المقارنة بين أحوال الكافرين وأحوال المؤمنين، وهو أسلوبٌ تربويٌّ رائعٌ، ففي مقابل ما مرَّ معنا من قوله تعالى في المستكبرين الجاحدين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [النحل]، قال سبحانه هنا:

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ ربهم فعظَّموه وعبدوه وأطاعوه.

﴿مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْۚ قَالُواْ خَيۡرٗاۗ﴾ أي: أنزل ربنا خيراً، خيراً يسعد الإنسان إن تمسَّك به في الدنيا والآخرة.

واتفق القرَّاء على نصب ﴿خَيۡرٗاۗ﴾ ورفع ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [النحل: ٢٤] فظهر بذلك الفرق بين جواب المقرِّين و جواب الجاحدين[١].

ففي نصب ﴿خَيۡرٗا﴾ دليل على أنهم لم يتلعثموا في الجواب، فجاء جوابهم مطابقاً تماماً للسؤال: ماذا أنزل ربكم؟ قالوا: أنزل خيراً. وأما الجاحدون فأنكروا الإنزال، وعدلوا عن الجواب، فقالوا: أساطيرُ الأولين.

وفي مقابل مثوى المتكبرين، قال سبحانه يبيِّن مصير المؤمنين وفضله عليهم:

﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ﴾ وهي التوفيق والنصر والرزق الطيب الحسن.

﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ﴾ أي: ثوابهم في الآخرة خير مما أعطوا في الدنيا.

﴿وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ وهي:

﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ ٣١﴾.

﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا﴾ يقيمون فيها إقامة دائمة.

﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ﴾ دون تحديد أو تقييد لمشيئتهم، يُعطى المؤمنون في الجنة كلَّ ما يشاؤون وزيادة على ما يشاؤون، كما قال تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ﴾ [قٓ: ٣٥].

﴿كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ أي: هكذا يتفضَّل الله سبحانه على المتقين في دار رحمته وكرامته، في الجنة.

وفي مقابل قوله سبحانه في الكافرين الجاحدين: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ﴾ [النحل: ٢٨]، قال سبحانه في المؤمنين المتقين:

---

(١) نظم الدرر: ١٤/١٤٦.

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ أي: يموتون وهم على أطهر حالٍ وأزكاها، طاهرين من الشرك والكفر والفجور والظلم.

أو: أحوالهم عند الموت طيبة سهلة، إذ يبشَّرون عند قبض أرواحهم بالرضوان والجنة والكرامة، فيحصل لهم الفرح والسرور والابتهاج، فيسهل عليهم قبض أرواحهم، ويطيب لهم الموت على هذه الحالة[1].

كما في الحديث الشريف: عن **عائشة** رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**من أحبَّ لقاءَ اللهِ، أحبَّ اللهُ لقاءَه، ومن كَرِهَ لقاءَ اللهِ، كَرِهَ اللهُ لقاءَه**» فقلتُ: يا نبيَّ اللهِ أكراهيةُ الموتِ؟ فكلُّنا يكرَهُ الموتَ، فقال: «**ليس كذلك، ولكنَّ المؤمنَ إذا بُشِّرَ برحمةِ اللهِ ورضوانه وجنَّته؛ أحبَّ لقاءَ اللهِ، فأحبَّ اللهُ لقاءَه، وإنَّ الكافرَ إذا بُشِّرَ بعذابِ اللهِ وسخطِه؛ كرهَ لقاءَ اللهِ، وكرهَ اللهُ لقاءَه**» [رواه مسلم (٢٦٨٤)].

﴿يَقُولُونَ﴾ أي: الملائكة للمؤمنين.

﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ﴾ من الله تعالى، أو منّا.

﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: بسبب ما كنتم تعملون من توحيد الله وعبادته وطاعته وشكره وصلتم إلى فضله ورحمته وجنَّته.

- **الظالمون لأنفسهم:**

وتساءلت الآيات بعد هذا المقارنة سؤال المتعجِّب:

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ﴾ أي: ماذا ينتظر هؤلاء

---

(١) انظر: تفسير الخازن: ٣/ ٥٩٩.

الكفار؟! لماذا يصرُّون على الكفر والجحود، ولا يبادرون إلى الإيمان؟! هل ينتظرون أن تأتي الملائكة لتقبض أرواحهم، أو يأتي أمر ربك المقدَّر لقيام الساعة، وكلاهما أمر مقدر محتم لا بدَّ منه، كما مر معنا في صدر السورة: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١].

وكأن الآيات بهذا السؤال تردُّ على استعجالهم للعذاب ولقيام الساعة استهزاءً وإنكاراً، فعليهم أن يبادروا إلى الإيمان لإنقاذ أنفسهم، بدل أن يستعجلوا العذاب، فهو أمر واقع لا محالة.

وشأنهم في استعجال العذاب ليس بِدْعاً، فهو شأن جميع المعاندين المكذِّبين من قبلهم:

﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ حتى أصابهم الهلاك، ونزل بهم العذاب.

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بإصرارهم على الكفر، والإعراض عن الإيمان.

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ (٣٤)﴾.

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ﴾ أي: جزاء سيئات ما عملوا بكسبهم واختيارهم.

﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: وأحاط بهم إحاطة كاملة العذاب الذي كانوا يستهزئون به، ويستعجلونه سخرية وإنكاراً.

- **المحتجُّون بالقدر:**

ومن صور عنادهم وجحودهم أيضاً أنهم أنكروا ما أرسل الله إليهم من الرسل، وما أنزل عليهم من الكتب، وقالوا متجاهلين متغافلين ما حكاه الله تعالى عنهم بقوله:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ (٣٥)﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا

﴿مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ﴾، وكلامهم هذا حق، ولو قالوه اعتقاداً لكان صواباً منهم، لا يرد عليهم، فكل شيء بمشيئته سبحانه وإرادته، ولكنَّهم قالوه لإنكار بعثة الأنبياء والمرسلين، ومضمون كلامهم: أنه سبحانه لو كان كارهاً لما فعلنا نحن وآباؤنا من عبادة الأصنام، وتحريم ما لم يحرِّمه الله علينا كالسوائب والبحائر وغير ذلك، لأنكره علينا، وما أمكننا منه.

وردَّ سبحانه عليهم بقوله:

﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ﴾ قالوا مثل قولهم، واحتجُّوا على كفرهم وفجورهم بالقدر كما احتج هؤلاء.

﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي: ليس الأمر كما تزعمون أنه سبحانه لم ينكر عليكم كفركم وفجوركم، بل قد أنكره عليكم أشد الإنكار، ونهاكم عنه آكد النهي، وبعث في كل أمة رسولاً[1]، كلَّفهم بإبلاغ الأمم رسالة ربهم التي نهى فيها عن الشرك والكفر، وبيَّن فيها ما أحلَّ لهم وما حرَّم عليهم، ولهذا قال سبحانه بعد ذلك:

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾، وهو أمر أكده سبحانه في آيات كثيرة؛ منها قوله: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧].

وقوله أيضاً: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًاۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

وكلُّهم دعوا إلى عبادة الله وحده، ونهوا عن عبادة غيره:

﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ أي: مُروا الناس بعبادة الله وحده، واجتناب عبادة الطاغوت، وهو اسم يطلق على كل معبود من دون الله تعالى، كالأصنام والشياطين والكهان والمتكبرين والمتجبرين الفراعنة المستبدِّين الذين

---

(١) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ٢/ ٣٣٠.

يرفعون أنفسهم إلى مقام الحاكمية والتشريع، والله سبحانه أغنى الأغنياء عن الشرك، ولا يرضى لعباده الشرك والكفر أبداً، قال سبحانه: ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الزمر: ٧].

والناس مكلَّفون بأن تكون أعمالهم وأقوالهم موافقة لأمره وشرعه سبحانه، لا لإرادته سبحانه، فإرادته غيبٌ عنَّا، لا نعلمها حتى يقع مراده سبحانه، أما أمره ونهيه فقد أعلمنا به بواسطة أنبيائه وكتبه، ولهذا قال سبحانه في معرض الردِّ على المحتجين بالقدر: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام].

فالله سبحانه قادرٌ على هداية الناس جميعاً، ولكنه سبحانه قدَّر أن يكون لهم كسب واختيار ومشيئة:

﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ﴾ أي: وفَّقهم لاختيار طريق الإيمان واتباع الرسل.

﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ أي: ومنهم من لزمته الضلالة لاختياره إياها وتمسُّكه بها.

ويؤكد وجود الكسب والاختيار عند الناس دعوته سبحانه لهم إلى النظر والاعتبار بمصير المعاندين المصرِّين على الكفر من قبلهم:

﴿فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ لعلكم تعتبرون بمصيرهم.

ويؤكد أيضاً إرادتهم واختيارهم أن النبي ﷺ كان شديد الحرص على إيمانهم وهدايتهم، واجتهد كلَّ الاجتهاد في تبليغهم ودعوتهم، ومع ذلك بقي كثير منهم مصرِّين على الكفر، ومتمسِّكين بالشرك، فما كان له ﷺ أن يجبرهم على الإيمان، ولا يستطيع أن يجعلهم ينسلخون عن اختيارهم وإرادتهم التي جعلها الله تعالى فيهم، حتى قال الله تعالى للنبي ﷺ:

﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾ أي: إن الله لا يهدي من

حكم بضلاله بسبب سوء كسبه واختياره.

﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ أي: ما لهم يوم القيامة من ينصرهم، ويدفع عنهم العذاب.

- **إنكارهم يوم القيامة:**

ومن صور عنادهم وجحودهم أيضاً إنكارهم حقيقة كبرى، من أعظم الحقائق ظهوراً وقوة، وهي يوم القيامة وما فيه من حساب وجزاء:

﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ﴾ أي: اجتهدوا في الحلف.

﴿لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ﴾، فكذَّبهم سبحانه وردَّ عليهم قائلاً:

﴿بَلَىٰ﴾ نفي لنفيهم البعث، بل يبعثهم الله تعالى.

﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ ثابتاً لا يتخلَّف.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن وعده سبحانه حق ثابت لا يتخلف.

أو لا يعلمون أنهم بعد الموت يُبعثون ويُحاسبون، فهو كما قال تعالى في **سورة التغابن**: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾﴾.

ثم بيَّن سبحانه الحكمة من الحساب يوم القيامة فقال:

﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ أي: ليحكم سبحانه بين الناس في كل شيء اختلفوا فيه، فيميز المحق من المبطل.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ﴾ في قولهم: لا يبعث الله من يموت.

وفي اتهامهم الله تعالى بالعجز عن إعادتهم إلى الحياة بعد الموت، فله سبحانه كمال القدرة، وتمام الإرادة النافذة في كل شيء:

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾.

كما أراده سبحانه، فأمره التكويني للأشياء واحد لا يتكرر، كما قال سبحانه: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥].

وهو سبحانه قادر على أن يخلق المكونات كلها بأمر تكويني واحد، كما قال جلَّ شأنه: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [لقمان: ٢٨].

فإنه تعالى لا يمانَع ولا يخالَف، لأنه الواحد القهار العظيم الجبار، الذي قهر سلطانُه وجبروتُه وعزتُه كلَّ شيء، فلا إلٰه غيره ولا رب سواه[١].

• **صورة وضيئة:**

وبينما كانت الآيات تعرض صور الجحود والعناد للمشركين المستكبرين التفتت فجأة لتعرض صورة مشرقة وضيئة للمؤمنين الشاكرين المستسلمين لله تعالى، والمقرِّين بفضله، والمتوجِّهين إليه وحده يطلبون رضوانه، فلم يبقَ في قلوبهم ونفوسهم تعلقٌ بغيره سبحانه، وأقبلوا عليه سبحانه وحده، فلم تشغلهم النعم عن المنعم، بل هجروا النعم عندما رأوا أنها ستعوقهم عن الوصول إلى رضوانه:

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ﴾ أي: الذين تركوا الأوطان والخلَّان والجيران والأموال في سبيل الله.

﴿مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟﴾ أي: أوذوا وعذِّبوا.

---

(١) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ٢/ ٣٣١.

إنهم أصحاب رسول الله ﷺ، الذين ظلمهم المشركون في مكة، فصبوا عليهم أنواعاً كثيرة من الأذى والعذاب، حتى خرجوا فراراً بدينهم وعقيدتهم من ديارهم وأموالهم، فلحق طائفة منهم بالحبشة، ثم بوأهم الله المدينة بعد ذلك، فجعلها لهم دار هجرة، فهاجروا إليها، وجعل لهم فيها أنصاراً من المؤمنين، فآووهم ونصروهم وواسوهم[1].

﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أي: لننزلنهم في الدنيا منزلةً حسنةً، مع الرزق الحسن، والنصر على عدوهم، وتمكينهم في الأرض. وكل ذلك اجتمع لهم بفضل الله تعالى بعد الهجرة، فمن ترك شيئاً لله عوضه الله تعالى خيراً منه.

﴿وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ مما عجل لهم في الدنيا.

﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ مقداره ومداه.

فلا علم لأحد بما أعدَّ الله تعالى لعباده الصالحين في الجنة: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ في سبيل الله تعالى، فتحمَّلوا الشدائد، ومفارقة الديار والأوطان والأهل والخلّان.

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي: يُفوِّضون أمرهم إلى الله تعالى، ويرضون بما أصابهم في سبيله.

- **رُوَّاد الطريق:**

ودلَّت الآية على أن الطريق إلى الله تعالى محفوف بالمخاطر والمكاره، مليء بالعقبات والمصاعب والمعوقات، لا يسير فيه إلا ذوو الصبر والمصابرة، أصحاب الهمم العالية والنفوس الكريمة العزيزة، الذين لا تستعبدهم النعمة، بل تبقى قلوبهم متعلقة بالمنعم وحده جل جلاله.

---

(١) انظر: تفسير الخازن: ٣/٦٠٣.

وإذا كان هذا حال العامة منهم، فما بالك بالخاصة روَّاد الطريق القاصد، ودعاته وشُداته من الأنبياء والمرسلين، لقد اقتضت حكمته سبحانه أن يكونوا من الرجال الأقوياء، فاصطفاهم سبحانه لنفسه، وربَّاهم على عينه، وكمَّلهم وجمَّلهم بأعلى الأخلاق وأسمى الصفات، ليكونوا الأسوة الحسنة والقدوة الطيبة، وهم يحملون للناس رسالته، ويقودونهم في الطريق الموصل إلى فضله ورحمته.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ أقوياء خَلْقاً وخُلُقاً.

﴿نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ بواسطة الملائكة المختارين لهذه المهمة، كما مرَّ معنا في أول السورة: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ [النحل: ٢].

وكان مشركو مكة يقولون جاحدين نبوة النبيِّ ﷺ: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً[١].

فالنبي ﷺ رجلٌ من البشر، كما كان سائر الأنبياء قبله، ولهذا توجهت الآية تخاطبهم على سبيل التحدي لهم بعد أن عرضت الآيات صوراً من جحودهم وعنادهم، فإن شككتم في هذه الحقيقة بسبب جهلكم:

﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ أهل العلم من أتباع الأنبياء السابقين.

﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أنَّ جميع الأنبياء كانوا رجالاً من البشر، وأن محمداً ﷺ مثلهم، وليس بدعاً منهم، فلماذا تجحدون رسالته معترضين على بشريته؟!.

إنَّ الحكمة تقتضي أن يرسل الله سبحانه إلى البشر رسولاً منهم ليتمكنوا من رؤيته وسماع كلامه وفهم رسالته، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء].

---

(١) انظر: تفسير البيضاوي: ٣/ ٦٠٤.

ودلَّت الآية أنَّ على الجاهل أن يسأل العالم المتخصص مهما كان هذا العالم، فالحكمة ضالة المؤمن يأخذها من أي وعاء خرجت.

• **القرآن والسُّنَّة:**

ولقد أرسل الله الرسل إلى البشر بالحجج والبراهين، وأنزل عليهم الكتب، فمن الضروري أن يكونوا بشراً ليقيموا لهم الحجج، وينصبوا الأدلة والبراهين، ويبينوا لهم مراد الله تعالى في كتبه المنزلة، ولهذا قال سبحانه بعد ذلك:

﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ﴾ أي: أرسلناهم بالبينات والزبر، وقد يكون المعنى: اسألوا أهل العلم بالبينات والزبر التي أُرسل بها المرسلون.

والبينات والزبر: ركنان أساسيان في رسالة كل رسول من الله تعالى، **فالبينات**: هي الحجج والبراهين المؤيدة لصدقه وصحة رسالته. وأما **الزبر**: فهي الكتب المنزلة على الرسل، وفيها الأحكام والشرائع التي أُرسلوا بها عليهم الصلاة والسلام.

ووظيفة الرسل بالنسبة لهذه الكتب المنزلة عليهم، وظيفة تبليغ وبيان، ولهذا التفتت الآيات إلى النبي ﷺ تخاطبه بقوله تعالى:

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ أي: أنزلنا إليك القرآن الكريم لتبيِّن للناس ما فيه من أحكام وتشريع، كلَّفهم الله تعالى بها، فالرسول ﷺ يبيِّن لجميع الناس مراد الله ﷻ ما أجمل في كتابه الكريم ولم يفصِّله، فهو الأمين المؤتمن على أسرار معاني القرآن الكريم، ولا يمكن فهم مراد ما أجمل سبحانه في كتابه من غير السُّنَّة النبوية المطهرة.

وإن الذين يعرضون عن السُّنَّة المطهرة، ويزعمون أنهم يتمسكون بالقرآن الكريم فقط، هم في الحقيقة معرضون عن دين الله تعالى وشرعه، ومعرضون أيضاً عن كتاب الله تعالى الذي أمر باتباع سُنَّة رسول الله ﷺ والتمسك بها في

آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

فأحكام دين الله تعالى وشرعه تستمدُّ من الكتاب والسنَّة، فالكتاب غالباً يشرِّع أصول الأحكام، والنبي ﷺ يبيِّنها ويفصِّلها في أقواله وأفعاله وتقريراته، ولهذا قال النبيُّ ﷺ لأصحابه في حجة الوداع: «**لتأخذوا مناسككم، فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد حجتي هذه**» [رواه مسلم (١٢٩٧)].

وقال ﷺ أيضاً: «**صلوا كما رأيتُموني أصلِّي**» [رواه البخاري (٦٣١)].

وللنبي ﷺ إلى جانب تبيين مجمل القرآن الكريم، أن يستقلَّ بتشريع الأحكام، لأنه عليه الصلاة والسلام ـ كما وصفه الحق سبحانه ـ لا ينطق عن هوى نفسه أبداً، فكل ما يصدر عنه تشريع ووحي من الله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم].

وكما آتاه الله تعالى القرآن، آتاه السُّنَّة أيضاً، وأمر بطاعته في آيات كثيرة؛ منها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢٠].

وجعل سبحانه طاعة الرسول عليه الصلاة والسلام طاعةً له ﷻ، فقال: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: ٨٠].

ولا وصول إلى رحمته سبحانه وجنته إلا بطاعة رسوله ﷺ، ففي الحديث الشريف: عن **أبي هريرة** رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**كلُّ أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى**» قالوا: يا رسول الله ومن يأبى؟ قال: «**من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى**» [رواه البخاري (٧٢٨٠)].

ولهذا أخبر الله تعالى عن أصحاب النار أنهم يعذَّبون فيها وهم يقولون: ﴿يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ [الأحزاب: ٦٦].

﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيما أنزل الله تعالى إليهم، فالتفكر في آيات الله تعالى أمر مطلوب، لفهم معانيها، والاتعاظ بها، والوقوف على إعجازها، وهو التدبر

الذي حثَّ سبحانه عليه في مواضع من القرآن الكريم؛ منها: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

ومنها أيضاً: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

- **تهديد ووعيد:**

وعادت الآيات الكريمة بعد هذه الوقفة القصيرة عند المهاجرين والمرسلين، إلى الجاحدين المعاندين، تتوعدهم، وتهددهم، لعلهم يرجعون عن عنادهم وجحودهم، قبل أن يهلكهم الله تعالى كما أهلك من قبلهم:

﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: عملوا السيئات، وهم أهل مكة الذين مكروا برسول الله ﷺ، وصدوا أصحابه عن الإيمان.

﴿أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ أي: يجعلها تغور تحت أقدامهم، كما فعل سبحانه بقارون من قبلهم، الذي جحد فضل الله تعالى عليه، واغترَّ بنفسه وماله، وقال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ [القصص: ٧٨].

فكانت عاقبة جحوده وغروره: ﴿فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص: ٨١].

﴿أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ بإتيانه، إما لغفلتهم، وإما لإتيانه من مأمنهم، أو من حيث يرجون إتيان ما يشتهون[1]، كما مرَّ معنا في قوله سبحانه: ﴿قَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [النحل: ٢٦].

---

(١) تفسير أبي السعود: ٥/١١٧.

﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ﴾ أي: يهلكهم في أثناء تصرفهم وانتقالهم في الأسفار وفي إقبالهم وإدبارهم.

﴿فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ بممتنعين من عذاب الله تعالى، أو فائتين بالهرب والفرار من قبضة قدرته جلَّ وعلا.

﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ أي: وهم خائفون وجلون، بأن يهلكهم على دفعات شيئاً فشيئاً، حتى يهلكهم عن آخرهم.

والمراد من تنويع التهديد بهذه الأحوال الثلاثة بيان قدرته سبحانه على إهلاكهم بأيِّ وجه كان، لا بيان الحصر[١]، فثمَّة أحوال كثيرة لإهلاكهم، وكل هذا التهديد والوعيد ليعرفوا قدرة الله تعالى عليهم، فيقبلوا على طاعته.

﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ حيث لم يعاجلكم بالعقوبة، فإذا لم يأخذكم بالعقوبة مع ما فيكم، فإنما رأفته تقيكم، ورحمته تحميكم[٢].

• **مواكب الساجدين:**

ثم دعتهم الآيات إلى التأمل والتفكر فيما حولهم من المخلوقات، ليروا أنها جميعاً خاضعة لله تعالى، مستسلمة ومنقادة له جل وعلا، فلا ينبغي أن يشذوا عما حولهم من المكونات:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ له حجم وظل.

---

(١) تفسير أبي السعود: ٥/ ١١٧.

(٢) انظر: تفسير النسفي: ٢/ ٦٠٧.

﴿يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ﴾ أي: تمتد ظلاله بقدرة الله تعالى، ثم تفيء وتنقبض حسب ناموس إلٰهي دقيق محكم، لا يختل ولا يضطرب.

﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾ أي: يحدث تفيؤ الظلال كل يوم مرتين، مرة من جهة اليمين، ومرة من جهة الشمائل، بقدرته سبحانه، كما قال في **سورة الفرقان**: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾.

ولعل إفراد ﴿ٱلْيَمِينِ﴾ وجمع ﴿وَٱلشَّمَآئِلِ﴾ كإفراد ﴿ٱلنُّورِ﴾ وجمع ﴿ٱلظُّلُمَٰتُ﴾ إذ يرمز باليمين لطريق الحق، وهو واحد، ويرمز بالشمائل لطرق الباطل، وما أكثرها!.

﴿سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾ أي: وهم في حال السجود لله تعالى ذليلون صاغرون، فكلُّ ما له ظلٌّ يسجد لله جلَّ وعلا، ويخضع له، وينقاد لمشيئته.

ثم ضمَّت الآيات جميع المخلوقات إلى مواكب الساجدين:

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ﴾ فجميع المخلوقات السماوية والدواب الأرضية خاضعة لله تعالى خضوع الطبع والانقياد لمشيئته التامة النافذة في جميع المخلوقات، أو خضوع التكليف والانقياد لأمره سبحانه.

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي: والملائكة أيضاً تسجد لله تعالى، وتخصيصها بالذكر تعظيماً لها وتفخيماً لأمرها، فإنَّ هذه المخلوقات النورانية العظيمة تسجد لله جلَّ وعلا أيضاً، وسجود كلِّ شيء بحسبه، فسجود المسلمين والملائكة لله تعالى سجود عبادة وطاعة، وسجود غيرهم سجود انقياد وخضوع[١].

﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن عبادته ﷻ والسجود له.

---

(١) تفسير الخازن: ٣/٦٠٨.

﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ أي: يخافون الله تعالى خوف الإجلال والتعظيم والهيبة، وهو سبحانه فوقهم بالقهر والغلبة، أو فوقية تليق بذاته سبحانه، كما قال: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ الآية [الأنعام: ٦١].

﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ لأنَّهم منقادون تماماً لأمره سبحانه ومشيئته، كما وصفهم في **سورة الأنبياء** فقال: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

وفي الحديث النبوي الشريف: عن **أبي ذر** رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنِّي أرى ما لا ترون، وأسمعُ ما لا تسمعون، أطَّتِ السماءُ، وحُقَّ لها أن تئِطّ، ما فيها موضعُ أربع أصابع إلا وملكٌ واضعٌ جبهته ساجداً، واللهِ لو تعلمونَ ما أعلمُ لضحكتُم قليلاً، ولبكيتُم كثيراً، وما تلذذتم بالنساءِ على الفُرُش، ولخرجتم إلى الصُّعُدات من الطرقاتِ تجأرون إلى الله تعالى**» [رواه الحاكم (٣٨٨٣) والترمذي (٢٣١٢) واللفظ له، وهو في البخاري (٦٤٨٥) ومسلم (١٤٩٩) مختصراً]. وقوله: «**أطت**»: صوَّتَتْ من ثقل ما تحمل.

ومن السُّنَّة إذا سمع المسلم هذه الآية أو قرأها، أن يضمَّ نفسه إلى مواكب الساجدين، فيسجد لله تعالى سجود التلاوة.

- **تقرير التوحيد:**

إن للشكر ارتباطاً وثيقاً بالتوحيد، ولا يكون الإنسان شاكراً إلا إذا كان موحِّداً، يعبد الله سبحانه وحده، لقد ركَّزت آيات سورة النحل على هذا المعنى في مواضع متعددة، وأبرزته بأساليب متنوعة، مرَّ معنا بعضها، وهاهي الآن تقرره بأسلوب نهي قاطع حازم عن الشرك، صادر عن الله تعالى مباشرة.

﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٥١﴾﴾.

﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ فالإثنينية تنافي الألوهية، والإلٰه الحق واحدٌ

أحدٌ لا يتعدَّد. وفي الآية ردٌّ على الثنوية من المجوس، الذين يعتقدون بوجود إلٰه للنور والخير وإلٰه للظلمة والشر.

﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ إذ يستحيل أن يكون في الوجود إلٰهان اثنان، والوحدة من لوازم الألوهية، لأنها دليل الكمال.

وهذا الإلٰه الواحد هو الخالق المنعم، الذي يجب أن يُعبد ويُعظَّم:

﴿فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ أي: فارهبوني وخافوني، ولا ترهبوا غيري.

وتحوُّل صيغة الكلام من الغيبة إلى التكلم والحضور، بأسلوب الالتفات أبلغ في الترهيب، كما أنَّ تقديم المفعول على الفعل يفيد الحصر؛ فالرهبة من الله تعالى وحده المالك الخالق الذي بيده كل شيء ﷻ:

﴿وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً وعبيداً.

﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا﴾ أي: له العبادة والطاعة والخضوع دائماً.

فمعنى **الدين** هنا: الطاعة، ومعنى **الواصب**: الدائم اللازم، كما في قوله تعالى: ﴿دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ [الصافات: ٩].

قال ابن قتيبة: «ليس من أحد يُدان له ويطاع إلا انقطع ذلك لسبب في حال الحياة أو بالموت، إلا الحق ﷻ، فإن طاعته واجبة أبداً، لأنه المنعم على عباده، المالك لهم، فكانت طاعته واجبة دائمة أبداً»[١].

فهو سبحانه الدائم الباقي، الذي لا يزول سلطانه، فكلُّ مُلك وسلطان ناقص وزائل غير مُلكه وسلطانه جلَّ وعلا، وفي الحديث الشريف: عن **أبي هريرة** رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**يقبضُ اللهُ الأرضَ، ويطوي السماءَ بيمينه، ثم يقول: أنا الملكُ، أينَ ملوكُ الأرضِ؟!**» [رواه البخاري (٦٥١٩)].

---

(١) تفسير الخازن: ٣/ ٦١٠.

أخبر جلَّ وعلا عن ذلك في قوله الكريم: ﴿يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

وختم الله تعالى الآية بهذا الاستفهام الإنكاري:

﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ بعد أن قامت الدلائل على أنه سبحانه وحده الخالق والمالك والمنعم، فكيف تخشون غيره وتعبدون سواه؟!.

- **المنعم الحقيقي:**

﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ۝٥٣﴾.

﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ﴾ أي نعمة، دقَّت أم عظمت، ظهرت أم خفيت.

﴿فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾ وحده لا من سواه، فهو المنعم المتفضِّل عليكم بجميع النعم، والذين يوصلون إليكم النعم ليسوا سوى وسائل مسخرة بمشيئته سبحانه وقدرته.

وقد يقول قائل: إذا كان الله سبحانه هو المنعم وحده، فلماذا حثَّ النبي ﷺ على شكر أصحاب المعروف والفضل من الناس في عدد من الأحاديث الشريفة، منها: ما رواه **أبو هريرة** رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**لا يشكرُ اللهَ مَنْ لا يشكرُ الناسَ**» [رواه أبو داود (٤٨١١) والترمذي (١٩٥٤) ومسند أحمد (٧٤٩٥) وقال: صحيح]؟!.

وأقول: هذا خلق كريم من أخلاق النبي ﷺ سنَّه بفعله، وحثَّ عليه بقوله، لأنَّ لهؤلاء الناس كسباً واختياراً في فعلهم، فهم يشكرون على بادرة الخير النابعة من نفوسهم بمشيئته سبحانه وتقديره، وفي شكرهم تشجيع لهم على المزيد من أعمال الخير والإحسان.

فلو لم يخلق الله تعالى في قلوب الآباء مشاعر العطف والحب والحنان لأولادهم ما اهتمَّ والد بولده، وما حفلت أمٌّ بولدها، فالمنعم المتفضل إذن هو الله تعالى، فالشكر له أولاً، ثم للوالدين كما قال سبحانه: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤].

ثم إن شكر الله تعالى طاعة له وعبادة وخضوع، بينما شكر غيره بر وإحسان وامتنان، قد لا يتجاوز اللسان.

• **في مواجهة الأخطار:**

ويستشعر الناس شدة احتياجهم وافتقارهم إلى الله تعالى وفضله ورحمته حين تواجههم الأخطار، وتحيط بهم الأهوال والشدائد، ولهذا قال سبحانه بعد أن قرر أنه وحده المنعم المتفضّل:

﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ﴾ أي: إليه سبحانه تتوجهون، وأنتم ترفعون أصواتكم بالدعاء والاستغاثة، فلا تسألون غيره، تنسون الآباء والأبناء والأصدقاء، لأنكم تعلمون أنه تعالى وحده المنعم المتفضّل، والقادر على كشف الضر عنكم، كما قال سبحانه في مواضع كثيرة منها: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢].

ثم ماذا يكون منكم بعد أن ينعم عليكم بالنجاة والسلامة:

﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ۝٥٤﴾.

أي: يعودون إلى الشرك والجحود والعناد.

ونبه سبحانه بكلمة ﴿إِذَا﴾ الفجائية على مسارعتهم إلى الكفر والجحود كما قال في **سورة الروم**: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرّٞ دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ۝٣٣﴾.

وقال أيضاً: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡمُسۡرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [يونس: ١٢].

وعقّب سبحانه على موقف الجحود والكفر، فقال موبِّخاً لهم مع التهكم المرير منهم:

﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ۝٥٥﴾.

﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ﴾ من النعم، فإن عاقبة كفرهم وجحودهم عائدة عليهم،

كما قال في موضع آخر: ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٢٣].

﴿فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عاقبة جحودكم، وغِبَّ تمتعكم بنعمه، وإعراضكم عن شكره.

وفعل الأمر للتهديد والوعيد، ومثله في القرآن كثير:

كقوله ﷻ: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠].

وقوله أيضاً: ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ [المرسلات: ٤٦].

- **مفارقات مستنكرة:**

وبعد صور الجحود والعناد، عرضت الآيات صوراً لمفارقات وتناقضات قبيحة مستنكرة، تدل على مدى الجهل والسفه والطيش التي كانوا عليها في الجاهلية:

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: يجعل هؤلاء الكفار للأصنام التي لا تعلم شيئاً.

﴿نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ من الأنعام والزروع والثمار، فصَّله سبحانه في **سورة الأنعام** فقال: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾.

ثم أقسم جلَّ وعلا بنفسه على نفسه، أنَّه سيحاسبهم على فعلهم هذا، وقَسَمُه سبحانه يدل على شدة غضبه عليهم.

﴿تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ أي: تكذبون في تأليه الأصنام، وجعل قسم من نعم الله تعالى لها، فالله سبحانه يغضب أشد الغضب من الذين يجحدون فضله، ويتقربون بما أنعم به عليهم إلى غيره.

وثمة مفارقة أخرى أكثر قُبحاً وأعظم جهلاً وكفراً، كانوا عليها في الجاهلية:

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ۝٥٧﴾.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ﴾ وهم كنانة وخزاعة من العرب، وصفوا الملائكة بالأنوثة، وجعلوها بنات الله ﷻ، فعبدوها معه جلَّ وعلا، ونسبوا إليه تعالى الولد، واختاروا لأنفسهم أقوى القسمين من الأولاد وهم البنون، ونسبوا إليه سبحانه أضعفهما، وهن الإناث، وما كانوا يرضون الإناث لأنفسهم، إذ كانوا يكرهون الإناث من الأولاد كراهية شديدة، ولهذا قال لهم سبحانه موبِّخاً لهم ومُبكِّتاً: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ۝٢١ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ [النجم].

﴿سُبْحَانَهُ﴾ عن قولهم هذا؛ فهو الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، والمُنزَّه والمقدَّس عن الصاحبة والولد.

﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ من الأولاد والذكور، مع أنَّ الذكور والإناث من خلقه ومن ملكه وعبيده، فقولهم هذا كذب وافتراء، وجهل وحماقة كما قال سبحانه في **سورة الصافات**: ﴿أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ۝١٥١ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۝١٥٢ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ۝١٥٣ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝١٥٤ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝١٥٥﴾.

ثم بيَّن سبحانه شدَّة كراهيتهم للأنثى في أولادهم، فقال:

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨﴾.

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ أي: صار وجهه مسودّاً من الكآبة والحزن.

﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ وهو مملوء القلب حنقاً وغيظاً.

﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٥٩﴾.

﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ﴾ أي: يستخفي عن قومه وأبناء مجتمعه، كأنه فعل جُرماً شنيعاً مستقبحاً.

وهذا يدلُّ على أنَّ كراهية الأنثى كانت سائدة وشائعة بينهم، حتى كانوا يرون في ولادة البنت لأحدهم عاراً وسبة، تستدعي منه التستر والاختفاء عن الأنظار.

ثم صورت الآيات الحيرة والنوازع النفسية المتصارعة في قلوبهم، فقالت:

﴿أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ﴾ أي: أيترك جسد المولودة ويربيه، ويرضى بهوان نفسه؟!.

﴿أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾ أم يخفيه في التراب، ويكتم أنفاسه، ويريح قلبه وأعصابه منه، وذلك بوأدها، ودفنها في التراب حية؟!.

﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: بئس ما نسبوا إلى الله تعالى، وبئس ما قالوا، وبئس ما فعلوا.

- **الأجل المسمى:**

يتنزَّه الله سبحانه عن كلِّ صفات النقص، ويتصف بكلِّ صفات الكمال، وإنما يكون النقص فيهم وينسب إليهم:

﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ﴾ كالضعف والعجز، والحاجة والذلة، والطيش والرعونة، وقتلهم لأولادهم أثر من آثار طيشهم وجهلهم وحماقتهم.

﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي: له سبحانه الكمال المطلق، الذي لا تلحقه شائبة نقص أبداً.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب على كلِّ شيء، والذي لا يمتنع عليه شيء، أو هو الواحد الذي لا نظير له ولا مثيل.

﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في جميع أقواله وأفعاله جَلَّ جَلَالُهُ.

ومن عزَّته سبحانه وحكمته، أنه لا يعاجلهم بالعقوبة على جرائمهم:

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾﴾.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ﴾ المجرمين الظالمين.

﴿بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا﴾ أي: على الأرض.

﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ تدبُّ عليها. أي: لأهلكها كلَّها بشؤم ظلم الظالمين، فشؤم الظلم والفجور يعمُّ وينتشر، بيَّن ذلك سبحانه بقوله: ﴿وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥].

وفي الحديث النبوي الشريف: عن **عبد الله بن عمرو** رضي الله عنهما قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**إذا أرادَ اللهُ بقومٍ عذاباً أصابَ العذابُ مَنْ كانَ فيهم، ثم بُعِثُوا على أعمالهم**» [رواه مسلم (٢٨٧٩)].

ولعل السبب في ذلك تقصير الآخرين وتقاعسهم عن زجر المجرمين ومنعهم من فجورهم وظلمهم.

﴿وَلَٰكِن﴾ بحكمته سبحانه ورحمته.

﴿يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ سبق به علمه، وتعلقت به إرادته ومشيئته، فعزته سبحانه تصاحب حكمته، فهو يمهل ولا يهمل.

﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً﴾ أي: شيئاً من الزمن ولو يسيراً.

﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾، إنها آجال محددة ومبرمجة بدقة، لا يستطيع أحد أن يقدمها أو يؤخرها، لأنها تقدير العزيز الحكيم جل جلاله، كما قال في **سورة فاطر**: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾.

- **أعجب المفارقات:**

ومن أعجب المفارقات المستنكرة التي كانوا عليها: أنَّ بعضهم كان يرجو لنفسه العاقبة الحسنة يوم القيامة، إن كان هناك حياة ثانية، هكذا يشركون بالله تعالى، ويفترون عليه، وينكرون يوم القيامة، ثم يقولون: إن كان هناك حياة ثانية بعد الموت فستكون العاقبة الحسنة لنا فيها!:

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿وَيَجْعَلُونَ﴾ في اعتقادهم.

﴿لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ لأنفسهم من البنات، ومع ذلك:

﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ﴾ وهو:

﴿أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ﴾ أي: لهم العاقبة الحسنة يوم القيامة.

وقد حكى الله مثل هذا القول العجيب في عدة آيات؛ منها: ﴿لَّا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [فصلت].

ومنها قول صاحب الجنَّتين الكافر في **سورة الكهف**: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾.

ومنها قول أحد كبار مشركي قريش الذي قال الله تعالى فيه: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [مريم: ٧٧].

وغرورهم وتكبرهم سبب هذه المفارقات والتناقضات، بيَّن سبحانه ذلك فيما حكاه عنهم في قوله: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥]؛ أعماهم الغرور عن رؤية الحقيقة، فكيف يفعلون المعاصي والمنكرات ويرجون الحسنات؟!.

وردَّ سبحانه عليهم أبلغ رد وأوجزه فقال: ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ﴾ فكأن ألسنتهم هي الكذب ذاته، أو كأنها صورة له، تحكيه وتصفه بذاتها، فهو من بليغ الكلام وبديعه، ومثله قولهم: عينها تصف السحر، أي: ساحرة، وقدُّها يصف الهيف، أي: هيفاء، وقول أبي العلاء المعري:

سرى برقُ المعرَّةِ بعدَ وَهْنٍ ... فباتَ بِرامَةٍ يَصِفُ الكَلالا[1]

---

(١) انظر: روح المعاني: ١٤/ ١٧٢.

ثم ألقى سبحانه في وجوههم الحقيقة كاملة:

﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ أي: حقّاً أنَّ لهم النار بلا شك ولا ريب.

﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ وأنهم معجلون إليها يوم القيامة غير مؤخرين.

- **مواساة وتكريم:**

وكررت الآيات القَسَمَ بالله تعالى مرة ثانية، وهي في هذه المرة تخاطب النبيَّ ﷺ مواسية له، ومسلِّية عما يلقى من عناد قومه وجحودهم:

﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ القبيحة المنكرة، وحسَّنها لهم بوسوسته.

﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ أي: فهو وليهم في الدنيا، لأنهم استجابوا لوسوسته، وانقادوا لمكره وخداعه، ومن كان الشيطان وليه وناصره، فهو مخذول مغلوب في الدنيا.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يوم القيامة.

وفي سياق المواساة والتسلية للنبي ﷺ، بيَّنت الآيات له وظيفته الكبرى التي شرفه الله تعالى بها وكرمه:

﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ فتميِّز بين الهدى والضلال، وتفرق بين الحق والباطل، والحلال من الحرام؛ فلا يعرف الحق إلا منك، ولا يظهر الهدى إلا بك، وكلُّ الطرق جائرة إلا الطريق الذي تدعو إليه، وتسير عليه، فهو الطريق المستقيم القاصد إلى السعادة في الدنيا والآخرة.

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: وأنزلنا إليك الكتاب ليكون سبيل هداية المؤمنين، وسبب نزول الرحمات عليهم.

فالقرآن الكريم روح القلوب والنفوس، كما مرَّ معنا في أول السورة ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ [٢]: يفيض الله تعالى على المؤمنين من بركاته ورحماته عندما يتمسَّكون بالقرآن الكريم، تلاوة وتدبراً وعلماً وعملاً.

وكما تحيا الأرض الميتة اليابسة بالمطر، تحيا القلوب بالقرآن الكريم، ولهذا قال تعالى بعد ذلك مباشرة:

﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

يسمعون آيات الله سماع تدبُّر وتفكُّر.

والجدير بالذكر أنه سبحانه قرن في أكثر من موضع بين حياة القلوب بالقرآن الكريم، وبين حياة الأرض اليابسة بالمطر، منها قوله ﷻ: ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد].



الفَصْلُ الثَّالِثُ

المَجْمُوعَةُ الثَّانيةُ مِنَ النِّعَمِ

نِعَمُ اللهِ الضَّرُورِيَّةُ لاستمرارِ حَيَاةِ الإنْسَانِ

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾﴾.

• عبرة ونعمة:

بعد أن انتهت الآيات من عرض صور العناد والجحود والمفارقات العجيبة المستنكرة لدى كثير من الناس، استأنفت تذكير الناس بمجموعة ثانية من نعم الله تعالى عليهم، فعرضت هذه النعم كدلائل وبراهين على وجود الله تعالى وَجُوده وقدرته وعظمته ﷻ، ولهذا جاءت بداية العرض بأسلوب التأكيد والتقرير:

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً﴾ دلالة يعبر بها من الجهل إلى العلم(١) تدل على كمال قدرة الله سبحانه وحكمته. هذه العبرة هي:

﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ﴾ أي: نسقيكم من بعض ما في بطون الأنعام، كما قال تعالى في **سورة المؤمنون**: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾﴾.

والأنعام من أسماء الأجناس، ويجوز فيها التذكير نظراً إلى اللفظ، كما هو الحال هنا، ويجوز التأنيث نظراً إلى معنى الجماعة الداخلة تحت اسم الجنس، كما في آية **سورة المؤمنون**(٢).

ولعل حكمة التذكير هنا للتنبيه على أن للذكر الفحل ارتباطاً بتكوُّن اللبن في بطن الأنثى، ولهذا يمتد التحريم بالرضاع إليه.

قال القرطبي ﷺ: «استنبط بعض العلماء الجُلة من عود هذا الضمير أنَّ لبن الفحل يفيد التحريم، وبه قضى النبي ﷺ حين أنكرته عائشة ﵂ في حديث أفلح أخي أبي القعيس، فللمرأة السقي، وللرجل اللقاح»(٣).

والحديث الشريف هو الذي ترويه **عائشة** ﵂: أن أفلح أخا أبي القعيس

---

(١) تفسير البيضاوي: ٣/ ٦١٥.

(٢) انظر: أضواء البيان: ٣/ ٢٩٥.

(٣) انظر: تفسير القرطبي: ١٠/ ١٢٤.

جاء يستأذن عليها، وهو عمها من الرضاعة، بعد أن نزل الحجابُ: فأبيتُ أن آذنَ له، فلمَّا جاء رسول الله ﷺ أخبرته بالذي صنعتُ، فأمرني أن آذنَ له. [رواه البخاري (٥١٠٣)].

ففي الأنعام عبرة باهرة للإنسان، هي في الوقت نفسه نعمة كبيرة من نعم الله عليه، ثم بيَّن سبحانه وجه تخصيص العبرة في الأنعام فقال:

﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّـٰرِبِينَ﴾.

• **مصانع اللبن:**

والأنعام جزء من الحيوانات اللبونة، التي تُغذي صغارها بلبنها، وهي كثيرة، تنفرد الأنعام من بينها بأنها مجترة، لأنها تقوم بإعادة الطعام من بطنها إلى الفم مرة ثانية بعد نقعه وتليينه، لتطحنه مرة ثانية ثم تبتلعه، وتسمى هذه العملية: **الاجترار**، ويطلق على الأنعام بسببها اسم: **المجترات**.

كما تتميز الأنعام بتركيب معدتها، فهي مؤلفة من أربعة أقسام: الكرش، الشبكية، أم التلافيف، المعدة الحقيقية.

ومن المعلوم أن غذاء الأنعام يتكون من الأعشاب وأوراق الأشجار والأشواك والحبوب ومخلَّفات الحصيد، وكلها مواد سللوزية ونشوية معقدة غير ذائبة؛ تتناولها بفمها، وتمضغها مضغاً جزئياً، ثم تبتلعها حتى تصل إلى الكرش حيث تدعى الفرث، كما يقول علماء اللغة: **الفرث**: السرجين ما دام في الكرش، والجمع فروث[1].

ويوجد في الكرش أعداد هائلة من كائنات حية دقيقة كالبكتريا التي تشكل المكورات (٩٠٪) منها، والأوليات أو وحيدة الخلية، ويحوي كل غرام من مكونات الكرش على مليار كائن حي، وتزداد هذه الأعداد زيادة كبيرة في أثناء الأكل وبعده مباشرة.

تقوم هذه الأعداد الهائلة من البكتريا بعملية تكوين البروتين، وعملية

---

(١) الصحاح: ١/٢٩٨.

هدرجة الدهون، وتحويلها إلى أحماض، كما تقوم أيضاً بتكوين فيتامين (ب) إذا كان غذاء الحيوان يفتقر إليه.

وبواسطة شبكة أوعية الدم الكثيفة والحلمات والزغابات التي تغطي جدران الكرش والشبكية وأم التلافيف تتم عملية امتصاص العناصر الذائبة من الفرث، ونقلها إلى الدم، وتنتقل بواسطة الدم إلى ضرع الحيوان، وهو عبارة عن غدة لبنية مؤلفة من شبكة معقدة من القنوات، يتصل بعضها ببعض، وتصب جميعها في حويضة واحدة تنتهي بقناة الحلمة، ذات المصرَّة الحساسة لحفظ الحليب من الانسكاب، وتفرز هذه المصرة مادة قاتلة للجراثيم، لتمنع دخول أي مكروب إلى داخل الضرع.

وتحتوي الغدة اللبنية على شبكة ري معقدة ومتطورة من الأوعية الدموية لتوصيل الدم الشرياني إليها، ورفع الدم الوريدي ثانية منها، وتظهر أوردة اللبن واضحة على جانبي بطن الناقة والبقرة في طور الحلابة(١).

• **اللبن الخالص:**

هكذا يخرج اللبن الأبيض الصافي اللذيذ من بين الفرث والدم بقدرة الله تعالى ومشيئته، بواسطة إبداعه سبحانه لعمليات دقيقة محكمة باهرة تحيِّر العقول وتدهشها، وفي الآية الكريمة حقائق علمية كبيرة، ما كان أحد يعرفها عند نزول القرآن الكريم، مما يدل على أنه كلام الحكيم العليم جلَّ وعلا.

والعجيب أن اللبن الذي يخرج بقدرة الله تعالى من بين فرث ودم، لا تجد فيه أي صفة من صفات الفرث والدم، كما وصفه سبحانه بقوله:

﴿لَّبَنًا خَالِصًا﴾ عن أي صفة من صفات الفرث والدم، نقيّاً ومعقماً.

﴿سَآئِغًا لِّلشَّـٰرِبِينَ﴾ يجري في حلوق الشاربين سهلاً لذيذاً هنيئاً مريئاً.

والكشوفات العلمية التي أظهرت الخصائص التي خصَّ الله تعالى بها

---

(١) اقتبستُ هذه المعلومات من محاضرة للطبيب البيطري الأخ الصديق أحمد جواد، فقد زودني ـ حفظه الله ـ بصورة عن محاضرة له بعنوان: الأنعام والعبرة.

الأنعام دون سائر الحيوانات اللبونة الأخرى، تبيِّن لنا سر تخصيص الله تعالى لها في قوله: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً﴾ ففي كلِّ المخلوقات التي خلقها الله سبحانه عبرة، بل عبر كثيرة، ولكن الأنعام تنفرد من بينها بعبرة مخصوصة متميِّزة لا توجد في غيرها، هي تكوينها العضوي المتميز لتكون مصانع اللبن الصافي المعقم السائغ للشاربين.

وللبن الأنعام وما يستخلص منه دور كبير في غذاء الإنسان، فهو من نعم الله الكبرى على الإنسان، يستطيع أن يستغني به عن غيره من الأطعمة والأشربة.

وفي الحديث النبوي الشريف: عن **ابن عباس** رضي الله عنهما قال: أُتِيَ رسولُ الله ﷺ بلبن فشرب فقال: «**إذا أكلَ أحدُكم طعاماً فليقل: اللهمَّ باركْ لنا فيه، وأطعمنا خيراً منه، وإذا سُقي لبناً فليقل: اللهمَّ بارك لنا فيه، وزدنا منه، فإنَّه ليسَ شيءٌ يجزئ من الطعام والشراب إلا اللبن**» [رواه أبو داود (٣٧٣٠)].

- **عتاب ومنَّة:**

ومن اللبن الخالص السائغ انتقلت الآيات إلى نعمة أخرى، نعمة يسيء كثير من الناس استعمالها، فتصبح بسبب ذلك نقمة وبلاء لهم:

﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ﴾ ثمر.

﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ أنتم باختياركم وسوء تدبيركم.

وتأمل دقة التعبير وعمق دلالته، فعند الحديث عن اللبن السائغ قال سبحانه: ﴿نُّسْقِيكُم﴾ [النحل: ٦٦]، بينما قال هنا: ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ أي: خمراً؛ فالسَّكر: ما يسكر.

﴿وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ كالدبس والخل والعصير، وغير ذلك مما أحل الله اتخاذه من ثمرات النخيل والأعناب.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: **السَّكَر**: ما حرَّم الله من ثمرتيهما. **والرزق الحسن**: ما أحلَّ من ثمرتيهما(١).

ولا دلالة في الآية على حلِّ الخمر، كما فهم بعض المفسرين، فاضطروا إلى القول بأن هذا الحكم منسوخ، واحتجوا بأن الآية مكية، نزلت قبل تحريم الخمر بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة].

فذكر السَّكَر في مقابل الرزق الحسن، يدل على سوء اتخاذهم وصنيعهم.

ففي الآية تعريض بهم، وعتاب لهم على اتخاذهم ما يضرهم، ويذهب عقولهم من ثمرات النخيل والأعناب التي يتخذون منها الرزق الحسن أيضاً، وبهذا جمع الله تعالى في آية واحدة بين العتاب والمنَّة، كما بيَّن سبحانه أيضاً كراهية الخمر قبل أن ينزل الآية الدالة على تحريمه.

ففي الآية قولان:

أحدهما: يروى عن الشعبي والنخعي: أنها منسوخة.

وثانيهما: أنها جامعة بين العتاب والمنَّة(٢).

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: يستعملون عقولهم في النظر والتأمل والاعتبار، فالعقل من أعظم النعم التي أنعم الله بها على الإنسان، وعليه أن يحافظ عليه، فلا يُذْهِبُهُ بتناول المسكرات، وعليه أيضاً أن يحسن استعماله.

- **مصانع العسل:**

ثم انتقلت الآيات إلى نعمة ثالثة، وهي العسل، وهذه النعمة التي لا تتدخل بها يد الصنعة البشرية، كما هو الحال في ثمرات النخيل والأعناب، ولهذا تبقى كما خلقها الله تعالى نعمة، جعل الله تعالى فيها الغذاء والشفاء، وقد وكل الله

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٢/ ٣٢٦؛ وتفسير الطبري: ١٤/ ٩٠.

(٢) تفسير النيسابوري: ١٤/ ٨٧.

بصنعها حشرة صغيرة، علَّمها سبحانه أسرار صناعة هذه النعمة، وهيأ لها الأسباب والمواد التي تحتاج إليها، وسمَّى سبحانه سورة النعم باسم هذه الحشرة الصغيرة (النحل) للدلائل الكبيرة، والحكم البديعة التي جمعها الحكيم العليم في هذه الحشرة الصغيرة، وفي العسل الذي تقوم بصنعه:

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ أي: ألهم خالقك ومالك أمرك أيها الإنسان النحل، بما ركَّب في طبائعها وأصل خِلْقَتها، وواحد النحل نحلة، كنخيل ونخلة.

﴿أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ أي: ابني بيوتك إما في الجبال أو فوق جذوع الأشجار، أو فيما يبنيه الناس للنحل الذي يربونه قريباً منهم.

والبيوت التي يبنيها النحل من أعجب البيوت وأدقها وأحكمها، لا يقوى على مثلها إلا حُذَّاق المهندسين بآلاتهم الدقيقة وحاسباتهم، فهي بيوت سداسية الشكل، ذوات أضلاع متساوية، مرصوصة إلى بعضها بإحكام وإتقان، بحيث لا تجد بينها أدنى فراغ، ولا ترى فيها أي تخلخل وتفاوت، ولعل تأنيث الضمير في قوله تعالى: ﴿ٱتَّخِذِى﴾ يشير إلى حقيقة هامَّة، وهي أن إناث النحل هن العاملات اللواتي يقمن بجميع أعمال بناء البيوت وصنع العسل، أما الذكور فلا عمل لهم سوى تلقيح النحلة الملكة، التي تقوم بوضع البيض للتكاثر والتناسل.

وللنحل حياته الجماعية الخاصة به، ففي كلِّ خلية تسكن عشيرة من النحل، وتعيش حياة جماعية قائمة على أعلى درجات التنسيق والتعاون بين أفرادها.

ففي كلِّ خلية ملكة، تمتاز بكبر حجمها، ينحصر عملها في وضع البيض، وتقوم العاملات بإطعام الملكة من الغذاء الملكي الخاص، وهو غذاء مركَّز تركيزاً كبيراً، يحتوي على البروتينات والسكاكر والأملاح المعدنية والفيتامينات، تفرزه النحلات العاملات من غدة خاصة بين فكَّيْها، ويحتوي أيضاً على مواد

لها خواص الهرمون الأنثوي، ليساعد على نضج البيوض في أعضاء الملكة التناسلية، التي يمكن أن تضع في كلٍّ يوم ما بين ألف إلى ألفي بيضة ملقحة.

وتقضي النحلات العاملات عمرهن في عمل دائب، فمنذ اليوم الرابع تبدأ النحلة الصغيرة عملها بإطعام اليرقات بعد خروجهن من البيض، ومن العاملات ما يُدعى بوصيفات الملكة، يقمن بتنظيف جسمها، وتمشيط شعرها وتقديم الطعام لها، وأكثر العاملات يطرن خارج الخلية بحثاً عن رحيق الأزهار، وغبار الطلع والماء، ويقوم بعضهن بأعمال البناء، وصب الشمع على شكل أقراص مكوَّنة من ثقوب سداسية، تستعمل خزانات للعسل ومهداً للبيوض، وبعضهن يقمن بأعمال تنظيف الخلية وتهويتها وحراستها[1].

- **رحيق الأزهار:**

﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًاۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ التي تشتهين الأكل منها، إذ جعل الله تعالى في رحيق جميع الأزهار المواد الأولية المكوِّنة للعسل.

والرحيق: سائل مائي رقيق حلو، يقدِّمه النبات للنحلة وللحشرات الأخرى، مقابل الخدمات التي تقدِّمها هذه الحشرات للنبات، والإنسان هو المستفيد، فهذه الحشرة الصغيرة تقدم خدمات كبيرة للناس، فهي علاوة على صنعها للشمع والعسل، تقوم بتلقيح الأزهار، ونقل غبار الطلع من الأزهار المذكرة إلى الأزهار المؤنثة بواسطة حركتها الدائبة بينها، ومن دون مشاركة النحلة فإن عدداً كبيراً من الأزهار قد لا تثمر.

ويوجد الرحيق عادة في الجزء السفلي من الزهرة المسمى (الكؤيس)، وقد يوجد في بعض النباتات في مؤخرة الجزء السفلي من الأوراق.

---

(١) العسل فيه شفاء للناس، ص٤٣ ـ ٤٥ باختصار وتصرف.

وتختلف كمية الماء والسكر في الرحيق من نبات لآخر، والنحلة تعرف هذا جيداً، ولهذا السبب تذهب إلى الأزهار التي يكون التركيز السكري فيها أعلى من غيرها، فسبحان من علَّمها وألهمها!.

ولكي تحصل النحلة على مقدار قطرة من الرحيق، فإنَّ عليها أن تزور عدداً كبيراً من الأزهار، يقدر بـ (٥٠٠ ـ ١١٠٠)، ولكي تحصل على مئة غرام من العسل، فعلى النحلة أن تزور ما يزيد على مليون زهرة، وتمتص النحلة الرحيق بخرطومها، حتى إذا امتلأت به معدتها الخاصة بالعسل عادت طائرة إلى الخلية[١].

• **السبل المذللة:**

وعلى النحلة أن تقطع مسافات كبيرة في الحقول والبساتين والغابات لتحصل على ما تريد من الرحيق، وقد يسَّر الله تعالى لها معرفة الطرق التي تسلكها حتى لا تضيع، فقال جلَّ وعلا:

﴿فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًاۚ﴾ أي: سيري في الطرق التي ألهمك الله تعالى أن تسلكي فيها، فهي مذلَّلة لك ومسهَّلة، فلا تضيعين فيها ولا تضلين عنها.

وتستطيع النحلة أن تطير بسرعة (٦٥ كم) في الساعة، وإذا كانت تحمل من الرحيق ما يعادل ثلاثة أرباع وزنها، فإنها تستطيع أن تطير بسرعة (٣٠ كم) في الساعة، ويكلف الكيلو غرام الواحد من العسل النحلة ما بين (١٣٠) ألف إلى (١١٥) ألف حمل من الرحيق، فلو فرضنا أن الزهور تقع على بعد (١٥٠٠) متر من الخلية، فعلى النحلة أن تطير مقدار ثلاثة كيلومترات في كل نقلة، وعليها لصنع كيلو غرام واحد من العسل أن تطير مسافة تصل إلى (٣٦٠ ـ ٤٠٠) ألف كم، أي: ما يعادل عشر مرات محيط الأرض حول خط الاستواء[٢].

إنه جهد كبير هائل تبذله هذه الحشرات الصغيرة لتقدم كيلو غراماً واحداً من العسل للإنسان، فسبحان من ألهمها وذلل لها السبل!.

---

(١) العسل فيه شفاء للناس، ص٤٧.

(٢) المرجع السابق نفسه.

• العسل غذاء وشفاء:

﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ﴾ وهو العسل، وسمَّاه شراباً لأنه يُشرب، فله قيمة غذائية كبيرة، فهو أسرع المواد السكرية تمثيلاً في الجسم، لأن معظم سكرياته أحادية: سكر فواكه وسكر عنب، تُمتص مباشرة في الجسم من دون هضم، وهو يحتوي أيضاً على أملاح، وفيتامينات، وحامض الفورميك، ومواد غير معروفة تبلغ (٤٪) من تركيب العسل، وربما كان لكل هذه الخصائص أكبر الأثر في تجديد القوة الطبيعية لمن يتناول عسل النحل[١].

﴿مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ بحسب اختلاف الأزهار والنباتات التي رعتها النحل.

﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ أي: جعل الله تعالى في العسل شفاء للناس من كثير من الأمراض التي تصيبهم.

• من إعجاز السُّنَّة النبوية العلمي:

ولا بدَّ أن يكون للشفاء بالعسل علاقة بالمقدار المستعمل منه، فلكل مرض مقدار معيَّن يناسبه، ولهذا حددت مقادير الأدوية بدقة، وإذا ما استعمل الإنسان مقداراً من العسل يتناسب مع مرضه، حصل الشفاء، وبرأ بإذن الله تعالى.

دل على ذلك الحديث النبوي الشريف: فعن **أبي سعيد الخدري** ﵁: أنَّ رجلاً أتى النبيَّ ﷺ فقال: أخي يشتكي بطنَه، وفي رواية: استطلقَ بطنُه[٢]، فقال ﷺ: «**اسقه عسلاً**» ثم أتاه الثانية، فقال ﷺ: «**اسقه عسلاً**» ثم أتاه الثالثة، فقال ﷺ: «**اسقه عسلاً**» ثم أتاه فقال: فعلتُ، فقال: «**صدقَ الله وكذبَ بطنُ أخيكَ، اسقه عسلاً**» فسقاه، فبرأ. [رواه البخاري (٥٦٨٤) ومسلم (٢٢١٧) واللفظ للبخاري].

وقد ثبت علميّاً أن العسل يبيد الجراثيم، ويقضي عليها، وقد أجرى الطبيب

---

(١) مجلة العلم، عدد (٢١)، ص٢٦.

(٢) **استطلق بطنه**: أي أصابه الإسهال.

الجراثيمي (ساكيت) اختباراً علميّاً عن أثر العسل في الجراثيم، فقام بزرع جراثيم مختلف الأمراض في مزارع العسل الصافي، ولبث ينتظر... فأذهلته النتيجة المدهشة، فقد ماتت جميع الجراثيم وقضي عليها، لقد ماتت جراثيم الحمى النمشية (التيفوس) بعد (٤٨) ساعة، وجراثيم الحمى التيفية بعد (٢٤) ساعة.. وجراثيم الزحار العصري قضي عليها تماماً بعد عشر ساعات.. وهذا ما جعل الطبيب ظافر العطار والأستاذ سعيد القربي يذهبان في مقالة بعنوان: (العسل ينقذ الإنسان من جراثيمه الممرضة) في مجلة (طبيبك) عدد تشرين (١٩٧٠م)، إلى القول: إن قول (ساكيت): إن جراثيم الزحار قد قضي عليها بعد عشر ساعات فقط، قد يعطينا فهماً جديداً للحديث النبوي ـ الذي سبق ذكره ـ فاستطلاق البطن يمكن أن يكون بسبب الزحار، وتجربة (ساكيت) أثبتت أن العسل يقضي على جراثيمه[1].

وبهذا ظهر عَلَمٌ جديد من أعلام نبوته عليه الصلاة والسلام، ووجه جديد من وجوه إعجاز سنَّته، فهذه الحقائق العلمية ما عرفها العلماء إلا في العصر الحاضر.

وقد أجمع الأطباء والباحثون قديماً وحديثاً على أن العسل يصلح لعلاج كثير من الأمراض، فقد اعتمد عليه كمادة مضادة للعفونة، ومبيدة للجراثيم في أحدث مجالات الطب الحديث لحفظ الأنسجة والعظام والقرنية أشهراً عديدة، واستعمالها حين الحاجة إليها في جراحة التطعيم والترميم.

كما أظهرت الدراسات الحديثة الفرق الشاسع بين السكر العادي والعسل في مجال التغذية، وخصوصاً للأطفال، فالسكاكر المصنعة من العسل لا تحدث نخراً، ولا تسبب نمو الجراثيم.

كما برهنت دراسات (ف. بوكسي) خاصية العسل في تثبيت الكلس على العظام والأسنان، وأثره الفعَّال في نمو العظام الطبيعي عند الإنسان والحيوان.

---

(١) مجلة العلم، عدد (٢١)، ص٦٢ ـ ٦٣.

- **معالجات بعض الأمراض بالعسل:**

وفي العسل شفاء من **أمراض العين**، وأحدث ما نشر عن معالجة أمراض العين بالعسل ما كتبه كل من (ماكسيمنو) و(بالوتينا) عام (**١٩٣٧م**) عن قيمة العسل كعلاج ضروري للأطفال المصابين بقصر البصر.

وفي مجال **أمراض الأنف والأذن والحنجرة** أبحاث تؤكد فائدة تطبيق العسل موضعيّاً في معالجة اللوزتين، والتهاب الجيوب المزمن، والتهاب الفم القلاعي وتقرحاته، وأكدت بعض الأبحاث خاصية العسل كمادة مضادة لالتهاب المهبل والإحليل والمثانة.

وفي مجال **الطب العقلي** فإن حقن محاليل العسل الوريدية يعد تتويجاً وإتقاناً لأحدث صيغة في المعالجة الطبية لأعقد الحالات المرضية[١].

ونشرت مجلة (**العلم**) التي تصدر في تونس في عددها (**٢١**) سنة (**١٩٧٤م**) عدَّة مقالات لمشاهير الأطباء عن المعالجات في العسل منها:

- (حقن محلول العسل الوريدي في المعالجة السريعة للروماتزم) للدكتور نوفوسلسكي.
- (استعمال البنج الموضعي العسلي) للدكتور فوينبرغ.
- (الاستشفاء بالعسل في الأمراض النسائية، معالجة الحكة) للدكتور شولترز ونهوف.
- (معالجة جروح الحرب بالعسل) للدكتور تمنوف.
- (التحريات الإحصائية عن الأثر المانع لسم النحل على حدوث السرطان عند النحَّالين) إعداد: سعيد القربي.
- (معالجة التسمم الغولي بالعسل) إعداد: الكتور رين.

---

(١) انظر: مقدمة كتاب: العسل فيه شفاء للناس.

ـ (حقن المحاليل العسلية عقب العمليات الجراحية) للطبيبين محمد نزار الدقر ومروان صباغ.

ـ (الاستشفاء بالعسل كمضاد للعفونة) للطبيب محمد البيروتي.

وأخيراً لا بد أن أذكر كتاباً ألَّفته (إيفا كرين)، رئيسة جمعية أبحاث النحل البريطانية، صدر في عام (١٩٧٥م) عن العسل من كل نواحيه؛ وقد أنهت المؤلفة الحديث عن الخواص الحيوية للعسل، ومنافعه الطبية بقوله تعالى: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾. وترجمةُ ما قالته حرفيّاً: وهنا ونظراً لأن العسل مفيد على نطاق واسع، وغير مؤذٍ، فإنه يحق لنا بكل تأكيد أن ننهي هذا الفصل بالتعبير من السورة (١٦) من القرآن حينما تكلم عن العسل أنه ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾[1].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فإنَّ مَنْ تفكر في النحل ونظام حياته، والعسل الذي يصنعه لا بد أن يؤمن بوجود خالق قادر عليم حكيم ﷻ، ولا بد أيضاً أن يدرك عظيم فضله وإحسانه على الإنسان فيما أنعم عليه وسخَّر له.

- **التفاوت في الآجال:**

وبعد الحديث عن نعمة العسل ومصانعه وما فيها من دلائل، التفتت الآيات إلى الناس وهي تواجههم ببعض الحقائق الماثلة في بنيتهم وتكوينهم وأطوار حياتهم:

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ﴾ بآجال مقدَّرة مختلفة.

﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ ومنكم من يطول عمره حتى يعود كما كان في بداية حياته ضعيفاً جاهلاً ناقص العقل، وهي أصغر فترات حياته وأخسها، وهي من الآفات التي علَّمنا النبي ﷺ أن نستعيذ بالله منها.

---

(١) العسل فيه شفاء للناس، ص١٢.

فعن **سعد بن أبي وقاص** ﷺ: أنه كان يأمر بهؤلاء الخمس ويخبرهن عن النبي ﷺ: «**اللهمَّ إنِّي أعوذُ بكَ من البُخْل، وأعوذُ بك من الجُبْنِ، وأعوذُ بكَ أنْ أردَّ إلى أرذلِ العُمُرِ، وأعوذُ بكَ من فتنةِ الدُّنيا، وأعوذُ بك من عذابِ القبرِ**» [رواه البخاري (٦٣٧٠)].

﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ أي: لكي يصير إلى حال شبيهة بحال الطفولة في الجهل وسوء الفهم، يغلب عليه فيها النسيان والضعف والخلل، وتتكاثر عليه فيها الأسقام، كما قال تعالى: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [يسٓ: ٦٨].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بكلِّ شيء.

﴿قَدِيرٌ﴾ على كل شيء، يبدِّل أحوال مخلوقاته كما يشاء سبحانه.

فلا يتم التفاوت في أحوالهم وآجالهم إلا بمشيئته وقدرته، ولو كان هذا التفاوت بمقتضى الطبائع، كما يقول الملحدون والماديون، لما وجد التفاوت الكبير في أحوال المخلوقات وأعمارها وخصائصها.

وتدل الآية على أن التبدُّل والتغيُّر من صفات المخلوقات، أما صفات الخالق جلَّ وعلا، فلا يلحقها تغيُّر أو تبدُّل، فعلمه سبحانه أزلي كامل، وقدرته أزلية كاملة كسائر صفاته، لا تتغير كما تتغير قدرة البشر وعلمهم.

• **التفاوت في الأرزاق:**

وكما جعل اللهُ سبحانه الناسَ متفاوتين في أعمارهم وآجالهم، جعلهم أيضاً متفاوتين في أرزاقهم، فقال سبحانه:

﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾﴾.

﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ﴾ فوسَّع الرزق على بعض الناس، وضيقه على آخرين، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٣٠].

والتفاوت في الرزق من نعم الله سبحانه على الناس، فبسببه يتعارفون ويتواصلون، ويتبادلون المنافع، وتقوم المجتمعات، وتنشأ الحضارات، ويمتد العمران، وصرَّح سبحانه بحكمته هذه فقال: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

فالرزق بيده سبحانه، وتوزيعه بين الناس منوط بمشيئته وحكمته، والأغنياء الذين وسع الله عليهم أرزاقهم لا يملكون رزق أحد أبداً، فرزقهم ورزق غيرهم من الضعفاء والمماليك بيد الله تعالى.

﴿فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ لأنه سبحانه يرزق السادة والعبيد، والملاك والمماليك.

﴿فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ فالجميع متساوون في كون رزقهم على الله تعالى ومنه سبحانه، وما يقدِّمه السيد لعبده من رزق، هو في الحقيقة من رزق الله تعالى، قدَّره سبحانه للعبد في مال سيده، وكذلك ما يقدِّمه الغني من مال للفقير، ليس إلا الرزق الذي قدَّره سبحانه وفرضه للفقير في مال الغني، فالسيد والغني ليسا سوى وسائل مسخرة لإيصال رزق الله تعالى إلى من شاء من عباده.

﴿أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ فلا ينبغي لأحد أن يجحد فضل الله تعالى عليه فيما رزقه وقدر له، ولا ينبغي أيضاً لأحد أن يرى لنفسه فضلاً على غيره في الرزق، لأن الرزاق الحقيقي هو الله تعالى وحده.

- **نعمة الزواج والحياة العائلية:**

وأضافت الآيات إلى كل ما تقدَّم من النعم، نعمه سبحانه على الناس فيما يسَّر لهم من أسباب بناء الحياة الاجتماعية بينهم، وذلك بالتزاوج والتناسل، وبناء الحياة الزوجية والعائلية على المحبة والمودة:

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: من جنسكم ونوعكم.

﴿أَزْوَٰجًا﴾ لتأنسوا بها، وتسكنوا إليها، كما قال سبحانه في **سورة الروم**: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ أي: أولاداً وأولادَ أولادٍ.

﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ المستلذات النافعات، فكيف بعد كل هذه النعم الجليلة تؤمنون بغيره سبحانه؟!.

﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ وكل ما سوى الله تعالى باطل، كما جاء في قول الشاعر:

«ألا كلُّ شيءٍ ما خلا اللهَ باطِلُ»

وهي أصدق كلمة قالها شاعر، فعندما سمعها النبيُّ ﷺ قال: «**أصدقُ كلمةٍ قالها شاعرٌ كلمةُ لبيدٍ**[1]: **ألا كلُّ شيءٍ ما خلا اللهَ باطلُ**» [رواه مسلم (٢٢٥٦)].

﴿وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ أي: هم يجحدون.

فعبادتهم غيره سبحانه تدل على إيمانهم بالباطل، وجحودهم لنعمه سبحانه وفضله:

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا﴾ لأن الرزق بيده سبحانه وحده، كما مرَّ معنا من قريب، فلا أحد غير الله تعالى يملك شيئاً من الرزق في السماء أو في الأرض.

---

(١) هو لبيد بن ربيعة العامري، أشهر شعراء الجاهلية، وأحد أصحاب المعلقات، أسلم، وامتنع عن قول الشعر بعد إسلامه لاشتغاله بحفظ القرآن وتدبره، توفي سنة (٤١هـ).

﴿وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ فكما أنهم لا يملكون شيئاً من الرزق، فلا يستطيعون أيضاً إنزال شيء من رزق السماء، أو إخراج شيء من رزق الأرض، إلا بمشيئته تعالى وتقديره.

وتؤكد الآية ما سبق تقريره في السورة بأن شكر الله تعالى على نعمه يستوجب عبادته وحده، وأن من يعبد غيره لا يكون شاكراً له تعالى أبداً.

ولهذا ختم الله تعالى عرض المجموعة الثانية من النعم بالنهي القطعي عن أي مظهر من مظاهر الشرك، فقال:

﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٧٤﴾.

﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ﴾ أي: لا تجعلوا له شركاء، أو لا تجعلوا له مثلاً تشركونه به سبحانه، فهو لا مثل له ولا شبيه ولا شريك، كما قال جلَّ وعلا: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

فالخلق كلهم عبيده وفي ملكه، فلا تشبِّهوا الخالق بالمخلوق، والرازق بالمرزوق، والقادر بالعاجز.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ﴾ قُبح أعمالكم، وعظم جرائمكم، وسيعاقبكم عليها أوفى عقاب.

﴿وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

- **المثل الأول:**

ثم ضرب سبحانه مثلين يبيِّن للمشركين فيهما قبح شركهم وشناعته:

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنٗا فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرّٗا وَجَهۡرًاۖ هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٧٥﴾.

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ بسبب عجزه وضعفه.

﴿وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنٗا﴾ أي: وعبداً أنعمنا عليه وأعطيناه رزقاً طيباً كثيراً.

﴿فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا﴾ فهو يستعمل نعم الله تعالى عليه في مساعدة الناس في جميع الأحوال والأوقات.

﴿هَلْ يَسْتَوُونَ﴾ أي: هل يتساوى المتصفون بهذه الأوصاف المتباينة من الفريقين؟! فالعبد الفقير العاجز لا يستوي مع الغني الكريم المنفق، مع أنهما يتفقان في البشرية والمخلوقية والاحتياج إلى فضل الله ورزقه، فما ظنكم برب العالمين عندما تشركون به الأصنام، وتجعلونها تساوي القوي القادر القاهر في استحقاق العبادة والطاعة.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الحمد كله لله تعالى المتصف بكلِّ صفات الكمال والجلال، فلا يستحقه أحد سواه.

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنه وحده سبحانه المنعم المتفضل، وأن كل ما سواه ليسوا سوى وسائط مسخرة بمشيئته وقدرته جَلَّ جَلَالُهُ.

• **المثل الثاني:**

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ آخر يدل على ما دل عليه المثل السابق على وجه أظهر وأوضح[1].

﴿رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ﴾ أي: أخرس خِلْقة، فهو لا يسمع.

﴿لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ وهو أيضاً لا يقدر على فعل أي شيء لنفسه أو لغيره، بسبب شدة عجزه.

﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ﴾ أي: وهو ثقيل على من يلي أمره ويعوله.

﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ أي: إذا ما وجهه في قضاء أي حاجة، لا ينجح ولا يفلح.

---

(١) انظر: روح المعاني: ١٤/ ١٩٦.

فمن كان هذا حاله في العجز والضعف:

﴿هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾؟ لأنَّ من يأمر بالعدل لا بدَّ أن يكون ذا قوة في جسمه، وذا رشد في عقله ودينه.

﴿وَهُوَ﴾ في نفسه أيضاً.

﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: على هداية واستقامة ورشد، لا يحتاج إلى موجِّه ومرشد.

ويقال هنا كما قيل في المثل السابق: فكما أن التباين بين الرجلين واضح، وأنهما لا يستويان مع اتفاقهما في الصورة والخلقة البشرية، فبالأولى ألا تستوي الأصنام العاجزة عن النطق والحركة، والمحتاجة إلى من يحملها وينظفها في استحقاق العبادة مع الله تعالى القوي القادر القاهر جلَّ وعلا.

فله سبحانه كمال العلم والقدرة، لا يعزب عن علمه شيء في السموات والأرض:

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لا يخفى عليه شيء في السماوات والأرض مما غاب عن العباد، وسع سبحانه كل شيء علماً، لا تخفى عليه خافية.

﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾ وما أمر قيام الساعة في سرعته وسهولته إلا كلمح البصر لكمال قدرته جل وعلا.

﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ أي: بل هو أقرب من لمح البصر، ولا تنافي بين التشبيهين، لأن المراد بيان سرعة تحقق مراده تعالى، لا بيان زمان وقوعه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

❁ ❁ ❁

الفَصْلُ الرَّابِعُ

المَجْمُوعَةُ الثَّالِثَةُ مِنَ النِّعَمِ

نِعَمُ اللَّهِ الَّتِي يحتَاجُ إِلَيْها الإِنْسَانُ فِي حِمَايَتِهِ وَوِقَايَتِهِ

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

- **الإخراج من البطون:**

وعادت الآيات مرة ثالثة إلى تذكير الناس ببعض نعم الله تعالى عليهم، وبدأت من نعمة إخراج الإنسان من بطن أمه، قال تعالى:

﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ في الوقت المقدَّر بحكمته ومشيئته لخروجكم، وذلك حين يستكمل الجنين نموه، ويصبح في حال يمكنه معها العيش خارج رحم أمه، وهو القدر المعلوم الذي ذكره سبحانه في قوله في **سورة المرسلات**: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

وتسمَّى عملية خروج الجنين من بطن أمه: المخاض، وهي تنطوي على أدلة باهرة على كمال حكمة المولى سبحانه وقدرته، وتدل على رحمته سبحانه وفضله على الإنسان، بما يسَّر له من أسباب الخروج من بطن أمه بسلام، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾ [عبس: ٢٠].

فمن رحمته تعالى وحكمته أنه جعل حوض الأم يشبه قناة مفصلة تفصيلاً دقيقاً على قياس رأس الجنين عند تمام الحمل، وعندما يبدأ المخاض، ويبدأ الرحم بالتقلص دافعاً رأس الجنين شيئاً فشيئاً إلى الأسفل، الذي يندفع باتجاه الحوض بأوضاع معينة ومقدَّرة بدقة، حتى يحصل ما يسميه الأطباء بالتدخل، وهو اجتياز رأس الجنين لمدخل الحوض الأعلى، ولا يحصل التدخل إلا إذا تقدم الرأس بالعرض، لأن أقطار المضيق العلوي عرضانية.

ولا بد بعد ذلك أن يدور رأس الجنين، وهو في الحوض، حتى يتناسب مع أقطار مضيق الحوض السفلي الطولانية، وعملية الدوران محسوبة بتقدير الله تعالى بدقة، وقد جعل الله تعالى من أجلها القناة الحوضية أشبه بأسطوانة ملساء، وجعل فيها شوكين عظميين بارزين، فإذا استمرت تقلُّصات الرحم تدفع رأس الجنين شيئاً فشيئاً إلى الأسفل، حتى يصطدم بالشوكين المذكورين، اللذين يوجهانه بحيث يدور، وتتطابق أقطاره مع أقطار المضيق السفلي.

هذه هي الحكاية ـ كما قال الطبيب المتخصص بالحمل والولادة ـ: رأس

يتدخَّل بالعرض، ثم يدور في الحوض، ويتخلص منه بالطول، ولولا أن الحوض قد أُعِدَّ على قياسه بعناية لَمَا أمكنت الولادة، حتى إن الرأس إذا كان صغيراً فإنه يمر بسرعة أكبر، وكثيراً ما تعرضه هذه السرعة للرض والنزف الدماغي...

والسؤال الذي ما زال يحيِّر الأطباء هو: كيف تبدأ آلام المخاض وتحصل الولادة الطبيعية في الوقت المناسب؟ ما هو السبب؟ولماذا يبدأ الرحم تقلصاته التي لا تتوقف حتى ولادة الوليد؟[1].

والجواب على تساؤل الأطباء هنا هو في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ فبأمره تعالى يتقلص الرحم، وبمشيئته النافذة في ذرات الموجودات، وحكمته الباهرة، تتم عملية إخراج الجنين من بطن أمه.

- **وسائل التمكين:**

﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ أي: أخرجكم من بطون أمهاتكم وأنتم لا تعلمون شيئاً، ولا تقدرون أيضاً على شيء، في غاية الجهل والضعف، وفي أشد حالات الافتقار، فأمدكم الله تعالى بمعونته ورحمته، التي أحاطكم بها منذ بداية وجودكم في أرحام أمهاتكم.

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ وهي وسائل التمكين، التي تُمَكِّن الإنسان أن يدرك ما حوله من المخلوقات، وما فيها من دلائل تدله على وجود الله تعالى ووحدانيته، فهي من النعم الجليلة على الإنسان، تستوجب منه شكراً خاصّاً خالصاً لله تعالى عليها:

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ وأول ما يقتضيه هذا الشكر استعمال هذه الوسائل في الاستدلال على وجود الله تعالى والإيمان به وتوحيده ﷻ.

ولهذا قال سبحانه منبهاً على دليل من أدلة وجوده وعظمته وقدرته:

---

(١) انظر: القرار المكين، ص٧٩ ـ ٨٠.

﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾.

﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ﴾ أي: مذللات ومهيئات للطيران في الجو.

﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ﴾ ما يمنعهن من السقوط إلا الله تعالى بقدرته وحكمته، فقد خلق سبحانه في أجسام الطير وفي الجو الأسباب التي تمكِّن الطير من الطيران، ولمَّا هدى الله الإنسان إلى هذه الأسباب، بوسائل التمكين التي زوَّده بها: السمع والأبصار والأفئدة، واكتشف النواميس الدقيقة الكونية المحيطة بالأرض، تمكَّن بفضل الله تعالى من صُنع الطائرات، والاستفادة منها في الركوب والحمل، فالفضل لله تعالى أولاً وآخراً.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾ دالة على كمال قدرته وحكمته ورحمته.

﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يصدِّقون بوجود الله تعالى ووحدانيته.

- **نعمة المساكن والأثاث:**

ومن نعم الله تعالى على الإنسان أن هيأ له كل ما يحتاج إليه من أسباب الراحة الجسدية والنفسية في حياته، فقال سبحانه في معرض الامتنان على الإنسان:

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾﴾.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ لراحة أبدانكم، واطمئنان نفوسكم، فهو سبحانه الذي خلق المواد الأولية من الحجر والمدر والخشب والحديد، وغير ذلك من المواد التي يحتاج إليها الإنسان في بناء المساكن، وهداه سبحانه أيضاً إلى أساليب بنائها وعمارتها، بحيث يجد فيها كل ما يحتاج إليه من الراحة

الجسدية والنفسية، وأنعم عليه سبحانه أيضاً ببيوت أخرى متنقلة، يحتاج الإنسان إليها في أسفاره ورحلاته.

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا﴾ أي: يخفُّ عليكم حملها ونقلها.

﴿يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ﴾ أي: يوم سيركم ورحيلكم.

﴿وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ﴾ أي: وتخف عليكم أيضاً في يوم إقامتكم، فلا يثقل عليكم إقامتها وتشييدها.

﴿وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ﴾ أي: وجعلكم تتخذون من أصواف الأنعام وأوبارها وأشعارها:

﴿أَثَٰثٗا﴾ لبيوتكم؛ كالفرش والبسط والوسائد وغير ذلك.

﴿وَمَتَٰعًا﴾ تتمتعون بها وتنتفعون بها.

﴿إِلَىٰ حِينٖ﴾ تبلى وتفنى، أو إلى حين انقضاء آجالكم وموتكم.

- **نعم الحماية والوقاية:**

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ ٨١﴾.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ﴾ من الجبال والأشجار والصخور وغيرها.

﴿ظِلَٰلٗا﴾ تستظلون بها من حر الشمس ووهجها، وهي نعمة عظيمة يعرف قيمتها وضرورتها أهل المناطق الحارة على وجه الخصوص.

وقد اكتشف العلماء في العصر الحاضر وجود طبقات كثيفة، تحيط بالأرض، تظللها وتحميها من بعض الأشعة الكونية المؤذية القاتلة؛ منها طبقة الغلاف الأوزوني، وقد أقلق العلماء وأقضَّ مضاجعهم الثقبُ الذي حدث فيه، بسبب سوء استعمال الناس في العصر الحاضر لبعض نعم الله تعالى وإسرافهم فيها.

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾ أي: معاقل وحصوناً تتحصنون فيها من شدة الحر والسيول والفيضانات والأعاصير.

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ أي: والبرد أيضاً، وهي القمصان والثياب المصنوعة من القطن والكتان والصوف، لكي تحمي أجسامكم من الحر والبرد.

﴿وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ أي: وجعل لكم الدروع التي تحميكم في أثناء القتال من ضربات عدوكم.

فالله سبحانه هو المنعم بهذه النعم، ألا ترى كيف منَّ الله تعالى على نبيه داود عليه السلام بإلانة الحديد له، وتعليمه صناعة الدروع فقال: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠].

وقال أيضاً: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سبأ].

• **تمام النعم:**

﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ أي: كما أنعم عليكم بهذه النعم الجليلة، التي تحتاجون إليها في حياتكم ومعاشكم، ينعم عليكم أيضاً بنعمة أخرى، هي أجل وأعظم من جميع ما ذُكر، وبهذه النعمة يتم فضل الله تعالى عليكم، هذه النعمة هي: **نعمة الإسلام، وإنزال الوحي بالقرآن**، وهي النعمة العظمى التي تبقى النعم من دونها ناقصة، فلا تتم إلا بها، لأنها تبيِّن للناس كيف يشكرون الله تعالى على نعمه؟ وكيف يصلون إلى رحمته ورضوانه؟.

ولهذا أنزل الله تعالى على نبيِّه ﷺ عشية يوم عرفة في حجة الوداع قوله الكريم: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣].

فهل تقبلون هذه النعمة العظيمة، وترضون بما رضيه الله لكم، وتنقادون لأمره، وتسلمون لأحكام شرعه؟!:

﴿لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ فتسلمون.

أم تعرضون عن دينه وشرعه، وتجحدون فضله؟:

﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أي: أعرضوا عن دعوتك يا محمد.

﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ فليس عليك عتب في تقصير، فقد بلغتَ الرسالة، وأدّيت الأمانة، فلا يضرك إعراضهم، ولا تحزن عليهم.

إن إعراضهم عن دين الله وشرعه أمر عجيب مستقبح مستنكر:

﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ فيقرُّون أنها من الله تعالى، حكى الله تعالى ذلك عنهم في عدة آيات، منها: قوله تعالى في **سورة العنكبوت**: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

ومع إقرارهم ينكرونها، فيعرضون عن دعوة نبيه ﷺ، ويعبدون غيره:

﴿ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ فلا فائدة من إقرارهم بفضل الله عليهم إلا إذا انقادوا لدينه، ورضوا بشريعته، واتبعوا نبيه عليه الصلاة والسلام.

﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ الجاحدون المعاندون.

- **من مشاهد يوم القيامة:**

ولا يصلحُ لهذا العناد والجحود إلا أسلوب الإنذار والوعيد، ولهذا اتجهت الآيات إلى عرض بعض المشاهد المخيفة المرعبة في يوم القيامة:

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ يشهد عليهم، أنَّ رسالة الله تعالى قد بلغتهم، وأن حجته تعالى قد قامت عليهم، وهذا الشاهد هو النبي الذي أرسل إليهم؛

وسيدنا محمد ﷺ هو نبي الأمة المسلمة والشاهد عليها، كما قال تعالى في سورة النساء: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾.

﴿ثُمَّ﴾ بعد ذلك.

﴿لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في الكلام والاعتذار، كما في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات].

﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي: لا يكلفون أن يرضوا ربهم في ذلك اليوم، لأن الآخرة ليست دار تكليف[1].

فطلب الرضا منسدٌّ عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ [فصلت: ٢٤].

ومن قوله ﷺ وهو يناجي ربه: «**لك العُتبى حتى ترضى**»[2].

ومشهد ثانٍ من مشاهد الوعيد والتهديد:

﴿وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

﴿وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾ ليرتاحوا منه، ولو لفترة قصيرة.

﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي: ولا يؤخر عنهم العذاب، ولا يمهلون.

والمشهد الثالث مشهد المواجهة بين عامة الكفار وبين رؤسائهم في الكفر والضلال:

﴿وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

﴿وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ﴾ الذين أطاعوهم، وساروا وراءهم

(١) تفسير الخازن: ٣/ ٦٣٢.

(٢) سيرة ابن هشام: ٢/ ٤٨.

وقلدوهم، واتبعوا القوانين والشرائع التي ابتدعوها لهم.

﴿قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَۖ﴾ أي: الذين فُتِنَّا عن طاعتك وعبادتك بطاعتهم وعبادتهم، كأنهم يسألون الله تعالى أن يضاعف عذابهم، وقد ذكر ذلك صريحاً في آيات؛ منها: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٨].

ويردُّ زعماء الكفر والضلال على أتباعهم مكذِّبين لهم، ملقين تبعة ضلالهم على أنفسهم:

﴿فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ لأنكم ما عبدتمونا في الحقيقة، بل عبدتم أهواءكم وشهواتكم، فمسؤولية ضلالكم نابعة من نفوسكم، وهو ما يشير إليه الشيطان عندما يقول لأهل النار يوم القيامة: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ﴾ الآية [إبراهيم: ٢٢].

﴿وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

﴿وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَۖ﴾ أي: أعلنوا انقيادهم واستسلامهم لله تعالى في يوم القيامة، بعد التجبُّر والتكبُّر والعناد والجحود.

﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ وبطلت وضاعت جميع افتراءاتهم وأكاذيبهم، فعندما تظهر الحقائق، ويشرق نورها، تتلاشى الأكاذيب وتضمحل، كما يتلاشى الزبد وينطفئ بعد أن كان فوق الماء منتفشاً منتفخاً.

ثم بعد هذه المواجهة بين عامة الكفار وبين رؤسائهم ذكر سبحانه أنه قدَّر لرؤوس الكفر والضلال زيادة في العذاب على غيرهم:

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ في أنفسهم.

﴿وَصَدُّواْ﴾ غيرهم.

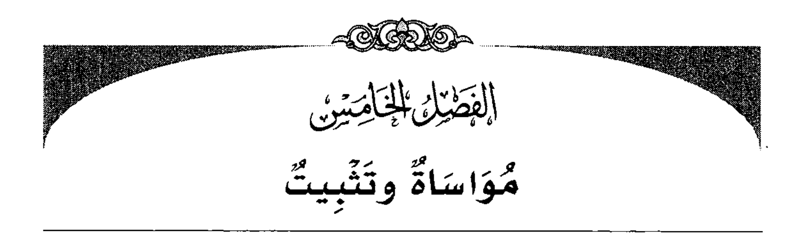
﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بمعارضتهم لانتشار دين الله تعالى، وسعيهم في نشر الكفر والضلال.

﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ الذي يستحقونه على كفرهم.

﴿بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ﴾ أي: بسبب سعيهم في نشر الفساد بين العباد، فالصدُّ عن دين الله تعالى أعظم أسباب الفساد في البلاد.

وأهل النار متفاوتون في دركاتهم، كما أن أهل الجنة متفاوتون في منازلها ودرجاتها.





الفَصْلُ الخَامِسُ

مُوَاسَاةٌ وتَثْبِيتٌ

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ

أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ ۞ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾

- **الشريعة الكاملة:**

ولما انتهت الآيات من تذكير الناس ببعض نعم الله تعالى عليهم من خلال المجموعات الثلاث، وختمتها ببيان أن تمام النعم في الانقياد لله تعالى وحده، والاستسلام لحكمه وشرعه، وتوعَّدت الجاحدين بعرضها لبعض مشاهد

العذاب يوم القيامة، شرعت تواسي النبي ﷺ عما يلقى من جحود المشركين وعنادهم، وتثبِّتُ المؤمنين وهم يواجهون أذى المشركين وعدوانهم.

استهلَّت الآيات هذا الفصل بتكرير ما سبق ذكره، بأن كل رسول يشهد على أمته يوم القيامة، فقد ذكرتْهُ هناك في معرض التهديد والوعيد للمنكرين الجاحدين، وذكرتْهُ هنا في معرض مواساة النبي ﷺ، وبيان فضل الله تعالى عليه بما أكرمه به:

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: منهم، فكل نبي بُعث من قومه إليهم.

﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾ أي: على قومك وأمتك، التي هي خير الأمم وأعظمها، والتي اجتباها الله تعالى واختارها من بين الأمم لتحمل أعظم رسالة وأكملها وأشملها، وهي رسالة الإسلام، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ۚ﴾ [الحج: ٧٨][1].

وكما أكرمه سبحانه بمقام الشهادة على أعظم الأمم، أكرمه أيضاً بالرسالة الكاملة الشاملة، رسالة الإسلام والقرآن:

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا﴾ بياناً كاملاً.

﴿لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ من أمور الدين والتشريع، فهو الطريق القاصد الذي تكفَّل الله تعالى ببيانه في صدر السورة عندما قال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩].

---

(١) انظر بسط الموضوع في: تفسير سورة الحج، المسمَّى في هذا التفسير الموضوعي الكبير: (الطريق إلى الأمة المسلمة في سورة الحج).

ففي القرآن الكريم الدين الكامل والشريعة التامة نصّاً وأصلاً، وما من حُكم يحتاج إليه الناس إلا له في القرآن الكريم نص صريح فيه أو أصل يتفرع منه.

وتدخل السُّنَّة الشريفة كلُّها في آية واحدة من آياته، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

وكل علوم الدين والشريعة من أصول وفروع، ورواية ودراية، تدور في فلك آياته ومعاني كلماته التي لا تنتهي.

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ وفي القرآن الكريم أيضاً أسباب الهداية إلى طريق السعادة، وأسباب استنزال رحمة الله تعالى والوصول إلى رضوانه وجنته، فضلاً عما فيه من بشائر للمسلمين، فكلما واجهتهم المصائب والنكبات ونزلت بهم المحن، وجدوا في كتاب الله تعالى الروح والراحة لقلوبهم ونفوسهم، فالتمسك به عصمة للمسلم من الخطأ والزلل، ونجاة له من الهموم والأحزان والمحن، فهو بر الأمان وسُلَّم النجاة، من تمسَّك به سلم، ومن عمل به أمن.

اللهم اجعل القرآن الكريم ربيع صدورنا، ونور قلوبنا، وذهاب همومنا، وجلاء أحزاننا.

- **العدل في الإسلام:**

وتأكيداً لكمال شريعة القرآن ذكرت الآيات أصلاً من أصوله الكبرى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ وهو الإنصاف، ومن الإنصاف الإقرار بنعمه سبحانه علينا، وشكره عليها، فشكر الله وحده هو العدل، وشكره سبحانه لا يكون إلا بتوحيده وطاعته وحده، والإعراض عمَّن سواه، فيلزمنا أن نشهد أن لا إله إلَّا

الله وحده لا شريك له، ولذلك قال من قال: **العدل** في هذا الموضع **شهادة أن لا إله إلا الله**. وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما[(١)].

ومن العدل: **إخلاص العمل لله تعالى وحده**، قال سفيان بن عُيَيْنة: العدل في هذا الموضع استواء السريرة والعلانية من كل عامل لله تعالى[(٢)].

ومن العدل أيضاً: **التسوية في الحقوق فيما بين الناس**، وترك الظلم، وإيصال كل ذي حق إلى حقه[(٣)].

والعدل بهذا المعنى أمر الله تعالى به في آيات كثيرة؛ منها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾ [النساء: ٥٨].

ومنها أيضاً: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

ومن العدل أيضاً: **التوسط والاعتدال في شؤون الحياة** من غير إفراط ولا تفريط، ولا غلو ولا تقصير، فدين الله تعالى بين الغالي والمقصِّر، والشريعة الإسلامية قائمة على أساس التوسط والاعتدال بين مطالب الدنيا والآخرة، ومطالب الروح والجسد، وهذه الميزة تجعلها تتفق مع الإنسان، وتلبي حاجاته التشريعية في كل زمان ومكان؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾ الآية [البقرة: ١٤٣].

وقال أيضاً: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

وقال أيضاً: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ١٣/ ١٠٩.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ٢/ ٣٤٣.

(٣) تفسير النسفي: ٣/ ٦٣٤.

﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧].

وقال أيضاً في معرض الثناء على المؤمنين: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

وقال رسول الله ﷺ: «**سدِّدوا وقارِبُوا وأبشروا، فإنَّه لن يدخِلَ الجنَّةَ أحداً عملُه**» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه برحمةٍ، واعلموا أن أحبَّ العملِ إلى الله أدومُه، وإن قَلَّ**» [رواه مسلم (٢٨١٨)].

- **الإحسان:**

﴿وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ أي: ويأمر سبحانه بالإحسان أيضاً، ويكون في العبادات والمعاملات:

فالإحسان في العبادات: أن تؤدَّى تامةً على الوجه اللائق، كما جاء في الحديث الشريف: عندما سئل النبي ﷺ: ما الإحسان؟ قال: «**أن تعبدَ الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**» [رواه البخاري (٥٠) ومسلم (٨)، واللفظ للبخاري].

وهذا الإحسان من حيث الكيفية، وأما من حيث الكمية فيكون بأداء نوافل العبادات الجابرة لما يوجد من نقص في الواجبات.

والإحسان في المعاملات: بالتجاوز عن الناس، والتفضل عليهم، والعفو عنهم، فالعدل الإنصاف، والإحسان التفضل، وأعلى مراتبه العفو عند المقدرة، والإحسان إلى المسيء، وهو بهذا المعنى مندوب في الإسلام، قال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

ولما أنزل الله على النبي ﷺ قوله الكريم: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] قال ﷺ: «**ما هذا يا جبريل؟ قال: إن الله أمرك أن تعفوَ عمَّن ظلمك، وتعطيَ مَنْ حرمك، وتصلَ من قطعك**» [رواه الطبراني مرسلاً (١٥٥٤٨) وابن مردويه موصولاً][(١)].

---

(١) كما في فتح الباري: ٨/٣٠٦.

وسيأتي إن شاء الله تعالى مزيد تفصيل لهذا المعنى في آخر السورة عند قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦].

﴿وَإِيتَآءِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي: ويأمر بإعطاء الأقارب ما يحتاجون إليه، وصلتهم، والإحسان إليهم فهو تخصيص بعد تعميم، يدل على اهتمام الإسلام بتقوية الصلات الاجتماعية بين الناس، وخاصة بين الأقارب، فللقريب في الإسلام حق واجب على قريبه، بصريح قوله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٦].

- **المنهيات الثلاثة:**

ثم أوردت الآية في مقابل هذه المأمورات الثلاثة، ثلاثة منهيات:

﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ﴾ أي: ينهى سبحانه عن الأعمال الفاحشة المفرطة في القبح كالزنى الذي نهى عنه ووصفه بقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

﴿وَٱلْمُنكَرِ﴾ أي: وينهى أيضاً عن المنكر، وهو يعمُّ جميع المعاصي والرذائل والدناءات على اختلاف أنواعها.

﴿وَٱلْبَغْىِ﴾ أي: وينهى أيضاً عن البغي، وهو الكِبْر والظلم والحقد والتعدي، وحقيقته: تجاوز الحد، وهو داخل تحت المنكر، لكنه تعالى خصَّه بالذكر اهتماماً به لشدة ضرره[١].

فكما اهتم الإسلام بإيتاء ذي القربى لما له من آثار إيجابية طيبة في تقوية العلاقات الاجتماعية بين الناس، اهتم كذلك في المنهيات بالبغي، لما له من آثار سلبية في القطيعة والتهاجر والاختلاف بين أبناء المجتمع الواحد، فالآية الكريمة بأوامرها ومنهياتها، تربي الفرد، وتهذب نفسه، ليصبح عضواً صالحاً نافعاً في مجتمع قوي متماسك، فهي أصل كبير من أصول الإسلام جاءت في

(١) تفسير القرطبي: ١٠/ ١٦٧.

سياق قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل: ٨٩] كبرهان عملي على أن القرآن الكريم قد اشتمل على كل ما يحتاج إليه الناس في أمور دينهم وعلاقتهم مع ربهم سبحانه، وعلاقاتهم فيما بينهم، حتى قال **ابن مسعود** رضي الله عنه: هي أجمع آية في القرآن للخير والشر، ولو لم يكن في القرآن غير هذه الآية لكفت في كونه تبياناً لكل شيء[1].

ولهذا ختمها سبحانه بقوله:

﴿يَعِظُكُمْ﴾ بما يأمركم وينهاكم.

﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ فضل الله عليكم فتشكروه على نعمه وإحسانه، بطاعته فيما أمر، واجتناب ما نهى عنه وزجر.

- **الثبات على الإسلام والوفاء بعهده:**

وبعد هذه المواساة والتكريم للنبي ﷺ، التفتت الآيات إلى المؤمنين تثبتهم على الطريق المستقيم القاصد، وتحثُّهم على التمسك بعهد الإيمان:

﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾.

﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾ أي: اثبتوا على الإسلام الذي التزمتم به طائعين، حينما أجبتم دعوة رسول الله ﷺ، فمبايعته مبايعة لله تعالى، كما في قوله عز شأنه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠].

﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾ أيمان البيعة.

﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ أي: بعد توثيقها على اسم الله تعالى.

﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ شاهداً ورقيباً.

---

(١) تفسير أبي السعود: ٥/١٣٦.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ من نقض للعهد، وعدم الوفاء به، فيجازيكم عليه، فاثبتوا على الإيمان، وتمسَّكوا بالإسلام.

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرۡبَىٰ مِنۡ أُمَّةٍۚ إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا﴾ أي: ولا تكونوا كالمرأة الحمقاء التي كلما غزلت شيئاً من الصوف أو الوبر وأحكمته؛ نقضته وفرقته.

﴿تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ﴾ وبهذا تجعلون عهودكم ومواثيقكم وسيلة للمكر والخديعة والفساد بينكم.

﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرۡبَىٰ مِنۡ أُمَّةٍۚ﴾ أي: بسبب أن المشركين كانوا أكثر عدداً ومالاً من المسلمين.

• **فَهْمٌ سيئٌ:**

وهو ما يفعله كثير من ضعاف الإيمان من المسلمين في العصر الحاضر، يرون غنى الكفار وقوتهم، وضعف المسلمين وفقرهم، فيفتنون عن دينهم، ويرتدون إلى الكفر، وما علموا أن هذا الضعف والفقر ليس بسبب كونهم مسلمين، فالإسلام دين العلم والقوة، وما تَخَلُّفُ المسلمين إلا بسبب سوء فهمهم لحقيقة دينهم، وانصرافهم عن كثير من أحكام شريعته، وما علموا أيضاً أن هذا التفاوت بين الأمم والشعوب هو ابتلاء من الله تعالى وامتحان، كالتفاوت الذي جعله سبحانه بين الأفراد في الأرزاق والمواهب والملكات، ولهذا قال سبحانه:

﴿إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ﴾ أي: إنه تعالى يختبركم ويمتحنكم بهذا التفاوت بينكم وبين الكفار، ليظهر الثابت على إيمانه والمتمسك بدينه، من الذي يغتر بقوة الكفار وغناهم، فيفتن عن دينه، ويرجع القهقرى إلى الكفر والشرك،

فالتفاوت بين الأمم والشعوب أحوال عارضة لا تدوم، والأيام دول، يوم لك ويوم عليك، والعطاء والرزق منوط بأسباب، هي بمثابة المفاتيح له، وهي العلم والعمل والجد والسعي، فمن حصل عليها، واستفتح بها رزق الله تعالى، فتح الله له، سواء كان مؤمناً أو كافراً: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠].

فمتى يفقه المسلمون هذه الحقائق، ويتمسَّكون بدينهم، ويقبلون بجد وعزم على العلم والعمل في ظل شريعة دينهم؟! بهذا فقط يلحقون ركب الأمم التي سبقتهم، بل ويتقدَّمون عليهم.

ثم ختم الله سبحانه الآية متوعِّداً فقال:

﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾ فيظهر المحق من المبطل، ويجازيكم بأعمالكم ثواباً وعقاباً.

﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَلَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ فهو سبحانه قادر على أن يجعل جميع الناس متساوين في القوة والرزق والدين، ولكنه سبحانه جعل الحياة الدنيا دار ابتلاء واختبار، وجعل التفاوت والتباين بين الأفراد والأمم من أسباب الابتلاء والاختبار.

﴿وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ ممَّن علم سبحانه خبث طويته وسوء نيته، كما قال جلَّ وعلا في **سورة البقرة**: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرًاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ ممن علم سبحانه طيب نفسه وصفاء سريرته كما قال سبحانه في **سورة الرعد**: ﴿وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ﴿٢٧﴾﴾ وذلك بأن يوفقه إلى معرفة الحق، ويشرح صدره للانتفاع بدلائله وآياته، فالابتلاء والاختبار في الدنيا، والحساب والجزاء في الآخرة:

﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بكسبكم واختياركم.

- **التحذير من زلة القدم:**

نزلت هذه الآيات في مكة المكرمة، عندما كان الصحابة ﷺ يتعرضون لأقسى أنواع العذاب والأذى، بسبب إيمانهم واستجابتهم لدعوة النبي ﷺ فكانوا في أمسِّ الحاجة إلى مثل هذه الآيات، لكي تثبتهم، وتشد عزائمهم، ولهذا عادت الآيات مرة ثانية تأمرهم بالثبات على عهود الإيمان، وتحذرهم من نقضها، إلا أنها في هذه المرة بيَّنت لهم ما يترتب على نقضها من عواقب سيئة وخيمة:

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾﴾.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ﴾ أي: لا تعقدوا الأيمان، وتدخلوا في عهد الإسلام، وأنتم تريدون الخديعة والفساد، فإن عدم الإخلاص يؤدي إلى عدم الثبات، والانحراف عن طريق الحق.

﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ أي: تنتقلون من خير إلى شر، لأن القدم إذا زلت، نقلت الإنسان من حال خير إلى حال شر، والعرب تقول لكل مبتلًى بعد عافية، أو ساقط في ورطة: زلت قدمه[1].

﴿وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وبزلة القدم هذه تقعون في السوء بسبب إعراضكم وانصرافكم عن دين الله تعالى، هذا في الدنيا.

﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في الآخرة.

- **أهم أسباب الردة:**

ولما كان التعلق بشهوات الدنيا أهم أسباب الفتنة والردة عن الدين،

---

(١) تفسير القرطبي: ١٠/ ١٧٢.

اتجهت الآيات إلى تزهيد المؤمنين بشهوات الدنيا العاجلة الفانية، ورفع هممهم وقلوبهم لتتعلَّقَ بما عند الله تعالى من النعيم الدائم في الجنة:

﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: لا تتركوا عهد الله تعالى، وتأخذوا بدله عوضاً من شهوات الدنيا، وهو مهما بلغ قليل وحقير بجانب ما عند الله تعالى من النعيم والثواب المقيم، كما جاء في الحديث النبوي الشريف: «**بادروا بالأعمال فتناً كقطعِ الليلِ المُظلمِ، يصبحُ الرجلُ مؤمناً، ويمسي كافراً، يبيعُ دينَه بعرضٍ من الدنيا قليل**» [رواه مسلم (١١٨)].

﴿إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من الدنيا بما فيها، لأنها زائلة منتهية، ولا تصفو من كدر.

﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: إن كنتم من أهل العلم والفهم والتمييز.

﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ﴾ ينقضي ويزول مهما كثر عدده وطال أمده.

﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ﴾ من النعيم.

﴿بَاقٍ﴾ لا نفاد له ولا انتهاء، كما قال سبحانه في معرض الحديث عن نعيم الجنة: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ﴾ [صٓ: ٥٤].

بل هو في ازدياد، كما في قوله أيضاً: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [قٓ: ٣٥].

وبعد أن زهَّدهم سبحانه بشهوات الدنيا، ورغَّبهم بنعيم الآخرة، وعدهم بالأجر العظيم، والثواب الجزيل إن ثبتوا وصبروا فقال:

﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على العهد، وثبتوا على طريق الحق، وتحمَّلوا الأذى والاضطهاد من أجل دينهم.

﴿أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ من الأعمال الصالحة، إذ يعطيهم الله سبحانه الثواب بحسب أحسن أعمالهم التي تقرَّبوا بها إليه في الدنيا.

• **الحياة السعيدة الطيبة:**

وفي سياق الترغيب بيَّنَ سبحانه أنَّ الحياة السعيدة الطيبة لا تكون إلا في ظلال الإيمان والعمل الصالح، فقال:

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾.

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ فالمرأة في هذا كالرجل.

﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بشرط الإيمان، فلا قيمة لأي عمل صالح من دون الإيمان بالله تعالى، ولهذا قال سبحانه في أعمال الكفار: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣] فلا بد لقبول العمل الصالح من الإيمان بالله الواحد الأحد، والانقياد لرسالة الإسلام.

﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ في الدنيا، وذلك بأن ييسر له تعالى سبل العيش الكريم والرزق الحلال، ويجعله قانعاً راضياً به، لا يبغي على أحد، ولا يحسد أحداً، كما يجعله يتذوَّق حلاوة الإيمان، وبرد اليقين، ولذَّة عبادة الله تعالى ومناجاته، ويعرف حكمة خلقه ووجوده، فتسكن نفسه، وتقر عينه، فلا قلق في نفسه ولا حيرة ولا اضطراب في قلبه وفكره.

ومهما أوتي الإنسان من أسباب الغنى المادي، فلن يستشعر هذه المعاني، ويتذوَّق طعم السعادة، إلا في ظلال الإيمان بالله وطاعته وعبادته، ولهذا ترى كثيراً من الناس في العصر الحاضر عندما ابتعدوا عن الإيمان، وطغت عليهم الأفكار المادية الملحدة، أصبحوا أسرى القلق والهم والحَيْرة، والشعور بالضياع والتمزُّق، وصدق سبحانه القائل: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤].

فلا ينبغي للمسلم أن يغترَّ بأسباب الرخاء المادي الفاجر الكافر، كما مرَّ معنا الإشارة إليه في قوله: ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ [النحل: ٩٢].

إنهم بسبب بُعدهم عن معاني الإيمان، لم يجنوا منه إلا الهم والقلق والحيرة والتمزق، وكل ذلك بسبب جوع أرواحهم، وجفاف مشاعرهم، وقسوة قلوبهم، وظلمة عقولهم.

وبعد الحياة الطيبة في الدنيا الجزاء الكريم يوم القيامة:

﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

- **الحصن الحصين من أسباب الردَّة:**

ومن أراد أن يثبِّته الله تعالى على الحق، ويمنعه من أسباب الردة والتعلق بشهوات الدنيا، والتأثر بوساوس الشيطان، فعليه أن يكثر من تلاوة القرآن الكريم بتدبر وخشوع، فهو الحصن الحصين للإيمان، ولهذا اتجهت الآياتُ إلى حثِّ المؤمنين على تلاوة القرآن الكريم، والتأدُّب بآدابه والعمل بأحكامه:

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾.

أي: الجأ إلى الله تعالى، واسأله أن يعيذك ويحميك من وساوس الشيطان المبعد عن رحمته تعالى، لأنه سبحانه لعنه وطرده من ساحات فضله وكرمه.

﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

فلا تسلُّط للشيطان على المؤمنين ما داموا يذكرون الله تعالى ويتوكلون عليه ﷻ، فالمؤمن ذو القلب الموصول بالله تعالى لا يقبل وساوس الشيطان، ولا يتأثر بها.

﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾ أي: يتخذون الشيطان وليّاً بطاعته وقبول وساوسه.

﴿وَالَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ أي: والذين هم بسبب طاعتهم للشيطان ومتابعتهم له يشركون بالله تعالى ويكفرون به.

• **موقفان متباينان:**

ومن رحمته تبارك وتعالى وحكمته أنه نزَّل القرآن الكريم مفرَّقاً على مدى بعثة النبي عليه الصلاة والسلام التي امتدت ثلاثة وعشرين عاماً، وفي خلال ذلك اقتضت رحمته وحكمته سبحانه أيضاً نسخ بعض الآيات الكريمة بآيات أخرى، رحمة بالمؤمنين، وتثبيتاً لهم، فقال سبحانه يبيِّن موقف الكفار من ذلك وموقف المؤمنين:

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾.

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ﴾ بنسخ الآية الأولى بالآية الثانية، كما قال في **سورة البقرة**: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾﴾ [البقرة].

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟﴾ أي: الكفار.

﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍ ۚ﴾ أي: مُتقوِّل على الله تعالى، تأمر بشيء، ثم يبدو لك ما يخالفه.

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ حكمة الله تعالى في ذلك، ولا يميزون بين الخطأ والصواب.

﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ الْقُدُسِ﴾ وهو جبريل عليه السلام، المَلَك المقدَّس المطهر المؤتمن على وحي الله تعالى إلى أنبيائه.

﴿مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ الثابت والحكمة التامة.

﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: ليُثبِّت بالقرآن الكريم الذين آمنوا، فيزدادوا إيماناً وثباتاً، فكلما أنزل الله تعالى شيئاً من القرآن الكريم ازداد المؤمنون إيماناً وثباتاً، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤].

وخاصة عندما ينزل الله تعالى آية ناسخة لحكم آية، ويرى المؤمنون ما في الآية الناسخة من رعاية لمصالحهم، وملاءمة للمرحلة الجديدة التي هم فيها، فترسخ عقائدهم، وتطمئن قلوبهم، فالتنزيل الحكيم يرعى مصالحهم، ويقدر ظروفهم وأحوالهم؛ ففيه الرحمة والحكمة، وفيه أيضاً:

﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾.

- **جهل وغباء وكذب:**

ومما يدل على شدة جهل المشركين وغبائهم، اتهامهم النبي ﷺ بتهمة واضحة البطلان، وهي التي ذكرها سبحانه بقوله:

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ أي: الله سبحانه يعلم أن المشركين يقولون: إن الذي يعلِّم محمداً ﷺ القرآن بشرٌ، وهو جبر الرومي غلام حداد عند الصفا، كان النبيُّ ﷺ يجلس إليه أحياناً، وكان مولى لبني الحضرمي.

فردَّ سبحانه عليهم فريتهم التي تدل على شدة جهلهم وغبائهم، وتدل أيضاً على شدة حقدهم على النبي ﷺ، فقال:

﴿لِّسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ﴾ أي: لسان الذي يشيرون إليه ويميلون إليه أعجمي لا يفصح، ولا قدرة له على البيان.

﴿وَهَٰذَا﴾ القرآن الكريم.

﴿لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ عجز عن مثل سورة منه الفصحاء والبلغاء، فكيف فاتهم إدراك هذه الحقيقة الواضحة؟!.

وسبب هذا الغباء والجهل كفرهم بالله تعالى وآياته، فإنَّ الكفر يؤدِّي إلى ظلمة في القلب والنفس، ولهذا قال تعالى بعد ذلك:

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ﴾ إلى الحق، فتبقى قلوبهم مظلمة محرومة من نور الإيمان وبصائره.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في يوم القيامة.

والكذب على الله تعالى لا يليق بأي إنسان مؤمن، فكيف اتهموا به أصدق الصادقين رسول الله ﷺ الذي اشتهر بينهم بالصدق والأمانة؟!:

﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ﴾ على الله تعالى.

﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ أي: إن الكفار هم الكاذبون على الحقيقة، الموغلون في الكذب، لأن الكفر بالله تعالى أعظم الكذب.

- **الإكراه على الكفر:**

وفي سياق آيات التثبيت هذه، توعَّد الله تعالى المرتدِّين عن الإسلام فقال:

﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾.

﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ﴾ فعليهم غضب من الله تعالى كما سيأتي بيانه.

﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾ على الكفر بإكراه شديد ملجئ، فكفر بلسانه فقط.

﴿وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ ثابت على الإيمان ساكن به، لم يتزعزع؛ فهو مؤمن، وما تلَفَّظ به لسانه بالإكراه لا يؤثِّر على عقيدته.

وقد أجمع أهل العلم على أن من أكره على الكفر، حتى خشي على نفسه القتل أنه لا إثم عليه إن كفر وقلبه مطمئن بالإيمان، ولا تبين عنه زوجته، ولا يحكم عليه بحكم الكفر[(١)].

وأجمع العلماء أيضاً على أن من أكره على الكفر، فاختار القتل، أنه أعظم أجراً عند الله ممن اختار الرخصة[(٢)].

وقد روي عن **ابن عباس** رضي الله عنهما أن هذه الآية نزلت في عمار بن ياسر رضي الله عنهما، حين عذبه المشركون حتى يكفر بمحمد ﷺ، فوافقهم على ذلك مكرهاً، وجاء معتذراً إلى النبي ﷺ، فأنزل الله هذه الآية[(٣)].

روي أن قريشاً أكرهوا عماراً وأبويه ياسراً وسمية على الارتداد، فأباه أبواه، فربطوا سمية بين بعيرين، ووجئت بحربة في قُبلها، وقالوا: إنما أسلمت من أجل الرجال، فقتلوها، وقتلوا ياسراً، وهما أول قتيلين في الإسلام، وأما عمار فأعطاهم بلسانه ما أكرهوه عليه، فقيل: يا رسول الله إن عماراً كفر، فقال رسول الله ﷺ: «**ملئ عمار إيماناً إلى مُشاشه**» [رواه النسائي (٥٠١٠)].

والمشاش: رؤوس العظام اللينة التي يمكن مضغها.

وأتى عمار رسول الله ﷺ وهو يبكي، فجعل رسول الله ﷺ يمسح عينيه وقال: «**ما لك؟ إن عادوا لك فعد لهم بما قلت**»[(٤)].

وهو دليل على جواز التكلم بكلمة الكفر عند الإكراه الملجئ، وإن كان الأفضل أن يتجنَّب عنه إعزازاً للدين كما فعله أبواه[(٥)].

---

(١) تفسير القرطبي: ١٠/ ١٨٢.

(٢) المرجع السابق نفسه.

(٣) مختصر تفسير ابن كثير: ٢/ ٣٤٨.

(٤) تفسير أبي السعود: ٥/ ١٤٣.

(٥) المرجع السابق نفسه.

﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾ أي: طاب به نفساً، وفتح له قلبه باختياره.

﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: عليهم غضب عظيم، وأظهر الاسم الجليل ﴿ٱللَّهِ﴾ لتربية المهابة، وتقوية تعظيم العذاب[1].

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي: هذا العذاب بسبب إيثارهم الحياة الدنيا على الآخرة.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ الذين يختارون الكفر ويرضون به.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ المرتدُّون إلى الكفر باختيارهم ورضاهم.

﴿ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾ فلا ينتفعون بها لمعرفة دلائل الإيمان.

﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ عن ربهم بسبب تعلقهم بشهوات الدنيا.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾﴾.

﴿لَا جَرَمَ﴾ حقاً.

﴿أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ إذ ضيعوا أعمارهم، وصرفوها في شهوات الدنيا الزائلة الحقيرة.

• عقوبة المرتدِّين:

هذا التشديد والوعيد يدل على أن الردة عن الإسلام جريمة منكرة كبيرة

---

(١) المرجع السابق نفسه.

فللعقيدة الإسلامية قداستها وحرمتها، ولا يسمح الإسلام أبداً لضعاف النفوس أن ينتهكوا حرمة عقيدته، ويتسلَّقوا أسوارها، ويخرجوا عليها، بعد أن دخلوا فيها طائعين راغبين.

فلا عجب أن يشدد الله تعالى كل هذا التشديد على المرتدين، ويتوعَّدهم كل هذا الوعيد، فيعلن سبحانه غضبه العظيم عليهم، والطبع على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم، ويحكم عليهم بالحرمان من الهداية في حال إصرارهم على ردَّتهم، وإيثارهم لشهوات الدنيا الزائلة الحقيرة.

ولا عجب أيضاً أن يأمر النبي ﷺ بقتل المرتد المصرِّ على ردته بقوله الكريم: «**من بدل دينه فاقتلوه**» [رواه البخاري (٣٠١٧)].

فللعقيدة الإسلامية حرمتها وقداستها، ويجب صيانتها من عبث العابثين كما كان بعض يهود المدينة المنورة يفعلون، فقد كانوا يعلنون دخولهم في الإسلام أول النهار نفاقاً واستهزاءً، ثم يرتدون عنه في آخر النهار، وأنزل الله تعالى فيهم قوله الكريم: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران: ٧٢].

- **الحث على التوبة والرجوع إلى الإسلام:**

وبعد كل هذا التشديد والوعيد للمرتدين، فتح الله تعالى لهم باب التوبة، وحثهم على الإنابة والعودة إلى الحق، والرجوع إلى الطريق القاصد المستقيم، فالإسلام دين الرحمة، ومهما نأى الإنسان بنفسه عن طريق الحق، وجمحت به أهواؤه وشهواته، فإنه يستطيع الرجوع، **والتوبة تمحو الحوبة**، ولحظة صدق وإخلاص مع الله تعالى تزيل شقاء عمر كامل، ولهذا قال سبحانه:

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ إلى المدينة المنورة.

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ﴾ أي: من بعد ما عُذّبوا حتى ارتدوا عن الإسلام.

﴿ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ﴾ على الجهاد وما أصابهم فيه.

﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا﴾ من بعد الهجرة والجهاد والصبر.

﴿لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ يغفر لهم ويرحمهم.

قال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ اللهُ: «وذُكر عن بعض أهل التأويل أن هذه الآية نزلت في قوم من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا تخلَّفوا بمكة بعد هجرة النبي ﷺ، فاشتد المشركون عليهم حتى فتنوهم عن دينهم، فأيسوا من التوبة، فأنزل الله فيهم هذه الآية، فهاجروا ولحقوا برسول الله ﷺ»[1].

ولا شك أن هجرة الديار والأوطان والأهل والعشيرة والخلّان، أمر شاق على النفس، إلا أن شعور المؤمن بمسؤوليته الشخصية أمام الله تعالى يوم القيامة يهون مشقة الهجرة عليه، فلن ينتفع يوم القيامة بقرابة أو عشيرة أو ولد، ولهذا قال سبحانه يذكّر المهاجرين بهذا المعنى:

﴿يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١١١﴾.

﴿يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا﴾ فلا يجادل أحد عن أحد، كما قال سبحانه في **سورة عبس**: ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ٣٦ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ٣٧﴾.

﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ﴾ أي: تُعطى كلُّ نفس جزاء عملها كاملاً، لا عمل غيرها.

﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾.

ولا بدّ من الإشارة هنا إلى أن هذه الآية التي تحث على التوبة والهجرة قد تأخّر نزولها كثيراً عن آيات السورة، إذ نزلت بعد الهجرة بعدة سنوات في المدينة المنورة، ومع ذلك جاءت متسقة تماماً في موضوعها مع موضوع السورة، وفي

---

(١) تفسير الطبري: ١٤/ ١٢٣.

موضعها من آيات السورة، وهذا من إعجاز القرآن الكريم، فمع أن ترتيب نزوله يختلف اختلافاً كبيراً عن ترتيب آياته في السور، فإن الانسجام والاتساق بين آياته في السور يبدو واضحاً وقوياً لكل من يتدبر معاني الكتاب الكريم.

- **نعمة الأمن والطعام:**

وانتقلت الآيات من وعيد وتهديد المرتدين إلى وعيد وتهديد الجاحدين ببيان ما يترتب على عدم شكر النعمة من نزعها وحرمان أصحابها منها، وقرَّبت لهم هذا المعنى بِمَثَل واقعي فيه تعريض كبير بهم، قال تعالى:

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً﴾ قال ابن كثير رحمه الله: «هذا مثل أريد به أهل مكة، فإنها كانت آمنة مطمئنة مستقرة، يُتخطف الناس من حولها، ومن دخلها كان آمناً لا يخاف، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ٥٧].

وهكذا قال هاهنا:

﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا﴾ أي: هنيئاً سهلاً»[١].

﴿مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ في الأرض، إذ تُحمل إلى أسواق مكة البضائع والأرزاق من جميع البلاد.

وتدل الآية على أن الأمن والاستقرار، وتوفر الطعام والأرزاق، من النعم الكبرى؛ فإن الأمن والطعام نعمتان عظيمتان، تعرف قيمتهما على وجه الخصوص الشعوب المضطهدة المظلومة المحرومة منهما، بسبب الحكّام المستبدِّين

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٢/ ٣٤٩.

المتاجرين بطعام شعوبهم، وضروريات عيشهم، في ظل أنظمة جائرة فاسدة تُعطي الحاكم حق تملك وحيازة كل ما لدى الأفراد من نتاج جهدهم وكدهم.

﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾ أي: جحدت نعم الله تعالى عليها، بالشرك والكفر والإعراض عن دعوة النبي ﷺ.

﴿فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾ بنزع نعمة الطعام والأمن عنهم، فعرفوا طعم الجوع والخوف، وكانا شديدين عليهم أحاطا بهم من كل جانب حتى صارا لهم كاللباس.

حدث ذلك لمشركي مكة بعد الهجرة، إذ سلط الله سبحانه النبي ﷺ وأصحابه عليهم وعلى طرق تجارتهم وميرتهم، وقطع سبحانه أيضاً المطر عنهم، حتى جفَّت بواديهم ونفقت مواشيهم.

قال **ابن مسعود** رضي الله عنه: إنما كان هذا لأن قريشاً لما استعصوا على النبي ﷺ، دعا عليهم بسنين، كسني يوسف، فأصابهم قحط وجهد،حتى أكلوا العظام، فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد، فأنزل الله ﷻ: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الدخان] قال: فأُتي رسول الله ﷺ فقيل له: يا رسول الله استسقِ لمضر، فإنها قد هلكت، قال: «**لمضر؟! إنك لجريء، فاستسقى فسقوا...**» [رواه البخاري (٤٨٢١)].

وكل ذلك:

﴿بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ من الكفر والشرك والفجور.

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: من جنسهم، يعرفون أصله ونسبه وخلقه، وبعثته ﷺ فيهم أعظم نعم الله تعالى عليهم.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ في رسالته، وطعنوا في صحة نبوَّته.

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ بما أنزل فيهم من الخوف والجوع.

﴿وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ وهم في حال ظلمهم وبغيهم وكفرهم.

• **أهم المحرَّمات من الأطعمة:**

وبعد أن انتهت الآيات من تهديد الكافرين، توجهت إلى المؤمنين تأمرهم على سبيل الإباحة أن يأكلوا من رزق الله تعالى، ويتمتعوا بما أحل لهم من الطيبات:

﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾﴾.

﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾.

ثم عليهم بعد ذلك أن يشكروا الله تعالى:

﴿وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ بمعرفة حقها، فلا يقابلوها بالكفران والعصيان.

﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أي: إن كنتم حقاً تعبدون الله وحده، فاعرفوا قدر نعمه عليكم، واشكروه عليها.

ومن الشكر أن يقف الإنسان عند حدود ما أحلَّ الله تعالى له، فلا يتجاوزها إلى المحرَّمات، وأهمها في المطاعم ما ذكره سبحانه بقوله:

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾.

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ﴾ التي ماتت حتف أنفها من غير ذبح شرعي.

﴿وَٱلدَّمَ﴾ المسفوح.

﴿وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ﴾ وقد أثبتت الدراسات العلمية الحديثة أن في لحم الخنزير أضراراً بالغة كثيرة، وأنه ناقل جيد لكثير من الأمراض الخطيرة.

حتى إن بعض الباحثين من المسلمين ألَّف كتاباً في الأمراض التي ينقلها الخنزير إلى الإنسان جاء فيه: «الخنزير حيوان قذر، يأكل النجاسات والقمامات

ومخلَّفات المجازر والجيف والجرذان والفئران.. إلى غير ذلك، ويصاب بعدد كبير من الأمراض، وبائية وغير وبائية لاتقل عن (٤٥٠) مرضاً، ويقوم بدور الوسيط لنقل أكثر من (٧٥) مرضاً وبائيّاً إلى الإنسان، غير الأمراض العادية الأخرى التي يسببها أكل لحمه مثل: تليُّف الكبد، وعسر الهضم، والحساسية الغذائية، وتساقط الشعر من الرأس، وتصلب الشرايين، وضعف الذاكرة، والعقم، وتنشيطه لمرض الربو والروماتيزم، وكثرة الأكياس الدهنية، ثم آثاره السيئة على العفَّة والغيرة في التكوين النفسي»[1].

﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ أي: وحرَّم عليكم كل ما ذبح على غير اسمه تعالى فالواجب الذبح على اسمه تعالى، لأنه هو الخالق لهذه الذبائح، وهو الذي سخرها لنا، وأحلها، فلا يحل الأكل مما ذبح على غير اسمه تعالى، كما قال جلَّ وعلا: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١].

ومن يُسر الإسلام أنه أباح المحرَّمات عند الضروروة المُلْجِئة إليها، ولهذا قال سبحانه:

﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾ إلى الأكل من هذه المحرَّمات، فيحل له بشرط أن يكون:

﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ أي: غير قاصد بالأكل منها المعصية، بل قصده حفظ حياته، لأنه لا يجد غيرها.

﴿وَلَا عَادٍ﴾ ولا متجاوز المقدار الذي يحفظ حياته، **فالضرورات تقدَّر بقدرها**. فهو كقوله سبحانه: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣][2].

وكذلك قال هنا أيضاً:

---

(١) الخنزير بين ميزان الشرع ومنظار العلم، ص٩١.

(٢) انظر تفصيل هذا الحكم في: تفسير سورة المائدة في هذا التفسير الموضوعي الكبير، وقد أسميناه هنا: (الحلال والحرام في سورة المائدة).

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فإنه سبحانه يعلم حاجة المضطر، فيتجاوز عنه ويغفر له.

ومن الشكر أيضاً الانقياد والتسليم لأحكام دين الله تعالى وشرعه، والوقوف عندها، ورفض كل ما يخالفها من القوانين والشرائع الوضعية المستحدثة فالحلال ما أحلَّه الله تعالى في كتابه وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام، والحرام ما حرَّمه سبحانه في كتابه وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام، ولهذا قال تعالى:

﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾﴾.

﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ أي: لا تحلُّوا ولا تحرِّموا بمجرَّد قول تنطق به ألسنتكم من غير دليل، فكل قول فيه تحليل وتحريم، ولا يستند إلى دليل شرعي من الكتاب والسُّنَّة، قول كاذب، مردود على صاحبه.

وقوله: ﴿تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ﴾ من فصيح الكلام، جعل قولهم كأنه عين الكذب، فإذا نطقت به ألسنتهم، فقد حلَّت الكذب بحليته وصورته، كقولك: وجهها يصف الجمال، وعينها تصف السحر[(١)].

وقد مرَّ معنا في السورة مثل هذا في الآية الكريمة: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [النحل: ٦٢].

فالتحليل والتحريم من غير دليل شرعي افتراء على الله تعالى، ولهذا قال:

﴿لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ أي: لا يحققون فلاحاً ولا نجاحاً، فالشرائع والقوانين المخالفة لشرع الله تعالى لا تحقق إلا الظلم والفساد.

---

(١) انظر: تفسير النسفي: ٣/ ٦٥١.

﴿مَتَٰعٞ قَلِيلٞ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١١٧﴾.

﴿مَتَٰعٞ قَلِيلٞ﴾ أي: يتمتعون في ظل قوانينهم الجائرة الظالمة متاعاً قليلاً لا يلبث أن ينقطع ويزول.

﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ يوم القيامة، كما قال تعالى في **سورة آل عمران**: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١٩٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٩٧﴾.

ثم ذكر الله تعالى مثالاً واقعيّاً لما يترتب على عدم الانقياد والتسليم لدين الله وشرعه؛ وضربُ الأمثالِ سمة بارزة في سورة النحل كما مرَّ معنا.

فعندما رفض بنو إسرائيل الانقياد والتسليم لأحكام الشريعة التي كلِّفوا بها، شدد الله تعالى عليهم، وحرم عليهم كثيراً من الطيبات التي أحلها لهم:

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا مَا قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُۖ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ١١٨﴾.

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا مَا قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُۖ﴾ أي: فيما أنزلناه عليك من قبل، كقوله سبحانه: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ وَٱلۡغَنَمِ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتۡ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلۡحَوَايَآ أَوۡ مَا ٱخۡتَلَطَ بِعَظۡمٖۚ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ١٤٦﴾ [الأنعام].

﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ﴾ فيما وضعنا عليهم من الآصار التشريعية الثقيلة.

﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾.

ثم رحمهم سبحانه بشريعة الإسلام السمحة الميسَّرة التي أنزلها على سيدنا محمد ﷺ؛ فإذا ما انقادوا لها، وآمنوا بها، غفر سبحانه لهم كل ما سلف منهم من جحود وعناد:

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٩)﴾.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ أي: عملوا ما يسيء إليهم كالكفر والمعاصي، وهم متصفون بصفة الجهالة، وهي الطيش والسفه وعدم النظر في العواقب، وهي التي كان النبي ﷺ يستعيذ منها في دعائه:

فعن **أم سلمة** رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا خرج من بيته قال: «**بسم الله، توكلت على الله، اللهم إنَّا نعوذُ بكَ مِنْ أَنْ نزِلَّ أو نَضِلَّ، أو نَظْلِمَ أو نُظْلَمَ، أو نجهلَ أو يُجْهَلَ علينا**» [أخرجه أبو داود (٥٠٩٥) والترمذي (٣٤٢٧) وابن ماجه (٢٢٣٥) واللفظ للترمذي].

﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ أعمالهم واستقاموا على أمر الله وشرعه.

﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ أي: التوبة.

﴿لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.



التعقيب الأخير

بَيانُ حَقِيقَةِ الشُّكْرِ وارْتِبَاطُه بِعَقِيدَةِ التَّوحِيدِ والتَّسْلِيمِ

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾

• الرجل الأمة إبراهيم عليه السلام:

وتوّجت الآياتُ خاتمة السورة بما يتناسب تماماً مع موضوعها الأساس الذي دارت في فلكه: **التوحيد والشكر**، فذكرت إبراهيم عليه السلام إمام الموحِّدين الشاكرين فقال سبحانه مقرراً ومؤكداً:

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾.

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ وهي الجماعة الكثيرة، فقد كان عند إبراهيم عليه السلام من الخير الكثير ما يوجد عند أمة، فقد جمع الله تعالى فيه كمالات لا تكاد

توجد إلا متفرقة في أمة جَمَّة، وهو عليه الصلاة والسلام رئيس الموحِّدين، وقدوة المحققين، نصب أدلة التوحيد، ورفع أعلامها، وخفض رايات الشرك، ونكس أعلامها[١].

وهو أمة أيضاً، لأنه الإمام الذي يُقتدى به، حتى أُمِرَ خاتمُ المرسلين سيدنا محمد ﷺ بالاقتداء به، كما سيأتي.

وهو ﵇ أمة أيضاً، لأنه كان يعلِّم الناسَ الخير، كان عبد الله بن مسعود يثني على معاذ بن جبل ﵁ ويقول: إنَّ معاذ بن جبل كان أمة قانتاً لله حنيفاً، ولم يكن من المشركين. وقال: **الأمة**: الذي يعلِّم الناس الخير، **والقانت**: المطيع لله ﷻ، وكذلك كان معاذ معلماً للخير، مطيعاً لله ﷻ ورسوله[٢].

﴿قَانِتًا لِلَّهِ﴾ مطيعاً لله سبحانه قائماً بأمره.

﴿حَنِيفًا﴾ مائلاً عن كلِّ دين باطل إلى الدين الحق القائم على التوحيد.

﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ في أي وقت من الأوقات، وبذلك ردَّ الله تعالى على اليهود والنصارى في زعمهم أن إبراهيم كان يهوديّاً أو نصرانيّاً، وردَّ سبحانه أيضاً على كفار قريش عندما قالوا: نحن على ملة إبراهيم.

وجاء هذا الرد صريحاً في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧].

﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾﴾.

﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾ أي: كان ﵇ قائماً بحق شكر نِعَم الله تعالى عليه، وهي شهادة عالية ربانية في إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، كما قال سبحانه في **سورة النجم**: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾﴾.

---

(١) انظر: روح المعاني: ١٤/ ٢٤٩.

(٢) انظر كتاب: معاذ بن جبل، للمؤلف، وهو من منشورات دار القلم بدمشق، عن أُسد الغابة في معرفة الصحابة، لابن الأثير.

ثم بيَّن سبحانه بعض نعمه على إبراهيم عليه السلام، فقال:

﴿ٱجۡتَبَىٰهُ﴾ أي: اصطفاه واختاره للنبوة والرسالة.

﴿وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ وهو دين الإسلام القائم على التوحيد.

﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٢٢﴾.

﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ﴾ أي: أعطيناه في الدنيا كل ما يجعل حياته حياة طيبة حسنة، أو جعلنا له سمعة حسنة طيبة عند جميع الأمم، فكل الناس، على اختلاف مللهم ونحلهم، يحبُّون إبراهيم ويحترمونه ويثنون عليه.

﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

ومما يدل على فضل إبراهيم عليه السلام، أن أفضل الأنبياء وخاتمهم سيدنا محمد ﷺ أُمر باتباع إبراهيم في ملة التوحيد:

﴿ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٢٣﴾.

بل كان إمام الموحِّدين وقدوتهم، وهو تأكيد لما سبق تقريره.

- **الآخرون السابقون:**

ثم عرَّضت الآيات باليهود، الذين لم ينقادوا لأحكام دين الله وشرعه، فحرمهم الله تعالى من نعمة كبيرة، وحولها إلى غيرهم، قال تعالى:

﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبۡتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ١٢٤﴾.

﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبۡتُ﴾ أي: فُرض تعظيم يوم السبت، والتفرُّغ فيه للعبادة.

﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ﴾ أي: على الذين اختلفوا في شأنه مع نبيهم موسى عليه السلام، إذ أمرهم بيوم الجمعة، فخالفوه، واختاروا يوم السبت.

وفي الحديث النبوي الشريف: عن **أبي هريرة** رضي الله عنه قال: قال رسول الله

ﷺ: **«نحن الآخِرونَ السابِقون يومَ القيامةِ، بيدَ أنَّهم أوتوا الكتابَ مِنْ قبلنا، وأُوتيناه مِنْ بعدِهم، وهذا يومُهم الذي فرضَ عليهم، فاختلفوا فيه، فهدانا الله له، فهم لنا فيه تبعٌ، فاليهودُ غداً، والنصارى بعد غدٍ»** [رواه البخاري (٢٣٨) ومسلم (٨٥٥) واللفظ له].

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ﴾ أي: يقضي بينهم ويجازيهم على مخالفتهم لأمر نبيهم.

﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾.

- **الاستمرار في الدعوة:**

ثم توجهت الآيات بالخطاب إلى النبي ﷺ تأمره أن يستمرَّ على طريق الدعوة، وتبيِّن له الأسلوب الأمثل فيها، فكأنها تقول له: لا ينبغي للعقبات والمعوقات التي يقيمها المشركون المعادون على طريق الدعوة أن تجعلك تتوقف عن دعوتهم وتبليغهم، بل يجب عليك أن تستمر في السير على طريق الدعوة:

> ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٢٥﴾.

﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾ وهي القول المحكم الصحيح القائم على الدليل القاطع الملزم، الذي يوضِّح الحق، ويزيل الشبهة.

﴿وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾ وهي الكلمة المذكِّرة بأمر الله تعالى، والزاجرة عمَّا نهى عنه، والتي تُقدَّم بأسلوب عاطفي وجداني مقنع.

﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ أي: وجادل المعاندين منهم بأحسن طرق المجادلة في رفق ولين، ومن غير فظاظة، أو جادلهم بما يوقظ القلوب ويعظ النفوس، ويجلو العقول[1].

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ أي: إنَّما عليك أن

(١) انظر: تفسير النسفي: ٣/ ٦٥٦.

تدعوهم بهذا الأسلوب الطيب الكريم، أما حصول الهداية والضلال والمجازاة عليهما، فهو بيد الله تعالى العليم بالضالين والمهتدين.

ثم التفتت الآيات إلى المؤمنين، تبيِّن لهم كيفية التعامل مع غير المسلمين، لتقريبهم من الإسلام، وتعريفهم بمبادئه السامية الكريمة بأسلوب عملي، وخاصة المبدأ الذي قررته الآية الكريمة التي سبق ذكرها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠]؛ فالعدل يقتضي المماثلة في المعاملة، كأن يعاقب الجاني بمثل جنايته:

﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ١٢٦﴾.

﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ﴾ فمن اعتدى عليكم فاقتصوا منه بالمثل، ولا تزيدوا عليه، فإن الزيادة ظلم، والظلم محرَّم في الإسلام، فهو كقوله سبحانه في **سورة الشورى**: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٠﴾.

والآية شرعت أولاً العدل، ثم حثَّت على العفو، وهو الإحسان، وهو ما حثَّت الآية هنا عليه:

﴿وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ﴾ عن المعاقبة بالمثل.

﴿لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ الذين يحبسون أنفسهم عن الانتقام، ويتجاوزونه إلى مرتبة العفو والإحسان، وهي مرتبة رفيعة عزيزة، شرعها الله تعالى على سبيل الندب والتفضُّل في آيات كثيرة، منها: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

وألزم الله تعالى بها النبي ﷺ تكريماً له وتشريفاً؛ قال العلامة المفسِّر أبو السعود العمادي رحمه الله: «أُمر عليه الصلاة والسلام أمراً صريحاً بما ندب إليه غيره تعريضاً من الصبر، لأنه أولى الناس بعزائم الأمور، لزيادة علمه بشؤونه سبحانه، ووفور وثوقه به، فقال:

﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾.

﴿وَٱصْبِرْ﴾ على ما أصابك من جهتهم من فنون الآلام والأذية، وما عانيت من إعراضهم عن الحق بالكلية»[١].

﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ أي: إلا بتوفيقه ومعونته وتثبيته.

وقد صبر رسول الله ﷺ لله تعالى، وعفا عنهم عندما تمكَّن من الانتقام منهم لله تعالى أيضاً عندما فتح مكة، وقال لهم: «**ما تقولون أني فاعل بكم؟**» قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم، فقال: «**أقول كما قال أخي يوسف:** ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢] **اذهبوا فأنتم الطلقاء**» [رواه البيهقي (١٨٧٣٩) وابن سعد].

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: لا تحزن على الكفار المعاندين المعرضين عن دعوتك.

﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ أي: لا يضيقن صدرك من مكرهم وكيدهم، فإن الله ناصرك وكافيك وعاصمك من كيدهم ومكرهم.

ثم ختم الله تعالى السورة بهذه البشارة الكريمة الرحيمة للنبي ﷺ خصوصاً وللمؤمنين عموماً فقال:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾.

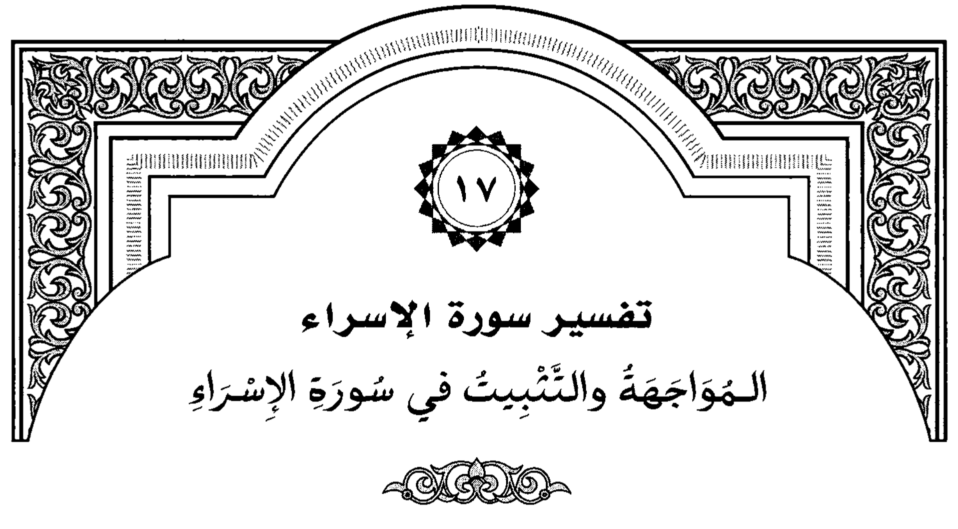
ينصرهم ويؤيدهم ويمنعهم، فمن أراد أن ينصره الله ويمنعه فليكن من المتقين والمحسنين.

أسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم ويثبتنا على طريقهم.



---

(١) تفسير أبي السعود: ٥/ ١٥٢.



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فقد اشتدَّت في العصر الحاضر المواجهةُ بين المسلمين وبين أعداء الإسلام في الشرق والغرب، بسبب المواقع الجديدة التي اكتسبها الإسلام في المجالات الفكرية والعلمية.

فقد كان التقدُّم العلميُّ الكبيرُ الذي تحقَّق في العصر الحاضر مؤيِّداً قويّاً للفكر الإسلامي، لفت أنظارَ كثير من علمائهم ومثقفيهم، واستحوذَ على اهتمامهم بعد أن فشلت النظم الوضعية من أديان وغيرها في معالجة المشكلات الكبيرة المعقَّدة في حياة الناس، وأصبحت الفرصةُ مواتيةً لنشر الإسلام بين الأمم والشعوب أكثر من ذي قبل.

ويجب على المسلمين عموماً والدعاة إلى الله تعالى خصوصاً أن يستشعروا مسؤوليتهم عن نشر الدعوة الإسلامية بين الناس، وأن يدركوا أهمية مضاعفة جهودهم ونشاطهم في هذا المجال، وعليهم أن يُحْسنوا عرض الإسلام على الناس بالتزامهم أولاً بتطبيق أحكامه، وإبرازه للناس بشكلٍ عمليٍّ، ثم عليهم ثانياً

أن يُظهروا محاسنه، ويبيِّنوا للناس مزاياه، وقدرة التشريع الإسلامي على إيجاد الحلول النافعة لكلِّ المشكلات التي تعترض حياة الناس بأسلوب علميٍّ مبسَّط.

ولقد مرَّت الدعوة الإسلامية في حياة النبي ﷺ بمرحلة عصيبة جدّاً في السنوات التي سبقت هجرته عليه الصلاة والسلام إلى المدينة المنورة، وما أحوجنا أن نتعرَّفَ على أسلوب الدعوة إلى الله في هذه المرحلة من خلال التنزيل الحكيم الذي كان ينزل على الرسول ﷺ مرشداً ومواسياً ومثبِّتاً.

وهذا التفسير ـ تفسير سورة الإسراء ـ يعرض أسلوبَ الدعوة إلى الله تعالى في ذروة المواجهة التي قامت بين النبي ﷺ وبين قوى الكفر والشرك في هذه المرحلة، من خلال سورة الإسراء التي كانت آياتها تنزل على النبي ﷺ أثناءها.

وقد قسَّمتُ هذا التفسير إلى أربعة فصول بحسب الموضوعات الأساس في السورة الكريمة؛ وهي:

• **الفصل الأول: الإسراء برسول الله ﷺ** من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى بالأرض المقدسة، **وإفساد بني إسرائيل في الأرض المقدسة** مرتين قبل الإسلام، وعقوبتهم على ذلك، **وأثر هذين الأمرين في تثبيت النبي ﷺ**.

• **الفصل الثاني: القرآن الكريم، والمبادئ الأساس الكبرى التي يدعو الناس إليها.**

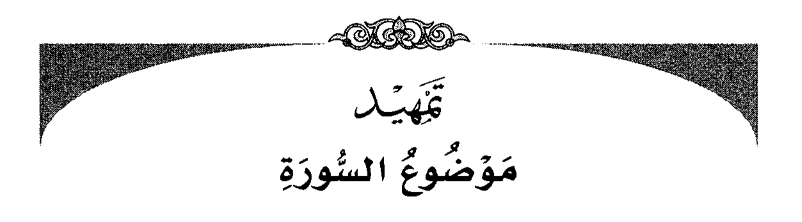
• **الفصل الثالث: المواجهة بين النبي ﷺ وبين المشركين في هذه المرحلة (المكية).**

• **الفصل الرابع: التثبيت الذي أكرم الله تعالى به نبيّه عليه الصلاة والسلام**، وهو في ذروة المعاناة والمواجهة.

واللهَ تعالى أسأل أن يتقبَّله ويجعله في ميزان حسناتي، ويسدِّد خطاي لما يحبُّ ويرضى، ويعفو عنِّي ويغفر لي.

والحمد لله أولاً وآخراً، وسبحان الله، والله أكبر، وصلَّى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه، وسلَّم تسليماً كثيراً.

❁ ❁ ❁



تَمْهِيد
مَوْضُوعُ السُّورَةِ

سورة الإسراء من السور المكيَّة، ويبدو أنَّها نزلت في أواخر المرحلة المكية قبل هجرته ﷺ إلى المدينة المنوَّرة، وكان النبيُّ ﷺ حينئذٍ في ذروة المواجهة مع المشركين.

توفيت في هذه المرحلة أُم المؤمنين السيدة خديجة رضي الله عنها الزوجة الأولى للنبيِّ ﷺ، وكانت له عليه الصلاة والسلام خيْرَ سندٍ وعونٍ على الدعوة إلى الله تعالى، وتوفي عمُّه أبو طالب في العام نفسه، وكان للنبيِّ ﷺ عضداً وحِرْزاً، منعه من كفَّار قريش، فلمَّا ماتَ نالت قريش من رسول الله ﷺ ما لم تكنْ تطمعُ به في حياة أبي طالب، حتى كان بعضُ سفهائهم يعترض النبيَّ ﷺ في الطريق، وينثر الترابَ على رأسه الشريف.

ودخل ﷺ بيته مرة والترابُ على رأسه، فقامت إليه إحدى بناته فجعلت تغسل عنه التراب وهي تبكي، ورسول الله ﷺ يقول لها: «**لا تَبْكِ يا بنيةُ، فإنَّ اللهَ مانعٌ أباك**» ويقول بين ذلك: «**ما نالت منِّي قريشٌ شيئاً أكرهه حتَّى ماتَ أبو طالب**»[(١)].

وخرج رسول الله ﷺ إلى الطائف يلتمسُ النصرةَ من ثقيفٍ والمنَعَة بهم من قومه، حتى يتمكَّن من تبليغ دعوة ربِّه، ورجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله ﷻ، ولكنهم لم يفعلوا، بل أغرَوا به سفهاءهم وعبيدهم يسبُّونه، ويصيحون به، ويرمونه بالحجارة، حتى ألجؤوه إلى حائط ـ بستان ـ لعتبة وشيبة ابني ربيعة، فلمَّا اطمأن ﷺ قال: «**اللَّهمَّ إليكَ أشكو ضَعْف قوتي، وقلَّة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنتَ ربُّ المستضعفينَ وأنتَ ربِّي، إلى مَن**

(١) انظر: سيرة ابن هشام: ٢/٤٦.

تَكِلُني، إلى بعيدٍ يتجهَّمني، أم إلى عدوٍّ ملَّكْتَه أمري؟ إن لم يكن بكَ عليَّ غضبٌ فلا أُبالي، ولكن عافيتكَ هي أوسعُ لي. أعوذُ بنور وَجْهِكَ الذي أشرقتْ له الظلماتُ، وصَلَحَ عليه أمرُ الدنيا والآخرةِ؛ مِنْ أن تُنْزِلَ بي غضَبكَ، أو يحلَّ عليَّ سَخَطُكَ، لك العُتْبى حتَّى ترضى، ولا حولَ ولا قوَّة إلَّا بكَ»[1].

في ذروة المواجهة هذه وشدّة المحنة أكرمَ الله تعالى نبيَّه ﷺ برحلة الإسراء والمعراج، فكان فيها تشريفٌ للنبيِّ ﷺ وتكريم، وتثبيت له، وتسلية عن همومه وأحزانه، وأنزل الله تبارك وتعالى آيات السورة تحمل للنبي ﷺ التثبيت بالقرآن الكريم، والتثبيت على آيات القرآن الكريم، كما تحمِلُ له بشائر النصر القريب، وفي هذه البشائر تثبيتٌ له ﷺ أيضاً، وهو في ذروة المواجهة للشرك والمشركين.

- **الإسراء والزمر:**

روي عن السيدة **عائشة** رضي الله عنها: أنها قالت: كان النبيُّ ﷺ يقرأُ في كُلِّ ليلةٍ ببني إسرائيل والزُّمَر. [رواه النسائي في الكبرى (١٠٥٤٨) والترمذي (٢٨٤٤) وأحمد (٦/ ١٨٩)].

تُرى لماذا كان رسول الله ﷺ يجمع بين هاتين السورتين في القراءة كل ليلة؟:

أَلِكثرة ما فيهما من خطابِ اللهِ تعالى للنبيِّ ﷺ، حتى أصبحَ عليه الصلاة والسلام المحور الأساس الذي تدور آياتُ السورتين في فلكه؟.

أو لِما في السورتين من تشريف للنبيِّ ﷺ وتثبيت، كقوله سبحانه في الزمر: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾﴾؟.

أو لكونهما تتحدَّثان عن صلاة الليل وفضلها كما سيأتي معنا في سورة الإسراء عند قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾؟.

وقوله سبحانه في الزمر: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾؟.

أم لهذا ولهذا ولغير ذلك من المعاني التي أفاضها الله سبحانه على قلب نبيِّه ﷺ؟.

❁ ❁ ❁

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ٤٨.

الفَصْلُ الأَوَّلُ

الإِسْرَاءُ، وإِفْسَادُ بَنِي إِسْرَائيل في الأَرْضِ المُقَدَّسَة قَبْلَ الإِسْلامِ مَرَّتَيْنِ، وعُقُوبَتُهُمْ على ذلك وأَثَرُ هَذَيْنِ الأَمْرَيْنِ في تَثْبِيتِ النَّبِيِّ ﷺ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾

- **الإسراء والمعراج:**

بدأت سورة الإسراء بقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾.

• **من التسبيح إلى التكبير:**

بدأت السورةُ بالتسبيح، وخُتمت كما سيأتي معنا بالتكبير في قوله سبحانه: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ [الإسراء: ١١١].

و﴿سُبْحَٰنَ﴾ مصدرُ: سبَّح تسبيحاً، بمعنى نزَّه تنزيهاً، ويستعمل ﴿سُبْحَٰنَ﴾ على أنه علم للتسبيح دائماً، وهو يدلُّ على التنزيه البليغ من حيث الاشتقاق من السَّبْح؛ وهو الذهاب والإبعاد في الأرض، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ [المزمل: ٧].

ولا يجوز استعمال ﴿سُبْحَٰنَ﴾ إلا في تنزيه الله، تعالت أسماؤه، وعظم كبرياؤه، فهو يدل على تنزيه الله تعالى عن جميع النقائص، أو فيه **معنى الأمر**؛ أي: نزِّهوا الله تعالى وبرِّئوه من جميع النقائص[(١)].

والتكبيرُ أبلغُ لفظةٍ للعرب في معنى التعظيم والإجلال.

وفي ابتداء السورة بالتسبيح وختمها بالتكبير دليلٌ على أنَّ العبدَ مهما بالغَ في تنزيه الحق سبحانه وتمجيده، واجتهد في عبادته وحمده، يَبْقَ مقصِّراً عن القيام بحقه جلَّ وعلا.

ولهذا كان النبيُّ ﷺ يقومُ من الليل حتى تتفطَّر قدماه الشريفتان، كما سيأتي، وإذا قيل له: أتفعلُ هذا، وقد غفرَ اللهُ لكَ ما تقدَّمَ من ذنبك وما تأخر؟! قال: «**أفلا أكونُ عَبْداً شَكُوْراً؟**» [رواه البخاري (١١٣٠) ومسلم (٢٨١٩)].

كان النبيُّ ﷺ يرى نفسَه مقصِّراً في حقِّ شكر الله تعالى على ما أولاه وأعطاه من النِّعَم العظيمة، وما خصَّه به من الخصائص الجليلة الكبيرة، وقد تضمَّنت سورةُ الإسراء بعض هذه الخصائص، ولهذا كان عليه الصلاة والسلام يُقْبِلُ على العبادة والتذلُّل لله سبحانه، مقرّاً بتقصيره في شكر ربه جلَّ وعلا على

---

(١) انظر: تفسير روح المعاني: ٣/ ١٥.

فضله العظيم عليه، حتى إنَّه كان يقولُ في سجوده لله تعالى في صلاته في الليل: «**اللَّهمَّ أعوذُ برضَاكَ مِنْ سخطِكَ، وبمعافاتِكَ مِنْ عقوبتِكَ، وأعوذُ بِكَ مِنْكَ، لا أُحصي ثناءً عليكَ، أنتَ كما أثنيتَ على نَفْسِكَ**» [رواه مسلم (٤٨٦)].

- **الإسراء:**

﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ﴾ **الإسراء**: السير بالليل.

﴿بِعَبۡدِهِۦ﴾: هو النبيُّ ﷺ، والعبودية لله تعالى أشرف الأوصاف، وأعلى المراتب.

﴿لَيۡلٗا﴾ ظرف لـ (**أسرى**)، وهي تحمِلُ معها زمانها، فلا يحتاجُ إلى ذكره، ولكنَّه سبحانه ذكر ﴿لَيۡلٗا﴾ ليبيِّنَ أنَّ الإسراء كان في بعض أجزاءِ الليلِ، فلا يتوهَّم أحدٌ أنَّ الإسراء كان في ليالٍ.

﴿مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ في مكة المكرمة.

﴿إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا﴾ في بيتِ المقدس، الذي بناه نبيُّ الله يعقوب بعد رفع إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام لقواعد بيتِ الله الحرام بأربعين سنة كما سيأتي.

ويُستفادُ من الأحاديث الشريفة الكثيرة التي وردت في الإسراء والمعراج: أنَّ النبيَّ ﷺ أُسري به من مكة إلى بيت المقدس مرةً واحدةً يقظة لا مناماً.

يؤكد هذا قوله تعالى: ﴿أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾.

ويؤكده أيضاً تكذيبُ قريش للنبيِّ ﷺ عندما حدّثهم عن الإسراء، فلو كان مناماً لما ردُّوه عليه وما كذبوه.

وأنه ﷺ عُرِجَ به من بيت المقدس إلى السماء الدنيا، ثم إلى بقية السماوات، وسلَّم على الأنبياء الذين رآهم في السماوات، ثم ارتفعَ فوق ذلك إلى مستوًى سمع فيه صريفَ أقلام القدر بما هو كائن، ورأى سِدرةَ المنتهى، ورأى جبريلَ بصورته الملائكية، وله ستمئة جناح، وفرض الله عليه هنالك الصلوات خمسين صلاة، ثم خفَّفها سبحانه إلى خمس صلوات رحمةً منه ولطفاً بعباده، وهذا يدلُّ على عظيم شرف الصلوات الخمس المفروضة وأهميتها.

ثم هبط رسول الله ﷺ إلى بيت المقدس، وهبط معه الأنبياء، فصلَّى بهم هناك، وأظهرَ الله تعالى بذلك شرفه وفضله على سائر الأنبياء بإمامته لهم، ثم عاد ﷺ إلى مكة المكرمة بغَلَس قبل انتهاء الليل.

وقوله تعالى:

﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ يدل على المعراج؛ لأنَّ معناها: لنرفعه إلى السماء حتى يرى ما يرى من العجائب العظيمة[١].

والآيةُ تدلُّ على أنَّ النبيَّ ﷺ هو المقصود بمعجزة الإسراء والمعراج، ففوائد هذه المعجزة الكبيرة مختصَّة به عليه الصلاة والسلام وعائدة عليه.

وقوله سبحانه في ختام الآية:

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ فيه إيماء إلى أن الإسراء والمعراج ليسَ إلا لتكريمه عليه الصلاة والسلام، ورفع منزلته، لأن الإحاطة بأقواله وأفعاله حاصلة، فهو سبحانه سميع بصير[٢].

- **المعجزة الأرضية والمعجزة السماوية:**

والآية الكريمة تدل على أنَّ عروج النبي ﷺ ورؤيته ما رأى في السماوات من الآيات العظيمة الجليلة حدث في ليلة واحدة هي ليلة الإسراء.

واكتفت الآيةُ بالإشارةِ إلى المعراج في قوله تعالى: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾، ولم تصرِّح به كما صرَّحت بالإسراء، لأنَّ المعراج معجزة سماوية لا يستطيع النبي ﷺ أن يأتيهم عليها بالأدلة المادية المحسوسة كما فعل في المعجزة الأرضية وهي الإسراء.

فقد أخبرهم ﷺ في موضوع الإسراء بالأدلة القطعية المحسوسة التي تُلزمهم بتصديقه، وتدل صراحةً على صدقه عليه الصلاة والسلام.

روى **جابر بن عبد الله** رضي الله عنهما: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**لـمَّا كذبتني قريشٌ**

---

(١) انظر: روح المعاني: ١٢/ ١٥.

(٢) تفسير أبي السعود: ٣/ ٣٠٩.

قمتُ في الحِجْرِ، فجلا الله لي بيتَ المَقْدِسِ، فَطَفِقْتُ أُخبرُهم عن آياتِهِ، وأنا أنظرُ إليه» [رواه البخاري (٤٧١٠) ومسلم (١٧٠)].

وعن ابن عباس ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: **«لمَّا كان ليلة أُسري بي فأصبحتُ بمكة؛ فظعتُ وعرفتُ أنَّ الناسَ مكذبيَّ، فقعدتُ معتزلاً حزيناً»** فمرَّ به أبو جهل، فجاءَ حتى جلسَ إليهِ، فقال له كالمستهزئ: هل كان مِنْ شيءٍ؟ فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**نعم**» قال: وما هُوَ؟ قال: «**إنِّي أُسْرِيَ بي الليلةَ**» قال: إلى أينَ؟ قال: «**إلى بيتِ المَقْدِسِ**» قال: ثم أصبحتَ بين ظهرانينا؟ قال: «**نعم**»... فقال: يا معشرَ بني كعبِ بن لؤي! فانفضَّتْ إليه المجالسُ، وجاؤوا حتى جلسوا إليهما، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**إنِّي أُسْرِيَ بي الليلةَ إلى بيتِ المَقْدِسِ**» قالوا: ثم أصبحتَ بينَ ظهرانينا؟ قال: «**نعم**» قال: فمِنْ بين مصفِّقٍ، ومن بَيْنِ واضعٍ يدَهُ على رأسِهِ متعجِّباً للكَذِبِ، قالوا: وتستطيعُ أَنْ تنعتَ لنا المَسْجِدَ؟ وفيهم مَنْ قد سافرَ إلى ذلكَ البلدِ، ورأى المسجدَ، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: **«فما زلتُ أنعتُ حتَّى التبسَ عليَّ بعضُ النعتِ، قال: فجيءَ بالمسجدِ وأنا أنظرُ إليهِ حتى وُضِعَ دونَ دارِ عقيل، وأنا أنظرُ إليهِ»** قال: فقال القومُ: أمَّا النعتُ فواللهِ لقد أصابَ فيه. [رواه أحمد (١/ ٤٩٠) والنسائي في السنن الكبرى (١١٢٨٥) والبيهقي (٢/ ٣٨٦)][(١)].

وعن ابن شهاب: قال أبو سلمةُ بنُ عبد الرحمن: فتجَهَّز ناسٌ من قريش إلى أبي بكر فقالوا: هَلْ لَكَ في صاحِبكَ؟ يزعُمُ أنَّهُ جاءَ إلى بيتِ المَقْدِسِ، ثم رجعَ إلى مكةَ في ليلةٍ واحدةٍ! فقال أبو بكرٍ: أو قالَ ذلك؟ قالوا: نعم، قال: فأنا أشهدُ لَئِنْ كانَ قَالَ ذلكَ لَقَدْ صَدَقَ، قالوا: فتصدِّقُه في أن يأتيَ الشامَ في ليلةٍ واحدةٍ، ثم يرجعُ إلى مكةَ قَبْلَ أن يُصْبِحَ؟! قال: نَعَمْ، أنا أُصدِّقُهُ بأبعدِ مِنْ ذلكَ، أصدِّقُه بخبرِ السماءِ. قال أبو سلمة: فيها سمِّيَ أبو بكرٍ: الصدِّيقَ. [مسند أحمد (١/ ٣٠٩)].

وجاء في روايةٍ: أنَّ المشركينَ قالوا لرسول الله ﷺ: ما علامةُ ما تقولُ؟ قال: **«مررتُ بِعِيرٍ لقريش، وهي في مكان كذا وكَذَا، فنفرتِ الإبلُ منَّا واستدارتْ،**

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير.

وفيها بعيرٌ عليها غرارتان: غرارةٌ سوداءُ، وغرارةٌ بيضاءُ، فَصُرِعَ فانْكَسَر» فلمَّا قَدِمت العيرُ سألوهم فأخبروهم الخبرَ على مثلِ ما حدَّثهم رسولُ اللهِ ﷺ.

وهكذا قَدَّمَ النبيُّ ﷺ الأدلةَ الماديةَ الدَّالةَ على صدقه وصحة إسرائه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى.

وأمَّا معراجه ﷺ إلى السماوات وما رأى فيها من الآيات الكبرى فلا سبيلَ إلى إثباتها بالأدلة المحسوسة المادية، لأنَّها معجزةٌ سماويةٌ، ولهذا اقتضت حكمته سبحانه ومشيئته أن يشيرَ إليها في القرآن الكريم إشارة لا تصريحاً في قوله ﷻ: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾.

وفي قوله أيضاً في **سورة النجم**: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾.

وقد ثبت في «**صحيح مسلم**» [٢٥٦]: عن **أبي هريرة** رضي الله عنه: أنَّه قال في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ [النجم: ١٣]، قال: رأى جبريل عليه السلام.

وعن **عبد الله بن مسعود** رضي الله عنه قال: لمَّا أُسري برسولِ اللهِ ﷺ انتهى به إلى سدْرةِ المنتهى، وهي في السماء السابعةِ، إليها ينتهي ما يَعْرُجُ بهِ مِنَ الأرضِ، فيقبضُ منها، وإليها ينتهي ما يَهْبِطُ به مِنْ فوقِها فيقبضُ منها.

وقال رضي الله عنه أيضاً: إنَّ محمداً ﷺ لم يرَ جبريلَ في صورته إلا مرتين: أمَّا الأولى فإنَّه سأله أن يُريَهُ نفسَه في صورته، فأراهُ صورتَهُ فَسَدَّ الأُفُقَ، وأمَّا الأُخرى فإنَّه صعدَ مَعَهُ حِيْنَ صَعَدَ بهِ[1].

وكان رسول الله ﷺ في غاية الخضوع لله تعالى والأدب معه جلَّ وعلا عندما رأى ما رأى من آيات ربه الكبرى، ولهذا وصفه سبحانه بقوله الكريم: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ١٧].

قال **ابن عباس** رضي الله عنهما: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ﴾ ما ذهبَ يميناً ولا شمالاً ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير: ٤/ ٢٥٢.

ما جاوزَ ما أمر به، قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وهذه صفةٌ عظيمةٌ في الثبات والطاعة، فإنَّه ما فعلَ إلا ما أمر به، ولا سألَ فوق ما أُعطي، وما أحسنَ قولَ الناظم:

رأى جنَّةَ المأوى وما فوقَها ولو … رأى غيرُهُ ما قَدْ رَآهُ لَتاها[١]

وأما التصريح بالمعراج فقد جاء في الأحاديث النبوية الصحيحة الكثيرة المنتشرة التي كادت أن تكونَ متواترةً ـ كما قال العلّامة نور الدين القاري في كتابه «شرح الشفا» ـ وأكتفي بذكر حديث واحد منها، وهو: ما رواه أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**أُتيتُ بالبراقِ، وهو دابةٌ أبيضُ، طويلٌ فوقَ الحمارِ ودونَ البغلِ، يضعُ حافِرَهُ عند منتهى طَرْفِهِ، قال: فركبتُه حتى أتيتُ بيتَ المقدسِ، فربطته بالحلقةِ التي يَرْبِطُ بها الأنبياءُ، ثم دخلتُ المسجدَ، فصليتُ فيه ركعتين، ثم خرجتُ، فجاءني جبريلُ بإناءٍ من خمرٍ وإناءٍ من لبنٍ، فاخترتُ اللبنَ، فقال جبريلُ: اخترتَ الفطرة.**

ثُمَّ عُرِجَ بنا إلى السماءِ، فاستفتحَ جبريلُ، فقيل: مَنْ أنتَ؟ قال: جبريلُ، قيل: ومَنْ معكَ؟ قال: محمَّدٌ، قيل: أَوَقد بُعِثَ إليه[٢]؟ قال: قد بُعِثَ إليهِ، ففُتِحَ لنا، فإذا أنا بآدمَ ﷺ، فرحَّبَ بي، ودعا لي بخيرٍ.

ثم عُرِجَ بنا إلى السماءِ الثانيةِ فاستفتحَ جبريلُ، فقيلَ: مَنْ أنتَ؟ قال: جبريلُ، قيل: ومَنْ معكَ؟ قال: محمَّدٌ، قيل: أَوَقد بُعِثَ إليه؟ قال: قد بُعِثَ إليه، ففُتِحَ لنا، فإذا أنا بابْنَي الخالةِ عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا صلى الله عليهما، فرحَّبا بي، ودعَوَا لي بخيرٍ.

ثم عُرِجَ بنا إلى السماء الثالثة، فذكر مثل الأول، ففُتِحَ لنا، فإذا أنا بيوسفَ ﷺ، وإذا هو قد أُعطِيَ شطرَ الحُسْنِ، فرحَّبَ بي، ودعا لي بخيرٍ.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير: ٤/ ٢٥٢.

(٢) أي: أَطُلب للإسراء وصعود السماء؟ وليس استفهاماً عن بعثة الدعوة. كما في: شرح الشفا، للقاري.

ثم عُرِجَ بنا إلى السماء الرابعة، وذكر مثله، فإذا أنا بإدريس عليه الصلاة والسلام، فرحَّبَ بي، ودعا لي بخيرٍ، قال الله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٧].

ثم عُرِجَ بنا إلى السماء الخامسة، فذكر مثله، فإذا أنا بهارون، فرحَّبَ بي ودعَا لي بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء السادسة، فذكر مثله، فإذا أنا بموسى، فرحَّب بي ودعا لي بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء السابعة، فذكر مثله، فإذا أنا بإبراهيم مسنداً ظهرَه إلى البيتِ المعمورِ، وإذا هو يدخلُه كُلَّ يومٍ سبعونَ ألفَ مَلَكٍ، لا يعودونَ إليه.

ثم ذُهِبَ بي إلى سِدْرَةِ المنتهى، وإذا ورقُها كآذانِ الفِيَلةِ، وإذا ثَمَرُها كالقِلال، قال: فلمَّا غشيها مِنْ أمرِ اللهِ ما غَشِيَ، تغيَّرتْ، فما أحدٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ يستطيعُ أن ينعتَها مِنْ حُسْنِهَا، فأوحى اللهُ إليَّ ما أوحى، ففرضَ عليَّ خمسينَ صلاةً في كلِّ يومٍ وليلةٍ، فنزلتُ إلى موسى، فقال: ما فرضَ ربُّكَ على أُمتِكَ؟ قلت: خمسين صلاةً. قال: ارجعْ إلى ربِّكَ، فاسأله التخفيفَ فإنَّ أمتكَ لا يطيقونَ ذلك، فإنِّي قد بلوتُ بني إسرائيلَ وخَبِرْتُهم، قال: فَرجعتُ إلى ربِّي فقلتُ: يا ربِّ خفِّفْ عن أمتي، فحطَّ عني خمساً فرجعتُ إلى مُوسَى فقلتُ: حَطّ عنِّي خَمْساً، قال: إنَّ أُمتَكَ لا يطيقونَ ذلك، فارجعْ إلى ربِّكَ فاسأله التخفيفَ، قال: فلمْ أزلْ أرجعُ بين ربي تعالى وبين موسى، حتى قال: يا محمَّدُ إنهنَّ خمسُ صلواتٍ كلَّ يومٍ وليلةٍ، وكلُّ صلاةٍ عشرٌ، فتلك خمسونَ صلاةً، ومَنْ هَمَّ بحسنةٍ فلم يَعْمَلْها كُتِبَتْ له حسنةً، فإنْ عملها كتبتْ له عَشْراً، ومَنْ هَمَّ بسيئةٍ فلَمْ يعملْها لَمْ تكتبْ شيئاً، فإنْ عَمِلَها كُتبَتْ سيئةً واحدةً.

قال: فنزلتُ حتى انتهيتُ إلى موسى فأخبرتُه، فقال: ارجعْ إلى ربِّكَ فاسأله التخفيفَ، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: قد رجعتُ إلى ربِّي حتى استحييتُ مِنْه» [رواه مسلم (١٦٢)].

• **المسجد الأقصى:**

وهو ثاني مسجد بُنِيَ في الأرض بعد المسجد الحرام، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦].

وعن **أبي ذرٍّ** رضي الله عنه قال: قلتُ: يا رسولَ اللهِ، أيُّ مسجدٍ وُضعَ في الأرض أولَ؟ قال: «**المَسْجِدُ الحرام**» قلتُ: ثم أي؟ قال: «**المسجدُ الأقصى**» قلتُ: كم بينهما؟ قال: «**أربعون سنةً، وأينما أدركتْكَ الصلاةُ فَصَلِّ، فإنَّه مَسْجِدٌ**» [رواه البخاري (٣٣٦٦) ومسلم (٥٢٠)].

بناه نبيُّ الله يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، وجدَّد بناءه نبيُّ الله سليمان عليه السلام.

وقوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ يدلُّ على فضل هذا المسجد، وفضل الأرض المباركة التي حوله، فقد عَبَدَ اللهَ تعالى في المسجد الأقصى كثيرٌ من الأنبياءِ عليهم السلام، وكان قبلةً لهم، وقد استقبله نبيُّنا صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم في الصلاةِ بعدَ الهجرةِ ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً، حتَّى أنزل الله عليه الآيات الكريمات التي يأمرُه بها أن يستقبلَ بيتَ الله الحرام: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٤].

وهو أحدُ المساجد الثلاثة التي يسافَرُ إليها من أجل الصلاة والعبادة فيها، لِمَا روي عن **أبي سعيد الخدري** رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «**لا تُشَدُّ الرحالُ إلا إلى ثلاثةِ مساجدَ: المَسْجِدِ الحَرَامِ، وَمَسْجِدِي هَذَا، والمسجدِ الأقصى**» [رواه البخاري (١١٨٩) ومسلم (١٣٩٧)].

وقد ثبت عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّ ثوابَ الصلاة فيه يضاعف إلى خمسمئة ضعف.

ولعلَّ مِنْ حكمةِ الله تعالى في الإسراء برسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم العروجِ من المسجد الأقصى إلى السماوات، إظهارَ

شرفِ هذا المسجد، وبيانَ فضله، فالسفرُ إليه بقصدِ العبادةِ قُربةٌ من القُرَبِ التي يُتقرَّبُ بها إلى الله تعالى، فَعَلَهُ النبيُّ ﷺ فعلاً في الإسراء، وحثَّ عليه في حديثِ شَدِّ الرحالِ السابقِ ذكره.

وعن **ميمونة أم المؤمنين** رضي الله عنها: قلتُ: يا رسولَ اللهِ أفتنا في بيتِ المقدسِ، فقال رسول الله ﷺ: «**ائتوه فَصَلُّوا فيه**» ـ وكانت البلاد إذ ذاك حرباً ـ «**فإنْ لَمْ تَأْتُوْهُ وتُصَلُّوا فيهِ، فابعثوا بزيتٍ يُسْرَجُ في قناديلِهِ**» [رواه أبو داود (٤٥٧)].

● **بلاد الشام:**

ويدل الإسراء بالنبيِّ ﷺ إلى المسجد الأقصى على فضل بلاد الشام، إذ هي البلادُ المباركةُ الواقعةُ حولَ المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله: ﴿ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾.

وهي مهاجرُ نبيِّ الله إبراهيم عليه السلام: ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١].

فقد أخبر الله تعالى في هذه الآية الكريمة أنَّه نجَّى إبراهيمَ من نارِ قومِهِ، وأخرجَهُ من بينهم مهاجراً إلى بلادِ الشامِ، والتي قال فيها رسولُ اللهِ ﷺ: «**ستكونُ هجرةٌ بعدَ هجرةٍ، فخيارُ أهلِ الأرضِ ألزمُهم مهاجَرَ إبراهيمَ**» [رواه أبو داود (٢٤٨٢)].

وعن **زيد بن ثابت** رضي الله عنه قال: كنَّا عندَ رسولِ اللهِ ﷺ نؤلِّفُ القرآنَ مِنَ الرقاعِ، فقال ﷺ: «**طوبى للشام**» فقلنا: لأيِّ ذلك يا رسولَ اللهِ؟ فقال: «**لأنَّ الملائكةَ باسطةٌ أجنحتَها عليها**» [رواه الترمذي (٣٩٥٤)].

وعن **ابن حوالة** رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**سيصيرُ الأمرُ إلى أنْ تكونوا جنوداً مجنّدةً: جُنْدٌ بالشام، وجُنْدٌ باليمن، وجُنْدٌ بالعراق**» فقلتُ: خِرْ لي يا رسولَ اللهِ إن أدركتُ ذلك، قال: «**فعليكَ بالشامِ، فإنَّها خيرةُ اللهِ مِنْ أرضِهِ، يَجْتَبِي إليها خيرتَه مِنْ عبادِهِ، فأمَّا إذا أبيتُم فعليكُم بيَمَنِكُم، واسقوا من غُدُرِكُم، فإنَّ اللهَ توكَّلَ لي بالشامِ وأهلِهِ**» [رواه أبو داود (٢٤٨٣)].

ولعلَّ ذلك سببُ رغبةِ النبيِّ ﷺ بفتح بلادِ الشامِ، ونشرِ رسالةِ الإسلام فيها قبلَ غيرها من البلاد، بعد أنْ أعزَّ اللهُ الإسلامَ في أرض العرب:

ـ فقد بعث النبيُّ ﷺ في العام السابع من الهجرة جيشاً بقيادة زيد بن حارثة إلى بلاد الشام وصل حتى مؤتة.

ـ وغزا رسول الله ﷺ مشارفَ بلاد الشام الجنوبية بنفسه في غزوة تبوك، ونصبَ راياته فيها قرابة شهر، وبعث منها سراياه إلى البلاد الواقعة حولها حتى وصلت إلى أيْلة (العقبة).

ـ وجهَّزَ النبيُّ ﷺ قبيل وفاته جيشاً إلى بلاد الشام بقيادة أُسامة بن زيد رضي الله عنهما، وأوصى في مرضِ وفاتهِ الخليفةَ مِنْ بعده أن يبعثَ جيشَ أُسامة، وقد نفَّذَ أبو بكر رضي الله عنه وصيةَ رسولِ اللهِ ﷺ هذه.

والجدير بالذكر أيضاً: أن عيسى عليه السلام ينزلُ من السماء إلى الأرض في بلاد الشام، ويَقْتُلُ المسيح الدجال ببابِ لُدٍّ من أرض فلسطين، أخبر بذلك سيدنا رسول الله ﷺ في عدد من الأحاديث الصحيحة التي بلغت مبلغ التواتر.

فلبلاد الشام رَحِمٌ وثيقٌ وقوي بمهبط الوحي في مكة المكرَّمة والمدينة المنوَّرة، تمتدُّ جذوره في أعماق التاريخ إلى عهد إبراهيم عليه السلام، عندما نزل بأرض الشام، وأنزل ولده إسماعيل وأُمه هاجر بأمر الله تعالىٰ في أرض مكة، وكان كثيراً ما يتردَّدُ مسافراً بين بلاد الشام ومكة المكرَّمة متفقداً ولده إسماعيل، حتى أمره الله تعالى برفع قواعد بيت الله الحرام ليكونَ مثابةً للناس وأمناً.

وشدَّد على أواصر هذه الرحم وقوَّاها الإسراءُ بنبيِّنا ﷺ من بيت الله الحرام إلى المسجد الأقصى، وخلَّدها التنزيل الحكيم في القرآن الكريم.

فبلاد الشام عموماً وأرض فلسطين خصوصاً أرضٌ إسلامية، هي للإسلام والمسلمين ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، ومهما حاول أعداؤنا أن ينزعوا عنها هويتها الإسلامية هذه فلن يتمكَّنوا، فقد قدَّر الله تعالىٰ أن تكونَ للإسلام والمسلمين، قد يستطيعون احتلالها، والإقامة فيها لفترة محدودة من الزمن لا تعدُّ

شيئاً بالنسبة لعمرها المديد الطويل، كما حدثَ في أثناء الحروب الصليبية، ولكن مآلها أن تعود إلى أيدي أصحابها المسلمين المستسلمين لله تعالى الواحد الأحد، والذين يرفعون في جنباتها شهادة الإسلام لله والتوحيد؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

وإذا كان هذا ما كتبه الله تعالى في الأرض عموماً؛ فما بالك بالأرض التي بارك الله تعالى فيها وحولها، مهاجر إبراهيمَ ﷺ ومسرى رسولِهِ الكريمِ ﷺ؟!.

- **القضاء المُحْكَم:**

فلن تكونَ هذه الأرضُ الطيبةُ المباركةُ مقرّاً للمفسدين، هذا قضاء الله ﷻ المحكم الذي قدَّره وأخبرَنا به في القرآن الكريم، فبعد أن ذكر لنا معجزة الإسراء والمعراج، وأنَّه سبحانه شرَّف الأرض المباركة بإسراء رسول الله ﷺ إليها وعروجه منها إلى السماوات العُلا، ذكر لنا سبحانه جزءاً من تاريخ هذه الأرض المباركة، وأنَّه سبحانه قدَّر ألَّا تكون مأوى للمفسدين.

- **الإفساد في الأرض:**

والإفساد في الأرض يقع عندما يخرجُ الناس على الشرائع السماوية التي أنزلها الله عليهم، ويخالفون الأنبياء والرسل الذين أرسلهم إليهم، ولا شك أن شريعة التوراة من أعظم الشرائع التي أنزلها الله تعالى على بني إسرائيل، وتعبَّدَهم بها من زمن موسى ﷺ حتى زمن عيسى ﷺ.

ولمّا صدر عن بني إسرائيل ما صدر من فساد في الأرض المباركة وإفساد، ومخالفة لشريعة التوراة التي كلَّفهم بها، ومخالفة أنبيائهم والاعتداء عليهم، أخبرنا سبحانه في القرآن الكريم ما ترتَّب على ذلك من طردهم من الأرض المباركة وتسليط عدوِّهم عليهم.

- **العبد الشكور:**

وجاءت الآية الكريمة مباشرة بعد آية الإسراء تتحدَّث عن شريعة التوراة

التي أنزلها الله تعالى على موسى عليه السلام، وألزم بني إسرائيل بها، وجعل التمسُّك بها سبيل هدايتهم وسعادتهم:

﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾﴾.

﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، وأوصاهم:

﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا﴾ أي: ربّاً تكِلون إليه أموركم غير الله سبحانه.

فالوكيل: فعيل بمعنى مفعول، وهو الموكول إليه؛ أي: المفوَّض إليه الأمور، ولا ينبغي أن يكونَ هذا التفويضُ إلا لله تعالى، لأنه سبحانه وحده الذي يقوم على شؤون الخلق وكفايتهم، فمرادُ الآية النهيُ عن الإشراك بالله تعالى.

ثم ذكَّرهم سبحانه بشدة حاجتهم إليه حين نجَّى آباءهم من الغرق في سفينة نوح، ولم يكن لهم حينئذٍ وكيلٌ يتوكلون عليه سوى الله تعالى:

﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾.

وفي الآية إشارة إلى أن نجاة من كان مع نوح في السفينة ببركة شكر نوح عليه السلام، وفيها أيضاً حثٌّ للذرِّية على الاقتداء به، وزجرٌ لهم عن الشرك الذي هو أعظم مراتب الكفر(١).

- **إفساد بني إسرائيل في الأرض:**

يبدو أنَّ بني إسرائيل لم ينتفعوا بما أنعم الله تعالى عليهم بنعمة إنزال التوراة وما جعل لهم فيها من أسباب الهداية والسعادة، فعقَّب على هذا مباشرةً بالحديث على ما كان منهم من فساد في الأرض، وما ترتب على ذلك من طردهم من الأرض المباركة، وتسليط عدوهم عليهم:

---

(١) انظر: روح المعاني: ١٦/ ١٥.

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾.

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: أعلمناهم وأوحينا إليهم وحياً جازماً صادقاً لا يتخلَّف في الكتاب المنزَّل عليهم وهو التوراة:

﴿لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾.

- **إفساد بني إسرائيل في المرتين حدث قبل الإسلام:**

وظاهر الآيات الكريمة يدلُّ على أن إفساد بني إسرائيل مرتين في الأرض حدث قبل الإسلام، وهو ما ذهب إليه علماء التفسير، إلا أنهم اختلفوا في تحديد زمن المرتين، وتاريخهما، والقوم الذين سلَّطهم الله تعالى على بني إسرائيل في المرتين، ولا يترتَّب على ذلك كبير غرض، المهم أنه لما كثرت معاصيهم، واشتدَّ فسادهم وإفسادهم، سلَّط الله تعالى عليهم من ينتقم منهم مرة بعد أُخرى.

لكنَّ بعض المتحدِّثين في التفسير من المعاصرين ذهبوا إلى أن الآيات تتحدَّث عن إفساد بني إسرائيل بعد نزول القرآن الكريم:

فالمرة الأولى برأيهم كانت عندما عارضوا دعوة الرسول ﷺ في المدينة المنورة، ومكروا به، وألَّبوا عليه المشركين، فسلَّط الله سبحانه النبيَّ ﷺ وأصحابه عليهم، فأجلى بعضهم عن المدينة وقتل بعضاً آخر منهم.

والمرة الثانية برأيهم هي ما يحدثُ من بني إسرائيل في العصر الحاضر في فلسطين، ويميلُ كثيرٌ من المعاصرين إلى هذا الرأي، وهو غير مسلَّم لهم، فظاهر

الآيات الكريمة يردُّه، لأن قوله تعالى بعد أن ذكر الإفسادتين: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء: ٨] يدلُّ صراحة على أن المرَّتينِ حدثتا قبل نزول الآيات الكريمة.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ خطابٌ لبني إسرائيل الذين كانوا موجودين عند نزول القرآن الكريم، ولكلِّ مَن يأتي بعدهم، ومعناه واضح، ففيه تهديدٌ وتحذيرٌ لهم من العودة إلى الإفساد من جديد بعد الذي تقدَّم منهم في المرتين السابقتين، فإنهم إذا عادوا إلى الإفساد عاد الله تعالى فعاقبهم بمثل ما عاقبهم في المرتين الأُوْلَيَيْن[1].

ونستطيع القول: إن في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء: ٨] إشارة إلى كلِّ فساد صدر عن بني إسرائيل بعد نزول القرآن الكريم، سواء في ذلك ما صدر عنهم في المدينة المنورة عندما عارضوا دعوة النبي ﷺ وألَّبوا المشركين عليه، وما يصدر منهم في العصور المتأخرة من عمل على نشر الفساد في الأرض، بما ابتدعوه واستحدثوه من نظم اقتصادية فاشلة، وفلسفات ملحدة منحلَّة، وما يفعلونه أيضاً في فلسطين من ظلم واستبداد وإفساد.

وإن قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء: ٨] بهذا الإطلاق دون أن يقيَّدَ بعدد معين، كما فعل قبل ذلك، يدل على كثرة الفساد الذي يصدر عن بني إسرائيل، وهو ما تؤيده وقائع وأحداث العصور الحديثة.

- **الإفسادة الأولى:**

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا﴾ أي: إذا حان وقت عقاب الإفسادَة الأولى.

﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾، ويبدو لي ـ والله أعلم ـ أن الإفسادة الأولى لبني إسرائيل وما حدث بعدها من تسليط عدوهم عليهم هي التي ذكرها الله سبحانه في **سورة البقرة** في قوله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُواْ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ

(١) انظر كتاب: لتفسدن في الأرض مرّتين، وهو من تأليف: محمد علي دولة، ومن منشورات: دار القلم بدمشق.

عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنْهُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾﴾.

فقد كان بنو إسرائيل بعد موسى عليه السلام على طريق الاستقامة مدة من الزمان، ثم أحدثوا الأحداث، وعبد بعضُهم الأصنامَ، ولم يزل بين أظهرهم من الأنبياء من يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، ويقيمهم على منهج التوراة، إلى أن فعلوا ما فعلوا، فسلَّط الله عليهم أعداءهم، فقتلوا منهم مقتلةً عظيمةً، وأسروا خلقاً كثيراً، وأخذوا منهم بلاداً كثيرة.

واستمروا على هذه الحالة إلى زمن داود عليه السلام في القرن العاشر قبل الميلاد، عندما نصره الله سبحانه على جالوت ملك الكنعانيين فقتله، وردَّ الله تعالى في عهده إلى بني إسرائيل قوتهم وعزّتهم كما أخبر في قوله الكريم: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٖ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾﴾.

وقد قوي سلطان بني إسرائيل، وامتدَّ ملكهم، وعلا شأنهم في هذه الفترة، وخاصةً في عهد نبي الله سليمان بن داود عليهما السلام، الذي وهبه الله تعالى ملكاً عظيماً، وسخَّر له سبحانه الريح العاصفة تأتمر بأمره، يوجِّهها بأمره رخيّة ليِّنة حيث يريد، وكذلك أخضع الله تعالى له مَرَدَة الجن والشياطين، يأتمرون بأمره، ويعملون له ما يشاء من الأعمال الكبيرة والمنشآت الضخمة الهائلة، وعلَّمه منطق الطير، وأسمعه كلام النمل، كل ذلك ذكره سبحانه في عدة آيات من القرآن الكريم[1].

- **الإفسادة الثانية:**

وأما الإفسادة الثانية فكانت في الفترة الممتدة بعد موت سليمان عليه السلام إلى عهد عيسى عليه السلام، وقد كان طغيانُ بني إسرائيل في هذه الفترة أكبرَ، وإفسادُهم في الأرض أعظمَ من المرة الأولى، حتى إنهم تجرؤوا على أنبياء الله تعالى،

(١) انظر: تفسير سورة النمل، الذي أسميناه في تفسيرنا الموضوعي هذا: (المعجزة والإعجاز في سورة النمل).

فكذَّبوهم، وقتلوا بعضهم، ولهذا استوجبوا لعنة الله عليهم، وتسليط عدوهم عليهم، وتشتيتهم في الأرض، وتمزُّقهم كلَّ ممزق، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِيٓ إِسْرَآءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ۝٧٠ وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ۝٧١﴾ [المائدة].

ويبدو أن الله ﷻ سلَّط عليهم في هذه المرة أكثر من عدو، إذ سلَّط عليهم أولاً البابليين في زمن بختنصر في القرن السادس قبل الميلاد، وسلَّط عليهم الآشوريين في الشمال، ثم سلَّط عليهم الروم، حتى جاء الفتح الإسلامي، فكان الإسلامُ رحمةً لهم ولغيرهم من شعوب الأرض، فلم يتمتَّع اليهودُ بالحقوق الإنسانية الكريمة إلا في عهود الحكم الإسلامي وفي البلاد التي حكمها المسلمون، فقد كانوا ولا يزالون محتقرينَ مكروهينَ من قِبَل أكثر شعوبِ الأرضِ، ولعلَّ قوله سبحانه: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ﴾ [الإسراء: ٨] إشارة إلى رحمته لهم بالإسلام الذي خلَّصهم من الظلم والاحتقار والكراهية، ومتَّعهم بالحقوق الإنسانية التي قررها لجميع الناس، كما سيأتي معنا في هذه السورة.

• **شبهات مردودة:**

وقد يقول قائل: كيف كان الإسلام رحمةً لهم وقد أجلى النبي ﷺ بعضَهم عن المدينة المنورة، وقتل الباقين منهم وهم يهود بني قُريظة؟!.

فأقول: إنَّه عليه الصلاة والسلام رحمةٌ للعالمين بصريح قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وقوله عليه الصلاة والسلام: «**إنَّما أنا رحمةٌ مُهْداةٌ**» [رواه ابن سعد (١/ ١٩٢) والحاكم (١/ ٣٥) والطبراني في الصغير (١/ ٩٥) وابن عدي في الكامل (٤/ ٢٣١)].

فهو رحمة لهم ولغيرهم، ولما قَدِمَ النبيُّ ﷺ مهاجراً إلى المدينةِ المنوَّرةِ لم يتعرَّضْ لهم بشيءٍ، بل وادعهم وسالمهم، ولكنَّهم نقضوا عهودَهم معه عليه الصلاة والسلام، ومكروا به، وحاولوا قتله، وألَّبوا عليه أعداءَه من المشركين،

فاضطر ﷺ أن يفعلَ ما فعلَ بهم من الإجلاء والقتل، فموقفه عليه الصلاة والسلام من يهودِ المدينةِ موقفٌ خاصٌّ بيهودِ المدينة.

أمَّا موقفُ الإسلامِ من اليهودِ عموماً في البلادِ التي دخلها الإسلام وعاشت في ظلِّ الحكم الإسلامي فيتجلَّى في موقف الإسلام من أهل الذمة، واليهود من أهل الذمَّة، وقد تمتَّعوا طيلةَ امتدادِ الحكم الإسلامي والحضارة الإسلامية بحقوق أهل الذمّة، التي قرَّرها الإسلامُ لهم، وألزم المسلمين حكَّاماً ومحكومين بها[1].

وتدل الآيات الكريمة على أنَّ ما حدث لبني إسرائيل في المرة الثانية كان أبلغ وأفظع مما حدث لهم في المرة الأولى، قال سبحانه في المرة الأولى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ﴾ [الإسراء: ٥].

وهذا الوصف لهؤلاء المبعوثين لا يدلُّ على إيمانهم وإسلامهم كما زعم بعض المحْدَثين من المتكلِّمين في التفسير؛ إذ احتجَّ بهذا على أنَّ المبعوثين هم الصحابة ﷺ عندما سلَّطهم الله على يهود المدينة المنورة، فالله سبحانه عوَّدنا أن يصف الصالحين من الناس بصفة العبودية، ويضيفهم إلى ذاته تشريفاً وتكريماً لهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ [الفرقان: ٦٣].

وأقول: ليس في هذا أيُّ دليل علمي على صحة ما ذهب إليه، فكل الناس مسلمهم وكافرهم عبيد لله سبحانه، ولا يخفى على المتأمل أنَّ الإضافة في آية الإسراء ﴿عِبَادٗا لَّنَآ﴾ تمَّت بحرف اللام الدالِّ على الملك والاختصاص، فهي ليست إضافة مباشرة كما في آية الفرقان [٦٣] ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾.

وقوله تعالى في وصف هؤلاء المبعوثين: ﴿أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ﴾ جاء متفقاً مع ما حكاه الله تعالى عن بني إسرائيل عندما التقوا بجالوت وجنوده: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وهذا يدل على قوة وشدة بأس جالوت وجنوده.

﴿فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ﴾ أي: ترددوا وبحثوا في بلادهم عن الفارِّين المنهزمين

---

(١) انظر: أحكام الذمِّيين والمستأمنين، للدكتور عبد الكريم زيدان (ن).

عن بني إسرائيل، وهذا لم يحدث عندما أجلى النبي ﷺ بني النضير وبني قينقاع عن المدينة المنورة، وعندما حاصر بني قريظة في حصونهم، وقتلهم بعد أن نزلوا منها على حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه.

وإن قوله سبحانه أيضاً بعد ذلك: ﴿وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء: ٧] يدلُّ صراحة على أن المبعوثين على بني إسرائيل قد دخلوا المسجد الأقصى في المرة الأولى طلباً للفارِّين المنهزمين من بني إسرائيل، وهذا لم يحدث أيضاً عندما سلَّط الله النبي ﷺ وأصحابه على يهود المدينة المنورة.

﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ محتَّم الوقوع والحدوث.

وأما في المرة الثانية فقد قال سبحانه يصف ما حدث فيها:

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ أي: بعثناهم عليكم، وسلَّطناهم عليكم، ليسوءوا وجوهكم، فيظهر على وجوهكم آثار المساءة والكآبة من كثرة ما يَقتلون منكم ويأسرون.

﴿وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا﴾ أي: ليهلكوا ويدمروا الذي غلبوا عليه واستولوا عليه تدميراً فظيعاً لا يوصف.

وهذا عقابُ الله تعالى لهم في الدنيا، وأمَّا عقابُ الآخرة ففي جهنم حيث يحصرون فيها، ولا يخرجون، ولهذا ختمَ الله تعالى الآيات الكريمة بقوله:

﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَـٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾ أي: مستقرّاً ومحصراً وسجناً لا محيد لهم عنه ولا يتفلت أحد منهم.

ومجيء (إذا) في الحديث عن المرة الأولى والمرة الثانية ـ وهي ظرف لما يستقبل من الزمان ـ لا يدلُّ على أنَّ زمن المرتين بعد نزول آيات القرآن الكريم، لأن الآيات تتحدَّث عن قضاء الله تعالى المحكم الذي تعلقت به إرادته ومشيئته منذ الأزل، وأخبر عنه في التوراة التي أنزلها على بني إسرائيل، فهي تدل على الزمان المستقبل بالنسبة لنزول التوراة لا بالنسبة لنزول القرآن الكريم. والله تعالى أعلم.

والجدير بالذكر أيضاً: أنَّ الصحابة رضي الله عنهم لما فتحوا فلسطين، ودخل عمر بن

الخطاب ﷺ بيتَ المقدس صلحاً، لم يكن يوجد في بيت المقدس أحدٌ من اليهود، لأنَّ الرومَ ما كانوا يمكِّنون اليهود من الإقامة في بيت المقدس، بل إنَّ أهلَ بيت المقدس طلبوا من خليفة المسلمين عمر بن الخطاب ﷺ أن يمنعَ اليهودَ من دخول بيت المقدس، والدليلُ على ذلك أنَّه جاء في العهد العمري الذي أعطاه عمرُ لأهل بيت المقدس في سنة (١٥هـ) الموافق (٦٣٦م) ما نصه:

«هذا ما أعطى عبدُ اللهِ عمرُ أميرُ المؤمنين أهلَ إيليا من الأمانِ، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصُلبانهم، وسقيمها وبريئها، وسائر ملَّتها، أنَّه لا تُسكنُ كنائسهم ولا تُهدم، ولا ينتقص منها ولا من حيِّزها، ولا من صليبهم، ولا من شيءٍ من أموالهم. ولا يُكرَهونَ على دينهم، ولا يضارَّ أحدٌ منهم، ولا يسكن بإيليا معهم أحدٌ من اليهود»[1].

وهذا الشرط الأخير اشترطه بطريرك القدس صفرونيوس.



---

(١) انظر بقية كتاب عمر لهم في تاريخ الطبري: ٤/ ١٥٩ ـ ١٦٠، طبع دار الفكر في بيروت.
قلت: وقد شرح كتاب عمر بن الخطاب هذا ابن قيم الجوزية في كتابه الجامع «أحكام أهل الذمة» وقد أفرد بالنشر بعنوان «الشروط العمرية»، وكلا الكتابين نشرتهما جامعة دمشق بتحقيق الدكتور صبحي الصالح ﷺ (ن).

الفَصْلُ الثَّانِي

القُرآنُ الكَرِيمُ والمَبَادِئُ الأَسَاسُ الكُبْرَى الَّتي يَدْعُو النَّاس إِلَيْها

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ

حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾.

- **القرآن الكريم:**

القرآن الكريم أعظمُ المعجزاتِ التي أكرمَ اللهُ تعالى بها النبي ﷺ، وهي معجزةٌ باقيةٌ بعده ﷺ منارَ هدايةٍ لكلِّ الناس في كلِّ زمان ومكان.

وكان للقرآن الكريم تأثيرٌ كبيرٌ في تثبيت النبيِّ ﷺ وهو يواجه قوى الشرك والمشركين، وجاء هذا التثبيتُ في آياته الكريمة التي حملتْ للنبيِّ ﷺ بشائر النصر والتأييد والتمكين في الأرض وظهور الإسلام، وفي الآيات الكريمة التي نزلت تواسي النبيَّ ﷺ، وتخفِّف من معاناته وأحزانه وهو يواجه عنادَ المشركين وجحودهم.

وجاء التثبيتُ أيضاً في أسلوب نزول القرآن الكريم مفرَّقاً على النبيِّ ﷺ، وكان لهذا تأثير كبير في تثبيت النبي ﷺ وهو يواجه كيد المشركين ومكرهم، وكل ذلك ستتحدَّث عنه الآيات الكريمة في سورة الإسراء.

بدأت الآيات تتحدَّث أولاً عن مضمون الهداية في القرآن الكريم بالمقارنة مع مضمون الهداية في التوراة، فقال ﷻ:

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾﴾.

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ هكذا يهدي على الإطلاق دونَ قيدِ زمانٍ أو مكانٍ، فما أعظمَ الفرق بين قوله تعالى عن التوراة: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الإسراء: ٢]، فقد جعل الهدايةَ بالتوراةِ مقيدةً ومحدودة، وبين قوله تعالى عن القرآن الكريم: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ فقد جعل هداية القرآن الكريم مفتوحةً مطلقةً في كلِّ زمان ومكان!.

ووصف الله سبحانه القرآن الكريم بثلاث صفات أساس:

أولها: ﴿يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ أي: للطريقةِ التي هي أقوم الطرق. فكلمة **(التي)** صفة لموصوفٍ حُذِفَ اختصاراً، ويمكن تقدير الموصوف بالطريقة، أو الملّة، أو الشريعة، أو الدعوة، أو الحالة، وإبهامُ الموصوف يدل على تعظيم شأنه وحاله، فحذفُه أولى في البلاغةِ، فمهما قدَّرْتَ الموصوف وأثبتَّه لن تجدَ مع الإثباتِ ذوقَ البلاغةِ الذي تجده مع الحذف(١)، فالقرآن الكريم يهدي لأعظم عقيدة وأكمل شريعة.

ثانيها: ﴿وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ وهذه الصفة الثانية نتيجة لازمة للصفة الأولى، فلا بدَّ أن يكون للشريعة القيِّمة أثر، وذلك هو الأجر الكبير.

ثالثها: ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

وعطف الله تعالى الصفة الثالثة على الثانية ليبيِّن لنا أنَّه بشَّرَ المؤمنين بنوعين من البشارة:

---

(١) انظر: روح المعاني: ٢٢/ ١٥.

الأولى: بثوابهم وهو الأجر الكبير.

والثانية: بعقاب أعدائهم وهو العذاب الأليم(١).

وخصّ الله سبحانه الآخرة بالذكر من بين القضايا التي لم يؤمن بها الكفّار لكونها من أهم قضايا الإيمان التي كان المشركون ينكرونها، كما سيأتي معنا في آيات السورة، وكذلك لمراعاة التناسب بين الأعمال والجزاء عليها(٢).

- **الإنسان العجول:**

ثم بيَّن الله تعالى حاجةَ الإنسان إلى هداية القرآن الكريم وما فيها من مبادئَ رفيعةٍ وقِيَمٍ أخلاقية كريمة، يحتكم إليها في شؤون حياته، فلا يضلُّ ولا يزلُّ، ومهما اكتسب الإنسانُ من علومٍ ومعارفَ يبقى ضعيفاً محدوداً محتاجاً إلى هداية القرآن الكريم، وسبب ذلك نوازع الهوى والشهوة التي جُبل عليها، والتي لها تأثير كبير على الإنسان بحيث تغلبه وتجعله عجولاً متسرِّعاً متهوِّراً، فإذا غلبت عليه شهوته، اختلت في نظره القِيَم، فلا يميِّز بين الخير والشر، بل نراه في كثير من الأحيان يضعُ الشرَّ في موضع الخير تماماً كما وصفه الله سبحانه:

﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾﴾.

فلا عجبَ إذا رأينا كثيراً من الناس في العصر الحاضر يضعون الرذيلة في موضع الفضيلة، فيرونَ الفجورَ والانحلالَ والزنى تحرُّراً وتقدُّماً، ويرون الغِشَّ والاحتيالَ والكَذِبَ مهارةً وذكاءً، ويعدُّون التهوُّر والمغامرة والعجلة شجاعة وإقداماً، بينما يرون العفَّة والتعفُّف تأخُّراً وانحطاطاً، ويرون الصدق والأمانة تزمُّتاً وتشدُّداً، ويعدُّون التأنِّي والحلم جبناً وضعفاً وتردُّداً.

إنَّ كثيراً من الأمور التي يبالغُ الناس في طلبها والعمل من أجل تحصيلها، اعتقاداً منهم أنَّ فيها خيراً كثيراً لهم، هي في حقيقةِ أمرها منبع شرٍّ وضررٍ بالغ

---

(١) انظر: التفسير الكبير، للرازي: ٢٠/ ١٦١.

(٢) انظر: روح المعاني: ٢٢/ ١٥.

بهم، ومردُّ ذلك إلى استعجالهم في إرواء شهواتهم ونزواتهم، وسيطرة أهوائهم على سلوكهم وتفكيرهم، ومهما استعجل الإنسانُ في تحصيل ما يشتهي فلن يأتيه إلا ما قدَّر الله تعالى له، ومهما استبطأ حركة الزمن فلن يتمكن من تغييرها.

• **حركة الزمن:**

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ ما أعظم فضل الله تعالى على الإنسان عندما جعل حركة الزمن تسير بمقتضى حكمته ومشيئته وقدرته سبحانه وحده، إنها تسيرُ على سنن ثابتة محكمة قدَّرها الحكيم العليم، الذي أحكمَ وأحسنَ كل شيء خلقه، بحيث تستمرُّ الحياة معها، وخاصة حياة الإنسان، وما له في هذا الترتيب المحكم لحركة الزمن من مصالح كبيرة في دينه ودنياه:

﴿لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾.

وحتى ندرك مدى فضل الله سبحانه الحكيم العليم على الإنسان في تنظيم وضبط حركة الزمن، لنتصوَّر ما يمكن أن يحدث للحياة عموماً وللإنسان خصوصاً لو قدَّر الله ﷻ للإنسان العجول الذي يضعف أمام نزواته وشهواته أن يسيطر على حركة الزمن ويتحكَّم فيها... وقد مرَّ معنا كيف اختلَّت في نظره القيم والفضائل، فوضع في مكانها القبائح والرذائل نتيجة تهوره وتسرُّعه وضعفه أمام شهواته ونزواته.

لقد وضعت العلومُ التجريبيةُ بتقدير الله تعالى يدَ الإنسان المعاصر على جزء يسير من أسرار النواميس التي جعلها الله تبارك وتعالى في هذه الحياة الدنيا، فماذا صنع الإنسانُ بهذه المعارف؟ ماذا صنع الإنسان عندما اكتشف قوانين الذرَّة وقوة التدمير الهائلة التي تحدثُ نتيجة تحطيمها؟ وماذا صنع ويصنع عندما

تمكن من التلقيح خارج الرحم، وما ترتَّب على ذلك من الفوضى الأخلاقية والاجتماعية في الأنساب وحياة الأُسرة والاقتصاد[(١)]؟.

فالحمد لله تعالى الذي نظَّم الكونَ مكاناً وزماناً، وقدَّره سبحانه فأحسن تقديره، وجعل ذلك منوطاً بمشيئته وحكمته ورحمته وعلمه، لا بمشيئة الإنسان وقصوره وجهله وعجلته؛ فكم في تقلُّب الليل والنهار بهذا النظام المحكم الثابت من مصالح حيوية للإنسان، ففي الليل يسكنُ الناسُ ويرتاحون، وفي النهار ينتشرون للمعايش والصنائع، وبتقلُّب الليل والنهار يعلمون عدد الأيام والشهور والأعوام، ويعرفون حساب الآجال المضروبة لعباداتهم ومعاملاتهم، فله سبحانه المنَّة الكبرى على الإنسان في ضبط وتنظيم تقلُّب الليل والنهار: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص].

- **مسؤولية الإنسان:**

والزمن الذي قدَّره الحكيم العليم، وأحكم حركته، وضبط مقاديره؛ ظرف لأعمال الإنسان، ولا تستقيمُ الحياة الإنسانية في ظرفها الزمني المقدَّر المحكم إلا إذا كان الإنسان مسؤولاً عن أعماله.

كما أنَّ الإنسان لا يلتزم بهداية القرآن الكريم التي هي أقوم إلا إذا كان مكلَّفاً بها ومسؤولاً عنها، فلا يعقل أن يترك الله تعالى ـ وهو الحكيم العليم ـ الإنسان دونَ أن يجعله مسؤولاً عن أعماله، وإلا كان خلقه سبحانه للإنسان عبثاً ولعباً يتنزه الله سبحانه عنه، وهو الحكيم العليم:

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة].

---

(١) انظر كتاب المؤلف في هذا الموضوع: الأنساب والأولاد في الإسلام.

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون].

ويقتضي تقرير المسؤولية الحساب وما يترتب عليه من ثواب وعقاب، فلا بدَّ إذاً بعد هذه الحياة الدنيا من حياة ثانية يكون فيها الحساب والثواب والعقاب، ويتحمل الإنسان فيها مسؤوليته عن أعماله:

﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ وطائرُ الإنسانِ عملُه الذي طار عنه، أي: صدر عنه، سواء كان خيراً أو شرّاً، فكلُّ إنسانٍ ملزمٌ بعمله، ومسؤولٌ عنه، وهو مسجَّلٌ عليه، ويقدَّم له يوم القيامة في كتاب منشور:

﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾، ويقال له:

﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾.

- **المسؤولية الشخصية:**

ومسؤولية الإنسان عن عمله مسؤولية شخصية خاصة به:

﴿مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾.

﴿مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ فأثرُ الهدايةِ وفائدتُها تعودُ على الإنسان نفسه لا على غيره.

﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ كما أنَّ عاقبةَ الضلال والزيغ والانحراف يعود وبالها على الإنسان نفسه.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ فلا يحمل أحد ذنب أحد، ولا يجني جانٍ إلا على نفسه.

ولا يتعارض هذا مع قوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل: ٢٥].

وقوله أيضاً: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ [العنكبوت: ١٣].

فما يحملُه المضلُّون إنَّما هو جزاء الإضلال لا جزاء الضلال، فجزاءُ الضلال مقصورٌ على الضالين[1]، فالآيتان تنسحبان على زعماء الضلال ودعاة الكفر والشرك، فهم يحملون يومَ القيامةِ مسؤوليةَ ضلالهم ومعها مسؤولية نشرهم للضلال والفساد.

- **الإيمان بوجود الخالق ووحدانيته:**

ومع هذا التقرير فإنَّ عدلَ الله تعالى اقتضى ألَّا يسأل أحداً إلا بعد أن يقيم عليه الحجة؛ فقال سبحانه:

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ يقيمُ عليهم حجةَ اللهِ تعالى، ويبيِّن لهم شريعته، فلا تكليفَ قبل الشرع.

ويستثنى من ذلك معرفة الله تعالى وتوحيده، لأنه سبحانه مكَّن الإنسان من معرفته لربه **بالفطرة** التي فطره عليها: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

وبالعقل الذي منَّ الله تعالى به على الإنسان، فلو لم يبعث الله رسولاً لوجبَ على كل مَن يستطيعُ النظر والتفكُّر أن يعرف خالقه سبحانه فيؤمن بوجوده ووحدانيته.

فمَن عاش ومات ولم يسمع برسول ولم تبلغه دعوته مسؤول فقط عن الإيمان بوجود الخالق ووحدانيته، ولا يسأل عن عبادة الله تعالى والتزام شريعته والإيمان بما يجب الإيمان به ممَّا لا سبيل إلى معرفته إلا بواسطة الرسل، فليس

---

(١) انظر: روح المعاني: ١٥/ ٣٥.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ على عمومه، فهو مخصص بأدلة أخرى كثيرة كقوله تعالى على لسان أهل النار: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠].

وقوله سبحانه: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠].

فبعثةُ الرسل لبيان عبادة الله تعالى وشرعه لا لمعرفة الخالق، فالإنسان مزوَّد بما يعرِّفه بخالقه سبحانه وتوحيده، ولهذا كانت كلمة الأنبياء جميعاً لمن أرسلوا إليهم: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩][(١)].

- **الترف والفسق:**

وقد اقتضت حكمة الله تعالى ومشيئته ألا يحاسبَ الناسَ بمقتضى علمه سبحانه بهم، بل بمقتضى عملهم، فلا مسؤوليةَ لمن يموتُ صغيراً، ولو علم الله سبحانه أنّه لو بلغ فسق عن أمره سبحانه، وهذا يجعلنا نأخذ بقول القائلين بنجاةِ الأطفالِ الذين يموتون قبلَ البلوغ، ولو كانوا أبناءَ الكافرين، ولا يهلك الله تعالى أمةً من الأمم أو بلدة من البلدان إلا إذا فشت المعاصي فيهم فعلاً، وعملوا بغير طاعة الله تعالى، قال عزَّ شأنه:

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾.

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً﴾ أي: دنا الوقت المقدَّر في علمه لهلاك قرية.

﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ أي: أقمنا عليهم الحجة وأرسلنا إليهم مَن يأمرهم بطاعة الله سبحانه، فهذا كقولك: أمرتُه فقرأ، فإنه لا يفهمُ منه إلا الأمر بالقراءة، فحذف المأمور به، لأن قوله: ﴿فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ يدل على أنهم أمروا بطاعة الله تعالى، فالفسق معناه الخروج عن الطاعة، والله سبحانه لا يأمر به، قال تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨].

---

(١) انظر حكاية الله تعالى هذه الكلمة على لسان الأنبياء في سورتي الأعراف وهود.

وخصَّ ﷻ المترفين بالذكر لأنَّ غيرَهم تبعٌ لهم، فالمترفون هم المتنعِّمون من ذوي السلطان والغنى، فهم أئمةُ الفسق ورؤساءُ الضلال، وهم في الغالب المُسارعون إلى تكذيب الأنبياء والمرسلين، وإلى أعمال الفسق والفجور، والعامة تبع لهم، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

وقال ﷻ أيضاً: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [سبأ: ٣٤].

وهذا دليلٌ على أن الترفَ من أعظمِ أسبابِ الفسق والفجور.

﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ هذا هو ناموس العدل الإلـٰهي والحكمة الربانية الذي لا تبديل له ولا تغيير.

فكل الأمم والشعوب التي عذَّبها سبحانه وأهلكها، كان هلاكها وعذابها بسبب ذنوبها ومعاصيها:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾.

فهو سبحانه أحاط علماً بذنوب كل الأُمم والشعوب المتعاقبة والمتعاصرة، وهو سبحانه لا يبدأُ الناس بالتعذيب والهلاك: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ﴾ [الرعد: ١١].

فهو سبحانه لم يخلقِ الخلقَ ليعذِّبهم، بل ليشرِّفهم بعبادته، ويُسْعِدَهم بطاعته، ويكرمهم بعد ذلك بجنته: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

والأشقياء بسوء كسبهم واختيارهم وظلمهم يعرِّضون أنفسهم للهلاك والعذاب، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩].

- **طلاب الدنيا:**

والإقبال على الدنيا والاهتمامُ بها من أهم أسباب الترف والسرف والفسوق

والعصيان، لأنَّه يصرف الإنسانَ عن الشعور بمسؤوليته أمام الله تعالى يوم القيامة، ويجعله يُعْرِضُ عن الاهتمام بشأن هذه المسؤولية، ولهذا بيَّن الله تعالى لطلابِ الدنيا والمتهالكين على تحصيل زهرتها، واقتناص لذائذها؛ بَيَّن لهم أنَّ الفوزَ بالدنيا وما فيها لا يحصلُ لكلِّ مَنْ يطلبها، فما أكثر مَن يصرفون همَّهم وجهدهم لتحصيل أسباب السرف والترف، فلا يصلون إلى ما يريدون، ويخسرون بذلك الدنيا والآخرة؟!.

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾﴾.

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾، فالأمرُ منوطٌ بمشيئة الله تعالى، فما أشدَّ خسارة مَنْ يعرِضُ عن الدين من أجل الدنيا، فيخسر الدين والدنيا.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ أي: مُبْعَداً عن رحمة الله تعالى.

وما أعظم ربح مَن اتجه إلى الآخرة وسعى من أجل الفوز بها!:

﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾.

فثَمَّةَ شروطٌ ثلاثة:

أولها: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ أي: يريدُ بعمله وجه الله تعالى ورضوانه والدار الآخرة، فالمطلوبُ أن يقصدَ طاعة الله تعالى، وأن يستشعرَ عبوديته له سبحانه.

ثانيها: ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ الذي يليقُ بها، فينبغي أن يكون العمل الذي يتوصل به إلى الفوز بثواب الآخرة من الأعمال المشروعة التي شرعها الله سبحانه للوصول إلى ثواب الآخرة.

ثالثها: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أي: مصدِّق بكلِّ ما يجبُ التصديقُ به في كتاب الله تعالى، وسُنّة النبي ﷺ.

﴿فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا﴾ بهذه الشروط يكونُ عملُه وسعيُه مشكوراً، أي: مُثاباً عليه عند الله تعالى.

- **التفاوت بين الناس:**

ولمَّا كانت الحياة الدنيا ابتلاءً واختباراً فلا بدَّ أن يمدَّ الله تعالى طلاب الدنيا وطلاب الآخرة بأسبابِ الابتلاءِ والاختبارِ من أموال وأولاد وغير ذلك، ولا بدَّ أيضاً أن يكونوا متفاوتين في الإمداد، ليكونَ الاختبارُ أتمَّ وأكملَ:

﴿كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ٢٠﴾.

﴿كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ﴾ فالإمدادُ ليس بطريق الإلزام، بل هو بمحض الفضل والإحسان.

﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا﴾ أي: ممنوعاً.

ثم بَيَّن سبحانه كيف جعلهم متفاوتين بالإمداد والعطاء فقال:

﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا ٢١﴾.

﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ﴾، فلا تستقيمُ الحياة إلا بهذا التفاوت؛ لابدَّ من وجود رفيع ووضيع، ومالك ومملوك، وموسر وصعلوك، كما قال سبحانه في **سورة الزخرف**: ﴿أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ٣٢﴾.

والتفاوتُ بين الناس في الآخرة أكبر من التفاوت بينهم في الدنيا، لأنه يكونُ في الجنة ودرجاتها العالية الرفيعة التي لا يقدِّر قدرها إلا الله سبحانه:

﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا﴾.

- **التي هي أقوم:**

مرَّ معنا أن الله سبحانه وصف القرآن الكريم بقوله عزّ شأنه: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ

﴿يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، وبيَّنْتُ أنه سبحانه حذف الموصوف تعظيماً لشأنه، وأنَّ حذفه أولى في البلاغة، ثم تحدَّثتِ الآياتُ الكريمة عن الإنسان وطبيعته، ونزعة التسرُّع والعجلة التي جُبل عليها، ثم عن مسؤوليته يوم القيامة وطبيعة هذه المسؤولية.

وهاهي الآيات الكريمة الآن تشرع في تفصيل وتوضيح ما في القرآن الكريم من هداية للتي هي أقوم، كأنها بعد أن قررت مسؤولية الإنسان بدأت تبيِّن مدى هذه المسؤولية وعمقِها وشمولها، ببيان المبادئ القرآنية الكريمة التي يجب على الإنسان أن يلتزمها ويطبِّقها في جميع شؤون حياته، والتي هو مسؤولٌ عنها أمام الله سبحانه يوم القيامة.

ويجدرُ التنبيه إلى أنَّ قوله سبحانه: ﴿لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩] لا يُراد به التفضيل، وهو ما ذهب إليه أبو حيَّان رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره «البحر المحيط»، فلا مشاركة بين الطريقة التي يهدي إليها القرآن وغيرها من الطرق، بل المعنى: للتي هي قيِّمةٌ، أي: مستقيمة، ويؤيده قوله تعالى: ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ [الأنعام: ١٦١]، وقوله أيضاً: ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥][(١)].

• **الهداية إلى أقوم عقيدة:**

أول هذه المبادئ وأعظمها وأخطرها مبدأُ التوحيد في الاعتقاد، وهو أساسُ كلِّ المبادئ الإسلامية، فتوحيدُ الله تعالى أصلها، وكلها فروع، تتفرَّع عنه، فلا تصلحُ إلا به، ولا تتفرَّع إلا عنه، ولهذا بدأت الآيات الكريمة بتقريره بهذا الخطاب الملزم:

﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾.

﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾: والخطابُ للنبيِّ ﷺ، والمرادُ به كلُّ مَنْ يصلحُ

---

(١) انظر: البحر المحيط: ٦/١٣؛ وروح المعاني: ١٥/٢٢.

خطابه من المكلَّفين، وجاء الخطابُ للنبيِّ ﷺ ليدلَّ على خطورته وأهميته بالنسبة لجميع المكلَّفين.

وبيَّنت الآية الكريمة ما يترتَّب على الانحراف عن توحيد الله سبحانه بهذه الكلمات الموجزة البليغة الواضحة:

﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾؛ فكلمة (**تقعد**) تدل على شدَّةِ مشاعر القلق والهمِّ والحيرة التي تسيطر على الإنسان عندما ينحرفُ عن عقيدة التوحيد، إنَّه يصبحُ مذموماً مخذولاً مِنْ قِبَلِ الله ﷻ ومن قِبَلِ المؤمنين الموحدين، ومذموماً ومخذولاً أيضاً من قِبَل نفسه وعقله.

فلا راحةَ لنفس الإنسان إلا في ظلال عقيدة التوحيد، فهي التي تتفق مع الفطرة التي فطر الله سبحانه الإنسان عليها، ولهذا ترى المُعرضين عن عقيدة التوحيد في همٍّ دائم وقلق وحيرة، لأنَّ نفوسهم لا تجد السكينةَ والراحة إلا في توحيد الله سبحانه، ولا يطمئن العقل السويُّ وينسجم إلا مع عقيدة التوحيد، لأنَّها تتفق تماماً مع أبسط المبادئ العقلية للإنسان.

وهذا يجعلنا نختار مرة ثانية ما جوَّزه أبو حيان من حمل القعود في الآية الكريمة على حقيقته، لأن من شأن المذموم المخذول أن يقعد حائراً متفكِّراً[(١)].

- **الهداية إلى أقوم سلوك اجتماعي؛ الإحسان إلى الوالدين:**

ويحتاجُ الإنسان حاجة ماسَّة إلى قواعد واضحة في السلوك الاجتماعي تنظِّم وتحدِّد علاقته بالآخرين من أفراد المجتمعات التي يعيش فيها، ولا شك أن مجتمع الأُسرة أهم المجتمعات الإنسانية التي يرتبطُ بها الإنسانُ، ويحتاج إليها، ولهذا اهتمَّ الإسلامُ كثيراً بتقرير قواعد السلوك الاجتماعية التي تنظِّم علاقة أفراد الأُسرة فيما بينهم، وتحافظ عليها وتقوِّيها، وأهمُّها علاقة الإنسان بوالديه اللذين هما أصل وجوده، فالإنسانُ فرعُ والديه، وامتدادٌ لهما، ويجب عليه أن يُحْسِنَ علاقته بهما.

---

(١) انظر: البحر المحيط: ٦/ ٢٢.

وقد أكَّد سبحانه هذا الواجبَ، وأمرَ به، وشرعه مقروناً بواجب عبادته ﷻ وحده، فجاءت الآيةُ الكريمةُ تهدي إلى أقوم عبادةٍ، وإلى أقوم سلوك اجتماعي تجاه الوالدين:

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾.

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ أي: أمر أمراً قاطعاً مبرماً، وأفاد تقديم الأمر بعبادة الله تعالى على الأمر بالإحسان للوالدين تقييد الإحسان للوالدين وطاعتهما بطاعة الله تعالى وعبادته، «**فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق**» وهذا ما صرَّحت به الآياتُ الكريمةُ في **سورة لقمان**: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾.

ولمَّا كان شأن كثير من الناس أنهم يستثقلون خدمة آبائهم في حال ضعفهم وشيخوختهم، حتى صار أكثرُهم يعرضون عن آبائهم، ويضعونهم في الأماكن المخصصة لإيواء العجزة وكبار السن، ويكتفون بزيارتهم في المناسبات فقط، وبعضُهم يقتصر على إرسال الهدايا والرسائل إلى والديه، ولا يكلِّف نفسَه مشقة زيارتهما ورؤيتهما، وهو حال أكثر الناس في العصر الحاضر، وخاصّة في المجتمعات الغربية الكافرة، فإنّ الآيات الكريمة تلزِمُ الإنسانَ المسلمَ بخدمة والديه والإحسان إليهما، وتركِّز بشكل خاص على خدمتهما، وهما في سنِّ الضعف والشيخوخة:

﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾ وتأمَّل كلمة (**عندك**) ما أجملها

وما أعظمَ وقعَها على نفس الإنسان المؤمن، إنَّها تلزِمُه بخدمة والديه بنفسه دونَ أن يصدرَ منه أدنى تأفُّف أو تضجُّر مما يستقذر منهما أو يستثقل.

﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ هكذا بهذا النهي الحازم الجازم، إياكَ أَنْ توجِّهَ لوالديك أدنى كلمة تدل على تأفُّفك وتضجُّركَ من خدمتهما فتجرحَ مشاعرهما، وتنالَ من كرامتهما، تذكَّرْ كم كانا يستعذِبان خدمتك وأنتَ صغيرٌ، وكم كانا يسعدان، وهما يزيلان عنك الأقذار والأوساخ.

وإذا صدر منهما أو من أحدهما شيءٌ لا يعجبك؛ فإياكَ أن تغلظ لهما الكلام:

﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا﴾ بدل التأفف والنَّهْر:

﴿قَوْلًا كَرِيمًا﴾: جميلاً شريفاً لطيفاً، فلا تدعُ والديك باسميهما، فإنَّه من الجفاءِ وسوءِ الأدب، ولا ترفع صوتك عليهما، ولا تنظرْ إليهما شزراً.

وعليك أن تكون رحيماً بهما ما عاشا، وتدعو لهما إذا ماتا:

﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾.

﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ وعليك أن تتواضع لهما من كثرة رحمتك وعطفك عليهما.

ولا تكتفِ برحمتك الفانية المحدودة، بل ادعُ الله تعالى لهما أن يرحمهما برحمته الواسعة الباقية:

﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾.

ثم وعد الله تعالى مَن أضمر برَّ والديه في نفسه، وتوعَّد مَن أضمر عقوقهما فقال:

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾.

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ﴾: بقصد الصلاح والبرِّ دون العقوق.

﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾ الراجعين إلى الله تعالى والتائبين عمَّا فرط منهم من تقصير، فلا يكادُ يخلو إنسانٌ عن التقصير والخطأ، وهذا من لطف الله

تعالى بالأبناء، وبالآباء أيضاً، فالآيةُ فيها حثٌّ للمقصِّرين في حق آبائهم على التوبة والمبادرة إلى تلافي تقصيرهم، كما أنَّ فيها حثّاً للآباء على التسامح مع أبنائهم بالإغضاء عن بعض تقصيرهم وهفواتهم، وأن يكونوا عَوْناً لأبنائهم على برِّهم والإحسان إليهم.

- **حق المسلم على المسلم:**

ثم بعد برِّ الوالدين أمر الله تعالى بالإحسان إلى الأقارب، وبصلة الأرحام، ووسَّع بذلك دائرةَ السلوك الاجتماعي القائم على الإحسان واحترام الحقوق بصيانتها وأدائها لمستحقِّيها، فقال عزّ شأنه:

﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾﴾.

﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾، وحقه: أن تساعده إذا كان محتاجاً، فالمساعدة الماديةُ أهمُّ حق للقريب على قريبه، وتزدادُ تأكُّداً كلما كانت القرابة أقوى وألصق.

وقوله سبحانه بعد ذلك: ﴿وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ توسيع لدائرة الواجب الاجتماعي نحو المحتاجين من أبناء المجتمع، سواء كانوا من المقيمين فيه، أو كانوا من الغرباء عنه المسافرين المنقطعين.

ولا يقتصرُ هذا الحق على المساعدة المادية فقط، بل يتجاوزها إلى إقامة علاقات أُخرى تستدعيها طبيعة الحياة الاجتماعية:

قال رسول الله ﷺ: «**حَقُّ المسلمِ على المسلمِ ستٌّ**» قيل: ما هنَّ يا رسولَ اللهِ؟ قال: «**إذا لقيتَه فسلِّمْ عليه، وإذا دعاكَ فأَجبْهُ، وإذا استنصحَكَ فانصحْ لَهُ، وإذا عطسَ فحمِدَ الله فشمِّته، وإذا مَرِضَ فعُدْه، وإذا ماتَ فاتْبَعْهُ**» [رواه مسلم (٢١٦٢)].

وقوله: «**فشمِّته**» بالسين والشين؛ بأن تقول له: يرحمك الله، بعد أن يحمد الله تعالى.

• **الهداية إلى أقوم سلوك في إنفاق المال:**

بيَّن الله ﷻ أقوم سلوك في إنفاق المال بمراعاة المبادئ التالية:

١ ـ الامتناع عن إنفاق المال على المحرَّمات:

فإن ذلك تضييع للمال وتبذير نهى الله سبحانه عنه وحرَّمه ولو كان مقدار المال المنفق على المحرَّمات قليلاً؛ قال تعالى:

﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ أي: لا تصرف المال إلى مَن لا يستحقه، فإن **التبذير**: **إنفاق المال في غير موضعه المشروع**، كمَن يلقي البذر في الأرض كيفما كان من غير تعهُّد لمواقعه[1].

ثم أكَّد سبحانه تحريم التبذير بتشبيه المبذِّرين بالشياطين:

﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ أي: مماثلين للشياطين في صفات السوء ومنها التبذير.

﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ أي: مبالغاً في كفران النعمة، فقد صرف ما أعطاه الله تعالى من القوى والقدرات إلى المعاصي ونشر الفساد والكفر.

ولا شك أنَّ التبذيرَ صرفٌ للمال الذي هو من نعم الله تعالى في غير مصرفه المشروع، فهو كفرٌ للنعمة، يقابل الشكر الذي هو صرف النعمة في الوجه المشروع الذي خُلِقَتْ من أجله.

٢ ـ القول الميسور:

﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾﴾.

﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ إذا اعترتكَ حالٌ من قلَّة المال،

---

(١) انظر: روح المعاني: ١٥/ ٦٣.

ونزلت بك ضائقة مادية حملتك على الإعراض عن المحتاجين وترك مساعدتهم: فلا يجوز أن تجعلك الضائقةُ الماديةُ تغلِظُ القولَ لهم، فتجرحَ مشاعرهم، وتنالَ من كرامتهم، بل عليكَ أن تتجمَّلَ بالرفق ولين الجانب، وتتلطَّفَ معهم بالكلام: ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾.

وهكذا يبيِّن الله تعالى لنا أقومَ طريق في تعاملنا مع الناس في حال اليُسْر والعُسْر.

٣ ـ التوسُّط في الإنفاق بين البخل وبين الإسراف:

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾.

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ أي: لا تكنْ بخيلاً مَنُوعاً لا تعطي أحداً شيئاً.

﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ أي: لا تسرف في الإنفاق، وتتجاوز حدود التوسط والاعتدال، فلا إفراطَ ولا تفريط، وخيرُ الأمور أوساطها كما قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ وهذا من باب اللفِّ والنشر، أي: فتقعدَ إن بخلت **ملوماً** يلومك الناس ويذمُّونك ويستغنون عنك، كما قال زهير بن أبي سُلمى المزني[1]:

وَمَنْ كانَ ذا مالٍ فَيَبْخَلْ بِمَالِهِ   عَلَى قَوْمِهِ يُسْتَغْنَ عَنْهُ وَيُذْمَمِ

وتصير في حال الإسراف وبسط اليد **محسوراً**، أي: عاجزاً لا تجد شيئاً تنفقه، أو نادماً مغموماً متحسِّراً ومتأسفاً على المال الذي ضيَّعته بالإسراف.

٤ ـ وعليك أن تعتقدَ أنَّ شأنَ الرزق منوطٌ بالله سبحانه:

فهو الرازق القابض الباسط المتصرّف في خلقه بما يشاء، فيُغني مَنْ يشاء، ويفقِرُ مَنْ يشاء، وله في ذلك حِكَمٌ يعلمُها سبحانه، فلا يجوز الاعتراضُ عليه، بل عليك التسليم والرضا بعد أن تأخذَ بأسباب تحصيلِ الرزق والاكتساب بالسعي والعمل في الطرق المشروعة:

---

(١) شاعر جاهلي، وأحد حكماء العرب، وأحد أصحاب المعلقات.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: يوسِّعه ويضيقه بمشيئته التابعة للحكمة البالغة.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ يعلم سرَّهم وعلنهم، ويعلم مِنْ مصالحهم ما يخفى عليهم، فقد يكون تضييق الرزق عليك لمصلحتك وإن كانت خافيةً عليك[1].

• **الهداية إلى أقوم سبيل للمحافظة على حقوق الآخرين (تقرير حقوق الإنسان):**

كرَّم الله سبحانه الإنسان كما سيأتي معنا في قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]، واستدعى هذا التكريمُ احترامَ حقوق الإنسان الأساسية؛ وأهمها: حقُّه في الحياة، وحقُّه في حماية ماله، وصيانة عرضه وكرامته، ولهذا حرَّم الله تعالى الاعتداء على حياة الإنسان وعرضه وماله، وشرع العقوبات الزاجرة لكلِّ مَنْ يعتدي على حقوق غيره كالقِصاص وحدِّ الزنى وحد القذف وحد السرقة.

ونادى رسول الله ﷺ في خطبته الشاملة المشهورة في حجة الوداع بحرمة حياة الناس وأعراضهم وأموالهم فقال: «**إنَّ دماءَكم وأموالكم وأعراضَكم حرامٌ عليكُم كحُرمةِ يومِكُم هذا، في شَهْرِكُم هذا، في بلدِكُم هذا، ألا هَلْ بلَّغتُ**» [رواه البخاري (٤٤٠٦) ومسلم (١٦٧٩)].

• **تحريم قتل الأولاد:**

ولهذا حرَّم الله تعالى قَتْلَ النفس عموماً من دون مبرر شرعي، وحرَّم قتل الأولاد خصوصاً حتى لا يظنَّ بعضُ الآباء والأُمهات أنَّ لهم الحقَّ أن يتصرَّفوا في حياة أولادهم كما يشاؤون، فحياةُ أولادهم ليست مِلكاً لهم، ولا يجوزُ لهم التصرُّف فيها، قال تعالى:

---

(١) انظر: تفسير البيضاوي وحاشية الكازروني: ٣/ ٢٠١.

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾.

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾، **والإملاقُ**: الفقرُ، وقد كان بعضُ العرب في الجاهلية يقتلون بناتهم بوأدهنَّ مخافة الفقر لما يرونَ من عجز البنات عن الكسب، وقدرة البنين عليه بسبب إقدامهم على النهب والسلب، وكانوا أيضاً يخافون أن تجلبَ لهم العار إذا تعرَّضت للسبي، أو ألجأهم الفقر إلى تزويجها من غير الأكْفاءِ، وفي ذلك عارٌ عليهم، قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل].

وأخبر سبحانه أنَّه ضمن رزقهم ورزق أولادهم فقال:

﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ قدَّم ضمان رزق الأولاد ليؤكِّدَ سبحانه أنَّه يرزقُ الأولادَ من غير أن ينقص من رزقِ الآباءِ شيئاً.

وقد حرَّم الله قتل الأولاد عموماً ذكوراً كانوا أو إناثاً فقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ﴾، مع أنَّ بعض العرب في الجاهلية كانوا يقتلون بناتهم، وهذا يدل على أنَّ القرآن الكريم لا يخاطِبُ الناسَ في عصر التنزيل فقط، إنَّما يخاطب جميعَ الناس، مهما تعاقبت أعصارهم، وتباعدت أقطارهم، إنَّه يخاطب الناس في عصرنا الحاضر الذين انتشر بينهم قتل الأولاد وهم أجِنَّة في بطون أُمهاتهم بواسطة عمليات الإجهاض، التي أصبحتْ تزيدُ عن خمسين مليون عملية كل عام[1].

ولا يجوزُ شرعاً قتلُ الجنين وإسقاطه بعد اكتمال تخلُّقه ونفخ الروح فيه، أي: بعد أربعة أشهر من أول الحمل، لأنَّه أصبح شخصية إنسانية محترمة يتمتع بكلِّ حقوق الإنسان، كما يُكره إسقاطه قبل اكتمال تخلُّقه من دون عذر يستدعي ذلك، لأنَّ مآله إلى الحياة كما يقول الفقهاء.

---

(١) انظر كتاب: طفل الأنبوب والتلقيح الصناعي.

﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ أي: ذنباً عظيماً يدل على شدَّة قُبْح جريمةِ قتل الولد.

عن **عبد الله بن مسعود** رضي الله عنه قال: قلتُ: يا رسولَ اللهِ أيُّ الذنبِ أعظمُ؟ قال: «**أنْ تجعلَ للهِ نِدّاً وهو خلقَكَ**» قلتُ: ثُمَّ أيُّ؟ قال: «**أن تقتلَ ولدكَ خشيةَ أن يطعمَ معكَ**» قلتُ: ثم أيُّ؟ قال: «**أَنْ تُزَانِي بحليلةِ جارِكَ**» [رواه البخاري (٦٨٦١) ومسلم (٨٦)].

فلا تحديدَ للنسل في الإسلام، والقولُ بأنَّ موارد الأرض الاقتصادية لا تكفي لتأمين حاجات الناس من الغذاء قولٌ باطل وغيرُ صحيح، فقد ضمن الله سبحانه رزق الناس جميعاً، وقدَّر في الأرض أقواتها التي تكفي جميع الخلق قبل أن يخلقهم، ولو أنَّ مواردَ الأرض وُجِّهت لفائدةِ الناسِ وتأمينِ حاجاتهم، ولم تنفقْ على الكمالياتِ ومظاهرِ السرف والترف واللهو ووسائل الحرب والتدمير، لَمَا حدثتِ المجاعاتُ، وقضى كثيرٌ من الناس جوعاً.

وفي الوقت الذي تعاني فيه كثير من الدول الفقيرة من المجاعات تعاني في المقابل بعضُ الدول من فائض الإنتاج الغذائي لديها، فقد نشرت مجلة «نيوزويك» في عددها الصادر في (٨ ديسمبر ١٩٨٦م) أنَّ فائضَ القمح لدى السوق الأوروبية المشتركة يكفي لبناء عدة أهرامات بحجم هرم خوفو في الجيزة، وفائض الزبدة يمكن أن نشيِّدَ به ناطحة سحاب كبيرة، ولو استعمل فائضُ الحليب المجفَّف لبناء صَرْح شاهق لبلغ ارتفاع ذلك الصرح ثمانية أميال ونصف[1].

• **تحريم الزنى:**

وحرَّم اللهُ سبحانه الزنى حمايةً لأعراض الناس وأنسابهم، وحمايةً لحياتهم أيضاً، فالزنى فيه عدوانٌ على الأعراض، ويؤدِّي إلى اختلاط الأنساب، كما أنَّ فيه عدواناً على حياة المزني بها، بسبب تعرُّضها لخطر القتل، وهو أيضاً يؤدِّي إلى قتل ولد الزنى قتلاً معنويّاً بحرمانه من شرف النسب وكرامته، ويؤدِّي أيضاً

(١) عن: مجلة العربي الكويتية، العدد (٣٤٠)، آذار ١٩٨٧م.

إلى انتشار الأمراض الخبيثة القاتلة، وما مِنْ مجتمعٍ انتشر فيه الزنى إلا ابتلي أبناؤه بأخطر الأمراض، وما مرض الإيدز الذي يؤدِّي إلى ضعف مناعة الجسم إلا نتيجة طبيعية لانتشار الزنى.

ولقد ثبتَ علميّاً أنَّ انتشار الأمراض الجنسية بسبب الزنى يؤدِّي إلى العُقْم عند الرجال والنساء، حتى إنَّ مجلة «التايم» الأمريكية قالت في عددها الصادر في (١٠ سبتمبر ١٩٨٤م): إنَّ العقم يصيبُ واحداً من كل ستة في الولايات المتحدة، وإنَّ العقم قد ازداد بنسبة (٣٠٠٪) خلال العشرين عاماً الماضية، وذكرت «التايم» أيضاً في (١٠/ ٩/ ١٩٨٥م) أنَّ أهمَّ سبب للعقم هو انتشار الزنى والأمراض الجنسية؛ حيث تسبِّب الكلاميديا ـ ميكروبات صغيرة من أصغر أنواع البكتيريا ـ (٥٠٪) من حالات انسداد الأنابيب، ويسبِّب السيلان (٢٥٪) من جميع حالات انسداد الأنابيب(١).

ونظراً لما في الزنى من خطر كبير على حياة الناس وأعراضهم وأنسابهم وأخلاقهم حرَّمه الله سبحانه، وحرَّم كل الوسائل التي تؤدِّي إليه؛ كتبرج النساء بإظهار محاسنهنَّ، واختلاطهنَّ بالرجال الأجانب عنهنَّ، والنظر إليهنَّ، والخلوة بهنَّ، فقال سبحانه:

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ أي: لا تفعلوا ما يؤدِّي إلى الزنى.

فالنهي عن قربان الزنى نهي عن الزنى نفسه، لأنَّ قربان الزنى داعٍ إلى الوقوع فيه، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «**كُتِبَ على ابن آدمَ نصيبُهُ مِنَ الزنى، مُدْرِكٌ ذلك لا مَحَالةَ: العينان زناهُما النظرُ، والأذنانِ زناهُمَا الاستماعُ، واللسانُ زناهُ الكلامُ، واليدُ زناها البطشُ، والرِّجلُ زناها الخُطَا، والقلبُ يهوى ويتمنَّى، ويصدِّقُ ذلك الفرجُ أو يكذِّبُه**» [رواه البخاري (٦٣٤٣) ومسلم (٢٦٥٧)].

---

(١) انظر: طفل الأنبوب والتلقيح الصناعي.

وقال عليه الصلاة والسلام أيضاً: «**لا يَخْلُوَنَّ أحدُكُم بامرأةٍ إلَّا مَعَ ذي مَحْرَمٍ**» [رواه البخاري (٥٢٣٣) ومسلم (١٣٤١)].

وحرَّم رسول الله ﷺ أن تصفَ امرأةٌ محاسِنَ امرأةٍ أُخرى لرجلٍ إلا أن يحتاج إلى ذلك لغرضٍ شرعيٍّ كنكاحِها، فقال: «**لا تباشِرُ المرأةُ المرأةَ، فتصفُها لزوجها، كأنَّه ينظرُ إليها**» [رواه البخاري (٥٢٤٠)].

وهذا يدلُّ على أنَّ تصوير المرأة وعرض صورها على الرجالِ الأجانبِ عنها أشدُّ من تحريمِ وصفها.

وقوله تعالى في وصف الزنى:

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ يدلُّ على شدة قبحه، وعظيم خطره، **فالفاحشة**: الفعلة الظاهرةُ القبحِ وزائدتُه، وهو طريقٌ سيِّئ لقضاء الشهوة، يؤدّي إلى قطع الأنساب واختلاطها، وإثارة الفتن، ونشر الأمراض الخبيثة القاتلة، ولهذا اقترن ذكرُه في القرآن الكريم بجرائم القتل، كما هو الحال هنا، وكما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان: ٦٨].

- **تحريم قتل النفس:**

وبيَّن سبحانه حُرمة حياة الإنسان بتحريم الاعتداء على حياته وقتله فقال:

﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: إلا بسبب مشروع يبيحُ قتلها كما جاء في الحديث الشريف: «**لا يحلُّ دمُ امرئٍ يَشْهَدُ أَنْ لا إلَهَ إلَّا اللهُ وأنِّي رسولُ اللهِ إلَّا بإحدى ثلاثٍ: النفسِ بالنفسِ، والثيِّبِ الزاني، والتاركِ لدينهِ، المُفارِقِ للجماعةِ**» [رواه البخاري (٦٨٧٨) ومسلم (١٦٧٦)].

ثم بيَّن سبحانه عقوبة القاتل في الدنيا بقوله:

﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا﴾ بغير حق يبيحُ قتله.

﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ﴾: لمن يلي أمرَ المقتول، وهو كل مَن يرثه.

﴿سُلْطَـٰنًا﴾ أي: تسلُّطاً على القاتل بأحد أمرين:

أولهما: القصاص بمطالبة الحاكم أن يقتل القاتل.

وثانيهما: العفو عن القصاص وأخذ الدّية.

ثم حذَّر أولياء المقتولِ من تجاوز هذا السلطان الذي شرعه لهم فقال:

﴿فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ﴾ أي: فلا يتجاوز الحدَّ المشروع، بأن يقتلَ غيرَ القاتل، أو يقتل اثنين أو أكثر كعادة أهل الجاهلية.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ وهذا تعليلٌ لما سبق من نهي وليِّ المقتول عن الإسراف في القتل، فإنَّه سبحانه نصره بما جعل له من حق في القصاص أو الدِّية.

إنَّ قتلَ النفس جريمةٌ كبرى في نظر الإسلام، إنَّها عدوان على حق الحياة لكلِّ الناس، جاء ذلك صريحاً في قوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢].

وقال رسول الله ﷺ: «**لَزَوالُ الدُّنيا عِنْدَ اللهِ أَهْوَنُ مِنْ قَتْلِ مسلمٍ**» [رواه النسائي (٧/ ٨٢) والترمذي (١٣٩٥) وابن ماجه (٢٦١٩)].

وأما عقوبة القاتل في الآخرة فقد بيَّنها سبحانه بقوله: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

- **تحريم الاعتداء على الأموال:**

وكما قرر الإسلام للإنسان حقَّه في الحياة قرر له أيضاً حقَّه في التملُّك المشروع للمال، وصان له هذا الحق، فحرَّم الاعتداءَ على مال الإنسان، وشدَّد التحريم إذا كان الاعتداء على مال الضعفاء في المجتمع كالأيتام، فقال سبحانه:

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾﴾.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ فالنهيُ كما ترى متوجِّه إلى مجرَّد الاقتراب من مال اليتيم، وهذا يدل على شدة حِرص الشريعة الإسلامية على حفظ مال اليتيم؛ لأنَّه ضعيفٌ، لا يستطيعُ أن يحفظَ مال نفسه، كما لا يستطيعُ أن يدفع العدوان عنه.

وقد توعَّد الله سبحانه أولئك الذين يأكلون أموال اليتامى أشد أنواع الوعيد فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠].

ثم استثنى سبحانه من تحريم الاقتراب من مال اليتيم الاقترابَ منه لحفظه لليتيم ورعايته فقال:

﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ أي: ينبغي حفظ مال اليتيم بأحسن الطرق المؤدِّية إلى حفظه وصيانته حتى يصلَ اليتيمُ إلى السنِّ التي يحسنُ فيها حفظ ماله بنفسه، عندئذٍ يُسَلَّم له ماله بعد أن يختبر للتأكد من حُسْن تصرُّفه في المال، قال تعالى: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ [النساء: ٦].

- **الوفاء بالعهد:**

والوفاءُ بالعهد من أهم الأمور التي تنظِّم التعامل بين الناس، وتضمن وصول كل إنسان إلى حقه، ولهذا أمر الله تعالى به أمراً ملزماً، مشفوعاً بتقرير مسؤولية الإنسان عنه أمام الله تعالى، فقال:

﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾ أي: الذي تعاهدون عليه الناس، والعقود التي تعاملونهم بها، فإن العهد والعقد كل منهما يُسأل صاحبه عنه:

﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾.

ومن الوفاء بالعهد والعقد أداء حقوق الناس كاملة دون نقص فيها، ولهذا يجبُ الحرصُ على عدالة المقاييس كالمكاييل والموازين، قال تعالى:

﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا ﴿٣٥﴾﴾.

﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ﴾ أي: الميزان الذي لا خلَلَ فيه.

﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾ أي: لكم في معاشكم ومعاملاتكم.

﴿وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا﴾ أي: وأحسن عاقبة، لأنه يؤدِّي إلى انتشار الأمانة والثقة بين الناس في تعاملهم.

إن أحوجَ ما تحتاجُ إليه المجتمعات البشرية أن تنتشرَ بين أفرادها الأمانةُ والثقةُ والطمأنينةُ، إنَّ ذلك يؤدِّي إلى تنشيط التعاون الاقتصادي بين الناس، ويوفِّر عليهم كثيراً من الجهود والأموال التي يبذلونها للوصول إلى حقوقهم كاملة، وللتأكد من سلامة معاملاتهم عن أيِّ غش ونقص وخداع.

وظهر لنا من خلال هذه الآيات الكريمة كيف يبيِّن الله تعالى لنا في القرآن الكريم أقومَ الطرق في التعامل والتعاقد بين الناس، كما ظهر لنا شدة حرص الإسلام على احترام حقوق الآخرين وأموالهم وإيصال كلِّ صاحب حق إلى حقه.

● **السبيل الأقوم لعمران الحياة:**

ولما كان التخصُّص ووضع الإنسان في المكان الذي يتناسب مع كفاءاته العلمية والجسدية هو السبيل الأقوم لعمران الحياة، دعا القرآن الكريم الناسَ إلى سلوك سبيل التخصُّص في شتَّى مجالات الحياة العلمية والعملية، وحرَّم الله تعالى على الإنسان أن يتدخلَ في شؤونٍ ليست من اختصاصه، أو يمارس عملاً لا يحسنه، فقال سبحانه:

﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ﴿٣٦﴾﴾.

﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ﴾ أي: لا تتبع ما لا علمَ لك به من قول أو فعل، فكل شيء لا يكونُ معلوماً لك لا تتدخل فيه.

ثم قرَّر سبحانه مسؤولية الإنسان عن جوارحه ومَلَكَاته فقال:

﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ وفي الآية تحذير للإنسان لكي لا يستعملَ سمعه وبصره وقلبه فيما لا يحلُّ له، وخصَّ السمعَ والبصرَ والقلبَ بالذكر، لأنَّها أهم الوسائل التي تمكِّن الإنسان من إدراك ما هو خارج عنه.

وقد يدفعُ العلمُ صاحبَه إلى أن يرى لنفسه فضلاً وتميُّزاً على الآخرين فيتكبرَ عليهم، ويظهر أثر التكبُّر على هيئته ومشيته، فقال تعالى ناهياً عنه:

﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾.

﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ﴾ أي: ذا مرح، وهي مشية المختال المتكبِّر.

ثم علَّل النهيَ بهذا التهكُّم المر بالإنسان المختال المتكبِّر فقال:

﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ﴾ أي: لن تقدرَ أن تحدث في الأرض خرقاً بشدةِ وطأتك ودوسك عليها.

﴿وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ مهما تعاظمتَ ومددتَ قامتك.

فالآيةُ تحثُّ على التواضع ولين الجانب وحُسن المعاشرة، وهي أقوم الأخلاق التي يحتاج إليها الناس في حياتهم الاجتماعية.

وكلُّ هذه المنهيَّات التي سبق ذكرها مكروهةٌ عند الله تعالى، وهذا يكفي لتركها والكفِّ عنها:

﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾.

وهذه التكاليفُ التي تهدي إلى أقوم الطرق وأحسنها، والتي أوحى بها الحكيم العليم إلى النبيِّ ﷺ من الحكمة الثابتة التي لا يتطرَّقُ إليها تغيُّرٌ ولا فساد:

﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِۗ﴾، فهي قِيَمٌ ثابتةٌ، وحِكَمٌ بالغةٌ، ونِعَمٌ

كبيرة جليلة، تستدعي منَّا أن نتمسَّكَ بها، ونحرصَ دائماً على تطبيقها في حياتنا حتى نكونَ فعلاً سائرين على الطريق الأقوم.

- **التوحيد أولاً وآخراً:**

وكما بدأت الآيات الكريمة بمبدأ التوحيد حين شرعت في بيان المبادئ التي تهدي للتي هي أقوم، ختمت أيضاً هذه المبادئ بمبدأ التوحيد للتنبيه على أنه أهم هذه المبادئ، وأنَّه رأسُ كلِّ حكمة ومنبعها، وقد كان التوحيدُ أهم قضايا المواجهة بين النبيِّ ﷺ من جهة، وبين المشركين من جهة ثانية، ومرَّ معنا في الآية الأولى ما يترتب على الشرك في الدنيا من الذمِّ والخُذلان والحيرة والهمِّ والقلق في قوله تعالى: ﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ [الإسراء: ٢٢].

وهذه الآية الثانية تبيِّن ما يترتب على الشرك يوم القيامة من العذاب الأليم في جهنم مع الندم والحسرة:

﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا﴾ من قِبَل نفسك، بسبب شدة ما يعتريك من ندم وحسرة، وملوماً من قِبَل غيرك أيضاً.

﴿مَّدْحُورًا﴾ مبعداً عن رحمة الله تعالى.

ولا يخفى على المتأمِّل ما في كلمة ﴿فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ﴾ من تحقير للمشرك؛ فكأنه خَشَبة تلقى في النار!.

❁ ❁ ❁

الفصل الثالث

المُوَاجَهَةُ بينَ النَّبِيِّ ﷺ وبَيْنَ المُشْرِكِينَ في المَرْحَلَةِ المَكِّيَّةِ

﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا (٤٠) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤١) قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا (٤٢) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤٣) تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤٤) وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا (٤٥) وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا (٤٦) نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا (٤٧) انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (٤٨) وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩) ۞ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا (٥١) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا (٥٢) وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا (٥٣) رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (٥٤) وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (٥٥) قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا (٥٦) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا (٥٧) وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (٥٨) وَمَا مَنَعَنَا

أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ ﴾.

- **القول العظيم:**

واجه النبيُّ ﷺ بعقيدة التوحيد كلَّ مظاهر الشرك التي كانت عند العرب في الجاهلية وعند غيرهم، ومن مظاهر الشركِ عندَ العربِ أَنَّهم كانوا يقولون عن الملائكة: إنَّهم بنات الله. وهو قولٌ عظيمٌ منكرٌ، لأنَّهم يضيفون الأولاد إليه سبحانه؛ وهذا لا يليقُ بكماله سبحانه ووحدانيته وبقائه، فالتوالدُ شأن المخلوقات التي تزولُ ولا تبقى، والتي تحتاجُ إلى بقاء نوعها بالتوالد، ويتنزَّه

الله سبحانه عن ذلك، فهو الواحد الأحدُ الفردُ الصمدُ، الذي لم يلد ولم يولد، والذي ليس كمثله شيء.

ثم إنَّهم بهذا القول: (الملائكة بنات الله) فضَّلوا أنفسَهم عليه سبحانه حين نسبوا ما يكرهون من البنات إليه جلَّ وعلا كما قال عزَّ شأنه: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ﴾ [النحل: ٥٧] من الأولاد الذكور، وقال سبحانه هنا منكراً عليهم:

﴿أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم بِٱلۡبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ قَوۡلًا عَظِيمٗا ﴿٤٠﴾﴾.

﴿أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم بِٱلۡبَنِينَ﴾ أي: أفخصَّكم ربكم بالبنين؟!.

﴿وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ﴾: بنات لنفسه، وهذا خلاف ما عليه عقولكم وعاداتكم:

﴿إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ قَوۡلًا عَظِيمٗا﴾! فلا أقبح ولا أشنع من هذا القول، قال سبحانه يبيِّن قبح هذا القول وشناعته: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ﴿٨٨﴾ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ﴿٩١﴾﴾ [مريم].

وما أكثر ما كرَّر سبحانه هذا المعنى في القرآن الكريم، فقضية التوحيد من أعظم القضايا التي أنزل الله القرآن الكريم من أجل تقريرها، وأكبر قضايا المواجهة بين النبيِّ ﷺ وبين المشركين، ولهذا قال سبحانه:

﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا نُفُورٗا ﴿٤١﴾﴾.

﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ﴾ أي: بيَّنَّا بطلان الشرك وفساده بالأدلة القطعية ليتذكَّروا الحقيقة، وهي توحيدُ الخالق سبحانه، وتنزيهه عن الشريك والولد.

﴿وَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا نُفُورٗا﴾ عن الحق وإعراضاً عنه.

ومن الأدلة القاطعة الدالة على توحيد الله سبحانه وتنزُّهه عن الشريك والولد ما أُمرَ النبيُّ ﷺ بمواجهة المشركين به:

﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾.

أي: لطلبوا مغالبته وقهره، كما يفعل الملوك مع بعضهم، وهذا كقوله سبحانه: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

أو لطلبوا التقرُّب إلى الله تعالى لعلمهم بقدرته وقوته.

وهذا يدل على عجزهم ونقصهم، وينافي وصفهم بالأُلوهية، ويؤكِّد توحيد الله تعالى وتفرده بالأُلوهية والربوبية وتنزُّهه عمَّا يقولون:

﴿سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾.

- **التسبيح بحمد الله:**

﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾.

﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ فكل المخلوقات تقدِّسُ الله تعالى، وتنزِّهه، وتعظِّمُه، وتشهدُ له بالوحدانية.

﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ أي: وما من شيءٍ من المخلوقات إلا يسبح الله تعالى ويحمده ويُثني عليه.

﴿وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ أي: لا تفهمون تسبيحهم لما بينكم وبين سائر المخلوقات من اختلاف في الصفات والخصائص.

ألا ترى أنَّ اختلافَ الناس في اللغات يجعلهم لا يفهمون كلام بعضهم بعضاً، على ما بينهم من تقارب وتشابه في خصائص الجنس وصفاته.

وقد ثبت في «**صحيح البخاري**» [٣٥٧٩]: عن **ابن مسعود** رضي الله عنه: أنَّه قال: «**كنَّا نسمعُ تسبيحَ الطعامِ وهو يؤكل**».

فقد أسمعهم الله تعالى تسبيحَ الطعام معجزةً للنبيِّ ﷺ.

وفي حديث أبي ذرٍّ رضي الله عنه: أنَّ النبيَّ ﷺ أخذَ في يدِه حُصياتٍ، فسُمِعَ لهنَّ تسْبيحٌ كحنينِ النحلِ، وكذا في يد أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم. [رواه البيهقي في الدلائل (٦/ ٦٤، ٦٥)][(١)].

وقد أخبر سبحانه أنَّ الطيرَ والجبال كانت تردِّدُ التسبيحَ مع داود عليه السلام:

﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ [سبأ: ١٠].

﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٩][(٢)].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾، فلا يعاجِلُ سبحانه الكفار والمشركين والعصاة بالعقوبة لعلَّهم يتوبون فيغفر سبحانه لهم.

- **الحجاب المستور:**

ثم بيَّن سبحانه سببَ عدم انتفاع المشركين بالقرآن الكريم، وإعراضهم عن دعوةِ الرسول الأمين عليه أتمُّ الصلاة والتسليم، فقال:

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾﴾.

وكذلك جعل الله تبارك وتعالى في آذانهم ثقلاً يمنعهم من سماع آيات القرآن الكريم سماع إجابة وقبول:

﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾.

﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ﴾، فالأغطيةُ التي على قلوبهم، والثقل الذي في آذانهم، والحجاب المستور؛ كل ذلك موانعُ حالت بينهم وبين هداية القرآن الكريم.

---

(١) البداية والنهاية: ٦/ ١٩٧.

(٢) انظر: تفسير سورة النمل، وقد أسميناه في تفسيرنا الموضوعي هذا: (المعجزة والإعجاز في سورة النمل).



وسببُ وجودِ هذه الموانع إعراضُهم عن الإقرار بوحدانية الله سبحانه، وتمسُّكهم بشركهم وكفرهم:

﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْءَانِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ هرباً من استماع أدلة التوحيد القاطعة والانقياد لها.

والجزاء من جنس العمل، فإنَّ إعراضَهم عن توحيد الله سبحانه والإيمان بيوم القيامة منعهم من الانتفاع بهداية القرآن الكريم، جاء ذلك مقرراً في مواضع متعددة من القرآن الكريم:

منها: قوله جَلَّ جَلالُهُ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝١٤﴾ [المطففين].

ومنها: قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَٰسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].

• **حَيْـرة وضلال:**

وكان بعضُ المشركين يدنو سرّاً من رسول الله ﷺ يستمعون إليه وهو يتلو القرآن الكريم بغرض البحث عن شيءٍ يحتجُّون به عليه يسنِدُ باطلَهم وشركهم، فكشف الله تعالى أمرهم للنبيِّ ﷺ فقال:

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ الظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝٤٧﴾.

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ﴾ أي: بسبب استماعهم.

﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ عندما يستمعون إليك.

﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾: ونحن أعلم بما يتناجون به، ويتحدَّثون به سرّاً، فقد كانوا بعد الاستماع يجتمعون، ويتحدَّثون سرّاً فيما بينهم بحثاً عن شيء يتمسَّكون به في مواجهتهم للنبي ﷺ، ولكنَّهم لا يجدون فيما سمعوه أدنى شيءٍ يسند باطلهم، ويؤيد كفرهم وشركهم.

فالقرآن الكريم كلامُ الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، عندئذٍ يضطرون إلى وصف النبي ﷺ بالصفات الباطلة المتناقضة:

﴿إِذْ يَقُولُ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ أي: ساحراً.

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾.

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ﴾ فقالوا تارة: ساحر، وتارة: شاعر، وتارة: كاهن، وتارة أُخرى: مجنون، وكلُّ ذلك يدلُّ على حَيْرتهم وضلالهم.

﴿فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ فلا يجدون طريقاً يتوصَّلون به إلى الطعن بدعوة التوحيد التي يواجههم بها النبي ﷺ، ولا يخفى ما في الآية الكريمة من تكريم للرسول ﷺ وتسلية له وتثبيت.

- **من الحقائق العلمية في القرآن الكريم:**

ويستدعي الإيمان بوحدانية الله تعالى وكماله وتنزُّهه عن كلِّ صفات النقص الإيمان بيوم القيامة وما فيه من حساب وجزاء، وكان المشركون من العرب ينكرون يوم القيامة، ويستبعِدون وقوعه ويقولون:

﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾﴾.

﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا﴾ أي: فُتاتاً وتراباً.

﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾.

وهذا الموضوع هو الموضوع الرئيس الثاني بعد التوحيد للمواجهة بين النبي ﷺ وبين المشركين، وقد ردَّ الله تعالى عليهم بهذا الحزم والجزم المتضمن للتحدِّي المُعجز، والذي يدل على أنَّ يومَ القيامة أمرٌ مسلَّمٌ لا شك فيه ولا ريب، لشدَّة ما له من صلة بتوحيده سبحانه وكماله وقدرته وحكمته، فأمر سبحانه النبيَّ ﷺ أن يواجههم متحدِّياً لهم بقوله تعالى:

﴿قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ۝٥١﴾.

﴿قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ فلو صارت أجسامُكم بعدَ الموت حجارة أو حديداً، وهي أبعد عن قبول الحياة من العظام ورفات الأجسام.

﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ﴾ أو صارت أجسامكم خلقاً تستبعِدُ عقولُكم وقلوبكم قبوله للحياة، فإن الله سبحانه قادرٌ على إعادتها إلى الحياة يوم القيامة.

ونقل بعض المفسرين عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنَّه قال في تفسير الآية: لو صارت أبدانكم نفس الموت؛ فإنَّ الله تعالى يُعيدُ الحياةَ إليها(١).

وفي الآية الكريمة إشارةٌ إلى حقيقة علمية توصَّلَ إليها الإنسان في العصر الحاضر؛ وهي إمكانية تحويل العنصر إلى عنصر آخر إذا أمكن تغيير تركيبه الذرّي(٢).

﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا﴾ إذا صرنا حجارة أو حديداً أو خلقاً آخر لا يقبل الحياة.

﴿قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ يعيدكم الذي خلقكم من العدم.

﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ أي: يحرِّكونها استهزاءً وتعجباً.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾: استبعاداً منهم لوقوعه.

﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾، وكل ما هو آتٍ قريب.

- **تلبية الدعوة:**

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۝٥٢﴾.

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ ربكم سبحانه وتعالى للخروج من قبوركم.

﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾، فتلبُّون دعوته، وتخرجون من قبوركم مسرعين وأنتم تحمدون الله تعالى على كمال قدرته.

---

(١) انظر: التفسير الكبير: ٢٠/٢٢٦؛ وتفسير ابن كثير: ٣/ ٤٤.

(٢) انظر: حياتنا والموعد المجهول، للمؤلف.

أو: أنتم منقادون لأمره سبحانه ومشيئته انقياد الحامدين، واستعارةُ الدعاء والاستجابة للإخبار عن البعث يوم القيامة يدلُّ على سرعته ويُسْره[1].

فهو كقوله سبحانه: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].

وقوله أيضاً: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات].

فهي دعوة واحدة مستجابة، وكلمة واحدة مسموعة لا تتكرر، فإذا جميع الناس قد خرجوا من باطن الأرض إلى ظاهرها، ولبُّوا دعوته سبحانه دون أدنى ترددٍ أو تأخر: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ [المعارج: ٤٣].

﴿وَتَظُنُّونَ﴾ عندما تقومون من قبوركم، وتلبُّون دعوة ربكم.

﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: ما مكثتم في الحياة الدنيا أو في قبوركم إلا زمناً قليلاً بسبب ما ترون من أهوال القيامة.

● طريق الدعوة الأقوم:

ثم بيَّنت الآياتُ الكريمةُ أفضلَ الطرق وأقومَها في مواجهة المشركين ودعوتهم إلى الله تعالى:

﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾﴾.

﴿وَقُل لِّعِبَادِى﴾ أي: المؤمنين.

﴿يَقُولُوا۟﴾ عند محاورة المشركين ومواجهتهم في الدعوة إلى الإيمان بالله الواحد الأحد.

﴿ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾: الكلمةَ التي هي أحسن، فإذا أردتم إقامة الحجة عليهم وإلزامهم بالدليل والبرهان فلا تخلطوه بالشتم والسبِّ، لأنَّ ذلك يؤدِّي إلى نفرتهم وإعراضهم عن دعوتكم، ويستغل الشيطان ذلك فيثير الفتن والشرور بينكم وبينهم.

---

(١) انظر: تفسير البيضاوي: ٣/ ٢٠٤.

﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ فعلى الدعاة أن ينتبهوا إلى هذا الأمر، ويلتزموا بهذا التوجيه الكريم في الدعوة إلى الله تعالى، ولا يمكِّنوا الشيطان من إثارة الفتن والشرور:

﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا﴾.

وما أكثر الآيات في القرآن الكريم التي تؤكد على هذه الطريقة في الدعوة إلى الله تعالى، منها: قوله سبحانه: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

وقوله سبحانه أيضاً يخاطب موسى وهارون عليهما السلام عندما أرسلهما إلى فرعون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾ [طه: ٤٤].

وجديرٌ بنا أن ننتبه إلى أنَّ هذا التوجيه الرباني الكريم للدُّعاة إلى الله تعالى جاء بعد الآيات الكريمة التي صوَّرت شدة عناد الكفار وخشونتهم، جاءت بعد قول الله تعالى فيهم: ﴿فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ﴾ [الإسراء: ٥١] وهم يرفضون الحقَّ عناداً وتكبُّراً واستهزاءً، فكأن الآيات تقول لنا: كلَّما ازدادَ الكفَّارُ عناداً وتكبُّراً، عليكم أن تزدادوا تعقُّلاً وتلطُّفاً وإحساناً في دعوتهم إلى الله تعالى، فإنكم لا تدرون متى تدركهم رحمة الله وهدايته وتوفيقه.

ويقتضي أسلوب الدعوة الأقوم من الدُّعاة ألَّا يصرِّحوا لمن يتصدَّون لدعوتهم بوصفهم بأنَّهم من أهل النار، فإنَّ ذلك يزيدُ في عنادهم، وشدَّة تمسُّكهم بكفرهم، بل عليهم أن يطمعوهم برحمة الله وفضله، وأن يقولوا لهم بعد أن يقيموا الحجة عليهم بالدلائل والبراهين:

﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ أَوۡ إِن يَشَأۡ يُعَذِّبۡكُمۡۚ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ﴿٥٤﴾﴾.

﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ﴾ فيوفِّقكم للإيمان.

﴿أَوۡ إِن يَشَأۡ يُعَذِّبۡكُمۡۚ﴾ إذا تمسكتم بالكفر.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ أي: موكولاً ومفوَّضاً إليك أمرهم فتقصرهم على الإيمان وتجبرهم عليه[1].

والتفاتُ الآية الكريمة إلى النبيِّ ﷺ بهذا الخطاب درسٌ بليغٌ للدُّعاة إلى الله تعالى، فإذا كان النبيُّ ﷺ مع فضله وشرفه وعلوِّ مكانته لا يستطيعُ أن يجبر المعاندين من الكفَّار والمشركين على الإيمان، فالأَولى بغيره أن يلتزموا هذا الأسلوبَ الرفيعَ في الدعوة إلى الله تعالى، ويبلِّغوا دعوتهم للناس بالحكمة والموعظة الحسنة، ويفوِّضوا شأن هدايتهم إليه سبحانه.

- **التفاضل بين الناس:**

إنَّ هدايةَ الناس إلى الإيمان منوطٌ بإرادته سبحانه ومشيئته، لأنَّه سبحانه يعلم مَن في السماوات والأرض، فعلمُه سبحانه شاملٌ لجميع المخلوقات، يعلم كل مخلوق وما يليق به من هداية وضلال، ويعلم منزلته في طاعته سبحانه أو في معصيته، ولهذا فإنَّ الناسَ يتفاضلون في مراتب الطاعات، ويتفاضلون أيضاً في دركات المعاصي، وحتى الأنبياء عليهم السلام يتفاضلون فيما بينهم، لأنَّه سبحانه فضَّل بعضهم على بعض:

﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾.

﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾، بما أنعم الله تعالى عليهم من المزايا الخلقية والنفسية، وبما أنزل عليهم من الكتب، وما كلَّفهم به من الشرائع.

ولهذا ختم الله تعالى الآية ببيان فضل نبي الله داود عليه السلام بسبب إنزال الزبور عليه، فقال:

﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ وخصَّ سبحانه داود بالذكر لكونه كان ملكاً قويّاً

---

(١) انظر: روح المعاني: ١٥/ ٩٥.

شجاعاً، ومع ذلك فإنَّ الله سبحانه فضَّله بإنزال الزبور عليه، لا بما آتاه من ملك وقوة وشجاعة.

وهذا يدل على فضل نبيِّنا عليه الصلاة والسلام، الذي جعله الله تعالى خاتم الأنبياء، وجعله رسولاً إلى الإنس والجن حتى قيام الساعة، وأنزل عليه القرآن الكريم، وتكفَّل بحفظه فلا يلحقه تغيير ولا تبديل.

● **الرجاء والخوف:**

ثم بيَّن سبحانه عجز الآلهة المزعومة التي عُبدت من دون الله سبحانه، فأمر النبي ﷺ أن يقول للمشركين بأُسلوب التحدِّي والمواجهة:

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾﴾.

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ أنهم آلهة.

﴿مِّن دُونِهِۦ﴾ أي: من دون الله تعالى.

﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ﴾ كالمرض والفقر والقحط.

﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾ ولا نقله منكم إلى غيركم، ممَّا يدل على ضعفها وعجزها، وينفي عنها استحقاق العبادة وصفة الألوهية.

بل إنَّ بعضَ مَنْ عُبِدَ من دون الله كالملائكة وعيسى وعُزير يتنافسون في التقرُّب إلى الله تعالى، فقال سبحانه فيهم:

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ أي: يعبدونهم من دون الله.

﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ أي: يطلبون لأنفسهم العبادةَ التي تقرِّبهم إلى الله تعالى.

ويحرص كلٌّ منهم أن يكون أقرب إليه سبحانه:

﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾.

ويدفعهم إلى ذلك رجاؤهم في رحمة الله تعالى وخوفهم من عذابه:

﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾، وهذا الجمعُ بين الرجاء والخوف شأن الصالحين، فهم لا يقنطون من رحمة الله تعالى، ولا يأمنون من عذابه.

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ جديراً بأن يُحْذَرَ ويَحترزَ عنه كلُّ مخلوق ولو كان من الملائكة أو المرسلين، وهذا كقوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ [المعارج].

● **هلاك القرى:**

اقتضت حكمةُ الله تعالى وإرادتُه أن تكونَ الحياةُ الدنيا دارَ ممرٍّ لا دارَ مَقرٍّ، فكل حياة في الدنيا وشيكةُ الانتهاءِ، وكلُّ عمرانٍ فيها مآله الخراب والدمار، فلا بقاء في هذه الدنيا لأحد، لا للأفراد ولا للجماعات، والمتأمل في تاريخ حياة الناس وحضاراتهم في الأرض يستيقن هذه الحقيقة، فكم من حضارات إنسانية زالت وهلكت وهي في أوج قوتها وعزَّتها، وكم من مدن تخرَّبت وأصبحت أطلالاً وآثاراً بعد أن كانت مليئة بالحياة آهلة بالعمران، وصدق الحق سبحانه بقوله:

﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾﴾.

﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ بموت أهلها وهلاكهم.

﴿أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ بأنواع البلايا والمصائب، وما أكثرها في الحياة الدنيا!.

﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا﴾ كَتَبَه وقدَّره سبحانه خالق الحياة ومالِكُها.

ولا يخفى ما في الآية الكريمة من وعيد للمشركين في مكة الذين جحدوا رسالةَ النبيِّ ﷺ عناداً وتكبُّراً.

• نبي الرحمة:

ومن الخصائص الكبرى التي أنعم الله بها على النبيِّ ﷺ أنه سبحانه أرسله رحمةً للعالمين، فهو ﷺ نبيُّ الرحمة، ولهذا قدَّر سبحانه ألَّا يُنزل عذابَ الاستئصالِ على المكذِّبين له ﷺ، كما فعل بالأمم السابقة التي كذَّبت رسلها، مثل قوم نوح وقوم صالح وقوم لوط وغيرهم من الأُمم التي أهلكها الله تعالى بسبب إعراضهم عن رسالة أنبيائهم وتكذيبهم لهم.

وقد جرت سُنَّة الله تعالى في خلقه أنه إذا أرسلَ رسولاً وكذَّبه قومه، وطلبوا منه معجزات تدل على صدقه، فأيَّد الله تعالى رسوله بالمعجزات المقترحة، وحقَّقها لهم فلم يؤمنوا، واستمرُّوا على كفرهم وعنادهم، جرت سُنَّتُه تعالى أن يهلكهم بعذاب يستأصلهم جميعاً، كما حدث لثمود الذين كذَّبوا نبيَّهم صالحاً، وطلبوا منه معجزة، واقترحوا أن تكون ناقةً يخلقُها الله تعالى من صخرة أمام أعينهم، فأيَّد الله تعالى صدق نبيِّه صالح، وخلق الناقة من الصخرة كما اقترح قومه، ولكنّهم لم يؤمنوا، وقتلوا الناقة، فأنزل الله تعالى عليهم العذاب وأهلكهم.

وقد طلب مشركو قريش من النبي ﷺ كثيراً من المعجزات المقترحة، وسيأتي بيان ذلك في هذه السورة، فبيَّن سبحانه سبب عدم تحقيقه لهذه المعجزات المقترحة بقوله الكريم:

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾.

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ أي: المعجزات المقترحة كإحياء الموتى، وقلب الصفا ذهباً، وتفجير الأنهار... إلخ.

﴿إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ﴾ فالنبيُّ ﷺ نبيُّ الرحمة، والله سبحانه يعلم أن المشركين المقترِحين هذه المعجزات سيكذِّبون بها كما فعل الأولون، وأوضَحُ مثال لهم قوم صالح:

﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ أي: معجزة واضحة لكلِّ من شاهدها.

﴿فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾: فكفروا بها.

﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ فهذه الآيات والمعجزات المقترحة جاءت مقدمة للعذاب ومخوِّفة لهم، فلمَّا لم يخافوا منها، ولم يؤمنوا؛ أنزل الله تعالى بهم ما أنزل من العذاب والهلاك[1].

• **في وجه العاصفة:**

اقتضت حكمته سبحانه ومشيئته أن يكون تخويف مُشركي قريش بأسلوب آخر يتناسب مع الخصوصية الكبيرة التي خصَّ الله تعالى بها النبيَّ ﷺ، وهي كونه عليه الصلاة والسلام نبيَّ الرحمة، فخوَّفهم سبحانه بما أنزل في القرآن الكريم من آيات التهديد والوعيد التي تضمنت وصف بعض أنواع النكال والعذاب في جهنم.

ولقد رأى النبي ﷺ من جملة الآيات الكبرى التي رآها ليلة الإسراء والمعراج النار، وما أعدَّ الله تعالى فيها من الأنكال والعذاب، فرأى في النار شجرة الزقُّوم التي ذكرها الله تعالى في سياق آيات التهديد والوعيد في عدة آيات من القرآن الكريم، منها: قوله تعالى في **سورة الدخان**: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾.

ومنها: قوله أيضاً في **سورة الصافات**: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾﴾.

ولمَّا واجه النبيُّ ﷺ أهل مكة بما حدث له ليلة الإسراء، وما رأى فيها، كان إخباره هذا فتنةً كبيرةً للناس، واختباراً عظيماً لهم، حتى إنَّ بعض ضِعاف الإيمان من المسلمين ارتدُّوا إلى الكفر، ولم يصدِّقوا النبيَّ ﷺ، وازداد

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود: ٣/ ٣٣٧.

المشركون تكبُّراً وعناداً حتى قال أبو جهل: هاتوا لنا تمراً وزبداً، وجعل يأكل من هذا بهذا ويقول: تزقَّموا؛ فلا نعلم الزقوم غير هذا[١]!.

فأنزل الله تعالى على رسوله ﷺ مواسياً له ومثبتاً وهو يواجه هذه العاصفة الكبيرة من العناد والتكذيب والإنكار:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ﴾ فهم في قبضةِ قدرته سبحانه لا يخفى عليه شيءٌ من كفرهم وعنادهم، وهو سبحانه قادر على أن يعصمك منهم، ويحميك من كيدهم ومكرهم.

﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ قال **ابن عباس** رضي الله عنهما: هي رؤيا عين أُريها رسولُ اللهِ ﷺ ليلة أُسري به. [رواه البخاري (٤٧١٦)][٢].

﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِۚ﴾ وهي شجرة الزقوم المذكورة في القرآن الكريم، وقد وصفها الله تبارك وتعالى بأنَّها شجرةٌ ملعونة، لأنَّ آكليها من أصحاب النار ملعونون.

أو: لأنها تنبت في أصل الجحيم، وهو أبعد مكان من الرحمة.

أو: لكونها مكروهة ومؤذية وضارّة[٣].

وكان ذِكْرُها في القرآن الكريم فتنة لهم إذ قالوا: كيف لا تحرقها النار؟! وما علموا أنَّ النارَ لا تحرقُ إلا بمشيئته سبحانه وتقديره، فإبراهيم عليه السلام لمَّا أُلقي في النار وشاء سبحانه ألَّا تحرقه النار؛ لم تحرقه، وكانت كما أمرها الحق سبحانه بَرْداً وسلاماً على إبراهيم.

﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾ أي: نخوِّف الكفَّار بآيات التهديد والوعيد.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير: ٣/ ٤٨.

(٢) المرجع السابق نفسه.

(٣) انظر: تفسير البيضاوي: ٣/ ٢٠٦.

﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ فيزدادون تكبُّراً وعناداً.

مع أنَّ تخويفهم بالآيات القرآنية الكريمة لا بالمعجزات المحسوسة كما حدث للأُمم المكذِّبة قبلهم، رحمة من الله تعالى بهم ببركة نبي الرحمة الذي أُرسل إليهم ﷺ، ومع ذلك ازداد القوم عناداً وطغياناً وتكذيباً.

● **الأصل والفرع:**

إن موقف المشركين يشبه موقف إبليس وعناده وتكبره عندما شمله الأمر الإلٰهي للملائكة بالسجود لآدم احتراماً وتكريماً، فأبى تكبُّراً وعناداً، فموقف إبليس أصلٌ في التكبُّر والعناد، وموقف مُشركي مكة فرع منه:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (٦١)﴾.

وهذا كقوله الذي حكاه الله عنه: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

وازداد إبليسُ لعنه الله تكبُّراً وطغياناً، فقال مخاطباً ربَّ العزَّة سبحانه:

﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا (٦٢)﴾.

﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ أي: أخبرني عن هذا الذي كرَّمته عليَّ بأمري بالسجود له؛ لم كرَّمته عليَّ؟.

﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: لأستولينَّ على ذريته إلا قليلاً.

أو: لأضلَّنهم إلا قليلاً لا أقدر عليهم، وهم عباد الله المخلصون.

﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا (٦٣)﴾.

﴿قَالَ ٱذْهَبْ﴾ فقد أنظرتك وأمهلتك.

ولا يخفى ما في أمره سبحانه من الإهانة لإبليس، كما تقول لمن يخالفك: افعل ما تريد.

وقد يكون المراد من الأمر بالذهاب: الطرد، كمعنى قوله تعالى: ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ [صٓ: ٧٧].

ثم خوَّفه وتوعَّده سبحانه، وخوَّف وتوعَّد أيضاً أتباعه بالعذاب الشديد في جهنم فقال:

﴿فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾ أي: جزاءً كاملاً لا نقص فيه.

- **الإنسان والشيطان:**

﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾﴾.

﴿وَٱسْتَفْزِزْ﴾: واستخفف.

﴿مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ بدعوتك إلى الفساد والمعاصي، أو باللهو والغناء.

﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ أي: تسلَّط عليهم بكلِّ ما تقدر عليه.

وهذا أمر قَدَري، وهو كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣] أي: تسوقهم إلى المعاصي سوقاً(١).

فقد اقتضت إرادته سبحانه وحكمته أن يبتليَ الإنسانَ بوسوسة الشيطان، فيزيِّن له المعاصي والكفر، وبالمقابل اقتضت إرادته سبحانه وحكمته ورحمته أن يرسل الرسل، وينزل الكتب، ليبيِّن للإنسان طريقَ الهداية، ويحذره من كيد الشيطان ومكره، وبهذا تصبح الحياةُ ابتلاءً واختباراً للإنسان.

﴿وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ﴾ بحملهم على كسبها وجمعها من الحرام، وإنفاقها في المعاصي والآثام.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير: ٣/ ٤٩.

﴿وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ بإغواء الآباء والأُمهات وتزيين الفواحش والزنى لهم، أو بتزيين الكفر لهم والعقائد الفاسدة التي تنتقل من الآباء إلى أولادهم، كما جاء في الحديث الشريف: «**ما من مولودٍ إلا يولَدُ على الفِطْرَةِ، فأبواه يُهَوِّدانِهِ، أو يُنَصِّرانِهِ، أو يُمَجِّسانِهِ**» [رواه البخاري (١٣٥٨) ومسلم (٢٦٥٨)].

ومن أساليب الشيطان التي يتوصل بها إلى مراده من أتباعه أنه يَعِدُهم الوعود الكاذبة، ويُطمعهم بالأماني الباطلة، قال ﷻ:

﴿وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ أي: إلا خداعاً وكذباً، ولهذا فإن الشيطان يقول لأتباعه يوم القيامة في جهنم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾.

﴿إِنَّ عِبَادِى﴾ أي: المخلَصين الصادقين، وأضافهم الله تعالى إلى ذاته تشريفاً وتكريماً لهم.

﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ أي: قدرة على إغوائهم، وذلك لأنَّهم يتوكَّلون على الله، ويستعيذون به سبحانه من الشيطان.

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ أي: حافظاً ومؤيِّداً وناصراً.

- **إقرار ثم إنكار:**

وعادت الآيات الكريمة تخاطب الكفَّار والمشركين، وتذكِّرهم بفضل الله تعالى عليهم ورحمته بهم، وتبيِّن كيف يقابلون فضلَه سبحانه عليهم ورحمته لهم بالجحود والكفران:

﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾﴾.

﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ ربُّكم الذي يربِّيكم ويدبر أموركم، يُجري لكم السفن في البحر.

﴿لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ لتطلبوا من رزقه، وهو فضلٌ منه سبحانه.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ حيث هيَّأ لكم كلَّ ما تحتاجون إليه، وسهَّل ما يعسر عليكم.

وكلمة ﴿رَّبُّكُمُ﴾ تذكِّر الناس بشدَّة حاجتهم إلى الله تعالى، فهو مالكهم وخالِقهم ومربِّيهم، ولا يمكِنُهم الاستغناءُ عن فضله ورحمته، فهو ربهم حقيقة وواقعاً، سواء أقرُّوا أم جحدوا وكفروا.

وإذا حملهم الكبر والحسد والطغيان على إنكار هذه الحقيقة اختياراً، فلا بدَّ أن يقرُّوا بها اضطراراً وقهراً، ولهذا قال بعد ذلك:

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾.

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ﴾ أي: أحاطت بكم المخاطر.

﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ ذهب عن خواطركم كل مَن تدعونه وترجون نفعه، فلا تذكرون ﴿إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ إلا الله جلَّ وعلا، وبهذا تقرُّون بتوحيد الله سبحانه وافتقاركم إليه، وهو إقرارُ الاضطرار والقهر حملكم عليه الشعور بالخوف والضعف.

﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ عن هذا الإقرار، وعُدتم إلى الجحود والإنكار.

﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ فهو مجبول على الكفران إلا مَن عصمه الله تعالى.

- **في البر والبحر:**

ورجوعكم إلى الجحود والكفران جهل وغرور، فإنكم في قبضة قدرة الله تعالى، وفي ملكه، وتحت قهره ومشيئته في أي مكان كنتم؛ في البحر أو في البر:

﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾﴾.

﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾ وكلمة ﴿جَانِبَ﴾ تدل على سرعة جحودهم

وكفرهم، فإنَّهم عادوا إلى الكفر والجحود فور وصولهم إلى الساحل: وهو جانب البر.

وتدل أيضاً على أنَّ جميعَ الجوانب والجهات في قبضة قدرته سبحانه، فلا مأمن لكم في جانب دون جانب، فإنَّ القادر على إهلاككم في البحر قادرٌ أيضاً على إهلاككم في البر بأن يجعلكم تذهبون في أعماقه.

﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ ريحاً تحصبكم، أي: ترميكم بالحصباء وهي الحجارة، يرجمكم بها ويُهلككم.

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾ تكلون إليه أُموركم فيحفظكم من ذلك أو يصرفه عنكم.

﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾.

﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ﴾ في البحر الذي نجَّاكم منه.

﴿تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ مرة أُخرى، بأن يخلقَ فيكم الدواعيَ والأسبابَ التي تجعلكم تعودون إلى البحر باختياركم.

﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ﴾ وهي الريح الشديدة التي تقصِفُ وتكسِرُ كل شيء تمر به.

﴿فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ بسبب كفركم وجحودكم.

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾ أي: نصيراً وثائراً يقوم لنصرتكم والثأر لكم.

• **تكريم الإنسان وتفضيله:**

ورغم أنَّ الإنسانَ كفورٌ وجهولٌ وظلومٌ فقد كرَّمه الله ﷻ، وخصَّه من بين سائر المخلوقات بكثير من الخصائص، وفضَّله على كثير منهم، وهذا ما صرَّحت به الآية القرآنية الكريمة، وقررته بحزم ووضوح:

﴿۞ وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا ٧٠﴾.

﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ قاطبة، تكريماً شاملاً لبَرِّهم وفاجرهم، ويستدعي هذا التكريم احترام حقوق الإنسان، ولو كان كافراً فاجراً، **فالعقوق لا يمنع الحقوق**، والإنسانُ في نظر الشريعة الإسلامية مخلوق مكرَّم يجب أن تُصان حقوقه، ولن تجدَ في أيِّ شريعة من الشرائع تكريماً للإنسان واحتراماً لحقوقه كما تجده في الشريعة الإسلامية.

وقد مرَّ معنا كيف بيَّن القرآنُ الكريمُ أقومَ السبل التي تحمي حقوق الإنسان وتصونها، فلا يجوز الاعتداء على حياة الإنسان بغير حق، كما لا يجوز الاعتداء على عرضه وماله، وحتى الإيمان بالله تعالى وتوحيده لا يُكره عليه الإنسان ولا يجبر: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة: ٢٥٦] بل يُدعى الإنسانُ إلى الإيمان بالكلمة الطيبة والحكمة والموعظة الحسنة مع بيان الدليل والبرهان كما سبق ذكره.

﴿وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾ وهذا من فضل الله سبحانه على الإنسان؛ حمله في البر على ظهور الحيوانات التي خلقها وجعلها مسخَّرة ومذلَّلة للإنسان، وحمله أيضاً برّاً وبحراً في المركبات المتنوعة التي هداه الله تعالى إلى صُنعها، وقدَّر له الأسباب والنواميس التي تمكِّن الإنسان من الاستفادة منها.

﴿وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ من زروع وثمار ولحوم وألبان، وسائر الأنواع والألوان الطيبة اللذيذة، والمناظر الحسنة، والملابس الرفيعة، وغير ذلك.

﴿وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا﴾ بما خصَّهم من الخصائص وأنعم عليهم من النِّعَم، فكثير من المخلوقات لم يكرمهم الله سبحانه كما كرَّم بني آدم.

ويستدعي هذا التكريم والتفضيل من الناس أن يشكروا الله سبحانه، ويصرفوا ما خَلق لهم لما خُلِقوا له من العبادة والطاعة لله سبحانه وحده، فيوحِّدوه، ويُقبلوا على عبادته وطاعته وحده، ولا يشركوا به شيئاً.

فالتكريم سبب للتكليف، والتكليف في الحقيقة تشريف للإنسان وتكريم، شرَّفه فكلَّفه، ألا ترى أن تكليف النبي ﷺ بحمل رسالة الإسلام دليل على مكانته الرفيعة عند الله سبحانه وعظيم كرامته، والإنسان الظلوم الجهول هو الذي لا يقوم بأعباء ما كُلِّف به، ولا يستشعر مدى مسؤوليته أمام الله تعالى[1].

● **الجزاء من جنس العمل:**

ويترتب على التكليف مسؤولية الإنسان عن أعماله وما فيها من حساب وثواب وعقاب، ولهذا قال تعالى بعد آية تكريم الإنسان مباشرة:

﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَـٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَـٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾﴾.

﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَـٰمِهِمْ ۖ﴾ أي: بكتابهم الذي أنزل على نبيِّهم، والتشريع الذي كلِّفوا به.

أو: بكتاب أعمالهم، وهو الأظهرُ لما مرَّ معنا في أول السورة: ﴿وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣].

ويؤيده قوله تعالى بعد ذلك:

﴿فَمَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَـٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ أي: لا يظلمون شيئاً قليلاً ولو كان بمقدار الخيط الأبيض المستطيل الذي في شق نواة التمر.

﴿وَمَن كَانَ فِى هَـٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾.

﴿وَمَن كَانَ فِى هَـٰذِهِۦٓ﴾ الحياة الدنيا.

---

(١) انظر: تفسير سورة الأحزاب، وقد أسميناه في تفسيرنا الموضوعي هذا: (النبي ﷺ وأزواجه في سورة الأحزاب).

﴿أَعۡمَىٰ﴾ البصيرة عن رؤية أدلة التوحيد القاطعة، وعن رؤية النِّعَم الجليلة التي خصَّه الله تعالى بها، فتغافل عن القيام بشكر مولاه وطاعته.

﴿فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ﴾ لا يهتدي إلى طريق نجاته، والجزاء من جنس العمل، فهو في الآخرةِ أعمى البصر والبصيرة.

ويؤيده قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ﴾ [طه].

وسيأتي معنا قوله تعالى: ﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗاۖ﴾ [الإسراء: ٩٧].

﴿وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾ أي: أكثر ضلالاً منه في الدنيا لزوال الاستعداد، أو لأن الاهتداء لا ينفعه.



الفصل الرابع

التَّثْبيتُ الَّذي أكْرَمَ الله بِهِ نَبيَّهُ ﷺ وَهُوَ في ذروةِ المُعَاناةِ والمُواجَهَةِ

﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ

لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِي ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِيٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾

- **التثبيت والعصمة:**

كانت التحدياتُ التي واجهت النبيَّ ﷺ كثيرة وكبيرة ومتنوعة؛ فمن الإغراء بالمال والجاه والرئاسة، إلى التهديد والوعيد والمكر والأذى والخديعة والاحتيال، ولم يتركوا سبيلاً يُثنون به النبيَّ ﷺ عن دعوته إلا سلكوه، وباءت كلُّ محاولاتهم بالفشل الذريع، فلم يتمكنوا بفضل الله تعالى ورعايته لنبيِّه ﷺ وتثبيته له وعصمته أن يجعلوا النبي ﷺ ينحرف ولو شيئاً يسيراً عمَّا كلَّفه الله تعالى به.

بقي رسول الله ﷺ ثابتاً على الحق، يواجه كلَّ تحدياتهم ومكرهم الذي يُزيل الجبال عن مواضعها، فكان النبيُّ ﷺ أثبتَ من الجبالِ، وأصلبَ من الصخر، ويكفي للدلالة على ذلك قوله عليه الصلاة والسلام لعمِّه أبي طالب عندما طلب منه ألَّا يحمِّله من الأمر ما لا يطيق: «**يا عمُّ، واللهِ لو وضعوا الشمسَ في يميني، والقمرَ في يسارِي، على أن أتركَ هذا الأمرَ حتى يظهرَهُ اللهُ، أو أهلِكَ فيه؛ ما تركتُه**»[1].

وبيَّن الله تعالى في هذه الآيات الكريمة فضله على النبي ﷺ في رعايته وتثبيته فقال:

﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾﴾.

﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ﴾ أي: قاربوا أن يخدعوك، وهذا يدل على شدة مكرهم وقوة كيدهم.

﴿عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ من الدعوة إلى عبادة الله وحده والأوامر والنواهي والأحكام.

﴿لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ﴾ لتتقوَّل علينا غير ما أوحينا إليك.

﴿وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ أي: لو فعلتَ ذلك لجعلوك وليّاً لهم ولخرجت من ولاية الله تعالى.

﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾.

﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ﴾ على الحق برعايتنا وعصمتنا لك.

وهذا دليل ـ كما قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ ـ على تأييد الله تعالى لرسوله ﷺ وتثبيته وعصمته وسلامته من شر الأشرار وكيد الفجَّار، وأنه تعالى هو المتولِّي أمره ونصره، وأنَّه لا يكله إلى أحد من خلقه، بل هو وليُّه وحافظُه وناصرُه ومؤيده

---

(١) السيرة النبوية، لابن هشام: ١/ ٢٤٠.

ومُظهر دينه على مَن عاداه وخالفه في مشارق الأرض ومغاربها[(١)].

﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ أي: لقاربتَ أن تميلَ إلى اتباع مرادهم لقوة خداعهم وشدة احتيالهم، ولكن أدركتك عصمةُ الله تعالى، فمنعتك من أن تقرب من أدنى مراتب الميل إليهم، لأنَّ معنى **الركون**: أدنى مراتب الميل.

وهذا صريحٌ في أنَّه عليه الصلاة والسلام ما همَّ بإجابتهم مع قوة الداعي إليها، ودليل على أنَّ عصمتَه عليه الصلاة والسلام بتوفيق الله تعالى وعنايته[(٢)].

ثم بيَّن ﷻ ما يترتب على الركون إلى الكفَّار والفجَّار من شدة في العذاب ومضاعفته، فقال:

﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾.

﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ أي: ضعف عذاب الدنيا وضعف عذاب الآخرة.

وهذا يدل أيضاً على علوِّ منزلة النبيِّ ﷺ ورفعتها، لأنَّ خطأ الكبيرِ خطيرٌ، ولهذا قال الله تعالى لأُمهات المؤمنين رضي الله تعالى عنهنَّ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾ [الأحزاب].

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ يدفع العذاب أو يرفعه عنك.

وقد أظهر الله ﷻ في هذه الآيات الكريمة عزَّ الربوبية وقوتها وقدرتها، وأظهر ذُلَّ العبودية وضعفها وافتقارها، كما دلَّت الآيات الكريمة على أنَّ القرآن الكريم كلامُ الله تعالى المنزل على سيدنا رسول الله ﷺ، فلا يعقل أن يصدر مثل هذا الكلام عن رسول الله ﷺ، وفيها أيضاً دليل قاطع على أنه عليه الصلاة والسلام بلَّغ وحي الله تعالى، فأدَّى الأمانة، ولم يكتم شيئاً ممَّا أوحاه الله تعالى إليه.

---

(١) تفسير ابن كثير: ٣/ ٥٣.

(٢) انظر: تفسير أبي السعود: ٣/ ٣٤٤.

إنَّ قلبَ المتدبِّر لهذه الآيات يمتلئُ خوفاً ورُعباً، وتجعله يُقبل على الله تعالى يسأله التثبيتَ على الإيمان، فلا يضلُّ ولا يزلُّ، ولا يُفتَنُ عن دينه، كما تجعله يتمسَّكُ بدينه مع شدة الحذر من أن يفتن عنه، فإذا كان حال رسول الله ﷺ وهو خيرة الله سبحانه من خلقه، وصفوته من عباده، أن يضاعف له عذاب الحياة والممات لو مال أدنى ميلٍ إلى الكفَّار، فكيف يكونُ حالنا مع ما نحن عليه من ضعفٍ في اليقين ورقَّةٍ في الدين، ليس لنا إلا أن نلجأ إلى الله تعالى نسأله كما علَّمنا رسول الله ﷺ: «**يا مقلِّبَ القلوبِ ثَبِّتْ قلبي على دِيْنِكَ**» [رواه الترمذي (٣٥٢٢) وحسنه].

وكما بيَّن لنا الحقُّ سبحانه في كتابه: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

- **الهجرة خروج لا إخراج:**

وتكشف لنا الآيات الكريمة في سورة الإسراء عن جانب آخر من جوانب تثبيت الله تعالى للنبي ﷺ في مواجهة المشركين في مكة، يدل على أنَّه عليه الصلاة والسلام نبي الرحمة، هذا الجانب هو ثباته عليه الصلاة والسلام في مكة المكرمة، وبقاؤه فيها حتى أمره الله تعالى بالهجرة إلى المدينة المنورة، لقد هاجرَ أكثرُ أصحابه، وبقي ﷺ في مكة يواجه كيد الكافرين وعنادهم وأذاهم، منتظِراً أمرَ الله تعالى له بالهجرة، وكلَّما جاءه أبو بكر رضي الله تعالى عنه يستأذنه في الهجرة قال له ﷺ: «**لا تَعْجَلْ لَعَلَّ اللهَ يجدُ لكَ صاحباً**»(١).

ولما أمره الله تعالى بالهجرة خرجَ عليه الصلاة والسلام مهاجراً تنفيذاً لأمره سبحانه، فأتى أبا بكرٍ في بيته فقال: «**إنَّ اللهَ قد أَذِنَ في الخروجِ والهجرةِ**»(٢).

وهذا يدلُّ على أنَّه عليه الصلاة والسلام لم يخرج مهاجراً فراراً من أذى

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ٩٢.
(٢) المرجع السابق نفسه.

المشركين، وخوفاً على حياته منهم، بل خرجَ تنفيذاً لأمر الله تعالى، ليتخذَ من دار الهجرة في المدينة المنورة قاعدةً ينطلقُ منها لتبليغ دعوة الله تعالى في مشارق الأرض ومغاربها، وليبنيَ فيها نواةَ المجتمع المسلم والدولة المسلمة، التي تطبق شريعة الله تعالى، وتسعى لنشرها بين الناس جميعاً.

ولو أنه ﷺ أُخرج من مكة بإخراج المشركين لأنزل الله تعالى عليهم عذاباً يهلكهم به ويستأصلهم، كما فعل بالأُمم المكذِّبة من قبلهم، ولكنَّه ﷺ خرجَ مهاجراً تنفيذاً لأمر الله تعالى، فهو نبيُّ الرحمة، ولا ينزل بسببه عذاب استئصال يهلك الله به قومه؛ قال تعالى:

﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَـٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾﴾.

﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾ أي: ليزعجونك بعدوانهم وبغيهم وأذاهم.

﴿مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾: أرض مكة.

﴿لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَـٰفَكَ﴾ أي: بعدك.

﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ إلا زمناً قليلاً.

أي: لو أخرجوك لاستُؤصلوا عن بَكْرة أبيهم، لكن لم يقع الإخراجُ، وقد خرجَ رسولُ اللهِ ﷺ مهاجراً بأمر ربه ﷻ.

قال مجاهد: أرادت قريشٌ ذلك ولم تفعل، لأنه سبحانه أراد استبقاءها وعدم استئصالها ليسلم منها ومن أعقابها من يسلم[1].

وهذا لا يتعارض مع قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَـٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [محمد: ١٣] إذ حملنا الإخراج في هذه الآية على التسبُّب في الخروج، فقد خرج النبي ﷺ من مكة مهاجراً إلى المدينة، لأنَّه لم يتمكَّن من نشر دين الله بين الناس بسبب معاندة المشركين في مكة وأذاهم،

(١) روح المعاني: ١٥/ ١٣٠.

وهذا المعنى يتفق مع قوله تعالى هنا في الآية الكريمة: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾ فإن كلمة ﴿كَادَ﴾ تدل على مقاربة وقوع الشيء لا على وقوعه وحدوثه.

هذه هي سُنَّة الله تعالى، وهي أنه سبحانه يهلك كل أمة أخرجت رسولها من بين ظهرانيها، وقد أضافها سبحانه إلى الرسل لأنها من أجلهم، فقال:

﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾.

- **أوقات الصلوات المفروضة:**

فُرضت الصلوات الخمس ليلة الإسراء والمعراج عندما كان النبيُّ ﷺ فوق السماوات السبع، دلَّت على ذلك أحاديثُ الإسراء والمعراج الصحيحة، وأنزل الله تعالى في سورة الإسراء في بيان أوقات هذه الصلوات المفروضة إجمالاً قوله الكريم:

﴿أَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ الَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾.

﴿أَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ أي: لوقت زوالها وانتقالها من دائرة نصف النهار الأول في جهة الشرق إلى النصف الثاني في جهة الغرب، وهو أول وقت صلاة الظهر، **والدلوك** في اللغة: الانتقال والتحوُّل، ولهذا قالوا أيضاً: أقم الصلاة لغروب الشمس.

﴿إِلَىٰ غَسَقِ الَّيْلِ﴾ إلى شدة ظلمته، وهو أول وقت صلاة العشاء.

ففي الآية إشارة إلى أوقات صلوات الظهر والعصر والمغرب والعشاء، والمراد إقامةُ كلِّ صلاة في وقتها الذي عُيِّن لها بواسطة جبريل عليه السلام، وذكرت الآيةُ أوقاتَ هذه الصلوات إجمالاً، لأنَّ أوقاتها متصلة ببعضها، ثم ذكر سبحانه الصلاة الخامسة المفروضة وهي صلاة الفجر بقوله:

﴿وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ﴾، وسمِّيت قرآناً لأن قراءة القرآن ركن من أركان الصلاة، وللحثِّ على تطويل القراءة في صلاة الفجر.

﴿إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ تشهده وتحضره ملائكة الليل وملائكة النهار.

ونزل جبريل عليه السلام ظهر نهار ليلة الإسراء والمعراج فصلَّى بالنبيِّ ﷺ مبيِّناً له بالتفصيل أوقات الصلوات الخمس المفروضة.

• **معراج المؤمنين:**

وجاء الأمرُ بإقامة الصلوات المفروضة بعد الآيات الكريمة التي تحدَّثت عن عناد المشركين وجحودهم، وما لقيه ﷺ أثناء مواجهته لهم من مكرهم وكيدهم، وتثبيت الحق سبحانه له عليه الصلاة والسلام، لأنَّ في إقامة الصلاة قوةً للمؤمن، ومعونةً على تحمُّل أعباء الحياة وتكاليفها.

إنَّ المؤمنَ عندما يقيم الصلاة يتصل بالله سبحانه ويستمد منه المعونة والقوة، إنَّ الصلاة تغذِّي روح المصلي بذكر الله تعالى وتشحذ همَّته، وتقوِّي عزيمته، لأنها معراجه إلى الله تعالى، يستمد منه القوة والعزيمة والرشد وهو واقف بين يديه سبحانه يناجيه بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة].

ولهذا قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥].

وكان رسول الله ﷺ إذا أهمَّه أمرٌ لجأ إلى الصلاة، ففي «**سنن أبي داود**» [١٣١٩] و«**مسند أحمد**» [٥/ ٣٨٨]: من حديث **حذيفة بن اليمان** رضي الله عنه قال: **كان ﷺ إذا حَزَبَهُ أمرٌ فزعَ إلى الصلاةِ.**

• **تهجد النبي ﷺ:**

ومن المعلوم أنَّه عليه الصلاة والسلام حملَ أعظمَ الأعباء وأثقل التكاليف لأنَّ الله تعالى أرسلَه برسالة الإسلام إلى العالمين: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

فالأمانةُ التي حملها ثقيلة، والرسالة كبيرة، وقد وصفها الله تعالى بذلك في قوله الكريم: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥].

ولهذا حثَّه الله ﷻ على صلاة التهجُّد في الليل ليتلقَّى فيها المدد من الله تعالى، والمعونةَ على القيام بأعباء المهمة الثقيلة التي كُلِّف بها، فقال:

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ٧٩﴾.

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ﴾ قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «أمرٌ له بقيام الليل بعد المكتوبة، كما ورد في «**صحيح مسلم**» [١١٦٣]: عن **أبي هريرة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن رسول الله ﷺ: أنه سئل: أيُّ الصلاةِ أفضلُ بعدَ المكتوبةِ؟ قال: «**صلاةُ الليل**»، ولهذا أمر تعالى رسولَه بعدَ المكتوباتِ بقيامِ الليل، فإنَّ التهجُّدَ ما كان بعد نومٍ»(١).

﴿نَافِلَةٗ لَّكَ﴾ فريضة زائدة على الصلوات المفروضة خاصة بك دون الأُمة، أو تطوعاً، لا لكونها زيادة على الفرائض، بل لكونها زيادة له ﷺ في الدرجات، فإنّه ﷺ مغفورٌ له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخر، فيكونُ تطوُّعه في صلاة التهجُّد زيادةً في درجاته، بخلاف مَن عداه من الأُمة، فإنَّ تطوعهم لتكفير ذنوبهم وتدارك الخلل الواقع في فرائضهم(٢).

- **المقام المحمود:**

ويرجِّح المعنى الثاني قولُه تعالى في ختام الآية الكريمة:

﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾، فإن قيامه عليه الصلاة والسلام من النوم لصلاة التهجُّد في الليل يؤدِّي إلى رفع درجاته يوم القيامة حتى يصل بفضل الله تعالى إلى أعلى المقامات وأشرفها وهو المقام المحمود.

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ أي: افعل هذا الذي أمرتك به لنقيمك يوم القيامة مقاماً محموداً يحمدك فيه الخلائق كلُّهم، وخالقهم تبارك وتعالى»(٣).

وممَّا يؤكدُ أنَّ قيامَ الليل لم يكن مفروضاً على النبيِّ ﷺ ما روي عن **عائشة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: **كان النبيُّ ﷺ يقومُ من الليلِ حتَّى تتفطَّرَ قدماه**، فقلت له: لِمَ تصنعُ

(١) تفسير ابن كثير: ٣/ ٥٤.
(٢) انظر: تفسير أبي السعود: ٣/ ٣٤٦.
(٣) تفسير ابن كثير: ٣/ ٥٥.

هذا يا رسولَ اللهِ وقد غُفِرَ لك ما تقدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وما تأخَّرَ؟ قال: «**أفلا أكونُ عبداً شكوراً**» [رواه البخاري (١١٣٠) ومسلم (٢٨١٩)].

والمقام المحمود: من الخصائص الكبرى التي خصَّ الله تعالى بها النبي ﷺ يوم القيامة، وقد وردت فيه كثير من الأحاديث الشريفة الصحيحة التي تدلُّ على علوِّ منزلةِ النبيِّ ﷺ، واختصاصه بهذه المنزلة دون سائر الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لرسول الله ﷺ تشريفاتٌ يوم القيامة لا يشركه فيها أحد، وتشريفات لا يساويه فيها أحد، فهو أوَّلُ من تنشق عنه الأرض، ويُبعث راكباً إلى المحشر، وله اللواء الذي يكون آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فمَنْ دونه تحتَ لوائه، وله الحوضُ الذي ليس في الموقف أكثرُ وارداً منه، وله الشفاعة العظمى عند الله ليأتي لفصل القضاء بين الخلائق»(١).

فعن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**إنَّ الشمسَ لتدنو حتى يبلغَ العرقُ نصفَ الأُذُنِ، فبينما هم كذلك استغاثوا بآدمَ فيقول: لستُ بصاحبِ ذلكَ، ثم بموسى فيقولُ كذلك، ثم بمحمَّدٍ ﷺ، فيشفعُ بين الخلق، فيمشي حتى يأخذَ بحلقةِ بابِ الجنَّةِ، فيومئذٍ يبعثُهُ اللهُ مقاماً محموداً يحمدُهُ أهلُ الجَمْعِ كلُّهم**» [رواه البخاري (١٤٧٥)].

● **بشائر النصر:**

ثم تتابعت الآيات الكريمة تنزل على النبي ﷺ وهو في أوج المواجهة للمشركين المعاندين، تحمل له بشائر النصر والغلبة والعزَّة، وتطلبُ منه أن يتوجَّه إلى ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يسأله التوفيق والنجاح في كل شؤون حياته:

﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾﴾.

﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ أي: إدخالاً مرضيّاً موفقاً كريماً.

---

(١) تفسير ابن كثير: ٣/ ٥٥.

﴿وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ أي: إخراجاً مرضيّاً موفقاً كريماً.

واختلف علماء التفسير في تعيين المراد من ذلك، فذهب بعضهم إلى أنه إدخال المدينة المنورة والإخراج من مكة، ويؤيِّده ما روي عن **ابن عباس** رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ بمكة ثم أُمر بالهجرة، فأنزل الله تعالى عليه: ﴿وَقُل رَّبِّ...﴾ الآية [رواه أحمد (١/ ٢٢٣) والترمذي (٣١٣٩) وحسنه].

وذكروا قولاً آخر لابن عباس: أنَّه الإدخالُ في القبر، والإخراج منه. [رواه ابن جرير وابن أبي حاتم].

وقيل: إدخال مكة فاتحاً، وإخراجه منها آمناً عند الهجرة.

وقيل: الإدخالُ في المأمورات، والإخراجُ عن المنهيَّات.

وقيل: الإدخالُ فيما حمله عليه الصلاة والسلام من أعباء النبوَّة، وإخراجه منها مؤدِّياً لما كلَّفه من غير تفريط.

والأظهر أنَّ المرادَ إدخاله عليه الصلاة والسلام في كل ما يدخل فيه ويلابسه من مكان أو أمر، وإخراجه منه، فيكون عامّاً في جميع الموارد والمصادر، وما ذكره المفسِّرون جاء على سبيل التمثيل لا التعيين(١).

﴿وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا﴾ أي: حجة وقوة تنصرني بهما على كلِّ مَن عاداني، فلا بدَّ للحق من حجة يستند إليها، ومن قوة تقهر الباطل، وتقمعُ أهله.

وما علَّم الله تعالى نبيَّه عليه الصلاة والسلام أن يدعوَ بهذه الدعوة الكريمة، وهو يواجه عنتَ المشركين وكيدَهم إلا ليعطيه ويستجيب له، ولهذا جاءت هذه الدعوة الكريمة بشائر نصر وعزٍّ للنبيِّ ﷺ، وظهور وغلبة للإسلام في المشارق والمغارب. ويؤكد هذا قوله تعالى بعد ذلك مباشرة:

﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾.

﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: ظهر الحق الذي تسنده الحجة، وتؤيده القوة، وشَرَع

---

(١) انظر: روح المعاني: ١٥/ ١٤٤؛ والبحر المحيط: ٦/ ٧٣.



الله تعالى بعد ذلك الجهاد، وأمر بالاستعداد والإعداد الذي يؤدِّي إلى انتصار الحق ودَحْر الباطل.

﴿وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ أي: اضمحلَّ وهلك، فإنَّ الباطلَ لا ثباتَ له مع الحق المؤيَّد بالبرهان والقوة.

ولا يخفى على المتأمِّل للآية الكريمة ما فيها من تثبيت للنبيِّ ﷺ لأنها تحمل له البشائر بقرب تحقُّق النصر، فهو آتٍ لا محالةَ، فكأنَّه جاء وتحقق، وما فيها أيضاً من تهديد ووعيد للمشركين، فقد جاءهم من الله تعالى الحق الذي لا مرية فيه، والمؤيد بالبرهان الساطع، والذي لا قِبَلَ لهم به، لأنه مؤيد بالقوة الغالبة.

والجدير بالذكر أنَّ الله تعالى لمَّا حقَّق لنبيِّه عليه الصلاة والسلام موعوده بالنصر والغلبة، ودخل رسوله ﷺ مكة فاتحاً وكان في البيت وحوله ستون وثلاثمئة صنم، جعل النبي ﷺ يطعنها بعود في يده وهو يقول: «**جاءَ الحقُّ وزَهَقَ الباطِلُ إنَّ الباطلَ كان زهوقاً، جاءَ الحقُّ وما يبدئُ الباطِلُ وما يعيدُ**» فكانت الأصنام تتساقط على وجوهها محطَّمةً مكسَّرةً. [رواه البخاري (٤٧٢٠) ومسلم (١٧٨١)].

﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ أي: هالكاً وزائلاً.

- **القرآن رحمة وشفاء:**

وكيف لا يظهر الحقُّ وينتصر، ويضمحلُّ الباطل ويندحر، وقد أنزل الله تعالى القرآن الكريم، وفيه الحق المؤيد بالبرهان، والدعوة إلى جهاد أصحاب الباطل باللسان والسنان، كما أنَّ فيه الشفاء والرحمة للمؤمنين، لأنَّه يطهر قلوبهم من أمراض الشك والنفاق والشرك، ومن القلق والحيرة، ويملؤها بنور الإيمان وبرد اليقين؟!.

ولا ينتفع بالقرآن الكريم إلا المؤمنون بأنَّه كلام الله تعالى المنزَّل على رسوله عليه الصلاة والسلام، وأمَّا الكافرون به، الذين ظلموا أنفسهم بإعراضهم عنه، فلا يزدادون بالقرآن الكريم إلا ضلالاً وكفراً، والسبب في إعراضهم وتكذيبهم لا في القرآن الكريم، فهو كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا

هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

ولهذا قال تبارك وتعالى هنا:

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾.

وفي القرآن الكريم آيات للشفاء من الأمراض الجسمانية أيضاً، يخلق الله تعالى ببركة تلاوتها الشفاء من كثير من الأمراض البدنية إذا تُليت مع حُسْن اعتقاد وصلاح.

- **أسباب الشر:**

ولا يكون الشر إلا بالإعراض عن القرآن الكريم، وترك أحكامه، وهجر شريعته، فالخير من الله سبحانه فضلاً ورحمة، وأما الشر فهو بسبب إعراضنا عن هدي القرآن الكريم وشرعه القويم، فأسبابُ الشرِّ نابعةٌ من أنفسنا وسوء كسبنا واختيارنا، ولهذا قال تعالى:

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾﴾.

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ أي: إذا أنعمنا عليه بالصحة والخير أعرض عن هدينا وشرعنا وطاعتنا، وابتعد مستكبراً.

﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ كالفقر والمرض وغيرهما من المصائب.

﴿كَانَ يَـُٔوسًا﴾ أي: شديد اليأس من رحمة الله تعالى.

وهذا حال بعض الناس، وبعضهم قد يعرض عن الله تعالى في الرخاء، ويذكره فقط في الضَّرَّاء، ولهذا قال سبحانه في **سورة فصلت**: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾.

وفي إسناد المساس إلى الشر بعد إسناد إنعام الخير إلى الله تعالى دليل على أن الخير مراد لله تعالى لذاته، تفضُّلاً منه سبحانه ورحمة، وأمَّا الشرُّ فهو غير

مراد له سبحانه بذاته، وإن كان بخلقه تعالى وإيجاده، بل هو بسبب إعراضنا عن هدي كتابه وسنَّة نبيِّه عليه الصلاة والسلام، يوضِّحه قوله سبحانه: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى: ٣٠].

وسبق أن مرَّ معنا في هذه السورة قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا﴾ [الإسراء: ١٦].

- **اختلاف المواقف:**

ثم بيَّن سبحانه سبب اختلاف مواقف الناس وأعمالهم بهذا التحليل العميق للنفس البشرية وما تنطوي عليه من نوازع للخير والشر، فقال:

﴿قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَنۡ هُوَ أَهۡدَىٰ سَبِيلٗا ﴿٨٤﴾﴾.

﴿قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ أي: يعمل عمله من خير أو شر على طريقته التي تناسب حال نفسه، وما انطوت عليه من نوازع الخير والشر، فإذا قويت نوازعُ الخيرِ في نفسه كان عملُه خيراً، وإذا قويتْ نوازعُ الشرِّ في نفسِه كان عمله شرّاً.

أو كلٌّ يعمل على طريقةٍ تناسِبُ روحه، وما انطوت عليه من طيب أو خبث، لأن الروح البشرية إما أن تكون روحاً طيبة أو روحاً خبيثة، والدليل عليه ما ورد في الحديث الشريف: «**أنَّ ملكَ الموت عندما يجيء ليقبضَ روح العبد المؤمن يقول: أيتُها النفسُ الطيبةُ اخرجي إلى مغفرةٍ منَ اللهِ ورضوان. وعندما يصعدُ بها إلى السماءِ تقولُ ملائكةُ السماءِ: ما هذه الروحُ الطيبةُ؟. ويقولُ مَلَكُ الموتِ عند قبضِ روحِ العبدِ الكافرِ: أيتُها النفسُ الخبيثةُ اخرجي إلى سخطٍ من الله وغضبٍ. وعندما يصعدُ بها تقولُ الملائكةُ: ما هذه الروح الخبيثة**» [رواه أحمد عن البراء (٤/ ٢٨٨) ورواه مسلم (٢٨٧٢) وأبو داود (٣٢١٢) والنسائي (٤/ ٧٨) وابن ماجه (١٥٤٩) وانظر تمام الحديث ثمة].

وقد فُسِّرت الشاكلةُ أيضاً بالطبيعة والعادة والدين[1].

---

(١) تفسير أبي السعود: ٣/ ٣٤٩.

فتصرفات الإنسان وأعماله الظاهرةُ تعكِسُ حقيقةَ ما تنطوي عليه نفسه، وما تتَّصف به روحه، ومهما حاول بعض الناس كالمنافقين أن يستروا حقيقة دخائلهم، وما تنطوي عليه نفوسهم، فلا بدَّ أن تظهرَ حقيقتُهم فيما يبدر من أعمالهم وتصرفاتهم، «**فكل إناءٍ بالذي فيه ينضحُ**»، وإذا تمكَّنوا أن يستروا حقيقتَهم عن الناس لبعض الوقت فإن الله سبحانه عليم بأحوالهم باطناً وظاهراً، يعلمُ ما يُخفون وما يكتمون، ولهذا قال في نهاية الآية:

﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾.

• **قصور علم الإنسان:**

واختلاف طبائع الناس نابع من اختلاف حقيقة أرواحهم، وهي سرٌّ من الأسرار التي استأثر الله تعالى بعلمها، فلا يعلمُ حقيقةَ الروح إلا الله تعالى، قال سبحانه:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ سؤال اختبار وامتحان، والسائلون بعض مشركي قريش بإشارة من يهود المدينة المنوَّرة، الذين قالوا لهم: سَلُوه عن أصحاب الكهف، وعن ذي القرنين، وعن الروح، فإن أجاب عن بعض وسكت عن بعض فهو نبي(١).

فأنزل الله تعالى سورةَ الكهفِ، وذكر فيها قصة أصحاب الكهف، وبعضَ الأخبار عن ذي القرنين، وأنزل هذه الآية في سورة الإسراء يأمر النبي ﷺ أن يقول لهم:

﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ أي: من شأن ربي، فهو سبحانه الذي استأثر بعلمها، فلا يعلم حقيقة الروح غيره سبحانه(٢).

والآيةُ تتحدَّى جميعَ الناس، فمهما تعمَّقوا في العلم، وزادت معارفهم، تبقى علومهم ومعارفهم محدودة وقاصرة وقليلة بجانب علم الله تعالى، الذي قال:

---

(١) رواه ابن إسحاق في السيرة.

(٢) **قلت**: وفسَّر بعض أهل العلم الروح هنا بالوحي، وهو تفسير متجه، والله تعالى أعلم (ن).

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾، وقوله سبحانه: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم﴾ يدل على أن كُلَّ علمٍ يكتسبه الناس هو من فضل الله تعالى عليهم، فهو سبحانه الذي آتاهم هذا العلم وهداهم إلى تحصيله، والجهود التي يبذلها الإنسان في تحصيل العلم ليست سوى أسباب، أما المعلِّم الحقيقي فهو العليم الحكيم سبحانه، الذي ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق: ٥].

وكم في طلاب العلم مَن يعانون أسباب تحصيل العلم ولا يتعلمون.

ولا يستطيع الناسُ أن يُحصِّلوا من العلوم إلا ما قدَّر الله تعالى لهم تحصيله، فالأمرُ منوطٌ بمشيئته وقدرته سبحانه: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

فلا ينبغي لأهل العلم أن يغترُّوا ويتكبروا بسبب ما حصَّلوا من علوم، فالفضل لله العليم الحكيم أولاً وآخراً، وعليهم أن يصرفوا علومهم في شكر الله تعالى الذي علَّمهم، وفي عبادته وعمارة الأرض بطاعته.

• **تثبيت القرآن في قلب النبي عليه الصلاة والسلام:**

أنعم الله تعالى على النبي عليه الصلاة والسلام بتثبيتٍ آخر غير ما مرَّ معنا من تثبيته وهو يواجه كيد المشركين ومكرهم في مكة المكرَّمة، وهو تثبيت القرآن الكريم في قلبه الشريف عليه أفضل الصلاة وأتمُّ التسليم، وقد كان ﷺ في أول الأمر يخشى عند نزول جبريل عليه بالقرآن الكريم أن ينسى بعضَ كلماته، ولهذا كان يردِّدُ كلمات القرآن بلسانه عندما يتلقَّاه من أمين الوحي جبريل عليه السلام، فأنزل الله تعالى عليه قوله الكريم: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ ۝١٩﴾ [القيامة].

وقد تكفَّل الله في هذه الآيات الكريمة أن يجمعَ القرآن الكريم في صدر النبي عليه الصلاة والسلام، فلا يفوتُ النبيَّ عليه الصلاة والسلام منه شيءٌ أبداً، ثم أنزل عليه هذه الآية الكريمة يبيِّن فضله سبحانه بتثبيت القرآن الكريم في قلبه الشريف عليه الصلاة والسلام فقال:

﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾﴾.

﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ وذلك بأن نمحوه من صدرك، ونمحوه أيضاً من السطور، وقد كان ﷺ يحرِصُ على كتابة ما ينزل عليه من القرآن الكريم بواسطة كُتَّاب الوحي فور نزوله عليه.

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ تتوكل عليه في استرداده وإعادته.

وإن تثبيت القرآن الكريم في قلب النبي عليه الصلاة والسلام رحمة عظيمة من الله تعالى وفضل كبير، ولهذا قال سبحانه:

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾﴾.

فالفضل والمنَّة لله سبحانه في إنزال القرآن الكريم على النبي ﷺ، وتثبيته في قلبه، وكذلك في تثبيته في قلوب حفَّاظ القرآن الكريم من أُمته.

وقد جاء في بعض الأحاديث: أنَّ الله ﷻ سيرفعُ القرآنَ الكريم في آخر الزمان قبل يوم القيامة، وذلك عندما يُعرِضُ الناسُ عنه إعراضاً كليّاً، فعن **حذيفة** رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**يَدْرُسُ الإسلامُ كما يَدْرُسُ وَشْيُ الثوبِ حتى لا يُدْرَى ما صيامٌ ولا صدقةٌ ولا نسكٌ، ويُسرى على كتابِ اللهِ تعالى في ليلةٍ فلا يبقى في الأرضِ منه آيةٌ، ويبقى الشيخُ الكبيرُ والعجوزُ يقولون: أدركنا آباءَنا على هذه الكلمة: لا إلٰه إلا الله، فنحن نقولُها**» [رواه ابن ماجه (٤٠٤٩) والبيهقي في شعب الإيمان (٢٠٢٨) والحاكم (٤/ ٤٧٣) وصححه].

- **التحدِّي بالقرآن الكريم:**

ثم قال سبحانه للنبي ﷺ زيادةً في تثبيته، وتقويةً لقلبه، وبياناً لجلال قدر القرآن الكريم وتفخيماً لشأنه:

﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾.

﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾؛ هذا التحدِّي المطلق للإنس والجن بكلِّ ما فيه من صراحة ووضوح وحزم تامٍّ وثقةٍ كاملةٍ يدلُّ دلالةً قاطعةً على أن القرآن الكريم كلام الله تعالى المعجز، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو تحدٍّ مفتوح على كل زمان ومكان، فهو لا يزالُ قائماً في فم الزمن، يتحدَّى الإنسَ والجنَّ إلى قيام الساعة مجتمعين أو متفرقين:

﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ أي: معيناً ومساعداً.

ورغم هذا التحدي الذي يدلُّ دلالةً قاطعةً على أنَّه كلام الله تعالى، ورغم ما في القرآن الكريم من الحقائق العلمية والأدلة القطعية التي تلزم الناس بالإيمان به، والتصديق برسالته، فإنَّ أكثر الناس امتنع عن الإيمان به، وأبى أن يذعنَ لرسالته كما قال سبحانه:

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾.

وكلمة (أبى) تدلُّ على شدة إعراضهم عن القرآن الكريم، وكثرة جحودهم، وقوة عنادهم.

- **المعجزات المقترحة:**

ورغم ظهور عجز المشركين أمام تحدِّي القرآن الكريم ظلوا متمسِّكين بكفرهم وشركهم عناداً وجحوداً، ولم يكتفوا بهزيمتهم أمام سلطان القرآن الكريم وعجزهم عن تحدِّيه ومواجهته، بل تقدموا إلى النبي ﷺ يطلبون منه تحقيق ما يقترحون عليه من المعجزات:

﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾.

(كِسَفاً) أي: قطعاً.

(قبيلاً) أي: مقابلين لنا.

(زخرف) أي: ذهب.

هكذا أرادوا أن يستروا هزيمتهم وعجزهم عن تحدِّي القرآن الكريم، فقابلوا النبيَّ ﷺ بكلِّ هذا التكبُّر والجحود، فماذا كان جواب رسول الله ﷺ؟!.

كان جوابُه عليه الصلاة والسلام دليلاً واضحاً على تثبيت الله تعالى له في مثل هذه المواجهة، فقد بقي عليه الصلاة والسلام هادئاً رابطَ الجأش، قويَّ الإرادة، فلم يتمكنوا من زعزعته وإثارته، بل أجابهم بكلمات تدل على شدة ثقته بربه، وعظيم تواضعه في نفسه، مع كمال التفويض لله والتنزيه والتقديس:

﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾؟!.

إنه عليه الصلاة والسلام نبيُّ الرحمةِ حقّاً، فلو أنه عليه الصلاة والسلام استجاب لمقترحاتهم، وسأل الله تعالى أن يحقِّق لهم معجزة من هذه المعجزات التي اقترحوها كما فعل الأنبياء والمرسلون قبله، ثم كُذِّبوا، لاستأصلهم بالعذاب، وأهلكهم كما أهلك الأُمم من قبلهم، ولكنه عليه الصلاة والسلام ثبت في وجه تكبرهم وجحودهم، وتحمل عنادهم رحمة بهم، لعل الله تعالى أن يهديهم فيسلموا، أو يخرج من أصلابهم مَن يوحِّد الله تعالى.

- **شبهة زائلة:**

ولم يَبْقَ للمشركين بعد كل هذا البيان القاطع شبهةٌ يتمسَّكون بها تمنعهم من الإيمان إلا إنكارهم أن يرسل الله تعالى من البشر رسولاً:

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾.

فأزال الله تعالى شبهتهم هذه، وردَّ عليهم بقوله:

﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾.

﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ﴾ ساكنين فيها ومقيمين كما هو حال البشر.

﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾.

فحكمته تعالى اقتضت أن يكون هناك توافق وتجانس بين الرسول والمرسَل إليهم، ليسهل عليهم الاجتماع بالرسول والتلقِّي منه، **ولو أنزل الله تعالى عليهم مَلَكاً لظهر لهم بصورة البشر**، كما ظهر جبريل عليه السلام للصحابة عندما أتى إلى رسول الله ﷺ وهو بين أصحابه، وسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان وعلامات الساعة، وقال رسول الله ﷺ بعد انصرافه: «**أتدرونَ من السائلُ؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**ذاكَ جبريلُ أتاكُم يعلِّمُكم أُمورَ دينِكُم**» [رواه البخاري (٤٧٧٧) ومسلم (٩)].

وحينئذٍ تحصل لهم الشبهة نفسها التي اعترضوا بها على النبي ﷺ، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٩].

- **الجولة الأخيرة:**

ثم أمر الله تعالى النبيَّ ﷺ أن يواجه إنكارهم وجحودَهم بكلمة أخيرة يوجِّهها لهم، وهي شهادة الله تعالى على صحة رسالته وصدق نبوَّته، وهي أعظم الشهادات وأجلُّها، لأنها شهادة العليم الخبير التي تُغني عن كل شهادة:

﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾﴾.

﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾، فلا كلامَ لأحدٍ بعد شهادة الحق

ﷻ، وهي تكفي عن كل دليل وبرهان يدل على صدق النبي ﷺ وصحة نبوَّته، ولهذا كانت هذه الكلمة الجولةَ الأخيرة في المواجهة.

وقد يقول قائل: كيف يعرف القومُ أنَّ الله تعالى يشهد بصدق النبي عليه الصلاة والسلام؟.

قلت: إنَّه سبحانه عليم بأحوال خلقه، فلو كان عليه الصلاة والسلام متقوِّلاً على الله لأهلكه الحق سبحانه، كما قال: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة].

ولكنَّه سبحانه لم يفعل ذلك، بل أيد النبيَّ ﷺ ونصرَه وثبَّته، وأنزل عليه الآيات الكريمات تحمل له بشائر النصر منه سبحانه، وتبيِّن الحجج القاطعة الدالة على صدقه وصحة رسالته:

﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ﴾ ولا يزال سبحانه:

﴿خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾.

- **المشي على الوجوه:**

وبعد الجولة الأخيرة في المواجهة بين النبي عليه الصلاة والسلام وبين المشركين جاء دور آيات الوعيد والتهديد، فكثيرٌ من الناس لا يصلحُ معهم أسلوبُ البيان بالبرهان، فلا بدَّ إذاً من اللجوء إلى أسلوب الوعيد والتهديد، وبدأه سبحانه ببيان كمال قدرته وتمام مشيئته النافذة في جميع خلقه، فلا معقِّب لحكمه، ولا رادَّ لقضائه:

﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾.

﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ﴾ بسبب سوء اختياره وكسبه وعناده وجحوده.

﴿فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي: لن تجد لهم أنصاراً يهدونهم إلى الحق

غير الله تعالى، فشأن الهداية والضلال منوطٌ بإرادته التامة سبحانه النافذة في جميع مخلوقاته.

وجاء الإخبار بالآية عن الهداية بخبر الواحد، بينما أخبر عن الضلال بالجمع لبيان قلَّة المهتدين وكثرة الضالِّين، أو لبيان وحدة طريق الحق وقلَّة سالكيه، وتعدُّد سبل الضَّلال وكثرة الضُّلَّال[1].

ثم وصفت الآيات صورةً مرعبةً مخيفةً لكيفية حشرهم يوم القيامة وسَوْقهم من قبورهم إلى أرض المحشر بقوله تعالى:

﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ أي: نسوقهم إلى أرض المحشر وهم يمشون على وجوههم حقيقة.

ولما سمع الصحابة رضي الله تعالى عنهم هذه الآية الكريمة ملأ الخوفُ والتعجُّبُ قلوبهم، فقالوا للنبيِّ ﷺ: يا رسولَ اللهِ، كيف يُحْشَرُ الناسُ على وجوههم؟! فقال عليه الصلاة والسلام مؤكِّداً حقيقةَ ما جاءَ في الآية الكريمة: «**الذي أمشاهم على أرجُلِهم قادرٌ على أن يُمْشِيهم على وُجُوْهِهِم**» [رواه أحمد (٣/ ٢٢٩) عن أنس ﷺ، وهو في البخاري (٤٧٦٠) ومسلم (٢٨٠٦)].

وهذا الحشر على الوجوه لا يكونُ لجميع الناس، وإنَّما هو للمعرِضين عن دعوة الرسول ﷺ والجاحدين لرسالته، فبعض الناس يُحشرون من قبورهم مشاةً، وبعضهم يحشرون ركباناً تكريماً لهم.

قال عليه الصلاة والسلام: «**يُحْشَرُ الناسُ يومَ القيامةِ على ثلاثةِ أصنافٍ: صنفٍ مشاة، وصنف ركبان، وصنف على وجوههم**» قيل: يا رسول الله وكيفَ يمشون على وجوههم؟ قال: «**إنَّ الذي أمشاهم على أقدامهم قادرٌ على أن يُمشيهم على وجوهِهم، إنَّهم يتقون بوجوههم كلَّ حَدَبٍ وشَوْكٍ**» [رواه أحمد (٥/ ١٦٤) والنسائي (٤/ ١١٦)].

ومع الحشر على الوجوه يكونون:

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود: ٣/ ٣٩٥.

﴿عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ أي: لا يبصرون، ولا ينطقون، ولا يسمعون، وهذا ـ كما قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ ـ يكون في حال دون حال، جزاء لهم كما كانوا في الدنيا عُمياً وبُكماً وصُمّاً عن الحق، فجُوزوا في محشرهم بذلك وهم أحوج ما يحتاجون إليه(١)، والجزاء من جنس العمل كما سبق بيانه في هذه السورة.

ومصيرهم بعد ذلك إلى جهنم:

﴿مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ أي: كلما سكنت زادها الله تعالى لهباً ووهجاً وجمراً.

﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾﴾.

فالتكذيبُ بآياتِ اللهِ، وإنكارُ يوم القيامة من أعظم المكفِّرات قبحاً، لأنهما تؤدِّيان إلى وصفه سبحانه بصفات لا تليقُ بكماله وجلاله وحكمته وقدرته، ولهذا تكرر ذكرُهما هنا في السورة استعظاماً لهما، وبياناً لشدة قبحهما.

وعندما قدَّر سبحانه للمكذِّبين بآياته والمنكرين ليوم القيامة أن يعذبَهم عذاباً شديداً لم يكن ظالماً لهم، إنَّما هم الذين ظلموا أنفسهم بالإعراض عن دلائل قدرته المبثوثة في هذا الكون الكبير المحيط بهم:

﴿۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ وهو يوم القيامة.

﴿فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾.

- **الحسد والبخل:**

كان حسد المشركين للنبي ﷺ أهم الأسباب التي جعلتهم يتمسكون

---

(١) تفسير ابن كثير: ٣/ ٦٥.

بعنادهم وجحودهم وإصرارهم على كفرهم وشركهم.

وقولهم الذي حكاه الله تعالى عنهم: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤] يدل على أن القوم لم يعترضوا على بشرية الرسول عليه الصلاة والسلام فقط، وإنما اعترضوا أيضاً على حكمة الله في اختياره محمداً ﷺ وتفضيله عليهم واصطفائه من بينهم، مع أنه عليه الصلاة والسلام كان يتيماً فقيراً!.

وقد أظهر الله تعالى موقفهم من النبي عليه الصلاة والسلام موقف الحاسد عندما حكى قولهم في **سورة الزخرف**: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾.

وردَّ سبحانه عليهم فقال: ﴿أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الزخرف].

وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

والحسد يدل على بخل الحاسد، ولا يكون الحسد عادة إلا عند الإنسان البخيل الشحيح الذي لا يحب إلا نفسه، ولا يريد الخير لغيره، ويكره أن يرى نعمة الله تعالى تصل إلى غيره، ولهذا وصف الله تعالى المعاندين الجاحدين لرسالة النبي ﷺ بصفة البخل الشديد فقال:

﴿قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا ﴿١٠٠﴾﴾.

﴿قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ﴾ أي: خزائن نعمه التي أفاضَ منها على كافة المخلوقات.

﴿إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ﴾ أي: لبخلتم مخافة الفقر، لأن عاقبة الإنفاق الفقر.

﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا﴾ مبالغاً في البخل.

ولا شك أن جنس الإنسان مجبولٌ على البخل، لأنَّه يستشعر حاجته وضعفه، والذي يتغلَّب على ما جُبل عليه من شح وبخل، ويؤدِّي ما أوجب الله عليه في ماله يكون من المفلحين: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

فالآية الكريمة تدلُّ على شدَّة بُغضهم للنبيِّ ﷺ، وشدة حسدهم له عليه الصلاة والسلام، لأنَّها وصفتهم بأبلغ درجات البخل والشح، فلو أنهم ملكوا خزائن رحمة الله تعالى التي لا تتناهى لبخلوا بها ولم ينفقوا منها شيئاً.

● **فرعون والمعجزات التسع:**

مرَّ معنا في آيات السورة أن المشركين طلبوا من النبي عليه الصلاة والسلام بعض المعجزات: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾.

وذكرتُ أنَّه سبحانه لو حقق لهم ما طلبوا، واستمرُّوا على كفرهم وجحودهم لأهلكهم بعذاب يستأصلهم، كما أهلك الأممَ الكافرة قبلهم، ولعلَّ أوضح مثال على ذلك موقف فرعون من المعجزات الكبيرة التي أيد الله تعالى بها نبيه موسى عليه السلام بعد أن طلبها فرعون من موسى، ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [الأعراف].

وتتابعت بعد ذلك المعجزات تؤيد موسى عليه السلام وتؤكِّد صدق نبوته وصحة رسالته: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٠].

فاستمر فرعون وقومه على كفرهم وعنادهم: ﴿وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٢].

وعادت المعجزات تتتابع عليهم حتى بلغت تسعاً: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٣].

هذه المعجزاتُ التي ذكرها الله تعالى في **سورة الأعراف** مفصَّلة ذكرها هنا مجملة فقال:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا (١٠١)﴾.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ والخطاب للنبيِّ عليه الصلاة والسلام. وقوله تعالى له: ﴿فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ يظهر صدق النبيِّ ﷺ للمشركين المعاندين، ويعرِّض بيهود المدينة المنورة الذين أشاروا على وفد المشركين الذي أرسلته قريش إليهم ليسألوا رسول الله ﷺ عمَّا سبق الجواب عليه في **سورة الكهف**، وعن الروح التي مرَّ ذكرها في هذه السورة.

﴿إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ أي: سُحرتَ فاختل عقلك. فردَّ عليه موسى:

﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا (١٠٢)﴾.

﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ أي: دلائل واضحة مكشوفة، فأنتَ يا فرعون في قرارة نفسك تعلم الحقيقة، ولكنَّك تنكرها تكبُّراً وجحوداً.

﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ أي: هالكاً.

﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا (١٠٣)﴾.

﴿فَأَرَادَ﴾ أي: فرعون.

﴿أَن يَسْتَفِزَّهُم﴾ أي: موسى والذين آمنوا معه.

﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ بتعذيبهم بالصلب والقتل.

﴿فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا﴾.

﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾.

﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ من بعد إغراق فرعون.

﴿لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾ أي: اسكنوها سكن المتمكِّن فيها، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧].

ويبدو أنها أرض فلسطين من بلاد الشام، لأنه سبحانه وصفها بهذا الوصف بقوله: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١]، كما مرَّ معنا عند الحديث عن أرض الإسراء.

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ أي: جميعاً، والمراد من الآخرة الكَرَّة أو الحياة أو الساعة أو الدار الآخرة. والمراد على جميع ذلك قيام الساعة(١).

واختار بعضُ المعاصرين ممَّن يتحدَّثون في التفسير أنَّ المراد من الآخرة هنا هو الإفسادة الثانية التي ذكرها الله تعالى في أول السورة عندما قال: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ [الإسراء: ٧]، وأنها ما يفعله اليهود في العصر الحاضر في فلسطين، وفسَّر قوله تعالى: ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ أي: جمعناكم في أرض فلسطين.

لكنَّ هذا الرأي كما سبق وبيَّنتُه لا يتفق مع قوله تعالى بعد أن ذكر الإفسادتين: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء: ٨] فهو يدلُّ دلالة واضحة صريحة على أن الإفسادتين حدثتا قبل نزول القرآن الكريم، والله أعلم.

- **الآيات الأخيرة:**

ثم جاءت الآيات الأخيرة في السورة كلمساتٍ حانيةٍ رقيقة تمسح على قلب النبي ﷺ مواسية ومثبتة:

---

(١) انظر: روح المعاني: ١٥/ ١٨٧.

﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾﴾.

﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ﴾ أي: القرآن الكريم، فما أنزله الله تعالى إلا لإحقاق الحق وإزهاق الباطل.

﴿وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ وما أنزله سبحانه إلا مشتملاً على الحق، ففيه الهداية إلى أقوم دين وأحكم شريعة كما مرَّ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ يبشِّرُ المؤمنين بفضله سبحانه ورحمته، وينذر الكافرين المعاندين بعذابه وعقابه.

وجاءت الآية الكريمة هنا مخاطبةً النبيَّ ﷺ مباشرةً بعد المواجهة الكبيرة التي سبق ذكرها في آيات السورة، ومنسجمةً مع وصف الله تعالى للقرآن الكريم في أول السورة: ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾﴾.

• **نزول القرآن الكريم مفرَّقاً:**

وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يكون نزولُ القرآن الكريم مفرَّقاً ومنجَّماً على حسب المراحل التي مرَّت بها الدعوة الإسلامية، والحوادثُ التي واجهت النبيَّ عليه الصلاة والسلام، فكان ذلك أدعى لتثبيت النبي ﷺ، وأسهل عليه في تبليغه للناس وقراءته عليهم، وهو من فضله سبحانه على نبيِّه عليه الصلاة والسلام، ومن الخصائص التي خصَّه بها دون سائر النبيين والمرسلين الذين أنزل الله عليهم ما أنزل من الكتب جملة واحدة، فقال سبحانه:

﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾.

﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ أي: على مهل وتُؤدة وتثبُّت، فإنه أيسر للحفظ وأعون على الفهم.

﴿وَنَزَّلْنَهُ تَنزِيلًا﴾ أي: شيئاً بعدَ شيءٍ على حسب ما تقتضيه الحكمةُ والمصلحةُ، ويقع من الحوادث والوقائع.

وفي الآية ردٌّ على اعتراض مشركي قريش على إنزال القرآن الكريم مُفرَّقاً، فقد حكى الله عنهم هذا في قوله الكريم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢].

وقد ظهر وجهٌ من وجوه إعجاز القرآن الكريم في نزوله منجَّماً ومفرَّقاً على حسب ما تقتضيه الحوادث والوقائع على مدى ثلاث وعشرين سنة، ثم في ترتيب آياته في السور هذا الترتيبَ المحكمَ المتناسق مع موضوع السورة الأساس في آياتها الأولى، وهو يدل دلالة قاطعة على أن القرآن الكريم كلام الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فمَن يستطيع أن يأتي بكلام يوافق الحوادث والوقائع التي تواجهه على مدى ثلاث وعشرين سنة، ثم بعد ذلك يجمع هذا الكلام ويؤلفه في كتاب يأتي متسقاً فيما بينه، ومحكماً غاية الإحكام؟! إنَّ ذلك فوق طاقة البشر وقدراتهم، ولا يقدر عليه إلا الخالق الحكيم سبحانه الذي أحاط بكلِّ شيء علماً أزلاً وأبداً.

- **سجود الشكر وسجود الخشية:**

وأخيراً أمرت الآياتُ الكريمةُ النبيَّ ﷺ أن يقول للكافرين تحقيراً لحالهم وتهويناً لشأنهم:

﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾﴾.

﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ﴾ أي: القرآن الكريم.

﴿أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟﴾ فإن إيمانكم لا يزيده كمالاً، وامتناعكم لا يورثه نقصاً، لأن القرآن كتاب عزيزٌ كاملٌ بنفسه ومكمِّل لغيره.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ﴾ أي: إنَّ العلماءَ الذين قرؤوا الكتب السالفة من قبل

نزول القرآن الكريم، وعرفوا حقيقة الوحي وأمارات النبوَّة، وتمكنوا من التمييز بين الحق والباطل، والمحقِّ والمبطل، ورأوا فيها نَعْتَك ونَعْتَ ما أنزل إليك:

﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ أي: يسقطون على وجوههم.

﴿سُجَّدًا﴾ تعظيماً لأمر الله تعالى، وشكراً لإنجاز ما وعد به في تلك الكتب من بَعْثة النبي ﷺ[1].

وشكراً له سبحانه أيضاً أن هداهم إلى الإيمان بخاتم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وجعلهم يدركون بعثته الشريفة، ويكونون من أُمته عليه الصلاة والسلام.

﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾﴾.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ في سجودهم.

﴿سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ﴾ عمَّا يفعل الكفَّار من التكذيب والعناد.

أو يتنزَّه ربُّنا عن خُلفِ وعده في بعْثته خاتم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ويؤكد هذا المعنى قوله بعد ذلك:

﴿إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ فلا خُلْف في وعده سبحانه.

ثم ذكر سبحانه أنهم يسجدون سجدة ثانية وهم يبكون خشية من الله تعالى، وقد زادهم سماع آيات القرآن الكريم تعظيماً لله تعالى، فامتلأت قلوبُهم بالخشوع، وعيونُهم بالدموع، فعادوا إلى السجود:

﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾.

﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾ سجود الخشية والتعظيم، وهذا يدل على شدة تأثُّرهم بسماع آيات القرآن الكريم، فكانوا كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود: ٣/ ٣٥٦.

﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

﴿وَيَزِيدُهُمْ﴾ أي: سماع القرآن الكريم:

﴿خُشُوعًا﴾.

وفي «سيرة ابن هشام»: «عن ابن إسحاق قال: قَدِمَ على رسول الله ﷺ وهو بمكة عشرون رجلاً من النصارى حين بلغهم خبرُه من الحبشةِ، فوجدوه في المسجد، فجلسوا إليه، وكلَّموه وسألوه، ورجال من قريش في أنديتهم حول الكعبة.

فلمَّا فرغوا من مسألة رسول الله ﷺ عمَّا أرادوا، دعاهم إلى الله ﷻ، وتلا عليهم القرآن، فلمَّا سمعوا القرآن فاضت أعينُهم من الدمع، ثم استجابوا لله، وآمنوا به، وصدَّقوه، وعرفوا ما كان يوصَفُ لهم في كتابهم من أمره.

فلمَّا قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام في نفر من قريش فقالوا لهم: خيَّبكم الله من رَكْبٍ، بعثكم مَنْ وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل، فلم تطمئنَّ مجالِسُكم عنده حتى فارقتم دينكم، وصدقتموه بما قال، ما نعلمُ ركباً أحمقَ منكم! فقالوا لهم: سلامٌ عليكم لا نجاهلكم، لنا ما نحن عليه، ولكم ما أنتم عليه، لم نألُ أنفسَنا خيراً»[(١)].

وتدلُّ الآية على أنَّ العلماء ينبغي أن يكونوا أكثر خشوعاً وخضوعاً لله تعالى من غيرهم، وأن تكونَ عيونُهم فيَّاضة بالدمع خشية من الله تعالى، وقد جاء في الحديث الشريف: «**لا يلجُ النارَ رجلٌ بكى من خشيةِ اللهِ تعالى حتى يعودَ اللبنُ في الضَّرْعِ**» [رواه النسائي (٦/ ١٢) والترمذي (١٦٣٣)].

- **آية العز:**

وكما بدأت آيات هذه السورة بتسبيح الله تعالى وتنزيهه عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله ووحدانيته خُتمت السورةُ بحمد الله تعالى وتمجيده وتكبيره

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ٢٩.

وتعظيمه، فله ﷻ تقدَّست أسماؤه وتعالت صفاته الأسماء الحسنى الدَّالَّة على كماله وجلاله وجماله وإحسانه، ولنا أن نسمِّيه سبحانه وندعوه بأي اسم من أسمائه الحسنى التي ذُكرت في القرآن الكريم وفي السُّنَّة النبوية الشريفة:

﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾.

﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ إذا واجهتك مصائب الحياة الدنيا الْجأ إلى الله تعالى، الْجأ إليه سبحانه في كلِّ مواجهة، وارفع إليه سبحانه يدَ الافتقار والضراعة، واستمطر بذلك تثبيته وتأييده، فأنتَ في كلِّ موقف من مواقف الحياة محتاجٌ إليه سبحانه، ومفتقر إلى فضله وَجُودِه.

وإذا دعوتَ الله تعالى باسم من أسمائه الحسنى أو وقفت بين يديه سبحانه في الصلاة فلا ترفعْ صوتك بالدعاء والقراءة:

﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ فإنَّه سبحانه سميع بصير يعلم السر وأخفى.

﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ بحيث لا تُسْمِعُ من معك من المؤمنين.

﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ أمراً وسطاً، وهذا يدل على أنَّه يستحَبُّ في الدعاء وقراءة القرآن الكريم عدم رفع الصوت فوق الحاجة.

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾.

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ كما يزعم النصارى الذين قالوا: المسيح ابن الله، واليهود الذين قالوا: عزير ابن الله، والمشركون الذين قالوا: الملائكة بنات الله، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ أي: في الربوبية، فهو سبحانه وحدَه الخالق المالك المدبر لجميع شؤون خلقه.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِيٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ أي: إنَّه سبحانه غني لا يحتاجُ إلى أحد، وجميع الخلق محتاجون إليه سبحانه، وموالاته سبحانه لعباده المؤمنين مَحْضُ فضلٍ منه سبحانه لينصرَهم ويمنعَهم.

﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ أي: عظِّمه سبحانه تعظيماً يليق بجلاله وكماله.

وقد سمَّى رسول الله ﷺ هذه الآية الكريمة: آية العز. [رواه أحمد (٣/ ٤٣٩) والطبراني (٢٠/ ١٩٢)].

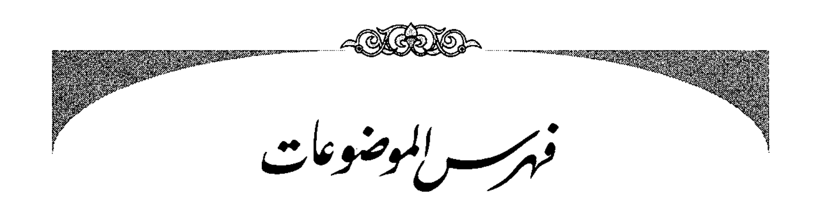
وكان ﷺ يعلِّمُ هذه الآيةَ الصغيرَ من أهله والكبيرَ(١).

وتنفيذاً لأمر الله ﷻ في آية العز أقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إلٰه إلا الله، والله أكبر، وأسأله سبحانه الثبات على الإيمان.

وصلَّى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه، وسلم تسليماً كثيراً، والحمد لله أولاً وآخراً.



(١) انظر: تفسير ابن كثير: ٣/ ٧٠.



فهرس الموضوعات

تفسير سورة هود

المَسؤُوليَّةُ والجَزَاءُ في سُورَةِ هُود

تفسير سورة يوسف

الوَحْيُ والنُّبُوَّةُ والعِلْمُ في سُورَةِ يُوسُف

تفسير سورة الرعد

الأسْبَابُ والمُسَبَّبَاتُ في سُورَةِ الرَّعْد

تفسير سورة إبراهيم

الدَّعْوَةُ والهِدَايَةُ في سُورَةِ إِبْرَاهِيم

تفسير سورة الحِجْر

الإِنْسَانُ بَيْنَ الأَمَلِ وَالأَجَلِ في سُورَةِ الحِجْرِ

تفسير سورة النحل

التَّوْحِيدُ والشُّكْرُ في سُورَةِ النَّحْل

تفسير سورة الإسراء

المُوَاجَهَةُ والتَّثْبِيتُ في سُورَةِ الإِسْرَاءِ

